منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موسوعة الأنبا غريغوريوس

٢- اللاهـــوت الأدبى

للمتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمي

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

في الذكرى السنوية الثانية

للعالم القديس المتنيح الأنبا غريغوريوس

موســـوعة الأنبا غريغوريوس

٢ - اللاهوت الأدبى

بقلم

المتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

الكتاب : موسوعة الأنبا غريغوريوس - ٢ - اللاهوت الأدبى.
المؤلف : المتنيح الأنبا غريغوريوس.
إعداد : الإكليريكى منير عطية.
الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس.
دير الأنبا رويس بالعباسية مصر ت: ٦٨٢٤٩٦٢ - ٤٨٨٢٥٢٢.
المطبعة : شركة الطباعة المصرية ت: العبور ٦١٠٠٠٥٨٩.
تصميم الغلاف : الفنان عادل لبيب.
الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت: ٤٨٢٠٩٠٣
رقم الإيداع بدار الكتب : ١٥٣١٢/ ٢٠٠٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

نيافة الحبر الجليل المتنيح الأنبا غريغوريوس

مقـــدمة

هذا هو الجزء الثانى من موسوعة الأنبا غريغوريوس ويحتوى على مجموعة مذكرات فى اللاهوت الأدبى، كتبها المتنيح الأنـبا غريـغــوريوس (الدكتور وهيب عطا الله جرجس) بعد تعيينه معيداً بالكلية الإكليريكية فى عام ١٩٤٤.

وقد أشار لذلك صاحب القداسة البابا شنودة الثالث، فى كلمة وداعه الأخير فى اكتوبر ٢٠٠١، فقال غبطته : « بدأ التدريس فى الكلية الإكليريكية، ودرّس مواداً جديدة لم ينافس فيها أحداً... فكان يدرّس اللاهوت الأدبى، وكان يدرّس الفلسفة، وله مؤلف كبير فى اللاهوت الأدبى وفى الضمير والمسئولية الأدبية، وكان يدرّس الفلسفة بكل أنواعها، درس الفلسفة الغربية، والفلسفة الشرقية، والفلسفة اليهودية والوجودية والإشتراكية وله كتب فى كل هذا، مع فلاسفة مدرسة الأسكندرية أيضاً مثل أثيناغوراس وبنتينوس ومن فلاسفة الغرب أغسطينوس، وفى نفس الوقت الذى درّس فيه اللاهوت الأدبى والفلسفة، درّس أيضاً اللاهوت المقارن، وبخاصة اللاهوت المقارن القديم، وله كتب فى الأبيونية، والأبوليناريوسية والنسطورية وغيرها.... ».

واستمرت تطبع هذه المذكرات بنظام الماستر، أى لا يزيد عدد الطبعة عن خمسمائة نسخة، ويعاد طبعها تباعاً حتى الآن.

ورأينا أن نعيد طباعتها بطريقة أفضل، بعد إعادة تجميعها وتبويبها فى مجلدات، مع إضافة الأسئلة المختلفة حول الموضوع وإجاباتها.

وسنفرد أجزاء منها لتضم سير من شخصيات الكتاب المقدس، ومن القديسين، وكذلك الدراسات الفلسفية وترجمة لحياة بعض الفلاسفة، وكذلك ستكون أجزاء للموضوعات الكنسية المتنوعة، والموضوعات العامة بعد تبويبها، بحيث تشمل أجزاء هذه الموسوعة كل كتابات المتنيح الأنبا غريغوريوس التى لم تنشر أو نفذت بعد نشرها.

وذلك لكى نوسع دائرة الإستفادة منها للجميع، كما نحمى هذا التراث من الضياع، ولتأخذ هذه المطبوعات رقم إيداع، لحماية هذه المطبوعات من النشر عن أى طريق آخر غير مكتبة الأنبا غريغوريوس، التى تكرم مشكوراً صاحب الغبطة والقداسة البابا شنودة الثالث، وخصص لها مكاناً، بالدور الثالث بمبنى الأنبا رويس بالبطريركية الجديدة بالعباسية.

ها نحن قد بذرنا البذرة الأولى، والرب وحده القادر أن ينميها، ويكلل مشروعنا هذا بالنجاح بصلوات صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث، أدام لنا الرب حياة قداسته، ومتعنا الرب برئاسته للكنيسة ولنا، أباً وراعياً، وحفظ الله قداسته بكل سلامة متمتعاً بكامل الصحة والعافية، ونفعنا الرب ببركة صلوات غبطته.

الإكليريكي منير عطية

إهـــــــــداء

إلى القديس العظيم بطل الأرثوذكسية الأشهر
البابا أثناسيوس الرسولى

إليك يا سيدى البابا نهدى سلسلة المباحث اللاهوتية والعقائدية، لأنها من وحيك وإلهامك، وبفضل توجيهك وإرشادك، وثمرة لكفاحك وجهادك!

فيك رأينا أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة معاً!

ومنك تعلمنا كيف يكون الوفاء للحق، والاستمساك بالتقوى، والحرص على وديعة الإيمان.

ولقد وهبك الرب عقلاً شاخصاً فى الإلهيات، فكان تعليمك سليماً كل السلامة، وكان تعبيرك دقيقاً غاية الدقة!

ولم يكن طريقك سهلاً ... كان قولك مؤذياً لمسامع المنحرفين، وكان شخصك ثقيلاً على أنفاسهم الفاسدة، فكرهوك ولعنوك ... ومع ذلك لم يقووا على أن يقاوموا النعمة الساكنة بجنانك، أو يناقضوا الحكمة الناطقة على لسانك!

أثاروا عليك حرباً شعواء وطاردوك ونفوك، ولكنك صمدت وقاومت وأخيراً غلبت ونجحت، لأن الحق الذى فيك أعظم من الباطل الذى فيهم !

لولاك يا سيدى البابا لكان الإيمان الذى عندنا غير الإيمان الذى تسلمته أنت من أسـلافك أيها البطريرك الرسولى!

لهذا نحييك تحية للفضيلة فى شخصك، ونطأمن رأسنا أمام عظمة أبوتك، تقديراً لتاريخك، وإقتداء بسيرتك فى الإيمان، يا حامى الإيمان!

من ابنك

غريـــغوريـــوس

باخوم المحرقى - وهيب عطا الله

فهرس الموضوعات

مقدمة ٧
إهداء ٩
مقدمة فى علم اللاهوت الأدبى ١٠
تعريفه ١٠
الفرق بينه وبين علم الأخلاق ١٠
أهميته ١١
الشريعة الأدبية ١٢
الشريعة الطقسية ١٢
الشريعة السياسية ١٣
موقف المسيحية من شريعة العهد القديم ١٤
أقوال الرسل وتصرفاتهم ١٨
شريعة العهد الجديد مكملة لشريعة العهد القديم ١٩
الضمير ٢٩
متى ظهر الضمير فى الإنسان ٣٠
تعريف الضمير ٣١
الضمير فى اشتقاقه اللغوى ٣٢
الضمير فى تحليل لفظه ومدلوله ٣٣
ألقاب الضمير وأسماؤه ٣٤
وجود الضمير عند جميع الناس وفى مختلف مراحل العمر ٣٩
مصدر الضمير.. ٤٦
الضمير الأدبى والشعور النفسى ٤٨
تمايز الضمير الأدبى وتغايره ٥٠
١ ـ تغاير الضمير فى الفرد الواحد ٥٠
٢ ـ تغاير الضمير من فرد إلى فرد ٥٣
أسباب اختلاف الضمير ٥٥
٣ ـ تغير الضمير من أمة إلى أمة ٥٩

٤ ـ تغاير الضمير من جيل إلى جيل ٦١
تعليل هذا التطور وتفسيره ٦٣
النتائج التى نستخلصها من تمايز الضمير وتغايره ٧٢
الضمير فى عهد الشريعة ٧٣
الضمير فى نور المسيح ٧٤
عوامل ضعف الضمير ٨٦
١ ـ الإهمال ٨٦
٢ ـ المخالفة والعصيان ٨٧
٣ ـ الاستسلام للشهوات ٨٨
٤ ـ تقريب مسافة الفرق بين الحلال والحرام ٨٩
٥ ـ التأمل فى الأمثلة الشريرة والصفات الرديئة ٩٠
عوامل نمو الضمير ٩٢
١ ـ الطاعة لصوت الضمير ٩٢
٢ ـ ازدياد المعرفة ٩٢
٣ ـ التأمل فى أفعالنا وأقوالنا قبل وبعد حدوثها ٩٣
٤ـ التأمل فى الفضيلة والفضلاء ٩٤
٥ ـ ممارسة الفضائل وأفعال الخير والبر ٩٥
مهمة الضمير ووظيفته: ٩٧
أ ـ قبل الفعل .. مرشد ودليل ٩٧
ب ـ أثناء الفعل ... شاهد ورقيب ٩٨
جـ ـ بعد الفعل.. . قاضى وحكيم ٩٨
سلطان الضمير ٩٩
حقيقة الضمير ١٠١
عناصر الضمير ١١٤
أولاً: العنصر العقلى ١١٤
ثانياً: العنصر الشعورى أو العاطفى ١١٥
أ ـ عواطف تتصل بأفعالنا قبل حدوثها ١١٦
ب ـ عواطف تتصل بأفعالنا بعد حدوثها ١١٨

جـ ـ عواطف تتصل بأفعال الآخرين ١٣٢
ثالثاً: العنصر الإرادى أو الفعال ١٣٥
المسئولية الأدبية ١٤١
مناط المسئولية ١٤٢
أولاً: بالنسبة للفاعل ١٤٢
١ ـ من حيث أنه كائن عاقل ١٤٢
٢ ـ من حيث أنه كائن حر ١٤٣
٣ ـ من حيث هو مريد ١٤٣
ثانياً: بالنسبة للفعل «أى من حيث قوامه الأدبى» ١٤٧
مفارقات المسئولية ١٤٩
أولاً: الظروف الشخصية ١٤٩
أ ـ الفاعل: (من؟) ١٤٩
١ ـ سن الفاعل ١٤٩
٢ ـ جنس الفاعل ١٥٠
٣ ـ بنية الفاعل واستعداده الجسمانى ١٥٠
٤ ـ الفاعل فى مستواه الذهنى أو الفكرى ١٥٢
٥ ـ الفاعل من حيث استعداده النفسى ١٥٢
٦ ـ الفاعل وديانته ١٥٣
٧ ـ الفاعل من حيث حصانته المادية ١٥٣
٨ ـ الفاعل من حيث مكانته الأدبية ١٥٤
٩ ـ الفاعل من حيث مكانته العلمية ١٥٥
١٠ ـ الفاعل ومكانته الاجتماعية ١٥٧
ب ـ كيفية الفعل: (كيف؟) ١٥٧
جـ ـ أسباب الفعل: (لِمَ؟) ١٦١
د ـ المفعول به (لِمَنْ؟) ١٦٢
١ ـ طبيعة المفعول به ١٦٢
٢ ـ سن المفعول به ١٦٤
٣ ـ جنس المفعول به ١٦٤

٤ ـ ديانة المفعول به ١٦٥
٥ ـ المفعول به وحصانته المادية ١٦٥
٦ ـ المركز المالى للمفعول به ١٦٦
٧ ـ المفعول به ومركزه الروحى ١٦٦
٨ ـ المفعول به ومركز القرابة ١٦٧
٩ ـ المفعول به ومركزه الأدبى ١٦٩
١٠ ـ المفعول به ومركزه الاجتماعى ١٦٩
١١ ـ المفعول به واستعداده الجسمانى ١٦٩
١٢ ـ المفعول به واستعداده النفسانى ١٦٩
١٣ ـ المفعول به واستعداده العقلى ١٧٠
هـ ـ الفعل: (ماذا؟) ١٧٠
١ ـ من حيث حقيقته ١٧٠
٢ ـ من حيث نتيجته ١٧١
٣ ـ من حيث كيفيته ١٧١
و ـ المكان: (أين؟) ١٧٢
ز ـ الزمان: (متى؟) ١٧٣
الضمير المستقيم أو الصالح ١٧٥
الضمير الضال ١٧٦
الضمير بين ظلمة الشك ونور اليقين ١٨١
الضمير الضيق أو الموسوس ١٩٠
الضمير الواسع ١٩٨
الضمير بين الاحتمال واليقين ١٩٩
الوصايا العشر بين العهدين ٢٠٣
الوصايا العشر ٢١١
العهد الجديد متمم للعهد القديم ٢١٨
خطأ الفصل بين العهد القديم والعهد الجديد ٢٢٥
الربط بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكنيسة الأرثوذكسية ٢٢٥
١ ـ فى الصلوات ٢٢٦

٢ ـ فى الطقوس ٢٢٦
٣ ـ التتميم بمعنى مد المعنى إلى أبعاده كلها........................ ٢٢٨
لا تقتل ٢٢٨
لا تزن ٢٣٠
لا تحنث ٢٣٣
الوصية الأولى: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك...» ٢٣٦
تأملات فى الوصية الأولى ٢٥٤
عقيدة التوحيد ٢٥٤
التوحيد والتثليث ٢٦٨
الناحية الروحية للوصية الأولى ٢٧٧
الله متكلنا الوحيد ٢٧٩
عدم اللجوء لغير الله بالصلاة والعبادة ٢٨٢
النذور ٢٨٣
موضوعات وإجابات على أسئلة ٢٨٩
١ ـ شريعة الله الأدبية ٢٩٠
٢ ـ سيناء الباطنية ٢٩٢
٣ ـ شريعة سيناء ٢٩٥
٤ ـ أنا هو الرب إلهك ٢٩٨
٥ ـ أنا هو الرب إلهك (٢) ٣٠١
٦ ـ الزنى الروحى ٣٠٤
٧ ـ الله اسمه يهوه ٣٠٦
٨ ـ الله هو بدء الوجود وليس له بداءة ٣١٠
٩ ـ من الذى قام بخلق العالم؟ ٣١٢
١٠ ـ هل لله وجود فى جهنم؟ ٣١٤
١١ ـ هل يندم الله؟ ٣١٥
١٢ ـ لماذا خلق الله الإنسان؟ هل خلقه للعذاب؟ ٣١٨
١٣ ـ فعل السحر ٣٢١
١٤ ـ ما هو أساس موضوع البسْلة؟ ٣٢٦

١٥ ـ قوانين الكنيسة تمنع منعاً باتاً اللجوء إلى السحرة ٣٢٨
١٦ ـ إن السحر يقوى على غير المحصنين بالصلوات والأسرار ٣٣٠
١٧ ـ لا تنزعج من فعل السحر ٣٣٢
١٨ ـ السحر يبطل بالصلوات المقدسة ٣٣٣
١٩ ـ أحذرك من استخدام كتاب «دلال الدلال» ٣٣٤
٢٠ ـ استعمال البخور فى المنازل ٣٣٦
٢١ ـ السبب فى متاعبك من معاكسات الأرواح الشريرة ٣٣٧
٢٢ ـ حرب من العالم السفلى ٣٣٨
٢٣ ـ نحذركم من الذهاب إلى السحرة ٣٣٩
٢٤ ـ حقيقة الشبح الأسود ٣٤٠
٢٥ ـ حقيقة ما يقال عن (المخاوين للشياطين) ٣٤١
٢٦ ـ صور أشخاص تطارده ٣٤٤
٢٧ ـ هذه المتاعب من معاكسات الأرواح الشريرة ٣٤٦
٢٨ ـ معاكسات الشيطان والانتصار عليها ٣٥٠
٢٩ ـ هل قراءة الكف علم؟ ٣٥٢
٣٠ ـ القسمة والنصيب ٣٥٥
٣١ ـ هل الزواج قسمة ونصيب؟ ٣٦٣
٣٢ ـ هل الرزق قسمة ونصيب أم شطارة؟ ٣٦٦
٣٣ ـ قبول الظلم لرجل الدين أفضل ٣٦٩
٣٤ ـ الرأى المسيحى فى طريقة ذبح الحيوانات ٣٧٠
٣٥ ـ حرية النفس البشرية ٣٧٢
الفهارس ٣٨٧
١ ـ فهرس النصوص المقتبسة من الكتاب المقدس ٣٨٧
٢ ـ فهرس الموضوعات ٣٩٥

مقدمة فى اللاهوت الأدبى
علم اللاهوت الأدبى

تعريفه:

اللاهوت الأدبى هو هذا الفرع من علوم اللاهوت الباحث فى الآداب والأخلاق التى ينبغى أن يلتزم بها المؤمن المسيحى فى حياته الخاصة والعامة، فى علاقته بالله، وصلته بالناس فهو يبحث فى الفضيلة والرذيلة، فى الخير والشر، فى الجائز وغير الجائز وفقاً لتعاليم الديانة المسيحية، ويشرح موقف المسيحية إزاء كل مشكلة من المشاكل الأخلاقية التي تقف بإزاء الفرد فى المجتمع.

الفرق بينه وبين علم الأخلاق:

يلتقى اللاهوت الأدبى مع علم الأخلاق، والفلسفة الأخلاقية، فى أن هذه العلوم جميعاً تبحث فى الأخلاق والآداب التى يجب أن يتحلى بها الإنسان، فى شخصه، ونحو غيره من الناس، إلا أن علم الأخلاق يبنى قواعده على مبادئ الشريعة الطبيعية التى يجدها الإنسان فى نفسه ويدعمها بأقوال الأخلاقيين وخبراتهم، من جميع الناس على إختلاف عقائدهم ودياناتهم، فعلم الأخلاق يبحث الأخلاق العامة التى اصطلح عليها فى جميع الديانات والمذاهب، ولا يدخل فى التفصيلات التى يقتضيها النظر فى كل ديانة على حدة.

وليس كذلك علم اللاهوت الأدبى، فإنه علم مسيحى يصدر على مسلمات علم اللاهوت النظرى المسيحى فى وجود الله وطبيعته وصفاته، وسمو الديانة المسيحية على غيرها من الديانات، وإن الكتاب المقدس هو الكتاب الموحى به من الله، كما أنه لا يكتفى بالنظرة الأخلاقية العامة فى الفضائل والرذائل وحل مشكلات الحياة الأدبية، وإنما يمتد إلى بيان الشريعة المسسيحية وأحكامها ويدخل فى تفصيلات ليحدد موقف المسيحية بإزاء مشاكل الفرد ومشاكل المجتمع فى دائرة الأخلاق والآداب، وعلى ذلك فإنه يستعين بالنصوص المقدسة من الكتاب المقدس ويؤيدها بأقوال الشراح من علماء الكنيسة المسيحية وآبائها وقديسيها، فهو علم مسيحى له طابعه الذى يميزه عن علم الأخلاق العام وعن علوم الأخلاق فى الديانات غير المسيحية.

ولما كانت ثمت نفحات روحية خاصة تختلف بإختلاف العقيدة الدينية، وكانت هناك فروق بين المذاهب المسيحية فى بعض العقائد الدينية، فإن اللاهوت الأدبى الأرثوذكسى يختلف قليلاً أو كثيراً عن اللاهوت الأدبى الكاثوليكى واللاهوت الأدبى البروتستانتى، فى بعض الإتجاهات العامة أو فى بعض التفصيلات التى يجب على الباحث أن لا يهملها فى حسابه.

أهميته:

لا غنى للمسيحى عن اللاهوت الأدبى الذى يشرح له الشريعة المسيحية ويحدد موقفها من الأفكار أو الأقوال أو الأعمال التى يبديها أو يقوم بها هو أو غيره من الناس فى المجتمع ليعرف صوابها من خطئها، وخيرها من شرها، وهى معرفة ضرورية لمن يريد أن يقتاد حياة روحية سليمة لخير المجتمع وخيره هو فى الحياتين الحاضرة والآتية...

على أن علم اللاهوت الأدبى لازم كذلك وبصفة خاصة للكاهن بوصفه معلماً للفضيلة يستعين به فى مواعظه العامة وتوجيهاته الخاصة لتلاميذه فى سر الاعتراف.

والاعتراف طب روحانى فيه شكوى وفيه علاج، والمريض إذا أحسن الشكوى أعان الطبيب على تشخيص الداء، وبالتالى على وصف العلاج، ولما كان بعض المرضى لا يجيد الشكوى، وقد يخفى أو ينسى أموراً لها أهميتها فى خطة العلاج، فإن المريض قد يضلل الطبيب فى علاج مثل هذه الأمراض الباطنية المستورة، فالطبيب الماهر هو الذى يجيد الإصغاء لشكوى المريض ثم يجيد فن السؤال الذى به يتعقب أصل الداء قبل أن يصف الدواء، وفضلاً عن ذلك يجب أن يكون قادراً على أن يجيب إجابة صحيحة على الأسئلة التى يوجهها إليه مريضه أو تلميذه فى كرسى الاعتراف، وعلى ذلك يجب أن يتوافر فى المرشد صفات خاصة بدونها لا يصلح لمهمته فى علاج النفوس وتطبيبها منها:

أولاً: أن يكون مشهوداً له بالفضيلة والقداسة.

ثانياً: أن يكون عالماً بالشريعة متفقهاً فيها.

ثالثاً: أن يكون رجلاً محنكاً خبيراً بأدواء النفس وعلاجها.

رابعاً: أن يكون فى سن الوقار، لا يقل عمره عن الخمسين.

ومع أن جميع الأسرار المقدسة قائمة على استحقاقات السيد المسيح، ولا يتوقف فعلها على صلاح الكاهن أو طلاحه، لكن سر الاعتراف بالذات يرتبط بشخص الكاهن، لا من حيث سلطان السر فى الحل والغفران، بل من حيث العلاج الذى يتوقف على أهلية الكاهن للقيام بمهمة المرشد فى سر الاعتراف.

لهذا كله كان اللاهوت الأدبى ضرورياً للكاهن المرشد، وكان لزاماً على طلبة العلوم اللاهوتية الذين يتأهلون للرعاية أن يدرسوا هذا العلم ويتفقهوا فيه لعلهم يصبحون أكثر قدرة على مباشرة مسئوليات الرعاية الفردية فى سر الاعتراف عندما يقبلون دعوة الكهنوت الشريفة...

وإذا كان اللاهوت الأدبي يصدر في بحوثه عن شريعة الله تعالى المسطورة في الوحي الإلهي، فقد تعين علينا أن ندرس هذه الشريعة المقدسة التي أعلنها الله وأمر بها بطريقة علنية لأول مرة إلى موسى النبي، الذي أبلغها بدوره إلى الأمة الإسرائيلية، وسجلها في الكتاب المقدس، ولهذا سميت الشريعة «شريعة موسى»، وسميت أسفار موسى الخمسة بأسفار الشريعة أو «التوراة»...

أما هذه الشريعة الإلهية والناموس السماوي، فقد تضمن أموراً كثيرة وتناول نواحي متعددة يمكن أن نجملها في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الشريعة الأدبية:

ويشمل الأوامر الخاصة بعبادته تعالى، والآداب التي يلتزم بها الإنسان نحو جلاله تعالى، ثم الآداب التي يجب أن يتجمل بها نحو غيره من الناس، وهذا القسم من الشريعة هو ما يعرف «بالشريعة الأدبية» ... وهي الهيكل العظمي لعلم اللاهوت الأدبي، ونجدها مسطورة على الخصوص في الإصحاح العشرين من سفر الخروج ومفصلة في سفر التثنية....

القسم الثاني: الشريعة الطقسية:

وهو الخاص بالطقوس والترتيبات المتعلقة بشئون العبادة: من حيث المكان وكيفية بنائه وتصميمه الداخلي والخارجي، وما يقرب فيه من بخور وذبائح وقرابين ومن هم المقربون، وما هو إختصاص الكهنة ورئيس الكهنة وباقي اللاويين، وما هو أسلوب إختيارهم للكهنوت، وشروط هذا الإختيار ، ثم أنواع الذبائح التي يقدمها الشعب والكهنة، وما هي الظروف والشروط التي تراعى في تقديم هذه الذبائح ... ثم الأحكام التي يجب مراعاتها في المأكل والملبس والمسكن، وما هي الحيوانات الطاهرة والحيوانات غير الطاهرة، وما هي شروط التطهير، ثم أنواع القرابين والبكور والعشور والنذور ثم الأصوام المفروضة والأعياد المقدسة.

وقد استغرق هذا القسم من الشريعة ما بقي من سفر الخروج ، أي إبتداء من الإصحاح الرابع والعشرين حتى الأربعين، ثم سفر اللاويين بأكمله، وجزءاً كبيراً من سفر العدد ثم التثنية بعد ذلك، ولما كان هذا القسم خاصاً بالطقوس فإنه يسمى «الشريعة الطقسية»...

القسم الثالث: الشريعة السياسية:

وهى التى تنظم السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، أما السياسة الخارجية فهى العلاقات التى تربط الشعب الإسرائيلي أو شعب الله بغيره من شعوب الأرض، والروح التى يجب أن تسود هذه العلاقات، وأما السياسة الداخلية فتشتمل على علاقات الأفراد ببعضهم البعض فى داخل الأمة الإسرائيلية، وتبحث فى الهيئة الحاكمة وكيفية تأليفها ثم المعاملات المدنية من بيع وشراء وإيداع وإعارة وقرض ورهن وعقد، ثم الأحوال الشخصية وتتضمن عقد الزواج. وشروط إختيار الزوجة، ودرجات القرابة، وعدد الزوجات التى يجوز أن تكون فى عصمة الرجل ، والطلاق وأحكامه وشروطه وموانعه، والمواريث وكيفية توزيعها ... ثم يشتمل هذا القسم من الشريعة أيضاً على العقوبات التى يجب تطبيقها على أفراد الأمة الإسرائيلية عند مخالفتهم لأوامر الله، أو عندما يسيئون معاملة بعضهم بعضاً، وهى إما عقوبات مباشرة كالأمراض والأوبئة والمجاعات والسقوط فى أيدى الأعداء والنفى والسبى، أو عقوبات غير مباشرة وتتناول العقوبات التأديبية كالجلد، والعقوبات الجسمانية كالقتل والرجم، والعقوبات المادية كالتعويضات المالية أو التعويضات الكفارية، أو التعويضات العينية...

هذه الشريعة السياسية نجدها واضحة فى سفر الخروج، إبتداء من الفصل الحادى والعشرين، ويبدأ بهذه العبارة «.... وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم» ... وقد استغرقت ثلاثة فصول من سفر الخروج كما توسع فيها موسى النبى فى سفر التثنية..

موقف المسيحية من شريعة العهد القديم

يمكننا بعد ذلك أن نتساءل عن السبب الذى من أجله ندرس هذه الشرائع فى علم اللاهوت المسيحى، أليست هى شرائع خاصة بالأمة الإسرائيلية فلماذا يدرسها المسيحيون؟؟ وإذا كانت شرائع أمر الله بها فى العهد القديم، فما وجه الحاجة إليها فى العهد الجديد؟؟.. هنا يجدر بنا أن نميط اللثام عن حقيقة مسيحية هامة.. يجهلها الكثيرون على الخصوص رجال الشيع البروتستانتية ومن تأثر بهم.. وهى أن المسيحية ليست ديانة جديدة كل الجدة ولا هى ديانة قامت على أنقاض الديانة اليهودية، وإنما المسيحية هى هى بذاتها الديانة اليهودية ولكن فى صورة كاملة، والديانة اليهودية هى هى بعينها الديانة المسيحية ولكن فى صورة مجملة ... ليست إذن الديانتان متعارضتين أو متناقضتين ... فإله العهد القديم هو إله العهد الجديد، ويستحيل أن يأمر الله فى المسيحية بما يناقض اليهودية.. إذ هى شريعة الله وليست شريعة إنسان.. والله لا يتغير ولا يتبدل، السماء والأرض تزولان وكلمة من كلامه لا تزول... هذا الموقف هو الذى أعلنه السيد المسيح بقوله: «لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء.. ما جئت لأنقض بل لأكمل» (١) ... وهذا التعليم هو الذى يجب أن نتوسع فى فهمه فنرى ما يؤيده من تصرفات ربنا يسوع المسيح وتصرفات رسله الأطهار من بعده ... وهذا ما حدا بالمسيحيين أن يضموا العهد الجديد إلى العهد القديم فى كتاب واحد يؤمنون به كله... ويعتبرون أنفسهم ملزمين بالشريعتين معاً...

أما عن السيد المسيح... فها هو تعالى يطبق فى حياته الخاصة على الأرض جميع أحكام الشريعة القديمة... فيسمح بأن يختتن فى اليوم الثامن لمولده، وأن تقدم أمه العذراء الطاهرة ما أمرت به الشريعة لتطهيرها، زوجى يمام أو فرخى حمام، فإن قيل هذا ما أجراه غيره له ولم يجره هو بنفسه، نقول، وفضلاً عن ذلك أنه تقدم إلى يوحنا المعمدان وهو فى الثلاثين من عمره بالجسد ليعتمد من يوحنا، فلما اعتذر يوحنا بأن السيد فى غير حاجة إلى العماد، أجاب المخلص وقال: «اسمح الآن... لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر» حينئذ سمح له.... (٢)

ولما صعد السيد على الجبل وكان هناك أربعين يوماً يجرب من إبليس، ما كان يجيب على الشيطان بنصوص من عنده، مع أنه رب النطق والكلام، وكان فى مقدوره أن يجيب بأفصح مما ورد فى العهد القديم على لسان موسى وغيره من الأنبياء، لكنه آثر أن يستعين بالنصوص القديمة ليبين موقفه من الشريعة القديمة فهى لا زالت شريعتنا فى العهد الجديد كما كانت فى العهد القديم نستعين بنصوصها ونرتب أعمالنا وفقاً لأحكامها ....

---

(١) مت ٥: ١٧. (٢) مت ٣: ١٥.

وهكذا جاوب الأبرص بعد أن شفاه «إذهب أر نفسك للكاهن، وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم» (١)

ولسنا ننسى إقتباساته الكثيرة من أسفار موسى والأنبياء وكيف كان يقول لمن يسأله عن صلاح يعمله ليرث به الحياة الأبدية: «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، قال له أية الوصايا، فقال يسوع: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك» (٢) وقد كانت هى الوصايا التى احتوتها شريعة العهد القديم...

وماذا نقول أيضاً لتأييد هذه النظرية الهامة؟؟ أنقول أنه كان يحث اليهود قائلاً: فتشوا الكتب (٣) أو أنه كان ينبههم مراراً بقوله: «أفما قرأتم ما قيل من قبل الله» (٤) بل انظر إلى تصرفاته إزاء الأعياد اليهودية وإزاء الفصح اليهودى وكيف تممه بجميع طقوسه ومراسيمه... ما كان منها بحسب شريعة موسى، وما أضافه اليهود إليها بعد موسى، ولقد تمم جميع الطقوس والتسابيح التى كان التقليد يقضى بتلاوتها عقب الفصح: «ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون» (٥).

هذا وإن السيد المسيح لم يأمر فقط بإحترام شريعة العهد القديم فحسب، ولكنه أمّن أيضاً على تعاليم الكتبة والفريسيين وأمر تلاميذه بالخضوع لأحكامها : «قال الإنجيلى: حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلاً: على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون... فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا» (٦).

ولا يعترض صدق هذه القضية، ما نراه من موقف السيد المسيح فى عظته على الجبل حيال شريعة العهد القديم، مما قد يحمل فى ظاهره على أن السيد المسيح أتى بشريعة جديدة مخالفة فى حقيقتها لشريعة العهد القديم، على أننا لا نستطيع أن ننكر أن نظرة عابرة غيرفاحصة يمكن أن تسلم إلى هذه النتيجة، فنحن نقرأ فى أكثر من موضع قوله الربانى: سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم، ولكننا عندما نتأمل ملياً فيما عناه السيد المسيح بقوله هذا، يمكن أن نستنتج أنه تكلم بما يكمّل تلك الشريعة لا بما ينقضها....

---

(١) مت ٨: ٤.
(٢) مت ١٩: ١٧ - ٢٠.
(٣) يو ٥: ٣٩.
(٤) مت ٢٢: ٣١.
(٥) مت ٢٩: ٣٠.
(٦) مت ٢٣: ١ - ٣.

خذ مثلاً قوله، له المجد: «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث، بل أوف للرب أقسامك، وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتة ...بل ليكن كلامكم نعم نعم ... لا لا.. وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (١).

فهل ما أمر به السيد المسيح يتناقض مع ما جاءت به الشريعة القديمة؟؟ قد يكون هناك تناقض لو أن الشريعة القديمة قالت لا تحنث... فقال السيد المسيح: احنث ... أو لا تف.. أما أن يقول: لا تحلفوا... فهذا النهى هو عن الحلف لا عن الوفاء... أما عن الوفاء فهو يطالب به بدليل قوله: ليكن كلامكم نعم نعم لا لا، أى أنه لم يتعرض لنقض الشريعة القديمة، بل جاء لينبه لشئ آخر لم يلتفت إليه القدماء، أو لم يكن من المناسب أن يعرفه الشعب قديماً، ولكنه يستطيع أن يعرفه الآن... قال الله قديماً: لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً (٢) ...وقال أيضاً فى سفر اللاويين: «ولا تحلفوا باسمى بالكذب، فتدنس اسم إلهك، أنا الرب» (٣).

وقال كذلك فى سفر العدد: «إذا نذر رجل نذراً للرب، أو أقسم قسماً أن يلزم نفسه بلازم، فلا ينقض كلامه» (٤) ... وقال النبى موسى مفسراً هذه الوصية فى سفر التثنية: «إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه، لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية، ولكن إذا امتنعت أن تنذر لا تكون عليك خطية، ما خرج من شفتيك احفظ واعمل كما نذرت للرب إلهك تبرعاً كما تكلم فمك» (٥).

وإذن فالوصية الثالثة تطالب الإنسان أن يفى بقسمه، وأن لا يحلف باسم الله كذباً وباطلاً، فهى لم تمنع عن القسم بل منعت عن عدم الوفاء بالقسم، أما السيد المسيح فلم يبح خلف الوعود، بل أراد أن يجل الاسم الكريم عن الترديد الباطل، وإقحامه في المعاملات والمكالمات، وهذا يوافق نص شريعة سيدنا «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً» والكلام منصب على النطق بالباطل، فإذن ليس بين الشريعتين أدنى تناقض أو تعارض ومع ذلك فقد أتى السيد بجديد» ....

كان القسم فى العهد القديم نوعاً من التعبد لله، وكان الله يوجبه فى العهد القديم لضرورة ملحة، فقد كان مستواهم الخلقى ضعيفاً، وكانوا على صلة القرب بأمم تُقْسم بمعبوداتها،

---

(١) مت ٥ : ٣٣ ـ ٣٧.
(٢) خر ٢٠ : ٧، تث ٥ : ١١.
(٣) لا ١٩ : ١٢.
(٤) عدد ٣٠ : ٢.
(٥) تث ٢٣ : ٢١ ـ ٢٣.

فكان لابد أن يطالب النبى موسى شعب إسرائيل، بأن يقسموا بالله علامة تعبدهم لله دون سائر آلهة الأمم، ثم لكى يصَدُقوا، خوفاً من الغضب الذى ينهال عليهم لو حلفوا بالكذب، ولذلك ورد فى سفر الخروج: إذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاه أو بهيمة ما للحفظ، فمات أو انكسر أو نهب وليس ناظر، فيمين الرب تكون بينهما، هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه؟» (١) وقال بشأن المرأة المتهمة بالخيانة الزوجية: «ويستحلف الكاهن المرأة» (٢) ... وقال فى إعتبار القسم بالله عبادة: «فاحترز لئلا تنسى الرب الذى أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، الرب إلهك تتقى وإياه تعبد، وباسمه تحلف» (٣).

وقال أيضاً: الرب إلهك تتقى، إياه تعبد، وبه تلتصق، وبه تحلف (٤) وعنه قال صاحب المزمور... أما الملك فيفرح بالله، يفتخر كل من يحلف به (٥) وجاء فى سفر أشعياء بذاتى أقسمت، خرج من فمى الصدق، كلمة لا ترجع، أنه لى تجثو كل ركبة، يحلف كل لسان (٦).

كانت هذه هى الأسباب التى أوجبت القسم فى بنى إسرائيل، ولكن عندما جاء السيد المسيح كان ذهن الشعب قد ارتقى واستمساكهم بعبادة الله أصبح عظيماً، فلا خوف عليهم من عبادة الأوثان، ومن ناحية أخرى، فإن علماء اليهود أباحوا استعمال القسم بالله، لا فيما يتصل بالأمور الخطيرة التى أبانتها الشريعة، بل فى أى أمر آخر حتى لو كان تافهاً صغيراً، وأباحوا أن يحلف الناس بالله حتى فى المقامرات والمفاسد والشرور، فلم يجد السيد المسيح بداً من أن يمنع القسم الذى أفسد اليهود غاياته، ولا سيما وأن الحاجة إلى إباحة القسم فى العهد القديم قد أبطلت فى العهد الجديد، لذلك قال «لا تحلفوا البتة»....

على أننا يجب أن نلاحظ مع ذلك بأن شريعة السيد المسيح، لم تخرج مطلقاً عن معنى شريعة سينا «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً» فهى هى بعينها شريعة العهد القديم، ولكن وقد فهمت بمعنى أرقى من المعنى الذى ذهب إلى فهمه علماء وأفراد الأمة اليهودية...

وما نقوله عن هذه الوصية وموقف السيد المسيح منها نقوله أيضاً عن جميع الوصايا الأخرى، ولذلك فقد حدد موقفه فى مطلع كلامه بهذا النص القدسى: لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء

---

(١) خر ٢٢: ١٠، ١١ ـ عب ٦: ١٦.
(٢) عدد ٥: ١٩.
(٣) تث ٦: ١٣.
(٤) تث ١٠: ٢٠.
(٥) مز ٦٣: ١١.
(٦) إش ٤٥: ٢٣ راجع أيضاً (إش ٦٥: ١٦).

والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يدعى أصغر فى ملكوت السموات، وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السموات، فإنى أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات» (١) .... ولا شك فى أن هذا كله مصداق لما تنبأ به إشعياء النبى قديماً عن السيد المسيح بقوله: الرب قد سر من أجل بره يعظم الشريعة ويكرمها» (٢).

فكل ما قاله الرب يسوع المسيح لم يكن فيه أدنى مخالفة للشريعة القديمة، ولقد كان يحرص له المجد على تبيان هذه الحقيقة دائماً... فعندما يقول: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم.... ، يعقب على ذلك بقوله: «لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (٣) وقال فى مرة أخرى: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل أفكارك هذه هى عظمى الوصايا وأولها والثانية التى تشبهها أن تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين، تعلق الناموس كله والأنبياء (٤) ... فكأنه جاء مفسراً وموضحاً للناموس ومبيناً ما تقتضيه وصايا العهد القديم...

أقوال الرسل وتصرفاتهم

أما أقوال الرسل الأطهار وتصرفاتهم، فقد جروا فيها على أثر معلمهم وسيدهم.. قال القديس بولس الرسول فى رسالته إلى كنيسة رومية «أفنبطل الناموس بالإيمان... حاشا.... بل نثبت الناموس (٥) ... إذن الناموس مقدس، والوصية مقدسة وعادلة وصالحة (٦) .... ثم يقول أيضاً فى رسالته الأولى إلى تلميذه الأسقف تيموثيئوس «ولكننا نعلم أن الناموس صالح، إن كان أحد يستعمله ناموسياً» (٧) ... وهذا كله يقتضى احترام الناموس القديم واعتبار الشريعة الجديدة مثبتة ومؤيدة به.... ولقد رأى الرسول أن فى المحبة المسيحية تكميلاً للناموس القديم فقال: «لا تكونوا مديونين لأحد بشئ إلا بأن يحب بعضكم بعضاً، لأن من أحب غيره، فقد أكمل الناموس، لأن لا تزن لا تقتل لا تسرق (لا تشهد بالزور) لا تشته وإن كانت وصية أخرى هى مجموعة فى هذه الكلمة ... أن تحب قريبك كنفسك ..... المحبة لا تصنع شراً للقريب، فالمحبة هى تكميل الناموس (٨) وقال أيضاً... إن كل الناموس فى كلمة واحدة يكمل .... تحب قريبك كنفسك» (٩).

---

(١) مت ٥: ١٧ ـ ٢٠، لو ١٦: ١٧. (٢) إش ٤٢: ٢١.
(٣) مت ٧: ١٢. (٤) مت ٢٢: ٣٧ ـ ٤٠. (٥) رو ٣: ٣١.
(٦) رو ٧: ١٢. (٧) ١. تى ١: ٨. (٨) رو ١٣: ٨ ـ ١٠.
(٩) غل ٥: ١٤ راجع أيضاً ١. تى ١: ٥، يع ٢: ٨.

وليس أدل على نظرة الرسل إلى الناموس الموسوى بهذه التجلة، من أنهم وهم رسل العهد الجديد كانوا يدخلون الهيكل فى أوقات العبادة (١) ...حيث نقرأ عن القديسين بطرس ويوحنا وبولس أنهم دخلوا الهيكل بقصد العبادة، يؤيد هذا أيضاً ما ورد عنهم فى الإصحاح الثانى: «وكانوا (أى الرسل وجماعة المؤمنين) كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة» (٢).

فلم يجد الرسول مانعاً من التعبد فى الهيكل ذلك أن الهيكل بيت الله، ولو لم يُطْرَد الرسل من الهيكل، ويمنعوا رسمياً من إذاعة تعليم المسيح لظلوا يعبدون ويجتمعون مع المؤمنين فى الهيكل المقدس، ولإستحال الهيكل نفسه إلى كنيسة مسيحية، وكل ما هناك أن تحدث بعض التعديلات فى الطقوس ونظام البناء، لكن الهيكل ظل موضعاً مقدساً فى نظر الرسل، وهكذا الشأن فيما يتعلق بجميع الوصايا والأوامر القديمة...

ليس إذن فى شريعة العهد الجديد ما يتعارض وشريعة العهد القديم، وأن تصرفات السيد المسيح ورسله الأطهار فضلاً عن أقوال الرب وأقوال رسله من بعده، تبين عن احترام كامل لهذه الشريعة القديمة، فنحن إذن نؤمن بالعهدين، ونعتبر الشريعتين ونقدس الكتابين، ونقول أن المسيحية لم تنقض اليهودية، بل كملت ما لم يستطع اليهود لقصورهم وعجزهم أن يكملوه، ووضحت لهم ما كان مبهماً عليهم، وفسرت لهم ما أشكل عليهم وأبانت عن مفهومات جديدة لم يستطع اليهود أن يتوصلوا إليها، وحددت على وجه الدقة ما اختلط عليه رأيهم...

شريعة العهد الجديد مكملة لشريعة العهد القديم:

فإذا كانت المسيحية مكملة لليهودية ... وكانت شريعة العهد الجديد متممة لشريعة العهد القديم، فيجمل بنا أن نعرف مدى هذا التكميل أو التتميم...

أما بالنسبة لشريعة العهد القديم فقد كانت شريعة مناسبة وملائمة للشعب اليهودى... وهو بعد فى طفولة الإيمان وجهالة المعرفة ... فكان لابد من ربطه بقيود غاية فى الدقة والصرامة، نظراً لمجاورته لشعوب وثنية، ربما يتأثر بمعتقداتها وطقوسها ... كما أنه شعب لم يبلغ بعد من المعرفة الروحية والكمال الدينى، ما يمكن معه أن تكون له شريعة غير الشريعة التى أعطيت له على نوع ما، ولكنه لم يستطع أن يوغل كثيراً فى فهم مراجعها وإدراك سعة محتوياتها وبعيد غاياتها...

(١) أع ٣: ١، أع ٢١: ٢٦.

(٢) أع ٢: ٤٦.

الناموس إذن كما يقول الرسول، مقدس وصالح، ومع ذلك فهو بمثابة القائد والمرشد إلى المسيح... فما هو إذن (عمل) الشريعة ؟؟ لقد أضيفت إلى الوعد بسبب المخالفات .. إلى أن تأتى الذرية التى وعد بها (لإبراهيم) وقد أعطى عن طريق ملائكة وتدخل وسيط ... فهل كانت الشريعة ضد وعود الله ؟؟؟ كلا البتة... إذ لو كانت الشريعة التى أعطيت قد استطاعت أن تعطى الحياة، لكان حقاً أن البر بالشريعة، ولكن قبل أن يجئ الإيمان كنا (كما لو كان) مغلقاً علينا تحت رقابة الشريعة (فى انتظار) الإيمان الذى سوف يعلن... وإذن فقد كانت الشريعة مرشدة لنا (تقودنا) إلى المسيح حتى نصير بالإيمان أبراراً...

فلما جاء الإيمان (صرنا فى غير حاجة) بعد إلى هذا المرشد، لأنكم جميعاً أبناء الله بإيمانكم بيسوع المسيح... إذ أنكم جميعاً يا من اصطبغتم فى المسيح قد تسربلتم بالمسيح (١).

والشريعة أيضاً، وصى على قاصر، والقاصر أو الطفل ... هو الشعب المختار قبل مجئ الفادى، وطالما كان الوارث طفل (قاصر) فهو لا يختلف فى شئ عن العبد مع أنه رب الجميع، بل يظل تحت أوصياء ووكلاء (وقوامين)، هكذا نحن أيضاً لما كنّا أطفالاً (قاصرين) كنا مستعبدين لأفكار العالم الأولية، فلما تم الزمان أرسل الله ابنه فولد من عذراء وخضع للشريعة كيما يفتدى (يشترى من جديد) الذين (كانوا) تحت الشريعة، ولكى ننال التبنى، ثم لأنكم أبناء لذلك أرسل الله إلى قلوبكم روح ابنه صارخاً أبا (أى) الآب. لهذا فلست بعد عبداً بل (أنت) ابن وإذن (فأنت) وريث الله بالمسيح (بواسطة المسيح)، ولما كنتم قديماً لا تعرفون الله كنتم تعبدون الآلهة التى ليست بطبيعتها آلهة، أما الآن وقد عرفتم الله، أو بالحرى أن الله قد عرفكم، فكيف ترتدّون ثانية إلى هذه الأركان الواهنة الفقيرة، وتريدون أن تخضعوا لها من جديد» (٢).

ومؤدى هذا كله أن الشريعة القديمة وما حوته من طقوس ورسوم، كانت موقوتة بظهور المسيح المنتظر الذى كانت الرموز تشير إليه والطقوس تقوم عليه، بنظرة بعيدة إلى مستقبل الخلاص الذى نلناه بدمه المسفوك وجسده الذبيح عن حياة العالم، فكأن الشريعة القديمة كانت ترنو ببصرها إلى المخلص العظيم، ولم تكن فى حقيقتها غير قائد إلى حين، ومرشد يدل على الإيمان بالمسيح، ولذلك يقول الرسول : «لأن غاية الناموس هى المسيح» (٣) ويقول القديس لوقا الإنجيلى: «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا» (٤) أى إلى زمن يوحنا المعمدان فقط، أما بالمسيح فقد بدأ عهد جديد عهد الإيمان والكمال المسيحى...

---

(١) غل ٣ : ١٩ ـ ٢٧.
(٢) غل ٤ : ١ ـ ٩.
(٣) رو ١٠ : ٤.
(٤) لو ١٦ : ١٦.

فإذا كانت الشريعة القديمة مؤدية بنا إلى المسيح أو إلى شريعة العهد الجديد، فليس بين الشريعتين تناقض... لأن شريعة المسيح مكملة لشريعة موسى، وشريعة موسى خادمة لشريعة المسيح... وكلتاهما تقومان على مبدأ واحد وتلتقيان فى مركز واحد، أما المبدأ الواحد: فهو حاجة البشر إلى فادى ومخلص، يكون بموته وسفك دمه فداء الناس وخلاصهم ... وأما المركز الواحد فهو يسوع المسيح مخلص العالم، وكل ما بين الشريعتين فرق من هذه الجهة أن شريعة العهد القديم ترنو بنظرها إلى المسيح الآتى، أما شريعة العهد الجديد فتقوم على أساس المسيح الذى أتى... فكان لابد فى شريعة موسى من طقوس تشير إلى مجئ المسيح وخلاصه العتيد، حتى إذا جاء المسيح لم تعد ثمة حاجة إلى تلك الطقوس المشيرة الرامزة...

لا مشاحة إذن، فى تغيير وتبديل يدرك الشريعة القديمة حتى تصبح ملائمة للعهد الجديد، تغيير وتبديل نرى فيه فرقاً بين شريعة ممهدة وشريعة نهائية أو بين شريعة مفتقرة إلى مخلص، وشريعة كاملة به...

أما الشريعةالطقسية فقد أصابها تحوير وتغيير، لأن شريعة قد أمرت بطقوس تشير إلى مخلص آت، لابد أن تتغير طقوسها عندما يأتى هذا المخلص المرموز إليه بتلك الطقوس، وتتبدل بطقوس تشير إلى المخلص وقد أتى، فتذكرنا بفدائه وخلاصه وتعيد إلى قلوبنا وأفكارنا ذكرى عمله العظيم، بفاعلية سرية يفعل فيها روح القدس فيكسبها قوة، تشركنا فى إستحقاقات الفداء وبركات المسيح الذى خلصنا وافتدانا، فإذا أردت بياناً ففى شريعة العهد القديم طقوس فى ذبائح ومحرقات تقدم من حيوانات يهرق دمها، ليكون تكفيراً وتطهيراً ... ولكن كيف سيكون الحيوان والطير شفيعاً فى الإنسان؟؟ !!... وكيف يقتبل الله دم الطير بديلاً عن دم الإنسان كيما يرضى عن الإنسان ؟؟ !! وكيف تقوى دماء التيوس والعجول على تطهير قلب الإنسان؟؟ هذه أسئلة لن نجد لها حلاً، إذا نظرنا إلى دماء الحيوان فى ذاتها، أما إذا افتكرنا فيما ترمز إليه الحيوانات وتشير إليه الدماء المسفوكة، عرفنا أن قوة الذبائح قائمة فى الذبيح الأكبر الذى تشير إليه كل تلك الطقوس... فى المسيح يسوع ربنا... فأى عقل يتصور أن يكون ثمة وجود لذبائح من الطير أو الحيوان بعد أن ظهر الذبيح الأعظم؟؟؟ إذن فقد بطلت هذه الذبائح الحيوانية فتبدلت بذبيحة المسيح وذبيحة المسيح واحدة على الصليب، لا تتكرر، وإنما يتكرر فينا فعلها كلما تقدمنا إلى طقوس أخرى قامت على أساسها وبها ننال استحقاقات تلك الذبيحة الطاهرة، أما هذه الطقوس فهى أسرار الكنيسة السبعة، هى طقوس للعهد الجديد صارت بديلة بطقوس العهد القديم .. إذ هى

تقوم على عمل المسيح ... الذى أتى ... ولكنها مع ذلك طقوس ذات فاعلية حقيقية ينسكب فيها روح القدس... فننال فيها بركات الخلاص واستحقاقات دم المسيح المسفوك مرة على عود الصليب .. . إذ أنه فى ذبيحة الصليب كان التكفير والرضى، وإنما فى أسرار الكنيسة ننال استحقاق هذا التكفير كلما تقدمنا إلى هذه الأسرار، لأن المسيح فى غير حاجة إلى أن يموت عن العالم مرة أخرى، بل هذه الأسرار تشتمل على بركات الفداء إلى أبد الآباد دون حاجة إلى موت المسيح مرة ثانية... ومهما يكن من أمر، فنحن نقرر أن طقوس الذبائح القديمة قد أبدلت بطقوس الأسرار المقدسة القائمة على أساس ذبيحة المسيح الحقيقية، ولم يعد ثمة وجود للكهنوت القديم اللاوى وطقوسه ... وهى قائمة بأطعمة وأشربة وغسلات مختلفة وفرائض جسدية فقط موضوعة إلى وقت الاصلاح (١) ... فتغير وأبدل بكهنوت المسيح القائم على أساس تقديم جسده ودمه ذبيحاً عن حياةالعالم....

فى العهد الجديد إذن... ذبيحة كما كان فى العهد القديم ذبائح، ولكن نوع الذبيحة قد تبدل... ولو إن جوهر الذبيحة باق ... ولابد فى العهد الجديد من مذبح وطقوس بذبيحة المسيح التى فى كل مرة نتقدم إليها ننال ما نلناه من بركات الصليب... غفراناً لخطايانا وتطهيراً لنفوسنا، فضلاً عن بركات وعد لنا بها فى هذا السر، سر الاستحالة والتناول ... هى ثباتنا فى شخصه كالأغصان فى الكرمة، فننال به الحياة الحقيقية أو الحياة الأبدية ....

وثمة طقوس لم تكن فى العهد القديم رمزاً إلى شئ ... كالصلاة والصوم والبخور ... فليس بد من بقائها فى العهد الجديد، وإن كانت هنا تكتسب قوة أخرى، ونعمة أخرى، وتتخذ فى بقائها صورة أخرى تلائم روح العهد الجديد، فالبخور أصبح عبادة ترتفع إلى السماء محمولاً مع صلوات القديسين فى أيدى الملائكة وكهنة السماء (٢) بعد أن كان تقرباً إلى قدس الأقداس الأرضى، والصلاة غدت فى عهد المسيح فرصة تأمل فى آلامه وقيامته وصارت فى سبعة أوقات بعد أن كانت ثلاثاً ... والصوم أصبح غنياً بمناسبات العهد الجديد بعد أن كان قائماً على ذكريات محدودة ملائمة للعهد القديم، وهى ذكريات ضيقات أرضية جسدانية... وهكذا بالنسبة لسائر الطقوس فى العهد الجديد كالأعياد وما إليها... إنها اكتسبت مناسبات أخرى أقوى وأعظم وأشد صلة بالروح منها بالجسد، مناسبات عهد البر والخلاص الأبدى...

---

(١) عب ٩: ١٠.

(٢) رؤ ٥: ٨، ٨: ٣.

الإتمام والتكميل فى الشريعة لم يكن فى جوهرها .... بل فى صورتها... ففكرة الذبيحة، وفكرة الصوم أو الصلاة أو البخور أو الأعياد، باقية كما هى فى جوهرها وصميمها... وأما التغير فقد أصاب الصورة فقط، لتكون ملائمة للعهد الجديد وبركاته .... فالشريعتان واحد فى الجوهر، وأما التكميل ففى شئ آخر.. هو لباس ومظهر للجوهر.. والجوهر هو غاية الشريعتين الواحدة...

وأما الشريعة الأدبية ... فقد مر بنا أنها أُكملت فى شريعة العهد الجديد.... وإذ ذاك قدمنا بـ «القَسَم» مثلاً لهذا النوع من التكميل، وأما هنا فسنتناول مثالين آخرين من الشريعة الأدبية، حتى نتبين إلى أى مدى تعتبر شريعة العهد الجديد مكملة لشريعة العهد القديم....

ويقول السيد المسيح، قد سمعتم أنه قيل للأولين: «لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب للقضاء (١) وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجباً للقضاء، ومن قاله لأخيه رقاً (٢) يكون مستوجباً للمجمع (٣) ومن قاله لأخيه يا أحمق يكون مستوجباً نار جهنم، فإذا قدمت قربانك على المذبح وتذكرت هناك أن بينك وبين أخيك موجدة (٤) فاترك قربانك هناك قدام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك، كن متفاهماً (٥) مع خصمك سريعاً مادمت معه فى الطريق، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن، الحق أقول لك إنك لا تخرج من هناك حتى تؤدى الفلس الأخير....» (٦).

هذا نص فيه مقارنة بين شريعتين، شريعة تنهى عن القتل فقط، وشريعة تنهى لا عن القتل فحسب، بل وحتى عن الغضب والكلمات التى تهيج السخط، وهى إلى جانب هذا تطالب بالعمل على الصلح وسيادة السلام بين الأفراد المتخاصمين، منذرة بأن النزاع والحقد يقودان حتماً إلى النار الأبدية...

ليس بين النصين تناقض ... هذا واضح غاية الوضوح، ويمكن أن نفهم التوافق بينهما على قياس ما أوردناه بخصوص «القسم» عندما عالجنا «موقف المسيحية من شريعة العهد القديم»...

---

(١) حكم. دينونة (النص العبرانى) بيت الدين.
(٢) النص العبرانى والسوريانى... أي باطل أو فارغ أو سفيه (٢. صم ٦: ٢٠). نسخة ابن العسال. وهى كلمة تقال للتحقير.
(٣) أو مجلس الحكم (النص العبرانى واليونانى) السنهدريم.
(٤) خطأ أو غلطاً أو خلافاً أو لوماً (نسخة ابن العسال) إن أخاك واجد عليك. (النص اليونانى) إن أخاك عنده شئ عليك.
(٥) النص اليونانى ـ حسن الفهم.
(٦) راجع العهد الجديد البشائر الأربعة. ترجمة المدرسة الإكليريكية (مت ٥: ٢١ ـ ٢٦).

إذ يكون ثمة وجود للتناقض لو أن السيد المسيح عارض الشريعة القديمة فقال : «وأما أنا فأقول لكم بل اقتلوا» أما أنه نهانا حتى عن الغضب والحقد.. فهذا توافق وإتمام للشرع القديم، ولكننا إذا أردنا هنا أن نتبين مدى هذا الإتمام، فعلينا أن ندرس حدود الوصية في العهد القديم ثم حدودها في العهد الجديد.

أما في العهد القديم فقد كان القتل هو الإعدام أو إراقة الدم أو الذبح، أو بعبارة أدق هو ما يفضي إلى الموت ونزع الحياة من الفرد، كما قتل قايين هابيل (١) ...وكما قتل موسى الرجل المصرى (٢) أو كما قتل داؤد جليات (٣)، لكن السيد المسيح أراد أن يوسع من مفهوم القتل، فجعله شاملاً للبواعث عليه، كالغضب والنزاع والحقد والكيد والشتم والسباب وإثارة الشعور، بإعتبارها مولدة للقتل وعلّة له، وكيف ينهى عن القتل ولا ينهى عن الأسباب الموجبة له والداعية إليه؟؟؟... أو كيف يعنى بالنتائج ويهمل المقدمات التى تفضى عادة إلى هذه النتائج؟؟..

أجل لقد أشار الأنبياء فى القديم إلى نوع من القتل يختلف عن القتل بالسيف أو الأحجار، فقال سليمان الحكيم «لأن إرتداد الحمقى يقتلهم» (٤)... وقال أيضاً: «شهوة الكسلان تقتله» (٥) ثم ... قال عن المرأة الأجنبية «أنها طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء» (٦) وهو لا يقصد فى هذا قتلاً بالسيف أو قتلاً مباشراً... كذلك أشعياء النبى يقول متنبئاً «قتلاك ليس هم قتلى السيف ولا موتى الحرب» (٧)... ويندب أرميا شعبه ويقول: «يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع، فأبكى نهاراً وليلاً، قتلى بنت شعبى» (٨) ... ولما يصف الأشرار يقول: «لسانهم سهم قتال يتكلم بالغش، بفمه يكلم صاحبه بسلام وفى قلبه يضع له كميناً، أفما أعاقبهم على هذه يقول الرب، أم لا تنتقم نفسى من أمة كهذه» (٩).

أدرك الأنبياء هنا أن القتل ليس هو إزهاق النفس وإنتزاع الحياة بطريقة مباشرة، كما يفعل السفاحون أو الجند فى ساحات القتال، فأبانوا أن الحماقة والكسل والمرأة الأجنبية بل والخديعة والمكر وسائر أنواع الفجور كلها قاتلة أو تقود إلى القتل... لكن يجب أن نلاحظ هنا ملاحظتين:

الأولى: أن هذا الفهم توصل إليه الأنبياء والحكماء فيما بعد أن مرت الأمة الإسرائيلية بإختبارات وتجارب عدة، أما الشريعة فى أسفار التوراة فلم يرد فيها هذا المعنى، أو بالحرى أن الوصية كما فهمها الشعب اليهودى كانت نهياً عن القتل المباشر...

---

(١) تك ٤ : ٨.
(٢) خر ٢ : ١٢.
(٣) ١ . صم ١٧ : ٥٠.
(٤) أم ١ : ٣٢.
(٥) أم ٢١ : ٢٥.
(٦) أم ٧ : ٢٦.
(٧) إش ٢٢ : ٢.
(٨) أر ٩ : ١.
(٩) أر ٩ : ٨، ٩.

والثانية: أن تلك الأسباب التى تؤول إلى القتل من حماقة وجهل وكسل وخداع، لا تخرج فى الغالب عن أسباب تدعو إلى القتل المادى، أى أن المعنى يتجه على الخصوص إلى هلاك الجسد...

أما السيد المسيح ، فمدّ من آفاق الوصية وكشف عن مضمونها المستور، وتحدث فى أسلوب واضح أن من يتسبب فى إغاظة غيره، بالسب أو الشتم أو الإهانة مهما صغرت، يكون مستحقاً ومستوجباً لعقوبة النار الأبدية.. وإذن فهذه الإغاظة نوع من القتل، ولو أنه قتل نفسانى، فيه ألم للمهان ووجع لقلبه ودوس لشعوره وحزن لروحه وهمّ لنفسه وتعب لفكره وعقله ... وهذا النوع من القتل يؤول حتماً إلى شعور بصغارة النفس وهدم للصحة وإجهاد للفكر واجهاد للنفس ، وربما قادت الإهانة إلى توليد الحقد والضغينة والكراهية فى المهان نحو المهين.. وهذا قتل لروحه وإهانة للفضيلة فى نفسه، وربما كان فى الإهانة تشهير بالمهان وضياع لسمعته وصيته بين الناس، وهذا قتل أدبى...

فكأن القتل فى العهد الجديد ليس هو القتل المادى فحسب ... وإنما هناك ثلاثة أنواع أخرى من القتل: **قتل نفسانى ... قتل روحى ...وقتل أدبى...**

ويدخل فى دائرة القتل النفسى، السّب والتعيير والخداع والمكر والثلب والافتراء، والحسد والحقد والبغضة وما إليها، من فعال وصفات تتلف نفوس المتصفين بها ونفوس الذين تبدو نحوهم، ولقد جمع الرسول هذه الصفات فى عبارة يصف بها الأشرار، «مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً وسكراً وسوءاً، نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين مدعين، مبتدعين شروراً، غير طائعين للوالدين، بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة» (١) وعنى الرسول يوحنا بأن يصف البغضة بأنها قتل فقال «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (٢) ... إذ البغضة على وجه الخصوص رذيلة مرة، هى أساس الحقد والحسد والنميمة والافتراء والشتم، فضلاً عن أنها هى بذاتها قد لا تؤدى إلى قتل النفس فحسب باعتبارها مصدراً لشرور تقتل نفس الكاره والمكروه ـ بل إلى القتل المادى أيضاً كما فعل قايين بهابيل...

ويدخل ضمن دائرة القتل الروحى إهمال الروح والإهتمام بالجسد، والإسراف فى الشهوات والمسرات العالمية التى تتلف حياة الإنسان روحياً ... ولذا يقول القديس بولس عن الخطيئة: «الخطيئة وهى متخذة فرصة بالوصية خدعتنى بها وقتلتنى» (٣) وكما نقول عن الخاطئ أنه قتل روحياً لنفسه، كذلك نقول عن كل أمرئ يدعو غيره ويحضه على الخطيئة أو أن يكون

---

(١) رو ١: ٢٩.

(٢) ١. يو ٣: ١٥.

(٣) رو ٧: ١١.

عثرة له، بأنه قتل غيره قتلاً روحياً، والعثرة إما أن تكون بالسلوك العملى أو تكون بالكلام أو بالتشجيع، وبهذا المعنى يقول السيد عن إبليس: «ذاك كان قتالاً للناس من البدء» (١).

ويدخل فى حدود القتل الأدبى: التشهير والذم، والعمل على إشاعة الشر عن شخص، أو العمل على فصله من عمله وقطع رزقه، وما إلى ذلك...

ألست ترى من هذا كله أن القتل فى العهد المسيحى أصبح يمتد إلى غير معناه المادى؟؟ ثم أن النهى فى كلام السيد المسيح، ليس هو عن هلاك الجسد فقط، بل عن قتل النفس وإهلاكها، لأن قول الإنسان لأخيه (رقاً أو أحمق) ليس فيه قتل للجسد وإنما أثره الواضح يمتد إلى النفس، وتدليلاً على عناية السيد بالنفس كان يقول لليهود: «أيحل فعل الخير فى السبت أم فعل الشر، أن تخلص نفس أم أن تقتل» (٢)

هنا نستطيع أن نقول أن شريعة العهد الجديد أكملت شريعة العهد القديم فى القتل، ومع أنها أتت بإيضاحات جديدة، لكن هذه الإيضاحات لم تبدل الوصية ذاتها، فهى باقية على ما هى عليه فى حقيقتها وجوهرها بل وفى نصها أيضاً. وأما التعديل فكان في نطاق مفهوماتها وأنواعها...

وهكذا نفهم الفرق بين الشريعتين فيما يختص بالزنى ... قال السيد له المجد «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن .. وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زنى (٣) بها فى قلبه» (٤).

ولم يأت المخلص هنا بوصية جديدة، فلا زال النهى عن الزنى قائماً، وإنما الفرق بين الشريعتين هو أن الزنى فى العهد القديم قد فسره اليهود وفهموه على أنه إرتكاب الفحشاء، باتصال جنسي غير مشروع بين رجل وإمرأة، وأما الزنى فى شريعة الفضل والكمال فقد يكون زنى بالقلب وليس زنى بالجسد ، فالنظرة الشريرة التى تصحبها الشهوة الشريرة تولد إحساساً شريراً، يقود إلى ارتكاب الشر فى القلب بمعية التصورات والأفكار والتأملات الشريرة...

التغير إذن لا فى جوهر الوصية، بل فى شكلها وحدودها، وبالإجمال ففيما يتصل بالشريعة الأدبية أو الوصايا العشر، لم يحدث فيها المعلم الأكبر تغييراً يتناول الجوهر، أى أنه بعبارة أوضح، لم يبدلها بوصايا أخرى، بل أبقاها كما هى بلفظها وحقيقة معناها ... وإن كان قد كشف عن غوامضها ومبهماتها، وما كان منها مستوراً عن الشعب القديم.

---

(١) يو ٨: ٤٤.

(٢) مر ٣: ٤ حسب ترجمة المدرسة الإكليريكية، تخلص نفس أو قتل، أو إحياء نفس أو قتلها حسب ترجمة بيروت.

(٣) مت ٥: ٢٧، ٢٨.

(٤) النسخة القبطية تقول: أتم زناه.

كذلك الحال فى الشريعة السياسية.. بنوعيها خارجية وداخلية، فقد كانت ضيقة ومحدودة، نظراً لأن الشعب اليهودى كان هو الشعب المختار، الذى يجب أن يحتفظ بكيانه فلا يختلط بشعوب أخرى إلا فى حدود وقيود، فلما جاء المسيح المنتظر، وكان به خلاص اليهود والأمم، أصبحوا فيه جميعاً واحداً بإيمانهم به وباصطباغهم فيه بالمعمودية المقدسة، فامتدت حدود الشعب المختار وأصبحت سياسته الخارجية سياسة أرحب وأوسع، كما أنها قد ربحت من الشريعة الأدبية فى مفهوماتها الجديدة، ما أعان هذه السياسة وجعلها أنسب لشعب أدركه نور المسيح....

أما السياسة الداخلية، فلم يدركها من التغيير أكثر مما أدرك السياسة الخارجية، فمن حيث «الهيئة الحاكمة» أوصى السيد بالخضوع لها، وعدم مقاومتها وبتقديم واجبات الإكرام نحوها، فقال: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (١) ... وقال القديس بولس: «فتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة... فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام» (٢).

وأما فى المعاملات، فقد جعلها تقوم على أساس المحبة، وأوصى بالتسامح فيما كان يوجب النزاع والخصومة، فقال: «سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم، لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن، فحوّل له الآخر، ومن أراد أن يقاضيك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك، ومن سخرك ميلاً فاذهب معه إثنين ... من سألك فاعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» (٣) ... وليس هذا تحدياً للشريعة القديمة بل هو ارتفاع بالنفس إلى ما هو فوق المباح، فهو تقدم فى مراتب الفضيلة، وحل المنازعات بروح المحبة والتسامح، لا بروح التقاضى والقانون، «قد سمعتم أنه قيل تحب صديقك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم، أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم وصلوا عن الذين يطردونكم، لكى تكونوا بنى أبيكم الذى فى السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين، فإنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فما هو أجركم، إذ العشارون أيضاً يفعلون كذلك، وإن سلمتم على أخوتكم فقط فأى فضل تفعلون إذ الوثنيين أيضاً يفعلون كذلك، فكونوا إذن أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات كامل» (٤) ...

---

(١) مت ٢٢ : ٢١.
(٢) رو ١٣ : ١ ـ ٧.
(٣) مت ٥ : ٣٨ ـ ٤٢.
(٤) مت ٥ : ٤٣ ـ ٤٨ (الترجمة الإكليريكية).

وأما فى الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، فقال: «قيل من طلّق إمرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم، إن من يطلق إمرأته بغير علة زنى، فقد جعلها تزنى، ومن يتزوج بمطلقة يزنى» (١).

ثم قال أيضاً: «أما قرأتم أنه من البدء خلقهما ذكراً وأنثى» وقال: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته ويصير الإثنان جسداً واحداً، فليس هما إثنين بعد بل جسد واحد، والذى جمعه الله لا يفرقه إنسان» (٢).

وأما العقوبات، فقد صارت عقوبات روحية: «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وحدك وعاتبه بينك وبينه، فإن سمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع منك فخذ معك أيضاً واحداً أو إثنين، لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة، وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كوثنى وعشار، الحق أقول لكم إن ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السموات » (٣).

وفى إيجاز، إن الشريعة السياسية تتوقف أحكامها على الشريعتين الطقسية والأدبية، ولما كانت الشريعة السياسية فى العهد القديم قد ترتبت فى حدود مرسومة قضت بها ظروف الأمة اليهودية، وكانت موافقة لطقوسها وآدابها، فإن التغيير الذى يدرك هذه الشريعة السياسية فى العهد الجديد يكون تابعاً لما أدرك طقوسها وآدابها من تغيير. وهو تغيير فى الشكل لا فى الجوهر...

يجب إذن أن نفطن إلى وحدة الشريعتين، هذه الوحدة الجوهرية، التى يسرى تيارها بين العهدين... ليس فى هذا إتهام أو إنكار لمهمة الشريعة المسيحية، ولكنه بيان لحقيقة هذه المهمة وأنها تتفق فى صميمها مع أصول الشريعة الموسوية...

لو فطن اليهود إلى هذه الفكرة لأحسّوا من نحونا بشعور الأخوة والوفاق، ولأدركوا أننا فيهم وهم فينا... وإننا معاً واحد، وأمكن أن نتفق على ما اختلفنا فيه....

ولو أدرك البروتستانت هذه الفكرة، لعرفوا أن روحهم بعيدة عن روح الله، لأنهم يحاولون أن يفصلوا بين العهدين بفاصل لا يمكن عبوره، ويزعمون أنهم كلما ابتعدوا عن روح العهد القديم، فقد أصبحوا قريبين إلى الله وإلى روح العهد الجديد، حتى ليخيل إلى كل من يقرأ كتبهم ويستمع إلى أقوالهم أو يحضراجتماعاتهم، أنهم يدينون بدين لا يتصل عن قرب أو عن بعد بدين إسرائيل ...

لقد أدركت الكنيسة الأرثوذكسية هذا الإتصال الروحى بين العهدين، وهو اتصال ينبئ عن وحدة الأصل والروح ، ويتنبأ بيوم الاتحاد الكامل.

---

(١) مت ٥: ٣١، ٣٢.
(٢) مت ١٩: ٤ ـ ٦.
(٣) مت ١٨: ١٥ ـ ١٨.

الضمـــــــير

الضميـر

هبطت الشريعة المكتوبة على جبل سيناء، ولكن بعد عشرات المئات من السنين من خلقة آدم، فهل عاش الناس قبل ذلك الزمان بلا ناموس؟

الحق أن الشريعة المكتوبة لم تكن إلا... إظهاراً لشريعة أخرى مكتوبة فى قلوب البشر، شريعة طبعها الله فى أذهان الناس وبموجبها كانوا يسيرون. وهى الشريعة الطبيعية أو الضمير. إنها شريعة لم يتلقها الإنسان من سلطة أبوية أو مدرسية أو حكومية. وإنما وجدها فى أعماق نفسه، تكشف له عن الحق والواجب، تأمره أن يفعل الخير وتنهاه عن ارتكاب الشر. تحدثه بأن الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة، فإن هو فعل الخير شجعته أثناء فعله ومدحته وحكمت له بالثواب بعد الفعل، أما إذا عمل الشر فإنها تثبطه فيحس بالضيق فى أثناء الفعل ، ثم بالألم ووخز الضمير بعد الفعل....

متى ظهر الضمير فى الإنسان:

وإذا أردنا أن نبحث عن الزمن الذى طبع الله فيه هذه الشريعة فينا، فربما لا نستطيع أن نهتدى إلى معرفته على وجه الدقة، ولكن الأمر الذى لا مرية فيه أن هذه الشريعة قديمة قدم الإنسان نفسه، فنحن نقرأ أنها شريعة الإنسان الأول (آدم) وشريعة آبائنا من بعده قبل أن يظهر موسى بآلاف السنين....

ولكن فى أى مرحلة من مراحل حياة آدم ظهر الضمير الإنسانى؟؟؟..... لنا فى ذلك **ثلاث احتمالات...**

الأول: أن يكون الضمير قد خلق مع النفس البشرية، وحينئذ يكون الضمير قوة من قوى النفس أو ملكة من ملكاتها، وجد بوجودها ويشاركها فى خلودها.

الثانى: أن يكون الضمير قد خلق فى الإنسان بعد سقوطه فى الخطيئة، وكأنه تعويض عما أصابه من ظلمة أدركت عقله وقلبه، فأصبح الضمير نوراً لنفسه وهدى يقوده للتمييز بين الخير والشر.

الثالث: أن يكون الضمير قوة تولدت فى باطنه بمجرد أكله من شجرة معرفة الخير والشر، وحينئذ يكون الضمير عطية من مراحم الله بالإنسان حتى لا يتركه بدون هاد ودليل، خاصة وسيتم طرده من الجنة وحرمانه من تجليات العلى وظهوراته. وربما يجد هذا الاحتمال سنداً له

فى أن تسمى الشجرة التى أكل منها آدم بشجرة معرفة الخير والشر (١) .. وفى قول الرب بعد المخالفة بالأكل من الشجرة: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر... فأخرجه الرب الإله من جنة عدن» (٢).

ومهما يكن من شئ فالضمير قديم فى الإنسان، ويرجع فى تاريخه إلى حياة الإنسان الأول آدم، حيث ظهر فيه وفى حواء عند المعصية «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان» (٣)... وقد حكم عليهما فشعرا بالخزى والخجل واضطرا إلى الهرب والإختفاء بين الأشجار. «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وإمرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟؟ فقال: سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت ... فقال: من أعلمك أنك عريان؟؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها» (٤).

تعريف الضمير:

الضمير لفظة تستعمل عادة فى أربعة معان على الأقل، تختلف بعضها إختلافاً واضحاً.

١) بمعنى **العقل** وهو يتأمل الأحكام الأخلاقية يصدرها على سلوك الإنسان، وهذا يقتضى معرفة ما بالمبادئ الأخلاقية العامة، ثم تطبيقاً لهذه المبادئ على الموقف الخاص الذى نكون بصدده.

٢) يمكن أن نعبر عنه فى صيغة أدق «**الشعور الأخلاقى**» **Moral consciousness** أى القدرة العامة على الحكم الأخلاقى، وهى ما يتميز به الإنسان عن الحيوان، وبهذا المعنى يقال أن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالضمير...

٣) بمعنى **الإحساس المباشر Immediate Feeling** دون حاجة إلى بحث أو جدل أو نظر إلى اعتبارات مختلفة، بأن هذا الفعل أو ذاك صواب أو خطأ.

٤) بمعنى «**صوت الله فينا**» **The voice of God within us** أى أن الله يعلن عن إرادته فى تدبير سلوكنا، إما بإحساس خلقى نحسّه، أو بحكم نحكم به على مسألة من مسائل الأخلاق...

---

(١) تك ٢: ٩.
(٢) تك ٣: ٢٢، ٢٣.
(٣) تك ٣: ٧.
(٤) تك ٣: ١١

وقد عرفه القديس أوغسطينوس أنه رسم الحكمة الإلهية: رسم به البارى منذ الأزل كل ما ينبغى فعله أو تركه للخليقة الناطقة، لكى تتحرك إلى غايتها وترغبها بواسطة الأعمال...

ونستطيع نحن أن نعرفه إجمالاً بأنه صوت الله فى باطن الإنسان، يهتف فيه بالحق ويدعوه إلى الواجب وينهره عن الشر والعصيان. بموجبه يميز الإنسان بين خير يجب أن يتبع، وبين شر يجب أن يجتنب، به يعرف الله ويعبده، ويكرم الوالدين، ويقدس الواجب ويهوى الفضيلة، وبه أيضاً يمقت الكذب والغدر والخيانة ويكره الرذيلة. فهو إذن عنصر الشعور الأدبى فينا، أو هو عين النفس ترى بها الخير والشر، كما يستعين الجسم بالعين الظاهرة فى التمييز بين المحسوسات الخارجية أى أنه البصيرة فى مقابل الباصرة...

الضمير فى اشتقاقه اللغوى:

* الضمير **فى اللغة العربية** هو **«السر والخاطر»** وقد اشتق من أضمر يضمر بمعنى أخفى أو ستر، فالضمير ما يكون خافياً فى النفس مستوراً عن عيون الناس (١).

* أما **فى اللغة اللاتينية** فالكلمة التى تقابل الضمير هى Conscientia وهى كلمة مؤلفة من con وأصلها cum بمعنى مع، ثم Scientia **بمعنى علم أو معرفة**، فالكلمة كلها معناها المعرفة المشتركة بين شخص وشخص آخر.

* **وأما فى اللغة الإنجليزية** conscience **فهو الملكة أو القوة أو المبدأ الباطنى** الذى يعيّن فى الشخص طابع أعماله وأغراضه وميوله، أو هو الملكة الأخلاقية أو الحاسة الأخلاقية.

* ويعرفوه فى موضع آخر بأنه **«الإحساس الخلقى بالصواب والخطأ .. بالخير والبراءة أو بالشر والإثم»**، أو بأنه **«المعرفة الباطنية، أو المعرفة الذاتية أو الحكم الأخلاقى أو الإحساس بالواجب...»**

* **وفى اللغة الفرنسية** تطلق لفظة conscience على معنيين متقاربين أحدهما فلسفى ميتافيزيقى والآخر أخلاقى، وإذا كان المعنى الإشتقاقى للكلمة الفرنسية هو «المعرفة التى نكونها

(١) راجع الفوائد الدرية فى اللغتين العربية والفرنسية ببيروت عام ١٨٩٦، ثم مختار الصحاح، ثم دائرة معارف القرن العشرين تأليف محمد فريد وجدى مجلد (٥).

عن الأشياء» (١) فإن معناها الفلسفى أو الميتافيزيقى هو **الشعور الباطنى**، الذى يكون لنا عن الأشياء من دون أن نتقبل فكرة عنه من مؤثر خارجى (عن نفوسنا) . فنحن نشعر شعوراً باطناً بوجودنا وبأفكارنا وبحريتنا، دون أن يوحى إلينا أحد ما بفكرة ما....

* **أما المعنى الأخلاقى** وهو ما يمكن أن نترجمه بلفظة **الضمير** على وجه الدقة فهو «الشعور الباطنى بما هو خير وبما هو شر... هو (شعور باطنى) بالأشياء التى نحكم بخيرها من دون تفكير، كما لو بالغريزة أو العاطفة، هذه العاطفة هى التى تكُوّن الضمير. فالضمير إذن يعتبر بحق حساً باطناً».

* **وفى اليونانية والقبطية** (٢) συνείδηοις وهو القوة البديهية التى ترى الخير وتميزه، أو هو شعور قائم ثابت يشهد على سلوك الإنسان...

الضمير فى تحليل لفظه ومدلوله:

هذا الاشتقاق اللغوى، مفاده أن الضمير أمر باطن خفى مستور، قوامه تمييز بديهى بين الخير والشر، وحقيقته إستعداد طبيعى ندرك به غاية طبيعتنا الناطقة ونتجه إليها بميل من إرادتنا. هو ملكة فى النفس الناطقة تشرف بها النفس على إقرار النظام الأدبى فى حياتنا العملية (٣) أو هو صفة جوهرية فى طبيعة النفس الإنسانية، أو وظيفة من وظائفها تحكم به على موافقة الفعل البشرى أو عدم موافقته، لمبدأ أو أكثر من المبادئ الأولية العملية فى الطبيعة الإنسانية وهى مبادئ بديهية ، بيئية بذاتها، تسلم بها النفس يقيناً من غير إفتقار إلى برهان أو دليل ، ولو تسليماً غامضاً خالياً من معرفة الأسباب والأسانيد.

ولو أردنا أن نحلل هذا الحكم، أو نتبين المراحل التى مرت بها النفس سراعاً فانتهت إليه، ألفيناها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

تجد النفس ذاتها إستعداداً طبيعياً نحو إرادة الخير وتجنب الشر، فكما أن هناك قضايا بديهية (مثلاً: الكلّى أكبر من الجزئّي) يصدق بها العقل بذاته ودون حاجة إلى برهان ، كذلك نجد فى نفوسنا قضايا أولية بديهية للحياة العملية، بينة بذاتها وواضحة أمام النفس بحيث هى فى غنى عن التدليل والتسبب....

---

(1) La consaissance au' on prend des objets.

(٢) بالقبطية من أصل يونانى cⲩⲛⲉⲓⲇⲏⲥⲓⲥ أو ceneⲇecic - cenetecic ضمير، ذمة، سريرة، نية....

(٣) ويعرفه بعض المفكرين جرياً على منهج Kant بأنه حكم للعقل العملى بخيرية فعل أو شريته.

هذا الإستعداد الطبيعى الذى ندرك به إدراكاً يقينياً مباشراً أن الخير يجب أن يتبع، وأن الشر يجب أن يجتنب، هو ما يمكن تسميته بملكة المبادئ العملية ويطلقون عليها لفظة Synderesis وهى كلمة يونانية تفيد الحفظ والرسوخ ويقابلها فى الفرنسية Syndérese ولكنها فى هذه اللغة تتخذ معنى تبكيت الضمير Remords de conscience ولذا قد نتوسع فنطلق على هذه الملكة أو هذا الاستعداد اسم «الضمير»..

المرحلة الثانية:

مرحلة إدراك ومعرفة لحقيقة الفعل - هل هو خير أو شر - معرفة لا يطلب فيها أن تكون يقينية حتى لو كانت غامضة مبهمة...

ولما كانت هذه المعرفة تتوقف على ثقافتنا وبيئاتنا وعاداتنا وتقاليدنا، فإنها تختلف فى فرد عنها فى آخر. هذه المرحلة هى مرحلة المعرفة الأدبية أو الأخلاقية. وقد ندعوها الضمير، وبهذا المعنى نقول بإختلاف ضمائر الأفراد، أو إختلاف الضمير من فرد إلى آخر على نحو ما أثبتناه من قبل...

أما المرحلة الأخيرة:

فهى مرحلة استنتاج وتطبيق، فيها نستنبط أن هذا الفعل الذى ندرك بمعرفتنا الأدبية أنه خير أو شر، يجب أن يفعل أو يجتنب بما لنا من ملكة إستعداد طبيعية، تدعونا إلى اتباع الخير وإجتناب الشر، وهذا هو الحكم الأخلاقى، أو هو الضمير، بالمعنى المحدود لكلمة الضمير باعتباره فعلاً من أفعال النفس أو وظيفة من وظائفها نطابق به أو بها بين مبادئ شريعتنا الأدبية الطبيعية وبين أفعالنا البشرية، على أنها مطابقة باطنية مستترة خفية مضمرة فيها إلزام ولها قوة وسلطان على بلوغ ما تصبو إليه النفس الناطقة بميل طبيعى لإدراك غاية طبيعتنا الناطقة.

ألقاب الضمير وأسماؤه

هذا الصوت الباطنى الملحف فى ندائه قد تطلق عليه أسماء متباينة وألقاب متغايرة لكنها لا تختلف فى المعنى التى تنطوى عليه والغرض الذى ترمى إليه...

(١) **شريعة أدبية**: فقد دعاه بعض الفلاسفة بذلك، لأنه يدعو إلى إلتزام الواجبات والآداب التى يجب أن يتأدب بها الإنسان إزاء الله، فيستجلب بها رضاه ويحقق سلامة نفسه وخير المجتمع. قال الفيلسوف الألمانى كانت: «شيئان يملآن نفسى روعة وإعجابا، لا يفتآن يتجددان: هما السماء ذات النجوم فوق رؤوسنا ، والشريعة الأدبية فى داخلنا».

(٢) **سيناء داخلية:** ولا شك أن المشابهة واضحة بين جبل سيناء، الذى أعلنت من فوقه شريعة السماء، وبين هذه السلطة الباطنية التى تعلن صاحبها إرادة الله وصوت السماء. وكل الفرق بينهما أن الأولى ظاهرية والثانية داخلية...

(٣) **الضمير:** أما علماء الأخلاق فيسمونه الضمير، ذلك لأنه صوت مضمر خفى باطنى مستور لا يشعر به غير صاحبه. ولعل هذه التسمية الأخيرة هى أشهر جميع الأسماء والألقاب، التى عرف بها هذا الصوت الباطنى على مجرى التاريخ الإنسانى، ولذلك اتبعها علماء الأخلاق الذين يدرسون الأخلاق الإنسانية على إختلاف صورها... وبيئاتها... واتبعها أيضاً الكتاب المقدس فى كثير جداً من النصوص التى وردت فى الأسفار المقدسة ... قال الرسول بصدد وجوب الخضوع للسلطان: «لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير» (١).

(٤) **الشريعة الطبيعية:** وكما عبر الوحى عن هذا الهاتف الباطنى بلفظة الضمير، كذلك ذكره فى بعض المواضع باسم الشريعة الطبيعية أو بالشريعة المكتوبة على قلوب الناس، فقال الرسول بولس فى رسالته إلى رومية فى معرض حديثه عن الأمم، أنهم : «يظهرون العمل بالشريعة مكتوباً على قلوبهم» (٢) فمن حيث أن الضمير مشرّع للإنسان يبصره بطريق الخير وينكبه سبيل الشر، فهو شريعة، ولما كان مطبوعاً فى النفس منذ القديم، فهو أيضاً طبيعى وليس مكتسباً، ولهذا ولذلك يسمى شريعة طبيعية.

وقد جاء فى القاموس المحيط: أن الشريعة فعيلة من شرع وهو فى اللغة: البيان والظهور، ويقال شرع له كذا أى جعله طريقاً ومذهباً، وفى الإصطلاح: **الشريعة بمعنى المفعول:** ما سنّه الله لعباده من السنن والأحكام، **وبمعنى الفاعل:** الائتمار بإلتزام العبودية وبما سنّه الله...

---

(١) رو ١٣: ٥ راجع أيضاً يشوع بن سيراخ (١٤: ١، ٢)، (٢٠: ٢٣) ثم أعمال (٢٣: ١)، (٢٤: ١٦).
كورنثوس الأولى (٨: ٧)، (١٠: ١٢)، (١٠: ٢٥، ٢٧ـ ٢٩).
وكورنثوس الثانية (١: ١٢)، (٤: ٢)، (٥: ١١).
تيموثيئوس الأولى (١: ٥، ١٩)، (٣: ٩)، (٤: ٢).
العبرانيين (٩: ٩)، (٩: ١٣، ١٤)، (١٠: ١٢)، (١٠: ٢٢)، (١٣: ١٨).
بطرس الأولى (٢: ١٩)، (٣: ١٦)، (٣: ٢١).
(٢) راجع النسخة العربية للكتاب المقدس المطبوع فى لندن بمعرفة وليم واطس ـ عن طبعة رومية.

وقد عرف بعضهم الشريعة بأنها القاعدة المثالية التى ينبغى أن تنطبق عليها الأشياء، طبيعية كانت أو صناعية أو أدبية، وعلى ذلك تتباين الشرائع فيقال: شرائع طبيعية، وشرائع صناعية، وشرائع أدبية..

والضمير بهذا المعنى شريعة، لأنه قاعدة للأفعال البشرية مقياسها الذى تميز به درجة خيرها أو شرها. وهذه الشريعة طبيعية لأنها نور طبيعى فطره الله فينا لندرك به الخير والشر، فهو نظام أدبى طبيعى وضعه من جعل للأفلاك ناموساً لا تتعداه ونظاماً لا تتخطاه، ولما كان الخير والشر يتوقفان على طبيعة الأفعال نفسها وليس لسبب خارج عنها، فالشريعة المدبرة لهذه الأفعال والمميزة بين الخير والشر تدعى بحق شريعة طبيعية....

* * *

قلنا أن الخير والشر يتوقفان على طبيعة الأفعال نفسها، إذ الخير خير فى ذاته لا لأن الله أمر به، ولا لأن الناس استحسنوا أو اتفقوا على أنه خير، والشر شر فى ذاته لا لأن الله نهى عنه أو لأن المجتمع نفر منه واستقبحه. ذلك أن كل ما له طبيعة يجب أن تكون له أفعال ملائمة لتلك الطبيعة، فإذا كان للإنسان طبيعة، وهذا أمر لا شك فيه، فلابد أن تكون له أفعال تلائم هذه الطبيعة، وإذا كانت طبيعة الإنسان طبيعة ناطقة فالخير ما وافق الطبيعة، والشر ما كان على خلاف ما يقتضيه العقل والمنطق.

(أ) أما الناس فلا دخل لإرادتهم لأنهم كيف يمكنهم أن يتفقوا على الخير والشر على الرغم من إختلاف بيئاتهم وجنسياتهم ولغاتهم وديانتهم وتنوع ثقافاتهم وعصورهم؟؟ وكيف يمكن أن نعقل هذا الاتفاق فى هذا الأمر- مع أنهم يختلفون فى أمور كثيرة- لو لم يكن هذا الذى اتفقوا عليه، واضحاً بيّناً جلياً فى ذاته بحيث يراه المرء ولا يستطيع أن ينكره. فالخير خير إذن فى ذاته ولا دخل لإرادة الناس فى ذلك....

(ب) وليست الشريعة السماوية أو الكتب المقدسة هى التى جعلت الخير خيراً والشر شراً. والحق أن الشريعة الإلهية أمرت بالخير لأنه خير فى ذاته ، ونهت عن الشر لأنه شر فى ذاته. ذلك أن العقل فى الإنسان سابق على تقييده بشريعة الوحى. ولو أن الخير ما أمر به الله والشر ما أنهى عنه، لأمكن أن يقال أن السرقة والخيانة والفسق كان يمكن أن تصبح أموراً خيرة لو جعلها الله كذلك. وحينئذ يكون الله تعالى قد أقام الشريعة على أساس إستبدادى مطلق وليس على أساس طبيعة الأشياء نفسها، وهذا أمر باطل بديهياً لأن الله تعالى خلق الكائنات وجعل لكل

طبيعة صفات وخواص تلائمها ملائمة ذاتية، وبهذا تكون الأمور الملائمة لمقتضيات هذه الطبيعة خيراً لها، أما ما ينافرها فيكون شراً لها. ولذلك تشبع الطبيعة وتقنع بخيرها الطبيعى ولا تستريح بالكلية إلا إذا إلتقت به أو غنمته....

قال النبى موسى فى سفر التثنية: « فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقى الرب إلهك لتسلك فى كل طرقه ، وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك.. وتحفظ وصايا الرب وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم لخيرك» (١)

هذا ولو كانت الشريعة الإلهية هى مصدر التفريق بين الخير والشر، لكان الناس يجهلون الفرق بينهما ما لم يتلقوا من الله أمراً صريحاً بذلك. والحال أن الناس قد استطاعوا - دون شريعة مكتوبة - أن يعرفوا الخير والشر، وأن يميزوا بينهما، وقد اعتبروا الخير وانهوا عن الشر...

ولو أن الشرع هو الذى أوجب بعض الأمور ونهى عن بعضها الآخر، فماذا يكون نصيب تلك الفعال التى ليست خيراً فى ذاتها ولا شراً فى ذاتها، كالتأليف والتصوير والتنزه والكلام وما إلى ذلك؟؟ ... وماذا يكون الشأن فى أفعال أخرى حسنة فى ذاتها، لكنها ليست واجبة كالزهد والنسك والتبتل، أو أخرى قبيحة فى ذاتها لكن الشريعة لم تنه عنها كالتزين والتنعم وما إليهما؟؟ أفهل تحكم عليها بالخير، أو الشر من وجهة نظر الشريعة، وهى لم تقيدها بأمر أو نهى أو تحكم عليها بنوع آخر من التمييز البديهى الذى نجده فى جميع الناس وهو الضمير أو الشريعة الطبيعية؟؟؟...

وإذن فالخير خير بطبعه... لمَا فيه من ملائمة ذاتية لطبيعة الخليقة الناطقة، والشر شر بطبيعته لمَا فى الشر من منافرة ذاتية لهذه الطبيعة (الناطقة)، وليس مرجع هذا التمييز لحكم الناس أو لمطلق شريعة الله. على أننا - هنا - نتكلم عن الطبيعة الإنسانية بما كانت عليه من طهر وسلامة لا بما طرأ عليها من فساد وإنحراف...

وقد يسمى الهاتف الباطنى شريعة طبيعية، لأنه يوجه الإنسان لإدراك ومعرفة غايته الطبيعية، أى غاية طبيعته الناطقة العاقلة، والوسائل التى تتحقق بها هذه الغاية، وإلى توجيه إرادته إليها وتجنب ما يعوقها عنها....

---

(١) تث ١٠: ١٢، ١٣.

ذلك أن الله تعالى خلق الكائنات لغاية حكيمة، ولابد أن يوفر لها الوسائط التى تبلغ بها إلى هذه الغاية حيث أنه حكيم، قدوس، قادر على كل شئ فيوجد فيها ميلاً يندفع بها نحو غايتها، وعلى ذلك فالإنسان أيضاً لابد أن يوجد فيه هذا الميل لإدراك غايته الطبيعية، وإلا كان أقل مرتبة من سائر الكائنات، وهذا الميل المتجه نحو الغاية الطبيعية هو الذى نسميه بالشريعة الطبيعية...

ولما كانت غايتنا الطبيعية هى معرفة الله أو هى الله بوصفه خيرنا الأعظم... فالخير إذن ... ما يقربنا إلى الله.... والشر .... ما يفصلنا عنه أو ينفرنا منه..، ولذا تنتعش النفس لأداء الواجب وتمتعض لإرتكاب الشر، إذ هى تحس بقربها من الله أو بعدها عنه كلما فعلت فعلاً يؤدى بها إلى غايتها أو يصرفها ويعوقها عنها، **ويقول توما الأكوينى**: «و أما الشريعة الطبيعية فليست شيئاً آخر سوى نور فى العقل مفاض من لدن الله، به يعرف الإنسان ما ينبغى عليه فعله وما ينبغى تجنبه ... وقد أعطى الله الإنسان هذا النور وهذه الشريعة عند خلقه إياه».

وعلى هذا يمكن أن يقال: أن الطبيعة الإنسانية شريعة لنفسها، أو على حد تعبير القديس بولس الرسول: الإنسان شريعة نفسه، أى أن التمييز بين الخير والشر مطبوع فى النفس الإنسانية وكأنه شريعة يتقيد بالعمل وفقاً لمقتضياتها. يقول الرسول أن: «الأمم الذين ليس عندهم الناموس إذا عملوا بالطبيعة بما هو فى الناموس، فهؤلاء وإن لم يكن عندهم الناموس فهم ناموس لأنفسهم» (١)

النظام الأدبى فى حياة الإنسان:

وبالإجمال ... فالشريعة الطبيعية هى الشريعة التى تفرض على الإنسان أن يوجه أفعاله توجيهاً صحيحاً تتحقق به غايته، أو هى الشريعة التى تشرف على تحقيق النظام الأدبى فى حياة الإنسان. والنظام الأدبى بمقتضى ترتيب الأفعال الإنسانية فى علاقة الإنسان مع الله من جهة، ومع نفسه من جهة أخرى، ومع الأغيار من جهة ثالثة، ومع سائر الخلائق الجمادية والنباتية والحيوانية من جهة رابعة، بما يتوافر معه الإنسجام والتوافق فى النفس الإنسانية نتيجة تحقيق الغاية الطبيعية للإنسان، وهى غاية طبيعته الناطقة العاقلة...

(١) **علاقة الإنسان مع الله**... هى علاقة المعلول بعلّته الأولى، فالله هو الخالق للإنسان ومكوّنه، ومن هنا فله عليه بالطبيعة واجب التعبد والشكران، والحب والاعتراف بوجوده

(١) رو ٢: ٤.

وآلائه ونعمائه وكمال صفاته، وأنه الخير الأسمى والغاية القصوى التى يجب أن يتجه إليها الإنسان....

(٢) علاقة الإنسان مع نفسه... تتضح فيما تشتمل عليه النفس الإنسانية من قوى وملكات، ولن يتم التوافق والسعادة فى نفس الإنسان إلا بتنظيم هذه الملكات والقوى، بحيث تخضع القوى الشهوية والغضبية للقوى العاقلة، وتدبر القوى العليا مختلف القوى المتوسطة والسفلى (على حد تعبير الفلاسفة وبالأخص أفلاطون الفيلسوف اليونانى الوثنى)...

(٣) وعلاقة الإنسان مع غيره من الناس... علاقة إحترام لحرياتهم، وعلاقة تعاون تتحقق به الغاية الطبيعية من المجتمع الإنسانى من جهة، والغاية الطبيعية التى يصبو إليها الفرد الإنسانى من جهة أخرى، وهى هذه الغاية التى يحددها القانون الطبيعى.

«كل ما لا تريد أن يفعله غيرك بك... فلا تفعله أنت بغيرك» (١).

(٤) علاقة الإنسان بغيره من المخلوقات غير الناطقة... من جمادات ونباتات وحيوانات، علاقة تدبير وتصرف بالقدر الذى يستعين به الإنسان للوصول إلى غايته الطبيعية، فهى علاقة مشابهة بينه وبين الله فى صلته بما دونه من خلائق وموجودات...

وعلى كل حال فسواء سمى هذا الصوت الباطنى بالضمير أو الشريعة الأدبية أو بسيناء الداخلية، أو بالشريعة الطبيعية، فهو نداء وشعور وإنذار وحكم يسكن نفس الإنسان يراقب أفكاره وأقواله وأعماله ، فإما أن تكون ملائمة بحق مباشرتها... أو واجبة يحتم فعلها، أو مخالفة يلزم تجنبها....

وجود الضمير عند جميع الناس، وفى مختلف مراحل العمر:

يستطيع الإنسان أن يميز تمييزاً واضحاً بين الخير والشر. وهو يرى أن الخير يفترق عن الشر إفتراقاً وجودياً، وليس ذهنياً إعتبارياً فحسب... وكما أنه يدرك بعض الحقائق النظرية بدون حاجته إلى البرهنة عليها لما تتصف به من وضوح وبداهة، كذلك يجد فى نفسه قضايا عملية بديهية واضحة يصدق بها دون نقاش أو جدال، فيدرك أن عبادة الله وإكرام الوالدين والأمانة والصدق فضائل، وأن القتل والفجور والفسق والسرقة والخيانة رذائل، وأن الخير يجب أن يتبع

(١) أورده كذلك طوبيا (راجع طو ٤: ١٦) وأورده السيد المسيح بصيغة أرحب وأغنى «وكما تريدون أن يفعل الناس بكم، فكذلك افعلوا أنتم أيضاً بهم» (لو ٦: ٣١)، (مت ٧: ١٢).

والشر يجب أن يجتنب، كل هذه القضايا تتبين أمام النفس واضحة جلية بحيث لا تستطيع أن تنكرها ، ولاَ يمكن أن تشك فيها شكاً جدياً، وإنما تجد ذاتها ملزمة بها بإعتبارها ضرورة مطلقة **ولذلك يقول أرسطو: «إن من يشكون فى وجوب عبادة الآلهة وإكرام الوالدين يفتقرون إلى العقوبات لا إلى البراهين»** ومعناه أن الشك فى هذه الأمور البديهية لا سبيل إليه، أما الذين يبدو أنهم يشكون فيها فالواقع أنهم لا يشكون وإنما هم يغالطون، وفى هذه الحالة يجب أن ينزل بهم عقاب صارم يردهم عن غيّهم....

ليس إذن ثمة إنسان ـ يليق به هذا اللفظ الرفيع ـ إلاَ ويشعر فى أعماق نفسه بهذا الإستعداد الطبيعي أو التمييز البديهى بين الخير والشر، أو ما يسمونه ـ كما أسلفنا ـ ملكة المبادئ العملية ، وكما أن رؤية الأشياء تقتضى وجود حاسة أو عضو البصر، وكذا القدرة على التمييز بين الأصوات دليل على وجود حاسة السمع فى الإنسان، هكذا التمييز البديهى بين الخير والشر أثر يدل على مؤثر، ومعلول يدل على علة وجوده، وهى الضمير أو الشريعة الطبيعية.

إنه تمييز بديهى ومع ذلك فهو تمييز مطلق عام، يوجد عند جميع الناس على إختلاف بيئاتهم وجنسياتهم ولغاتهم ودياناتهم، ومهما تباينت عصورهم وثقافاتهم وطبيعة بلادهم ومراحل أعمارهم ودياناتهم، فجميع الناس قاطبة يميزون بين الخير والشر، وهم يرضون عن نفوسهم إذا صنعت خيراً ويوبخونها إن فعلت شراً ويقابلون الخيِّرين بالحب والإعجاب، والأشرار بالنفور والمقت...

ودليل على إجماع البشر على الخير والشر، أنك تجدهما (أى لفظتى الخير والشر) فى كل لغة من لغات العالم، بل وإذا تأملنا القوانين والشرائع الوضعية التى تسير عليها هذه الشعوب والأمم، لوجدنا أنها قد امتدحت الفضيلة وذمت الرذيلة ودعت إلى الخير والواجب، ونهت عن الجريمة والشر، ولألفيت أن هناك أموراً متفقة وأصولاً عامة مشتركة تشهد بما طبع فى نفوس الناس طرا، من تمييز بديهى بين الخير والشر.

نعم... قد يكون هناك إختلاف بين أمة وأمة فى تشريعاتها الخلقية وقوانينها الأدبية، لكن هذا الإختلاف لا يتعدى التطبيقات والتفصيلات والنتائج البعيدة، التى تستخلص من الأصول العامة المبادئ الكلية، وهى أصول واحدة ومبادئ متفقة، وقد يطيش العقل فى التطبيق وإن كان الأصل ثابتاً مقرراً... ففى كل زمان ومكان يميز الناس بين الخير والشر ويفرقون بين الحلال والحرام، وهم يشعرون أن هذا التفريق وذلك التمييز هو من الوضوح والجلاء والشمول والثبات،

بحيث أنهم يستندون إليه فى الخطب والمقالات وكل دعوة إلى فكرة صالحة أو عمل نبيل، ومن هنا فإنك تجد كلمة «الضمير» معروفة فى جميع لغات العالم الإنسانى، مألوفة لدى مسمع كل بشر فى المعمورة، بل ونجد أموراً بعينها محرمة كالقتل والسرقة والزنى والكذب، وأخرى محتومة كالتعبد للإله والبر بالوالدين والصدق والعفة وما إلى ذلك من أوامر ونواهى نصت عليها الشريعة المكتوبة، التى لم تكن فى حقيقة أمرها غير تعبير مسطور عن المبادئ العامة والقوانين الأدبية غير المكتوبة، التى نجدها فى بواطن نفوسنا دون أن تتغير بتغير البيئات أو تختلف بإختلاف العصور.

ولقد ترجم سقراط ذلك الفيلسوف اليونانى الوثنى الذى لم يعرف شريعة موسى، عن هذا الشعور الداخلى والهاتف الباطنى، الذى كان يدعوه إلى الخير وينهاه عن الشر بسلطان رهيب كان يخافه سقراط. **فقال: أنه شعور عام يوجد عند جميع الخلق، وقد سماه «القوانين غير المكتوبة»** تمييزاً لها عن القوانين المكتوبة وهى قوانين الدولة، وقال عنها، أنها تفرض نفسها على الناس بالقوة، وتوجد فى كل مكان، ولا تتغير بتغير البيئات، ولما سئل عمن وضع هذه القوانين غير المكتوبة ... قال : أعتقد أن الآلهة هم الذين وضعوها من أجل البشر. وأن الذين ينكرون القوانين التى وضعتها الآلهة يتعرضون لعقاب لا يملكون إتقاء شره، ولكن الكثيرين ممن يخالفون ما تقضى به القوانين التى يضعها البشر، يستطيعون الهرب من عقابها بالإختفاء أو بمقاومتها.

ويقول الفيلسوف الإنجليزى داڤيد هيوم D. Hume : «يتوقف الحكم الأخير على أعمالنا سواء كانت محمودة أم مرذولة، على إحساس أو شعور (عام) داخلى... يتمتع به مختلف الأجناس والأنواع...».

وبهذا المعنى تحدث أيضاً **الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فقال: «ألق بنظرك على مختلف الشعوب والأمم، وقلّب صفحات تاريخها وأساطير ماضيها، إرتباطها جميعاً بمبدأ عام واحد على الرغم من إختلاف عاداتها وتباين أخلاقها**، فالشعوب بأسرها تدرك الخير والشر، ألم تقذف الوثنية بآلهة فظاظ الأكباد قساة القلوب، لم يرضها إلاّ سفك الدماء والتمتع بالدنئ من الشهوات؟؟؟ ألم تهبط الرذيلة من سماء الوثنية متوجة بسلطة دينية إلهية؟ ولكن مع كل ذلك (فقد) وجدت الوثنية فى قلب الإنسان غريزة أدبية تمجها وتتحداها .. فنالت زهادة (عفّة) الفيلسوف زينو حظوى لدى قوم تمرغوا فى عبادة (جوبيتر) الخليعة وقامت لكرشيا Lucretia تعبد فى عفّة الآلهة (الزهراء) الفاسقة، وبالإجمال كان صوت «الضمير»

المقدس أقوى من أصوات آلهة الوثنية فحبس الناس طغمات الشر والإثم وراء حدود الأرض، فلا يتعدى الفساد سماء الوثنية المجرمة...

يؤيد ذلك ما يقوله الوحي المقدس عن الأمم التى ليست لها شريعة إلهية مسطورة... إنهم «يظهرون عمل الناموس مكتوباً فى قلوبهم وضميرهم شاهد وأفكارهم تشكو وتحتج فيما بينها» (١) أى أن جميع الأمم الإنسانية تتمتع بهذه المحكمة الداخلية حتى لو لم تكن لها شريعة مكتوبة سماوية أو بشرية...

الضمير موجود فى جميع الناس:

إن الضمير موجود فى جميع الناس مهما إختلف الزمان والمكان، وكذلك يوجد فى الإنسان فى جميع مراحل حياته على الأرض، فالضمير فى الطفل وفى الشاب وفى الكهل وفى الشيخ وفى الهرم، ولعله مما لا يحتاج إلى بيان أن الشباب والرجال والكهول والشيوخ ذو ضمائر تختلف قوة وضعفاً، ولكن آثار الضمير فى حياتهم مما لا يختلف فيه إثنان، أما الأطفال فيبدون أمامنا أنهم خلو من الضمير، فهم يحتاجون إلى بعض من عنايتنا فى هذا البحث ...

والأطفال حقاً أنهم صغار، وحقاً أنه لم يكتمل نضوجهم الذهنى مما يترتب عليه عدم ظهور الضمير بمعناه الكامل، لكن هناك فرق بين عدم ظهور الضمير وبين عدم وجوده، إذ الطفل لم تتفتح قوى نفسه بعد، أو على الأقل ليس يجد فى عالمه الصغير ما يثير كوامن قواه النفسية بقدر ما يتسنى ذلك للشاب أو الكهل والشيخ.. فتظل غرائزه وميوله كامنة حتى يتهيأ لها جسمه وعقله وشعوره، وحتى تستثيرها عوامل المجتمع ثم منبهاته ومثيراته الخارجية....

هذا الطفل مزود منذ مولده بغرائز أدبية تنمو تحت تأثير البيئة والثقافة واكتمال عقله وحساسيته وجسمه، وتأخذ فى النمو والتقدم ويظهر أثرها واضحاً فى سلوكه وتصرفاته... وهى قابلة أثناء هذا كله وبعد هذا كله للصقل والتربية والتهذيب، ولن تقف قابليتها لهذا التقدم المطرد مادام له فى الحياة وجود...

وليس أدل على وجود الضمير أو هذه الغريزة الأدبية ـ على حد تعبير بعض الفلاسفة وعلماء التربية ـ من أن الأطفال ينقادون لنداءاتها حتى لو لم يتلقوا كلمة واحدة من واحد أو مرب، على شرط أن يكونوا بعيدين أيضاً عن المؤثرات الضارة، وبعبارة أوضح، لو أخذنا طفلاً رضيعاً من

---

(١) رو ٢ : ١٥.

بين ذراعى أمه، ونقلناه إلى بيئة بعيدة عن كل بشر يلقنه أو يرشده، فإنه ينشأ وفى نفسه شعور الحنين نحو إله يعبده، ولو إتصل بالبشر بعد ذلك لكان سلوكه معهم ينطوى فى صميمه وجوهره على مبادئ الخير والواجب، وإن كان يفتقر إلى كثير من التهذيب ليطابق بين المبادئ والأصول الخلقية العامة وبين الحالات الجزئية التى يلتقى بها فى المجتمع....

ويدل على وجود الضمير فى الأطفال أيضاً أنهم لا يناقشوننا صحة المبادئ والنصائح الأخلاقية التى نأمرهم بها، مع أنهم يسألوننا عن أمور أخرى كثيرة بدافع من غريزة حب الإستطلاع، وهذا لا يفسره إلا موافقة هذه المبادئ الأخلاقية لإستعداد طبيعى مطبوع فى نفوسهم أو هو الشريعة الطبيعية، فلو أنك قلت لطفل ما «أن الصدق فضيلة والكذب رذيلة، قبل منك ذلك ولم يرفضه أو يناقشه، بينما لو قلت له «أن الصدق شر والكذب خير، أو اكذب ولا تصدق، لوقف منك ذاهلاً مبهوتاً معتقداً أنك تمزح أو تسخر به. فالطفل يشعر شعوراً طبيعياً وفطرياً وتلقائياً بأن هناك أموراً بعينها خير يجب فعلها، وأموراً أخرى شر يجب إجتنابها، أى أن فى الأطفال ضمائر تأمر وتنهى...

ويدل على وجود الضمير فى الأطفال أيضاً ذلك الخجل الذى يحسه الأطفال عندما يرتكبون أموراً شائنة أو معيبة أو غير لائقة، أو عندما يخالفون قاعدة من قواعد الدين أو نصيحة من نصائح الوالدين أو المربين، فإنهم يتألمون.. ويتوجعون ... ويلحظون تقريع ضمائرهم لهم... حتى لو كانت المخالفة تجرى فى معزل عن عيون الناظرين...

قيل أن طفلاً اشتهى أن يأكل كعكة فى الصوم المقدس... وكان قد عرف وتعلم عن والديه تقديس الصوم، فسأل أمه أن تأذن له بأكلها فتعطف قلب الأم ورقّ لطفلها وقالت: «لا بأس إذا أكلت هذه الكعكة على أن تجدد بعد ذلك صومك».. فرد الطفل يده ثانية وكأنه لم يقنع بسماح أمه له ثم قال: «أنه سيمضى إلى الكنيسة ويصلى ليسمح له الرب بكسر صومه من أجل هذه الكعكة»... ومضى وفعل ثم رجع وأكل الكعكة ولكنه ندم جداً، ثم فتشت عنه أمه فرأته فى ركن من أركان البيت يبكى... فقالت: «ما بالك تبكى يا صغيرى؟؟...» قال: «لأنى كسرت الصوم».... فقالت: «أو لم تسأل الرب ؟؟...» فظل الطفل يبكى لأنه لم يجد لضميره مقنعاً....

كما يدل على وجود الضمير فى الطفل أيضاً ذلك الإرتباك الذى يستولى عليه حينما يرتكب خطأ، كأن يكذب فى سرد قصة أو واقعة يعتقد هو أنه كاذب فيها، فهذا الإرتباك بيّنة فى ذاته على أن الطفل يرتكب أمراً ضد طبعه أو يمثل دوراً لا ينسجم مع نداء نفسه ... (على شرط أن يكون الطفل فى حالة إطمئنان فلا يخشى عقاب من يكلمه) ... فكأن فى الطفل هاتفاً وصوتاً

يناديه أن يلتزم الصدق، ولكن الطفل يريد أن يكذب لتحقيق مصلحته. ولما كان الصوت يناديه وهو يتكلم فلذلك يرتبك ويضطرب لأنه يعجز أن يوفق بين نداء الضمير ونداء المصلحة الوقتية...

كفاية الضمير:

الضمير في الإنسان نور وهدى يرشد إلى الحق والعدل والخير، ولكن طالما كان حراً من كل قيد، سليماً من كل مرض، إذ الضمير يفسد بالخطيئة وسوء النيّة والقصد، وحينئذ يكون بمثابة المعيار أو الميزان الذى إختل فلم يعد صالحاً للوزن الصحيح والقياس الدقيق، أليس حقاً أنه بتفاقم الشر في الناس تمرض ضمائرهم وتفسد؟؟؟ لقد شهد الوحي بذلك فقال: «كل شئ طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شئ طاهراً، وإنما على العكس قد تنجس ذهنهم كما تنجس ضميرهم (١) » ... كما شهد أيضاً عن الأشرار أنهم: «يجدفون على ما يعلمون ، وأما ما يعرفونه من طبعهم كالحيوانات العجم... ففي ذلك يفسدون أنفسهم» (٢) .

يقول الرسول:

«يقول الروح (القدس) صريحاً أن قوماً يرتدون عن الإيمان في الأزمنة الأخيرة ويصغون إلى أرواح الضلال وإلى تعاليم الشياطين، مرائين ينطقون بالكذب وضمائرهم ملتوية ويمتنعون عن الزواج وعن أكل أطعمة خلقها الله» (٣) .

فالضمير وهو المشرع الطبيعي فينا قد يفسد ويختل ويتنجس، فلا يصلح في الأشرار أن يكون مرشدهم الأوحد الذى يعصمهم سبيل الخطأ والضلال...

ومع ذلك فهو هاد، أمين للأفاضل والأبرار، وقد يكون كافياً بذاته ليرشدهم إلى الحق والخير، وها هو تاريخ البشر حافل بكثير من الأفاضل ظهروا على مسرح البشرية، وكانوا فيها دعاة فضل وبر استطاعوا أن يكافحوا ضلالات عصرهم الفكرية والخلقية، دون أن يكون لهم من مشير أو مرشد غير هذا الهاتف الداخلي الذى استهدوه فهداهم واسترشدوه فأرشدهم...

من هؤلاء... هابيل وشيث وأخنوخ ونوح وأيوب وإبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف ... الذين أرضوا الرب وعبدوه بقلب سليم، ملتزمين الطاعة عائشين في الطهر والعفاف، منكرين للشهوات المحرمة، بيد أنهم لم يفعلوا الخير أو يكبحوا جماح نفوسهم بناء على شريعة مكتوبة ووحى

(١) تى ١ :١٥ . (٢) يه : ١٠ .
(٣) ١ . تى ٤ : ١ ، ٢ ، ٣ راجع أيضاً في الضمير أو الذهن الفاسد (رو ١ : ٢٨) ، (١ . تى ٦ : ٥) ، (٢ . تى ٣ : ٨) ، (تى ١ : ١٦) .

مسطور، بل كان وحى الضمير يقودهم وشريعة الطبع تهديهم. فلما أصغوا لندائها ولم يعصوا أمرها قويت شوكتها وغدوا بها كاملين وقديسين....

وهكذا الحال بالنسبة لبعض عظماء الوثنية وفلاسفتها الأفاضل... من أمثال: سقراط الذى يمكن أن نعتبره بمثابة نبى للوثنية... فلقد كان الرجل يصدر فى أفكاره وأعماله عن هاتف غير هاتف البيئة أو الثقافة المعاصرة والروح السائدة، وكان يشهد هو نفسه بأن صوتاً عميقاً وهاتفاً باطنياً كان يناديه من أعماق نفسه بما يجب عليه أن يفعله، ولذا كان فى صفاته عالياً نبيلاً كريم الخلق هادئ النفس وحليماً، وكان يعتقد بإله واحد فى بيئة كانت تؤمن بتعدد الآلهة، ونادى بخلود النفس والجزاء الأخروى، ووجوب عمل الخير للناس جميعاً أصدقاء وأعداء، بل واعتبر الأعداء أخوة لنا فى الإنسانية قد ساء تصرفهم وطاش حكمهم... إلى غيرها من المبادئ الخلقية التى ما كان لمثل سقراط أن يصل إليها فى وسط ينكرها ولا يمكن أن يعقلها إلا إذا كان لسقراط معلم آخر غير البيئة ... لكن سقراط لم يستق شيئاً من ذلك عن كتاب أو معلم سابق وإنما استقاه جميعاً .... كما يقول هو نفسه من وحى نفسه ومن نداء ضميره وشريعته غير المكتوبة....

ليس حقاً، إذن أن ننكر على الضمير كفايته للإرشاد والتعليم، وأنه يمكنه بذاته ودون مرشد آخر، أن يعرف الإنسان كيف يسلك وكيف يعيش بالبر والخير أمام الله والناس، لو وجد من الإنسان أذناً صاغية وقلباً واعياً وسلوكاً موافقاً لنداءاته وتوجيهاته...

وعلى ذلك فالأمم الذين لا شريعة لهم، يجدون من ضمائرهم شريعة طبيعية، ولما كانت شريعتهم هذه تكفى لهدايتهم إلى الحياة الطاهرة الموافقة لإرادة الله، فهم لذلك بلا عذر إذا أخطأوا وتدنسوا بالشر، وإذن فسيدانون ولكن بموجب قانونهم الطبيعى لا بناموس الشريعة المكتوبة .. «فكل الذين خطئوا بدون الناموس فبدون الناموس يهلكون ... وكل الذين خطئوا فى الناموس فبالناموس يدانون» (١).

---

(١) رو ٢: ١٢.

مصدر الضمير

إذا كان لكل معلول علّة، فلابد للإنسان أن يتساءل عن مصدر هذا الصوت الداخلى، ولا مشاحة فى أنه يمكن أن يفترض لذلك عدّة فروض: فما هو مصدر الضمير:

١ ـ هل هو الإنسان نفسه:

أجل ... ربما يكون مصدر الضمير، الإنسان نفسه... ولكن كيف يكون الإنسان آمراً ومأموراً معاً... وكيف يكون الإنسان مشرعاً لنفسه؟؟؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نشهد فى النفس حرباً ونضالاً، بين النفس التى تريد أمراً ما... وبين هذا الهاتف الذى ينهاها عنه، فلو كان منها.... فكيف لا تملك حق إسكاته... وما بالها تخشى حسابه وعقابه؟؟؟..

ليس الضمير إذن يرجع إلى الإنسان، وإنما هو حكم ورقيب على الإنسان يمدحه إن فعل خيراً ويعاقبه إن صنع شراً.. فما هو مصدره؟؟؟

٢ ـ هل هو الوالدين أو المربين:

ولكن ماذا نقول فى هذا الإفتراض وقد تبيّنا من قبل بأدلة قاطعة أن الأطفال ذووا ضمائر لم يتلقوها عن طريق التربية وتعليم الوالدين أو المربين، بل هى مفطورة فيهم كنفوسهم ومطبوعة على قلوبهم منذ وجودهم، وإن التربية لاحقة لا سابقة على الضمير الأدبى...

٣ ـ هل هو المجتمع:

أما أن يكون المجتمع مصدر الضمير، فهذا إفتراض باطل... لأن الإنسان قد يسلك وفقاً لضميره حتى لو كان بمعزل عن عيون الناس...وقد يرى الناس رأياً ولكننا قد اكتشفنا أو عرفنا ما يخالفه، فلن ترضى لنا ضمائرنا أن ننساق وراء الرأى العام بل قد نقف ضده ... ونحارب عن رأينا وتلهبنا ضمائرنا حمية على الدفاع عن المبدأ السليم، مهماً احتملنا فى سبيله من ضروب الآلام والإضطهاد، فلو كان الضمير من الناس لإنسقنا لكل ما يقوله الناس، ولِمَا كان هناك معنى للفضائل التى نمارسها دون أن يرانا الناس...

٤ ـ هل هو القوانين الوضعية:

فإذا قيل أن مصدره القوانين الوضعية، قلنا أنها قوانين محدودة بالنسبة للقانون الأدبى ... إذ القانون الوضعى لا يحاكمنا إلاّ عن الأخطاء الواضحة التى تجتمع الأدلة الخارجية على نسبتها إلينا، أما القانون الأدبى وهو الضمير فيراقبنا على حركات قلوبنا ... وخطرات أفكارنا .. وهو لا

ينتظر إقامة الدليل الخارجي، وإنما يكفيه الملاحظة الباطنية... فكيف للقانون الوضعى المحدود أن يكون مصدراً للقانون الأدبى، أليس حقاً أن يقال أن القوانين الوضعية هى التى تعد تعبيراً وترجمة عن القوانين الباطنية غير المكتوبة؟؟؟

على أن هناك فروقاً دقيقة أخرى بين القانون الوضعى... والقانون الأدبى... منها:

(١) أن القانون الوضعى قابل للتغيير والتبديل من حيث أنه موضوع لفئة خاصة وبيئة خاصة، ومن حيث أن واضعه يجوز أن يخطئ لأنه ذو عقل بشرى محدود، أما القانون الأدبى فهو قانون ثابت غير متغير، شأنه فى ذلك شأن القانون الطبيعى فى إطراده وعدم تخلفه، وذلك لأنه لم يضعه إنسان، ولا يناسب فئة خاصة أو بيئة خاصة، بل هو قائم فى طبيعة الإنسان الناطقة، ويصلح بل يطابق ويوافق جميع الناس فى كل الأزمنة وفى كل الأماكن، وعلى إختلاف الجنسيات والديانات واللغات والثقافات.

(٢) إن القانون الوضعى تشرف على تطبيقه وتنفيذه سلطة خارجية هى سلطة الحكومات، بينما القانون الأدبى لا يدعو إلى إحترامه غير الضمير الأدبى، وهو سلطة باطنية لا تحمل السيف أو النار أو العقوبات المادية...

(٣) إن القانون الوضعى ينظر إلى النتائج الظاهرة للمخالفات، ولا يتطلع إلى الباعث الباطنى إلا إذا كان له نتيجة خارجية، بينما القانون الأدبى يعنى أول ما يعنى بالبواعث الباطنية ـ الدافعة منها والغائبة ـ بل ربما تؤدى بواعث شريرة إلى نتائج صالحة، ومع ذلك يدين البواعث الشريرة غاضاً الطرف عن النتائج التى لا تكاد تعنيه إلا فى مرتبة تالية...

(٤) والقانون الوضعى يعاقب ولكنه لا يكافئ، أما القانون الأدبى فيتسع للعقاب ثم الثواب فيقدح على الشر، ويمدح على الخير....

(٥) والقانون الوضعى يقى المجتمع من المجرمين ... أما القانون الأدبى فيُكون أناساً كاملين لا يعنون فقط بالحدود الدنيا للأخلاق، بل يسعون بالأحرى لإدراك الكمال...

لا مفر إذن من أن يكون مصدر الضمير أعلى من الإنسان والمجتمع والقوانين الوضعية، لابد أن يكون الله مصدره، إذ أن كل شريعة تستلزم التكليف، ثم التكليف يقتضى توقيع العقوبة عند المخالفة، وبالتالى يقتضى من يتولى تطبيق هذه العقوبة، وهذا المتولى لن يكون الإنسان نفسه،

لأنه عندئذ لا يخشى نفسه، ولن يكون الناس لأن سلطانه باطنى ولا قدرة للناس على ذلك، فلابد أن يكون الله، والله وحده ...

ومن جهة أخرى نقول... إن الضمير شريعة، وكل شريعة لابد لها من مشرع، ولما كانت هذه الشريعة مطلقة عامة، فيجب أن يكون المشرع متصفاً بالعموم والإطلاق (إذ ليس شئ فى المعلول إلاّ ويلزم ضرورة أن يكون فى العلة) وليس كائن يتصف بالعموم والإطلاق غير الله... **فالله مصدر الضمير وموجده بمثابة رقيب وحارس ومرشد ودليل... ويقول الوحى: «نفس الإنسان سراج الرب، يفتش كل مخادع البطن» (١).**

ولقد اعترف بهذه الحقيقة فلاسفة الرواق فقالوا فى أخلاقياتهم: «اسع وراء الفضيلة، اصغ إلى صوت الضمير، لأن الضمير نوع من أنواع الألوهية الداخلية ـ شعاع من الألوهية فى داخل المرء ـ وربما كان وراءه كائن عظيم، وحتى إن لم يكن، فعليك أن تصغى إلى نداء هذا الصوت..».

ولذلك اتخذ اللاهوتيون وعلماء الدين من هذا الضمير ـ الذى يثير حرباً شديدة على النفس أو يمنحها إطراءاً وثناءاً ـ دليلاً على وجود الله. قال العلامة بورودون: «أن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا، فالله هو الكائن الذى لا يُدرك ولا يُوصف ومع هذا فهو ضرورى».

الضمير الأدبى والشعور النفسى

إذا كان الشعور النفسى هو المعرفة التأليفية أو التركيبية لأحوالنا النفسية وظواهرها، ومايعرض لنا فى أعماق نفوسنا من ضروب الإحساسات والإنفعالات والشهوات. ونسجها فى نظام واحد وإضافتها إلى ذات مشخصة هى منها بمثابة المركز الذى تصدر عنه، فإن الضمير الأدبى هو الذى يحكم على هذه الأحوال ويقيّمها مبيّناً ما فيها من خير وشر، وبناء على مثل أعلى يترسمّه وغاية سامية يقصد إليها... ويفرض على النفس أن تصل إليها بسلطان لا تملك مناقشته أو مخالفته...

الاختلاف بين الضمير الأدبى والشعور النفسى:

١ ـ فالشعور النفسى هو جماع الأحوال المختلفة التى تتناوب النفس الإنسانية، بينما **الضمير الأدبى <u>يختلف عنه فى تركيبه</u> وتعقيده، لأنه يتألف من عناصر مختلفة هى**

(١) أم ٢٠: ٢٧.

الغريزة والعاطفة والعقل والإرادة، وهى التى ينظمها ذلك التقسيم الذى أشرنا إليه آنفاً.. وهو العنصر العقلى والعنصر العاطفى.. والعنصر الإرادى أو الفعّال...

٢ ـ وبينما **الشعور النفسى ليس إلا مجرد شاهد عيان**، يشهد ما يختلف على نفوسنا من أفعال، **نجد الضمير بمثابة المشرع** الذى يشرع للنفس ما يجب عليها أن تفعله مميزاً بين الأفعال ودوافع الأفعال، كما أنه بمثابة القاضى الذى يحكم على الأفعال من ناحية خيريتها وشريتها ويحكم على الفاعل بأنه مستحق الثواب إن كان مصيباً، أو مستحق العقاب إن كان معيباً...

وإذن فالشعور النفسى يوقفنا على ما هو كائن فى نفوسنا، بينما الضمير الأدبى يوقفنا على ما ينبغى أن نكون عليه أو نصير إليه، محركا إيانا لبلوغ مثل أعلى وغاية نبيلة يحتم علينا بلوغها ...فكأن الشعور النفسى لا يقوم بغير عمل المشاهدة، أما الضمير فيزيد عنه بالحكم ودفع الإرادة...

٣ ـ وثمة فرق... ثالث... بين الشعور النفسى والضمير الأدبى.. هو أن **الشعور النفسى أضيق نطاقاً من الضمير الأدبى**، الأول، لا يكاد يمتد عمله إلى غير نفس صاحبه، بينما تمتد أحكام الضمير إلى اشباهنا ونظائرنا، فيحكم الضمير على الناس كما يحكم على نفس صاحبه، وقد اتضح لنا فيما مضى أن عواطف التقدير وعواطف التحقير هى التى تتولد فى الضمير من نحو أفعال الآخرين ومايجرى على ألسنتهم من أقوال ومايعبرون عنه من أفكار ..

٤ ـ ويتبقى بعد ذلك كله فرق... رابع وأخير هو أن **الشعور النفسى خط مشترك بين الإنسان والحيوان**، وإن كان لا يوجد فى الحيوان إلا فى صورة تلقائية بسيطة، بينما يوجد فى الإنسان بصورة أوضح وأرقى..

٥ ـ هذا، وبينما **يظهر الشعور النفسى فى أول عهدنا بالحياة** وهو يعمل باستمرار، **نلاحظ فى الضمير أنه يتأخر فى ظهوره** كما أنه لا يعمل دائماً...

حقيقة ... إن الضمير موجود فى الأطفال لكنه لا يظهر فى الرضعان منذ أول عهدهم بالحياة، أى أن الشعور النفسى يكون أسبق إلى الظهور فى حياة الطفل من الضمير الأدبى، وبينما الشعور النفسى لا يتوقف عمله وإلا توقفت الحياة، إلا أن الضمير الأدبى يمكن أن يضعف ويمكن أن يتعطل أو يختل عنصر من عناصره أو أكثر. كما رأينا فى حالة المجانين أو صغار الأطفال الذين يتعطل فيهم العنصر العقلى، أو حالة السكيرين والمدمنين الخمر أو المخدرات،

الذين فقدوا الحساسية أو العنصر العاطفى، أو فى حالة المترددين المصابين بفقدان الإرادة، أو بتعطيل العنصر الإرادى، كيف اختفى الضمير وتعطل عن عمله بفقدان أحد هذه العناصر الثلاثة ...

على أن الضمير الأدبى وإن كان يقوم بعمل عقلى بالإضافة إلى عمله العاطفى وعمله الإرادى، لكنه مع ذلك يختلف عن عمله العقلى البحت، حقاً إن العنصر العقلى فى الضمير يقوم بفعل التمييز بين الخير والشر، وهو عمل يمكن أن يقوم به العقل فى الإنسان، لكن العنصر العقلى فى الضمير يميز بين الأفعال تمييزاً غريزياً تلقائياً، وكأنه نور فطرى يبصرنا ويهدينا، أو هو نوع من الكشف الباطنى أو المعاينة المباشرة لقوانين لم نضعها نحن ولم نكتشفها نحن، بحيث أن التفكير أحياناً يسبغ عليها نوعاً من الظلمة والغموض فلا تكاد تبين...

تمايز الضمير الأدبى وتغايره

وإن كان الضمير هو شعاعة الألوهة فى الإنسان، لكنه مع ذلك قابل للتغيير والتبدل وعرضة للتحول والإنحراف، ويخضع لعوامل تزيده إرهافاً أو أخرى تحد من شوكته، ومن هنا فإن ضمائر الخلق ليست واحدة، بل متغايرة بإختلاف الأفراد وتغاير الأزمنة والعصور والبيئات، بل هى مختلفة فى الفرد الواحد بإختلاف مراحل حياته...

(١) تغاير الضمير فى الفرد الواحد:

وليس فى ذلك عجب، بل كل فرد يعرف نفسه حقاً، متأملاً ما يختلف عليها من أفكار وأحكام ومشاعر وعادات، وما يدركها من تحول وتطور، يشهد بأن أحكام ضميره على الأفعال أصابها، ولا شك، نوع من التطور والتغيير إن لم يكن كل التطور والتغيير، فكثير من الأمور كان يبدو لنا فى وقت ما أنه خير وأنه واجب، ولكنه أصبح يبدو لنا فى وقت آخر أنه شر وإثم.. هذا التغيير والاختلاف لا يجرى كيفما اتفق ولكنه يخضع لأسباب وعوامل توجهه وتحدده...

أ ـ العامل الأول: السن:

فأما أول هذه العوامل فهو السن، الفرق بين السنين يحدث فرقاً فى أحكام الضمير، فما يبدو فى الطفولة خيراً يجب إتباعه قد يبدو فى الرجولة أو الكهولة صغارة فى النفس وحطّة فى الخلق وشراً يجب هجرانه... وكل منا ولا شك قد أدركه هذا النوع من التغيير فى حياته بإختلاف السنين...

santamarlegypt.org

ولكن ما الذى يجعل للسن وتغايره هذا الأثر الواضح فى الضمير؟؟؟ إن الضمير وهو يتألف من عناصر ثلاثة، يدركه ما يدرك هذه العناصر أو بعضها من تحول أو إنقلاب: فالعنصر العقلى يتطور تبعاً للمعلومات والمعارف الجديدة التى يكتسبها بتقدم السنين، والعنصر العاطفى يتطور تبعاً لما يدرك العاطفة من ألوان التغيير فى مراحل العمر المختلفة...

فالشفقة التى لا تكاد تظهر فى الطفل الصغير، تتضح فى الشاب وتزداد فى الرجل، ولكنها تكاد تمتلك الكهل أو الشيخ، والعنصر الإرادى يخضع أيضاً لتغاير السنين: فإرادة الإنسان فى الطفولة، غيرها فى الشباب غيرها فى الرجولة غيرها فى الكهولة غيرها فى الشيخوخة ... فهى فى الطفل لكنها غامضة سريعة التحول، أما فى الشاب والرجل... فهى أقوى فيهما أكثر من أى مرحلة أخرى، لكنها فى الكهولة تفقد من عنفها وتكاد تنحل فى طور الشيخوخة...

فإذا كانت عناصر الضمير جيمعاً يدركها التطور تبعاً للسنين، فمن الطبيعى أن تتغير أحكام الضمير تبعاً لهذا التغير...

ب ـ العامل الثانى: التجربة:

والعامل الثانى من عوامل الإختلاف والتغير هو «التجربة»!!!... نعم التجربة ... فمن يقول أن الناس متفقون فى تجاربهم وخبراتهم؟ إن ما مر علىّ من أحداث فى الحياة يختلف عما مر على غيرى منها، وإذن ما استخلصته من عبر منها يختلف عما استخلصه غيرى من تجاربه، وتبعاً لذلك يختلف حكمى على الأفعال الخلقية عن حكمه عليها...

جـ ـ العامل الثالث: البيئة:

والبيئة ... أيضاً ... عامل ثالث، والبيئة بأنواعها المختلفة عائلية كانت أو ثقافية أو إجتماعية .. والبيئة العائلية تشمل الأسرة والمنزل الذى ترعرع فيه المرء، والبيئة الثقافية هى المدارس التى نشأ فيها... والكتب والمجلات التى قرأها والأساتذة الذين درس عليهم... والبيئة الإجتماعية تشمل العصر الذى ظهر فيه، والأصدقاء الذين عاشرهم، والأفكار السائدة والإتجاهات المتسلطة فى المجتمع. والنظام السياسى الذى يسود المجتمع، وطبيعة البلد ونوعه وتربته ومدى ثقافته وتطوره ورقيّه وصلته بغيره من البلاد...

كل هذه الإختلافات بين البيئات تنشئ فروقاً لا حصر لها بين الأفراد، وتنشئ فروقاً لا حصر لها بين ضمائر الأفراد...

santamar.aegypt.org

وكما كانت عناصر الضمير الخلقى الثلاثة متغيرة تبعاً للسن، وتبعاً لتغيرها تغيرت أحكام الضمير، كذلك التجربة وكذلك البيئة: عاملان يؤثران أشد تأثير فى كل عنصر من هذه العناصر، ولعل العنصر العقلى هو أول ما يتأثر بهذه العوامل، فيتأثر بالتالى كل من العنصرين الآخرين، لأن المجرب يحمل ضميره خبرات تنأى به عن الخطأ الذى كان يرتكبه الضمير قبلاً بجهل وعدم معرفة، كما أن من يعيش فى أسرة خلقية تمتدح الخير وتذم الشر، وفى مجتمع راق اكتمل أسباب الحضارة الحقّة، وقرأ كتباً خلقية وأدبية تمجد الفضيلة وتسخر من الرذيلة ... يختلف عن من يعيش فى أسرة خليعة مستهترة ومجتمع سقيم، ولا يقرأ إلا الكتب الرخيصة المبتذلة ولا يسمع إلاّ الأغانى القبيحة السمجة...

د - العامل الرابع: التغذية:

ويمكن أن نضيف إلى تلك العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً... وهو التغذية .. ومن الغريب فى الواقع أن تكون ثمة علاقة بين الغذاء وبين الضمير... بيد أننا نعنى بالغذاء ما يقوى النفس والجسد ... فالغذاء إذن غذاء مادى أو غذاء عقلى أو غذاء روحى، ولعله من الواضح جداً أن يكون للغذاء العقلى أثره فى الضمير لأن هذا الأثر يظهر فى العنصر العقلى أولاً...وكذلك الغذاء الروحى يظهر أثره أولاً على العنصر العاطفى، ولكن كيف يكون للغذاء المادى من طعام وشراب أثر فى الضمير؟؟ أجل فإن كان الغذاء الصحى شرطاً للجسم السليم، وكان العقل السليم فى الجسم السليم، فقد تأثرت إذن أحكام الضمير تبعاً لإختلاف العنصر العقلى بإختلاف التغذية.. فإما أن يكون العقل أكثر أو أقل نشاطاً، وإما أن يكون أكثر أو أقل إستعداداً لإقتبال المعارف والإفادة منها... هذا هو أثر الغذاء المادى على العنصر العقلى، وأما أثره على العنصر العاطفى فيتضح لا من حيث أن العنصر العاطفى، يتغير بتغير العنصر العقلى، ولكن أيضاً من أن حقنة من الكافيين أو المورفين تكفى لتهدئة ما يستشعره المجرمون من وخزات الضمير، أو تجعل من القاضى القاسى رجلاً أشد ما يكون تسامحاً فيما يرتكبه هو أو غيره من الأخطاء...

وما قلناه عن العنصر العقلى والعنصر العاطفى، يمكن أن نقوله عن أثر الغذاء المادى فى العنصر الإرادى، وربما كانت أكلة ثقيلة أو حقنة خاصة أو شدة الجوع... عللاً لتبدل الإرادة القوية إلى إرادة خائرة... فإذا كان الضمير مطالباً بأن يصدر فى هذه الحالة أحكاماً فلاشك أنها مختلفة عما يصدره فى حالة أخرى يكون فيها الجهاز الهضمى أو الدموى سليماً...

santamariaegypt.org

وهذا يؤدى بنا إلى القول **بأن الصحة أيضاً بالتبعية يكون لها أثر من آثار الإختلاف فى الضمير** ... ذلك أن الصحة الجسدية وهى خاضعة لنصيب الإنسان من الهواء والماء والغذاء والراحة والنوم ... وكذلك الصحة العقلية وهى خاضعة لسلامة عقله من الأمراض العقلية ومن الإضطرابات الجسمانية والعصبية، وكذلك الصحة النفسية وهى خاضعة لسلامة نفسيته وشخصيته من الإنحرافات والأمراض النفسية .. هذه الصحة ... فى مظاهرها الثلاثة يمكن أن تدخل تحت عامل التغذية، ويمكن أن تستقل عنه لتصبح عاملاً خامساً يحدث تغييراً عميقاً فى عناصر الضمير الثلاثة معاً...

أرأيت إذن أن الضمير فى الفرد خاضع لهذه العوامل جميعاً ... فلا تعجب إذا رأيت تغيراً فى آراء الناس وأحكامهم بين حين وآخر.. وليس من علاج يمكن أن تقدمه إلى نفس مضطربة قبل أن تعرف هذه العوامل، ومدى تأثيرها كلها أو بعضها فى ضمير الفرد وأحكامه على الخير والشر...

(٢) تغاير الضمير من فرد إلى فرد:

وإذا كان الإنسان نفسه يختلف فى طور عنه فى آخر، فإن إختلاف فرد عن فرد آخر يكون أكثر وضوحاً وأبعد عن الغموض والإبهام، وتبعاً لإختلاف الأفراد تختلف ضمائرهم، وعلى ذلك فضمائر الأفراد متباينة متغايرة يمكن أن نقسمها أربعة أنواع:

١) ضمائر ضالة جاهلة، أو فاقدة...

٢) ضمائر مرنة واسعة...

٣) ضمائر ضيقة موسوسة أو مضطربة...

٤) ضمائر مستقيمة سليمة صالحة...

١) **الضمائر الضالة الجاهلة**... هى الضمائر التى لا تستطيع أن تميز بين الحرام والحلال فى مسائل غاية فى الخطورة والأهمية.. فقد فقدت القدرة على التمييز بعد أن فقدت المعرفة التى تقودها إلى هذا التمييز، وقد تفقد كل نوع من التوجع أو الإكتراث للشر، فتسمى ضمائر فاقدة ويسمى صاحبها مفقود الضمير أو بلا ضمير ..

على أن الضمائر الضالة Erronées قد تكون فى ضلالها معذورة.. وقد تكون غير معذورة non coupapble ou coupable فهى معذورة إذا لم يكن فى مقدورها أن تجتنب

santamar aegypt org

الخطأ invinicibleblement erronée وهي غير معذورة إذا كان في استطاعتها أن تجتنب الخطأ viciblement erronée.

٢) **الضمائر الواسعة**... وهي ضمائر أفراد مستهترين يشربون الإثم كالماء، وهم أقدر ما يكون على أن يخلقوا لأنفسهم أنواعاً من المعاذير معللين أخطاءهم تعليلات تدل على مهارة وعلى ذكاء ،لكنها تبريرات يعلمون هم أنفسهم أنها خاطئة أو كاذبة .. لكنهم مع ذلك يبنون براءة نفوسهم أمام نفوسهم وأمام الأغيار .. بل هم قادرون كذلك على خلق المعاذير لغيرهم حين يخطئ هذا الغير أو يأثم، فضمائرهم تتسع لترحب بالأخطاء التي هي بالحقيقة أخطاء، ولكنها في عرفهم أموراً صالحة أو على الأقل دعت إليها الحاجة فهي مناسبة .. فهي إذن ضمائر تشعر بالخطأ حين لا يكون هناك صالح أو غرض خاص.. وعن هذا يقول الكتاب المقدس: «الإنسان الخاطئ يجانب التوبيخ، ويجد حججاً توافق مبتغاه» (١).

وقد يتسع الضمير ويضيق حسب الحاجة، وفي هذه الحالة يجوز أن نطلق عليه اسم الضمير الفريسي... نسبة إلى الفريسيين الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل...

٣) **الضمائر الضيقة**.. وعلى النقيض من الضمائر الواسعة توجد **ضمائر ضيقة** كل الضيق، لا تكاد تبيح لنفسها شيئاً، ولا تكاد تستريح إلى شئ (٢) هي قلقة مضطربة مترددة تعبث بها الأوهام والوساوس والأهجاس، فليس من تصرف تقدم عليه إلا وترى فيه إثماً أو شراً، وعلى الأقل تحس نحوه بنوع من القلق وعدم الإرتياح ، هي إذن في شك دائم وقلق متصل وحيرة متواصلة ... وهي في هذا كله لا يرضيها شئ.. ولا تقتنع بشئ ولا تطمئن إلى نصيحة ناصح أو مشورة مرشد أو كاهن، ويقول بوتافنتورا «يجب الحذر من الضمير الواسع جداً ومن الضمير الضيق جدا، لأن الأول: يولد الجسارة، والثاني: يولد اليأس، ثم أن الأول عادة يعلن الشر خيراً ، والثاني على العكس يعلن الخير شراً... كذلك الأول: يُخلص من يستوجب الهلاك، وأما الثاني فعلى العكس يُهلك من يستوجب الخلاص...»

٤) **الضمائر السليمة القوية**: ولكن في مقابل هؤلاء جميعاً، توجد **ضمائر سليمة قوية** (٣) مستقيمة، حساسة، تستطيع أن تميز في سهولة ويسر ... كما في ثقة ويقين ودقة ... بين الخير والشر أو بين المشروع والممنوع، ويمكنه أن يزن الأعمال ويقدر مسئوليتها بالضبط...

(١) يشوع بن سيراخ ٣٣: ٢١.
(٢) قد يعرف هذا النوع من الضمائر بالضمير الموسوس.
(٣) ويعرف هذا النوع أيضاً بالضمير الصالح.

santamaraegypt.org

ولعل الفارق الجوهرى الوحيد بين الأنواع الثلاثة الأولى وبين هذا النوع الأخير، أن تلك ضمائر منحرفة، وهذا ضمير سوى سليم، تلك قد اختل فيها عنصر أو أكثر من عناصر الضمير الأدبى .. أما هذا ففيه العناصر الثلاثة موفورة الصحة والسلامة، فوق أنها مؤتلفة منسقة منسجمة، ففى الضمير الجاهل الضال، قد اختل العنصر العقلى، وفى الضمير الواسع قد اختل العنصر العاطفى، وفى الضمير الضيق الموسوس قد اختل العنصر الإرادى...

أسباب اختلاف الضمير:

أما الأسباب التى نعلل بها إختلاف الضمير بين الأفراد، فهى إختلال قد أدرك أحد العناصر الثلاثة كما أسلفنا، وكانت العلة فيه واحد أو أكثر من العوامل الآتية....

العامل الأول: الإختلاف بين الأفراد فى نصيبهم من العقل:

فالعقل وإن كان حقاً مشاعاً للكل، لكن عقول الناس متباينة، فمنهم الذكى العبقرى ومنهم الغبى ... ومنهم قوى الذاكرة، ومنهم ضعيف الذاكرة، منهم واسع الفكر، ومنهم ضيق الفكر، منهم صاحب الخيال الواسع ومنهم ضحل الخيال، منهم العاقل ناضج الفكر.. ومنهم سقيم الرأى قصير النظر، منهم العادى فى تفكيره ومنهم الشاذ الغريب ... منهم المتزن ومنهم المجنون وهكذا... توجد بين كل طرفين من هذه الأطراف ما لا حد له من فروق وإختلافات بين عقول الناس، مما يترتب عليه من إختلاف الضمائر بين الأفراد...

ولقد وفق علماء النفس إلى أن هناك علاقة مطردة بين الذكاء وحسن الخلق أو يقظة الضمير.. ومن ذلك ما يقوله بعضهم من أن: أغبياء الأطفال أكثر من أذكيائهم عرضة للإجرام وللفساد الخلقى. إذا تشابهت بيئاتهم المنزلية...

العامل الثانى: اختلاف الناس فى الحساسية:

وكما يختلف الناس فى عقولهم يختلفون أيضاً فى مدى حساسيتهم.. فليسوا على مرتبة واحدة فى هذه الناحية، لأن صاحب الحساسية المرهفة لابد أن يكون ضميره مرهفاً أكثر من صاحب الحساسية المتبلدة.

العامل الثالث: الإختلاف فى الإرادة:

وكذلك الأمر فى الإرادة، فالناس يتوزعون حيث الإرادة، إلى صاحب الإرادة القوية والعزيمة الماضية، وإلى صاحب الإرادة الخائرة، وبين هذا وذلك فروق بين الإرادات بعدد الأفراد وطبيعى أن الاختلاف بين الإرادات يتبعه إختلاف بين ضمائر الأفراد...

santamar aegypt org

العامل الرابع: الإختلاف فى التربية والتعليم:

وليس مرادنا هنا أن نتحدث عن أثر التربية فى ضمير الفرد، وإنما يعنينا أن نبين أن الأثر الذى تطبعه التربية السليمة يختلف عن الأثر الذى تحدثه التربية السيئة، وأن من يتربى تربية قويمة عالية، ينشأ صاحب ضمير سليم، بخلاف من يتربى تربية سقيمة مريضة فإنه ينشأ ذا ضمير مريض منحرف.. أجل ... فالتربية المريضة إما أن تقود إلى بلبلة الفكر واضطراب الذهن فينشأ ضمير الفرد ضالاً جهولاً، وإما أن تقتل العواطف النبيلة والإحساسات الراقية فيصبح الضمير واسعاً، أو أنها تضعف الإرادة وتبلد العزيمة فيصبح الضمير متردداً موسوساً، أما صاحب التربية السليمة فهو صاحب الضمير السليم أيضاً، لأن التربية الحقة تقود إلى صفاء الذهن وتهذيب العاطفة وتنمية الإرادة وقوة العزيمة..

ولعلنا نعتبر التربية ناحية من نواحى البيئة، **إذا اعتبرنا البيئة عاملاً خامساً** من عوامل الإختلاف بين ضمائر الناس، وليس من الغرابة فى شئ أن تكون البيئة وما يسودها من آراء وأفكار، وما تمتدحه وما تذمه له أثره الفعال فى نفسية الفرد الذى يعيش فيها وضميره، ولما كانت البيئات مختلفة، فلابد أن يكون الأثر الذى تتركه هذه البيئات فى ضمائر الأفراد مختلفاً كذلك، وهذا معناه أن الفرد يعتبر إلى حد كبير صورة للوسط الذى يعيش فيه، وما من إنسان استطاع أن يقاوم كل أثر من آثار بيئته، أو تمكن من أن يخلص نفسه من العناصر العامة التى تسود بيئته...

على أن البيئة السياسية والنظام الذى ينتمى إليه الفرد، يوجه ضميره فى إتجاه يختلف عن الإتجاه، الذى يتخذه ضمير شخص آخر يعيش فى بيئة لها نظام سياسى آخر، فإذا كان الفرد ينتمى مثلاً إلى الطبقة الأرستقراطية فسوف يجد لنفسه أموراً محللة، قد يحرمها ضمير من ينتسب إلى طبقة ديموقراطية، فإذا نشأ المرء فى بلد مستبد فلن يهتز ضميره بحوادث الظلم والإستبداد، كما يهتز بها ضمير إنسان يعيش فى بلد هادئ عادل، لأن الضمير يمكن أن يتخدّر بالضربات المتواترة ... فيصبح ما كان غريباً عليه، مألوفاً لديه بحكم العادة والألفة...

على أن بعض هذه العوامل وراثى وبعضها بيئى.. فالعقل والشعور والإرادة كلها أمور وراثية، أما الثقافة والتعليم والنظم السياسية فعوامل بيئية، وكلا الوراثة والبيئة يؤثران فى حياة الفرد تأثيراً مغايراً لتأثيرهما فى الآخر، حتى لينتج أن جميع الناس مختلفون متباينون مهما كانت درجة التباين والإختلاف ضئيلة أو كبيرة...

ذلك أن الناس يرثون عن أسلافهم الصفات الوراثية المشتركة، كالشكل والسحنة والصفات العقلية والشعور والإرادة والصفات الخلقية أيضاً.. بيد أن الوراثة لا تكون نقلاً للصفات نفسها بل للاستعدادات فقط... حتى لقد قال العلماء المحدثون: «إن الوارث إنما يرث إستعدادات فقط»... كذلك للأجناس البشرية خصائص قومية تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ، وهى هذه الخصائص التى تجعلك تحكم ما إذا كان الرجل شرقياً أو غربياً، يابانياً أو مصرياً أو إنجليزياً أو ألمانياً، خصائص جسمية وعقلية وخلقية...

santamariaegypt.org

ولعله من باب الفائدة أن نقول أن لهذه الوراثة قوانين وأسساً بيولوجية، فالإنسان لا يرث من أبيه فقط بل يرث من أمه كذلك.... وقد تكون صفاتها متناقضة، ثم أن هناك من الصفات ما يبرز فى الولد، ولم يكن واضحاً فى الوالدين بل فى أحد الجدود، ومن الأمثلة على ذلك أب مصاب بعمى الألوان فلم تظهر هذه العاهة فى بناته الإناث بل فى أولاد بناته الذكور فقط، وقل مثل ذلك من الخصائص العقلية والخلقية...

غير أنه لا نرث من آبائنا وجدودنا إلا إستعدادات فقط، ولو أننا وجدنا ظروفاً مواتية من البيئة الخارجية، عائلية وثقافية وإجتماعية، فإن هذه الإستعدادات قد تنمو وتقوى وترقى، أو أنها تجد بيئة مخالفة مغايرة فتخنق هذه الإستعدادات وتقتلها، ومن هنا فقد يرث بعض الأبناء إستعداداً عاطفياً فينشأ أحدهم فناناً، وينشأ الثانى مصوراً، والثالث شاعراً ،والرابع خطيباً أو واعظاً، والخامس سكيراً، وذلك أنهم ورثوا إستعداداً واحداً ولكنهم اختلفوا فى نسبة ما ورثوه فى البيئة التى أحاطت بكل منهم...

فالإنسان إذن تتفاعل فى شخصه عوامل البيئة وعوامل الوراثة، غير أن الإنسان ليس كائناً قابلاً، وإنما هو الكائن الوحيد بين المخلوقات الأرضية الذى يستطيع بما أوتى من عقل ومن إرادة، أن يقاوم العوامل الوراثية أو يوقف من أثرها على حياته، وأن يضعف أيضاً من أثر البيئة على نفسه، بخلق بيئة جديدة عن طريق الفكر والثقافة أو بأن ينتقل هو إلى هذه البيئة الجديدة ....

وحقاً أن بعض العلماء وعلى رأسهم فرنسيس جالتون Galton وكارل بيرسون Peaeson يذهبون إلى أن الوراثة هى العامل الأكبر، أو هى العامل الوحيد فى تكوين شخصية الإنسان فقالوا: « بالوراثة يتحدد فى الإنسان نوع نفسه من يوم ولادته، وبها تصاغ أخلاقه وبها تحدد بنيته وبها يعين مقدار عقله، وأهم ما يساعد على رقى النوع الإنسانى هو إصلاح الوراثة

santamar aegypt org
بإصلاح الإنتخاب بين الزوجين ومنع التوالد بين من لا يصلحون للإنتاج طبيعياً أو خلقياً.. بينما ذهب غيرهم إلى أن البيئة هى العامل الأهم فى حياة الشخص، وإنه يمكن عن طريق البيئة الصالحة أن نعدل من آثار الوراثة، ويعتقد هذا الفريق أن كثيرين من الفلاسفة ورجال الفضيلة، ما كان لهم أن يصيروا هكذا لو لم يجدوا بيئة صالحة، وإن كثيرين من الفسقة والمجرمين لم يكن لغير البيئة من أثر أفعل فى حياتهم... وأن البيئة الفاسدة هى التى جعلتهم مجرمين...

وكلا الفريقين مصيب فيما أثبت، مخطئ فيما نفى، فلسنا ننكر أثر البيئة فى حياة الفرد لكنها لا تستطيع أن تخلق من الأبله فيلسوفاً، وليس يعقل أن يحصل بالفعل أن شاباً مولوداً من عائلة شريرة، ومن والدين فاسدين يكون مستعداً للفضيلة كشاب ولد من والدين طاهرين، ومن عائلة شريفة نبيلة ذات أخلاق عالية راقية، فالعوامل الوراثية لها قيمتها، ولكن من نواحى العظمة فى الإنسان أنه ليس مقيداً بالوراثة إلى درجة ميئسة، بل أن البيئة يمكن أن تقف فى سبيل الوراثة فتعطل من أثرها فى حياته، لذلك يمكن أن نؤمل خيراً عن طريق التربية وخلق بيئة ثقافية واجتماعية صالحة وهذا طريق مأمون ومضمون ومؤكد...

وإذن فالوراثة والبيئة يعملان معاً على تكوين الشخص فى جسمه وعقله وخلقه، وما أصدق قول بعضهم أنهما كالمضروب والمضروب فيه إذا كان أحدهما صفراً فالناتج صفراً، ويتضاعف أحدهما بالآخر... أو على قول الشاعر العربى:

رأيت العقل عقلين	مطبوع ومصنوع
ولا ينفع مصنوع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء الشمس ممنوع

وعلى الجملة فإن الإنسان يمكن أن يكون رباً لفعله مسئولاً عن عمله، إذا تحكم فى الوراثة وفى البيئة ... وإنه لمستطيع ذلك إذا حرص مجتمعه على أن يصون النسل بتهيئة أبوين فاضلين طاهرين قويين ومجتمع ثقافى ومدرس صالح، وجو فكرى راق ورأى عام مستنير وتيارات اجتماعية قوية، فإذا نشأ الأولاد فتكون لديهم استعدادات للنبل والفضل، وشعور إنسانى راق وضمير أدبى طاهر مستقيم، تعمل البيئة المدرسية والإجتماعية على تهذيبها ونموها وتطهيرها من شوائب الخبث والشر، فإذا ابتلى الشاب بإستعدادات وراثية يائسة رديئة، فلا ييأس بل البيئة كفيلة بأن تقاوم الآثار الضارة وأن تستبدلها بفواعل جديدة نافعة...

* * *

santamar.aegypt.org

وكأن الضمير إذن مرآة تنعكس عليها جميع المؤثرات التى تفعل فى حياة الناس، وكأنه بإختلاف الناس فى عقولهم وحساسيتهم وإرادتهم وتربيتهم وبيئتهم ونظامهم الاجتماعى أو السياسى تختلف ضمائرهم أيضاً، أو كأن الضمير فى كل واحد يكون ملائماً لنوع الحياة التى يحياها كل واحد. وإذا كان الضمير يمكن أن يتأثر إلى هذا المدى البعيد ... أفلا يمكن أن يغلق عليه أى أن يحجب عليه بستار العماية والضلال؟

نعم إن ذلك ممكن حين تسوء تربية الفرد حتى يصل إلى ما يعرف بإنقطاع الحاسة الخلقية أو ما يسمونه بالعماية الخلقية.. وفيها يسير الضمير فى طريق عكسى، يستشعره لذة كبرى فى المحذورات والممنوعات، وقد يصل إلى هذه الحالة من يصاب بضربة قوية على الجمجمة، على أنه يمكن أن تعود إليه سلامة ضميره إذا ما أجريت له عملية التربنة trépan.

(٣) تغير الضمير من أمة إلى أمة:

وما أعجب التباين الذى يلاحظ فى أحكام الأمم المختلفة على فعل بعينه: تراه أمّة ما صواباً يجب فعله، وتراه غيرها خطأ يجب تركه... تلك بحكم ضميرها على فعل بذاته أنه خير، وهذه عليه بأنه شر، ولقد أتحفنا العلماء والباحثون بطائفة من الأحكام المتغايرة على أفعال معيّنة، فإذا هى متناقضة غير متفقة بين أمة وأمة...

فبينما يطمح سكان الجزر فى فيجى إلى القتل وإلى سفك الدماء، نجد الهنود الجبليين يروضون أنفسهم على الفضائل والكمالات الخلقية، كالإستقامة والأمانة ونسيان الإساءة وفعل الخير والمعروف، أولئك تبيح لهم ضمائرهم أشر أنواع الجريمة، وهى لا تبيحها فقط ولكنها تطمح إليها وتطمع فيها كما لو كانت أفعال مجد وبطولة وشجاعة وإقدام، بينما قد وصل الهنود الجبليون إلى الشعور بأن الفضيلة خير وأن الرذيلة شر، وليس ذلك فقط بل يجب عليهم أن يروضوا نفوسهم ويقتادوها إلى الفضائل الجميلة وضروب الخير والأمانة والبر والمعروف.

وهناك بعض الأمم تأخذ أطفالها منذ نعومة أظافرهم بمبادئ الفضيلة والخير والواجب، وتنهاهم عن الإثم وجرائم الأخلاق، فإذا ارتكب أحدهم جريمة ما، كجريمة الخيانة أو السرقة أو الإتلاف فإنها تعاقبه وتفرض عليه إلتزامات بدنية أو مادية.... أو تحكم عليه بالحبس وأحياناً بالقتل والإعدام لكن أمماً أخرى تذهب إلى النقيض من ذلك تماماً، فقد ورد فى شريعة الألواح الإثنى عشر Lois des XII وهى أساس التشريع الرومانى فى العصور القديمة، ما ينص على وجوب معاقبة الطفل الذى سرق فى حالة واحدة فقط وهى: « إذا قُبض عليه وفى يده الشئ

santamar aegypt org

المسروق Vol manifest » أما إذا استطاع أن يسرق دون أن يُقبض عليه أحد فى أثناء ارتكابه لجريمة السرقة، فإنه لا يعاقب على ذلك حتى لو اتضح أنه قد سرق، بل أنه يكافأ على مهارته، فكأن الطفل السارق لا يعاقب لأنه قد سرق بل لأنه أخفق فى إخفاء جريمته، فإذا استطاع أن يسرق دون أن يعلم به أحد، فإنه بطل يستحق المكافأة وهو كفء فيما بعد لأن يكون رجل الدولة.

وبينما تعنى بعض الأمم بأطفالها أصحاء كانوا أو مرضى، وتبذل عناية خاصة بهؤلاء المرضى، فتنشئ لهم المستشفيات والملاجئ ودور التربية، فضلاً عن أن أمهاتهم يظهرون نحوهم أنواع العطف والحنان والرعاية، بل قد تأسست فى هذه الأمم هيئات خصيصاً للعناية بالطفولة ورعايتها. ينال فيها المرضى منهم مجهوداً وعناية خاصة - نقول، بينما يحدث هذا فى بعض الأمم نلاحظ بعضها الآخر كالأمة اليونانية فى تاريخها القديم... كيف كانت الأم لدى ولادة طفلها تغرقه فى برميل من الخمر - فإن كان قوياً عاش وكان مستحقاً للحياة، فإذا مات تخلصت أمه من إبن نحيل مريض سقيم ضعيف لا يصلح للحياة، بل وقد كانت الأم فى بعض الأحيان تطرح إبنها المريض على الجبال ليكون مأكلاً للوحوش الكاسرة، أو كانت تسلمه إلى من يصوب إلى قلبه ضربة أو سهماً يفصل بينه وبين الحياة...

هذا، وقد تختلف الأمم فى واجب الأبناء نحو آبائهم، فبعض الأمم كالأمة الإسرائيلية توجب إحترام الابن لأبيه، فإذا شتمه أو سبه حكم عليه بالرجم والقتل، وكذلك إذا شتم أمه أو سبها أو ضربها فإنه قتلاً يُقتل، هكذا حرصت الأمة اليهودية على تقديس مبدأ الطاعة والإكرام نحو الآباء والأمهات، لكن فى العالم أمماً أخرى تبيح بسلطة القانون أن يقتلوا أمهاتهم، إذا كانت أمهاتهم قد حاولن ضربهم فقط... وهذا ما يجرى عليه الحال فى بلاد الزولو فى أفريقيا...

وبينما توصى بعض الأمم بعناية الأبناء بآبائهم وإكرامهم، ولا سيما فى شيخوختهم ومرضهم، نلاحظ أن قبائل الدامارا فى الجنوب الغربى من أفريقيا، لا يتورع الأبناء فيها عن قتل آبائهم المرضى، وكل الذين تقدمت بهم السن، أو كانوا لا نفع منهم، بل وتذهب بعض القبائل المتوحشة إلى مذهب أفظع، فتأكل اللحوم البشرية، بينما لا يخطر هذا على بال أمم أخرى، بل إذا سمعت به فإنها تستفظعه وتعتبره وحشية لا إنسانية...

هذا كله معناه فيما يبدو ، أن الأمم ليست على اتفاق فيما يتصل بمبادئ الأخلاق ومعايير الفضيلة، وإن الضمير ليس واحداً فى جميع الأمم، بل قد يسمح بأمر ما فى أمة، ويحرم فى أمة أخرى...

santamariaegypt.org

ولهذا يقول الفيلسوف مونتانى Montaigne أنه لا يمكن أن يوجد قانون يمكن مراعاته من كل الناس، وأن العادات والأخلاق تتغير بتغير الزمان والمكان، وإلا فماذا عسى أن تكون هذه الطيبة التى كانت تعد كذلك بالأمس، والتى لن تكون كذلك فى الغد... والتى تستحيل إلى جريمة إذا ماعبر الإنسان النهر، وإذن يمكن أن تكون للحق حدود من الجبال، وأن يصبح هذا الحق باطل فيما وراء هذه الجبال...

وإذا كان هذا ما يذهب إليه الفيلسوف المشكك، فقد ذهب إلى مثله الفيلسوف بسكال أيضاً فقال: ليس ثمة شئ من العدل أو الظلم إلاّ وتتغير صفته بتغير الأقاليم وإختلافها، فارتفاع القطب ثلاث درجات، من شأنه أن يقلب التشريع رأساً على عقب، وأن للقانون أوقاته، كما أن دخول زحل فى برج الأسد دليل على حدوث جريمة، فما أعجب العدل الذى يحد بقناة...

ويقول بعض الكتاب المحدثين: أن المؤرخين من عهد بعيد أبانوا ما للأقاليم وسائر الأشياء الجغرافية من عظم التأثير فى رقى الشعوب، فالجبال وطول الشواطئ فى بلاد اليونان والهضاب السبع فى رومة، والشتاء القارس والليل الذى لا يحتمل فى جرينلند، والشمس المحرقة والحر الشديد فى أفريقيا، والحقول الخصبة فى أمريكا، استغرقت من المؤلفات فصولاً لبيان تأثيرها فى حال السكان، ـ ولو أنك غيرت بيئة الاسكيميين ببيئة سكان نيوانجلند، أو غيرت بيئة البريطانى ببيئة الأثيوبى، لشاهدت تغيراً فى الأخلاق كبيراً، وإنا لنستطيع أن نقول: إن مكان ولادة الإنسان ليحدد ـ إلى درجة ما ـ كثيراً من صفاته، أعالم أم حالم، أكسلان أم مُجد، أمتوحش أم متمدين، ....

(٤) تغاير الضمير من جيل إلى جيل:

ومن ذا ينكر تغير المعتقدات الخلقية على مختلف أحقاب التاريخ ومراحله، فالأمة اليونانية قد مرّت بهذا الاختيار، ومن يطالع الإلياذة والأوديسة يحكم على الفروق الواسعة بين المثل العليا التى كان يراها اليونان فى مختلف عصورهم، والتى تمثلها أبطال هاتين الملحمتين، فما كان يترسمه بطل ما من أبطالهم فى جيل، لم يكن متفقاً، فى مبادئ الخلق، مع ما يترسمه بطل آخر فى جيل آخر....

وهكذا الشأن فى الأمة الفرنسية.. فمعتقداتها الخلقية فى الوقت الحاضر، غيرها فى العصر الذى تمخض عن الثورة، غيرها فى العصور الوسطى....

santamar aegypt org

والحق أن هذا يصدق على كل أمة تقريباً، ولسنا نستطيع أن ننكر ما أدركنا نحن فى القرن العشرين، من تطور فى ضميرنا الجمعىّ ومعتقداتنا الخلقية ومثلنا العليا، بحيث أصبح ضميرنا يختلف إختلافاً كبيراً أو إختلافاً ما، عن أى جيل من الأجيال السابقة علينا.

فلقد كان الإنسان فى أول عهده لا يعنى بغير نفسه، ثم بدأ فكره يتسع فأدرك أن حياته فى عشيرته وبعشيرته، ومن ثم صار يدافع عن العشيرة ويعمل لخيرها مؤمناً أنه خير لنفسه، فإذا به يمتد إلى أفق أوسع فيرى وجوب العمل لخير القبيلة، التى تضم مجموعة من العشائر القريبة إلى عشيرته، ولكنه فى الآن نفسه يرى أنه غير ملتزم بشئ إزاء القبيلة الأخرى، إذ أن قبيلته هى عالمه الجدير بالبقاء، فلا خطأ عليه فى أن يقتل أو يسرق أو يسئ إلى القبيلة الأخرى، بل وكانت العلاقات بين هذه القبائل كما يروى الرحالة هى علاقات عداء على الغالب، ومما رواه بعض المؤرخين أن بعض قبائل أفريقيا يعاقبون بالموت منهم من يسرق شيئاً من أحد أفراد قبيلته، ولكنه يمنح مكافأة إذا سرق من قبيلة أخرى إعجاباً به و تشجيعاً له...

ثم ارتقى الناس وصاروا يتطلعون إلى الأمة التى تتألف من جميع القبائل التى تجمع بينها بيئة واحدة، بإعتبارها كتلة بشرية واحدة يشعرون نحوها بإلتزامات، ولكنهم لازالوا ينظرون إلى الأمم الأخرى نظرة عداء، ويعتبرونهم أمماً وحشية تفصل بينهم وبينها فروق وامتيازات شتى، وكان هذا على أظهر ما يكون فى أمتى «اليهود واليونان».. فاليهود يعتقدون أنهم هم شعب الله المختار، وأنهم أصحاب المواعيد والاشتراع، أرضهم مركز العالم وأورشليم عاصمة مملكتهم، هى أقدس بقعة فى الوجود، وأنه لايحق لفرد من أمة أخرى أن ينال من إمتيازاتهم، بل لقد كانوا يحرمون الربا فيما بينهم، ولكنهم كانوا يجيزونه فيما بينهم وبين الأجانب، وكان يعتقدون أن السماء وقف على أبناء إبراهيم وموسى وإسرائيل، وكذلك كان الحال عند اليونان، يعتبرون غير اليونان برابرة ومتوحشين، وكانوا لا يتخذون من اليونان عبيداً، بل من هؤلاء المتوحشين والبرابرة، وحتى أرسطو وهو أكبر فلاسفتهم لم يستطع أن يتخلص من هذا الإعتقاد وكان يقول عن الأرقاء أنهم «حيوانات مستأنسة لها عقل»، وكان إذن يضعهم فى مرتبة غير مرتبة اليونانيين، ومن شدة تعصبهم خيّل إليهم أن أعلى جبل فى العالم هو جبلهم المسمى أوليمبوس مع أنه لا يزيد فى إرتفاعه عن ٩٧٠٠ قدم .. وأنه مسكن الآلهة!!!

وعلى الرغم من أنه لايزال عند كثير من الأمم بقايا هذه الإعتقادات التى تجعل من كل أمة سيدة لجميع الأمم، ولا زالت نظرة الأمة إلى غيرها من الأمم نظرة العداء، لكننا نلاحظ موجة

santamariaegypt

أعمق تسرى بين الناس فى جميع الدول، تريد أن تجعل من الجنس البشرى كله أمة ودولة واحدة متحدة، ولعل القوانين الدولية والمؤتمرات الدولية والاتفاقيات الدولية بعض مظاهر هذه الوحدة، التى تريد أن تسود العالم الإنسانى بأكمله ... ولكن بعض الفلاسفة وكبار المفكرين يريدون شيئاً آخر أعمق من مؤتمرات دولية، يريدون أن يصبح العالم كله كتلة واحدة، تحكمه دولة واحدة ويتكلم لغة واحدة وتكون له ثقافة واحدة، ولاشك أن هذه نظرة تدل على مدى الرقى الذى وصلت إليه نظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان مهما اختلفت الجنسية واللغة والدين والبيئة ... وشتان إذن بين نظرة الإستعباد الأولى، وبين نظرة الإخاء والمساواة والحرية التى نتطلع بها إلى بعضنا البعض، والتى ـ وعلى الرغم من بعض الشذوذ الذى يكتنفها ـ تبشر بمستقبل سعيد فى عالم العلاقات الإنسانية...

إن هذه النظرة الإنسانية الواسعة سوف تقضى على الحروب والمخاصمات بين الأمم، وستجعل من البشر أخوة متحابين لا أعداء متنابذين، وستقتل التعصب الجنسى واللغوى، وتجعل الناس أكثر تفاهماً وأكثر إستعداداً للتفكير العالمى، لا التفكير الوطنى الأنانى...

هذا هو التطور الذى أدرك الإنسان فى نظرته إلى العالم، فمن العشيرة إلى القبيلة، إلى الأمة، إلى إعتبار العالم كله وحدة متماسكة، وهو برهان على ما يدرك الإنسان من تطور بين جيل وجيل...

وإنك لواجد هذا التطور قد أدركنا أيضاً فى كثير من التفاصيل، وإذا شئت فقارن بين عصور كان الملك فيها يستبد فى أحكامه، وليس مرد لقوله، وبين عصرنا الذى ترى فيه الملك مقيداً برأى السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، بل وقد استحال إلى أن يكون رمزاً للدولة يملك ولا يحكم، ثم قارن أيضاً بين عصور ما كان للإنسان فيها رأى إزاء الحكام، وما كان يستطيع أن يناقش أو يعارض، وبين عصر أصبح للصحافة فيه سلطان عجيب، وصار ممكناً لكل فرد أن يعبر عن رأيه، بل وأن ينتقد الحكومة وأن يناقش الآراء العامة دون أن تمنعه السلطة، أو تقف فى وجهه.. ألا حقاً أن التطور أدركنا وهو لا يزال يدركنا كلما إنتقلنا من جيل إلى جيل....

تعليل هذا التطور وتفسيره :

حقاً وإن إختلف الضمير وتغيرت أحكامه من فرد إلى فرد، ومن أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل، أو حتى فى الفرد الواحد من مرحلة إلى مرحلة من تاريخ حياته، ولكن هذا الإختلاف يجب ألا يساء فهمه فينظر إليه كما لو كان إختلافاً فى الأصول الخلقية، وعليه فواجبنا نحن أيضاً

santamariaegypt

أن نقف فى طريق الشكاك، الذين يتخذون من هذا الإختلاف حجة لإنكار الضمير وعدم الأخذ بأحكامه....

وليست الصعوبة فى تفسير ما يعرض للضمير من تطور بين الأفراد، أو ما يعرض له ضمير الفرد، فذلك موقوف على ما يصيب عناصر الضمير من تقدم أو تطور، نظراً للسن، والتجربة، والبيئة، والتغذية، والصحة، والتربية إلى آخر تلك العوامل التى تحدثنا عنها فى حينها، وإنما ربما تكون ثمة صعوبة فى تعليل تغاير الضمير من أمة إلى أمة أو تطوره من جيل إلى جيل...

ففى اختلافه بين الأمم هذا الإختلاف العظيم، الذى فيه نرى شعباً يقدس المبارزة والصراع ويبيح تعذيب أسرى الحرب والتمثيل بجثث الموتى، وشعباً يعتبر هذه الفعال شروراً وأموراً شائنة هدامة، نقول أن هذا الإختلاف وغيره مما ذكرناه وما لم نذكره، ليس إختلافاً فى الجوهر، وإنما هو إختلاف فى الشكل، أو بالحرى ليس هو إختلافاً في الروح وإن كان إختلافاً في المادة، فشعب الداماارا الذى كان يبيح قتل الأبناء لآبائهم المرضى، أو الذين بلغوا من العمر عتياً، ليس يختلف فى شعوره وضميره عن أى أمة تنادى بإكرام الوالدين والعمل على ما فيه خيرهما، إذ إنهم لا يقتلون والديهم قسوة منهم عليهم، ولا تبرماً بهم، وإنما لكى يخلصوا والديهم أو يريحوهم من الآلام التى يعانونها فى مرضهم أو شيخوختهم، فكأنهم يقصدون إلى خير الوالدين وإلى عدم إهانتهم ببقائهم فى الحياة معذبين مهانين...

وكذلك الحال فى الشعوب التى ترنو إلى القتل وتطمح إلى سفك الدماء، فإنها لا تفعل ذلك إلا إعتقاداً منها بأن الخير كل الخير لهذه الجماعة، هو فى تقتيل العاملين على هدم الجماعة وتدميرها بشرورهم أو مسلكهم الشاذ...

وأما الفرق بين أم تعنى بطفلها صحيحاً كان أو مريضاً، وبين أم تقذف به إلى اليم أو على أحد الجبال أو فى برميل من الخل، فليس فرقاً فى الشعور بواجب الأمومة، وإنما الفرق هو فى الطريقة التى تراها الأم مناسبة لأداء هذا الواجب، فالطفل المريض فى عرف الأم ذات الثقافة اليونانية هو عذاب لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه، ولأولاده من بعده إذا أصبح رب أسرة مستقبلا، فلكى تخلصه من نفسه وتخلص المجتمع وأحفاده منه تقتله فى مهده، لا بقسوة وعنف، بل وهى متألمة لألمه ولألمها فى فقدانه، ولكنها فضلت خير المجتمع وخير الأجيال على الإصغاء لعاطفة حسية تجر عليها وعلى ولدها وعلى أمتها مساوئ صحية وخلقية لا نهاية ولا حدّ لأثرها...

أما التشريع الرومانى الذى يكافئ الطفل إذا نجح فى إخفاء سرقته، فليس دليلاً على أن الأمة

الرومانية فقدت ضميرها، أو أن الضمير ليس له فى هذه الأمة وجود، وإنما التشريع ينص على أن مرتكب جريمة السرقة يجب معاقبته حتى لو كان طفلاً، وهذا دليل على أن الضمير لم يبح السرقة، ولم يعتبرها حلالاً وإلا لما أوجب عليها العقاب، أما مكافأته للطفل الذى أخفى جريمته، فذلك نظراً لالتصاقه بصفة أخرى يراها الشعب الرومانى صفة نافعة فى الحروب، وهى المهارة فى التخفى والتستر، مما يحقق النجاح فى الخطط الحربية، فطفل هذا شأنه يصلح فى مستقبل أمره للحرب، وتحقيق مصلحة الجماعة التى ينتسب إليها، والحق إن إمتداح مثل هذا الطفل لا يختلف عن إعجابنا أحياناً بالمجرمين وساسة العالم وقادته، فنحن ينصب إعجابنا لا على قسوتهم وتجبرهم وشرهم ومكرهم، ولكنه ينصب على بطولتهم ومثابرتهم وجهادهم فى سبيل تحقيق مآربهم، وليس يختلف عن إعجابنا بمهارة بعض اللصوص وبطولة بعض الأشرار، وهو لا يختلف عما نسلكه أحياناً حيال أطفالنا الذين قد يرتكبون أخطاء كبيرة أو صغيرة، ولكننا قد نعفو عنهم إذا اعترفوا صادقين بجريمتهم، حتى نشجعهم على الصدق والإعتراف بالخطأ والشجاعة، فيبدو لقصير النظر إننا نكافئهم علي شرهم، والحق أننا نكافئهم على شجاعتهم....

وقل مثل هذا، فيما تقصد إليه الكنيسة المقدسة من عرضها على أبنائها قصة أبطال وبطلات فى العفة والغيرة وقداسة السيرة، كيهوديت أو أستير أو راحاب أو غيرهن من القديسات، فإن القديسين والقديسات قد لا تخلو تصرفاتهم من أنواع من الحيلة أو الكذب، ولكن الكنيسة لا تذكر لنا هذا حتى نتعلم من القديسين الحيلة أو الكذب، ولكن لكى نعرف إلى أى مدى بلغ حب هؤلاء القديسين للفضيلة والإيمان والعفاف... إنهم يحتالون لصيانة هذه الفضائل أو لصيانة نفوسهم من الشرور التى تعرض أمامهم ... فيجب أن نلتفت إلى عمق الرغبة فى الفضيلة، قبل أن نلتفت إلى ما قد يكون فى تصرفهم من خدعة أو كذبة غير مضرة، فنحن نمجد القديسين إذن بذكر سيرهم أمام المؤمنين، لا لنمجد الكذب أو الخداع ولا لأننا نبيحهما، ولكن لنشجع صفات أخرى عظيمة تحلى بها هؤلاء القديسون الأطهار...

ولكن كيف نفسر حالة تلك الأمة التى تبيح شرائعها للأبناء أن يقتلوا أمهاتهم إذا حاولت الأم أن تضرب ابنها؟؟؟ عجيب حقاً أن يحصل هذا ولكن القانون لا يحتمه بل يبيحه فقط، هذا وضمير كل فرد يختلف عن الآخر تبعاً لعقله وحساسيته، فقد يصل فهم الولد وضمور حساسيته إلى قتل أمه دون أن يكون هذا دليلاً على فقدان الأمـــة لضميرها، أما لماذا تبيح قوانين هذه

santamariaegypt

الأمة هذه الجسارة، فإنما يرجع ذلك إلى ظروف خاصة بتلك الأمة، كأن ترى أن الأمهات اللواتى يضربن أولادهن ينشئنهم على الخوف والجبانة، أو قد يصل ضرب أمهات تلك البلاد إلى حد إيذاء الأولاد إيذاءاً دائماً، فيترك فى أولادهم عاهات، ولذلك تسن الأمة أو الدولة هذا التشريع لتجبر الأمهات على عدم إيذاء أولادهن، أو ضربهم بما يترتب عليه مضار بعيدة المدى فى حياة الأمة كلها.

وربما كان ذلك علة تتعلل بها هذه الأمة، وهى تقصد إلى قتل النساء واستبقاء الذكور نظراً لفقر تلك الأمة وعدمها من جهة، وحاجتها إلى الرجال فى الحروب من جهة أخرى، وربما كان ذلك نتيجة لسوء نظرة هذه الأمة إلى المرأة، وإعتبارها أحط مرتبة من الرجال، بحيث لا يجوز أن تتعدى على الرجال بضرب حتى لو كان هو ابنها...

وربما كان سلوك الأمة اليونانية حيال خطيئة الزنى، أعجب وأغرب من سلوك هذه الأمة نحو جريمة قتل الفتيان لأمهاتهم، ذلك أن كان فى أثينا هيكل يسمى هيكل الزهرة، وفيه فتيات قد أوقفن أنفسهن على الزنى، حقيقة أن هذا التصرف يدل على إنحطاط عظيم فى مستوى الأخلاق، ويدل على خمول الضمير وتخدره، ولكنه لا يعتبر دليلاً على عدم وجود الضمير إطلاقاً، فهذه الأمة لم تبح الزنى كلية، ولكنها أباحته فى قيود خاصة وهى أن يكون فى داخل الهيكل، وبقصد العبادة تبعاً لإنحطاط تصور ذلك الشعب فى فكرته عن الآلهة، ومع ذلك فالزنى فى ذاته لم يكن شيئاً يرضى عنه الضمير اليونانى، إذن الضمير موجود وإن كانت الخطيئة أرادت أن تقنعه بأن الزنى مباح فى هذه القيود الدينية.

ليست إذن هذه الإختلافات بين ضمائر الأمم، إختلافات عميقة غائرة إلى المنابع والأصول الأخلاقية، وإنما هى ترجع إلى ما تطبعه ظروف الجماعة أو الأمة على العنصر العقلى فى ضميرها من مؤثرات، وليست هى إختلافات فى المبادئ المجردة بل فى التطبيقات والتفصيلات، فما من أمة تعتبر القتل فى ذاته أو الفسق فى ذاته أو السرقة فى ذاتها أموراً صالحة، وإنما قد يبيحها ضميرها نظراً لبعض الاعتبارات والضرورات، ولسنا نريد أن نحكم على هذه الإعتبارات من حيث وجاهتها أو عدم وجاهتها، ولكننا نريد أن نستنتج من هذا كله أن أية أمة لا تصدر فى أحكامها عن ضمير يستحل الشر فى ذاته، وإنما هى، تبعاً لعقليتها ومبلغ حساسيتها وطبيعة بيئتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها، ترى العمل بالمبدأ القائل: «إن الضرورات تبيح المحظورات»...

santamariaegypt

إذن، فمن وراء هذه الإختلافات تسطع حقيقة واحدة: هى أن القتل والفسق والكذب والسرقة والخيانة أمور شريرة فى ذاتها، وإن الرحمة والعدالة والطهارة والصدق والأمانة أمور صالحة فى ذاتها ... تلك ممنوعة في ذاتها وهذه مشروعة فى ذاتها.... وليست هذه الحقيقة الواحدة سوى الضمير الأدبى ... هذه السلطة الأدبية الآمرة الناهية، مرشدة الأفراد والجماعات....

ويقول الفيلسوف الرومانى الشهير شيشرون... أن هناك قانوناً أساسياً واحداً ثابتاً أدبياً شاملاً لكل شئ، يوافق العقل والطبيعة ويحملنا على اتباع الواجب وتجنب الظلم...

* * *

فإذا أردنا بعد هذا أن نعلل اختلاف الضمير من جيل إلى جيل، كان علينا أن نلاحظ أولاً: هذه الأزمات الخطيرة التى تمر بها الأمة أو الأمم ... والتى يكون من شأنها هذا التحول والتبدل الذى يصيب الأفكار الخلقية، وهو تحول فى الحقيقة مفاجئ وعنيف، على أنه مع ذلك كان نتيجة لعمل بطئ كان يسرى سرياناً خفياً فى فكر الأمة أو الأمم، ثم اكتمل نضوجه فظهر دفعة واحدة وقفز إلى الوجود بطفرة، ولعل أوضح صورة لهذا التحول ما نشاهده فى الإنقلابات السياسية والثورات الإجتماعية، التى أدركت أمة ما من الأمم، والتى أحدثت أثراً عميقاً غائراً لا فى هذه الأمة وحدها بل وربما فى جميع الأمم الإنسانية، فتغيرت القيم الخلقية وتبدلت المثل العليا فى الفضائل والآداب، وأصبح أبناء الجيل حانقين على معتقدات السابقين مستخفين بآرائهم...

ومن يطالع الأوديسة والإلياذة يقف على ما أدرك الأمة اليونانية من تطور فى معتقداتها الأخلاقية، كانت البطولة هى القوة وكان «أخيل» بطل الإلياذة يتمثل فيه إعتقاد اليونان فى القوة أنها الحق، حتى لو كانت قوة غاشمة تبيح السلب والنهب، ولكنها أصبحت عند «إبليس» بطل الأوديسة شيئاً آخر غير القوة، هى الحزم والعزم، أو الحيلة والدهاء والمكر، أو الروية، أو العقل ثم تتبدل البطولة فى نظر اليونان، فإذا هى أمر أرقى وأسمى، هى ضبط النفس.... فمن قوة الجسم إلى فطنة العقل... إلى عظمة النفس... أو بالحرى من القوة المادية إلى القوة المعنوية والروحية...

santamariaegypt

وعلى هذه القاعدة، تطورت فكرة التقرب للآلهة أو التضحية، فقد كانت فى أول عهدها تضحية مادية، قيمتها فى كمها وكيفها... فى كثرتها العددية أو فى حسنها وجمالها وحسن منظرها، أو فيما أنفق صاحبها فى سبيل الحصول عليها من مال، ثم أصبحت تضحية معنوية، قيمتها لا فيما تساوى من تقدير مادى أو مالى، بل فيما إنطوت عليه نفس مقدمها من نيّة سليمة أو نيّة خبيثة، وها هوذا أحد أغنياء تساليا، فيما يروى فورفيوس، يتقدم إلى الآلهة وقربانه بين يديه، مائة جاموسة قرنها من ذهب، بينما يلقى فقير معدوم بقبضة من دقيق فى اللهب الذى كان يشتعل فى معبد أبولون، وما أغرب وقع كلمات الكهنة على مسامع الغنى والفقير والناس أجمعين، إن الفقير أقرب إلى الله بقربانه من ذلك الغنى الموسر، ذلك أن الفقير انطوى على نفس طيبة وعلى نية صافية نقيّة، وليس كذلك الغنى، فضلاً عن أن الفقير أعطى بنفس سخية راغبة فى العطاء والتقرب إلى الله، بينما الغنى أعطى بنفس طامعة فى المجد والفخار، كما أن الفقير قدم ما قدم وهو فقير معوز، بينما الغنى أعطى ما أعطى مما يفضل عنه، وما أشبه هذه القصة الجميلة بقصة المرأة الأرملة ذات الفلسين ... «وتطلع (السيد المسيح) فرأى الأغنياء يلقون قرابينهم فى الخزانة. ورأى أيضاً أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين.. فقال: «بالحق أقول لكم... إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع، لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا فى قرابين الله، وأما هذه فمن أعوازها ألقت كل المعيشة التى لها»... (١)

فالتضحية إذن تضحية معنوية تتوقف على نيّة المضحى ونقاء سريرته، كما تتوقف على ما احتمله المضحى من ألم ومن حرمان فُرض عليه أو فرضه هو على نفسه، ولم تعد بعد، تلك التضحية المادية التى تقيّم بالكم والمقدار وما احتمله المضحى فى سبيلها من بذل وإنفاق...

سيطرة العرف على الإنسان:

ثم انظر إلى الناس فى بدء عهدهم ولم يكن يسيطر عليهم غير العرف، فقد كانوا يخشونه قبل كل شئ آخر، ويصدرون فى أقوالهم وأعمالهم عن وحيه، ثم فإذا بهم يسطرون القوانين الوضعية ويقيسون الناس بإزائها وهى خطوة أكثر تنظيماً، ولكنهم فى الآن نفسه يجدون القانون الوضعى أضيق نطاقاً من القانون الخلقى، فيصير هذا أسمى فى اعتبارهم من القانون الوضعى، ولكنهم بمضى الزمان تتعقد حاجاتهم وتتشابك واجباتهم، فيختلط عليهم معرفة الواجب فى دقة وإحكام، فيضطرون إلى أن يبحثوا فكرة الواجب فى ذاتها، بغض النظر عن ملابساتها، حتى يمكنهم من بعد ذلك أن يحددوا واجبهم فى موقف معين. بمعنى أن رجلاً يشتغل فى المجتمع بوصفه قاضياً يحكم بين الناس، أخطأ أبوه أو أخوه أو ابنه وتعدى قوانين البلاد، فهو الآن أمام واجبين،

---

(١) لو ٢١ : ١ – ٤ .

santamariaegypt
واجبه نحو العدالة يقتضيه أن يحكم على قريبه بالعقاب الذى نص عليه القانون، ولكن عليه واجباً آخر نحو أبيه أو أخيه أو ابنه أن يخدمه ويحنّ إليه ويعمل على إنقاذه، فسيختلط الواجبان إذن، وقد يضحى الرجل بواجبه نحو العدالة إزاء شعوره بالواجب نحو قريبه، وهذا ما يميل إليه بطبعه لأن العاطفة الحسّية أقرب إلى تفكيره وتصوره من العاطفة المثالية، أما إذا فحصنا الواجبات وأرجعناها لأصولها وفقاً لدراسة علمية أمينة، فسيتضح لنا أن الواجب لخير المجتمع أولى من الواجب لخير الفرد أو القريب، لأن الخير العام يُقَدّم على الخير الخاص....

كذلك تطور المقياس الخلقى من العرف إلى الإستقلال الفكرى، أما العرف فهو عادات الأمة ومجرياتها فى أساليب طعامها وشرابها ولباسها وأعيادها ومواسمها واحتفالاتها، ونظام أفراحها ومآتمها، وللعرف سلطان على أفراد الأمة لأنهم ينشأون عليه، ولم يكن لهم سلطان فى وضعه لأنهم وجدوه قائماً عندما خرجوا إلى هذا الوجود، ولذا تراهم لا يملكون مقاومة العرف أو الخروج عليه وإلا تعرضوا لسخط الناس وازدراء الرأى العام بهم، فمن يبتدع لذاته زياً خاصاً أو طريقة مغايرة لعرف الأمة فى المآتم والأفراح، يقع تحت طائلة المذمة والإنتقادات المرة اللاذعة...

ومهما تكلمنا عن سلطان العرف على الناس، فى العصور الحديثة، فإنه لن يقاس بشئ إزاء ما كان له من سلطان على البشر فى أقدم العصور، أو حتى على كثير من القبائل المتأخرة غير المتحضرة، والتى تمثل إلى حد بعيد الإنسانية فى أقدم عهودها، كقبائل الهنود الحمر فى استراليا وأمريكا الشمالية، نعم... ليس لشعوب هذه الأمم القديمة أو القبائل البدائية المعاصرة مكان لأى فرد فيها بأن يغاير العرف، فلابد له، مختاراً أو مضطراً - من أن يخضع لمصطلحات أمته أو قبيلته، فإذا حاول الخروج عليها تألب المجتمع عليه واحتقره، وقد يصل الأمر بالأمة إلى أن تتخلص منه بالنفى أو القتل، لأنها تجد فى المخالفة لعرفها تمرداً عليها ومقاومة لها......

وحقاً أن الخضوع للعرف خضوع فى الآن نفسه للقيم الخلقية، التى يحرص المجتمع عليها صيانة لوجوده واحتفاظاً بكيانه، ولذا فكان العرف عامل عظيم ودعامة متينة من دعائم الأخلاق، لكن ليس كل ما يأمر العرف باتباعه صالحاً دوماً أو نافعاً حقاً ، فإن هناك عادات ضارة وخاطئة يأمر بها العرف، ويجد الناس أنفسهم مقيدين بالخضوع لها، كوأد البنات عند العرب، أو ختان البنات فى إقليم الصعيد على الخصوص فى مصر، ولو أن الناس ظلوا خانعين لهذه العادات المنحطة الضارة، لظل الناس منحطين فى مستواهم الخلقي وتفكيرهم الأدبى، ولظلت الأفكار الراقية بمعزل عنهم كما كان الشأن فى فكرة التعليم عموماً وتعليم البنت على الخصوص، إذ كان العرف يرى فى ذلك إفساداً للأخلاق وإتلافاً للآداب..

santamariaegypt

ولقد بلغ من سلطان العرف على الناس فى عهد بداوتهم، إنهم كانوا مندمجين فى قبائلهم ومجتمعاتهم، حتى لم يكن الواحد فيهم يفكر فى أنه شخص له كيانه الخاص أو له رأيه الخاص، بل كل حديثه عن قبيلته أو أمته كما نقرأ أمثلة لذلك فى أشعار العرب فى عصور الجاهلية (مثلاً فى معلقة عمرو بن كلثوم) فالفرد إذن لا يستطيع أن يبدى رأياً مستقلاً بل هو مستحسن ما تستحسنه قبيلته ويستقبح ما تستقبحه، فكأنه إذن قطعة من قبيلته يتبعها فى كل إمتداداتها وتقلصاتها...

فلما إرتقى الناس بدأوا يدركون رويداً رويدا ما فى هذا الإنقياد الأعمى من خطأ، وبدأ بعض العباقرة يتحدّون بعض التقاليد الإجتماعية، ولئن كانوا يعانون فى مبدأ الأمر مقاومة، لكنه بعد حين يشتد ساعدهم وينضم إليهم أفراداً ومجموعات، وبذا يتغير الرأى وينقلب العرف ويتطور التفكير الخلقى، ويشعر الفرد بأن من حقه أن يرى وأن يفكر.

وإذن فقد تطور التفكير إبتداء من العرف إلى فكرة القانون الوضعى، بل إلى تغليب القانون الأخلاقى، ثم إلى المبادىء والقواعد التى تنبنى عليها الأخلاق ومختلف الواجبات...

وتطور أيضاً من نظرة إلى الأعمال الظاهرة.. إلى أخرى.. لإكتشاف البواعث الباطنية والنوايا الداخلية...

وتطور كذلك من عادات تصلح لبيئة محدودة، إلى مبادىء وقواعد عامة تصلح لجميع الناس فى جميع البيئات فى جميع العصور...

وكأن الأفكار الخلقية قد تغيرت وتبدلت، فصار المرء يحكم على الأشياء لا نظراً لقيمتها المادية، بل بناء على ما يراه هو فى طوايا نفسه، أى أنه قد تطور شيئاً فشيئاً فأصبح يعنى بالباطن لا بالظاهر، وأصبح يستمد قانونه من ذات نفسه، وبموجب هذا القانون الباطنى يمكنه أن يُقَيِّم لا أفعاله فحسب، بل أفعال الآخرين وتصرفاتهم، وأيضاً كل شىء يراه أو يصل إليه من الحياة الإجتماعية أو الحياة الخارجية عموماً، وبهذا قد شعر الإنسان أن لذاته قيمة وأن هذه الذات مستقلة عن العالم الخارجى، وأنه ليس وسيلة للحكومة أو الدولة أو المجتمع بل هو غاية فى ذاته، وإذا كان لكل فرد هذه القيمة، وأن هذه القيمة ليست منحة لواحد دون آخر، فالناس جميعاً سواسيه ويجب أن يعاملوا بعضهم بعض بالمساواة، أو يجب على الحكومة أو الدولة أو المجتمع أن يعاملهم جميعاً على قدم المساواة، ومن هنا فقد أدرك الناس معنى العدالة ومعنى المساواة الإجتماعية، بعد أن أدركوا معنى الكرامة الشخصية والقيمة الذاتية، التى هى من حق كل إنسان من حيث هو كائن عاقل حر مريد...

santamariaegypt

ولما كانت العدالة والمساواة والكرامة الشخصية، يجب أن يرتب الناس علاقاتهم على أساسها، كان لابد أن يشعر المرء بالرحمة والإشفاق نحو الذين قد حرموا من هذه الإمتيازات الطبيعية، وأصبح سبيل لإظهار الكرم وعواطف المحبة والإيثار نحو الآخرين... وإذن فقد إرتقى الانسان من مرتبة الإثرة والأنانية إلى مرتبة أخرى... فيها إيثار لنفسه ولغيره... ثم إرتقى إلى أن أصبح يفضل خير غيره أحياناً على خير نفسه.. وهذه مرتبة الإيثار الخالص...

أليس هذا كله معناه أن الأفكار الخلقية فى الأمم الإنسانية يدركها التطور والتحول من جيل إلى جيل... انظر إلى الإنسان وقد كان يقيِّم الأمور بتقييمات ظاهرية بحتة مادية خالصة، فإذا به يرقى حتى يدرك قيمة ذاته... ويتخذ من أحكامه الباطنية مقياسا يقيس به جميع الفعال والتصرفات الصادرة عن ذاته أو عن ذوات غيره... وإذ بهذه الأحكام الباطنية والأفكار الخلقية تسمو وترتقى حتى تبلغ أعلى مرتبة من الكمال... وهكذا تقدمت الجماعات الإنسانية من حقبة إلى حقبة.. ورقت أخلاقها ولانت وأصبحت تشعر أن المعاملة الحسنة العادلة هى من حق كل فرد يتمتع بالوجود كإنسان، ولسنا نستطيع أن نتنبأ بما ستكون عليه أخلاق الأمم الآتية بعدنا، غير أننا نستطيع أن نستبشر بما ستكون عليه هذه الأخلاق من سموّ ورقيّ ، يعلوان قيمة وقدراً عما أدركته الإنسانية فى ماضيها البعيد أو حتى القريب، إذ الأمم كالأفراد كلما مرت عليها خبرات وأزمات، ربحت لذاتها ومن ذاتها مبادىء وأفكار جديدة أو على الأقل أكثر ملائمة وأوفر نصيباً من الصحة والإنضباط، وهى تتحول بفعل النظم والتربية والتعليم إلى ما يسمونه بالأخلاق العامة أو العادات العامة...

نعم.. قد تمر بالأمة أو الأمم فترات إنحطاط وتقهقر.. وذلك يرجع إلى إهمالها العناية بثقافتها وتربيتها والشعور بحريتها وكرامتها، ونسيانها قدر ما أصابت من قيم خلقية وإجتماعية، فإذا تقدمت وسائل التثقيف والتربية وإذا عرف كل فرد من أفراد الأمة والإنسانية قدر نفسه، وبذل من قوة إرادته ما يبلغه إلى مايصبو إليه من مثل عليا، فإن التقدم والترقى يجدان سبيلهما إلى هذه الأمة أو إلى الإنسانية عامة...

على أنه قد حرصنا على القول بأن التقدم الخلقى هو فى الأفكار الخلقية فحسب... ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه فى الحياة الخلقية ذاتها.. لأن الحياة الأخلاقية تقوم على النيّة الخيّرة، وعلى الجهد الذى يبذله الفرد أو الجماعة فى سبيل الرقى، ولسنا نستطيع أن ندّعى بأن نيتنا أسلم وأطهر من نيات أسلافنا، أو أننا نبذل مجهودا أكبر من المجهود الذى كان يبذله الأقدمون فى سبيل تقويم نفوسهم، وما أشبه الفرق بين الأمة فى جيل، وبينها فى جيل آخر وقد أدركها فيه

santamariaegypt

تطور وتقدم فى الأفكار الخلقية، بالفرق بين رجل وقد كان طفلاً لا يستطيع أن يقذف الكرة إلاّ إلي مستوى خاص، وبينه وقد أصبح رجلاً يمكنه أن يقذف بها فى العلو إلى مستوى أعلى... وكما أننا لا نستطيع أن نقول، أن الطفل كان أقل من الرجل رغبة فى الإرتفاع بالكرة إلى أعلى مسافة يمكن أن ترتفع إليها الكرة، وكما أننا لا نستطيع كذلك أن نحكم بأن الطفل بذل من الجهد فى سبيل قذف الكرة ما يقل عما بذله الرجل، كذلك لا نستطيع أن نحكم على أمة أنها أقل رغبة أو نيّة لإدراك الكمال منها فى جيل آخر، أو أنها أقل جهداً فى سبيل تحقيق هذه الرغبة وتنفيذ هذه النيّة، لقد كان اليونان يرغبون فى البطولة فى أول عهدهم، كما أنهم قصدوا هذه البطولة فى سائر عصورهم، ولكنهم كانوا يفهمون البطولة فى عصر على غير المعنى الذى يفهمونها عليه فى عصر آخر، فقد فهموها أولاً على أنها بطولة مادية، ثم فهموها على أنها بطولة فكرية، وأخيراً على أنها بطولة نفسانية أو معنوية، فالبطولة نفسها لم تتبدل فى حقيقتها وجوهرها عند اليونان، وإنما تبدلت فى معناها الذى لبسته خلال العصور، أو بعبارة أخرى أن الذى تبدل من البطولة هو مادتها وليست روحها أو صورتها، وقد يخضع هذا التبدل والتحول لعوامل المنفعة أو العادة أو العرف أو التقاليد أو مستوى الثقافة ومدى إتساع الفكرة، لكنه تحول فى التطبيقات لا فى المبادىء الأخلاقية...

النتائج التى نستخلصها من تمايز الضمير وتغايره:

هذا العرض لإختلافات الضمير من فرد إلى فرد ومن أمة إلى أمة.. وفى الفرد الواحد من مرحلة إلى مرحلة.. وفى الأمة الواحدة من جيل إلى جيل.. ليس عرضا لتغيرات فحسب، وإنما هو ينطوى على قواعد عامة وعبرات هامة، يمكن أن نفيد معها بعد فراغنا من هذا العرض...

الدرس الأول : أو العبرة الأولى: أن الضمير ليس معصوماً من الخطأ.. فقد رأينا هذا الضمير يبيح فى بعض الأحيان أمورا لا يبيحها فى أحيان أخرى، وقد يستحسن فى بعض البلاد فعالاً يستقبحها فى بلاد أخرى. ورأينا أيضاً أن هذا الإختلاف يرجع إلى محتويات العقل ومدى الحساسية وقوة الإرادة، ومستوى الأفكار الخلقية وقدر الثقافة وضروب التربية والتعليم. وإذن فالضمير وإن كان هادياً حقاً لكنه مع ذلك ليس مرشداً معصوماً من الزلل، فقد يحكم فى مسألة ما على قدر معرفة الإنسان عنها، ولكنه لا يستطيع أن يتخطى حدود هذه المعرفة إلى الحقيقة ذاتها، ولا يمكنه أن يهدينا إلى سلوك يعتبر سلوكاً صالحاً لكل عصر، فهو هاد لكنه مؤقت يوجهنا بقدر مالنا من علم وعرفان...

santamariaegypt
هذا.. ولما كان الضمير يخضع لمؤثرات تضعفه وتخدره وقد توقف عمله أو تعطله، فلم يعد إذن لهذا الإنسان هذا القائد الذى يهدى فقد أصبح مريضاً معلولاً، وقد إختلت أحكامه على الخير والشر...

لهذا وذلك لا يمكن أن نركن إلى الضمير - فى كل شيء - كأنه القائد الأمين أو كأنه المرشد الوحيد، فمادام الضمير غير معصوم من الخطأ، فلسنا نطمئن إذن إلى حكمه دواماً، بل يجب أن نضيف إليه مُحكَّماً آخر ليخبر الأفعال التى حكم هو عليها بالصواب أو الخطأ، بالخير أو الشر، أجل إن الضمير قد يكفى لهداية البعض، ولكنه ليس يكفى لهداية الكل، قد يكون قائداً أميناً نزيها بالنسبة لذوى الضمائر السليمة.. المستقيمة، والذين قد أصابوا نصيب وافر من العقل والعاطفة والإرادة، وألَّفوا من مجموعها وحدة مؤتلفة متكافئة القوى، ولكنه لا يكون كذلك لذوى الضمائر السقيمة المنحرفة، وحتى أولئك من ذوى الضمائر السليمة يجب ألا يغتروا بنفوسهم، فيظنوا أن أحكامهم صحيحة دائماً، مع أنها قد تصلح لهدايتهم فى هذا الوقت ولكنها لابد أن تتغير تبعاً لما يجب أن يزودوا نفوسهم به من معارف وخبرات...

لهذا إهتدى سقراط ولم يهتد غيره ممن كانوا يعيشون معه فى عصر واحد، ولكن هدايته كانت على كل حال مناسبة لما حصَّلَه من هذه المعارف والخبرات، ولو كان فى غير عصره لهداه ضميره هذا السليم إلى نواحى أخرى لم يستطع أن يهتدى إليها...

ولهذا أيضاً.. دعت الحاجة إلى شريعة أخرى غير الشريعة الطبيعية أو الضمير، لتزود الضمير بالمعرفة الإلهية الكاملة، ولكى تقيِّد الزلل والوقوع فى الخطأ إذا غفلت قواه عن الإدراك والتمييز، ولكى تعوض ما طرأ عليه من نقص وفساد نتيجة أُلفته للشر والعصيان..

هذا هو الفرق إذن بين الشعوب الوثنية والشعوب ذات الشرائع السماوية، تلك ليس لها غير ضميرها شاهداً وحكماً... أما الشعوب صاحبة الشريعة السماوية فلها حكم آخر فوق هذا الحكم غير المعصوم (وهو الضمير)... **لها شريعة مكتوبة تعصم هذا الضمير من الخطأ فى أحكامه**... وتوضح ما أبهم عليه وأشكل، وتزيده نوراً على نور بعد أن فقد هذا النور الأخير شدة ضيائه وقوة بهائه...

الضمير فى عهد الشريعة:

جاءت الشريعة الأدبية فى العهد القديم... تقول للإنسان لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم الوالدين. اعبد الله واسمع لوصاياه.. والواقع أن هذه الوصايا ليست جديدة البتة، وإنما هى تكرار وإعادة لما طبع أولاً فى النفس البشرية، ولكن لما رأى الله أن معالم هذا الطبع قد

أوشكت أن تمحى، خط عليها مرة ثانية ليبرزها ويعيدها إلى الوضوح الذى كان لها منذ القديم، منذ أن كان الإنسان طاهراً مستقيماً، ومنذ أن كان ميزان نفسه حساساً دقيقاً، ومنذ أن كان ضميره عفا سليماً، وقد قال القديس يوحنا ذهبى الفم: «إن الله تعالى قد تقدم فى إبتداء خلقه العالم، ورسم فى قلوب البشر ناموساً طبيعياً أى نور ومعرفة ترشد الإنسان إلى ما ينبغى له فعله، ولكن لما رأى تعالى أن كثرة الخطايا والإدمان عليها، قد أبطلا من قلوب البشر تلك السنة الطبيعية التى بها كانوا يهتدون إلى معرفة الخير وتمييز الشر، شاء بجودته غير المتناهية أن يمنحهم شريعة مكتتبة لكى يجدد بها رسم الناموس الطبيعى فى قلوبهم...

وليس مقصوداً هنا أن نبطل عمل الضمير أو نحتقر همساته، بل على العكس نريد أن نبين أن هذه الهمسات لا تكفى لأنها قد تضعف وقد تفتر وتخمد فيجب أن نقابلها بالضوء الأعظم، ضوء الشريعة المكتوبة وحينئذ نعرف الحقيقة فتستنير بها ضمائرنا، وتصير أكثر يقظة وأرفع إحساساً، فالشريعة إذن عون للضمير يستعين بها على ضعف الطبيعة وظلام الجهالة والضلال، وهكذا نطمئن إلى أحكام الضمير وهمساته فبعد أن كانت هذه الهمسات موضع شكًنا لما نحن فيه من جهالة ونقص، أصبحت هذه الهمسات ذات سلطان لا يتناوله الشك من جانب، لأنها قد اعتمدت على إعلانات الشريعة الواضحة، ولهذا يجد الضمير فرصة للقيام بعمله بنشاط أكبر وقوة أعظم..

الضمير فى نور المسيح:

والضمير فى نور المسيح **أكثر تمييزاً وأغزر مادة وأرهف حسا وأقوى إرادة**، مما كان عليه فى ضوء الشريعة المكتوبة أو بغير الشريعة المكتوبة، وذلك لأن .. السيد المسيح. ، قد وسع من معانى الشريعة المكتوبة وأوضح مبهماتها وغوامضها، ونقل حدودها العليا، فجعلها كمًّا لا يرتقب ولا يُدرك، لأنه كلما جد المسيحى فى أثره جرى الكمال أمامه... أو أدرك هو أنه بعيد من الكمال المرتجى، فلم يعد القتل قاصرا على نوعه المادى، ولكنه قد يكون مادياً وقد يكون أدبياً أو نفسياً أو روحياً، لم يبق الزنى هو إرتكاب الفحشاء فى الظاهر، ولكن تعداه إلى إتجاه النفس إليه فى الباطن، وهكذا قل فى سائر الوصايا المكتوبة أنها غدت فى نور المسيح أوسع معنى وأرحب مغزى وأبعد مدى...

على أن الضمير قد اكتسب فى نور المسيح قوة أخرى.. وذلك **بمواهب الروح القدس** ففى سر المعمودية نلنا التبنى والتبرير والفداء.. وأصبحنا معتقين من عبودية الخطية والإثم، **فاستنارت أذهاننا ورقت قساوة قلوبنا** التى إرتفعت عنها غباوة الخطيئة القديمة أصلية كانت أو فعلية، ونجت من عقوبة أبدية وسلطان الشيطان وتضليله، وفى سر الميرون حصلنا على

ختم موهبة الروح القدس وصرنا مثبتين في الروح santamariaegypt مجددين ومسلحين ضد إغراءات الخطيئة وسلطان الشيطان.

يقول الرسول في ذلك: «فلندن بقلب صادق وإيمان كامل وقد طهر الرش قلوبنا من دنس الضمير وغسل الماء النقي أجسادنا» (١).

«لأنه إن كان دم تيوس وثيران ورماد عجلة يرش على المنجسين فيقدسهم لتطهير أجسادهم، فكم بالأحرى دم المسيح الذي بالروح الأزلي قرّب نفسه لله بلا عيب، يطهر ضمائركم من الأعمال الميتة لتخدموا الله الحي» (٢).

وأصبح الروح القدس ساكناً فينا يشفع فينا بأنات لا ينطق بها، وقد صار فينا مبعث سرور وبر وعزاء وفرح وسلام(٣)، ومحركاً نحو الفضيلة والكمال هو يرشدنا إلى الحق (٤) لأنه روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، وهو يعلمنا كل شيء ويذكرنا بكل ما تعلمناه من الله، (٥) ولسنا في حاجة أن يعلمنا أحد عن الله، بل نحن قد تعلمنا من الله بفضل هذه المسحة القدسيّة التي مسحنا بها (٦) فأصبحنا بها مسحاء وشركاء الروح القدس والطبيعة الإلهية، كما أنه يخبرنا بأمور آتية (٧)، ويبكتنا عن خطايانا(٨)...

وقد عبر الرسول بولس عن هذه الإمتيازات التي نلناها بسّري المعمودية والميرون في رسالته إلى العبرانيين بقوله: «فلندع إذن كلام البداءة في المسيح، ولنأت إلى الكمال من غير أن نضع أيضاً أساس التوبة من الأعمال الميتة، الإيمان بالله، وتعليم المعموديات، وضع الأيدي، وقيامة الأموات، والدينونة الأبدية وهذا سنصنعه إن أذن الله، لأن الذين قد استنيروا مرة، وذاقوا الموهبة السماوية، وصاروا شركاء الروح القدس، وذاقوا كلمة الله الطّيبة وقوات الدهر الآتي، ثم سقطوا فلا يمكنهم أن يتجددوا ثانية للتوبة صالبين لأنفسهم ابن الله ثانية ومشهرين إياه» (٩)

فقد أبان الرسول فعل سّري المعمودية ووضع اليد (الميرون) بأننا في المعمودية ننال إستحقاقات صلب المسيح، وبالميرون نصير شركاء الروح القدس أي أننا في سر العماد ننال الفداء والتبرير، وفي الميرون التقديس والتثبيت.

ولذا فإن الإنسان لا ينال هذين السرّين أكثر من مرة واحدة. لأن المسيح لم يصلب، ولم يشهر به إلاّ مرّة واحدة...

---

(١) عب ١٠: ٢٢
(٢) عب ٩: ١٣، ١٤
(٣) يو ١٥: ٢٦، رو ١٤: ١٧
(٤) يو ١٦: ١٣
(٥) يو ١٤: ٢٦
(٦) يو ٢: ٣٧
(٧) يو ١٦: ١٣
(٨) يو ١٦: ٨ - ١١
(٩) عب ٦: ١ - ٦

santamariaegypt

وهكذا يتضح لنا أننا بنوال هذين السرين العظيمين، نفوز بالإستنارة وذوق المواهب السماوية والاستمتاع بشركة الروح القدس، وهذا معناه أن نور الضمير يزداد إشراقا بسرّى المعمودية والميرون. ولذلك فإن من يسقط ويرفض هذا النور الوضّاح، فلن يكون له سبيل إلى التوبة، لا من قبل نفسه التى قد عميت ولا من قبل الله الذى قد يرفض توبته حتى لو سعى إليها بدموع (١).

* * *

ما أبعد الفرق إذن بين الضمير فى العهد القديم.. والضمير في العهد الجديد، أو ما أعظم الكسب الذى أحرزه الضمير فى العهد الجديد عن طريق الأسرار المقدسة القائمة على دم الفادى المسيح، قال الرسول عن العهد القديم: «هو مثال للوقت الحاضر الذى يُقرب فيه قرابين وذبائح غير قادره على أن تعطى الكمال من جهة الضمير للذى يخدم» (٢) وإلا كان يكف عن تقديمها، حتى أن هؤلاء الذين كانوا يقدمون هذه الخدمة، إذا كانوا قد طهروا مرّة، لا يكون ضميرهم مثقلاً بعد بالخطايا» (٣)

والدرس الثاني: الذى نتعلمه مما سبق أن الضمير لا يعصمنا من الوقوع فى الخطأ.. فالضمير وإن كان مرشداً لكنه لا يرشدنا إلى الصواب دائماً، فقد يخطىء أحياناً متأثراً بشتى المؤثرات من ميول وشهوات... وتقاليد وعادات... فضلاً عن البيئات والثقافات... إلى غيرها من المؤثرات الداخلية والخارجية، والتى قد رأينا كيف يتأثر الضمير بها فيما يصدره على الأفكار والأقوال والأعمال من أحكام وتقديرات. ومادام الضمير يخضع لهذه العوامل ويتأثر بها، فلسنا نستطيع أن نسلم له القياد دائماً، بل يجب أن نتريث ونتروى لئلا تكون أحكامه ناقصة فى تحليلها أو متأثرة بفكرة سابقة أو عادة أو ميل أو شهوة، وإلا فماذا نقول عن أشخاص يرتكبون شروراً دون أن تؤنبهم على ذلك ضمائرهم، أو على الأقل دون أن يكون لهذا التأنيب أثر واضح فى تصرفاتهم...

الواقع... أننا كثيراً ما نخطىء، وقد نكون حسنى النيّة فى أخطائنا وضمائرنا هى التى أرشدتنا، ولذلك لا تؤنبنا، ومع ذلك فقد وقعنا فى الخطأ جهلاً منا وضلالاً ونسياناً، فلو كان الضمير مرشداً أميناً على الدوام، لما وقعنا فى خطأ على الإطلاق ولكن إذا كان الضمير يتأثر كان قد إنتهبه سيزيته بأفخر التحف ويرد الآنية المقدسة أضعافاً، ويؤدى النفقات المفروضةقدس من الخطأ لأنه لا يمكن أن يعلم كل شيء، ولا يمكن أن يتنبأ بكل شيء، مهما تكن نيّتنا سليمة ومقاصدنا عالية رفيعة...

(١) عب ١٢: ١٧ (٢) عب ٩: ٩ (٣) عب ١٠: ٢

santamarinegypt
كثيرون من الناس يتصرفون بوحى ضمائرهم فإذا خطأهم غيرهم، قالوا لم نخطىء لأن ضميرنا هو الذى أرشدنا.. فليعلم هؤلاء إذن أن الضمير لا يعصم الإنسان من الخطأ.. فهو يتصرف ويحكم فيما يملك، ولكنه قد يغير من حكمه لو اطّلع على حيثيات جديدة.

ومهما بلغ الضمير من شدة الإرهاف ودقة الإحساس، ومهما كان من شأن هذا الإحساس وذلك الإرهاف فى حياة المسيحى، الذى اقتبل سرّى المعمودية والميرون، وواظب على سرّى التوبة والتناول وسائر الرياضات والعبادات، من صلوات وأصوام وتأملات وقراءات، فإن المسيحى بعد هذا كله لا يصبح معصوماً من الخطأ فى كل ما يصدر عنه، لأن الله لن يعطينا عطية ليحرمنا من الأخرى، فإن وهبنا الأسرار للنمو فى الفضيلة وطريق الكمال، فكيف يحرمنا من نعمة الحرية والإرادة الحرّة المختارة... إن الأسرار تعين الضمير وتقويه ولكنها لا تعصم الإنسان من الوقوع فى الخطأ.. وإلا فكيف تفسر الأخطاء التى وقع فيها المسيحيون ويقعون فيها كل يوم... والهرطقات والتعاليم المضلة التى روج لها قوم مسيحيون قد بلغوا من التقوى بنصيب، وكيف تفسر التنهدات التى تنبعث من نفوس القديسين وقد شعروا أنهم خطاة ناقصون؟؟.. إلا بأن هذا الضمير لم يستطع على أى حال أن يعصمهم من الوقوع فى الخطأ..

فليحذر كل إمرىء.. وليحذر رجل الدين بالأخص من أن يظن نفسه أنه قد بلغ العصمة وأدرك الكمال.. وأن كل ما يراه ضميره ويصدر عنه إنما هو طهر كله أو صحيح كله... فهناك من العوامل مالا حصر له، داخلية وخارجية يتأثر به ضمير الإنسان، بعض مشعور به، وبعضه غير مشعور به... وهذا وذلك يكيف أحكام الضمير وإلزاماته...

قال الرسول: «وأما أنا فأقل شيء عندى أن يحكم فىّ منكم أو من يوم بشر، بل أنا أيضاً لا أحكم فى نفسى.. فإنى لست أشعر بشيء فى ضميرى لكننى لست مبرراً بذلك، فأما الذى يحكم فى فهو الرب» (١).

فأى فكرة أو حكم يصدر عن ضميرك، يجب أن تخضعه لمقاييس الصحة أو مقياس الكمال، يجب أن تقابل بين هذا الحكم، وبين نصوص الكتاب المقدس وأقوال القديسين المشهود لهم بالورع والحكمة والعمق، فالحق واحد والحقيقة ليست متناقضة، والروح القدس لن يهدى برأيين متعارضين، الوحدة فى الرأى والوحدة فى الفكر، والوحدة فى المعتقد، والوحدة فى النظرة إلى

---

(١) ١. كو ٤: ٣، ٤

الكمال، هى المقياس الأعلى الذى يجب أن نترسمه فى كل شىء.. الوحدة، نعم الوحدة هى المقياس، والكتاب المقدس فى مختلف نصوصه وفى متنوع أسفاره خاضع لهذه الوحدة، ويجب أن يخضع المفسرون لنصوصه، للوحدة السارية بين أسفاره وللوحدة السارية بين أقواله من جهة، وبين ما سلمه الرسل وخلفاؤهم من جهة أخرى، والتقليد أيضاً خاضع لهذه الوحدة، والمجامع المقدسة خاضعة لهذه الوحدة، فكل كتاب يزعم أنه مقدس ولا يخضع للوحدة العامة فهو كتاب مزور منتحل، وكل تقليد يخرج عن هذه الوحدة فهو تقليد دخيل، وكل مجمع يتحدى هذه الوحدة فهو مجمع باطل...

والضمير أيضاً لا يعصمنا من الخطأ.. إذا فسدت نياتنا، والتوت مقاصدنا، فهو سلطة باطنية، لكن المرء يستطيع أن يتحداها ويخرج على أوامرها، حقاً أنه سلطة رهيبة جليلة لكنه لا يقهرنا على فعل ما يرتئيه، نعم قد يؤنبنا ويوبخنا ويحكم علينا، ولكنه لا يقيد حريتنا ولا يسلب إرادتنا...

ويقول بعض المفكرين: «الضمير قاض عادل ضعيف، والضعف واقف فى سبيل تنفيذ أحكامه..»

وهذا يفسر ما يصرح به الناس من أقوال وما يذهبون إليه من أفكار، وما يقومون به من أعمال لا ترضى عنها جميعاً ضمائرهم، وهم يكلفون نفوسهم مشقة كبيرة فى إقناع هذه الضمائر بالأدلة والبراهين، ومن هنا فإن ما يلجأ إليه الملحدون من مقاومة لله، وما يحاولونه من جهود للبرهنة على عدم وجود إله، يعد عند المؤمنين دليلاً على أن ضمائرهم توحى إليهم بوجود الله، وهم يحاولون أن يسكتوا هذه الضمائر بإقناعها بالأدلة والبراهين، ولكنهم قد يفلحون إلى حين مع أنهم فى كثير من الأحيان لا يفلحون، وكثيرون منهم قد إعترفوا فى نهاية المعركة بأنهم خاسرون ونادمون على ما كانوا يفعلون ويفتكرون...

ومن بين هؤلاء عالم يقال له شميل.. اضطر أن يعترف وهو على فراش الموت بأنه كان أحمق عندما كان ينكر وجود الله، وأنه وهو على أبواب الأبدية يقر بالله والأبدية والخلود.» وقد وقفت الليدى هوب وهى إحدى شريفات الإنكليز، وإمرأة تقية، وسط مؤتمر نورثفيلد الدينى بأمريكا، وذكرت حادثة شاهدتها بعينها وقد نقلتها عنها جريدة (المراقب الممتحن) الأمريكية وهى:

«... فى ذات عصر يوم خريفى جميل الطقس، طُلب منى أن أدخل وأجلس مع الأستاذ تشارلس دارون، وكان كلما يقع نظرى على ذلك الوجه.. ازداد إعتقاداً بأنه سيكون زينة أكاديميتنا الملوكية، فلما دخلت عليه وجدته جالساً على فراشه، ولابساً قفطاناً ارجوانياً مزركشاً

ومزيناً بألوان جميلة، وحوله المخدات الحريرية تسنده، وكان يشخص ببصره إلى الغابات وحقول الحنطة، فسرّ عندما دخلت عليه، وأشار بيده الواحدة إلى النافذة التى كان ينظر منها إلى ذلك المنظر البديع، بينما كان يمسك باليد الأخرى الكتاب المقدس الذى كان يطالع فيه على الدوام مدة ملازمته الفراش، فلما جلست بجانب فراشه ابتدرته بالسؤال... ماذا تقرأ يا أستاذ؟ فأجابنى : «العبرانيين ، وهو السفر الملوكى ألا ترينه سفرا ملوكيا وعظيماً بالحق؟؟ ثم وضع أصبعه على بعض الأعداد، وأخذ يقرأ ويشرح، فأشرت إلى بعض أفكار الناس من الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، فظهر عليه الملل والضجر، وحرك أصابعه بسرعة وإنفعال، وقال بصوته الحزين الآسف... لما كنت صغيراً لم يكن لى فكر خاص، فنبذت عنى كل المباحثات والأسئلة والظنون، وكنت أتعجب كل الوقت من كل شيء.. ولزيادة دهشتى إنطلقت أفكارى هذه، كالنار بين الناس وسرعان ما كونوا منها ديناً غير دينى.. ثم صمت ونطق بجمل مختصرة عن قداسة الله وعظمة الكتاب المقدس، وهو ينظر إلى الكتاب الذى بيده ويشير إليه.. ثم قال فجأة : لى بيت صيفى فى تلك الحديقة يسع نحو ٣٠ رجلاً، أنه هنالك أمامنا.. ثم أشار بأصبعه نحوه.. وقال : أرغب إليك من كل قلبى أن تذهبى إليه وتعقدى فيه إجتماعاً دينياً، لأنى أعرف أنك تعقدين إجتماعات دينية فى القرى لقراءة الكتاب المقدس، فآمل أنك غداً بعد الظهر تعقدين إجتماعاً للعمال، الذين يشتغلون هناك، والمستأجرين والقاطنين فى تلك الجهة والجيران أيضاً، فهل تعدينى أنك تفعلين هذا، فقلت.. هل أخاطبهم عن ... فقاطعنى بسرعة وقال بصوت واضح.. عن يسوع المسيح.. ثم خفض صوته وقال وعن خلاصه، أليس هذا هو أفضل موضوع، ثم أريد أن ترتلى معهم بعض الترانيم، وأن تقدمى لهم على الآلة الموسيقية التى تخصك.. وراعنى لمعان وجهه والإرتياح الذى بدى عليه عندما قال هذه الكلمات.. ثم أردف.. إذا إبتدأت بالإجتماع الساعة الثالثة بعد الظهر، فإن النافذة ستكون مفتوحة، وتأكدى أنى أشترك معكم. فى الترتيل.(١)

وهذا هو عين ما سطره الوحى فى سفر المكابيين الثانى عن انطيوكس الذى خيل له بزهوه الذى لم يبلغ إليه إنسان، أنه يحكم على أمواج البحر، ويجعل قمم الجبال فى كفة الميزان وكان يزين له أنه يمس كواكب السماء... فقد استشاط غضباً على اليهود وأزمع أن يوقع بهم شرا مستطيرا.. «فأمر سائق عجلته بأن يجد فى السير بغير إنقطاع، وقد حل به القضاء من السماء.. فإنه قال فى تجبره:.. لآتين أورشليم ولأجعلنها مدفناً لليهود لكن الرب إله إسرائيل، البصير بكل

(١) راجع كتاب «بحث فى حقيقة الإيمان» للقمص إبراهيم لوقا.. مطبعة اليقظة سنة ١٩٢٢.. المحاضرة الثالثة.. ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٢.

شيء، ضربه ضربة معضلة غير منظورة، فإنه لم يفرغ من كلامه ذاك حتى أخذه داء في أحشائه لا دواء له ومغص أليم في جوفه.. وكان ذلك عين العدل في حقه لأنه عذب أحشاء كثيرين بالآلام المتنوعة الغريبة.. لكنه لم يكن ليكف عن عتيه وإنما بقي صدره ممتلئاً من الكبرياء ينفث نار الحنق على اليهود، ويحث على الإسراع في السير، حتى أنه من شدة الجرى سقط من عجلته، فترضضت بتلك السقطة الهائلة جميع أعضاء جسمه، فأصبح مصروعاً على الأرض محمولاً في محفّة شهادة للجميع بقدرة الله الجليلة... حتى كانت الديدان تنبع من جسد ذلك المنافق، ولحمه يتساقط وهو حي بالآلام والأوجاع، وصار الجيش كله يكره نتن رائحته، حتى.. لم يكن أحداً يطيق حمله لشدة رائحته التي لا تحتمل، فلما رأى نفسه في تلك الحال من تمزق جسمه، أخذ ينزل عن كبريائه المفرطة ويتعقل الحق، إذ كانت الأوجاع تزداد فيه على الساعات بالضربة الإلهية.. حتى أنه هو نفسه أمسى لا يطيق نتنه، فقال: حق على الإنسان أن يخضع لله، وأن لا يحمله الكِبر، وهو فانٍ، على أن يحسب نفسه معادلاً لله... وكان ذلك الفاجر يتضرع إلى الرب، لكن الرب لم يرحمه من بعد.. ونذر أن المدينة المقدسة التي كان يقصدها حثيثا ليمحو آثارها ويجعلها مدفناً.. سيجعلها حرة.. وأن اليهود الذين كان قد قضى عليهم بأن لا يدفنوا بل يلقوا مع أطفالهم للطيور والوحوش سيساويهم جميعاً بالآثينين. وأن الهيكل المقدس الذي كان قد إنتهبه سيزينه بأفخر التحف ويرد الآنية المقدسة أضعافاً، ويؤدي النفقات المفروضة للذبائح من دخله الخاص، بل إنه هو نفسه يتهود ويطوف كل معمور في الأرض ينادي بقدرة الله، وإذ لم تسكن آلامه، لأن قضاء الله العادل كان قد حل عليه، قنط من نفسه وكتب إلى اليهود رسالة في معنى التوسل.. وهذه صورتها: «من انطيوكس الملك القائد إلى رعايا اليهود الأفاضل.. السلام الكثير والعافية والغبطة.. إذا كنتم في سلامة وكان أولادكم وكل شيء لكم على ما تحبون، فإني أشكر الله شكراً جزيلاً.. أما أنا فرجائي منوط بالسماء.. وبعد، فإني منذ اعتللت لم أزل أذكركم بالمودّة ناوياً لكم الكرامة والخير، فإني في إيابي من نواحي فارس، أصابني داء شديد، فرأيت من الواجب أن أصرف العناية إلى مصلحة الجميع.. ليس لأني قانط من نفسي، فإن لي رجاءً وثيقاً أن أتخلص من علتي»(١).

وأقرب إلى هذه الواقعة الأخيرة، حادثة نبوخذ نصر ملك بابل، وقد كان يتمشى على قصر مملكة بابل ويقول بعجب وكبر: «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة إقتداري ولجلال مجدي، والكلمة بعد في فم الملك، وقع صوت من السماء، قائلاً: لك يقولون يا نبوخذ نصر الملك، أن الملك قد زال عنك، ويطردونك من بين الناس، وتكون سكْناك مع حيوان البر،

(١) سفر المكابيين الثاني فصل ٩ ابتداء من عدد ١ ـ ٢٢

ويطعمونك العشب كالثيران، فتمضى عليك سبعة أزمنة، حتى تعلم أن العلى يتسلط على ملك البشر، ويجعل له من يشاء.. فى تلك الساعة، تم الأمر على نبوخذ نصر، فطرد من بين الناس وأكل العشب كالثيران، وابتل جسمه بندى السماء، حتى طال شعره كريش النسور وأظفاره مثل مخالب الطيور، وعند إنتهاء الأيام، أنا نبوخذ نصر: رفعت عينى إلى السماء فرجع إلىّ عَقلى، وباركت العلى.. وسبحت وحمدت الحى إلى الأبد، الذى سلطانه سلطان أبدى وملكوته إلى دور فدور.. وحسبت جميع سكان الأرض كلا شىء.. وهو يفعل كما يشاء فى جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول ماذا تفعل: فى ذلك الوقت، رجع إلىّ عقلى، وعاد إلىّ جلال مملكتى ومجدى وبهائى وطلبنى مشيرى وعظمائى، وتثبت على مملكتى وازدادت لى عظمة كثيرة، فالآن أنا نبوخذ نصر، أسبح، وأعظم، وأحمد ملك السماء الذى كل أعماله حق وطرقه عدل، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذله» (١).

هذه الوقائع وأمثالها كثيرة، توضح لنا أن المرء قد يتحدى أوامر الضمير ويخرج عنها، على الرغم من قوتها وهيبتها، وأن التوبة عن الشرور تقوم فى الواقع على تأنيب الضمير، بحيث أنه لا يمكن أن نفسر التوبة أى الندامة على الخطأ ومايستشعره الإنسان من ألم مضر نتيجة إرتكاب هذا الخطأ إلاّ بوجود هذا الهاتف الباطنى الذى ندعوه الضمير..

وإذن فمن المستطاع على أى حال أن نسكت صوت الضمير، وأن نفعل على غير ما يريد الضمير، «قال القديس أوغسطينوس بهذا المعنى: «... أن الله سبحانه وتعالى. نصب فى قلب الإنسان ديواناً، وجعل فيه العقل قاضياً.. والضمير مدعياً، والفكر شاهداً، وكتب بأصبعه العزيزة على صحائف القلب آيات وجوده تعالى، ووحدانيته وأزليته وتكوينه العالم وعنايته به، فالضمير يقيم الدعوى على الإنسان مبيناً إلتزامات الشريعة مميزاً بين الحلال والحرام، بين الخير والشر، موضحاً أن هذا الفعل الذى يقدم عليه الإنسان خير يجب أن يتبع أو شر يجب أن يجتنب، وأن نية الإنسان فيه خيِّرة، أو شريرة، ولكن العقل الذى يصرف شئون الحياة كلها قد يقبل دعوى الضمير أو يرفضها، تبعاً لمصلحة الإنسان ووفقاً لخيره المادى أو الخارجى، وعلى هذا يفعل الإنسان الفعل على الرغم من صوت الضمير، وهنا يحتج الضمير ويغضب، ولا يكف عن توبيخاته وتقريعاته، التى تظل تقوى كلما اكتشف الضمير سبباً جديداً يحتج به على سوء تصرف الإنسان، ثم ينتصب فى موقف القضاء ليحكم على الفعل وعلى صاحبه بالشر والنقصان، الضمير إذن لا يعصمنا من الخطأ، بل ينبهنا إلى الخطأ على ما فى حيازة الإنسان من معرفة وخبرة.

---

(١) دانيال ٤: ٢٧ ـ ٣٤

والدرس الثالث: الذى نستخلصه من إختلاف الضمير.. هو أن فساد الضمير فى فرد أو أمة ليس دليلاً على فساده فى جميع الأفراد أو جميع الأمم... فمن الخطأ أن نعمم الحكم ونذهب فى الإستنتاج إلى درجة تدنو بنا من اليأس فى ميدان المعتقدات الخلقية أو من الشك الهدام، الذى ننكر معه وجود هذه السلطة المقدسة الباطنية وهى الضمير، على أننا نقصد حقاً هنا فقدان الضمير إرهافه ودقة ثورته للأخطاء وعدم قيامه بوظيفته أتم القيام.. وهذا يرجع دون شك إلى مؤثرات البيئة والعادات السائدة والإتجاهات الإجتماعية الغالبة، وإلى الثقافة والعصر وما إلى ذلك... فهذا كله من شأنه أن يفعل فى الضمير فعلاً شديداً، فلابد أن تكون أحكامه على الأفعال الإنسانية متأثرة بهذه العوامل. ولئن كان حقاً أن الضمير فى بعض الأفراد الممتازين يمكنه أن يخرج على البيئة، وأن يحتج على المعتقدات والأفكار الخلقية التى تسود المجتمع، لكن هذا الخروج أو الإحتجاج ليس يخلو ناحية من نواحيه من التأثر بهذه العوامل البيئية. وإن كان فى سائر النواحى أو فى بعضها يبدو للناس أنه خروج واضح وإحتجاج عنيف..

هذا وأن ما يظهر من تصرفات بعض الأشخاص من مقاومة لبيئتهم ومناهضة لأفكار وأفعال الوسط الذى يحيون فيه.. وإن دل على شيء فإنما يدل أولاً وبالذات على أن الضمير ليس مجرد عادات وتقاليد بيئية، بل هو سلطة يمكن أن تقف فى وجه المجتمع، وتخرج على رأى البيئة متنكرة للمعتقدات الشعبية السائدة والأفكار الخلقية الغالبة. فالضمير إذن سلطة والضمير إذن له وجود مهما كان من شأن فساده فى فرد أو أفراد، فى أمة أو فى أمم...

والدرس الرابع: هو أن الضمير وإن لم يكن معصوماً من الخطأ فى بيان الواجبات الجزئية، لكنه معصوم من الخطأ فى تقرير مبدأ الواجب العام.

ومهما يكن من شأن هذه الإختلافات فى ضماير الأفراد والأمم، فإن الشريعة الطبيعية فى ذاتها واحدة، والضمير فى جوهره وصميم مضمونه واحد لا يتبدل ولا يتغير بتغير الأفراد أو البيئات أو العصور، ذلك أن الشريعة الطبيعية أو الضمير يقوم بإقرار النظام الأدبى فى حياة الإنسان، بما يتفق وتحقيق غايته الطبيعية، فطالما أن الإنسان إنسان وطالما أن الشريعة تشرف على إقرار النظام الأدبى الذى يلائم الطبيعة الإنسانية من حيث هى طبيعة ناطقة عاقلة، فهذه الشريعة لا يعتورها تغيير على الإطلاق وإنما التغيير يتناول النتائج البعيدة والتطبيقات والجزئيات..

فليكن أن أمة ما تعبد الشمس أو القمر أو النجوم، وأن غيرها تبخر للحيوان أو التماثيل أو الأحجار، وأخرى تدين للهوام والحشرات، ولكنها جميعاً تدرك بطبيعتها أن هناك إلهاً وأن على

الإنسان نحو هذا الإله واجب التعبد والخضوع والإكرام، إليه نسأل، ومنه نطلب وإياه نشكر ونعظم ونبارك..

وليكن أن أمـة ما تبيح القتل أو السرقة أو الزنى.. بينما تعارضـها أمة أخـرى فى ذلك كل معارضة.. ولكن ليس يغرب عن بالنا أن الأمة التى أباحت هذه الجريمة لم تبحها إباحة تامة، بل أباحتـها فى قيود وحدود معلومة قضت بها منفعة هذه الأمـة أو شهواتها، ولكنها مع ذلك قضت بتحريمها فى غير هذه الحدود المعلومة..

فالشر المباح ليس هو الشر المطلق بل شر جزئى محدود مقيد مشروط.. وإذن فعلى الرغم من الإختلاف فى الجزئيات، هناك إتفاق فى المبدأ العام من تمييز بين الخير والشر.. ومن أن الخير يجب أن يقصد إليه الإنسان، فقد نختلف على مادة الخير والشر وتبقى الصورة واحدة، وقد نختلف على ماهية هذا الخير، ولكننا متفقون جميعاً على إحترام الخير فى ذاته وعلى كراهية الشر فى ذاته..

الضمير إذن قد يكون عرضة للخطأ فى إيضاح واجباتنا، ولكنه معصوم من الخطأ فى التنبيه على الخير المطلق والدعوة إلى الواجب بمعناه العام. ليس الضمير إذن مجموعة آراء قابلة للتغير على الدوام، وإنما الضمير يستند على الرغم من شتى الظروف والملابسات التى تؤثر عليه، إلى مبدأ واحد، ثابت مستقر فى الطبيعة البشرية ليس يقبل أدنى نوع من التغيير فى طبيعته وحقيقته، وهو مبدأ الخير العام والواجب المطلق.

أما أن الضمير يختلف فى بيان الجزئيات، فلأنه معرض لأن يمرض، وإذا مرض فشأنه شأن العين التى ترمد فلا تكاد تبصر على غير الحقيقة، أو كما فى حالة الإصابة بعمى الألوان Colour blindness ترى بعض الألوان ولا ترى بعضها الآخر، وبهذا لا ترى الشىء على حقيقته، أو كما تراه عين سليمة، وكأن هذا الإختلاف أو بالحرى هذا الإنحراف فى الضمير لا يشككنا فى حقيقة وجود الضمير .

والدرس الخامس: هو.. أن نتريث فى أحكامنا على التصرفات والفعال حتى نتحقق من البواعث الخلقية والملابسات الثقافية والبيئية والإجتماعية التى دعت إلى تلك التصرفات والفعال.

رأينا إختلافاً بين ضمائر الأفراد والأمم، وتبينّا أن الضمير قد يختلف من فرد إلى فرد، ومن أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل، وعرفنا أن هذا الإختلاف ليس فى المبادىء والأصول العامة، بل فى التطبيقات والجزئيات. وأن بواعث الخير قد لا تكون فى أمة تبيح القتل أو النهب بأقل منها فى أمة ترذلهما وتقبحهما وإنما الإختلاف نجم عن عوامل بيئية أو ثقافية أو إجتماعية أو إقتصادية أو سياسية، تحكمت على ضمير الفرد أو الجماعة فجعلتها تسلك هذا السلوك أو ذلك،

ليس هذا معناه أن من يبيح النهب أو السرقة أو القتل أو الزنى، يترك لحال سبيله يفعل ما يشاء دون أن ندرك أنه بالفعل قد ارتكب شرا محرماً، وأما مرادنا هنا أن نوسع صدرنا، فلا نحكم عاجلاً بسوء نية الفاعل وشر غايته ومقصده، بل يجب أن نتبين الأسباب والدوافع التى دفعت بالفرد أو الأمة إلى إرتكاب هذا المحظور، فإذا تحققنا من أنها دوافع خيرة، أو أن الأفعال قد صدرت عن نية سليمة وقصد صالح.. فحينئذ لا يمكن أن نحكم على صاحب الفعل بمثل ما نحكم عليه لو أنه كان سيء النية أو خبيث القصد والغاية..

بهذا التريث نعدل فى أحكامنا على الناس وفعالهم، وبه أيضاً يزداد يقيننا بوجود الضمير كسلطة باطنية وهاتف داخلى سماوى. ويقوى إيماننا فى حقيقة القواعد الخلقية والمعتقدات العامة المتصلة بالواجبات والآداب..

لقد حرم القدماء الربا وأباحه المحدثون، ولكن هؤلاء وأولئك لم يخرجوا على المبدأ الطبيعى العام الذى يستهدى به الضمير فى إرشاده وهمسه، فإذا كان هذا المبدأ الطبيعى العام يقرر بأنه: «ليس للفرد أن يثرى على حساب غيره».. وكان الربا عن القدامى إثراء للمعير على حساب المستعير.. لذلك فالربا بالنسبة لهم وبالنسبة لكل من يستعمل هذا النوع من الربا، أمر محروم وفعل ذميم قبيح لا يليق بالفضلاء أن يفعلوه. وإذا كان الربا عند المحدثين هو «الأرباح التى تعود على صاحب المال، نتيجة إستغلال بعض الناس أو الهيئات العامة لمال هذا الإنسان دون أن يكون هذا الربح خسرانا لأحد، أو إختلاسا وسلباً لأموال شخص أو أشخاص» فهو فى هذه الحالة مشروع مباح لاغضاضه فيه، لأنه يتفق والمبدأ القائل «ليس لأحد أن يثرى على حساب غيره».. القرض فى الحالة الأولى قرض استهلاك... وفى الثانية قرض إنتاج... فالربح فى الأولى على حساب المقترض، إذ المقترض قد دفعته الحاجة أو العوز إلى القرض، أما فى الحالة الثانية، فالقرض ليس سدا لنقص إنما إستغلال لمال المقرض فى عمل منتج سيعود بالأرباح على كثيرين، ولن يكون على حساب أحد.. إذ صندوق التوفير أو البنوك والمصارف التى نودع فيها أموالنا وتستغلها فى أعمال هامة مربحة، ولعل تفكيرنا فى هذا العدد الضخم من الموظفين وما يتقاضونه من مرتبات وأجور، يشعرنا بما لهذا العمل من فوائد تعود على عدد كبير من الناس، إذ تكون سبيلاً لكسب معاشهم وقوت عيالهم، فالربح الذى نتقاضاه من البنوك والشركات ليس ربحاً لأموال عاطلة كما فى حالة الإستهلاك، بل هو ربح لأموال قد استثمرت ولم يعد من استثمارها ضرر بأحد، بل على العكس قد استفاد الكل دون أن يخسر أحد، فما من شك أن الفرق بعيد والبون واسع بين الربا فى قرض الإستهلاك والربا فى قرض الإنتاج، ذلك شر ونقص وقسوة، وهذا خير وكمال ورحمة، على أنه إذا كان أحد فى العصر الحديث يعامل أخاه فى الإنسانية بالربا وهو يعلم أن القرض قرض استهلاك فيجب أن يحذر ويجب أن يتقى الله ويرحم أخاه،

فالضمير الحى لا يقتبل هذا الإثراء على حساب الغير، أو لا يرضى عن كسب فيه للغير خسران ومضره...

علينا إذن أن نرى ونمعن التفكير فيما يعرض لنا من سلوك الناس وتصرفهم، قبل أن نحكم باسم الضمير على خيريتهم، أو نزعم أنهم خرجوا على قوانين الحق والواجب أو إرادة الخير ومبادىء الأخلاق وأحكام الضمير، فربما انطوت أفعالهم على مبدأ الخير، وقد يصدرون عن نية سليمة وضمير ليس أقل صلاحاً من ضمائر الذين حكمنا عليهم بالخير والفضل لأول وهلة.

يجب ألا نتعصب لمذهبنا فى الخير.. بل أن نمتلىء رأفة ورحمة فى أحكامنا على الغير، فليتسع صدرنا لمن يخالفنا المنهج أو السبيل، فربما كان هذا الغير مصيبا فى رأيه، عادلاً فى حكمه سليماً فى ضميره، وربما استفدنا منه فعدلنا عن سلوكنا بعد أن اقتنعنا بصواب رأيه وحسن اتجاهه. وربما اتضح لنا أنه مخطىء فى اسلوبه لا فى قصده.. وحينئذ نستطيع أن نشرح له السبيل الأمين والطريق المستقيم بعد أن اطمأنت نفوسنا إلى صلاح ضميره وخلوص نيته وبراءة طويته..

هكذا يمكن أن نكسب الناس ونربحهم إلى جانب الخير والحق، وهكذا نستطيع أن نفيدهم ونبنيهم ونصلح من عوجهم ونردهم عن طريق ضلالهم فنخلصهم من الشر والموت، ونعيدهم أصدقاء لنا فى الفكر الصحيح والعمل الصالح بعد أن كانوا له ولنا أعداء ألداء أو خصوماً أشداء.

هذا هو الفرق بين الكاهن الناجح والكاهن الفاشل فى سر الإعتراف، فإن ذاك يدرك بثاقب بصره أنه يجب عليه أن يصغى للمعترف ويستمع إلى شكواه بصبر وأناة، محاولاً أن يتحقق فى الأسباب والبواعث وأن يتعرف إلى الدوافع والملابسات، التى دفعت أو أحاطت بالخطيئة أو الأثم قبل أن يحكم على الفاعل بمدى مسئوليته ونوع خطيئته.. فهذا التريث فى الحكم بعد سماع أقوال المعترف، وبعد فحص نيته واستكشافها واستخبارها يبرىء الحكم على نوع الخطيئة، من الخطأ الناجم عن التسرع والإندفاع بأحكام طائشة تدعو المعترف إلى فقد الثقة بمرشده وتضاعف من حمل خطيئته، وربما قادته إلى اليأس والفشل، بل والتريث فيه خير للمعترف من حيث أن الكاهن المتريث يستطيع أن يشخص الداء بدقة، ثم من بعد ذلك يمكنه أن يصف الدواء الملائم للداء، فلا يُطمئن مريضاً يرى أنه مشرف على الهلاك ولا يتهاون معه فى خطأ جسيم، وكذلك من الجهة المقابلة لا يصور له حالته، بما يدعوه إلى القنوط، يجب أن يقرر العلاج وفقاً لما تستدعيه حالة المريض، فيزن نفسه بميزان حق، إذ الكاهن بمثابة الوزّان الذى يملك ميزان الفضيلة والشريعة، فيقيس به أعمال المعترفين فيوقفهم على حقيقة ذواتهم، أو هو بمثابة المرآة

العاكسة التى ترينا على وجه دقيق حالة من يقف أمامها، فيعرف فيها مالم يكن له سبيل إلى معرفته بنفسه...

ومهما يكن من شيء.. فالكاهن أحوج ما يكون إلى هذا الخلق الرزين... خلق التريث وعدم التعجل والحكم البطيء فى مباشرة سر الإعتراف وفى سائر خدماته...

والدرس السادس: هو أن الضمير كسائر ملكات الإنسان قابل للضعف كما أنه قابل للنمو، فما هى عوامل الضعف؟

عوامل ضعف الضمير

(١) الإهمال:

كل ملكة فى الإنسان إذا أهملها ضعفت واضمحلت، وهذه قاعدة تشمل الحواس والأعضاء الظاهرة، كما أنها تشمل الملكات الذهنية والفضائل الخلقية، فالعضو الذى تهمله ولا تحركه يضعف ويموت، وقد قيل عن نوع من الأسماك، أصاب بيئته ظلام دامس فلم يمضى زمن حتى أصبح السمك لا يرى وذلك أن البصر فيه أمسى بلا عمل، فضعف وذهب ضياؤه، كذلك الميول والإتجاهات الذهنية، فمن كان ميالاً للشعر والأدب ولكنه أهمل فى نفسه هذا الميل أو هذا الإستعداد فإنه يندثر ويزول، وقد قيل عن دارون أنه كان كلفا بالشعر فى صباه، فلما أهمل هذا الميل ولم يغذه بالقراءة والإستعمال فنى استعداده، ولم يعد فى آخر حياته يشعر نحوه بأى إحساس أو ميل، وقد أدرك علماء الإجتماع أن العامل الذى يشتغل فى نوع بذاته من أنواع العمل ولا يبدله، يصبح بعد ذلك وبحكم العادة والألفة آلياً لا يبذل فيه تفكير، ومن ثم يصاب العامل ببلادة الذهن ويبوسة التفكير، ولذا يرى العلماء فى العصر الحديث وجوب تحديد وتقليل ساعات العمل بما يسمح للعامل أن يطالع وأن يقرأ الكتب والمجلات والجرائد فتعمل على تنشيط ذهنه وتقوية ملكاته الفكرية.

وهكذا يرى الرياضيون أن عضلة الساعد مثلاً إذا مرنت أسبوعاً فإنها تقوى، فإذا أهملتها أسبوعاً فإنها تضعف بنسبة أكبر جداً مما أصابها من قوة فى أسبوع مرانها..

والأمر أن الضمير كما فى جميع ملكات الإنسان وأعضائه الظاهرة والباطنة، إذا أهمله ولم يعن به ولم يعمل على تهذيبه ونموه أصابه الذبول والضعف، ويكفى لذلك أن لا نكترث بالأخلاق ومبادىء الفضيلة، أو أن نغفل العامل الأخلاقى فى أى فعل من الأخلاق مرة أو مرات، ويكفى كذلك أن نهزأ بالفضلاء ونحتقر من يسلك فى أموره بدقة، أو أن نسر بالأشرار والناقصين إذا بدا منهم فعل فيه جرأة أو مقدرة أو كفاءة، ونغض الطرف عما اشتمل عليه الفعل

من أفكار أو وسائل أو حركات غير أخلاقية، يكفى أن نتجاهل المعايير الأخلاقية ونفعل كل ما يخطر لبالنا أو يحضنا الغير عليه، أو تدعونا الظروف إليه دون أن نسائل نفوسنا عن مدى موافقة الفعل للضمير الحى المتيقظ، أو دون أن نعنى بمحاسبة نفوسنا أو دون أن نهتم أو نشعر بوجود هذا الضمير، يكفى أن نشك فى سلطان الضمير وصوته، دون أن نسعى فى إزالة هذا الشك، وفى كلمة واحدة يكفى أن لا نلتفت إلى بواطن نفوسنا لنرى إذا كان الفعل خيراً أو شرا.

هذه صفة تقود المتصفين بها إلى أن يفعلوا الشر بلا اكتراث أو إهتمام، وكلما تقدموا فى السن ازداد وهن الضمير وضعفه حتى يغدو خاملا مريضاً بلا عمل، أو هو أشل عاجز عجزا فاضحاً عن الحركة أو عن أن يشعر على الأقل بوجوده.

هذه سوسة الأخلاق، تفرغ نفوسنا من كل عقل وتمييز فى عالم الأخلاق، يتولد عن بقائها الاستهتار أو الاستباحة والتجديف على الروح القدس الذى لا غفران له،لا فى العالم الحاضر ولا فى الآتى قال الكتاب: «ملاحظين لئلا يخيب أحد من نعمة الله.. لئلا يكون أحد مستبيحاً كعيسو الذى لأجل أكلة واحدة باع بكوريته، فإنكم تعلمون أنه أيضاً بعد ذلك لما أراد أن يرث البركة رفض إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع» (١).

(٢) المخالفة والعصيان:

إذا هتف الضمير فى الباطن ولم يجد من صاحبه ملبياً ومجيباً، أو إذا تكلم فلم يجد المرء مذعناً لأمره، لا يزال يقرعه ويوبخه، ولكنه بمداومة المخالفة يخبو صوته ويضعف. ولذا تجد بعضاً من الناس يرتكبون شروراً وهم لا يشعرون بوخز ضمائرهم لهم، فتعجب لهم وتسأل كيف يستمرئون الخطيئة ويشربونها سهلة مستساغة كالماء وهم يضحكون ويقهقهون كما لو كانوا لم يفعلوا شيئاً ذا بال «هل خزوا لأنهم عملوا رجسا.. بل لم يخزوا خزياً ولم يعرفوا الخجل، ولذلك يسقطون» .(٢)

هؤلاء لو تتبعنا مراحل حياتهم لوجدنا أنهم لم ينزلقوا إلى الدرك الأسفل بوثبة واحدة، بل لقد هووا رويداً رويداً وذلك لأنهم خالفوا الضمير وعصوه لأول مرة ثم فعلوا الشر بعينه مرة ثانية، واستلذوه وربما اكتشفوا مبررا يدعوهم لإرتكابه فلا يؤنبهم ضميرهم كثيراً، وهكذا كلما ارتكبوا الشر كلما خفت صوت الضمير وضعف.

وكأن الضمير فى هذه الحالة شبيه بخاتم فى اليد، يكون ضيقا فى مبدأ الأمر، فإذا أكثر لابسه من إخراجه وإدخاله فى الإصبع تتكيف به أنسجة الأصبع، فيصير سهل الإنزلاق، ولقد يصل الأمر أحياناً بالخاتم أن يسقط من تلقاء ذاته بعد أن كان ضيقاً وشديد التضييق على اليد.

(١) عب ١٢: ١٥ ـ ١٧　　(٢) أر ٦: ١٥

يقول القديس بولس : «فأوصيكم وأناشدكم فى الرب أن لا تسلكوا فيما بعد كما يسلك الأمم ببطل بصائرهم الذين اظلم فهمهم وتغربوا عن حياة الله لأجل الجهل الذى فيهم بسبب عمى قلوبهم. الذين لفقدهم كل حس، أسلموا أنفسهم إلى القهر لإرتكاب كل نجاسة بفرط الطمع» (١).

فمن يحس بوخز فى الضمير على أمر ما، يجب ألا يحتقر هذا الوخز أو يعصاه لأن المخالفة أو العصيان تكسر من حدة شوكته وتوهن من قوته وتطفىء من شعلته وما أنسب أن نذكر هنا قول السيد المسيح: ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال، بل يضعونه على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت» (٢).

يقول بالى: «يجب أن يكون الضمير قائدنا ومرشدنا فى جميع أحوالنا وظروفنا فمن وسط همس الضمير يتكلم الروح فإذا وضع الإنسان اصبعه فى أذنه وأبى أن يسمع لصوت ضميره أصابه صمم فلا يسمع صوت روحه».

(٣) الإستسلام للشهوات:

للشهوة إغراء وفتنة، تدفع النفس إلى إرتكاب الشرور والأخطاء ولكن المرء فى غالب الأحيان لا يشعر بأنه يرتكب محظوراً، لأن الخطيئة تسلك سبيلها إلى النفس فى خطوات وئيدة خافتة حتى لا توقظ الضمير. فإذا كان الإنسان مطواعا لنفسه يحقق لها كل مشتهياتها ورغباتها حتى لو لم يظهر فى هذه الرغبات والشهوات شىء يأباه الضمير وينهى عنه ـ فإنه سيندفع فى سبيل الخطأ دون أن يشعر، بل ربما يشعر ولكن فى نهاية المرحلة، وقد يوخزه الضمير أحياناً، ولكن فى أحيان أخرى وعند بعض الأشخاص، يعرف أنه أخطأ ولكنها معرفة بغير شعور أليم، وذلك أن الشهوات النفسانية قد أضعفت من شوكة الضمير. فألانتها وصيّرتها رخوة بلا يبوسة أو دقة أو حرارة.

وبعبارة أخرى، هذا هو الفتور الروحى الذى ينزلق إليه الشخص ولا يدرى له سبباً، يعرف أنه مخطىء ولكنه لا يقوى على النهوض من شره إذ ليست فيه كراهة للشر ولا عزيمة على مناهضته وقد يعرف مواطن الضعف فى نفسه ولكنه لا يشعر بشعور التوبة، وذلك أن استرساله فى سبيل الشهوات قد أشبع نفسه وملأها، فغدا الضمير مثقلاً باللذائذ والشهوات العالمية، ومن ثم ضعيفا عن أن ينبه إلى الشر أو يحرك إلى الخير عزيمة الإنسان.

لذا يخشى الفضلاء من الإسراف فى المأكل والمشرب والملبس ومن تحقيق ما تشتهيه النفس بالنظر والسمع واللمس وسائر الحواس، فيقمعون أجسادهم ويروضون نفوسهم على القناعة

(١) أف ٤ : ١٧ ـ ١٩ (٢) مت ٥ : ١٥

والإكتفاء بل وأحياناً على الزهد والتقشف والنسك، وغرضهم من ذلك كله حرمان النفس من شهواتها حتى لا تنحل حياتهم وتفتر عزيمتهم نحو الفضيلة والخير، وبذلك يبقى الضمير مرهفا وصارماً وشديداً، وكلما إزداد فيهم قمع الشهوات إزداد فيهم إرهاف الضمير وصرامته، وكأنه فى هذه الحالة يشبه النبات الذى يكون أولاً رخوا ورخصا، فإذا جففت الشمس رطوبته بحرارتها وضيقت الأرض عليه من تحت، قوى عوده واشتد وتبدلت ليونته بقسوة وحدة.

قال الرسول فى الشهوانيين.. أنهم «مستهزئون يسلكون بالنفاق بحسب شهواتهم.. هؤلاء هم المعتزلون بأنفسهم.. نفسانيون لا روح لهم»(١) «سالكين فى الدعارة والشهوات وإدمان الخمر والبطر والمنادمات وعبادة الأوثان المحرمة، الأمر الذى فيه يستغربون أنكم لستم تركضون معهم إلى فيض هذه الخلاعة عينها مجدفين» (٢) «مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلا وخصاما ومكرا وسوءا، نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شروراً، غير طائعين للوالدين.... «الذين إذ عرفوا حكم الله إن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت، لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسرون بالذين يعملون» (٣).

لذلك كله ينصح ابن سيراخ قائلاً: «لا تكون تابعاً لشهواتك بل عاص أهوائك، فإنك إن أبحت لنفسك الرضى بالشهوة، جعلتك شماتة لأعدائك، لا تتلذذ بكثرة المآدب، ولا تلزم نفسك الإنفاق عليها» (٤)

(٤) تقريب مسافة الفرق بين الحلال والحرام:

إذا عرف الشخص الفرق بين الحلال والحرام ولكنه آثر الحرام، محاولا أن يهون من شأن المخالفة، وأن يهون من شأن المنافع المترتبة عليها، أصبحت الفضيلة فى نظره كالرذيلة والخير كأنه الشر، ولم يعد للتقابل بينهما صدى عميق فى شعوره وضميره، وبذا يستحيل الضمير إلى شعور غامض عاجز عن التمييز بين الحلال والحرام، ويصير واهنا عن أن يصدر حكما صائباً على الفعال الإنسانية.

خذ مثلاً لذلك.. رجلا يريد أن يسرق مالا، أو أن يقتبل رشوة من شخص، فإنه يحاول أن يفهم الرشوة على معنى آخر يهون من شرها ويظهر نفعها.. فيقتبلها على أنها هدية لتدعيم روح الصداقة والمودة وتبادل الإحساس والشعور، وأنه يجب أن يقتبلها لكى لا يصدم شعور مقدمها به وأنه سوف لا يأخذها لنفسه بل لأولاده أو زوجته، أو يغدق بها على شخص أو أشخاص فقراء

(١) يه : ١٨، ١٩ (٢) ١. بط ٤: ٣، ٤

(٣) رو ١: ٢٩ ـ ٣٢ (٤) يشوع بن سيراخ ١٨: ٣٠ ـ ٣٢

يستحقونها، وبهذا تنقلب الرشوة لا إلى أمر حلال فقط... بل إلى عمل لائق يؤدى منافع جلى، فلو أنه فهم الرشوة على أنها رشوة، لبقيت فى نظره شرا وإثماً، أما أنها تصبح هدية فقد اقتربت بذلك مسافة الفرق بين الحرام والحلال، وإذا اعتاد الضمير ذلك، أصبح ضميراً متسعا، ضعيفاً لا يفزع من الشر...

(٥) التأمل فى الأمثلة الشريرة والصفات الرديئة:

ما أبعد أثر التأمل فى حياة الإنسان... فإن نظرة عميقة غائرة لا ترتد خائبة، بل أنها لتطبع فى مخيلة صاحبها صورة واضحة قوية تصبح عوناً للخير أو الشر فى داخل الإنسان... فالمتأمل فى صورة قبيحة أو فى سلوك ردىء.. يهيج الشهوات... ويثير الغرائز.. ويحرك الدوافع البهيمية والميول الوضعية. ولذا كانت صحبة الأشرار وقراءة الكتب والمجلات الفاسدة، عاملاً أكبر فى أن يتخدر بها الضمير فيألفها ويفقد شعوره نحوها، فينظر إليها نظرة عادية وقد تصبح نظرة عين راضية..

فالأصدقاء والمعاشرون لنا هؤلاء الذين نستمع لكلماتهم ونشهد حركاتهم وإيماءاتهم ونظراتهم ونتأمل تصرفاتهم، لسوف نتأثر بالشر الذى فيهم مهما كانت عشرتنا لهم بتحفظ وحرص، ومهما حاولنا تجنبهم فى طباعهم، فإن هذا يؤدى إلى غرس أفكارهم وميولهم وطباعهم فينا.. فإذا بنا نألف الشر والكلمات القبيحة والمظاهر الفاسدة.. والتصرفات الشائنة. ويأتى الوقت الذى نتطلع فيه إليها بغير اكتراث، وننسى شعور الإستياء والمقت الذى كنا نقابلها به قبلا.. يقول الكتاب «من لمس القير توسخ، ومن قارن المتكبر أشبهه»(١).

كذلك الكتب والمجلات الساقطة.. فإن ما ترسمه لنا من قصص إجرامية، ومن روايات دنسة مخجلة ومن صور مبتذلة، تطبع فى نفوسنا صفات الجريمة والدنس دون أن نشعر، حتى يستوى الشر الذى دخل إلينا خلسة مع الشر الذى كان خارجاً عنا، وحينئذ ينعدم فينا الحماس نحو الفضيلة ويتبدل إلى فتور نصفه عادة بأنه خلو من التعصب..

ولقد صور لنا الشاعر بوب Pope الإنجليزى صورة الإنهيار فى ضمير الإنسان بتطلعه إلى المثل الشريرة والصفات الرديئة بقوله:

الرذيلة وحش مريع

يكفى أن يراها الإنسان فيبغضها

ولكن إذا تكرر منظرها أمامنا نحتملها فنرثى لها.. فنعتنقها

---

(١) يش بن سيراخ ١٣: ١

وحش مخيف ضرنى فى منظر
كيف الحياة على يدى عزريلا
إن الرذيلة وحشنا طول المدى
إن كنت تنظر تخاف مثيلاً
لكن إذا أكثرت من نظر تر
نفسا تحن وذللت تذليلا
ثمت تجود بالوصال وبالهوى
فتضم وحشا ترتئيه جليلا
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعويلا

ومما يقوله الشاعر العربى فى عدوى الأخلاق الشريرة وأن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة كقول الرسول بولس:

ولاتجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدى

وقول شاعر آخر:

وما ينفع الجرباء قرب صحيحة إليها، ولكن الصحيحة تجرب

الضمير إذن ملكة أو قوة غير ثابتة.. بل هى متغيرة متحولة تبعاً لعوامل النماء أو عوامل الذبول.. وقد رأينا كيف أن الإهمال، ثم المخالفة والعصيان لأوامر الضمير ثم الإستسلام للشهوات، ثم تقريب مسافة الفرق بين الحلال والحرام، ثم التأمل فى الأمثلة الشريرة والصفات الرديئة، تفسد الضمير وتكسر من شوكته، فلنتكلم عن عوامل النمو..

(٧) والدرس السابع أن الضمير قابل للنمو:

إن الضمير يرقى وينمو، يقوى إذا اجتمعت له عوامل النمو، وهذه العوامل كثيرة نذكر منها...

عوامل نمو الضمير

(١) الطاعة لصوت الضمير:

إذا لم نسترسل فى ميولنا وأهوائنا، وأنصتنا فى حزم وحكمة لصوت الخير فينا، سُرّت ضمائرنا، وانتعشت وتقوت وتشجعت ومضت فى سبيل مهمتها الجليلة تنبهنا إلى كل شيء ، فإذا أصغينا أيضاً وأطعنا نداءها بنصيب وافر من عزيمتنا وإرادتنا، كافأتنا أيضاً بتوجيهاتها السامية وأرشدتنا إلى واجباتنا بدقة أكبر، وهكذا كلما أطعنا ونفذنا مشورة المرشد الباطنى، ازداد إرهافا وقدرة على التمييز، وبيان مختلف الواجبات مهما دقت وقلت، فإذا بنا فى كل يوم ننمو فى شعورنا بالواجب ونزداد إحساساً بهمسات الضمير، أو يزداد الضمير فينا إحساساً وإنتباهاً.

وكأن الضمير بمثابة صديق مخلص نصوح، عرف فيك أنك تولى نصائحه إنتباها وعناية، وأنك تعمل بكل ما يشير عليك به، فيفرح بهذا التقدير منك ولن يبخل عليك بنصح بل أنه يَجِدُّ فى مهمته ويتشجع فى آداء رسالته.

(٢) إزدياد المعرفة:

بإطراد المعرفة يقوى الشعور، فإذا ازدادت معارفنا واتسعت خبرتنا وكثرت معلوماتنا، كان هذا كله عوناً لضمائرنا حتى يقوى إحساسنا نحو الخير وكرهنا للشر، فبعض الناس يتكلمون بما لا يعلمون فيخطئون، فإذا اطلعوا على حيثيات جديدة ومعارف جديدة أدركوا خطأهم وصار ضميرهم يوبخهم... مع أنه لم يكن ينخسهم قبلا، وذلك لأنه كان جاهلاً، فأصبح عارفا... إذن فالمعرفة عامل من عوامل نمو الضمير وإرتقائه...

وهذا التقدم فى المعرفة سبيله القراءة فى الكتب الخُلقية أو الدينية والأدبية النافعة، ثم الإستماع إلى عظات أو محاضرات أخلاقية رفيعة، أو الوجود فى حضرة ندوة من ذوى الخلق الكريم، أو الإلتصاق بمرشد روحى نوقفه على تصرفاتنا ودقائق أفعالنا وخطراتنا، أو يكون هو أيضاً رقيباً علينا يلاحظنا فيرشدنا ويعلّمنا، فنتنبه إلى أمور نجهلها أو إلى ما قد يترتب عليه من نتائج خطيرة فى الآجل أو العاجل..

ولعلنا هنا ندرك الحكمة من العبادة الجمهورية حيث يستمع الناس إلى فصول وعظات من رجال الدين، ينمو بها ضمير الإنسان ويحن إلى الخير وفعل الفضيلة، وكذلك يلجأ إلى هذا الإسلوب الأباء فى وصيتهم للأبناء.. كما فعل داود مع ابنه سليمان وكما فعل طوبيا مع ولده... فتصبح هذه الوصايا قلادة فى عنق الإبن.. يذكرها بعد وفاة أبيه فتلهب شعوره نحو المثل الأعلى.. ينمو بها ضميره..

(٣) التأمل فى أفعالنا وأقوالنا قبل وبعد حدوثها:

ليس هناك بين أفعال الناس أرقى ولا أسمى من الوجهة الإنسانية أكثر من فعل التأمل، إذ هو الفعل الذى يختص بالإنسان وبه وحده يرقي على الحيوان، فإذا لم يتوافر لآدمى، كان فى سلوكه حيوانيا لا إنسانياً...

وإننا لنستطيع أن نقاوم أهوائنا.. ونعدل من غرائزنا ونعلو بميولنا ونزعاتنا بالتأمل وحده.. فبه نسيطر على عوامل البيئة والوراثة والعادة، وبه يمكن أن نتوجه إلى حيث نقصد دون أن توجد قوة فطرية أو مكتسبة تقوى علينا أو تستطيع مغالبتنا، وهذا هو سر الإنسان...

فإذا كنا نبغى لنفوسنا تقدما ورقياً وسموا فى الأخلاق وعلوا فى الشعور، فنحن نستطيع ذلك بالتأمل قبل كل عمل وبعده.. إذ التروى والتريث وإستشارة المرء لضميره، يعينه على أن يأمن مواطن الذلل... ولقد كان بعض الفضلاء يقول أنه إذا كان واثقاً من أمر.. فإنه يتثبت منه ويراجع نفسه بإزائه عشرين مرة أخرى، فهذا التداول الباطنى يكشف عن نواحى الصواب والخطأ ويبين عن مشروعية الفعل ومحروميته...

أما بعد الفعل.. فكراً كان أو قولاً أو عملاً.. فإن المرء يمكنه أن يتأمل أيضاً ليحكم على نفسه بالصواب أو الخطأ، ثم ليعرف أسباب الخطأ أو وجوه الصواب...

على كل حال، إن هذه الملاحظة أو المراقبة والمحاسبة المستمرة للنفس من شأنها أن تجعل الضمير يقظاً وشديد اليقظة.. وكما أن الإنسان إذا وضع فى نفسه أن يستيقظ فى ساعة معينة فى الصباح الباكر، فإنه يستيقظ عادة من تلقاء ذاته فى نفس اللحظة التى قوى فيها شعوره بضرورة الإستيقاظ لسبب قهرى، ولا سيما إذا تكرر منه ذلك فى عدة مرات حتى أصبح عادة مرعية، هكذا الضمير أو الشعور الأدبى يصبح بالتأمل مع المراقبة والمحاسبة، منبها صارخاً وصوتا قويا مدويا، يوقظ وينبه كل الحواس والمشاعر.. ويجعل المرء شديد الحرص من أن يزل، ووافر الإنتباه إلى أدنى خطيئة أو شر...

وهذا المقام - مقام المحاسبة والمراقبة - هو الذى يصل إليه الأتقياء والقديسين.. ولقد عرفنا به الرسول القديس بولس إذ قال للمؤمنين: «لكن، عظوا أنفسكم فى كل يوم، مادام الوقت يدعى اليوم لئلا يقسوا أحدكم بغرور الخطيئة»(١)

وهكذا نادى الفيثاغوريون من بين الفلاسفة القدماء بأن على المرء قبل أن يلجأ إلى فراشه أن يراجع أعماله ويحاسب نفسه: فيم أخطأت وفيم أصبت.. ولم أخطأت..؟

---

(١) عب ٣: ١٣

ويقول يشوع بن سيراخ: «ما أحسن إبداءك الندامة إذا وبخت، فإنك تجتنب الخطيئة الإختيارية» (١)

وبهذا يكون توبيخ النفس للنفس أو توبيخ الآخرين لنا وإنتقادهم لأعمالنا نافعاً لنا كل النفع، إذا وطدنا فى أنفسنا أننا نبغى لها الكمال إذ سوف ننتبه إلى نقائصنا وتشتد رقابتنا لأقوالنا وأفكارنا حتى نعتاد ذلك إلى أن نكف عن الخطيئة بإرادتنا..

ويقول يشوع بن سيراخ أيضاً: «يابنى إن خطئت فلا تزد، بل استغفر عما سلف من الخطأ» (٢) وبهذا أضاف إلى ضرورة محاسبة النفس استغفارها على الخطأ الذى صدر عنها...

(٤) التأمل فى الفضيلة والفضلاء:

إنه لخير المرء أن يتأمل الفضيلة، من أن تظهر أمامه شر الرذيلة، فإن الشر يعدى الشعور ويؤذيه، وإنما التأمل فى الصفات الطيبة يشبع النفس من الخير، ويرضيها ويقويها ويمنحها بساطة، ويترك فيها أثرا يدفعها نحو المثل الأعلى الذى تصبو إليه لأنها إلتقت به وعرفته...

ولذا يقول الرسول «ولا تشاكلوا (تشابهوا، تماثلوا) هذا الدهر بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» .(٣)

ولكم تكون مقابلة رجل فاضل وارتسام محياه على مخيلاتنا، وإلتقاء نظراته بنظراتنا أفعل فى نفوسنا من توبيخ وزجر ووعظ وتأنيب...

ويقول ابن سيراخ «من مقت التوبيخ فهو فى أثر الخاطىء، ومن اتقى الرب يتوب بقلبه»(٤) .

ذلك لأن الفضيلة ذات أثر فى النفس، فهى توبيخ للنفس، وهى أيضاً نور يضىء، والضمير الواهن الضعيف يجد من سير الفضلاء ما يوقظه ويدعوه إلى العمل الصالح...

وكما أن صحبة الأشرار وقراءة الكتب الفاسدة تتلف الضمير وتفسده، هكذا الصحبة البارة والكتب النافعة تبنى النفس... وتغنى الضمير.. إذ التأمل الصالح ينقل صورة المثل الذى نحتذيه إلى دواخلنا وأعماقنا فنستحيل إليها أو تدخل هى إلينا...

ولذا ينصحنا الأنبياء والرسل دوما بأن نتخذ من القديسين أمثلة تقوى بهم ضمائرنا...

يقول ماريولس: «اذكروا مدبريكم الذين كلموكم بكلمة الله، تأملوا فى عاقبة تصرفهم واقتدوا بإيمانهم»(٥)

---

(١) يش بن سيراخ ٢٠:٤ (٢) يش بن سيراخ ٢١:١ (٣) رو ١٢:٢
(٤) يش بن سيراخ ٢١:٧ (٥) عب ١٣:٧

وعلى قول الشاعر:

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

ويقول ابن سيراخ.. «قف فى جماعة الشيوخ، ومن كان حكيماً فلازمه ارغب أن تسمع كل حديث إلهى.. ولا تهمل أمثال التعقل وإن رأيت عاقلاً فابتكر إليه، ولتطأ قدمك درج بابه، ترو فى أوامر الرب، وفى وصاياه تأمل كل حين، فهو يثبت قلبك، وينيلك ما تتمناه من الحكمة». (١)

وليس كالمسيحية دين يجعل المثل الأعلى للإنسان فى الله: «فكونوا إذن، كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات (هو) كامل»(٢) وهذا معناه أن يفضى إلى اطراد فى نمو الضمير، غير محدود لأن الله غير محدود، يقول الرسول: أما نحن جميعاً فننظر بوجه مكشوف كما فى المرآه مجد الرب، فنتحول إلى تلك الصورة بعينها من مجد إلى مجد كما يكون من الرب الروح (٣).

(٥) ممارسة الفضائل وأفعال الخير والبر:

ربما يكون عجيباً أن يقال بأن ممارسة الفضيلة تأتى للضمير بخير، ولكن هذا ليس بعجيب إذا أدركنا أن فعل الخير سيولد الميل إليه (الخير)، أو يقويه بما يحصل عنه من اللذة والسرور المصاحبين له، والإختيار خير شاهد على ذلك، فمن يفعل خيرا أو يصنع برا بفقير سيكتشف كم هو فعل حميد... وكم تسبب عنه من أثر نافع، وكم شعر بالسعادة فى أدائه، وبذا يزداد إقتناعاً به وحبا له وميلا إلى تكراره.. ومن الجهة المقابلة.. لقد أمكنه أن يعرف مدى الآثار الرديئة الناجمة عن إهمال الخير مثلاً أو ارتكاب الظلم والقسوة، وإذن فمن هنا ينمو ضميره فى إحساسه وشعوره، ويصير أكثر استعداداً لأن يثور على الشر ويتحمس للخير والمعروف... فالعمل يولد الشعور.. كما أن الشعور يولد العمل ويدفع إليه..

قوانين البلاد والرأى العام فى الأمة:

إذا أيدت قوانين البلاد أحكام الضمائر وتولت الهيئة التنفيذية معاقبة المجرمين، وكان لهذه الأمة رأى عام موجه نحو الخير، كانت هذه كلها عوناً للضمير ليسير فى طريقه بغير عثار...

إن بعض الدول لا تعنى بالخُلق، والرأى العام فى كثير من الأحيان يتبلد، لتصير الشرور مستساغة، وقد تصبح مقبولة وموافقة ومرغوبة فيها، وحينئذ لا يستطيع الضمير أن ينمو فى بيئة كهذه، بل ربما يستمرىء الشر ويستحل الحرام...

لكن إذا وجد من الدولة ومن الرأى العام إستنكارا للتصرفات الطائشة للفرد، فإنه يتنبه

---

(١) يش بن سيراخ ٦: ٣٥ ـ ٣٧ (٢) مت ٥: ٤٨ (٣) ٢. كو ٣: ١٨

وبتوبيخ، وقد يصلح من تصرفه لكى لا يقع تحت طائلة اللوم أو العقاب...

وليس معنى هذا أن للقانون الوضعى أو الرأى العام سلطاناً على جميع ضمائر الناس، إذ أن القانون الوضعى لا ينبهنا إلا للأمور الواضحة التى نص عليها فى مواده، والرأى العام متقلب، وقد يقف أحياناً ذووا الضمائر الحية ليقاوموا قانوناً فاسداً، أو ليناهضوا مفاسد العصر التى يرتضيها الرأى العام...

ومع ذلك فللقانون الوضعى وللرأى العام أثر فى تصرفات بعض الناس من ذوى النفسيات الصغيرة، الذين قد يأتيهم الوازع من خارج فيوقظ وازع الضمير الذى قد تخدر وتخثر، وأقول يوقظه ولا أقول يخلقه..

ومن من الناس يرضى ضميره بالضعف ولا يرضى له بالقوة؟؟... إنما الناس جميعاً يرغبون فى أن تكون صفاتهم فاضلة.. وأن يقال عن ضمائرهم.. أنها حية. حتى لقد قيل: «أن جهنم مرصوفة بالأمانى الطيبة» ولكن.. أيمكن أن يفوز شخص بمناله دون أن يبذل جهداً؟؟؟.. وبذل الجهد كما نعلم فيه قهر للنفس ومحاولة للوصول إلى غرض..

وهذا كله يحتاج إلى جهد من إرادتنا.. فكلما جدت عزائمنا.. وصدقت رغباتنا وقويت إرادتنا.. استطعنا أن نصل إلى المثل الأعلى الذى نترسمه...

أجل... فالطاعة للضمير وعدم الإستسلام للشهوات ومحاولة الإنتباه الإرادى إلى بواطن نفوسنا لنتأمل بواعث الخير فينا ودوافع الشر.. ثم محاسبة النفس ومراقبتها بدقة على كل ما يصدر عنها من فكر وقول وعمل، ومحاولة تجنب المعاشرات الرديئة والكتب الساقطة وإبدالها بصحبة خيرة وكتب مفيدة.. كل هذا يستلزم منا مجهوداً مزدوجاً لمقاومة الأهواء الضارة، وإكتساب الصفات والعادات الصالحة...

والحقيقة... إنه لا قيمة لفهم عوامل إضعاف الضمير، مالم تكن هناك إرادة لمجانبتها، كما لا نفع من بيان عوامل إنمائه، إلا إذا توافرت الإرادة للعمل بها وتنفيذها.. فالإرادة إذن هى التى تفرق بين ضمير يرقى وينمو؛ وبين ضمير راكد جامد، فمن يريد أن يصير كاملاً فعليه أن يهذب إرادته على الحق والخير والواجب..

مهمة الضمير ووظيفته

يقوم الضمير فى الإنسان بمهمة الدليل والمرشد الذى يبصرنا بما يجب أن نفعل من الخير أو نجتنب من الشر. ثم بمهمة القاضى أو الحكم على أفعالنا وأفعال أشباهنا فيقومها ويقدرها من ناحية الخير تارة ومن ناحية الشر تارة أخرى ويقوم ثالثة بمهمة الشاهد والرقيب على تصرفاتنا.

على أنه يمكن أن نرتب عمل الضمير فى قيامه بمهمته المثلثة نظراً لزمن الفعل على النحو التالى:

أ ـ قبل الفعل .. مرشد ودليل:

والفعل إما أن يكون خيراً فى ذاته كفعل الرحمة، أو شرا فى ذاته كفعل السرقة، أو مجردا نذاته كفعل التأليف، أو التنزه. فإذا رأيت فقيراً أو متألماً بأى نوع من الألم أرشدنى الضمير إلى فعل الرحمة وأوجبه علىّ. وإذا سنحت أمامى فرصة لأختلس فيها نقوداً لأكوّن لنفسى ثروة بغير حق، نهانى الضمير عن الفعل ودلّنى على أنه شر وإثم. أما فعل التأليف أو فعل التريض والتنزه فليس خيراً فى ذاته ولا هو شر فى ذاته وإنما الخير فيه تابع للقصد والغاية فى الفاعل، وكذلك الشر. ولذلك حكم الضمير فيه متوقف على ظروف الفعل ولواحقه لا على موضوعه النوعى، فإما يصبح خيراً يأذن الضمير بفعله وإما يصير شراً فينهى عنه، وفى هذا يقول توما الأكوينى(١): «قد يتفق أن يكون موضوع الفعل لا يتضمن شيئاً يختص بنظام العقل، كما هو أخذ قشة من الأرض أو الذهاب إلى الحقل.. فمثل هذه الأفعال هى باعتبار نوعها مستوية بين الحسن والقبح Indifférent (٢) ثم قال: لما كان شأن النطق الترتيب كان أن الفعل الصادر عن العقل المروّى المختار إن لم يكن مرتباً إلى الغاية الواجبة فهو من أجل ذلك مناف للعقل، ومكتسٍ طبيعة الشر، وإما أن رتب إلى الغاية الواجبة فهو منطبق على نظام العقل ومن ثم فله طبيعة الخير. ولكن الفعل من الضرورة أن يكون إما مرتباً إلى الغاية الواجبة أو لا مرتباً. فإذن من الضرورة أن كل فعل يصدر عن عقل الإنسان المروىّ المختار إذا اعتبر فى الشخص المفرد يكون (ذلك الفعل) إما حسناً وإما قبيحاً». (٣)

ولما كان الضمير للإنسان مرشداً ودليلاً، وجب على العاقل أن يلجأ إليه ويتبصر بندائه فهو خير هادٍ للمرء، يرشده إلى الطريق الأمين. يقول يشوع بن سيراخ: «أعقد المشورة مع القلب، فإنه ليس لك مشير أنصح منه، لأن نفس الرجل قد تخبر بالحق أكثر من سبعة رقباء يرقبون من موضع عال. وفى كل هذه تضرع إلى العلّى ليهديك بالحق فى الطريق المستقيم». (٤)

---

(١) توما الأكوينى فيلسوف مسيحى ممتاز ويعتبر عند الغربيين من أعظم القديسين.

(٢) الخلاصة اللاهوتية ف ٨ س ١٨ من جزء ١ من ف ٢

(٣) الخلاصة اللاهوتية ف٩ (٤) يش بن سيراخ ٣٧: ١٧ ـ ١٩

ب ـ أثناء الفعل.. شاهد ورقيب:

يرشد الضمير إلى الخير قبل الفعل، لكنه لا يقف أثناء الفعل مكتوفا بل يقوم بمهمة الشاهد لما يخطر على الفكر من أفكار خيرة أو شريرة، أو على اللسان من كلمات موافقة أو باطلة، أو لما يفعله الإنسان من خيرات وشرور، حتى يستطيع من بعد أن يقوم بمهمة القاضي. وهو كما يشاهد الأفعال يشاهد أيضاً البواعث عليها ومدى الإرادة الخيّرة والشريرة فيها: «لأنه من هو هذا الذى يعرف ما فى الإنسان، إلاّ إذا كان هو روح الإنسان الذى فيه» (١).

على أن الضمير يؤدى هذه المهمة بطريقة إيجابية. فليس هو مجرد شاهد على الحياد، بل أنه يبعث للنفس أثناء الفعل بتهديداته أو تشجيعاته، فيحس المرء بالإنقباض والضيق أثناء الفعل الذميم، وبالإرتياح والسرور أثناء الفعل الحسن. ومن الأمثلة على الحالة الأولى قول الرسول عن الأمم الذين أفسدوا سبيلهم «أن ضميرهم يشهد عليهم بل وأفكارهم تشتكيهم وتحتج عليهم»(٢). ومن الأمثلة على الحالة المقابلة قول الرسول عن نفسه: «أقول الحق فى المسيح، ولا أكذب، وضميرى (فى ذلك) يشهد لى (بصوت) الروح القدس»(٣) ثم قوله: «إن ما نفخر به هو الشهادة التى يؤديها لنا ضميرنا، بأننا قد تصرفنا فى العالم، ولا سيما من جهتكم، ببساطة وإخلاص أمام الله، وليس بحكمة جسدانية بل بنعمة الله»(٤).

ونظراً لما لمهمة الشهادة التى يؤديها الضمير من الأهمية، فقد ذهب البعض إلى تعريف الضمير بأنه «شعور باطنى يشهد به المرء لنفسه بما صنع من خير ومن شر» (٥).

ج ـ بعد الفعل.. قاضٍ وحكم:

فإذا أنجز الإنسان فعله انقلب الضمير حكما عليه وقاضياً: فيحكم على الفعل، هل هو خير فى ذاته أم شر، ثم على نيّة الفاعل، أى هل فعل الفاعل بقصد خير وهل كان ينتوى الخير نحو الغير، ثم يحكم كذلك على خيرية الوسائط التى استخدمها الفاعل للوصول إلى هذا الخير المقصود.

والحق أن الضمير خير قاضٍ نزيه يحكم لا على أفعالنا الظاهرة فحسب، بل على دخائل نفوسنا ونوايانا. ويتطلب خير الوسيلة كما يتطلب خير الغاية، ولذا يقول الفرنسيون: «ضميرنا قاضينا» notre conscience est notre juge ويقول بعض المفكرين «لى من ضميرى محكمة تقضى بالعدل علىّ، وتقينى العقاب إن كنت ذا برارة، وتحرمنى الثواب إن كنت من المجرمين».

ولعل مهمة الضمير هذه أجلّ وأعم من مهمتيه الآخرين، أما أنها أجلّ فلأن أثرها فينا أعظم وأخطر، فعليها يترتب الجزاء الذى نلتقيه من الضمير، وهو جزاء تهابه النفس وتخشاه: فإما

(١) ١. كو ٢: ١١ (٢) رو ٢: ١٥ (٣) رو ٩: ١
(٤) ٢. كو ١: ١٢ (٥) القاموس الشهير للاروس

يمدحنا الضمير إذا فعلنا الخير فنسر ونفرح، وإما يقدح علينا إن فعلنا شراً فنتألم ونتوجع من لذعاته ووخزاته.

أما أنها مهمة أعم من المهمتين السابقتين فلأنه يستطيع أن يقضى علينا، وليس علينا فقط بل وعلى الآخرين أيضاً، فيمدحهم ويثيبهم إذا أحسنوا، ويذمهم إذا أساءوا.. نعم! يمكن للضمير بوصفه (مرشداً ودليلا) أن يرشد الآخرين كما يرشد الإنسان نفسه ـ وهذا ما يقوم به ضمير المرشد الروحى أو الكاهن ـ ولكنه لا يستطيع أن يرشد إلاّ من يطلب الإرشاد (١) ولكنه كقاضٍ يستطيع أن يحكم على كل فعل صدر، من أى إنسان هل هو خير أم شر.

سلطان الضمير

ما أرهب صوت الضمير عندما يهمس فى بواطننا، إنه صوت الروح فينا ينادينا بالخير والفضيلة، وقد نجد أمامنا إغراءات كثيرة تجذب حواسنا معها، فنميل إليها لنرتكب الشر ولكننا نسمع صوت الضمير هادئاً رزيناً يقول: «لا تفعل فهذا شر»، وقد لا نقنع لأن إغراء الشهوة عظيم ونحاول أن نخرس هذا الصوت فلا نستطيع، نقدم له الدليل فى أثر الدليل وعقلنا يطاوعنا فى إنتحال المبررات والأسباب، أما الضمير فيركلها جميعاً بكلمة واحدة ثابتة لأنه فى غير حاجة إلى التدليل على صحة رسالته. وحينئذ نحاول من جديد أن نقيم البراهين والأسانيد لنفعل ما ينهانا عنه الضمير، ونحن نشعر فى كل هذا أنه لا قيمة لكل محاولاتنا مالم يأذن لنا الضمير بأن نفعل.

للضمير إذن سلطان على نفوسنا، سلطان كامل مستقر ثابت لا يناقش فيه أحد، يمتاز بالرهبة القوة والعزة، ومع أنه لا يوقع علينا عقوبة مادية بل كل جزائه روحى أدبى، إلا أننا نخشاه أكثر مما نخشى سطوةَ المادة ونحترم صوته كما نحترم صوت الله، وهذا دليل على روحانية الإنسان إذ ونحن بشر حسيّون نخاف ماليس بحسىّ، ودليل على أن هناك وجوداً روحانياً غير الوجود المادى، وهو وجود واقعىّ حىّ فعّال، ودليل على أن هناك سلطة وراء العالم المادىّ تراقب أفعالنا وتملك أن توقع علينا الثواب أو العقاب.

ولقد يمكن أن نرى فى الضمير سلطة مثلثة: تشريعية وتنفيذية وقضائية:

أ ـ السلطة التشريعية:

تُشرّع لنا، وتبصرنا بالخير والشر فتقول إن البر بالوالدين، والرحمة بالفقراء والمتألمين، والوفاء بالوعد، خيرات واجبة علينا ومحتومة، كما أن الخيانة والقسوة والخداع شرور مرذولة.

---

(١) لسنا نعنى بالإرشاد هنا الوعظ والتعليم العام، وإنما الإرشاد الذى نقصده هو النصح الخاص الذى يقدمه المرشد الروحى لمن يسأله كيف يسلك بصدد تصرف خاص.

ب ـ السلطة التنفيذية:

ومهمتها التنفيذ والتطبيق، فتقول مثلاً «يجب أن تدفع لهذا الفقير، أو تصنع بهذا المسكين رحمة لأن الرحمة خير والخير يجب أن يفعل، أو حذار من أن تغدر بهذا الشخص لأن الغدر بالناس شر، والشر يجب أن يجتنب.

وهنا يبدو لنا الفرق بين عمل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، فتلك تصنع الخير المطلق، وهذه تعّين واجب النفس إزاء عمل ما فى لحظة ما، فالبر بالفقراء خير ولكنه قد لا يصبح كذلك إذا لم يكن الباعث إليه حب الخير لذاته، فالضمير يعيّن الخير الجزئى الذى يدخل فى نطاق الخير العام أو الخير المطلق.

ج ـ السلطة القضائية:

ومهمتها الحكم باستحقاق الثواب أو العقاب، ولقد لقبها بعض المفكرين «بمحكمة الضمير» كما لقب «كنط» السلطة التنفيذية «بالأمر القاطع»... أرأيت إذن كيف أن تقسيم السلطات فى الدولة إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية، ليس إلا. إنعكاساً لعمل الضمير على صفحة المجتمع!!!

حقيقة الضمير

ما هو هذا الضمير الأدبى، وما هى حقيقته؟؟

لقد ذهب الفلاسفة وعلماء الأخلاق مذاهب شتى فى تحليل هذا الصوت الباطنى ونحن نريد أن نستعرض هذه الآراء حتى يمكن أن نحكم على أيّها بالصحة وأيّها بالبطلان.

(١) أما أصحاب المذهب العقلى Intellectualisme من أمثلل جان فردريك هربارت Herbart وفنت Vwndt فيرون أن العاطفة الخلقية ليست إلاّ أثرا من آثار تمثل العقل "Le representation. de l'esprit" والأحكام أو الإستدلالات التى يوحى بها هذا التمثل، أو أن الناس يلاحظون نتائج الأفعال فيحكمون بخيرها أو شرها. فالتجارب التى يمر بها الناس يقفون منها على أن تصرفا ما بعينه، ينتج شرا فهو شر، وأن غيره ينتج خيراً فهو خير، والعقل الإنسانى يمكنه أن يقوم بهذا الإستنتاج أو الاستدلال ، ويرى كانت Kant أن الضمير حدس(١) عقلى intuituion de la raison غير أن العقل عند «كانت» عقل نظرى خالص، وعقل عملى خالص، أما العقل النظرى فيتناول عالم الظواهر، وأما العقل العملى فهو الحدس الذى به ندرك العلاقة بين ما نحن إياه، وبين ما يجب أن نكون عليه، أو بين شخصيتنا الواقعية وبين شخصيتنا المثالية، وعلى ذلك فالضمير ملكة عقلية أصيلة فى الشخصية الإنسانية غير أنها حدس للعقل العملى وليس حدسا للعقل النظرى.

(٢) المذهب العاطفى: وعلى النقيض من ذلك تماماً يقف أصحاب المذهب العاطفى sentimentalisme وهم يرون أن الضمير ليس حدسا للعقل على الإطلاق، وإنما هو حدس للقلب فحسب، فالضمير عندهم أشبه ما يكون بغريزة أدبية أو عاطفة خلقية، لا أكثر ولا أقل.

وقد أخذ بهذا المذهب الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو J.J. Rousseau ويرى أن الضمير غريزة إلهية مفطورة فينا، وهمساته فينا عواطف وليست أحكاما، وأن إهمال هذه الغريزة المقدسة هو علّة ما نقع فيه من أخطاء وما نرتكبه فى الحياة من شرور. وليست هذه الغريزة الأدبية الإلهية منحة لقوم دون آخرين، بل هى غريزة مفطورة فينا يحملها كل منا فى أعماق نفسه، وهذا ما يحدو بالفيلسوف الفرنسى أن يجعل من الضمير شيئاً أشبه ما يكون بالغريزة التى لا تخطىء أبداً.

---

(١) الحدس نوع من الإدراك المباشر للنتائج بلا مقدمات. أو نوع من الإلهام العلمى المباشر ينبثق فى أعماق النفس الإنسانية، من دون أن يتلقاه الإنسان عن طريق آخر، أو دون أن يصل إليه بطريق البرهنة العادية.

هو نوع من المعرفة يتولد أو يهبط على النفس البشرية من غير مقدمات تسلم (تؤدى) إليه. أو من غير المصادر العلمية المعروفة ـ فلم ينتج من أثر المعرفة الحسية أو عن طريق التعليم من الغير.

وها هى كلمات روسو فى كتابه «اميل أو فى التربية» الذى أصدره سنة ١٧٦٢م Emile ou de l'Education فى الفصل المرسوم بـ «الضمير»: «... إنما أجد (قواعد السلوك) فى أعماق قلبى وقد كتبتها الطبيعة بحروف لا تمحى.. ليس لى أن أستشير غير نفسى فيما أريد أن أفعل: فكل ما أشعر أنه خير فهو خير. وكل ما أشعر أنه شر فهو شر. الضمير هو خير المرشدين جميعاً... الضمير هو صوت النفس (الروح)، والشهوات هى صوت الجسد. وهل من العجب أن تتعارض عادة هاتان اللغتان؟ وحينئذ فإلى أى منها يجب أن نصغى؟ إن العقل يضلنا فى أكثر الأحايين... لكن الضمير لا يضلنا قط. إنه القائد الأمين للإنسان وهو فى الروح كالغريزة فى الجسم. من يتبعه يخضع للطبيعة ولا يخشى الضلال».

«كل مبادىء الأخلاق التى نحكم بها على أفعالنا، هى فى أحكامنا التى نجدها فى بواطن نفوسنا...

«يوجد إذن فى أعماق نفوسنا مبدأ فطرى للعدالة والفضيلة، نحكم به ـ على الرغم من معتقداتنا الخلقية ـ على أفعالنا وأفعال غيرنا ـ بالخير أو بالشر، هذا المبدأ هو الذى أسميه الضمير.

«... أيها الضمير، أيها الضمير، الغريزة الإلهية والصوت الخالد السماوى، أيها القائد الذى يُطمأن إليه (فى قيادة) كائن جاهل محدود، لكنه ذكى وحر، أيها الحكم المعصوم فى الخير والشر، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله!.. أنت هو الذى تسمو بطبيعته وخلقية أفعاله ـ بدونك لا أشعر بشىء فى نفسى يسمو بها عن مستوى الحيوان، إلا هذه المزّية التافهة التى تقودنى من ضلال إلى ضلال، بمعونة فهم لا ضابط له وعقل بلا قاعدة أو قانون».

«أن القانون الطبيعى الذى يوحى به الضمير للإنسان، يكفى بذاته وليس ثمة حاجة إلى وحى آخر».

"...Je les (regles pour ma conduite) trouve au fond de mon coeur écrites par la nature en caractères ineffaçables Je n'ai qu'a`me consulter sur ce que je veux faire: tout ce que je sens être bien est bien, tout ce que je sens être mal est mal. Le meilleur de tous les casuistes est la conscience; ....La conscience est la voix de l'ame, les passions sont la voix du corps. Est-il étonnant que souvent ces deux langages se contredisent? et alors lequel faut-il écouter? Trop souvent la raison nous trompe, et nous n'avons que trop acquis..: mais la coinscience ne trompe jamais; elle est la vrai guide de l'homme; elle est à l'ame ce que l'instinct est au conps; qui la suit obéit à la nature et ne craint point de s'égarer..

Toute la moralité de nos actions est dans le jugement que nous en portons nous-mêmes...

"... Il est donc au fond des âmes un principe inné de justice et de vertu, sur lequel, malgré nos propres maximes, nous jugeons nos ections et celles d'autrui, comme bonnes ou mauvaises, et c'est â ce principe que je donne le nom de conscience.

".... Conscience! conscience! instinet divin, immortelle et celeste voix: guide assuré d'un être ignorant et borné, mais intelligent et libre; juge infaillible du bien et du mal, qui rend l'homme semblable à Dieu! c'est toi qui fais l'ecellence de sa nature et la mortalité de ses actions; sans toi je ne sens rien en moi qui m'élève au-dessus des bêtes, que le triste privilège de m'égarer d'erreurs en erreurs, a l'aide d'un entendement sans règle et d'une raison sans principe..(livre IV. 170)

(La loi naturelle révélée á l'homme par sa sonscience se suffit á elle-mêm; point n'est besoin d'une autre révélation.)

فالعقل ليس هو الحكَم عند روسو لأنه قد ينتهى إلى نتائج منطقية ومع ذلك نميل إلى رفضها بشعورنا وفطرتنا، فما الذى يدعونا إلى الإصغاء لنداء العقل وحده؟ ولقد ذهب روسو إلى أبعد من هذا فقال: ما أحرانا أن نطرح العقل ونكتفى بالشعور والقلب.

«ولقد شاع بين الفلاسفة أنفسهم أنه منذ ظهور رجال العلم اختفى أصحاب الشرف» إن التعليم يكسب الإنسان فطنة وذكاء ولكنه لا يجعل منه نبيلا فاضلاً: «وإننى لأصرح فى يقين أن التفكير مناقض لطبيعة الإنسان، وأن الرجل المفكر حيوان سافل» ...

وفى طريق روسو، مضى كثيرون من أمثال جاكوبى الفيلسوف الألمانى، وبسكال الفيلسوف الفرنسى، وقد رأوا ضرورة إلقاء السمع إلى الطبيعة، لأن العقل لا يستطيع أن يظهرنا فى وضوح وجلاء على الخير والشر.

(٣) مذهب الحاسة الخلقية: وهناك فريق ثالث من الفلاسفة لعلّه أقرب إلى فريق العاطفيين منه إلى فريق العقليين، يرى أن ذلك الهاتف الباطنى الذى يهتف فى نفوسنا بما يجب أن نفعله ويميز بين الخير والشر، إنما هو فعل حاسة سادسة غير الحواس الخمس، منحناها كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها ونميّز بين المرئيات والمسموعات، حاسة خلقية أدبية:

فطرنا عليها منذ بداية الخليقة، وكما أننا نميز بين الحلو والمر بحاسة الذوق، هكذا نميّز بين الخير والشر بحاسة خلقَية نسميها الضمير، فالخير ما يلائمها والشر ما يعارضها وينافيها كما يقول ريد Reid (فى القرن الثامن عشر) وليس للعقل أو التجربة مدخل فى ذلك. وقد ذهب بعض علماء الهيئة إلى أن موضع هذه الحاسة يأتى من نواتىء الجمجمة، وقال سميث أن ما أوجد فينا هزة ميل فهو خير، وما ولّد فينا اشمئزازاً ونفورا فهو شر، وقال غيره إنها حاسة روحانية لا آلية تختلف عن العقل، يندفع بها الإنسان بلا روية أو تفكير.

وبينما يرى هذا الفريق من الفلاسفة من أمثال شافتسبرى وهاتشسون Hutcheson (من رجال القرنين السابع عشر والثامن عشر) أن هذه الحاسة مفطورة فينا منذ الخليقة، يرى هوبز وهلفتيوس وهلباخ أنها نتيجة التلقين والتربية والتعليم. ويقول سبنسر (من فلاسفة القرن التاسع عشر) أنها نتيجة من نتائج الملاءمة البطيئة بين الجنس البشرى وبين ما تهيأ له من ظروف الحياة وأحوالها خلال العصور...

ومما يقوله سبنسر ومن إليه أن الحيوانات منها الضعيف ومنها القوى، وهى تتنازع على البقاء، حتى يهلك الضعيف ويبقى القوى الذى يستحق البقاء لأنه استطاع أن يغالب عوامل الفناء، هذا القانون الطبيعى فى الكائنات الحية يسمى بالإنتخاب الطبيعى، أى أن الطبيعة بذاتها تقوم بدور إنتخاب الأصلح ليبقى، وتنازع الحيوانات فى سبيل حياتها يسمونه تنازع البقاء، ثم بقاء الأصلح، أما العناصر الباقية فلأنها قوية فتورث صفاتها لأبنائها وهو ما يسمى بالوراثة.

وكذلك الحال فى الأخلاق والمبادىء التى يعتنقها الناس، فإن المثل العليا تصطرع مع بعضها اصطراعا حتى تتم الغلبة والظفر لواحد منها على الآخر، فيسود وينتشر رويدا رويدا حتى يعم الناس جميعاً ويصبح قاعدة ثابتة ومبدأ مستقراً، وما ذلك إلاّ لأنه وجد شخصية قوية خرجت على العرف الإجتماعى بمبدأ مغاير، ولم تعبأ بهزؤ المجتمع، وأخذت تدعو لرأيها فى قوة وصبر حتى كسبت فى جانبها نفراً، وهكذا إلى أن يتم لها الفوز أخيراً بأن يقتنع الجميع بصحة هذا المبدأ.

وكما أن الكائن الحى يتطور ويرتقى تبعا للبيئة والظروف المحيطة به، إذ لابد له من أن يتكيف مع البيئة لكيما يتمكن من البقاء، هكذا الأخلاق أيضاً فى نظر الارتقائين لا تبقى على حال واحدة بل لابد من أن تتطور وترتقى من أخلاق ساذجة إلى أخلاق راقية تتفق مع البيئات والعصور التى تتوالى على الإنسانية، وكما أن التطور فى الحيوان لا يتم إلاّ تدريجياً بحيث لا نكاد نعرف البدء فيه أو نقطة الإنتهاء، كذلك فى الأخلاق ترتقى تدريجياً... والوراثة كفيلة بأن تورث الأبناء صفات الآباء فيسهل التحول.

ويرى دارون (من رجال القرن التاسع عشر) أنها ثمرة التجارب التى مرّ بها أسلافنا فأصبحت عادة انتقلت إلينا عن طريق الوراثة. ففى كل جماعة إنسانية سلطة يتولى زمامها رجال السياسة أو الدين: أمرت بأشياء ونهت عن غيرها بناء على ما رأته فى الأولى من نفع، وما فى الثانية من ضرّ، فكانت تمتدح الأولى وتذم الثانية معتمدة فى ذلك على أنواع الجزاء من الثواب أو العقاب، وأصبح الناس يطمعون فى الثواب أو يخشون العقاب، فيقبلون على الأولى وينفرون من الثانية حتى اعتادوا ذلك وألفوه، فصاروا يحكمون على الأفعال بالخير أو الشر بناء على تلك العادة التى تأصلت فى نفوسهم دون أن يقفوا على أصلها ومصدرها، وربما كانت الإختلافات بين الشعوب فى أفكارها ومعتقداتها الخلقية على إختلاف الزمان والمكان هى أقوى دعامة يستند إليها أصحاب المذهب التجريبى (ويشمل الإتجاه الثالث والأخير من مذهب الحاسة الخلقية) كما أنهم يزعمون أن الأخلاق منعدمة عند الأمم المتوحشة، وأن فكرة الواجب لا وجود لها فى أمة تفتقر إلى السلطة.

هذه هى النظرات المختلفة التى تطلع الفلاسفة من خلالها إلى الضمير الأدبى أو الخلقى، وكلها كما ترى نظريات مختلفة متناقضة لا يمكن أن تكون جميعها صحيحة.

(١) **فالعقليون** : وقد أكدوا سلطان العقل فى تصرفات الإنسان، أنكروا أثر القلب أو العاطفة فى توجيه الفكر أو فى توجيه الحياة بتمامها، مع أن الإنسان ليس عقلا بحتا يصدر فى أفعاله وتصرفاته ونظراته للحياة عن استدلالات منطقية صرفة لا تؤثر عليها الإنفعالات والعواطف والشهوات. وما أصدق قول ليبنتز Leibnz الفيلسوف الألمانى «لو عارضت الهندسة شهواتنا ومصالحنا بقدر ما تعارضها الأصول الأخلاقية لأنكرنا حقائقها على الرغم من براهين أقليدس وارشميدس، ولقلنا أنها أوهام وقياسات فاسدة».

ولو كان الضمير - فيما يرى هربارت وفنت - ليس إلاّ تمثل للعقل،فما سرّ هذا النزاع الذى قد ينشأ بيننا وبين نفوسنا إزاء فعل ما يبيحه العقل ولا يرضاه الضمير، وقد يوفق العقل أعظم توفيق فى خلق أسباب ومبررات تبيح الفعل وتجوزه، بينما يظل الهاتف الباطنى يأمرنا بسلطان رهيب بأن نمتنع عن الفعل مهما كانت الأسباب معقولة؟.

حقاً لقد أصاب روسو فى قوله: «أن العقل كثيراً ما يخدعنا ويقودنا إلى الخطأ والضلال» ولو كان العقل هو الضمير لكان الفلاسفة وعباقرة المفكرين هم أكبر الناس حظا من هذا الضمير، والواقع أن ذلك ليس بقاعدة صحيحة، بل ربما اكتسب الفيلسوف من سعة عقله فطنة وقدرة على ارتكاب الشر بمهارة تخفى عن ذوى العقول الساذجة، ولكنها تنافى الضمير الحىّ، فليس الضمير إذن هو العقل، وان كان الضمير يحتوى على عنصر عقلى قوامه الأفكار والمعتقدات الخلقية.

أما التمييز الذى قال به (كانت) بين عقل نظرى يفكر ويعلل ويستنتج ويتذكر، وبين عقل عملى يتناول الحياة الأخلاقية، فهو تمييز من شأنه أن يجعل العقل عقلين فى نظر البعض، أو عقلاً واحدا ذا وجهين عند البعض الآخر. وفى الحالة الأولى يكون كل من العقلين النظرى والعملى - حدسىّ وبديهى وعام وضرورى، إلاّ أن لكل منهما مصدراً فى النفس الإنسانية يتميز عن مصدر الآخر، أما إذا كان العقلان - النظرى والعملى - عقلا واحدا ذا وجهين، فحينئذ يكون الضمير شكلاً من أشكال العقل، ويكون الإختلاف بين العقل النظرى والعقل العملى على نحو ما تختلف وظيفتان لقوة واحدة، أى أن العقلين فى هذا التفسير - جوهرهما واحد وإن اختلفا فى العمل والوظيفة والتطبيق، والواقع أن أصول العقلين واحدة، وليس العقل النظرى إلاّ عبارة عن العقل عاملاً على تحقيق النظام فى الفكر والتجربة، كما أن العقل العملى هو العقل بعينه عاملا على إقرار النظام فى الحياة الإنسانية، وكل ما هنالك من فرق، أن النظام فى العالم الخارجى محقق فى ذاته، وما على العقل إلاّ أن يكتشف هذا النظام، أما فى الحياة الإنسانية فلا يتحقق فيها النظام إلاّ بمجهود العقل.

ومهما يكن من شىء فإن (كانت) عقلى مغال فى النزعة العقلية، بحيث لم يجعل للقلب أو للعاطفة مدخلاً فى تصرفات الإنسان وأفعاله، وما يقال عن كانت ينسحب أيضا على هربارت وڤنت وأصحاب المذهب العقلى. وليس الخطأ عندهم فى تنظيم العقل للحياة الإنسانية وإنما الخطأ فى أن يصبح العقل كل شىء فى الحياة الأخلاقية.

يجب إذن أن يكون للعقل نصيب فى تكوين الضمير وتنظيم أفكارنا الخلقية ودعمها بالمبادىء العقلية. ولكن يجب أيضاً أن يترك العقل للعاطفة والغريزة والتجارب ميداناً لتأليف الضمير وتكوينه.

(٢) **المذهب العاطفى**: قد وقع أصحابه فى خطأ شبيه بالخطأ الذى سقط فيه العقليون، فقد ألغوا عمل العقل واحتقروا التفكير وجعلوا الأخلاق تقوم على دعامة العاطفة، وبذلك جعلوا الضمير أشبه ما يكون بالغريزة أو الشعور أو هو الشعور. وكذلك القائلون بمذهب الحاسة الخلقية الذين جعلوا الضمير نوعا من الإحساس الباطنى والشعور الوقتى، الذى يحسه المرء أو يشعر به شعوراً تلقائياً حيال بعض الأفعال، فيحكم عليها بالخير والشر تبعاً لما يشعر به نحوها من إحساس الملاءمة أو النفرة، فقد أنكر هؤلاء وأولئك دور العقل وجعلوا الإنسان أقرب ما يكون إلى الحيوان لا يفكر فيما يجرى على لسانه من أقوال وما يصدر عنه من أفعال. ألا يقول بسكال نفسه، وهو من العاطفيين مع ذلك، بأن الإنسان قد خلق ليفكر وأن كل كرامته وكل أحقيته وكل واجبه فى أن يفكر كما ينبغى؟ فكيف لا يكون للعقل نصيب وافر فى حياة هذا الكائن العاقل، وإذا كان حقاً أن الإنسان يشعر نحو بعض الأفعال بشعور الإرتياح ونحو بعضها الآخر بشعور النفرة وعدم

الإرتياح، فهذا الشعور هو فى الواقع لاحق لما يصدره الإنسان على الأفعال من أحكام بالخير أو بالشر. والدليل على ذلك أنه قد يقف جامدا إزاء بعض الأفعال لأنه لم يكوّن عنها فكرة واضحة وحكما يطمئن إليه. أجل قد يبدو للمرء فى بعض الأحيان أنه لم يصطنع التفكير والرّوية، ومع ذلك قد أحس بشعور خاص نحو هذا الفعل أو ذاك، ولكن ذلك ليس معناه أن العقل كان على الحياد أو أن العاطفة وحدها هى التى تؤلف الضمير الخلقى، إذ أن العقل لابد أن يحكم وأن يميز ولكن قد تكون الأدلة على صواب الفعل أو خطئه أدلة غامضة أو مبهمة، ولذلك يظن الإنسان أن العقل معطل وأن الحاسة الخلقية وحدها هى التى تبيّن خير الفعل من شرّه، ومع ذلك فهذه الأحكام التى تصدر عن العاطفة أو الشعور ـ عندما تكون الأدلة العقلية مبهمة غامضة ـ فى الغالب تكون أحكاماً مشوهة أو غير صحيحة، أو على الأقل غير مضبوطة تفتقر إلى الدقة والإحكام، ولذلك تكون أحكام المتحمسين وغير المتزنين هوجاء حمقاء، ولو تريث المتسرعون فى أحكامهم ونظّموا عواطفهم ومشاعرهم وحدّوا من غلوائها بما يقتضيه العقل والإتزان، لعصموا أنفسهم من كثير من الأخطاء يقعون فيها وهم فى غليان العاطفة وهيجان الشعور. ومن يدرى، فربما كان الإحساس أو الشعور يتحرك نحو الأفعال قياسا على أفعال أخرى، بينها وبين تلك وجه أو أكثر من وجوه الشبه فيندفع الإنسان بشعوره إلى الحكم عليها بأحكام مماثلة لأحكامه السابقة قبل أن يفسح للعقل سبيل البحث والتفكير، أو لأن هذا الفعل قد أصبح ملائما أو غير ملائم ـ وفقاً للعرف والتقاليد الدينية والأوضاع الإجتماعية ـ فهو يتصرف تبعاً لما طبع فى نفسه من شعور نحو هذه الأفعال. نعم، قد يكون شعورا بحتا خالياً من التأمل العقلى والبحث الفكرى، لكنه لم يصبح شعوراً إلاّ بعد أن حكم العقل ـ بناء على ما سلّم به أخذا عن المجتمع أو الدين ـ بأنه خير أو شر وربما بناء على تجربة ذاتية أو إجتماعية سابقة.

وإذن فليكن أن العاطفة أو الشعور عنصر من عناصر الضمير الأدبى، أما أن يكون الضمير مجرد عاطفة، فهذا إنكار صريح وتحد صارخ لعمل العقل، وأثر التجربة الفردية والإجتماعية فى حياة الإنسان الخلقية.

(٣) المذهب التجريبى أو مذهب التطور: والذى يفهم الضمير على أنه من إنتاج التربية أو من إنتاج التجربة أو أن السلطة السياسية أو الدينية أو الإجتماعية، عموماً هى التى كونت من مجموع التجارب والخبرات التى مرت بها الإنسانية خلال العصور، ما تأصل فى الطبيعة الإنسانية وأصبح عادة ورثناها ودعوناها الضمير. وهنا نجابه المذهب التجريبى.

(أ) لكن هل حقاً أن التربية تخلق الضمير؟ كلا.. إن التربية لم ولن تكون خلقاً لمعدومات، بل هى تهذيب وصقل لأصول موجودة، ولكنها على صورة ساذجة تحتاج إلى إعلاء وترقية، وليس من ينكر أثر التربية فى تهذيب الضمير وصقله، ولكن الذى ننكره أن تخلق التربية

الضمير الأدبى، وهاهم علماء التربية أنفسهم يعترفون بأن فى طبيعة الطفل استعدادات لهذه التربية وسابقة على التربية، وأنهم يقومون بتربية الأطفال على أساس هذه الاستعدادات الفطرية السابقة، وأن الطفل لو نشأ بعيداً عن والديه وبعيداً عن كل مؤثرات تربوية وإجتماعية، فإنه ينشأ نشأة تدل على أن فى نفسه أصولاً أخلاقية يتفق فيها مع جميع الناس قاطبة، مما يدل على أن هذه الأصول الخلقية ليست من فعل التربية ولا بفضل الوالدين أو المجتمع. وقد ذهب علماء النفس إلى أن النزعة الخلقية أو الدينية قاصرة على الإنسان دون الحيوان، وإلى أن أساسها فطرى غريزى يسمو ويرقى بسمو الإنسان ورقيه.

ولو كان الضمير من خلق التربية لكان معناه أن الإنسان الأول كان بلا ضمير، ولكان معناه أيضاً أننا نحن أكثر تمتعاً بالضمير من السابقين. وهذا مالا يمكن لأحد أن يزعمه.

ولو كان الضمير من خلق التربية لما أمكن أن تكون ثمت مبادىء عامة، وإنما تكون المبادىء متناقضة متغيرة تبعا لآراء المربين، ولكننا نلاحظ أن هناك مبادىء عامة واحدة وأصولاً أخلاقية واحدة.

ولو كان الضمير من خلق التربية لكان المتمردون على التربية بلا ضمير والحال غير هذا.

ولو كان الضمير من خلق التربية لإفترضنا أولاً: وجود مربين حاصلين على الضمير الذى ينقلونه إلى تلاميذهم، وسواء كان مطبوعاً فى نفوسهم أو أنهم تسلموه من سلطة سابقة، هى سلطة الوالدين أو المجتمع أو المربين السابقين. وأيا كان القول فالضمير سابق على التربية لا لاحق بها.

(ب) ولو كان الضمير يرتد إلى تجارب السابقين وقد تجمدت فى الجهاز الآلى بفعل الإعادة والتكرار، لكان الضمير فينا خيراً مما فى آبائنا وجدودنا. ولكان الأسبقون بلا حكم وبلا تمييز بين الخير والشر، وهو ادعاء كاذب ووهم باطل، فنحن حقاً أرقى من أسلافنا فى أفكارنا الخلقية. ولكن فرق بين الأفكار الخلقية وبين الحياة الخلقية، فلقد كانوا يميزون بين الخير والشر، ولو أن الخير عندهم قد يتخذ معنى يختلف عن المعنى الذى يتخذه عندنا اليوم.

ولو كان حقاً ما يقوله التجريبيون من أن التمييز بين الخير والشر هو محض تأثيرات عصبية ناجمة عن تجارب السابقين التى تجمعت فينا بفعل العادة، لكانت هذه التأثيرات مختلطة مضطربة، يصعب بل يستحيل أن ترتبط معا لتؤلف مبدأ الواجب الواحد، ولكِنّا نحن أعجز من أن نعلل بها أمورا يحكم العقل السليم بصحتها وصوابها ودقّتها. أليست تأثيرات عصبية مادية، فمن لها بقوة الإدراك والمعرفة، وكيف يمكن أن تكيف الأفكار والأقوال والتصرفات ثم تهتز بما يلائمها جميعاً، وهى على ما هى عليه من تغير واختلاف وفروق دقيقة، أو كيف يمكنها أن تميز

بين الفضيلة والرذيلة بدون مرشد أو عقل، يفسر لها كل فكرة وقول وعمل ومدى مخالفته للخلق أو موافقته له؟؟؟... إن العقل لا يستسيغ أن يكون الحس الآلي الأعمى هو مرشد الإنسان وقائده..

ولو كان هذا الحسّ الآلي هو الذى يعيّن خير الفعل وشره بهذا النوع من الإهتزازات العصبية، لما كان ثمة داع على الإطلاق لأن يتأمل المرء مبادىء الفضيلة ويقهر نفسه عليها، ويقاوم نزعاته ورغباته البهيمية فى سبيل الخضوع لمبدأ الواجب.. ولِما كانت هناك أى فائدة من جهود الأخلاقيين ورجال الدين والفضيلة، حينما يدعون إلى الخير وينهون عن الشر، مادامت الأخلاق مركوزة فى طبيعتهم وقد استحالت إلى تأثيرات عصبية وحركات آلية جسمانية بحتة، ولو صحّ أن نفرق بين رجل خيِّر ورجل شرير، إذ يصبح الجميع مسيَّرين بموجب هذه الأمور الغريزية التى لا مفرّ لهم من الخضوع لها، وليس لهم من سبيل إلى مقاومتها والخروج على إرادتها وقوة سيادتها. مع أننا فى الواقع نميّز بين خير وشر، ونجد أفراداً خيِّرين وغيرهم أشرارا، ولا زلنا نتأثر بالدعوة إلى الخير والواجب والحملة على الشر والأثم، ولازال رجال الفضيلة مؤمنين بقيمة دعوتهم وثمرة جهودهم، ولا زال الناس يتغيرون ويتحولون كلما اتضح لهم أمر جديد لم يكونوا ينتبهون إليه، أو كلما شعروا بواجبهم الذى تحركهم إليه رغبة دائبة دائمة ملّحة نحو الخير والمعروف.

هذا وأن الشعور نفسه الذى يتولد فينا إزاء بعض الأفعال، هو نفسه محل لحكمنا عليه بالخير والشر مما يدل على أنه شعور لاحق لا سابق لفعل الإدراك والتمييز، ومن العجيب حقاً أن يصدر عن الحس الآلي تمييز بين خير وشر، إن الحس الآلي يمكن أن يميز بين لون أبيض ولون أسود أو بين جسم خشن وجسم ناعم، أو بين صوت أجش وصوت رخيم أو بين طعم حلو وطعم مر، أو بين رائحة ذكية ورائحة كريهة، ولكنه لا يستطيع أن يميز بين الفضيلة والرذيلة لأن الفرق بينهما فرق معنوىّ يقوم على أساس إدراك لغاية الإنسان الطبيعية والوسائط التى تحقق هذه الغاية، وهذا الإدراك للغاية لا يتم فى حس آلي أعمى بل بملكة المعرفة الأصيلة فى الإنسان وهى العقل. ولذا فإن الحيوان لا يدرك الفرق بين الخير والشر، ولا نستطيع أن نصفه بالفضيلة أو الرذيلة أو ننسب إليه استحقاق الثواب أو العقاب على الخير أو الشر.

ثم إننا نقول عن الشخص أنه فاضل أو خيّر، إذا كان بالحقيقة يدرك الفرق بين الخير والشر، ثم تخيّر الخير واتبعه وكان فى إمكانه أن يفعل الشر ثم امتنع عن فعله، وهذا معناه أنه متصف بالمعرفة من جهة وبحريّة الفعل من جهة أخرى، ولذا نقول أنه مستحق الثواب أو العقاب لأنه قد فعل بمحض حريته واختياره بعد أن عرف الفرق بين الخير والشر، أجل إن الضمير يأمرنا

بالواجب بضرورة ملزمة، غير أنها ضرورة عملية وليست نظرية وضرورة مطلقة وليست مشروطة أو مقيّدة، كما أنها ضرورة أدبية وليست طبيعية، إذ الحيوانات غير الناطقة تندفع نحو غايتها بضرورة حتمية لا مفرّ من وقوعها. فهى ضرورة طبيعية. أما الكائنات الناطقة فيلزمها أن تميل من تلقاء نفسها إلى غايتها وفقاً لما تقتضيه الشريعة، ولذلك فالضرورة فى النواطق أدبية وليست طبيعية. أى أن الكائنات الناطقة وإن وجب عليها أن تفعل ما تقتضيه طبيعتها بالطاعة للشريعة، لكنها حرّة مختارة يمكنها أن تفعل ويمكنها أن تهمل، أفهل تستطيع هذه الحاسة الآلية أن تدرك خير الفعل من شره، وهل يمكنها أن تحدد مدى مسئولية الفاعل دون أن تعرف مدى إختياره فى الفعل، وهل لها أن تعرف مدى هذا الإختيار دون العقل؟؟ أفليس هذا القول ـ بالحاسة الأدبية الآلية ـ هراء، وهل تستطيع الحاسة الخلقية وهى محض إهتزازات مادية أن تعقد هذه المناقشة العنيفة وهذه المحاكمة الصارمة التى يقوم بها الضمير؟؟.. إن فى الضمير عناصر عقلية لا يسهل بل يستحيل تفسيرها بإهتزازات جسمية من حاسة آلية.

وإذا كان حقاً ما يقولونه من أن الجسم يتحرك أو يهتز بالخير أو الشر، فهذه الحركة لا يفسرها ولا يميزها غير المعنى الذى يصاحبها، فهى إذن لاحقة بالمعرفة العقلية لا سابقة عليها، وإلاَّ فهل تستطيع هذه الحركة أن تفسر لنا فعل الرحمة مثلاً ـ إن كان حباً للخير فى ذاته ، أو طمعاً فى الشهرة وذيوع الصيت بين الناس؟ أو هل يمكن أن تشرح لنا الفرق بين من يسرق ليرحم ويحسن، وبين من يكّد ويعمل ثم يرحم ويحسن؟ أليس حقاً أن هذا التمييز بين الأفعال ودوافع الأفعال ووسائط الأفعال يجرى بموجب ملكة عاقلة دراكة؟ أيمكن أن نسلب من العقل عملاً من صميم أعماله لنمنحه لحركات جسمية مادية بحتة؟ ولِم نأبى الوضع السليم وهو الوضع الطبيعي: أن تكون هذه الحركات نتيجة لإدراكنا وتمييزنا الفرق بين الخير والشر؟؟؟

ومهما قال الفلاسفة من أن هذا الحس الأدبى له من البداهة والعموم والثبات ما يحملهم على أن يحسبوه شيئاً آخر غير هذا العقل المتقلب، فإننا نحن لا نستنتج من صفات هذا الشعور إلاّ أنه تمييز بديهى بين الخير والشر، واستعداد فطرى نحو الخير الطبيعى لوجودنا وطبيعتنا الناطقة العاقلة، وأنه مرتبط بمبدأ واحد قد أودع فينا من الله بمثابة نور طبيعى، بموجبه ندرك الفرق بين الخير والشر وأن الخير يجب أن يتبع والشر يجب أن يجتنب، ولو أن مادة هذا الواجب تختلف بحسب معرفة الإنسان ومدى ثقافته وعادات بيئته، وهذا يفضى بنا إلى القول أن هذا الشعور الباطنى الذى نسميه الضمير ليس هو العقل، وليس هو الغريزة، وليس هو الحس الآلى الأعمى، وإنما هو شعور يستهدى العقل ويستضىء بنوره.

(ج) ولو كان الضمير أو التمييز بين الخير والشر يرجع إلى سلطة بشرية، فكيف استطاعت هذه السلطة البشرية المحدودة أن تكون مصدر تمييز بديهى، يوجد عند جميع الناس فى مختلف البيئات ومختلف العصور؟ ولماذا نرى السلطات تتغّير وتتبدّل والتمييز بين الخير والشر باق يتسّم بالوضوح والجلاء ولا يعتوره التغيير والتبديل؟؟ ألا نستبين من ذلك أن هذا التمييز البديهى بين الخير والشر سابق فى وجوده على هذه السلطات الإنسانية وهذه الشرائع البشرية المتغيرة المحدودة؟؟؟...

وهل حقاً أن التمييز بين الخير والشر يقوم على أساس سلطة أمرت ببعض الأمور فأصبحت خيرا، ونهت عن بعضها فأصبحت شرا، لكن إذا كان الأمر كذلك، فلمَ نقول عن الشريعة أنها عادلة أو ظالمة، صالحة أو فاسدة، أو كيف نصف الشريعة بالحسن أو القبح بالخير أو الشر، فكأننا نقيسها على الخير فنحكم بمطابقتها أو مغايرتها له، أى أن الخير والشر سابقان على الشرائع الوضعية، وأن التمييز بين الخير والشر هو أساس الحكم على الشرائع بالحسن أو القبح، وهذا لايكون إلاّ إذا كان هذا التمييز سابقا فى وجوده على ما وضعه الناس من شرائع وما سنّوه من قوانين.

ذلك إلى أن النظم السياسية أو الدينية أو الإجتماعية لم تفرض على الناس قهراً وإجباراً، وإنما قد رضيت عنها أولاً الجماعات الإنسانية، ووجدت فيها ما يسد فراغاً شعرت به فى محيطها، أى أنها نظم معبرة عن رغبات الناس الذين وضعت لأجلهم. ثم قامت السلطة بهذا التعبير وبمهمة التطبيق والتنفيذ، فكأن السلطة لم تخلق الضمير بل هى مرآة تنعكس عليها أخلاق الجماعة وضميرها، أى أن الضمير سابق على السلطة وليس من خلقها.

ودليلك على ذلك أن السلطة إذا لم تقم بمهمة التعبير عن ضمير الجماعة التى تمثلها خير قيام، فإن الجماعة تتمرد على هذه السلطة تمرداً مستمراً. ولن ترضى بهذه السلطة حتى تعدل من سياستها وخطتها ومبادئها، وإلاّ فإنها تبدى عليها سخطها وإستياءها. وليست الثورات والإنقلابات الإجتماعية إلاّ صورة واضحة من هذا السخط الذى يبدو من ضمير الجماعة نحو السلطة التى تتحدى مهمة التعبير عن ضمير الأمة، على أنه لا فرق فى ذلك بين سلطة قوية مستبّدة وسلطة ضعيفة مستكينة، فإن الضمير الإنسانى والإجتماعى أقوى وأعظم من أية سلطة إنسانية أخرى، فلن يرضيه شىء إلاّ الحق، ولن يقنع بما يخالف أحكامه، ولو اختفى فى شخص فإنه يظهر فى شخص آخر، ولن يصمت حتى يتبدل العالم الخارجى إلى ما يصبو إليه وما يبتغيه، هنالك وهنالك فقط يكون التوافق والإنسجام.

ولو كانت السلطة هى التى خلقت الضمير لظلّ الضمير طوع هذه السلطة إلى الأبد. ولكن المشاهد أن هذه السلطات الدينية والسياسية والإجتماعية تتبدّل وتتغير باطراد تبعاً لما يدرك الأمة فى حاجاتها الأدبية والمعنوية من تبدل وتغير وتطور، ومع ذلك يتبقى حكم الضمير واحدا (أن الخير يجب أن يتبع، والشر يجب أن يجتنب) فالديانات تتغير فى الجماعات الإنسانية، فقد تحولت كثير من الأمم من الوثنية إلى المسيحية مثلاً. وتبعاً لذلك تغيرت السلطة وتغيرت أيضاً أحكامها، فصارت تناصر المسيحية وتؤيدها وقد كانت قبلا تقاومها وتناهضها. وهذا دليل على أن السلطة السياسية والسلطة الإجتماعية والسلطة الدينية، الأولى لم تقو على أن تقهر الضمير الإنسانى وأن تغلبه على أمره وأن تجعله يسلم بلا قيد ولا شرط بقوة السلاح أو قوة المجتمع أو قوة الدين القديم.. وهكذا النظم السياسية وما يدركها من تطور دليل على ما نحن بصدده، فقد تتغير الحكومة من ملكية مستبدة إلى ديمقراطية أو جمهورية كما حدث ذلك فى فرنسا مثلاً وايطاليا أخيراً، وهذا معناه أن السلطة تعدلت وفقاً لما يتطلبه ضمير الأمة، وكذلك الاتجاهات الإجتماعية تتغير، فليس من فكرة إجتماعية سادت المجتمع إلى الأبد، بل تظل سيادتها مادام الناس يعترفون لها بهذه السيادة. فإذا تمرّدوا عليها وهنت قوتها وأصابها ما أصاب إخوانها من ضعف وذبول وإنحلال.

ولو كانت السلطات مرجع الخير والشر، لكان الخير خاضعاً دوماً لإرادة المشرعين، ولأصبحت الشرور فضائل مقّدسة والفضائل قبائح مرذولة، وفى هذا يقول شيشرون «لو أن الحقوق قوامها بأوامر الشعب ومراسيم الأمراء والرؤساء وأحكام القضاة، لكان كل من السرقة والزنى وغيرهما من الشرور حقوقاً (وعدلا) إذا صادفت رضى الشعب واستقر عليها رأى الأمة». والواقع أن لا، فالضمير لا يخضع للسلطة إلاّ إذا كانت السلطة معبّرة عن إرادته، ولكنه إذا تبيّن منها تمردا وعصيانا، نزع ثقته منها وأوسعها نقداً وتقريعاً حتى تئوب إلى رشدها، أو نزعها عن عرشها.

أرأيت إذن إلى أن الضمير الأدبى هو السابق فى وجوده على هذه السلطات، وأن السلطات لا تقوى على مغالبته والسيطرة عليه إلاّ إذا قبل هو هذه السيطرة لما فيها من محاسن التنظيم والتفسير والإيضاح، والإثابة والعقاب، وأنه لن يقف من هذه السلطة موقف الخضوع ولكنه يرقب حركاتها على وقع همساته وينقدها ويزنها بميزانه ويعيرها بمعياره، فإذا أجادت مهمة التعبير عنه أعلن رضاءه عليها وإعجابه بها وخلع عليها سلطاناً جديداً يجعلها أكثر رهبة وأعظم قوة وإقتداراً، وإذا انحرفت عن هذه المهمة تألب عليها وناصبها العداء. فإما أن ترجع خاضعة مقهورة إلى خطتها التى رسمها هو لها فى الماضى أو يرسمها فى الحاضر، وإما أن يظل هو قلقا

وفى قلقه وإضطرابه زلزلة لكيانها لأنه كالقاعدة والأساس لبنيان شامخ، إذا تزعزع الأساس تزعزع البنيان معه لأن قيامه به وثباته فيه، فالضمير إذن هو أساس السلطة، والسلطة هى لسان الضمير والحارس الذى أقامه الملك على باب بيته ليذود عنه بالسيف والنار.

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الضمير الأدبى شيء آخر غير العقل وغير الشعور وغير السلطة وغير الغريزة، هو ملكة معقدة مركبة تتألف من العقل ومن الشعور أو العاطفة ومن السلطة الذاتية أو الإرادة. فليس الضمير على قول العقليين عقلاً صرفا، ولا هو على قول العاطفيين عاطفة صرفة، كما أنه لا يخلو من عنصر إرادى فعال، يؤكد كيان الذات ويحقق المعرفة والميل فى الواقع الخارجى. وإذن فالضمير استعداد طبيعى وتمييز بديهى بين الخير والشر ينبثق فيه قدر من العقل فينيره وقدر من العاطفة فيثيره وقدر من الإرادة فيوجهه ويديره.

عناصر الضمير

عناصر الضمير ثلاثة كما أسلفنا: **عنصر عقلى** قوامه الأفكار والمعانى التى تشتمل عليها أحكام الضمير، **وعنصر عاطفى** يتمثل فى المشاعر والعواطف المصاحبة لأفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، سواء كانت هذه المصاحبة سابقة لها أو ملازمة لها أو لاحقة بها، ثم **عنصر إرادى** أو فعال هو هذه البواعث الدافعة إلى الفعل والمحركة على العمل، تنهانا عن الشر وتدفعنا إلى الخير.

على أن هذه العناصر الثلاثة تؤلف معاً وحدة متسقة، ولئن كنا سنضطر إلى الكلام عنها الواحد بعد الآخر، غير أن ذلك لتسهيل الدراسة فقط، وإنما فى واقع الأمر ليس بين هذه العناصر فصل، إذ الضمير كل لا يتجزأ ووحدة غير منقسمة لأنها وحدة روحية غير مادية.

أولاً: العنصر العقلى:

ما أكثرالدوافع والأسباب التى تجتمع حول النفس عندما تكون بصدد فعل ما من الأفعال الإنسانية والأدبية، ولكن العنصر العقلى فى الضمير يبحث هذه الدوافع جميعها، ويقارن بينهما ثم يبرز الدافع الحقيقى إلى الفعل ويرتب من بعده الدوافع الثانوية الأخرى، وأخيراً يحكم على هذا الدافع أو ذلك ويقومه من ناحية الخير والشر، فيرى أنه خير يستحق أن يفعل أو شر يحرم فعله، فإذا فعل المرء وفق أحكام الضمير أو خلافا لها، قضى الضمير على الفاعل بما يستحقه وقدّم العنصر العقلى حيثيات هذا الحكم ليكون الفاعل على بيّنة منها.

فكأن الضمير مشرع وقاض، وعمل العنصر العقلى أنه يفتش ويفحص ويميز ليكشف الدافع الحقيقى الذى يوجد فى أغوار النفس الإنسانية، والذى قد يخفى عن عيون الناس ويقيس هذا الدافع إلى قياس الخير ليرى مدى صلاح الدافع من شره، حتى إذا فعل الفاعل وانقلب الضمير إلى قاض أمكن للعنصر العقلى فى الضمير أن يشرح للنفس أسباب هذا الحكم أو القضاء.

خذ أمثلة لتنوع الدوافع فعل السرقة: فقد يسرق الإنسان سبباً للعوز أو حباً فى النكاية والغدر أو ليرحم مسكيناً أو ليدبر شئون عياله أو ليغتنى ويثرى وما إلى ذلك.. فيناقش الضمير النفس ويستعرض الدافع أو الدوافع التى تتذرع بها لفعل السرقة، ويبيّن لها مدى مخالفة هذه الدوافع للخير والواجب، ثم يصدر على الفعل والدافع إليه حكما يعتبر شريعة للنفس تلتزم به وإلاّ تعد شريرة إذا لم تطع.

وقد يتصدق الشخص حباً فى الخير أو رحمة بالمسكين أو إتماماً لمطالب الشريعة أو حباً فى الظهور والشهرة أو طمعاً فى منفعة مقبلة، أو طلباً لأن يأسر الشخص فيستغله لمصلحة فى وقت ما، وهكذا.. فالضمير يرى الرحمة خيراً ولكنه يناقش الدوافع فإذا كانت خيّرة أوجب الرحمة،

وإذا كانت شريرة حكم على فساد الدوافع فقط، أما إذا تذرع الإنسان بدافع خيّر وقد كان يبطن دافعاً آخر، فخير من يكتشف هذه المغالطة هو العنصر العقلى فى الضمير فيظهره على حقيقته ويحكم عليه بالشر وعلى فاعله بالشر والنفاق معا.

ولما كان الضمير يناقش النفس ويحاسبها ويحكم عليها ويضيق عليها بإلتزام الخير، لذا يشعر الأشرار بشعور الكراهية للضمير الذى يريدون أن يتخلصوا من إفتاءاته فلا يستطيعون، يقول شكسبير على لسان هاملت وقد كان يريد أن يقتل عمه «فضمائرنا هى التى تنزع شجاعتنا عنا وتلبسنا لباس الجبن فتّحول لون عزمنا الطبيعى إلى إصفرار القلق، فنرجع عما نكون قد عزمنا عليه من عمل خطير هام ونفقد قوة التنفيذ».. ويقول أيضاً (شكسبير) فى رواية ريتشارد الثالث على لسان سفاح أراد قتل الكونت كلارنس «دعنى وهذا (أى الضمير) فما أشد خطره، فهو يقودنى إلى الجبن، لا أستطيع السرقة ومع ذلك يتهمنى، لا أستطيع الحلف زورا ومع ذلك يعرض بى، ويل لى من هذا الروح الخجول الثائر بين أضلعى، يجعلنى أُرُدُ نقوداً كنت عثرت عليها فأصبحت لا أملك شروى نقير».. يقول أيضاً (شكسبير) على لسان بروتس بعد أن أوغر صدره كاسيوس على قتل يوليوس قيصر..» منذ أن أوغر (كاسيوس) صدرى، وأنا لم أنم ليلى.. تمر مدة خطرة ليخرج الفكر إلى حيز العمل، فتنتابنى فيها هواجس لم أعهدها إلاّ فى الرؤى. حرب طاحنة بين العقل الراجح والضمير الناصح، وكأن الإنسان أمة تلتهب أحشاؤها بنيران ثورة بين أبنائها».

ثم أن الضمير مشرع وقاض لأفعال غيرنا، نشرع لتلاميذنا وأبنائنا فنرشدهم إلى الخير والشر، ونبصرهم بالدوافع الخيرة، فإذا اتضح لنا بإعترافهم أو من حركاتهم دوافع شريرة أبناً لهم شرها، فإذا فعلوا حكمنا على أشخاصهم. وإذن فالمعلم أو المرشد أو الكاهن يشرع للناس ويقضى عليهم أو لهم بما يوحى إليه العنصر العقلى من الضمير.

هذا هو الضمير أو العنصر العقلى الذى يجب أن نلجأ إليه محتكمين لنعرف الحق الذى تطمئن إليه الروح يقول السيد المسيح «ولماذا لا تحكمون بالحق من قبل نفوسكم» (لو ١٢ : ٥٧).

ثانياً: العنصر الشعورى أو العاطفى:

يصدر العنصر العقلى أحكاماً على الأفعال ودوافع الأفعال، ولكن الفاعل لا يلبث إزاء هذه الأحكام فاترا جامداً بل يشعر بإحساسات وعواطف، تختلف قوة وضعفاً أو ظهوراً وخفاء لكنها على كل حال تكون مصاحبة للفعل ومتسببة به، وهى تكون قبل الفعل غيرها بعد الفعل، وكما أننا نشعر بهذه العواطف إزاء أفعالنا. كذلك نشعر بعواطف أخرى نحو أفعال غيرنا. هذه

العواطف والشعورات المختلفة تعرف عادة باسم العواطف والمشاعر الخلقية تميزا لها عن العواطف النفسانية من حب وكراهية...

(أ) عواطف تتصل بأفعالنا قبل حدوثها:

عاطفة التكليف والإلزام:

ويسمى الضمير فى هذه الحالة بالضمير السابق Conscience antécédénte من حيث أنه يسبق الفعل ويحكم عليه قبل حدوثه ويلزم الفاعل به محملاً إياه تبعة الفعل.

هذه العاطفة أو هذا الشعور نحس بها عندما نكون بصدد فعل ما، فيتكلم الضمير فينا بصوت باطنى لكنه واضح وقوى: نشعر أنه يجيب جيداً على حاجات متأصلة فى طبيعتنا الإنسانية، لذا نجد نفوسنا تؤمن بحقيقة هذا الصوت ولا تملك أن تناقشه مناقشة جديّة، فهو ذو هيبة وسلطان عليها، وهى تعترف له بسيادته عليها، ووجوب خضوعها له حتى لو لم تخضع له بالفعل فى موقف أو بضع مواقف. وإذن فنحن نشعر أننا ملزمون بشريعة الضمير، مكلفون بالعمل بإيحاءاته وتوجيهاته ولذا تسمى هذه العاطفة بعاطفة التكليف أو الإلزام.

ألا ترى أننا قد نضطر أحياناً إلى التضحية بكثير من المغانم الماديّة فى سبيل إرضاء الضمير الذى يكلفنا بهذه التضحية؟ بل أليس هذا الشعور بالتكليف هو سر أعمال البطولة والإقدام التى قام ويقوم بها الأبطال ومشاهير الرجال فى مختلف العصور والأجيال.

إن العقل يحكم بأن الغنى أفضل من الفقر، لكن ذوى الضمائر الحيّة يأبون الغنى إذا جاء عن غير طريق الحلال، وكم من الفرص عرضت أمام الفضلاء كان يمكنهم أن يصيروا فيها أغنياء مثرين، لكنهم ضحوا بالكسب الماديّ طاعة لضمائرهم التى ألزمتهم بالحق والأمانة والشرف.

ذلك إلى أن الخيرين لا يرفضون مالا يجيئهم عن الظلم أو الخيانة فقط، بل هم أيضاً يبذلون مما لهم إرضاء للضمير وقياماً بتكليفه. أليس حقاً من العجيب أن نرى رجلاً أو سيدة يجود على فقير أو يساهم فى عمل خيرى، يكلفه مالا كان يمكنه أن يستمتع هو به ولكنه يدفعه ويجد ذاته مضطرا من قبل ضميره إلى دفعه. فالكنائس ودور العبادة والملاجىء والمستشفيات والمستوصفات وأحياناً المدارس، كل هذه المنشآت قد أقامها الناس بإلزام ضمائرهم لسد العوز أو الجهل أو المرض.

وإذا تفكرنا فيما يقوم به بعض العلماء أو الأطباء أو المحامين أو المهندسين أو الصنّاع الذين يبذلون قصارى جهدهم فى عمل الخير، لا بالمال فحسب بل بالجهد الفنّى أيضاً دون أن يطمعوا

فى مال بل حباً فى الخير لذاته، نؤمن بسلطان الضمير على النفوس النبيلة لأنها تضحى بالمال والوقت والجهد والصحة وأحياناً الكرامة والمنصب، وليس هناك إغراء مادى يشجع على هذه التضحيات ولكنها إلزامات الضمير الحى.

ترى.. ماذا يكون فى العالم من خير بين الناس لو اختفى هذا الضمير؟؟ نعم... فما أشد إغراءات المادة والشهوات الباطلة على قلوب الناس، ومع ذلك تجد النفس تجاهد لتنتصر على الشر فيها، وفى الوسط الذى يحيط بها، ثم تجاهد لتصنع الخير والبر لحياتها وحياة البشر الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم، فهل كان يمكن أن تكون ثمة فضيلة أو عمل بر وخير ومعروف بنيّة خالصة طاهرة من كل غرض، لو لم يوجد هذا الهاتف الباطنى الذى ندعوه الضمير؟؟؟

بلى... أيها الصوت الإلهى والخالد السماوى، أنت لسان الحق فى قلب الخلق، أنت مصدر الفضل ومرجع الجود، أب المرؤة وشاكم الرذيلة، قوة الشجاعة ودافق الشهامة، ما أكثر الذين وضعوا حياتهم فى خدمة المبادىء أو فى خدمة النفوس فدافعوا عن الحق ونشروا الفضيلة وقاوموا شرور عصرهم ومفاسدها، أو عزوا الحزانى وكفكفوا دموع اليتامى وشجعوا اليائسين وساعدوا البائسين وردّوا الضالين وثبتوا الشاكين وصنعوا الخير لجميع الناس، ولم يكونوا فى هذا كله يرجون خيرا من أحد ولا طمعوا فى كلمة شكران وتقدير، ولا نالوا غير الإضطهاد والعنت، لقد تمرمرت حياتهم وتوجعت جسومهم بالجوع والعرى والتعذيب، وأخيراً لقد مات أكثرهم بأشنع ميتات وأرهقت دماؤهم بشتى صنوف الآلام، فهل كانوا حمقى لأنهم باعوا رضى الناس فى سبيل رضاك؟؟؟

الحق أنهم نبلاء ولذا نفثت فيهم بنصيب وافر وألزمتهم بأن يحملوا رسالتك فحملوها، ولم يطيقوا حياة بغير رضاك، لذا فلن يمكن أن نتصور نوعاً من الخير فى الوجود لو كان جميع الناس بلا ضمير، ولذا نؤمن أن إلزامات الضمير هى مصدر كل نبل وشرف وشجاعة وبطولة وتضحية، وبالإجمال هى علّة كل عمل صالح.

يقول الرسول فى بيان الجهاد الذى يقوم به بغير طمع ولا غرض غير رضى الله وضميره «لأنه ليس فى وعظنا تضليل أو غش أو باعث غير شريف، ولكن إذ أن الله حسبنا أهلاً لأن يفوض إلينا (مهمة التبشير) بالإنجيل. لهذا نتكلم، ليس لكى نرضى الناس وإنما (لنرضى) الله الذى يمتحن قلوبنا. ولذا لم نفه قط بكلمة ملق واحدة كما تعلمون، ولم يحركنا أى باعث للطمع - والله شاهد (على ذلك) - كما أننا لم نطلب مجداً من الناس، لا منكم ولا من غيركم. ومع أنه

كان فى مقدورنا - كرسل ليسوع المسيح - أن نطالبكم (بمعاشنا) .. إلا أننا ترفقنا بكم كما تشفق المرضعة على أولادها»(١).

ويقول فى إلزام الضمير لنا بخضوعنا للملك: «لذا يلزم له الخضوع لا خوفاً من عقابه فقط، وإنما بسبب الضمير أيضاً» (٢).

ويقول أيضاً فى إلزام الضمير باحتمال الآلام: «أيها الخدّام، كونوا خاضعين لسادتكم بكل خشية، ليس للأخيار العادلين فقط بل وللشرسين أيضاً. لأنه حسن أمام الله أن يحتمل الإنسان سوء المعاملة وهو متألم ومظلوم، بباعث من ضميره» (٣).

(ب) عواطف تتصل بأفعالنا بعد حدوثها: (٤)

(١) عاطفة الرضى الأدبى: Sentiment de Aatisfaction

هذه عاطفة سارة تتحرك فينا عندما نتغلب على شهواتنا وعلى ما فينا من كسل وخمول ونزق وحبّ للظهور، أو عندما نقوم بواجبنا بأمانة ونزاهة أو عندما نقدم على عمل نبيل فيه بذل وإقدام وتضحية. إنها نوع من السرور الممتاز واللذة المعنوية التى تتميز فى نوعها عن كل لذة مادية، بل هى نوع من العجب المشروع، نحس معه بزيادة قيمتنا الإنسانية وأننا أصبحنا خيراً مما كنا عليه، وأننا لو أردنا أن نقايس بين هذا الشعور وبين شعورنا فى حالة الكسب والغنم المادى، لوجدنا أن الأول يفضل الثانى ويسمو عليه ولا يكاد يقترب إليه، لأنه من طراز رفيع يعلو على كل القيم المادية.

ولكن شعور الرضى شىء آخر فوق هذا كله، هو ثواب جزيل ومع أنه باطنى لكن النفس تعزه وتفخر به أعظم من كل ثواب آخر، ولذا يقول الرسول يوحنا: «يا أحبائى، إذا لم تحكم علينا قلوبنا (إذا لم تبكتنا ضمائرنا)، فإن لنا ثقة أكيدة فى الله»(٥) ويقول الرسول بولس «إن ما نفخر به هو الشهادة التى يؤديها (لنا) ضميرنا، بأننا قد تصرفنا فى العالم، ولا سيما من جهتكم ببساطة وإخلاص أمام الله، وليس بحكمة جسدانية بل بنعمة الله» (٦). ويقول أيضاً: «لأننى لا أشعر بأننى مذنب فى شىء» (٧).

---

(١) ١. تس ٢: ٣ - ٧ (٢) رو ١٣: ٥ (٣) ١. بط ٢: ١٨، ١٩

(٤) ويسمى الضمير حينئذ بالضمير اللاحق. (٥) ١. يو ٣: ٢١

(٦) ٢. كو ١: ١٢ (٧) ١. كو ٤: ٤

هذا الشعور بالرضى، رضى النفس على النفس، وطمأنينة القلب لعدم الإثم، هو الذى يفسر لنا استعداد الفضلاء والقديسين لمقابلة صنوف العذاب برضى، أو على الأقل كيف أن كثيرين من الأبرار يستقبلون ساعة الموت بثغر باسم وأسارير منفرجة. بل ويفسر لنا علّة هدوء الفضلاء فى كلامهم ونظراتهم وحركاتهم بينما أن الأشرار والخطاة مضطربون منزعجون متبرمون ساخطون غاضبون.

كل سعادة غير سعادة الضمير الصالح ناقصة مبتورة باطلة زائلة تافهة...

فإن السعادة غير الظهور	وغير الثراء وغير الترف
ولكنها فى نواحى الضمير	إذا هو باللؤم لم يكتنف

قال بعض الفضلاء، « لا سعادة تعدل راحة الضمير» وقال غيره « قد يكون العمل بأيدينا ولكن ضمائرنا مستريحة »ويقول ابن سيراخ « رب إنسان يمنعه إقلاله عن الخطيئة، وفى راحته لا ينخسه ضميره»(١)

فطوبى لمن لا يبكته قلبه على خطيئة، طوبى لمن يُرضى ضميره فيقول ما قاله أيوب الصديق: «تمسكت ببرى لا أرخيه، قلبى لا يعيّر يوماً من أيامى»(٢) . فعلى قدر ما نؤدى واجبنا بإخلاص، ونضبط نفوسنا عن نزواتها، وعلى قدر ما ندخل السعادة فى قلوب المنكوبين والمتألمين فنصنع خيراً لهم وللناس أجمعين، بقدر ذلك تنبثق السعادة الحقيقية فى نفوسنا هذه السعادة التى هى عربون السعادة السمائية لأنها غير مادية، والتى تؤكد لنا أن هناك إلها يشرف على تحقيق العدالة بين الناس، وأنه وإن كنا لا نرى العدل مستتبا على الأرض بوجه شامل إلاّ أن هناك عالماً آخر، روحياً لا مادياً ، هو عالم الحق والخير والعدل الذى نرى صورة له فى بواطن نفوسنا، فى ضمائرنا...

(٢) تبكيت الضمير أو الندم : Sentiment de Malaise

يقول الوحى: «الذى يخطئ إلى نفسه يندم»(٣) الندم شعور أليم يتملك النفس عندما تأثم، وهو عقاب صارم مرٌ على مخالفة أحكام الضمير، ولن يكون فى الدنيا عذاب يعدل عذاب الضمير، ولقد يرى بعض المجرمين أن تسليم نفسه للقضاء بعض ما يريح ضميره فيفعل، وقد يرى غيرهم أن ينتحر تخلصا من نار هذا الوجع النفّسى فيفعل...

(١) يش بن سيراخ: ٢٠ : ٢٣ (٢) أى ٢٧ : ٦ (٣) يش بن سيرخ ١٩ : ٦.

ولابّد لنا فى تعريف الندم من تمييزه عن الخجل والأسف والحسرة، والشعور بالتوبة، وهى مشاعر قد تختلط بالندم عادة فيعسر أحياناً تمييزه عنها. أما **الخجل** فهو شعور بالخسّة والدناءة والقلة يحس به المرء فيصغر أمام نفسه، حينما يرى نفسه قد فعل أمرا لا يليق بقدره أمام الله والناس أو حين يشعر أنه أقل من غيره (١) . وقد عرفه أول من عرفه آدم.. عندما أخطأ وسمع هو وحواء «صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار، فإختبأ آدم وإمرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فإختبأت»(٢) مع أنهما لم يعرفا الخجل إلاّ بعد الخطيئة فقد «كانا كلاهما عريانين آدم وإمرأته وهما لا يخجلان» (٣) وقد أحس هرون بهذا الخجل حينما وقف أمام أخيه موسى ليجيب عن جريمة صنعه العجل الذهبى، ونحن نستطيع أن نلحظ هذا الشعور بكل وضوح فى إعتذار هرون بقوله «لا يحمَ غضب سيّدى، أنت تعرف الشعب أنه فى شر، فقالوا لى اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم : من له ذهب فلينزعه ويعطنى، فطرحته فى النار، فخرج هذا العجل» (٤) . فلقد شعر بصغارته أمام موسى ومع أنه أكبر من موسى سنا إلاّ أنه كان يكلمه بإستعطاف وإحترام «لا يحمَ غضب سيدى» ثم أنه فى روايته يحاول أن يسرع فى سردها لما تولاه من الخزى والخجل «فطرحته فى النار فخرج هذا العجل» .

ويقول الحكيم سليمان «الحكماء يرثون مجدا، والحمقى يحملون هوانا» (٥)، ويقول «الصديق يبغض كلام الكذب، والشرير يخزى ويخجل» (٦) ويخاطب النبى حزقيال مدينة أورشليم «فاحملى أيضا خزيك.. فاخجلى أنت أيضا وإحملى عارك.. لكى تحملى عارك وتخزى من كل ما فعلت.. فتتذكرين طرقك وتخجلين.. لكى تتذكرى فتخزى ولا تفتحى فاك بعد بسبب خزيك» (٧) . ويقول القديس بولس لأهل رومية : «فماذا ربحتم إذن من الأمور التى تخجلون منها الآن. لأن نهايتها (هى) الموت.» (٨) .

---

(١) قد يكون الخجل بسبب نقص فى الصحة أو فى الجمال أو فى القوة البدنية أو فى العلم وما إلى ذلك، وبالإجمال فى كل شئ يشعر الإنسان بنقصه فيه، حين يقيس نفسه بإزاء شخص أو أشخاص امتلكوا نصيبا وافرا من تلك الأشياء.

(٢) تك ٣ : ٨ ـ ١٠. (٣) تك ٢ : ٢٥. (٤) خر ٣٢ : ٢٣، ٢٤.

(٥) أم ٣ : ٣٥. (٦) أم ١٣ : ٥. (٧) حز ١٦ : ٥٢ ـ ٦٣. (٨) رو ٦ : ٢١.

ويختلف الشعور بالخجل عن الندم، فى أن الخجل شعور بالنقص والقصور عن إدراك المثل الأعلى، أو إحساس بأنه أقل من غيره فضلا أو علما أو حكمة أو إنتاجا أو ذكاء أو مقدرة أو كفاءة، بينما الندم شعور بالألم نتيجة ارتكاب خطأ أو اثم. وإذن فالخجل أعمّ من الندم لأنه لا يقتصر على الخطأ الإيجابى أى الإثم بل يمتد إلى الشعور بنقص المؤهلات الطبيعية أو صغر المجهود الإنتاجى، فإذا كانت المؤهلات الطبيعية فلا إثم فى ضعفها، وإذا كان المجهود الإنتاجى فنقصه شر سلبى وليس إيجابياً كالقتل والفساد والجحود.

ومع ذلك قد يجتمع الخجل والندم معا، وقد يتطور أحدهما إلى الآخر، وعلى كل حال. فعقاب الضمير هو ما يهبط على قلب المخطئ من وجع باطنى ممض أو هو الندم وليس الخجل..

وكذلك **الأسف والحسرة** لا يتولدان كما يتولد الندم من الشعور بالمخالفة وارتكاب الإثم، بل هما نوع من التوجع على فقدان فرصة سنحت لكسب مادىّ أو أدبى أو إجتماعى، وفى هذا المعنى يقول فاجيه Faguet «إذا غابت عنك أو ضاعت منك فرصة كنت تستطيع فيها أن تؤسس ثروة فإنك تأسف لذلك وتتحسر من أجله. وأنت إذا أسست ثروة مصطنعا فى تأسيسها وسائل دنيئة وأفعالا شائنة فإنك لا تلوم نفسك دائما على اصطناع هذه الوسائل، ولكن بعض الناس يلومون أنفسهم عليها إذا اصطنعوها ويشعرون نحو أنفسهم بالخّسه والدناءة، وهذا هو تبكيت الضمير وشعور الإنسان بكراهيته لنفسه ونفرته من نفسه وإزدرائه لنفسه، على حين أن الأسف والحسرة regret ليس إلاّ شعور الإنسان بالرثاء لنفسه والشفقة على نفسه، ناهيك بأن الأسف أو الحسرة ليس خلوا من الروعة، وبأن تبكيت الضمير أو لومه فيه مرارة ولوعة، اللهم إلا فى بعض اللذات القوية العنيفة التى يستشعرها الإنسان».

أما **الشعور بالتوبة** فهو ليس شعورا بالألم من خطأ ارتكبه صاحبه فحسب، بل هو أيضا تقبل الإنسان لآلامه ونتائج أفعاله بلا تذمر أو تململ ثم شعوره بأنه مستحق لها جزاء مخالفته لأوامر الضمير مع تثبيت العزم على إصلاح الخطأ وتعديل السلوك. فكأن الشعور بالتوبة أوسع مدلولا من تبكيت الضمير، فهو يشمل التبكيت بما فيه من ألم ويزيد عليه بالشعور بإستحقاق الألم وبالعزم على تجديد السيرة وتقويم الحياة.(١).

---

(١) ربما كان هذا هو شعور فرعون مبدئيا على الأقل، عندما قال بعد ضربة البرد : «أخطأت هذه المرة. الرب هو البار، وأنا وشعبى الأشرار» (خر ٩ : ٢٧).

وكما قلنا سابقا فى الخجل، نقول هنا أيضا أنه قد يجتمع شعور أو أكثر من هذه الشعورات الأليمة فى واقعة نفسية واحدة لكنها مع ذلك شعورات مستقلة..

أمثلة فى الكتاب المقدس على عاطفة الندم

وإن لنا فى الكتاب المقدس أمثلة كثيرة على عاطفة الندم نذكر منها مايلى :

أخوة يوسف : فقد باعوه بعد أن طرحوه فى الجب وقد تخلصوا منه ومن سؤال والدهم عنه بذبحهم الجدى وتلطيخ ثوب يوسف بدمه، ومع ذلك لم يتخلصوا من آلام الضمير فقد ظلوا ذاكرين خطيتهم سنوات طويلة، وكلما رأوا ضيقا أحسوا أنه جزاء لسوء تصرفهم مع أخيهم يوسف. فلما وقعوا فى مصر فى قبضة يوسف «قالوا بعضهم لبعض : حقا إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة فأجابهم رأوبين قائلا : ألم أكلمكم قائلا : لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا، فهوذا دمه يطلب» (١) وهو نقاش لا محل له بعد مضى ثلاث عشرة سنة وفى أرض مصر إلا لأن ضمائرهم تبكتهم على الدوام، ولا تكاد تجد موقفا مناسبا حتى تقرعهم وتوبخهم.

وفرعون ملك مصر : قد تيقظ ضميره واعترف بخطئه قائلا : «أخطأت هذه المرة، الرب هو البار وأنا وشعبى الأشرار» (٢) «فدعا فرعون موسى وهرون مسرعا، وقال «أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما، والآن اصفحا عن خطيتى هذه المرة فقط» (٣) ولاشك أن الإعتراف بالخطأ هو نتيجة للندم.

وداود النبى : تملك من شاول الذى كان يطارده فقطع طرف جبته فقط : «وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه (بكته ضميره) على قطعه طرف جبة شاول فقال لرجاله : حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى بمسيح الرب فأمد يدى إليه لأنه مسيح الرب هو» (٤).

وقال الكتاب أيضا عن داود «وضرب داود قلبه بعد ماعدّ الشعب فقال داود للرب : لقد أخطأت جدا فى مافعلت. والآن يارب ازل إثم عبدك لأنى انحمقت جدا» (٥).

---

(١) تك ٤٢ : ٢١، ٢٢ (٢) خر ٩ : ٢٧

(٣) خر ١٠ : ١٦، ١٧ (٤) ١. صم ٢٤ : ٤ – ٧

(٥) ٢. صم ٢٤ : ١٠ راجع أيضا ٢. صم ١٢ : ١٣، مز ٣٢ : ٥، مز ٥١ : ٤ ، أم ٢٨ : ١٣

وأنطيوكس الملك : وقد كان ملكا عاتيا جبارا أذل بنى إسرائيل وأساء إليهم فأدركه الفشل فى جميع حروبه «فدعا جميع أصحابه وقال لهم : لقد شرد النوم عن عينى وسقط قلبى من الكرب. فقلت فى نفسى إلى أى بلاء صرت وما أعظم اللجة التى أنا فيها بعد أن كنت مسرورا ومحبوبا فى سلطانى، إنى لأتذكر المساوئ التى صنعتها فى أورشليم وكيف أخذت كل آنية الذهب والفضة التى كانت فيها، وأرسلت لإبادة سكان يهوذا بغير سبب، فأنا أعلم بأنى لأجل ذلك أصابتنى هذه البلايا، وها أنا أهلك بكمد شديد فى أرض غريبة» (١).

وفى حادثة المرأة الزانية : جاءوا بها إلى السيد المسيح ليصدر حكمه عليها: «أما يسوع، فقد انحنى (إلى الأرض) وكان يكتب بأصبعه على الأرض، ولما ظلوا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بدون خطيئة فليرشقها بالحجر أولا ثم انحنى أيضا وكان يكتب على الأرض، فلما سمعوا (هذا) وشعروا بتبكيت ضمائرهم خرجوا الواحد بعد الآخر إبتداء من الأكبرين حتى الآخرين» (٢).

ويطرس الرسول : الذى أنكر سيده وحلف بقسم أنه لا يعرفه : «وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك، فإلتفت الرب ونظر إلى بطرس فتذكر بطرس كلام الرب، كيف قال له قبل أن يصيح الديك ستنكرنى ثلاث مرات، فحينئذ خرج بطرس وبكى بكاءا مراً» (٣).

وفى يوم الخمسين وعظ القديس بطرس جمهور اليهود : «فلما سمعوا (هذه الأمور) عملت **الندامة** فى قلوبهم، وقالوا لبطرس وللرسل الآخرين، فماذا نعمل أيها الرجال الأخوة؟ فقال لهم بطرس، فلتتحولوا وليصطبغ كل منكم باسم يسوع المسيح، فتحصلوا على غفران الخطايا وتقبلوا الموهبة من الروح القدس» (٤).

ثم يهوذا الاسخريوطى : وقد كان تلميذا للمخلص، فلما رأى أنه خان سيده من أجل قبضة من الفضة بكته ضميره جدا حتى انتحر تخلصا من عذاب ممض كان يعانيه قال الكتاب «ثم إن يهوذا الذى خانه، ندم لما رأى أنه حكم عليه، ورد الثلاثين قطعة من الفضة لرؤساء الكهنة والشيوخ، قائلا : إنى أخطأت إذ خنت الدم البرئ أما هم فقالوا : وماذا يعنينا، تدبر أنت (فى ذلك) وحينئذ بعد أن طرح القطع الفضية فى الهيكل، مضى وخنق نفسه». (٥)

---

(١) ١. مكابيين ٦ : ١٠ – ١٣ (٢) يو ٨ : ٦ – ٩ (٣) لو ٢٢ : ٦٠ – ٦٢

(٤) أع ٢ : ٣٧، ٣٨ راجع زك ١٢ : ١٠، لو ٣ : ١٠، أع ٩ : ٦، أع ١٦ : ٣٠، ١. يو ٣ : ٢٠

(٥) مت ٢٧ : ٣ – ٥. راجع لو ٩ : ٧، مت ١٤ : ١، مر ٦ : ١٤

وقد روى أحد القسوس مرة أنه قد عثر المنقبون فى الحفريات على جمجمة لميت بجوار الكاتدرائية، وكان فى الجمجمة مسمار، فتناولها القسيس بيده وأخذ يقلب فيها وسأل إذا كان أحد يعلم عن هذه الجمجمة شيئا، فقال أحد الواقفين على الفور : إنها لرجل مسن مات منذ بضع سنوات فجأة وقد تزوجت إمرأته توا عقب وفاته وهى لاتزال حية باقية، وأخيرا إلتقى القسيس بالمرأة فلما واجهها بالجمجمة امتقع فى الحال لونها وعلته صفرة شبيهة بصفرة الموت، ثم اعترفت بأنها قاتلة زوجها وأنها منذ ذلك الحين لم تجد راحة لا بالليل ولا بالنهار من هول جريمتها ومن شدة تأنيب ضميرها لها، على الرغم من أنها تزوجت بعد قتلها زوجها ظنا منها أن الزواج يسعدها، وهنا يصدق ما يقوله شاتوبريان Chateaubriand «يمزق النمر فريسته وينام ويقتل الرجل أخاه ويأرق».

وفى رواية هملت التى كتبها شكسبير نقرأ صورة أخرى لتبكيت الضمير، صورة رجل قتل أخاه ملك الدانيمرك واغتصب عرشه واقترن بزوجته، ولكن هاملت ابن الملك المقتول أمر بتمثيل جريمة قتل أمام الملك والملكة وسائر رجال القصر، وحينئذ انزعج الملك واضطرب وقام من عرشه وخرج من حجرته إذ كان ضميره يبكته بشده، وكان يقول : «يالشناعة جرمى، فقد صعدت رائحته إلى السماء، ولقد استحق اللعنة الأولى التى انصبت على قاتل الإنسان الأول لأخيه الإنسان. قاتل أخى!. ويلى لا أستطيع أن أصلى رغم ماأبذل من الجهد، كأن خطيتى تثنى عزمى فأقف لا أتحرك وقفة رجل يتجاذبه شاغلان يثبطان عمله»...

قيل كذلك عن مجرم سجين اتهم زملاءه المسجونين بأنهم يقرعونه بقولهم له : يا مذنب... يامذنب، وبعد فحص دعواه تبين أن ذلك النداء لم يكن غير صوت الضمير يوبخه على فعله الأثيم، وهكذا قيل أيضا عن أحد السفاحين أنه كان يسمع صوت المقتول قائلا له : لماذا قتلتنى ؟ ولم يكن غير صوت ضميره يحتج عليه مبكتا.

بل قيل كذلك أن بعض اللصوص دخلوا بيتا حيث رأوا صورا معلقة بالجدران، فلم يقووا على تنفيذ مأربهم إلا بعد أن قلبوا الصور على وجوهها، لأنهم رأوا فى عيونها ما أفزعهم عن إرتكاب جريمة السرقة، والحق أن توبيخات الضمير المرهبة هى التى ملأت قلوبهم خوفا وهلعا فصاروا يجزعون حتى من عيون صور معلقة جامدة لا حياة فيها.

وما أروع ما كتبه الشاعر الفرنسى فيكتور هوجو مصورا تبكيت الضمير لقايين بعد أن قتل أخاه هابيل، تصويرا شعريا ممتازا فى قصيدة عصماء ترجمها الأستاذ ابراهيم عبد القادى نثرا ثم شعرا ونشرها فى مجلة اليقظة لصاحبها القمص ابراهيم لوقا :

«وتاه قايين شريدا بعياله المرتدين جلود العجماوات، وطاف ينشد مختبأ يندس فيه بعيدا من وجه غضب الله الذى حلّ عليه، وسار وهو أشعث الرأس، مريد البدن من قارس البرد، وزمهرير العواصف، وأمعن فى ضلاله وتيهه حتى أرخى الليل سدوله، فإذا الجميع فى سفح جبل، ينبسط أمامه سهل مترامى الأطراف وكان الإعياء قد أخذ مأخذه من إمرأته وولده، فاستوقفوه قائلين : دعنا نبيت الليلة فى هذه الأرض.. ورقد الكل فى أكناف الحضيض، وغلبهم الكرى، واستغرقوا فى الأحلام، إلا قايين فقد بات أرِقا متململا، تطوف برأسه روائع الأخيله، وتحوطه أهوال الرؤى والأشباح... ورفع بصره إلى السماء وكان الظلام حالكا، فرأى عينا عظيمة متوقدة، تخرق أستار الدجى الكثيفة، وتحدق إليه فى شدة وغضب فذعر... وقال : لا أزال قريبا...

وهب فأيقظ أولاده الأبرياء من لذيذ نومهم، وأهاب بإمرأته المنهوكة ثم أستأنف الهرب، وضرب فى الآفاق شريدا، حاملا معه الكآبه والحزن والخوف الشديد.

وسار ثلاثين نهارا، وأسرى ثلاثين ليله، وهو محتبس اللسان، شاحب اللون، يرتعد من كل حركة، ويبالغ فى التستر من كل إنسان، غير ملتفت إلى شئ ولا مبال بتعب إمرأته وأولاده وأحفاده، لا يطمئن إلى الراحة، ولا يزور الكرى جفنيه حتى انتهى بهم المطاف، وألقوا عصا التسيار، بعد الأين والكلال، وسط رمال منبسطة، على شاطئ البحر فى بلاد أشور.

وهناك ظن نفسه فى مأمن حريز، وناجى نفسه بأنه قد ابتعد عن العين الشديدة التى تحدق به، والأشباح التى تترصده، وقال حسبنا السير، ولننزل فى هذه البقعة فقد بلغنا حد الدنيا.

ولكنه لم يكد يستقر حتى أبصر تلك العين ثابتة فى موضعها الأول من السماء الداجية، متطلعة إليه فى حنق، من قلب ذلك الأفق القريب البعيد فاضطرب... وتناوشته مخالب الهول السوداء، فصرخ بملء فيه.. خبئونى.. خبئونى...

وكان أولاده يتفرسون فى وجهه المنقبض، وجسمه المرتجف، والكل قد وضعوا أصابعهم فوق شفاههم رهبة لذلك العتل، فلا يستطيعون ركزا...

وقال قايين ليابال - وهو أبو ساكنى الخيام، فى البوادى والرمال - هلّم فأرسل على ستائر مضربك، ففعل يابال ما أمر به قايين، وأقام لمضربه جدراً من شعر فكانت معرضة لتصفيق الرياح وهزيزها، فشد أطنابها، ومكنها بأثقال الرصاص، حذر أن يزعج أباه دوى خفوقها...

وإذ ذاك وقفت عليه صلة - إحدى حفيداته - فسألته : أظنك لا ترى بعد شيئا يا أبى؟؟

فأجابها التعيس : بلى يابنيتى.. إن تلك العين لاتزال تجاه بصرى. ترمقنى...

فهب حينئذ يوبال ـ أول الحضريين، وأبو كل عازف بالكنارة والمزمار ـ وقال لقايين : أنا أستطيع أن أجعل سدا بينك وبين هذا المحذور الوبيل... ثم أنشأ سورا عاليا من الشبه (النحاس الأصفر) وخبأ الشقى وراءه، ولكن ذلك القاتل لم يفده استتاره وراء السور شيئا، إذ لم يلبث أن هتف وجلا : إن تلك العين لاتزال تجاه بصرى، ترمقنى بنظراتها الثابتة الحادة...

فثارت الحمية فى رأس أخنوخ ـ أحد أحفاده ـ فقال : الرأى عندى أن نصنع نطاقا هائلا من الأبراج لا تستطيع قوة ـ مهما عظمت ـ أن تمسه، أو تدنو منه... حقا.. لنبنين له حصنا حصينا، ولنحكمن بناءه، ولنوصدن أبوابه حتى تصبح فى داخل السرب آمنا ناعم البال.

وقوبل رأى اخنوخ بالاستحسان من الجميع، وخاصة توبال ـ أبو الصياقلة والحدادين ـ فأنشأ مدينة عظيمة تفوق قوة البشر، وبينما كان توبال يبذل قصارى جهده فى إحكام بنيانها، وتوطيد أركانها، كان اخوته في السهل المجاور يطردون أبناء أنوش، وكل من يعثرون عليه من سلالة شيث، وكانوا يسملون عيون المارة إنتقاما من العيون، ويرشقون نجم الليل بالسهام.. تلبية لداعى الظنون...

وتمت المدينة الهائلة، وكانت الحجارة الصلبة فى أسوارها وأبراجها، بدل نسيج الشعر فى جدران الخيمة، ووثقت حجارتها الضخمة بربط متينه من الحديد حتى صارت وكأنها من مدن الجحيم.. وكان ظل أبراجها يمد أوراق الظلام على ماحولها من السهول، وكانت أسوارها فى ضخامة الأوتاد، ونقشوا على بابها هذه الكلمات : «محظور على الله أن يدخل».

وانتهوا من صنع أبوابها ومغاليقها، وأرقدوا ذلك الأب التاعس فى قلبها داخل برج مكين، فأقام فيه مضطرب البال، مشترك الخواطر، فعادت حفيدته صلة تقف عليه، وتسأله فى سخريتها الرنانة، متصنعة الخوف والإرتجاف : هل اختفت العين يا أبى؟ فأجاب : كلا.. إنها ما برحت مكانها.. ولقد عزمت على إتخاذ نفق تحت الأرض، اعتزل فيه، بحيث لا أَرَى، ولا أُرى...

واحتفروا له الذى أراد، فسُرّ به، وأوى إليه محتجباً عن الأنظار.. تحت الظلمة الدامسة، ولكنه لم يكد يجلس إلى كرسيه منفرداً بنفسه، حتى سدوا عليه الأبواب، تلازمه العين التى تحدق إليه وهو فى رمسه...» (١)

---

(١) مجلة اليقظة سنة ١٢ عدد ٥ ص ٣٩٤ – ٣٩٦

أما القصيدة الشعرية، أو بالحرى، الترجمة الشعرية فهى :

تاه بين الصحارى كالحمل — يرتدى - مع ولده - جلد الحمل
شعره يكسوه، لكن لم يزل — شاعرا بالقر يضنيه الوجل
إن ذا قايين سفاك الدما

رام من وجه العلى أن يهربا — فغدا يطوى الفيافى مغضبا
وضياء الشمس حيّا المغربا — خيم الليل على تلك الربا
والشقى الوغد أضحى مرغما

وصل التائه وهو فى سغب — نحو واد واسع يحوى الكرب
شكت الأولاد والأم الوصب — وأرادوا راحة بعد النصب
رقدوا فى ظل ذيّاك الحمى

أما قايين فهاجته الفكر — لم ينم، بل قام يشكو من سهر
ورأى وجه السماوات اعتكر — فى الدجى عين تشع كالقمر
حدقت فيه، فأمسى فى عمى

قال فى رعب: أرانى فى الجوار — ما لهذى العين ترمينى بنار
دنت الساعة هيا للفرار — أيقظ النيّام هجرا للديار
وطوى البيد لهيفا مضرما

ضرب الأرض حثيثا فى المسير — راغبا ألا يرى وجه القدير
قلبه ينهشه دود الضمير — لامعز لا مجير لا نصير
أحر بالقاتل ألا يرحما

سار أياما طوالا فى اكتئاب — وهو مذعور، فلا يبدى جواب
من نسيم الصبح يُمسى فى اضطراب — قلبه ينتابه مر العذاب
وتراه سائرا لن يحجما

قاده تسياره نحو كثيب — عند شطا البحر، والقلب كئيب
قال : فلنمكث هنا، مامن رقيب — هذا حد الأرض يكفينا نجوت
فلنقم بالأمن فى هذا الحمى

ولدن قام بهاتيك الربوع أبصر العين وقد شاء الرجوع
صار مرعوبا وأمسى فى خشوع فى سكون الليل يضنيه الهجوع
قلبه يرجف من ذكر الدما

صاح: ويلاه.. استرونى من غضب هذه العين فلا أخشى العطب
وبنوه قد رأوا الجد اضطرب فغدوا يقضون من ذاك العجب
وينادى بعضهم بعضا : لم ؟؟

فاستعان بابنه يابل من قد غدا أبا لمن رام السكن
فى قلوب البيد يغذون اللبن ضمن بيت الشعر قاموا بالأمن
ضيفهم مازال يلقى مكرما

قال : «بالله اردأوا عنى سهام هذه العين لأضحى فى سلام
سدلوا من دونه ـ بين الخيام حاجزا يخفق فى قلب الظلام
جعلوه ثابتا مستحكما

بنته سلا أتت عند السحر ومحياها مضئ كالقمر
ثم نادت: جد : هل تشكو سهر بعد؟ هل تنظر للعين أثر
قال : مازالت تريش الأسهما

بعد ذا توبل وافاهم يقول ـ وبنوه فى القرى دقوا الطبول ـ
«قد أقمت حاجزا بين الطلول بل جدارا من نحاس لا يزول»
بات قايين حذاه مؤلما

صاح: «هاك العين مازالت ترى خرقت حتى النحاس الأصفرا
هاك تنظر نحوى شذرا وايصا بى... من يعزينى ترى؟
لم أزل أُلقى شقيا معدما

قال أخنوخ : «علينا بالقصور نجعل الأبراج سورا تلو سور
فلنشيد بلدة من ذى الصخور ولنقم حصنا فلا يدنو جسور
فيه يلقى الجد عيشا أنعما

عندها توبل قايين أشاد ... بلدة فيحاء قد ساوت بلاد
رُفِعت جدرانها مثل العماد ... فى مبانيها لقد تاه العباد

عانقت فيها القصور الأنجما

بينما توبل يبنى فى الديار ... كان إخوانه يحمون الجوار
يطفئون نور عينى كل مار ... ولدن ودعت الشمس النهار

صوبوا نحو النجوم الأسهما

ولد شيث وأنوش طاردوا ... عوض الخيمة قام الجلمد
فقصورا وحصونا شيدوا ... وبناءً بحديد وطدوا

وحكت تلك الربى جهنما

والحصون نشرت فوق السهول ... ظلها فامتد مابين الطلول
شابهت جدرانها عرضا وطول ... راسيات من جبال لاتزول

رأسها ينطح أكباد السما

وعلى الباب ترى هذا الشعار : ... «لا دخول للعلىّ فى ذى الديار»
بعد ان أنهوا فنون الإختبار ... وضع الجسد بحرص ووقار

ضمن حصن شاهق كى يسلما

قام قايين بوجه مرعب ... وأتت سلاً فنادت : «يا أبى
هل توارت عنك عين الغضب؟» ... قال : لا، مابرحت تحدق بى

قد تجرعت لذاك العلقما

قال: «تحت الأرض قد طاب السكن ... فيه أُلفى ناعم البال كمن
رام أن ينجو من شر المحن ... طلب الوحدة كى يلقى الأمن

علّ قلب الأرض يخفى المجرما

حفروا قبرا أتى طبق المرام ... أنزلوا قايين فيها بإهتمام
فغدا كرسيه ضمن الظلام ... وإذا بالعين قد راشت سهام

طعنت فى الرمس سفاك الدما (١)

---

(١) راجع مجلة اليقظة للقمص إبراهيم لوقا ـ السنة ١٤ عدد ٥ صـ ٣٨٧ – صـ ٣٩٠

ولعل أوضح نص مسطور بروح الوحى، يؤيد مانحن بصدده الآن، هو ماكتبه الحكيم سليمان فى الفصل السابع عشر من سفر الحكمة، حيث يوصف المصريين وهم يطاردون الإسرائيليين :

«لما توهم المجرمون أنهم يتسلطون على الأمة القديسة، إذا هم ملقون فى أسر الظلمة وقيود الليل الطويل، محبوسون تحت سقوفهم منفيون عن العناية الأبدية. وإذ حسبوا أنهم مستترون فى خطاياهم الخفية، فرق بينهم ستر النسيان المظلم وهم فى رعب شديد تقلقهم الأخيلة. ولم تكن الأكنة التى لبثوا فيها لتقيهم من الذعر، فقد كانت أصوات قاصفة تدوى من حولهم، وأشباح مكفهرة تتراءى أمام وجوههم الكاسفة. ولم يكن فى قوة النار مهما اشتدت أن تأتى بضياء، ولا فى بريق النجوم أن ينير ذلك الليل المدلهم. وإنما كانت تلمع لهم بغتة نيران مخيفة، فيرتعدون من ذلك المنظر المبهم ويتوهمون مايظهر لهم أهول مما هو.. فإنهم وإن لم يصبهم شئ هائل، كان مرور الوحوش وفحيح الأفاعى يدحرهم فيهلكون من الخوف ويتوقون حتى الهواء الذى لا محيد عنه. لأن الخبث ملازم للجبن، فهو يقضى على نفسه بشهادته، ولقلق **الضمير** لايزال متخيلا الضربات. فإن الخوف إنما هو ترك المدد الذى من العقل وإنتظار المدد من الداخل أضعف، ولذلك تحسب مجلبة العذاب المجهولة أشد. فالذين ناموا تلك النومة فى ذلك الليل الذى لا يطاق الوارد من أخادير الجحيم الفظيعة. كانوا تارة تقتحمهم الأخيلة وتارة تنحل قواهم من إنخلاع قلوبهم لما غشيهم من مفاجأة الخوف الغير المتوقع... إذ جميعهم كانوا مقيدين بسلسلة واحدة من الظلام، فدوى الريح وأغاريد الطيور على الأغصان الملتفة، وصوت المياه المندفعة بقوة وقعقعة الحجارة المتدحرجة، وركض الحيوانات الذى لا يرى، وزئير الوحوش الضارية والصدى المتردد فى بطون الجبال. كل ذلك كان يذيبهم من الخوف، وبينما كان سائر العالم يضيئه نور ساطع ويتعاطى أعماله بغير مانع، كان أولئك منفردين فى ظل ليل مدلهم مشاكل لما سيغشاهم من الظلمة، لكنهم كانوا على أنفسهم أثقل من الظلمة» (١).

حقا لقد صدق بولنار واتكنز حينما قال : «الضمير الخاطئ يخاف حيث لا خوف، ويفتكر أن فى كل غصن دبا».

هذه هى العاطفة الأليمة التى يولدها الضمير فى نفس الإنسان عقب الفعل الأثيم، لكنها شعور يختلف قوة وضعفا من فرد إلى آخر، كما أن مدة الوخز قد تطول وقد تقصر، ويرجع الإختلاف فى وخز الضمير من حيث قوته أو شدته ومن حيث مدته إلى أسباب، منها :

---

(١) الحكمة ١٧ : ١ - ٢٠

أولاً : شناعة الجرم : فكلما عظم الجرم عظمت آلام الضمير تبعا له. فليس من يقتل أو يزنى كمن يحلف أو يخلف بوعده. كما أن من يقتل شخصا أحسن إليه ليس كمن يقتل رجلا غدر به أو أساء إليه. فإذا كان الخطأ أو الإثم يختلف فى نوعه ونظرا لملابساته وظروفه، فإنه لذلك يشتد وخز الضمير أو يضعف، يطول أو يقصر.

ثانياً : الصورة التى يبدو بها الإثم أو الجرم أمام النفس : فقد يبدو فعل ما أمام إنسان على غير مايبدو به أمام آخر، أو قد يبدو كذلك أمام النفس ذاتها فى فترتين مختلفتين أو ظرفين متباينين، فلابّد أن يتميز الوخز فى الحالين.

ثالثاً : ارتكاب الإثم لأول مرة : فمن يرتكب خطأ للمرة الأولى ليس كمن يرتكبه ثانية أو ثالثة إذ يكون الشعور بالمخالفة فى المرة الأولى أعمق، وكلما تكرر الفعل بردت حدة الشعور وخف وخز الضمير. وكأن الضمير بمثابة شوكة حادة تتحرك فى النفس الإنسانية، لكنها لكثرة الإحتكاك بها تثلم فتقل قوة وخزها. أو يمكن أن نشبه الضمير هنا بالميزان الذى يزن الأفعال الإنسانية ويقدرها، وكما أن بعض الموازين كالميزان المعتاد مثلا، يتأثر بالأوزان الصغيرة كأجزاء الرطل والأوقية، بينما أن بعضها الآخر كالميزان القبان لا يتأثر بالأرطال والأُقات، ولكن بعضها الثالث كميزان الذهب يتأثر بما لا يستطيع الحس الظاهر أن يميزه فى وضوح، كذلك تختلف ضمائر الناس : فمنهم من لا يفزع إلا لأخطاء من نوع خاص، وبينما تجد بعض الناس لا ينزعجون لمثل هذه الأخطاء بل يستحلون ما هو أفظع منها، ولاتكاد توخزهم ضمائرهم إلا على الجرائم الكبرى، تجد فريقا آخر من الناس من ذوى الضمائر الحساسة المرهفة يتألمون مرّ الألم لخطأ أو سهو لايكاد يشعر به ذوو الضمائر الأخرى، وقد يطول شعورهم بالألم مدة طويلة، فالإختلاف بين الأبرار والأشرار والفجار، كالإختلاف بين موازين الذهب فالمعتاد فالقبان...

ومهما يكن من شئ فإن أثقل التضحيات أخف من أصغر وخز الضمير كما يقول شارل بابى، لهذا يبكى الناس عندما يشعرون بوخز الضمير، وكأنه يلهب دم القلب نارا فيغلى ثم يصعد بخارا يجتمع فى المآقى دمعا يسيل دليلاً على الندم، وقد يمكن أن يجد الإنسان مفلتا من كل شئ إلا هذا الصوت السماوى الرهيب الذى يسلب من الخاطئ سلام نفسه ويرده إلى طاعته بقهر وجبر وسلطان، فأقر الناس بسلطته وسلّموا له وجعلوه مرشداً ودليلا بل مشرعا وقاضيا، يرجعون إليه قبل أن يرجعوا إلى أحد. إذ قد أدركوا أنه صوت الحق لا يداهن ولا يرائى ولا يرتشى أو يحابى.

يقول يشوع بن سيراخ : «طوبى للرجل الذى لم يزِلّ بفيه، ولم ينخسه الندم على الخطيئة. طوبى لمن لم يقْضِ عليه ضميره، ولم يسقط من رجائه» (١)

ويقول أيضاً «ما أحسن إبداءك الندامة إذا وُبّخت فإنك بذلك تجتنب الخطيئة الإختارية» (٢)

(جـ) عواطف تتصل بأفعال الآخرين :

قلنا إن الضمير يحكم لا على أفعال الإنسان فحسب بل على أفعال غيره أيضا، فيقول إنها خير أو شر، وعلى الفاعلين بأنهم أخيار أو أشرار، على أن هذا الحكم كذلك يكون مصحوبا عادة بشواعر وجدانية وعواطف خلقية، فيشعر نحو الفضلاء بشعور يختلف عن شعوره نحو الأشرار، وعلى ذلك فالعواطف التى تتصل بأفعال الآخرين تتفرع على نوعين :

(١) شعور التقدير - أو عاطفة الإحترام

إزاء الفضلاء الخيرين نشعر بأننا مضطرون بضرورة باطنية إلى توقيرهم وإجلالهم، وهو شعور حتمى تفرضه علينا ضمائرنا فرضا، وكأنه مكافأة عادلة نحس أننا مطالبون بتقديمها لمن احترموا ضمائرنا فاتبعوا مبادئ الأخلاق السامية. هو إذن ضريبة أدبية وتحية روحية نشعر بأننا ملتزمون بها نحو الفاضلين لأنها من حقهم يقول الرسول : «وعلى ذلك فإذ نحن نعلم (أى) خوف (يجب أن يكون فينا من) الله، نسعى جهدنا أن نقنع الناس (به). (وهوذا) الله عالم بنا واعتقد أنكم أنتم أيضا تعرفوننا فى ضمائركم» (٣)

وهذا الاحترام أو الشعور بالاحترام يتميز ببعض مميزات رئيسية :

أولا : يتجه إلى الأشخاص وإلى الأشخاص وحدهم : فنحن لا نحترم النبات أو الحيوان وإنما نحترم الناس، ذلك أن مانحس به من ميل نحو نبات أو حيوان هو مايمكن أن يسمى الإنعطاف، لكنه لا يسمى بالاحترام، إذ الاحترام شعور نقفه على أفراد أو أشخاص من مملكة الإنسان.

فإذا كنا نحترم أمورا أخرى كالقوانين والتقاليد والعرف والسلطة الدينية أو الإجتماعية أو الأعياد، فالواقع أن الاحترام يتجه إليها لا من حيث هى ألفاظ أو أشياء، بل من حيث هى رموز عن كائنات حرة عاقلة مشخصة.

---

(١) يش بن سيراخ ١٤ : ١، ٢ (٢) يشوع بن سيراخ ٢٠ : ٤

(٣) ٢. كو ٥ : ١١

ثانيا : يتجه إلى السمو الأخلاقى وحده : وبهذا يتميز الاحترام عن الإعجاب، فلقد نعجب بالذكاء والمهارة والبطولة والشهامة وبعد النظر وإحكام الخطط، أو بقوة الخيال ودقة التعبير وجمال الأسلوب وروعة الفن أو التصوير، ولكن الإعجاب قد يتجه إلى السمو الفكرى أو العملى بغض النظر عن إتصاله بالسمو الخلقى. وبعبارة أوضح أننا قد نعجب بلص بارع أمكنه أن يسلب مال الآخرين بطريقة غير عادية، فنمدح فيه الذكاء والمهارة وخفة الحركة، ولكننا مع ذلك لا نحترمه ولانجله، لأن الإحترام يتجه إلى السمو الأخلاقى فحسب. يقول الفيلسوف الألمانى (كانت) إن نفسى تشعر ـ سواء أردت أو لم أرد ـ بالميل إلى سيّد متواضع من أهل المدن، أى فيه الأخلاق الفاضلة قد وصلت إلى درجة لا أراها فى نفسى.

ثالثا : يكون مصحوبا بشعور الإفتراق والتمايز الخلقى بيننا وبين من نشعر نحوهم بالإحترام : فمن يحترم شخصا يحس بالضيق وعدم الرضى على نفسه بازائه مع شعور بالافتراق والإختلاف بين نفسه وبين من يحترمه، وهذا هو ما يميز الإحترام عن الحب، لأن الحب ميل أو إنجذاب نحو شخص يقوم على أساس نوع من التوافق والإنسجام بين المحب والمحبوب، أما الإحترام فهو ضرب من الخشية والهيبة، وممن شعروا به، هيرودس الملك نحو النبى يوحنا الصابغ : «لأن هيرودس كان يهاب يوحنا، ولكن هذه الهيبة ليس مبعثها أن يوحنا أعظم من هيرودس فى المادة، أى الثروة والمنصب والسلطة، وإنما مبعثها شعور بالفارق الخلقى بينهما، ولذا يقول الوحى «كان يهاب يوحنا، عالما أنه رجل بار وقديس» (١) ويقول الرسول بولس أيضا «ولكننا قد طرحنا عنا الأمور المخزية التى تصنع فى الخفاء غير سالكين بمكر قط ولا مفسدين كلمة الله، وإنما بإظهار الحق صرنا محترمين عند ضمائر جميع الناس أمام الله» (٢).

(٢) شعور التحقير، أو عاطفة الإزدراء :

وهل يمكن أن نرى القاتل أو الزانى أو المندفع أو الغضوب الأحمق، دون أن يتحرك شعورنا نحوه بعاطفة تكافئ شره. نعم إن المسيحية توصينا أن نرفق بالخطاة وأن نحتمل ضعفاتهم. لكن الشعور بالرفق هو رثاء لا تقدير، أى هو أقرب إلى الإزدراء، ولو أنه إزدراء للشر نفسه مصحوبا بعطف على شخص الشرير لأنه ضعف أمام الخطيئة.

---

(١) مر ٦ : ٢٠ (٢) ٢ـ كو ٤ : ٢

ومهما قيل من أن المسيحية ترقى شعورنا نحو الأشرار، لكننا نشعر مع ذلك بأنه لا كرامة لهم فى نفوسنا ولا إكبار، وإذا كان هذا هو شعور المسيحيين فإن شعور الناس أجمعين - بإعتبار أن الضمير ملكة فى نفوس الناس طرا - لا يملك نحو الخطاة غير الزراية والإحتقار، وفى هذا يقول الشاعر :

إذ أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها، كانت على الناس أهونا

وهذا الشعور هو الذى تملك على عزريا الكاهن نحو عزيا الملك، الذى لما رأى أنه تشدد «ارتفع قلبه إلى الهلاك، وخان الرب إلهه، ودخل هيكل الرب ليوقد على مذبح البخور. ودخل وراءه عزريا الكاهن ومعه ثمانون من كهنة الرب بنى اليأس، وقاوموا عزيا الملك وقالوا له : ليس لك ياعزيا أن توقد للرب بل للكهنة بنى هرون المقدسين للإيقاد. اخرج من المقدس لأنك خنت، وليس لك من كرامة من عند الرب الإله» (١) «فالتفت نحوه عزريا هو الكاهن الرأس وكل الكهنة وإذا هو أبرص فى جبهته، فطردوه من هناك» (٢)

ثم يقول النبى داود : «احتقرت كل الضالين عن وصاياك» (٣)

ويقول الحكيم سليمان : «إذا جاء الشرير جاء الإحتقار أيضاً» (٤)

ويقول النبى أرميا : «قد أخطأت أورشليم خطية.. كل مكرميها يحتقرونها» (٥)

ويقول النبى ملاخى بلسان الله : أما أنتم فحدتم عن الطريق وأعثرتم كثيرين بالشريعة.. فأنا أيضا صيرتكم محتقرين ودنيئين عند كل الشعب، كما أنكم لم تحفظوا طرقى بل جابيتم فى الشريعة (٦)

«المؤدب الأمم ألا يبكت» (٧)

«وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيما على أخوتهم اليهود. فغضبت جدا حين سمعت صراخهم وهذا الكلام. فشاورت قلبى فىّ وبكّت العظماء والولاة، وقلت لهم إنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه، وأقمت عليهم جماعة عظيمة. وقلت لهم : نحن اشترينا إخوتنا اليهود الذين بيعوا

---

(١) ٢ . أى ٢٦ : ١٦– ١٨
(٢) ٢ . أى ٢٦ : ٢٠
(٣) مز ١١٩ : ١١٨
(٤) أم ١٨ : ٣
(٥) مرا ١ : ٨
(٦) ملا ٢ : ٨، ٩
(٧) مز ٩٤ : ١٠

للأمم حسب طاقتنا، وأنتم أيضا تبيعون أخوتكم فيباعون لنا، فسكتوا ولم يجدوا جوابا، وقلت ليس حسنا الأمر الذى تعلمونه، أما تسيرون بخوف إلهنا بسبب تعيير الأمم أعدائنا. وأنا أيضا وأخوتى وغلمانى أقرضناهم فضه وقمحا، فلنترك هذا الربا، ردوا لهم هذا اليوم حقولهم وكرومهم وزيتونهم وبيوتهم.. فقالوا نرد ولا نطلب منهم» (١)

ولقد بدا هذا الشعور فى مار بولس نحو حنانيا رئيس الكهنة عندما قال «سيضربك الله أيها الحائط المبيض، أفأنت جالس تحكم علّى حسب الناموس، وأنت تأمر بضربى مخالفا للناموس» (٢)

وهو عين ما أنذر به السيد المسيح تلاميذه قائلا : «أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فبماذا يملَّح، لا يصلح بعد لشئ إلا لأن يطرح خارجا، وتدوسه الناس» (٣)

أما السيد المسيح فهو وحده الذى لم يصنع شيئا يعاب عليه وقد قال : «من منكم يبكتنى على خطية» (٤)

ألا ليت الخطأة والأشرار يتعقلون فيدركون أن الخطية تجلب على نفوسهم عارا وخزيا. فلقد نقصت قيمتهم الإنسانية وضاعت كرامتهم وسلبت هيبتهم وصاروا زراية وهزءا للناس أجمعين لا فى الدار الحاضرة فقط بل وفى العالم الآتى أيضا، يقول النبى دانيال : «وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدى» (٥)

أما أن الفضلاء يكرّمون والأشرار يحقَّرون، فهذا الشعور المزدوج ذو الحدين صادر عن الضمير، وهو كنائب عن الله فى الإنسان، وكصورة مطابقة لطبيعة الله المنصفة العادلة، يحقق الوعد الكريم والمبدأ الرهيب : «أكرم الذين يكرموننى، والذين يحتقروننى يصغرون» (٦)

ثالثا : العنصر الإرادى أو الفعال

وثمة عنصر ثالث يشتمل عليه الضمير الأدبى غير العنصر العقلى والعنصر العاطفى أو الشعورى، وهذا العنصر الثالث هو العنصر الإرادى أو الفعال، ذلك أننا لا نحكم أو ننفعل فحسب إزاء مايصدر عنا أو عن غيرنا من أفكار وأقوال وأفعال، وإنما نحن نتحرك ونفعل وفقا لهذه الأحكام التى يصدرها الضمير ومجاوبة للإنفعالات والعواطف التى يثيرها فينا، فنندفع أولا بشكل تلقائى ثم لا نلبث أن نسير فى أفعالنا بشكل إرادى، تكون الإرادة فينا هى الفاعلة.

---

(١) نح ٥ : ١ – ١٢ (٢) أع ٢٣ : ٢، ٣

(٣) مت ٥ : ١٣ (٤) يو ٨ : ٤٦

(٥) دا ١٢ : ٢ (٦) ١. صم ٢ : ٣٠

على أن العنصر الإرادى فى الضمير لا يقل خطرا ولا ينقص أثرا عن العنصرين الآخرين، بل العنصر الإرادى هو العنصر الفعال أو المنفذ للأحكام بدفق ودفع. بحيث أن الأحكام والمشاعر تصبح بدونه معطلة عن الظهور والعمل المباشر المجدى لتحقيق الحكم والشعور. فقد نحكم بأن هناك فرقا بين مانحن إياه وبين مايجب أن نكونه، ثم يصحب هذا الحكم ميل ورغبة قوية ملحة نحو المثل الأعلى والغاية القصوى التى يجب أن نصل إليها. ولكننا لا نستطيع أن نحقق هذا المثل أو ندرك هذه الغاية أو حتى أن نقترب إليها. إلا بعون العنصر الإرادى فى الضمير، حتى لقد قال بعض المفكرين : «ميزان الرجل إرادته، فإذا أردت أن تصير رجل، هذب إرادتك».

والحق أننا عندما نقول عن رجل أنه خيّر، فنحن نعنى من ذلك أولا : أن هذا الرجل يعرف الخير، وثانيا : أنه يحبه ويميل إليه، وثالثا : أنه يفعله أو يروض نفسه على فعله. وهذا الترويض أو الفعل، هو من عمل الإرادة، أو من إختصاص العنصر الإرادى فى الضمير.

فلما كان هذا العنصر الإرادى هو الذى يخرج الأحكام والعواطف إلى عالم الواقع الحى، كان هو العنصر الأهم فى تكوين شخصية الإنسان، لأنه بدونه تصبح الأحكام معطلة والعواطف مجرد رغبات لا قوة لها فى تهذيب النفس أو فى خدمة المجموع. ولذلك انصرف بعد المفكرين إلى فهم الضمير بعنصره الإرادى، فقال ادجاركينيه Edgar Quinet : «كن ضميرا Sois une conscience» ويقول يشوع بن سيراخ : «فى كل أعمالك اقتد بضميرك، فهذا هو حفظ الوصايا» (١) وبهذا المعنى يستحيل الضمير إلى إرادة محركة نحو الفضيلة والخير.

وحدة عناصر الضمير وائتلافها

وإذا كان حقا أن الضمير الأدبى يشتمل على عناصر ثلاثة : لكن هذه العناصر تؤلف معا وحدة متسقة مؤتلفة، إذ ليس فى الضمير تجزئة ولا تقطيع وإنما الضمير وحدة بلا أجزاء، وحدة كاملة لا يوجد فيها فصل بين عنصر وعنصر لأنها وحدة روحية عقلية غير مادية.

ومع ذلك فهذه الوحدة ليست متساوية دوما. ذلك لأن أحد العناصر قد يضعف أو يغلب فيها على العنصرين الآخرين، فمن الناس من لا يعرفون واجباتهم وإن كانوا ذوى إرادة، ومنهم من يعرفها لكنهم لا يقوون على مغالبة الكسل والخمول، ومنهم من يعرف واجبه وله نصيب من الإرادة يمكنه به أن يحقق وينفذ لكنه لا يحب واجبه ولا يميل إليه، ففى الفريق الأول ضعف

(١) يش بن سيراخ ٣٢ : ٢٧

العنصر العقلى، وفى الثانى العنصر الفعال، وفى الثالث العنصر العاطفى، لكن هذه العناصر موجودة معا وان إختلفت فى درجة قوتها ووضوحها.

١) ويبلغ من اتحاد هذه العناصر وإتصالها ببعضها إتصالا ملتحما أنه إذا أصاب واحدا من هذه العناصر اضطراب شديد أو توقف عن النمو، فإنه يترتب على ذلك عدم ظهور الضمير أو إختفاؤه.

(١) فإذا تغيب **العنصر العقلى** اختفى الضمير، فالحيوانات والأطفال الرضع بل وهؤلاء الذين اظلمت عقولهم إظلاما تاما، ليس لهم ضمير بالمعنى الكامل لكلمة الضمير، وذلك لتغيب العنصر العقلى أو عدم توفره.

(٢) واذا تغيب **العنصر العاطفى** اختفى كذلك الضمير، فالمدمنون على الخمر والمسكر يتبلد فيهم الشعور والحساسية. فيفقدون العاطفة على الرغم مما قد يكون لهم من فطنة وذكاء. ولذا يفقدون شعورهم بكرامتهم وشعورهم بكرامة غيرهم، وتنعدم فيهم عواطف التضحية والإيثار Altruism (e) ثم إيثار الغير من أجل الذات l'egoaltruism (e) (١).

كذلك الصدمات الإنفعالية والآلام النفسية الحادة التى تتمرمر بها النفوس الضعيفة قد تؤدى بها إلى فقد الشعور وتخدير الضمير. فيبدو أنهم بغير إحساس كما لو كانوا قد فقدوا ضمائرهم بالكلية. وكما أن الإبتهاج والرضى والسرور تزيد الضمير دقة وإرهافا. كذلك الحزن الشديد والقلق النفسى يخلفان وراءهما بلادة الشعور التى تؤدى حتما إلى إختفاء الضمير.

---

(١) مما يروى عن أثر الخمور فى تبليد الشعور وتخدير الضمير، أن رجلا تعلق بالخمر حتى صار من العسير عليه أن يقوم بمهام وظيفته فأقيل منها، وصار فى عوز إلى القوت الضرورى ومع ذلك لم يستطع أن يطلق الخمر فساءت حالة زوجه من فرط ما ألم بها من حزن وسقم فماتت وخلفت له إبنة صغيرة، لم يكن لها عائل غيره، ولكنه إلتفت إلى شهوة نفسه وأهمل إبنته فمرضت ولم يعن بها فماتت، وسمع الكاهن بقصة الرجل ومضى إليه بصحبة بعض الأتقياء فوجدوا ابنته جثة هامدة وليس لوالدها إحساس أو شعور نحو إبنته الوحيدة، فتحركت أحشاؤهم واشتروا لها كفنا أدرجوها فيه وحذاء أبيض لرجليها، ثم اغلقوا عليهما الباب ليعودوا إليهما بعد زمان ليدفنوا هذه الطفلة البائسة. ولما عادوا لم يجدوا أباها إلى جوارها، ثم دفنوها وعادوا يفتشون عليه فوجدوه بالخمارة، فدهشوا لبلادة شعوره، ولما كان الرجل لا يملك شيئا سألوا صاحب الحان كيف ابتاع منه الخمر قال: إنه قدم إلى حذاء صغيرا أبيض ليشرب بثمنه خمرا، فإزداد استنكارهم لفظاعة الحادث عندما عرفوا وتحققوا أنه حذاء البنية الصغيرة، إنتزعه من قدميها فى وحشية حيوانية بغير مبالاة ولا شعور.

(٣) وإذا تغيب **العنصر الإرادى** إختفى الضمير أيضا، وهذا ما نلاحظه عند المصابين بفقدان الإرادة، هؤلاء الذين لا يقوون على مغالبة الحيرة والتردد، فلا يستطيعون أن يجمعوا أمرهم على رأى أو عمل فى مبدأ الأمر ثم يستفحل الداء فيستحيل إلى فقدان الإرادة فقدانا تاما، هؤلاء يصدرون فى أفعالهم عن نفسية قد إختل توازنها وإختفى فيها مقياس الخير والشر، وكأنها سفينة فقدت بوصلتها، فصارت تخبط فى الماء بلا جدوى، جاهلة بمسيرها ومصيرها.

٢) ويبلغ أيضا من إتحاد هذه العناصر الثلاثة أن أى نمو يدرك واحدا منها يتناول الضمير كله فى وحدته.

(١) فإذا نما **العنصر العقلى** نما الضمير وتغير فى جميع عناصره، ألسنا نغضب أحيانا أو نفزع من أمر كنا نعده قَبلا مشروعا ومقبولا، نعم.. فإذا استنارت عقولنا بأفكار جديدة واطلعنا على معلومات أخرى، تغير شعورنا وإندفعت إرادتنا فى هذا الإتجاه الجديد. وهذا يصدق مثلا على رجل كالقديس بولس الرسول فقد كان قبلا يؤمن بدين إسرائيل ويشعر أنه دين السماء، ولذا عندما قامت المسيحية بدعوة جديدة حسبها بدعة تريد أن تقضى على دين الله، فجرد لها لسانه ويده ومضى يضطهد كنيسة الله بإفراط ويتلفها. ثم أنار المسيح بصيرته فعرف أنه جاهل بالحق، فتغيرت فكرته عن الدين الجديد وتغير شعوره من نحوه ومضى يدافع عنه باخلاص فالضمير قد تحول بتحول عنصر من عناصره، وهو العنصر العقلى.

(٢) كذلك يفعل **العنصر العاطفى** بالعنصر العقلى أو بالضمير، فبقدرما يتفتح القلب ويصفو وينقى من أدران الشر والخطيئة، يصفو العقل أيضا ويستمتع بإشراق وغناء، وكلما سمت مشاعر المرء وإحساساته وأصبح فاضلا نبيلا رحيما، إرتقى بذلك فكره وعقله وأصبح أكثر قدرة على النفاذ والإيغال فى فهم الحقائق وإدراك مكوناتها، وأمكنه أن يدلى بآراء أكثر سدادا فى الأمور الخلقية والأدبية ماكان ليدلى بها أو بمثلها لو لم يرق شعوره وإحساسه.

(٣) كما أن **العنصر الارادى** كذلك يؤثر ويفعل فى الضمير أو فى عنصريه الآخرين، بحيث أن مايدركه من نمو ينتقل إلى الضمير كله، فمن يروض نفسه على فعل الخير والمعروف ويأخذ ذاته بإلتزام قوانين الخلق والدين يزداد إعتقادا وإيمانا بالخير والفضيلة والخلق، ويصبح مقتنعا ومتحمسا لهذه جميعا، لأن شعوره أيضا يتأثر بفعل الخير كما أن عقله تأثر كذلك، فيصير محبا للخير والفضل كلفا بهما وشغوفا وميالا إليهما ميلا شعوريا. وكأنه بتغير العنصر الإرادى ونموه. ينمو العنصر العقلى فيمكنه أن يقيِّم الخير تقويما صحيحا سليما بدرجة أكبر مما كانت له قبل تقوية العنصر الإرادى، كما أن الشعور يرقى فيضطرم الحب نحو الخير ويزداد المرء تعلقا

به، بل ويغدو الضمير أكثر إحساسا بالخطأ وأشد شعورا بالصغائر والسهوات، ومن ثم يقول القديس بولس الرسول : «من أجل ذلك أسعى ليكون لى دوما الضمير الذى لا يبكتنى أمام الله و(أمام) الناس» (١)

إذن يمكن أن يختلف ضمير الفيلسوف عن ضمير الخطيب وعن ضمير القائد، إذ يغلب فى الفيلسوف العنصر العقلى، وفى الخطيب العنصر العاطفى، وفى القائد العنصر الإرادى، لكن كلا من هذه الضمائر يشتمل على العنصرين الآخرين ولو بنسبة أقل، كما أن كل ضمير من هذه الثلاثة يكون فى العادة قويا مرهفا، أما الفيلسوف فلسعة عقله ووفرة ذكائه، وأما الخطيب فلرقة شعوره ودقة إحساسه، وأما القائد فلصرامة عزيمته وقوة إرادته.

فإذا أمكن للفرد أن ينمى عقله ويرهف حسه ويهذب إرادته، فيعنى بهذه النواحى الثلاث معا، فإن ضميره يربح من هذه العناية ربحا عظيما، ويصبح ضميرا من نوع ممتاز يصلح للإرشاد وللحكم الصائب على أفعال النفس وأفعال الغير.

والحق أن من يروم لنفسه ضميرا سليما غير منحرف، يجب أن يكون اهتمامه بتغذية عناصره جميعا، فهذا هو الضمير الصالح الكامل لأنه متكامل، جامع لمقوماته على منهج متعادل وفى وحدة متسقة مندمجة.

---

(١) أع ٢٤ : ٢٦

المسئولية الأدبية
مناط المسئولية

مناط المسئولية

أولا : بالنسبة للفاعل :

لا يسأل عن أفعاله غير كائن عاقل حرّ مريد.

(١) أما من حيث أنه كائن عاقل :

فلأن الكائنات غير العاقلة لا تسأل عن أفعالها. فإذا هبت الرياح والأعاصير قوية فأغرقت السفن فى البحار أو اقتلعت الأشجار. وإذا نزلت الأمطار غزيرة فأتلفت النبات وأهلكت الحيوان، وإذا كان النسيم بليلا والهواء عليلا فأنعش النفوس، فلا يجوز أن نصدر على الرياح أو الأمطار أو النسيم حكما بخير أو شر.

كذلك الحيوان إذا تأذى أو انتفع به الإنسان فلا يصح أو يحق أن يسأل عن خير أو شر.

نعم يجوز أن نصف مايصدر عن الكائنات غير العاقلة بالنفع أو الضرّ، فنقول أنه فعل نافع أو ضار، أما الحكم بالخير والشر فلا يحق إلا على «كائن عاقل».

ويجرى مجرى الجماد والنبات والحيوان بعض الأناسيّ الذين فقدوا عقولهم فقدانا تاما، أو إلى حين. فالمجنون والأبله والمعتوه والمصاب بأى نوع من أنواع الجنون إذا صدر عنه فعل ما أثيم أو ضار فليس مسئولا عن فعله مسئولية أدبية لا أمام ضميره (إذ ليس للمجنون فى الواقع ضمير) ولا أمام ضمائر الأغيار لأنه ليس نظيرهم ينعم بالعقل الذى به ينعمون حتى يمكن أن يحاسب كما يحاسبون.

وإذا كان على المجنون عقاب، فالحكم يصدر على أفعاله التى أحدثت له الجنون، إذا كان حقا هو السبب فى هذا الجنون، كأن يكون جنونه من فرط التأمل والتفكير، أو من الإفراط فى الهم والحزن أو من كثرة الإجهاد العصبى من غير أن يضطره إليه أحد.

ويجرى مجرى الجنون حالات أخرى يفقد فيها صاحبها سلطان عقله الواعى إلى حين كما فى حالتى السكر والغضب الشديد، غير أن السكير مسئول لا عن سكره فقط بل عن كل ما يبدو منه قولا وعملا، إذ أن الإنسان فى السكر الشديد هو بعينه الإنسان فى حقيقة أمره، بل هو كما هو فى شخصيته الحقة ونفسيته الباطنية التى كان يحاول أن يخفيها بالتحفظ والحرص تحت رقابة العقل الواعى، فلما فقد رقابة العقل ظهرت خفايا نفسه بوضوح.

وإذا قيل هذا عن السكير فهو يقال أيضا بالأولى عن الإنسان فى حالة الغضب الشديد، فإنه مسئولا أدبيا عن الغضب ومانجم عنه، ولعلّ أول وخير دليل على هذه المسئولية الوقوع فى حالة الندم المرير بعد أن تهدأ سورة الغضب.

(٢) من حيث هو كائن حر :

الإنسان إذن هو الكائن الوحيد بين المخلوقات الأرضية الذى يكون مسئولا أدبيا لأنه كائن عاقل، بيد أن هذه المسئولية لا تقع عليه إلا بوصفه كائنا حرا مناط فعله بيده، وإلا فإذا لم يكن حرا فلا سبيل إلى عقاب أو ثواب. وحقا أن الإنسان يتأثر بالعوامل الوراثية والعوامل البيئية، غير أن هذه التأثيرات لا تلغى شعوره بالمسئولية لأنه يحس إذا كذب أو اختلس أنه كان فى وسعه ومقدوره ألا يفعل. وإنه فعل ذلك بإختياره وإرادته، وشعوره بالمسئولية يتجلى أيضا فى إحساسه بالندم بعد إرتكاب الفعل الأثيم، ولو لم يكن يشعر بأنه كان حرا مختارا لما كان هناك موضع للندم.

وإذا كان الأمر كذلك، فالإنسان لا يُسأل إلا عن الأعمال التى لإرادته فيها مدخل، أما أنه طويل أو قصير، نحيف أو بدين، مستقيم أو أعوج، جميل أو قبيح، أبيض أو أسود، سليم أو مريض. فهذا كله خارج عن إرادته وإختياره فلا مسئولية له فيه..

وإذا كان جهازه الهضمى أو التنفسى أو العصبى يقوم بعمله بنشاط أو بضعف، وإذا كان قلبه ينبض بإنتظام أو بغير إنتظام، فما علاقة الصحة البدنية بالصحة الخُلقية أو الأدبية إلا بقدر مايكون هو سببا لإعتلال صحته بإهماله إياها أو ما إلى ذلك.

كما لا يُسأل الإنسان عن ملكاته الذهنية أو مواهبه الشخصية مادام تقدمها أو تأخرها يرجع إلى عوامل غير إرادية، ومادام هو لايستطيع أن يغالب هذه العوامل بطريق إرادى، ولا محل للحكم عليه بالخير إذا كان بطبيعته ذكيا أو قوى الذاكرة أو واسع الخيال أو سريع البديهة، ولا موجب للحكم عليه بالشر إذا كان بفطرته غبيا ضعيف الذاكرة ضحل الخيال بطئ التفكير.

(٣) من حيث هو مريد :

إذا قلنا «كائن حر» فنحن نعنى أنه رب أفعاله، وإذا قلنا «مريد» فنعنى أنه «ذو غرض أو قصد» إذ الإنسان يصدر فى أفعاله عن غرض يتجه إليه أو قصد يرمى إليه.

وإذا كان ذلك كذلك فقد انبنى عليه أن كل فعل يقصد إليه الإنسان يكون مسئولا عنه وتقل مسئوليته فيه كلما قل شعوره بالغرض منه.

(أ) **إرادة مجردة**.. فالجندى الذى يحمل مكتوبا بإعدام شخص، ليس مسئولا أبدا عن إيذاء هذا الشخص أو إلحاق الضرر به.. كذلك الممرضة التى تقدم للمريض دواء أخطأ الطبيب فى النصح به، أو الصيدلى فى تركيبه، ليست مسئولة عن موت المريض أو استفحال دائه. وبالمثل إذا كان المكتوب لخير الشخص والدواء لشفاء المريض فلا جزاء للجندى أو للممرضة طالما أن إرادتهما فى صنع الخير مجردة.

هكذا أيضا الجلاد الذى يؤمر بتنفيذ الحكم على مجرم بالإعدام ليس مسئولا عن فعله. والقاضى الذى يحكم بأمانة وعدل وبناء على نصوص القانون ليس مسئولا عن الشر الذى يقع على المجرم وعائلته. والجندى فى ساحة القتال لا جريرة عليه فى قتله واحدا أو أكثر من جنود الأعداء، لأنه ينفذ أمرا صدر من حكومته وأمته على الحكومة والأمة المعادية. والأستاذ الذى يحكم برسوب طالب يستحق الرسوب، لا يسأل عن الشر أو الشرور التى قد تنجم عن هذا الحكم فجميع هؤلاء أصحاب إرادة مجردة فى الأفعال الصادرة منهم.

(ب) **إرادة غير نافذة**.. ومن يقصد خيرا أو شرا ولكنه لا يفعله لعائق خارج عن إرادته فمسئوليته كذلك حسب قصده، فقد سر الله من قصد داود الذى أظهره فى بناء بيت الله وعد له ذلك عملا صالحا وإن كان لم يتمه (١). وسر الله من ابراهيم لأنه قصد أن يقدم ابنه اسحق ذبيحة كأمر الله. وإن كان لم يذبحه بالفعل لتدخل ملاك الرب من السماء (٢). ومن قصد أن يقتل شخصا أو يسرق بيتا فتعرض له من أوقفه عند حده، فقد قصد شرا وإن لم يتم بالفعل فهو مسئول عن سوء قصده.

(جـ) **إرادة مغايرة للنتيجة**.. وقد يترتب على الفعل نتائج مغايرة أو مضادة لقصد الفاعل فقد يكون القصد صالحا وينجم عن الفعل شر أو شرور، وقد يكون القصد رديئا ويصدر عنه خير.

---

(١) فقال الرب لداود «من أجل أنه كان فى قلبك أن تبنى بيتا لإسمى، قد أحسنت بكونه فى قلبك.إلا أنك أنت لا تبنى البيت بل ابنك الخارج من صلبك».. (١. مل ٨ :١٨).

(٢) تك ٢٢ : ١٠ – ١٣.

ولكن المسئولية تتجه أولا وبالذات إلى النية أو القصد، هب أن طبيبا أعطى المريض دواء قتله به وهو يقصد شفاءه، أو هب أن شابا حمل شيخا من موضعه لينقذه من لفح الحر أو من قر البرد فسقط من بين يديه ومات أو ترضض جسده. أو أن شخصا إنبرى للدفاع عن مظلوم لدى ظالم فما كان من الظالم إلا أن إزداد قسوة على المظلوم، وهذا عين ما أصاب الإسرائيليين بعد أن دخل موسى قصر فرعون يطالبه بإطلاق حرية الشعب الإسرائيلى. (١) فى كل هذه الحالات كان الغرض خيرا، أما النتائج فكانت شرا. نعم لا مسئولية على هؤلاء جميعا من حيث القصد، ولكن ربما كانوا مسئولين إلى حد ما عن النتائج الشريرة إذا بدا منهم إهمال أو سوء تقدير للعواقب.

وعلى العكس من ذلك، من قصد بأحد شرا فأدركه خيرا كأخوة يوسف الذين باعوه قاصدين أن يتخلصوا منه ومن أحلامه، فجاء إلى مصر وصار وزيرا ومخلّصا لهم وللعالم من الجوع، أو كما قال هو لهم : «أنتم قصدتم بى شرا وأما الله فقصد بى خيرا.. ليحيى شعبا كبيرا» (٢) أو كيهوذا الإسخريوطى الذى سلم سيده من أجل أجرة(٣) فتم بتسليمه خلاص العالم.. فالمسئولية واقعة عليهم نظرا لقصدهم الأثيم، إذ الخير لم يكن منهم بل من الله الذى حول له الشر إلى خير..

(د) إرادة غير مشعور بها.. وإذا كان الأمر كذلك من جهة أعمال جاءت مغايرة لقصد فاعلها، فما هو مدي مسئولية الفرد فى أعمال صدرت عنه، ولكن فى غفلة من إرادته كالأفعال التى تصدر عن نائم أو عن نسيان أو عن اشتغال بشاغل أو عن عادة..

١ ـ فبعض الناس ينامون ثم يحلمون وفى أحلامهم يقومون بأمور قد تكون مفيدة أو ضارة، كمن يقتل أو يسرق أو يضرب أو يزنى أو كمن يقوم بالليل فينجز عمله أو يصلى أو يغلى مشروبا لمريض من أهله، دون أن يكون فى حالة يقظة تشعر بأنه فعل ما فعل فى حالة إرادية كاملة.

حقا إنه غير مسئول مسئولية رجل ارتكب هذه الأمور فى اليقظة، ولكنه مسئول مع ذلك لأنه لو لم يكن يفكر فى هذه الأمور، ولو لم يكن ميالا إليها شغوفا بها، لكان يستيقظ حتما قبل قيامه بها، لأنها ضد ميوله ونزعاته وهو ما يقرره علماء النفس، فهو إذن مسئول عنها لأنه يريدها ويهواها ويسر بها ولو سرورا باطنا أو غير مشعور به.

---

(١) خر ٥ : ١ – ٢٣ (٢) تك ٥٠ : ٢٠ (٣) مت ٢٣ : ٣

٢ ـ وهكذا من ينسى واجبا أو يهمل عملا نيط به أو يخلف فى وعد ارتبط به أو نذر نذرا ونسى أن يوفيه. هو فى الحقيقة مسئول من حيث أن النسيان دليل على ميل باطنى إلى عدم القيام بالعمل، ومن حيث هو عدم إهتمام أو إكتراث به، ومن حيث أنه لم يعّود نفسه على التفكير فى واجباته والوعود التى ارتبط بها، ومن حيث أنه لم يعالج داء النسيان لديه بتقوية ذاكرته أو على الأقل بأن يسجل مايخشى نسيانه فى مذكرة خاصة.

٣ ـ كذلك من يشغل بأمر فينشغل به عن القيام بآخر مسئول عن إهماله لأنه دليل على عدم إهتمامه بالأمر الذى أغفله، وعلى أنه لم يرتب نفسه ومشاغله بحيث يعمل كل شئ فى وقته.

٤ ـ وأيضا من يعتاد عادة صالحة فيتحرك نحو الخير مدفوعا بها، أو من اعتاد عادة رديئة فصنع الشر منقادا بعادته، مسئول عن أفعاله الصالحة والرديئة وهو مستحق للثواب أو العقاب عن أفعاله لأنه لم يعتد الفعل إلا لأنه مال إليه وفعله بتكرار (إذ العادة ميل متكرر). فمن إعتاد أن يصلى أو يصوم أو يرحم المسكين أو يستيقظ مبكرا لإنجاز عمله، أو من إعتاد الحلم وطول الأناة والصبر والإحتمال والكرم أو اللطف والكياسة مستحق الثواب. لأنه وإن كان الآن يفعل هذه الأمور بغير مجهود كبير، إلا أن له فضل تعويد نفسه عليها بإطالة التفكير فيها والميل إليها وترويض نفسه عليها.

كذلك من يعتاد التدخين أو تعاطى المشروبات الروحية أو أحد المكيفات أو المخدرات، ثم وجد نفسه مضطرا إلى تعاطيها فى زمن ما، أو كان تعوده عليها سببا فى تعطيله عن أداء فضيلة الصوم أو سببا فى ثورته وغضبه وعدم إحتماله، لا يجديه الإعتذار بأن هذه عادة وأنه فعل ما فعل مقهورا ومدفوعا بسلطان العادة فهو مسئول عن تكوين هذه العادة وعن خضوعه لها، وعن إهماله نفسه حتى تأصلت فيها مثل هذه العادة، وعن عدم بذل مجهود إيجابى إرادى فى مقاومتها وإستئصالها وأن يحل محلها عادة صالحة تكون بديلة لها.

(هـ) **إرادة متجهة نحو خير لاحق..** فمن فعل الخير تقديرا لشخص كلفه به أو خضوعا لأمر صدر إليه من كبير، أو حبا فى خير مادى أو أدبى أو طمعا فى جزاء، لايثاب كمن فعله حبا فيه لذاته، ومن ارتكب شرا وهو مرغم عليه، أو طمعا فى ربح وعد به، لايعاقب كمن فعل الشر مدفوعا إليه بميل من ذاته. فمن يجتهد فى إلحاق شخص بعمل خوفا من لوم صديق عاتبه

أو خضوعا لأمر صدر من رئيس (كما فعل هامان بمردخاى) أو حبا فى كسب أو ربح أو شهرة، ليس كمن يسعى لتوظيفه قصدا فى صنع الخير لذاته. كذلك الخادم الذى يهدد بتقديم السم لسيده أو يغرى على ذلك بمال ليس كمن يفعل ذلك كرها فى سيده أو حبا فى الإيذاء لذاته.

والخلاصة أنه بإزاء الأفعال الإنسانية لابد لنا من أن نسأل فيها عن قصد فاعلها. هل كان ينتوى بها شرا أو خيرا، فهذه النية الشريرة أو الخيرة هى مناط المسئولية فى أفعال الكائن العاقل الحر المريد..

من حيث السن.. يعتبر المرء مسئولا عن سلوكه أمام ضميره وأمام الله متى أدرك السن التى يستطيع فيها أن يكون ولىّ أفعاله قادرا على توجيه أفعاله بإرادة حرة مختارة نحو الغاية الطبيعية لكيانه العاقل وما يلائم جوهر نفسه الناطقة الخالدة.

ليست هذه السن هى مايصطلحون على تسميته بسن البلوغ. فالواقع أنه قبل أن يدرك المرء سن البلوغ يجد فى نفسه مبادئ الحياة العملية حاضرة عنده، فلا يكون جاهلا بالمبادئ الكلية العامة للشريعة الطبيعية الأدبية، بل يكون لديه من الإستعداد الطبيعى ما يستطيع به أن يقتنع بوجاهة هذه المبادئ وصوابها وصدق لهجتها، وأن يستخلص بطبيعته مايؤيد به حق هذه الشريعة وصدق ندائها، فيدرك بذلك ضرورتها ولزومها للحياة السليمة المتسقة التى تتجه صوب غايتها الطبيعية إتجاها مستقيما لا عوج فيه ولا إنحراف.

فى هذه السن التى يمكن أن يصبح فيها الصبى فاعلا أدبيا، يكون مسئولا عن أقواله، وأفكاره وأفعاله أمام ضميره، بحيث أنه يعتبر مخطئا ومستحقا للعقوبة إن خرج على حدود الشريعة الأدبية الطبيعية ومستلزماتها، وليس له حينئذ من عذر ولا حجة يتبرر بها أمام الضمير. وبالتالى فهو مسئول أمام الله حيث أنه قد حكم عليه ضميره بموجب المبادئ الطبيعية الأساسية التى يدركها حق الإدراك، فلا سبيل له فيها إلى معذرة أو تبرير.

ثانيا : بالنسبة للفعل «أى من حيث قوامه الأدبى» :

قوام الفعل الأدبى هو كل مايلزم ضرورة لكيان الفعل وحقيقة وجوده بحيث إذا زاد عليه شئ أو نقص منه شئ أصبح فعلا أدبيا آخر، ففعل السرقة مثلا يقوم فى سلب مال الغير، سواء كان فكرة أو شيئا، عن غير رضاه. وإذا لم يكن المال مال الغير كأن يكون مال الشخص نفسه فلا

يمكن أن نقول عن هذا الفعل أنه سرقة.. كالمال المسروق من زوج سكير لا يعرف حقوق زوجته وأولاده، فإن أخذه منه على غير علمه وبالتالى على غير رضاه لا يعد سرقة، لأنه حق زوجته وأولاده رد إليهم. وبالمثل سلب العبرانيين للمصريين (١) لا يعد سرقة، لأنهم استردوا بأمر الله - وهو القاضى بينهم وبين المصريين - أجورهم المغصوبةمن المصريين الذين استخدموهم بلا مقابل (٢) وكذلك الحال لو اختل الشرط الثانى، فإن من يأخذ مال الغير برضاه فلا يكون سارقا. وإذن فلابد من توفر الشرطين معا. ولايمكن أن يكون لفعل ما قوام فعل السرقة إلا بهذين القيدين اللذين يتعين بهما ضرورة كيان الفعل وقوامه.

وفعل الصدقة لا يعتبر هكذا إلا إذا كان بذلا لمال المحسن فى سبيل ذوى الحاجة حبا فى الخير لذاته. فلو كان عطاء من مال غيره أو كان على قهر وإضطرار أو طمعا فى مدح وطلبا لمجد، لم يكن فى هذه الحال أو تلك صدقة، وإنما يصبح شيئا آخر يختلف فى طبيعته وقوامه الأدبى عن فعل الصدقة.

ثم إن الفعل يتقوم لا نظرا لأشراطه وقيوده فقط بل أيضا نظرا لموافقته أو عدم موافقته لغاية طبيعية، لابد من أن تكون ملائمة للفعل من حيث هو فعل أدبى لكائن ناطق عاقل، فالصدقة وهى بذل وعطاء إختيارى تلائم غاية المحسن الطبيعية لأنها تعاون مع أفراد المجتمع الإنسانى من جهة، ولأنها عمل يقربنا إلى الله غايتنا القصوى من جهة أخرى. أما فعل السرقة فلا يوافق هذه الغاية لأنه يؤدى إلى النفور من جهة، ولأنه من جهة أخرى يبعدنا عن الله بقدر ما يبعدنا عن إرادته.

وعلى ذلك فلابد فى تقويمنا للفعل الأدبى من أن نستعرض شروطه وقيوده التى بها يتألف كيانه وفاعليته، ثم نربط هذه الشروط بغاية الفعل الطبيعية، وهل هى موافقة أو غير موافقة لطبيعة الإنسان الناطقة. حينئذ يمكننا أن نتحقق من صواب الإسم الذى نطلقه على الفعل، ومن أنه فعل ملائم أو غير ملائم، فنحكم عليه بالخير أو الشر وعلى فاعله بالمدح أو القدح.

---

(١) خر (٣: ٢٢)، (١١: ٢، ٣) ، (١٢ : ٣٥ ، ٣٦).

(٢) خر (١ : ١١ـ ١٣ـ ١٤) ، (٣ : ٧)

مفارقات المسئولية

يختلف الحكم المترتب على الفعل بحسب ظروف الفعل نفسه.. وظروف الفعل هى لواحقه التابعة له تبعية ذات أثر ومعنى، فهى للفعل كاللون والطعم والرائحة أى أنها كالأعراض بالنسبة لجوهر الفعل، لا يقوم بها كيانه ومع ذلك فهى متصلة بهذا الكيان تؤثر فيه تأثيرا ما بحيث قد يصبح الفعل ملائما أو غير ملائم تبعا لهذه الظروف التى يتأثر بها كيان الفعل..

هذه الظروف شخصية أو زمانية أو مكانية، وها نحن أولا نتحدث بنوع من التفصيل عن كل منها.

أما الظروف الشخصية فمنها مايتعلق بالفاعل ومنها ما يتعلق بالمفعول به ومنها ما يتعلق بالفعل، وفيما يتصل بالفاعل لابد أن نتناول كيفية الفعل ثم أسباب الفعل.

وأما فى الظروف الزمانية فنتناول زمان الفعل وفى الظروف المكانية مكان الفعل..

أولا : الظروف الشخصية :

(أ) الفاعل : (من ؟)

يجب قبل الحكم على الفعل وقبل أن نحدد مسئولية الضمير فى الفعل، ومدى هذه المسئولية، من أن نجيب على الأسئلة الآتية التي تتصل بالفاعل.

١ - سن الفاعل :

هل الفاعل طفل أم شاب أم شيخ؟ فإن الطفل الذى يكذب مسئوليته ليست كمسئولية الشاب أو الشيخ، إذ الطفل قد يكذب جهلا، أو ربما من فرط خياله الجامح، وهو غير مسئول أدبيا لأنه لم يستوف سن التمييز الأدبى. ومسئولية الشيخ الذى يزنى أعظم من مسئولية الشاب، إذ الشيخ أكبر سنا فهو أرجح عقلا وأهدأ طبعا وأسكن مزاجا وأكثر إتزانا وحكمة. يقول يشوع بن سيراخ «ثلاثة تبغضهم نفسى وتمقت حياتهم : الفقير المتكبر، والغنى الكذاب، والشيخ الزانى الفاقد الفهم» (١) فإن قام الشاب بأمر نبيل وحفظ عفافه بطهر، وجب مدحه وتشجيعه أكثر من الشيخ، وإن ارتكب الشيخ أمرا شائنا وجب ذمه وتوبيخه أكثر من الشاب.

---

(١) يش بن سيراخ ٢٥ : ٣، ٤

٢ ـ جنس الفاعل :

هل الفاعل ذكر أم أنثى فإن مسئولية الذكر فى بعض الجرائم أعظم من مسئولية الأنثى، كما أن مسئولية الأنثى فى بعضها الآخر أكبر وأفدح.

فالمرأة إن قتلت أعظم جرما من الرجل إذا قتل، وبالتالى فهى أكثر إستحقاقا للعقوبة لأنها كانت أكثر خروجا عن طبعها. وكذلك إذا زنت لأنها متمتعة بحصانة طبيعية وإجتماعية (١) أكثر من الحصانة التى يتمتع بها الرجل.

والرجل إن جبن وخاف وانثنى عن رأى سديد ومبدأ صالح تكون مسئوليته فى هذا كله أكبر من مسئولية المرأة، ولذلك كان عقاب آدم صارما مع أنه لم يكن البادئ بالخطأ وقال لآدم : «لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل..» (٢) ولذلك أيضا كانت القديسة دميانه أولى بالمديح والثناء من أبيها الذى جحد وأنكر المسيح.

٣ ـ بنية الفاعل وإستعداده الجسمانى :

هل الفاعل قوىّ أم ضعيف ؟ ماهو مدى إستعداده الجسمانى أو تركيبه وإستعداده التشريحى والفسيولوجى نحو هذا النوع أو ذاك من الجريمة ؟

إن الأقوياء الأشداء أكثر إستعدادا للغضب والقتل وربما الزنى من الضعفاء الهزيلين لأنهم يحتفظون فى جسومهم بطاقة أكبر مما تلزم لحاجتها الطبيعية، فهم أميل إلى صرفها وإخراجها فى نشاط خارجى. وعلى هذا الأساس تقوم فكرة الصوم.. فهى رياضة روحية نقصد بها إلى إذلال الجسم وإخضاعه، فضلا عن الحد من تغذيته حتى لا تتوفر له من الغذاء طاقة كبيرة قد لا يقوى الإنسان على حسن توجيهها.

هذا وقد نجد من الوجهة التشريحية إناسا قد اختل فيهم عضو أو جزء من عضو مما يؤدى قطعا إلى إختلال فى عمل العضو أو إفراز الغدد، فيترتب عليه إستعداد أكبر لنوع خاص من الجرائم. فضربة شديدة على الجمجمة قد تحدث فيها بروزا يؤدى إلى شذوذ فى التفكير والسلوك.

---

(١) حصانة المرأة الطبيعية غشاء البكارة فيها، ثم إستعدادها الطبيعى لظهور معالم الجريمة بإستعدادها للحمل، وحصانتها الإجتماعية وجودها فى كنف والديها وإخوتها أو زوجها أو أولادها، ولأنها عادة تقضى أكثر وقتها بالمنزل وهو بيئة أسلم من الشارع أو مكان العمل بالنسبة للرجل.

(٢) تك ٣ : ١٧، ١٨.

كما أن الفروق الجنسية التشريحية بين الذكور أو بين الإناث قد تحدث أنواعا كثيرة مما يعرف بإنحرافات الغريزة الجنسية، فقد يميل الذكر إلى الذكر أو الأنثى إلى أنثى، وقد يتخذ الذكر دور الأنثى فى الحالة الأولى، وقد تتخذ الأنثى دور الذكر فى الحالة الثانية، من حيث الميل الجنسى، ولامشاحة فى أن هذه الإستعدادات الجسمانية القائمة على أسس بنائية تشريحية أو فسيولوجية، يكون لها أثر فى إحداث مانسميه بالجرائم، وعلى كل حال لابد من بحث هذه الأمور لتحديد مسئولية المخطئ.

ولذلك يرى علماء المدرسة الإيطالية فى علم الإجتماع أن المجرمين الحقيقيين مزودون بإستعداد فطرى خاص للقيام بنوع معين من الجريمة : فمن الناس من زوّد بإستعداد فطرى للزنا، ومنهم من زوّد بإستعداد فطرى للقتل، وغيرهم لقطع الطرق، وغيرهم للسرقة.. وأن هذا الإستعداد الفطرى يتمثل فى ميول نفسية، يمكن للراسخين فى علم النفس الجنائى أن يكشفوا عنها. كما يتمثل فى علامات جسمانية تظهر فى أكثر أعضاء الجسم، يستطيع الراسخون فى علوم التشريح والفسيولوجيا أن يتبينوها عن طريق تجاربهم واختباراتهم.

وقد ألّف العلامة الإيطالى لمبروزو Lambroso فى تأييد هذه النظرية مؤلفين عظيمين : أحدهما فى «الرجل المجرم» والثانى فى «المرأة المجرمة» بيّن فيهما ما يمتاز به المجرمون فى شتى أنواع الجريمة من صفات نفسية وأشكال جسمية تظهر فى شكل العيون والأنف وتركيب الجمجمة ونسبة تقاطيع الوجه وغير ذلك.

وليس معنى هذا أن جميع الخطاة والمجرمين مزودون بهذا الإستعداد الفطرى للجريمة، فهناك من يرتكب الجريمة على سبيل المصادفة أو على سبيل العادة، أو بناء على نقص فى التربية أو فساد فى البيئة العائلية أو الإجتماعية، ولكن هؤلاء جميعا يعدون عند أصحاب هذه النظرية بأشباه المجرمين وليسوا بمجرمين على الحقيقة.

وقد اقترح علماء المدرسة الإيطالية على رجال القضاء أن يعالج أمثال هؤلاء المجرمين المزودين بإستعدادات فطرية للجريمة، بمختلف وسائل الطب النفسى والبدنى وفعلا فقد كان لهذه النظرية أثر واضح فيما أدخل من تعديلات على قوانين العقوبات فى الوقت الحاضر، وبفضلها اتجهت العناية نحو المجرمين، وأخذ القضاء يوجه أحكامه نحو إصلاح المجرم وتهذيبه بعد أن كان يتجه نحو تعذيبه، وقد أنشئت الإصلاحيات للأحداث والمشردين ومعتادى الإجرام، وتغيرت نظم السجون واقتربت إلى أن تكون بيوتا للتأديب والتهذيب والإصلاح.

٤ ـ الفاعل فى مستواه الذهنى أو الفكرى :

هل الفاعل عاقل أو مجنون؟ وإن كان عاقلا، فهل هو عبقرى أو عادى أو غبى ؟ وهل هو قوى الذاكرة أو ضعيف الذاكرة ؟ هل هو حاضر البديهة أم بليد الذهن وبطئ التفكير ؟ هل هو وضاء الفكر صافى الذهن أم هو ضيق الأفق مظلم التفكير ؟

كل هذه أسئلة يجب أن يجيب المرء عليها قبل أن يحكم باسم الضمير على صاحب الفعل بالجزاء المناسب. فكلما كان مستواه العقلى عاليا وملكاته الفكرية ممتازة أصبح أكثر مسئولية عن فعله، وأصبح أكثر إستحقاقا للعقوبة إذا أساء الفعل. فإن كان مستواه الفكرى ضعيفا وقد أتى بفعل جميل كان أكثر إستحقاقا من العبقرى للمديح والثناء والتشجيع.

ولقد رأينا أن ضمير الإنسان يزداد إرهافا وظهورا إذا كان يتمتع بعقلية ذكية وبديهة حاضرة، وأحكامه على الأفعال والأقوال أكثر صوابا وأوفر دقة وإحكاما، كما رأينا أيضا أن الأغبياء والبلهاء والحمقى أكثر إستعدادا للجريمة، وأن نسبة المجرمين بين الأغبياء أعظم إلى قدر كبير منها بين الأذكياء أو العباقرة.

لابد إذن من أن ندخل فى حسابنا عامل الذكاء والمستوى الذهنى لنحدد على وجه سليم عادل مسئولية الفاعل وإستحقاقه للثواب أو العقاب.

٥ ـ الفاعل من حيث إستعداده النفسى :

لكل شخص إستعداد نفسى خاص هو مجموع ميوله ونزعاته، ومجموع طباعه ونوع مزاجه وإتجاهاته الشعورية والعاطفية.

هذه العوامل النفسية الباطنية بعضها فطرى وبعضها مكتسب، وهذه وتلك تؤثر فى سلوك الفرد وتفكيره. وحقا إن علم النفس الحديث قد أضعف من تأثير الجانب الفطرى فى حياة الإنسان، مبينا أن الإنسان يستطيع أن يسيطر على كل هذه النزعات والميول والطباع والعواطف، فيحولها إلى إتجاه آخر، لكن ذلك لايتم إلا بمعونة من إرادتنا. فكلما كانت لنا إرادة قوية استطعنا مغالبة الإتجاهات الجامحة، وأمكننا أن نستغل هذه العوامل بما يبنى شخصيتنا بناء قويما. وإذن فالإرادة هى الموجه الأكبر والسيد الأعظم على مملكة الأفعال الإنسانية.

ولما كان الناس يختلفون فى إرادتهم فلابد أن يظهر أثر هذه العوامل النفسية فى حياتهم. وعلى ذلك يجب أن نعترف بما لهذه العوامل الباطنية من تأثير على السلوك، وربما كانت هذه

العوامل الباطنية هى التى تفسر لنا تلك الأخطاء التى نقع فيها ونسميها أخطاء غير إرادية، وكما أنها فى حياة البعض غيرها فى حياة غيرهم. فالمرشد الصالح يجب أن يدخل فى إعتباره هذه العوامل الباطنية عندما يشخص حالة الخاطئ وحينما يقدم له العلاج، وقبل أن يحدد مدى مسئولية الفاعل فى فعله خيرا كان أو شرا.

٦ ـ الفاعل وديانته :

ماهى ديانة الفاعل التى يرتب أفعاله إزاء مطالبها؟ هل هى اليهودية أم المسيحية أم الإسلام أم الوثنية ؟ ماهو كتابه المقدس؟ وماهو مذهبه أو رأيه فى ديانته ؟. هل هو مؤمن بهذا الدين؟ أو هل هو ثائر ضد هذا الدين ؟ أو ماهو مقياس إيمانه واعتقاده ؟

لابد أن نسأل عن هذا الأمر أيضا لأنه لا يمكن أن يطالب الإنسان أمام ضميره أو أمام ضمائر الأغيار بما لا يعتقد به أو لايعرفه. فاليهودى والمسيحى والمسلم والوثنى يجب أن يُسأل عن إتباعه أحكام دينه الذى يسلمّ به ولا يُسأل عن غيره، لأن كل من أخطأ بدون الناموس، فبدون الناموس يهلك وكل من أخطئ فى الناموس، فبالناموس يدان (١) . هكذا فى المسيحية نفسها لا يعاتبنا الضمير إلا على أساس المبدأ الذى نعتنقه ونثق من كل قلوبنا أنه المبدأ القويم.

وليس هذا مؤداه أن يقف العارفون بالحق عن تبليغه إلى الجاهلين به، وإنما معناه أن الجاهلين بالحق عن بساطة وسلامة قلب لاتحكم عليهم ضمائرهم بشئ من العتب أو اللوم على مخالفة شئ يجهلونه وفى حالة جهلهم إياه فلابد للكاهن أو المرشد أن يتحقق من ديانة الشخص ومذهبه ليعرف مدى مسئوليته فى الخطأ الذى وقع فيه، فقد كان شاول يضطهد كنيسة الله بافراط ويتلفها ولكنه فعل فى جهل بعدم إيمان، وإنما فى بساطة وإخلاص.

٧ ـ الفاعل من حيث حصانته المادية :

هل للفاعل حصانة مادية تكفى لوقايته من الشر الذى وقع فيه؟.. فإن من يسرق وهو غنى شرّ ممن يسرق وهو فقير، ولذلك فمسئوليته أعظم وعقابه أشد. فإذا عف الفقير عن الخيانة أو السرقة واحتمل ألم الحرمان فى نزاهة وأمانة فإنه خير وأفضل ممن يعف عن السلب وهو غنى، إذ الغنى يتمتع بحصانة مادية من شأنها أن تقيه أو تعوقه عن السلب، بعكس الفقير الذى قد يجد من الإغراء المادى مثيرا نحو السرقة والخيانة. كما أن من يزنى وهو متزوج أكبر جرما ممن

---

(١) رو ٢ : ١٢

يزنى وهو أعزب، فذاك محصن بحصن الزواج وهذا أعزل من هذا السلاح، ولذلك يستحق قصاصا أوفر وحكما أشد صرامة. أما الأعزب الذى يصون نفسه طاهرا على الرغم من إغراءات الشهوة ومثيرات الخطيئة فهو أفضل من المتزوج الذى يصون نفسه عن هذه الإغراءات، لأن هذا لم يحتاج إلى قدر من الجهد فى صيانة نفسه لأنه متزوج، قدر الجهد الذى بذله الأعزب. ولذلك فما أعظم الفرق بين موقف يوسف الشاب العفيف الأعزب، وموقف داود الرجل المتزوج.

فإن سقط شخصان فى خطيئة الزنى، أحدهما أعزب والآخر متزوج وجب على المتزوج أن يعتبر نفسه أفدح خطأ وأكثر إستحقاقا للعقوبة، ووجب على الكاهن أو المرشد أن يفرق فى تحديد مسئولية كل منهما، أمام الضمير وأمام الشريعة.

والمرأة التى تسقط فى خطيئة الزنا، إذا كانت فى عصمة رجل ولاسيما إذا كان لها أولاد، شر من إمرأة تسقط وهى فى غير هذه الحصانة المادية.

قالت الشريعة : «ولكن إن... لم توجد عذرة للفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة فى إسرائيل بزناها فى بيت أبيها، فتنزع الشر من وسطك».

«إذا وجد رجل مضطجعا مع إمرأة زوجة بعل، يقتل الإثنان : الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل» (١).

كذلك من ينكر الإيمان ويجحد المسيح وهو فى زمن السلم، ليس كمن ينكره وهو فى وقت الضيق أو زمان الإضطهاد، أولهما شر من الآخر.

٨ ـ الفاعل من حيث مكانته الأدبية :

هل الفاعل رجل مشهور بالفضل والتقى أم هو رجل عادى أو رجل شرير؟ وهل هو علمانى أم هو رجل من طغمة الإكليروس. وفى أى درجة من درجات الكهنوت؟ هل هو شماس أم قسيس أم أسقف ؟ وإذا كان فى درجة الشماسية ففى أى مرتبة من مراتبها، هل هو نائب شماس أو شماس أو رئيس للشمامسة؟ وإن كان قسيسا فما هى درجته؟ وإن كان أسقفا فهل هو أسقف أو مطران أو بطريرك ؟

---

(١) تث ٢٢ : ٢٠ – ٢٢

كلّما ارتقى المرء فى درجات الكهنوت كانت مسئوليته الأدبية أكبر، لأنه أقيم على وزنات أكثر، وتصبح خطيئة المخالفة أفظع وأجسم، وكلّما كان الشخص فى درجة من الفضيلة والكمال كان سقوطه فى الخطأ، أولى جدا بعناية المرشد أو الكاهن لأنه بإرتفاع الإنسان فى مركزه الأدبى ترتفع مسئوليته الأدبية.

ثم هل هو فى طغمة الرهبنة أم لا ؟ فهذه الطغمة الجليلة قد اختارت لنفسها حياة تقتضى زهدا ونسكا وتقشفا وعزلة وإعتكافا، ووفرة تعبد وإتضاع وإحتقار للمظاهر الخارجية. يجب ألا يسوّى أمام محكمة الضمير بين خطأ وقع فيه إثنان : أحدهما يضعه الشرع فى مرتبة أدبية أعلى وأسمى من رفيقه، ويجب أن تختلف العقوبة أو التأديب المفروض على كل منهما، وأن يفرق فى تقدير مسئولية كل منهما..

جاء فى التوراة أن من يزنى يُقتل، رجلا كان أو إمرأة. (١) أما إذا كانت الزانية إبنة لكاهن فقال الله فيها «وإذا تدنست إبنة كاهن بالزنى، فقد دنست أباها، بالنار تحرق» (٢) وقال السيد المسيح «أنتم ملح الأرض، فإن فسد الملح (فقد طعمه) فبماذا يملّح، إنه لا يصلح لشئ إلا لأن يطرح خارجا ويدوسه الناس بأقدامهم» (٣)

٩ ـ الفاعل من حيث مكانته العلمية :

هل الفاعل عالم بالشريعة أو جاهل بها ؟

فمن العدالة أن يحاسب الإنسان على قدر درجته من العلم والعرفان، ولذا يقول السيد المسيح : «أما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيده، ولم يستعد ولا صنع بحسب إرادته، فسيضرب كثيرا، والذى لا يعلم ويصنع ما يستوجب به الضرب فسيضرب قليلا. وكل من أعطى كثيرا يطالب بكثير، ومن استودع كثيرا يطلب منه أكثر» (٤)

وعلى أساس هذا المبدأ صلى المسيح عن صالبيه : «فقال يسوع ياأبتِ اغفر لهم لأنهم لا يعلمون مايفعلون» (٥). وكان يقول «أتيت أنا دينونة للعالم حتى يبصر العميان ويعمى المبصرون. فسمع قوم من الفريسيين الذين كانوا معه. وقالوا له : ألعلنا نحن أيضا عميان. فقال لهم يسوع : لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية، والآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية» (٦).

---

(١) خر ٢٢ : ٢١، لا ٢٠ : ١٠ – ٢٠ ، تث ٢٢ : ٢٢ (٢) لا ٢١ : ٩ (٣) مت ٥ : ١٣
(٤) لو ١٢ : ٤٧، ٤٨ (٥) لو ٢٣ : ٣٤ (٦) يو ٩ : ٣٩ – ٤١

وقال : «ولكنهم سيفعلون بكم هذا كله من أجل اسمى، لأنهم لايعرفون الذى أرسلنى. لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية. أما الآن فليس لهم عذر فى خطيتهم.. لو لم أكن قد عملت فيهم الأعمال التى لم يعملها آخر، لما كانت لهم خطية. أما الآن فقد رأونى وأبغضونى وأبى أيضا» (١).

ويقول الرسول : «لأن غضب الله معلن من السماء على كل كفر وتعدٍ من الناس الذين يحجزون الحق بالباطل، بما أنه ظهر لهم أن معرفة الله ممكنة لهم وقد أظهر الله لهم (ذلك)، فإن (كمالات الله) غير المنظورة، أى قدرته السرمدية وألوهته، ترى منذ خلق العالم مرأى العيان عند التأمل فى مصنوعاته، وعلى ذلك فلا عذر لهم إذ هم عرفوا الله (ومع ذلك) لم يمجدوه بوصفه الله ولم يشكروه بل ضلوا فى أفكار عقيمة واظلّم قلبهم وفقد الفطنة» (٢).

ويقول الرسول أيضا عن نفسه : «(أنا) الذى كنت قبلا مجدفا ومضطهدا، وإنسانا طاغيا، ولكننى قد رحمت لأننى صنعت (ذلك) بجهل (لّما كنت) كافرا» (٣)

ويقول ماربطرس الرسول عن المرتدين : «لأنه كان خيرا لهم أن لا يعرفوا طريق البر، من أنهم، بعد أن عرفوه، يرتدون عن الوصية المقدسة التى سلّمت لهم» (٤)

ويقول ماريعقوب الرسول : «وعلى ذلك يخطئ من يعرف أن يعمل الخير ولا يعمله» (٥)

وإذن فمن يخطئ وهو يعلم ليس كمن يخطئ وهو يجهل، فهو فضلا عن أنه مسئول عن الخطأ الذى ارتكبه فإنه بعلمه أصبح مشهورا وقدوة ومثالا لكثيرين. فسقطته فى الخطيئة ليست كسقطة الجاهل لأنه سيعثر كثيرين ويشكك فى الفضيلة نفوس الذين يتمثلون به ويتعلمون منه.

ولكن حذار من أن تظن أن الجهل بالشريعة خير من العلم بها، فإن الجاهل مسئول عن جهالته إذا كان فى مقدوره أن يطلب العلم ولم يطلبه ويجد فى إثره : يقول الحكيم سليمان : «أيضا كون النفس بلا معرفة ليس حسنا» (٦)

---

(١) يو ١٥ : ٢١ – ٢٤ (٢) رو ١ : ١٨ – ٢١
(٣) ١ . تى ١ : ١٣ (٤) ٢ . بط ٢ : ٢١
(٥) يع ٤ : ١٧ (٦) أم ١٩ : ٢

ومع ذلك فإذا أخطأ الإنسان جهلا منه ثم علم بخطئه أصبح مطالبا بالإستغفار والتوبة والكفارة، فمع أنه مسئول إلى هذا الحدّ لكنه أقل مسئولية من العالم إذا أخطأ. والتأديب الذى يستحقه أقل مما يستحقه العالم، وإذن يجب أن نفرق بين خطيئة من عالم وخطيئة من جاهل.

١٠ - الفاعل ومكانته الإجتماعية :

من هو الفاعل وماهو مركزه الإجتماعى ؟ هل هو رئيس أو مرؤوس. هل هو زعيم أم تابع، أهو قائد أم جندى، وهل هو ملك أم مملوك، سيد أو مسود، ماهو مدى شهرته وذيوع صيته بين الناس؟ ماهو مدى تأثيره فى المجتمع الإنسانى ؟

فبقدر مايكون الإنسان رفيعا ومرموقا من كثيرين وصاحب سلطان ونفوذ وسيادة ومنصب، بقدر مايكون مسئولا عن أفعاله وتصرفه. ولن يمكن لضمير حىّ أن يسوّى بينه وبين من يعلوه أو يدنوه فى المرتبة، فكلما ارتفع المرء فى منصبه أو مركزه الإجتماعى أو الدينى أو السياسى كان سلوكه أعمق أثرا فى حياة الأفراد، وعلى ذلك فهو أكثر مسئولية من غيره عن أفعاله ومدى موافقتها للخير والواجب.

«وكان بنو عالى بنى بليعال (أو لؤماء). لم يعرفوا الرب. ولا حق الكهنة من الشعب، كلما ذبح رجل ذبيحة يجئ غلام الكاهن عند طبخ اللحم ومنشال ذو ثلاثة أسنان بيده. فيضرب فى المرحضة (أو الوثية) أو المرجل أو المقلى أو القدر. وكل مايصعد به المنشل يأخذه الكاهن لنفسه. هكذا كانوا يفعلون بجميع إسرائيل الآتين إلى هناك فى شيلوه. كذلك قبل مايحرقون الشحم، يأتى غلام الكاهن، ويقول للرجل الذابح : اعطِ لحما ليشوى للكاهن، فإنه لا يأخذ منك لحما مطبوخا بل نيئا، فيقول له الرجل : ليحرقوا أولا الشحم ثم خذ ماتشتهيه نفسك. فيقول له : لا بل الآن تعطى وإلا فآخذ غصبا. فكانت خطية الغلمان عظيمة جدا أمام الرب، لأن الناس استهانوا تقدمة الرب» (١)

(ب) كيفية الفعل : (كيفَ ؟)

كيف فعل الفاعل ؟ هل كان فعله بالفكر أو القول أو العمل، أى هل كان فعله باطنيا أم ظاهريا خارجيا، وبعبارة أخرى، هل كان فعله ذهنيا أم واقعيا. فإن الخطأ بالفعل شر من الخطأ بالفكر، لا من حيث النية والقصد، ولكن من حيث نتيجة الفعل وأثرها الظاهرى وإنتقاله من شخص واحد

---

(١) ١. صموئيل ٢ : ١٢ – ١٧

إلى كثيرين فمن يشتهى إمرأة بفكره فقد زنى بها فى قلبه، ولكن إن زنى بها بالفعل فقد دنس عفته وعفتها وصار عثرة لآخرين، وربما جرت فعلته إلى نتائج شخصية وعائلية وإجتماعية بعيدة المدى وعظيمة الأثر.

فإذا كان الفعل ذهنيا أو واقعيا، فهل كان فيه **مرغما مجبورا أو حرا مختارا**، جاء فى شريعة الله أن الفتاة المخطوبة إذا زنى بها رجل دون أن تصرخ أو تستغيث أى كان ذلك منها بمحض رضاها، فإنها ترجم مع من زنى بها يموتا معا، أما إن كان الرجل قد قهرها على ذلك وقد استغاثت وصرخت فلم يغثها إنسان، فالرجل يقتل وحده، أما الفتاة فيعفى عنها لأنها لم تفعل بإرادتها (١).

وإذا كان الفعل باطنيا أو ظاهريا، فهل كان فعله **سهوا أم عمدا، بإنتباه أو بغير إنتباه.** فإن من يفعل عمدا وإنتباها، أعظم مسئولية ممن يفعل سهوا وبغير إنتباه سواء فى الخير أو الشر. ويقول السيد الرب : «من ضرب إنسان فمات يقتل قتلا، ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده، فأنا أجعل لك مكانا يهرب إليه» (٢).

وإذا كان الفعل ذهنيا أو واقعيا، فهل كان فعله **ببساطة قلب أم كان خبثا وغدرا** ؟ «وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر، فمن عند مذبحى تأخذه للموت» (٣). وكأن إلتجاءه إلى مدينة الملجأ لا يفيده شيئا، بل وحتى إذا إستغاث ممسكا بقرون المذبح فإن الشريعة لاتبرئه لأنه قتل بغدر.

وإذا كان الفعل ذهنيا أو واقعيا، فهل كان الفاعل **جاهلا بالنتائج المترتبة على فعله أم كان عالما بها** ؟ أو ببعض منها على الأقل ؟ فإذا كذب إنسان فى موقف ما إعتقادا منه أنه لا ينتج عن كذبه سوى فائدة أو بضع فوائد، فإن التأديب الذى يستحقه عن خطئه أقل من تأديب يستحقه لو أنه كان عارفا بالنتائج المترتبة على هذا الكذب أو بعضها، فإنه هنا أكثر مسئولية وأولى بالإدانة والعقوبة، والأمر كذلك إذا كان الفعل خيرا فإن من يفعله علما بنتائجه الخيرة أولى بالثناء ممن يفعله جهلا بها.

---

(١) تث ٢٢ : ٢٣ – ٢٧

(٢) خر ٢١ : ١٢، ١٣

(٣) خر ٢١ : ١٤

وإذا كان فعلا ذهنيا أو واقعيا، فهل فعله الفاعل **بلذة أو بتململ وضجر**؟ فإن اللذة فى الفعل تجعله أوفر إستحقاقا للجزاء. فمن يتصدق بفرح وسرور يكون حظه من القرب إلى الله وحظه من تقدير الضمير السليم أعظم وأجل من حظ من يتصدق وهو متضجر متململ متذمر، ولذلك يقول «المعطى المسرور يحبه الله» (١) «طوبى للرجل المتقى الرب المسرور جدا بوصاياه» (٢) هذا من جهة الخير، وأما من جهة الشر فإن من يفعل بلذة أكثر استحقاقا للعقاب ممن يفعل بضجر. وهؤلاء هم الذين نعتهم الوحى بأنهم «الذين مع أنهم عرفوا أن حكم الله هو أن الذين يرتكبون مثل هذه الأمور يستوجبون الموت، فإنهم لا يرتكبونها فقط بل يستحسنون الذين يرتكبونها أيضا» (٣) وفيهم يقول النبى «ليرتد إلى الوراء وليخز الذين يسرون بأذيتى» (٤). «الذى يتلذذ بالشر يلحقه الوصم» (٥).

وإذا كان فعل ذهنيا أو واقعيا فهل فعل **فى الخفاء أو علانية** فإن من يفعل وهو يخشى الناس أقل مرتبة فى شره ممن يفعل وهو لايخشى أحدا، أو ممن يفعل فخورا أمام الخلق بما فعل «لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه» (٦).

وأمّا من يفعل الخير سرا فهو أجدر بالجزاء الصالح ممن يفعل أمام الناس... فالأول أعمق إيمانا بالله وأكثر زهدا بمديح الناس وإطرائهم. «وأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك» (٧).

وإذا كان قد فعل، فهل فعل **بوحى نفسه أم بالإشتراك مع غيره**، فإن من يشترك فى مؤامرة يتقاسم معه الآخرون مسئولية الجريمة، وكذلك من يفعل الخير بمفرده يستأثر بجزائه دون غيره. وقد ورد فى التاريخ أن المعلم ابراهيم الجوهرى عاتب المعلّم فانوس أمام غبطة البابا البطريرك لأنه استأثر بالسعى فى إخراج قبطى مسجون ولم يشركه معه، فنال الأجر عنه بمفرده، ففصل البابا الأسكندرى فى هذه الخصومة النبيلة وقال : المعلم فانوس اخرجه من السجن فعلى المعلم ابراهيم أن يوجد له عملاً.

وإذا كان قد فعل ذهنيا أو واقعيا، فهل فعل **بمفرده أو أشرك معه غيره**، فإن من يفعل بنفسه أقل مسئولية ممن يحرض غيره على أن يشترك معه فى فعل الجريمة فإنه لم يخطئ

---

(١)٢. كو ٩ : ٧ راجع أيضا خر ٢٥ : ٢ ، ٣٥ : ٥ ، (أم ١١ : ٢٥)، (رو ١٢ : ٨)

(٢) مز ١١٢ : ١ (٣) رو ١ : ٣٢

(٤) مز ٤٠ : ١٤ (٥) يش بن سيراخ ١٩ : ٥، ٦

(٦) مز ١٠ : ٣ (٧) مت ٦ : ٦، ١٨

بنفسه فقط بل دعا غيره إلى الخطأ، فصار عثرة وهلاكا لنفسه ولغيره معا، فمن يمضى إلى دور القصف والخلاعة، ويصطحب معه آخرين، أو من يسكر بالخمر ثم يسقى غيره، يصيبه ويلان : ويل لشره، وويل مركب بعدد الذين أغراهم على الشر. قال الكتاب : «ويل لمن يسقى صاحبه.. مسكرا». (١) كذلك من يبتدع تعليما جديدا فى الدين ويضل كثيرين. هؤلاء هم «المعلمون الكذبة الذين سيدسون بدع مضرة (مهلكة).. سيجلبون على أنفسهم هلاكا مباغتا، وسيتبع كثيرون (تعاليمهم) المهلكة، وبسببهم سيجدف على طريق الحق.. ولكن الحكم الذى (قُدر) لهم منذ زمان طويل، لا يتوانى، وهلاكهم لا ينعس» (٢).

على العكس من ذلك، من يتبع الخير لنفسه ليس كمن يدعو الآخرين إليه، فهذا قد ربح خيرا مضاعفا ولابد أن يكون جزاؤه كبيرا. قال النبى دانيال : «والفاهمون يضيئون كضياء الجلد، والذين ردوا كثيرين (يضيئون) كالكواكب إلى أبد الدهور» (٣). هذا هو حكم السماء بالعدل وهو حكم الضمير السليم الحى.

وإذا كان قد فعل ذهنيا أو واقعيا، فهل فعل **بصراحة أم بتغرير وخداع** ؟ فمن يقتل وهو يخدع ويداهن شر جدا ممن يقتل مظهرا عداوته وخصومته، فهذا قتل فقط ولكن ذاك ارتكب شرورا كثيرة منها : القتل والكذب والخداع والمكر والرياء والمداهنة والخيانة. ولعل أبشع صورة لهذه الجريمة النكراء نراها فى يهوذا الاسخريوطى التلميذ الخائن، وقد عبر السيد المسيح عن هول جريمته بقوله : «أبقبلة تسلم ابن الإنسان» ؟ ثم فى أهود بن جيرا البنياميني «فأرسل بنو إسرائيل بيده هدية لعجلون ملك موآب، فعمل أهود لنفسه سيفا ذا حدين طوله ذراع وتقلده تحت ثيابه على فخذه اليمنى، وقدم الهدية لعجلون ملك موآب.. وقال لى كلام سرّ إليك أيها الملك، فقال : صه، وخرج من عنده جميع الواقفين لديه.. فمد أهود يده اليسرى وأخذ السيف عن فخذه اليمنى وضربه فى بطنه» (٤)

ثم فى ياعيل إمرأة جابر القينى التى استقبلت سيسرا وطمأنته وغطته بعد أن سقته فلما تثقل بالنوم «أخذت وتد الخيمة.. وضربت الوتد فى صدغه فنفذ إلى الأرض» (٥) ثم فى يوآب الذى مال بأبنير «إلى وسط الباب ليكلمه سرا وضربه هناك فى بطنه فمات» (٦)

---

(١) حب ٢ : ١٥ (٢) ٢. بط ٢ : ١ - ٣ (٣) دا ١٢ : ٣
(٤) قض ٣ : ١٢ - ٢٥ (٥) قض ٤ : ٢١ (٦) ٢. صم ٣ : ٢٧

وإذا كان قد فعل ذهنيا أو واقعيا فهل فعل **بطريق مباشر أو غير مباشر** ؟ هل قتل بنفسه أو استأجر آخر، وهل قتل بضربة من يده أو قضمة من فمه أو استخدم فى ذلك سما أو آلة قاتلة، وهل كان ذلك منه برفق أم بقسوة وتجبر؟ أليس واضحا أن من يقتل بنفسه شر ممن يقتل بوسيط، ومن يقتل بقسوة وعنف وتجبر شرّ ممن يقتل بنوع من الرفق؟ ثم ما أبعد الفرق بين من يقتل فيقضى على الحياة، وبين من يقتل فيشنع أو يمثل بالقتيل أشنع تمثيل كأن يمزقه ويقطعه إربا إربا، ولاسيما إذا كان يرتكب جريمته وهو هادئ أو وهو يغنى كما ذكر عن بعض كبار المجرمين.

فإن كان الفعل خيرا، فإن من يفعل بنفسه خير ممن يفعل بواسطة. فمن يرحم فقيرا أو يعين محتاجا ويتقدم إلى خدمة غيره بنفسه،أكثر إستحقاقا للمدح والثواب ممن يأمر أو يكلف غيره بذلك، لأن الأول بذل من ذاته وضحّى بنفسه ووقته وجهده، أما الثانى فاكتفى بالأمر والتصريح. ومن هذا القبيل مافعله السيد المسيح الذى خلص العالم بنفسه لابوسيط آخر.

(جـ) أسباب الفعل : (لِمَ ؟)

ماهى الأسباب التى حملت الفاعل على الفعل؟ أو ماهى الدوافع التى أثارته فاندفع بها إلى الفعل؟ فمن الناس من يقتل دفاعا عن نفسه لأن لصا أو عدوا هاجمه وأراد أن يقتله أو يسلبه شيئا، ومنهم من يقتل دفاعا عن شرفه لأنه رأى شخصا يراود إمرأته أويخونه فيها. فقتله أو قتلها أو قتلهما معا، ومنهم من يقتل ردا لفعل مسئ إليه كمن يقتل قاتل أخيه أو قريبه، أو كمن يسب ويشتم من أغاظه وآذاه، أو كمن يدبر مؤامرة أو يذيع مذمة شخص تفوق عليه حسدا منه. فمن يقتل أو يسئ دفاعا عن نفسه أو دفاعا عن شرفه أهون شرا ممن يقتل غدرا أو إنتقاما أو حسدا.

كذلك هناك من يزنى بدفع من صديق أو مجاراة له أو إنسياقا لبيئة من إخوان أشرار، وهناك من يزنى إثر اغراء عارض للخطيئة من جانب فتاة أو إمرأة فاجرة أو متهتكة أمالته إليها أو راودته عن نفسها.

وهناك من يسرق دفعا لألم الجوع فيه أو فى أولاده، أو من يسرق إشتهاء لشئ يملكه آخر، أو حسدا له، أو من يسرق طمعا فى الغنى أو الثروة، أو من يسرق ليعين شخصا أو قريبا له.

وهناك من يحلف تبريرا لنفسه فى أمر يستحق التبرير، وهناك من يحلف لغير داع ولكن على سبيل العادة.

وعلى كل حال يجب على الكاهن أو المرشد أن يتبين السبب الدافع إلى الفعل قبل أن يحكم على الفاعل ومدى مسئوليته فى الفعل. فكثيرا مايغير الدافع قيمة الفعل. فمن يتصدق إرضاء لنزعة السيطرة أو إرضاء لحب الشهرة وذيوع الصيت بين الناس، أو مجاراة لغيره أو خجلا منه أو تخلصا من إلحاح المسكين أو إلحاح القائم بالأعمال الخيرية، لا يمكن أن يعتبر رحيما على الإطلاق. وليس من العدالة فى الحكم، أو من وحى ضمير حر سليم أن يسوّى بين إنسان كهذا وإنسان آخر يتصدق بدافع من العطف والرثاء للمسكين، أو بدافع من الوفاء لله أو للكنيسة أو بدافع من الشعور بآلام المتألمين وإغاثة أعضاء المسيح المبلوين بالفقر والعدم.

فى كل فعل، خير أو شر، يجب أن نبحث عن الدوافع والأسباب التى حركت الفاعل لتحدد مدى مسئوليته فى الفعل الصادر عنه ذهنيا كان أو واقعيا.

(د) المفعول به (لِمَنْ ؟)

كذلك ينبغى أن نجيب على الأسئلة الآتية فيما يتصل بالمفعول به قبل أن نحدد مدى مسئولية الفاعل.

(١) طبيعة المفعول به :

هل هو الله أم الملاك أم الإنسان ؟ فإن من يجدف على الله أو ينكر أقوال الوحى أو يحارب الكنيسة أو يقاوم أعمال الله شر ممن يخطئ إلى إنسان بقدر مايسمو الله فى طبيعته عن الإنسان.. ومن يقدم على هذا الشر العظيم يعرض ذاته لعقاب لا يملك اتقاء شره.. قال السيد المسيح : «ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم» (١).

وقال الرسول : «مخيف هو الوقوع بين يدى الله الحى» (٢).. لهذا كانت جريمة آدم غير محدودة فى جسارتها لأنها فعلت ضد طبيعة الله غير المحدودة، وهذا هو سر الفداء المجيد.

فإذا كان المُساء إليه الملاك، كان الخطأ جسيما بقدر طبيعة الملاك الروحانية والتى هى أسمى من طبيعة الإنسان. من أجل هذا قال الحكيم الجامعة : «ولاتقل قدام الملاك أنه سهو، لماذا

---

(١) مت ١٠ : ٢٨، لو ١٢ : ٤، ٥

(٢) عب ١٠ : ٣١

يغضب الله على قولك ويفسد (يخرب) عمل يديك» (١) .. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن الملاكين اللذين نزلا ببيت لوط. «وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة ورجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، كل الشعب من أقصاها (أو عن آخره) فنادوا لوطا وقالوا له :أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة. أخرجهما إلينا لنعرفهما، فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه، وقال : لا تفعلوا شرا يا إخوتى، هوذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم. وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى. فقالوا أبعد إلى هناك، ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكما. الآن نفعل بك شر أكثر منهما، فألحوا على الرجل لوط جدا وتقدموا ليكسروا الباب. فمدّ الرجلان أيديهما وأدخلا لوط إليهما إلى البيت وأغلقا الباب، وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير، فعجزوا عن أن يجدوا الباب» .. (٢) ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما أصاب زكريا لأنه أخطأ فلم يصدق قول الملاك : فأجاب الملاك وقال له : «أنا جبرائيل الواقف أمام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا. وها أنت تكون صامتا فلا تستطيع الكلام إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تؤمن بأقوالى هذه التى ستتم فى حينها» (٣) .

كذلك من يزنى ببهيمة أحط ممن يزنى ببشر، فهذه خطيئة تدل على منتهى الإهانة للطبع الآدمى وعلى منتهى الإنحطاط فى التفكير الجنسى وعلى سوء استخدام الغرائز والميول الجنسية. وعلى كل حال، فهذه الحالة لا يصل إليها إلا أصحاب الإنحرافات الجنسية. قالت الشريعة : «وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها. وإذا اقتربت إمرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة. إنها يقتلان، دمهما عليهما» (٤) «إنه فاحشة» (٥) .

أرأيت إذن إلى أن طبيعة المفعول به إلهية كانت أو ملائكية أو بشرية أو حيوانية يكون لها قيمة فى تقدير مدى مسئولية الفاعل فى جريمته، فسمو الطبيعة أو إنحطاطها عن الإنسان يزيد من قيمة الجرم، لأنه فى الحالة الأولى يدل على جسارة المخطئ وفساد قلبه، وفى الحالة الثانية يدل على إنحطاط تصوره ووضاعة خلقه وشخصه ونزوله إلى درك أحط من درك الحيوان الذى لا يقترب إلا إلى حيوان من جنسه ومن طبعه!!!

---

(١) جا ٥ : ٦ (٢) تك ١٩ : ١ – ١١ (٣) لو ١ : ١٩ ، ٢٠

(٤) لا ٢٠ : ١٥، ١٦ (٥) خر ٢٢ : ١٩ ، لا ١٨ : ٢٣ ، تث ٢٧ : ٢١

(٢) سن المفعول به :

هل المفعول به يكبر الفاعل أو يصغره ؟ فإن من يخطئ إلى شخص يصغره أو يستوى معه فى سنه ليس كمن يخطئ إلى شخص يكبره، ومن يخطئ إلى ولد ليس كمن يخطئ إلى رجل أو شيخ. فكلما كان المفعول به متقدما فى السن كان الخطأ فى حقه جسيما واستوجب عقابا جسيما.

فإذا كذبت على شيخ أو أهنته أو ضربته أو شتمته كان خطأك أعظم مما لو صدر منك ضد شاب أو ولد، هكذا إذا أحسنت إلى شيخ فتأدبت فى محضره أو تحدثت إليه بما يليق بسنه، أو اعتنته ليجلس أو يقف أو يصل إلى مكانه، وإذا قدمت إليه طعاما أو شرابا أو أحسنت إليه برحمة أو قضيت له أربه كان فعلك هذا بشيخ متهدم أحق بالجزاء الصالح مما لو كان مع شاب أو رجل.

كذلك من يرى طفلا تائها فيحنو عليه ويطعمه ويأويه ويبلغه أهله أكثر إستحقاقا للثواب ممن يفعل هذا مع شاب أو رجل. ومع ذلك فقد يختلف هذا الحكم بالنسبة لفعل آخر يكون ضد ولد شرا مما لو كان ضد رجل، كمن يخدع ولدا ساذجا سأله عن أمر فأرشده إليه خطأ فهلك أو مات بسببه، فإنه فعل شرا مما لو خدع شابا أو رجلا له من عقله ما يمكن به إلى حد ما أن يجنب نفسه الهلاك. ومهما يكن من أمر. فإن المسئولية تختلف وفقا لسن المفعول به.

(٣) جنس المفعول به :

هل المفعول به ذكر أو أنثى ؟

فمن يضرب إمرأة أو يشتمها أو يظلمها يكون مستحقا لعقوبة أكثر ممن يضرب أو يهين أو يشتم أو يظلم رجلا، لأن المرأة أكثر رقة وشعورا وأولى بالعطف وحسن المعاملة، فمن يقسو عليها شر ممن يقسو على رجل، أما من يفعل خيرا بإمرأة فيريحها أو ينشط لمساعدتها أو يرحمها ويعينها، يكون أكثر إستحقاقا للثواب ممن يفعل خيرا مع رجل لأن المرأة أكثر إستحقاقا للعطف عن الرجل.

ومن يتلف رجلا فيعتدى على عفافه شر ممن يفسد عفة إمرأة لأنه لا يتورع عن إفساد إمرأة أيضا من بلغ به الشبق إلى معاملة الرجال معاملة النساء، فمضاجعة الذكور شر عظيم وهى أبلغ فى الجريمة من خطيئة الزنى. قال الله «وإذا اضجع رجل مع ذكر اضطجاع إمرأة، فقد فعلا

كلاهما رجسا إنهما يقتلان دمهما عليهما» (١) وإذ يعدد الرسول خطايا الأمم الكبرى ومدى شناعة جرائمهم يقول : «وكذلك الذكور أيضا تاركين الإستعمال الطبيعى للمرأة اشتعلوا فى شهوتهم مع بعضهم بعضا، فاعلين الفحشاء ذكورا بذكور، وقد حصلوا فى نفوسهم على الجزاء الذى يستوجبونه بالنسبة لضلالهم» (٢).

فإذا تعدت المرأة حدودها ونزعت برقع حيائها وتجاسرت على الرجل، كانت أحق بالعقوبة من إمرأة شريرة لا تجسر على ذلك. قالت الشريعة الموسوية : «إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضا، رجل وأخوه، وتقدمت إمرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربه، ومدت يدها وأمسكت بعورته، فاقطع يدها ولا تشفق عينك» (٣)

(٤) ديانة المفعول به :

هل المفعول به مسيحى أو غير مسيحى، مؤمن أو غير مؤمن ؟

فمن يخدع غير مؤمن شر ممن يخدع مؤمنا لأنه أتلف الإيمان فى نظر البعيدين وكان عثرة فى سبيل خلاصهم، أما من يبر ويسعى لخير واحد من غير المؤمنين فقد صنع فعلا جميلا، وتصرفه يدل على استعداد للخير عظيم، وعلى أنه بسلوكه يريد أن يسبى شعور غير المؤمنين، فعمله يمجد المسيح ويعمل على ذيوع فضائل المسيحيين بين غير المؤمنين ومثل هذا يستحق تشجيعا على عمله.

(٥) المفعول به وحصانته المادية :

إن من يخطئ إلى فتاة فى رعاية زوج أو أب، شر ممن يخطئ إلى فتاة بغير زوج أو أب أو أخ. ومن يخطئ إليها وهى تأبى، شر ممن يخطئ إلى فتاة ترضى ذلك لأن رغبته فى الشر قويت حتى إنه سعى وبذل جهدا فى قهرها على الخطأ على الرغم من إرادتها.

قالت الشريعة : «وإذا وجد رجل مضطجعا مع إمرأة زوجة بعل يقتل الإثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل».

---

(١) لا ٢٠ : ١٣، لا ١٨ : ٢٢، ١. كو ٦ : ٩، ١٠. تى ١ : ١٠

(٢) رو ١ : ٢٧

(٣) تث ٢٥ : ١١، ١٢

«إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها، فوُجدا، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين من الفضة، وتكون هى له زوجة من أجل أنه قد أذلها، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه» (١) . أما من ينجو من فخ فتاة أرادت أن يصنع بها شرا فهو خير ألف مرة ممن ينجو من الإثم لعائق خارجى.

(٦) المركز المالى للمفعول به :

من يسرق من فقير شر ممن يسرق من غنى، لأن الفقير معوز ومحتاج، والسرقة من الفقير إختلاس وسلب لضروريات حياته، فهى جريمة تدل على نذالة وعلى إنعدام الشعور الإنسانى فى مرتكبها.

ومن يحترم فقيرا ويكرمه ويكلمه بأدب ولياقة خير ممن يحترم غنيا، لأن من يفعل ذلك هو فى الحقيقة نبيل شريف لا يهاب الغنى لغناه ولا يحتقر الفقير لفقره. وإنما له مقاييس أخرى باطنية أعمق وأغور من المقاييس المادية، ولهذا فثوابه أعظم.

(٧) المفعول به ومركزه الروحى :

إن الذى يعتدى أو يسئ إلى سمعة الكاهن شر ممن يسئ إلى سمعة العامىّ (أحد أفراد الشعب) لأن الكاهن ذو مركز روحى أرفع من مركز العامى (العلمانى) فالشخص الذى يهينه أكثر درجة فى رذيلة الإستهتار، إذ هو بالطبع لن يتورع عن إهانة العامى فضلا عن الكاهن، ولأنه يوجد أشخاص يشتمون الآخرين ولكنهم يوقرون الكهنة فهم أقل شرا من الأولين.

كذلك من يسرق أموال الكنيسة شر ممن يسرق مال أحد آخر، ومن يلعن القديسين (كهنة أو غير كهنة) شر جدا ممن يلعن الأشرار أو على الأقل عامة الناس، لأنه لا يمكن أن يصل إلى هذه الحالة إلا بعد أن يكون قد ملك عليه الشر والخبث فأصبح له طبيعة ثانية، كما أن من يكذب على الكاهن ليس كمن يكذب على غير الكاهن. ففى هذه الجريمة وقع حنانيا وزوجته سفيرة إذ إختلسا من ثمن الحقل وكذبا على الرسول القديس بطرس. «فقال بطرس (له) : ياحنانيا، لِمَ استولى الشيطان على قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس (جزءا) من ثمن الحقل. فإذا

---

(١) تث ٢٢ : ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، خر ٢٢ : ١٦ ، ١٧

احتفظت به أما كان بقى لك، وإذ بعته أما كان فى حيازتك (أن تحتفظ بثمنه) فكيف أمكن أن ينفذ هذا (الأمر) إلى قلبك ؟ إنك لم تكذب على الناس بل على الله» (١).

أما من يحتمل تصرفات الأشرار معه بصبر فهو مستحق للثواب أكثر ممن يعايش قديسين لا يستمع منهم أشياء تثير الحقد أو الغيظ أو الغضب.

(٨) المفعول به ومركز القرابة :

فمن يزنى بقريبة له شر ممن يزنى بغريبة، لأنه نجس قريبته وأساء إلى عائلته. وإذا كان الزواج وهو مقدس لا يحلّ بين ذوى القربى فى بعض الحدود، فكيف لا يكون خطأ الزنى بالقريبة أعظم ؟؟

وكلّما كانت القرابة شديدة كان الخطأ أعظم، ذلك أنه يدل على سوء نظرة صاحبه وعلى فساد سريرته وإيغاله فى الأفكار الشريرة، وعلى خيانة لعمه أو خاله أو قريبه فى إبنته أو إمرأته.

قالت الشريعة : «وإذا زنى رجل مع إمرأة، فإذا زنى مع إمرأة قريبة فإنه يقتل الزانى والزانية، وإذا اضطجع رجل مع إمرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه، إنهما يقتلان كلاهما، دمهما عليهما. وإذا اضطجع رجل مع كنته، فإنها يقتلان كلاهما، قد فعلا فاحشة، دمهما عليهما.. وإذا اتخذ رجل إمرأة وأمها فذلك رذيلة. بالنار يحرقونه وإياهما لكى لا يكون رذيلة بينكم. وإذا أخذ رجل اخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هى عورته، فذلك عار. يقطعان أمام أعين بنى شعبهما، قد كشف عورة أخته، يحمل ذنبه.. عورة أخت أمك أو أخت أبيك لا تكشف. أنه قد عرّى قريبته، يحملان ذنبهما، وإذا اضطجع رجل مع إمرأة عمّه فقد كشف عورة عمّه، يحملان ذنبهما، يموتان عقيمين، وإذا أخذ رجل إمرأة أخيه فذلك نجاسة، قد كشف عورة أخيه، يكونان عقيمين» (٢) «ملعون من يضطجع مع إمرأة أبيه لأنه يكشف ذيل أبيه.. ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه.. ملعون من يضطجع مع حماته» (٣).

---

(١) أع ٥ : ٣، ٤

(٢) لا ٢٠ : ٩ – ٢١

(٣) تث ٢٧ : ٢٠، ٢٢، ٢٣، تك ٣٥ : ٢٢، لا ١٨ : ٨– ١٨، تث ٢٢ : ٣٠، أر ٥ : ٨، حز ١٨ : ١١، حز ٢٢ : ١١، عا ٢ : ٧. يو ٨ : ٤، ٥، ١. كو ٥ : ١

ويجرى مجرى القرابة الجسدية، القرابات الروحية كالأشابين فى المعمودية والزواج وما إلى ذلك من علاقاتِ الصداقة، فإن من يكسر قدسية هذه الروابط ليس كمن يزنى مع من لا تربطه روابط روحية شرعية أو إعتبارية.

كذلك المرأة التى تدبر مؤامرة لفضيحة زوجها أو أبيها أو أخيها أو قريبها، أو تشهر بأحد منهم شر من إمرأة تضر بغير زوجها أو قريبها، لأنها حينئذ تكون إمرأة داعر غير مبالية ومستهترة متمردة وليست مؤذية فقط.

ومن يسّب أباه أو يضربه شّر ممن يسئ إلى شخص آخر لأن من يسئ إلى والديه اللذين ربياه وبذلا من أجله حياتهما لن يتورع عن إهانة أى شخص آخر، وهى مرتبة لن يصل إليها غير الأشرار الشرسين. قالت الشريعة القديمة: «كل إنسان سَب أباه أو أمه فإنه يقتل، قد سّب أباه أو أمه، دمه عليه» (١) «ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا.. ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا» (٢) .. «ملعون من يستخف بأبيه أو أمه» (٣) «إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما، يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ويقولان لشيوخ مدينته، إبننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت، فتنزع الشر من بينكم ويسمع كل إسرائيل ويخافون»(٤) .. «من سّب أباه أو أمه ينطفئ سراجه فى حدقة الظلام» (٥)

أما من يحسن إلى غريب ويلاطفه ويكرمه ويعينه ويخدمه ويحتمله فهو مستحق لثواب أكثر ممن يحسن إلى قريبه فقط، ذلك أن الإهتمام بالقريب أمر طبيعى (٦) أما العناية بالغريب فدليل على التمكن فى فضيلة المحبة ودليل على رقة الشعور والشهامة والنبل والميل إلى الإحسان والمعروف.

يجب إذن على المرشد أو الكاهن أن يتحقق من نسبة المفعول به إلى الفاعل من حيث القرابة الجسدية والروحية ودرجة هذه القرابة، قبل أن يحكم على الفاعل وقبل أن يحدد مدى مسئوليته فى فعله.

---

(١) لا ٢٠: ٩
(٢) خر ٢١: ١٥، ١٧
(٣) تث ٢٧: ١٦
(٤) تث ٢١: ١٨ – ٢١
(٥) أم ٢٠: ٢٠، خر ٢٠: ١٢، لا ١٩: ٣، مت ١٥: ٤
(٦) ١. تى ١٥: ٨

(٩) **المفعول به ومركزه الأدبى:** إن من يسب أو يشتم أو يهين شخصا يحترمه الناس لفضله أو حسن سلوكه أو علو نفسه أو صالح أعماله شر ممن يهين رجلا عاديا، ذلك لأنه أهان فى شخصه جميع المعجبين به، فقد صار إذن مخالفا وعدوا لكثيرين وللفضيلة ذاتها.

وأما من يسلك بنزاهة وشرف وهمة عالية مع إنسان عادى فهو أفضل ممن لا يسلك كذلك إلا مع ذوى المركز الأدبى الرفيع خوفا منهم أو إجلالا لهم أو إنسياقا مع شعور الناس نحوهم، لأن من يصنع الخير للجميع حتى لو لم يكونوا من ذوى المركز الأدبى فقد دل على أصالة فى الفضل وعمق إيمان بالكمال الخلقى مع جميع الناس..

(١٠) **المفعول به ومركزه الإجتماعى:** هل المفعول به يحتل مركزا ساميا فى المجتمع؟ هل هو رئيس أم مرؤوس؟ فكلما كان المركز الإجتماعى رفيعا كان شر المعتدى أكبر لأنه برهان على القحة والجسارة والمخالفة وسؤ الأدب وسلاطة اللسان والتمرد وعدم الخضوع للرؤساء.

وعلى العكس من ذلك إذا كان المرء رقيقا مع مرؤسيه صادقا فى وعوده لهم، يبذل جهده فى تحسين حالهم والعطف عليهم والإهتمام بشئونهم المادية والأدبية، عاملا على تدبير وحل مشاكلهم والإنصات إلى شكواهم، فهو مستحق للأجر أكثر مما لو كان جهده منصرفا إلى إرضاء رؤسائه لأنه حينئذ يكون الخير الذى يعمله ليس حبا للخير لذاته بل هيبة للرؤساء وطمعا فى حسن مقابلتهم لصنيعه..

(١١) **المفعول به واستعداده الجسمانى:** من الناس القوى والضعيف، صحيح البدن أو سقيمه، فإذا قسا الرئيس على السقيم وطالبه بما يطالب به الصحيح القوى، أو إذا عامل السيّد خادمه العليل بمعاملة شاذة فضربه أو منعه من الرقاد، وأخذ قسط من الراحة أو طالبه بإنجاز عمل لا يقوى عليه، فهو شر من رجل يقسو على مرؤوس صحيح البدن.

وأما من يصنع خيرا بسقيم أو عليل فهو خير ممن يصنعه بسليم لأنه إذ ذاك لا يكون فضيلة واحدة بل عدة فضائل مجتمعة.. أى الخير والرحمة واللطف والإحسان والإغاثة والإحتمال.. الخ ومثاله ما فعل قائد المائة بعبده المريض. (١)

(١٢) **المفعول به واستعداده النفسانى:** من الناس الحليم ومنهم الأحمق ومنهم رقيق الإحساس ومنهم بليد الشعور، فلو أنك جرحت شعور الحساس لكان شرك أعظم مما لو فعلت ذلك

---

(١) لو ٧: ١ – ١٠

نحو البليد، إذ الحساس كان يمكنك أن تبلغه قصدك بالتلميح أو بقسمات الوجه ونظرات العيون دون الحاجة إلى التصريح أو التوبيخ بألفاظ جافية نابية.

أما الذى يستطيع أن يتفاهم مع الأحمق ويمكنه أن يؤثر عليه ويحمله على أمر، فهذا أفضل ممن يمكنه أن يتفاهم فقط مع رجل حليم واسع الصدر حكيم.

(١٣) **المفعول به واستعداده العقلى**: ومن الناس الذكى ومنهم الغبى، فإذا ضقت ذرعا بإيصال فكرة ما إلى الذكّى، فهذا يدل على ضيق صدرك. وليس خطأك كخطأ رجل قد ضاق صدره عن إحتمال غبى.

أما إذا احتملت الغبّى وأطلت أناتك عليه واستطعت أن تبلغه الحق الذى فى نفسك حتى فهمه وأجاده، كان استحقاقك الثواب أكبر لأن إحتمالك وصبرك عظيم ولن ينال هذا الثواب شخص وصل إلى نفس النتيجة مع شخص ذكى.

(هـ) الفعل .. (ماذا) ؟

يجب كذلك أن نفحص الفعل ذاته من حيث حقيقته، ثم من حيث نتيجته وأخيرا من حيث كيفيته.

(١) من حيث حقيقته:

أ - **الصورية**: ما هو الفعل وما هى حقيقته وإلى أى مدى يعتبر موافقا أو مخالفا للوصية الأولى أو الثانية أو الثالثة.. إلى العاشرة. وهل نصّ على الفعل فى الوحى المسطور سواء بالأمر به أو النهى عنه أم أنه يدخل ضمن نطاق الفعل المنصوص عنه (كالقتل والحسد) ؟ وهل الفعل فضيلة أو رذيلة أصلية أم فضيلة أو رذيلة فرعية (كعبادة الله فى الحالة الأولى والأنانية فى الثانية) ؟ وهل يعد الفعل موافقا أو مخالفا لوصية ما من وصايا الشريعة الأدبية، أو يعتبر إتماما أو خروجا على اللياقة وأداب الكمال (كالكذب فى الحالة الأولى والهزل فى الثانية) ؟ وهل الفعل يبدو خيرا أو شرا بصورة يقينية أم بصورة محتملة ؟ وهل هو فضيلة أو رذيلة حقيقية أم فضيلة أو رذيلة وهمية ؟. ثم هل الفعل خير أو شر إيجابى (كالرحمة فى الحالة الأولى، والقتل فى الحالة الثانية) ؟ أم هو خير أو شر سلبى (مثل نسيان الإساءة فى الأولى، وإهمال الواجب فى الثانية). وأخيرا هل الفعل يوافق أو يضاد القانون الطبيعى أم القانون الإلهى (الكتابى أو الكنسى) أم القانون أو النظام الإجتماعى ؟.

ب ـ **النوعية**: هل الفعل فضيلة أو رذيلة مباشرة أم غير مباشرة، مقصودة لذاتها أم ناجمة عن فعل آخر ـ (كالتجديف على المسيح باللسان، أو بالسلوك المشين)؟ وهل الفعل فضيلة أو رذيلة أولى أو فضيلة أو رذيلة متكررة؟؟ وهل هو فضيلة أو رذيلة إيمانية أم فضيلة أو رذيلة سلوكية؟؟ (فإنكار لاهوت المسيح رذيلة إيمانية، ولكن الطمع رذيلة سلوكية)، وهل الفعل فضيلة أو رذيلة مبتدعة أم فضيلة أو رذيلة جارية؟ (فاستخدام الحيوانات كالقردة مثلا فى السرقة رذيلة مبتدعة فى الأيام الأخيرة بالنسبة للسبل الجارية).

وهل الفعل خطيئة تفريط أو إفراط؟ (فإهمال الصلاة تفريط والإهتمام برضى الناس إفراط).

وهل الفعل خطيئة عنادية أو ضلالية؟ (والخطيئة الضلالية هى ما ارتكبت بجهل وبغير معرفة، وأما العنادية فهى ما ارتكبت عن علم ودراية واقتناع بشرّها. الأولى عرضية، والثانية مميتة).

ثم هل الفعل فضيلة أو رذيلة كاملة أم ناقصة. فإشتهاء الفعل فضيلة أو رذيلة ناقصة؟ ولكن إتمامه فضيلة أو رذيلة كاملة وفى هذا يقول الرسول: «فإذا حبلت الشهوة ولدت خطيئة، وإذا كملت الخطيئةأنتجت موتا» (١)

(٢) **من حيث نتيجته**: هل الفعل ـ خيرا كان أم شرا ـ بسيط أو مركب، واحد أو متعدد؟ (والفعل البسيط كالكذب العقيم، والفعل المركب كنظرة داود الشريرة التى أدت إلى إرتكابه خطيئة الزنى بإمرأة أوريا، ثم قتل أوريا نفسه، وما ينطوى عليه قتل أوريا من ظلم وغدر وخيانة وخداع.. الخ

وهل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ مفيد أو مضرّ بالفاعل أو بغيره؟ (فإن الزنى بالفكر يضر بصاحبه أو بفاعله، أما الزنى بالفعل فيضر بالفاعل وبغيره أيضا).

وهل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ مفيد أو مضر لواحد أو لكثيرين؟ (فإن شتم رجل أو أهين فالشر واقع على شخصه، أما إذا قتل رجل متزوج منجب فإن الفعل أضر لا بفرد واحد بل بأفراد كثيرين، هم زوجته وأولاده).

(٣) **من حيث كيفيته**: هل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ كان فعلا ذاتيا أو خارجيا، أى هل صدر الفعل نتيجة إختمار أو نتيجة إغراءات ودوافع خارجية؟ (فالرحمة من تلقاء النفس فعل ذاتى، أما الرحمة إنسياقا لأفعال الغير أو تمشيا معهم ومجاراة لهم فعل خارجى).

---

(١) يع ١: ١٥.

هل الفعل نفسانى أو جسدى أو نفسى جسدى؟ أى هل الفعل صدر عن النفس أم عن الجسد أم عن النفس والجسد معا؟ (فالصفح أو الكراهية فعل نفسانى، والقتل غير العمد فعل جسدانى، والقتل العمدى فعلا نفسانى جسدانى) وهل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ شوقى أو عرضى؟ (فالحسد فعل شوقى بينما الحلف ـ على الأخص بالنسبة للمعتادين عليه فعل عرضى).

هل الفعل بحسن نية أو بسوء نية؟ (فإهانة شخص لآخر قد تكون بحسن نية إذا كانت توجيه عبارة أو لفظ فى غير موضعه. ولكن الغدر والخبث فعل بسوء نية).

هل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ صدر بجهد أو بغير جهد. (فالصوم النسكى فعل بجهد ولكن الصدقة عن سعة فعل بغير جهد).

هل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ صنع فى الخفاء أو فى العلانية؟

هل الفعل ـ خيرا كان أو شرا ـ صنع بالفكر. أو بالقول أو بالعمل؟

فإذا ما تساءلنا على هذا النحو المتقدم، اتضح لنا أن الأفعال الأدبية ليست واحدة وإنما هى تختلف عن بعضها، بحيث إن حكمنا على أى فعل لا يكون صائبا ما لم نتحقق منه ومن نتائجه والملابسات التى أحاطت به، فضلا عن إرتباطه بطبيعة الحال، بالفاعل والمفعول به، وسائر الظروف الشخصية التى تكلمنا عنها، والظروف الزمانية والمكانية التى سنتكلم عنها فيما يلى.

(٦) المكان: (أين)؟

لبعض المواضع قدسية وحرمة يجب مراعاتها ولذا فإن الجريمة التى ترتكب فى هذه المواضع جريمة نكراء تفوق فى شناعتها وجسامتها وثقل وزرها على الجريمة التى ترتكب فى غير هذه الأماكن المقدسة. فمن يزنى بمنازل الأفاضل أو مواضع القديسين أو فى الكنائس أو دور العبادة أو الهياكل أو الأديرة، ليس كمن يزنى فى بيوت الدعارة وأماكن الفسق والفجور.

قال الكتاب عن أولاد عالى: «وشاخ عالى جدا، وسمع بكل ما عمله بنوه بجميع إسرائيل وبأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات فى باب خيمة الإجتماع، فقال لهم لماذا تعملون مثل هذه الأمور، لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب. لا يابنى لأنه ليس حسنا الخبر الذى أسمع. تجعلون شعب الرب يتعدون. إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه الله، فإن أخطأ إنسان إلى الرب فمن يصلّى من أجله، ولم يسمعوا لصوت أبيهم..»

وجاء رجل الله إلى عالى وقال له: «هكذا يقول الرب.. هوذا تأتى أيام أقطع فيها ذراعك وذراع بيت أبيك.. وهذه لك علامة تأتى على إبنيك حفنى وفينحاس، فى يوم واحد يموتان كلاهما.. وأقيم لنفسى كاهنا أمينا يعمل حسب ما بقلبى ونفسى، وأبنى له بيتا أمينا فيسير أمام مسيحى كل الأيام» (١)

«فقال الرب لصموئيل هوذا أنا فاعل أمراً فى إسرائيل، كل من سمع به تطن أذناه، فى ذلك اليوم أقيم على عالى كلّ ما تكلمت به على بيته. ابتدئ وأكّمل وقد أخبرته بأنى أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر الذى يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم ولم يردعهم. ولذلك أقسمت لبيت عالى أنه لا يكفر عن شر بيت عالى بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد» (٢).

وهكذا من يسرق أو يختلس أو يظلم أو يكذب أو يشتم أو يجدّف أو يسكر فى المواضع المقدسة ليس كمن يفعل ذلك فى مكان آخر. ولذا تغيّظ الرب ونهض بقوة عظيمة يقاوم الشرور التى كانت ترتكب فى الهيكل المقدس قائلا: «بيتى بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص» (٣) وقد أوصى رجال الله بوجوب الحرص على كرامة الأماكن الطاهرة كالأديرة والكنائس والهياكل ومن أقوال القديس الأنبا شنودة «لا تنجسوا بيوت الله وهياكله ولا تملأوها من الزوانى».

(٧) الزمان: (متى؟)

يجب على المرشد أن يتحقق أيضا من زمان الفعل، فإن هناك أزمنة معينة قد خصها الشرع بعناية شديدة، واعتبر الخطأ فيها أفدح وأعظم مما لو ارتكب فى أزمنة غيرها، نظرا لقدسية هذه الأيام وجلال المعانى التى ارتبطت بها مثل أيام الأصوام والآحاد والأعياد السيدية وأعياد الملائكة والقديسين، فإن من يزنى أو يظلم أو يخاصم أو يقتل فى هذه الأيام متغافلا عن كرامتها وقدسيتها متلهيا بالشر والحقد والفساد عن التأمل فى مناسبات وحوادث هذه الأيام العظيمة، هو فى الحقيقة شر ممن يصنع هذه الأمور فى غير هذه الأيام وهو أولى بتأديبات أشد لينتبه إلى عظم شره.

وإذا كانت الشريعة اليهودية والمسيحية تحذّر من الإتصالات الجنسية المشروعة فى أيام الأصوام والأعياد السيدية كأيام الآحاد مثلا والليالى التى يشرع المؤمن فى التناول فى نهارها، فكم إذن تكون جريمة من يقدم فيها على الشر غير المشروع؟

(١) ١. صم ٢: ٢٢ ـ ٣٦ (٢) ١. صم ٣: ١١ – ١٤

(٣) مت ٢١: ١٣، أر ٧: ١١

كذلك منعت الشريعة من الإتصال بالمرأة فى وقت أو زمان طمثها سواء كان إتصالا مشروعا أو غير مشروع، لأسباب روحية وأخرى صحيّة وتناسلية.

«ولا تقترب من إمرأة فى نجاسة طمثها، لتكشف عورتها» (١)

«واذا اضطجع رجل مع إمرأة طامث وكشف عورتها، وعرى ينبوعها وكشفت هى ينبوع دمها، يقطعان كلاهما من شعبهما» (٢).

«والإنسان الذى كان بارا وفعل حقا وعدلا.. ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل ولم ينجس إمرأة قريبه ولم يقرب إمرأة طامثا» (٣).

«فيك كشف الإنسان عورة أبيه، فيك أذلوا المتنجسة بطمثها» (٤).

---

(١) لا ١٨ : ١٩

(٢) لا ٢٠ : ١٨

(٣) حز ١٨ : ٦

(٤) حز ٢٢ : ١٠

الضمير المستقيم أو الصالح

الضمير المستقيم هو الذى يرشد إلى الحق فى وضوح ويقين، بل يمكنه أن يميز فى دقة بين مختلف واجباتنا ويستطيع أن يحدد الخير والشر فى أصغر الأمور شأنا، وكأنه ميزان الذهب فى دقته وحساسيته.

وهو ضمير مستقيم لا من حيث أنه سليم صريح مخلص فقط، بل من حيث أنه أيضا يرشد إلى الحقيقة ذاتها، فلا هو ضَيّق مغال ولا هو واسع مسرف، ومن ثَمّ فهو ضمير صالح.

«فتفرس بولس فى المجمع وقال، يا أخوتى، إننى عشت إلى هذا اليوم بكل **ضمير صالح** أمام الله» (١).

«لهذا أيضا أسعى ليكون دائما **ضميرى بلا لوم** أمام الله و(أمام) الناس» (٢).

«لأننا لا نحرّف كلمة الله قط كما (يفعل) الكثيرون، وإنما نتكلم بإخلاص كما من قبل الله وأمام حضرة الله فى المسيح» (٣)

«فإن غاية الوصية هى المحبة (الصادرة) من قلب طاهر، **وضمير صالح**، وإيمان خالص»(٤).

«إن ما أوصيك به، يا ابنى تيموثيئوس، طبقا للنبوءات التى قيلت سابقة عليك، هو أن تقوم بواجبك فى هذه الحرب الصالحة محافظا على إيمانك **وضميرك الصالح**»(٥)

«وبالمثل يجب أن يكون الشمامسة وقورين، وألاّ يكونوا ذوى لسانين.. بل يحفظون سرّ الإيمان **بضمير طاهر**» (٦).

«إنى أقدم الشكر إلى الله الذى أخدمه **بضمير طاهر**، كما كان يفعل آبائى» (٧).

«صلوا من أجلنا (عنّا)، لأننا موقنون أن لنا **ضميرا صالحا**، إذ أننا نرغب فى أن نتصرف فى كل شئ (تصرّفا) حسنا» (٨).

وإنما قدّسوا الرب (إلهكم) فى قلوبكم وكونوا دائما على استعداد أن تجيبوا (تردّوا) على كل الذين يسألونكم سبب الرجاء الذى فيكم فى وداعة واحتشام، ولكم **ضمير صالح**، حتى إن الذين يعيبون سلوككم الصالح فى المسيح يخزون مما أشاعوه عنكم كما لو كنتم فاعلى شرّ» (٩).

(فلك نوح) الذى يقابل الآن أو يرمز إلى المعمودية التى تخلصنا: وليست هى تطهيرا من أدناس الجسد، وإنما (هى) الإرتباط **بضمير صالح** أمام الله بقيامة يسوع المسيح» (١٠).

---

(١) أع ٢٣: ١ — (٢) أع ٢٤: ١٦ — (٣) ٢ . كو ٢: ١٧
(٤) ١ . تى ١: ٥ — (٥) ١ . تى ١: ١٨، ١٩. — (٦) ١ . تى ٣: ٨، ٩
(٧) ٢ . تى ١: ٣ — (٨) عب ١٣: ١٨ — (٩) ١ . بط ٣: ١٥، ١٦
(١٠) ١ . بط ٣: ٢١

الضمير الضّال

فالضمير إما أن يكون مستقيما صالحا طاهرا يرشد إلى الحق إرشادا صحيحا وسليما دقيقا وحينئذ يجب على الإنسان أن يسمع له وأن يعمل بإرشاده.

وإما أن يكون ضميرا ضالا (١) وفى ضلاله هذا قد يكون معذورا (٢)، وقد يكون غير معذور (٣) فهو معذور إذا لم يكن فى مقدوره أن يجتنب الخطأ (٤)، ويكون غير معذور إذا كان فى استطاعته أن يجتنب الخطأ ولم يفعل (٥).

ومثال الحالة الأولى، رجل فى أواسط أفريقيا لا يعرف عن شريعة المسيح شيئا، وليس فى استطاعته أن يعرف عنها شيئا لأنه فى بيئة منعزلة عن العالم المسيحى والثقافة المسيحية، فلا يمكن لمثل هذا أن يُسأل عن تطبيق مبدأ مسيحى مادام جاهلا به جهلا لا يستطيع منه خلاصا.

ومثال الحالة الثانية عالم يهودى أو مسلم فى بيئة يمكنه أن يعرف فيها سواء بالقراءة والإطلاع، أو بالبحث والإستقصاء شيئا عن دين المسيح أو شريعته، ولكنه لا يفعل ثم هو يفسّر العقائد المسيحية ويناقشها ويحاول أن يفندها أو يدحضها.

فالضمير فى الحالة الأولى ضلاله عن جهل، ولذلك فهو معذور فى ضلاله ومن ثم يمكن أن يثوب إلى رشده ويرجع عن ضلاله بالتوبة والتكفير عن إثمه:

(١) **الضمير الضال عن جهل**: قال السيد المسيح لتلاميذه: «بل تأتى ساعة يظن كل من يقتلكم أنّه قدّم ذبيحة لله. وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولم يعرفونى أنا» (٦)

وقال القديس بطرس الرسول للشعب اليهودى: «والآن، يا أخوتى، أنى أعلم أنكم فعلتم (ما فعلتم (بالمسيح) جهلا منكم، كما فعل مدبروكم.. فتوبوا إذن وتحوّلوا لكى تمحى خطاياكم» (٧)

وقال الكتاب المقدس: «وكانت كلمة الله تنتشر، ويتزايد جدا عدد التلاميذ فى أورشليم، كما أن جمهورا كبيرا من الكهنة كانوا يطيعون الإيمان» (٨)

وقال القديس بولس الرسول يصف جهل ضلالة: «وحقا أننى كنت أعتقد أنه لم يعد ثمة شئ ينبغى أن أفعله ضدا لاسم يسوع الناصرى» (٩)

---

(١) يسمونه بالفرنسية conscience erronée

(٢) Uncoup able

(٣) coupable

(٤) invinciblement érronée

(٥) vinciblement érronée

(٦) يو ١٦: ٢، ٣

(٧) أع ٣: ١٧ – ١٩

(٨) أع ٦: ٧

(٩) أع ٢٦: ٩

وقال الله تعالى للقديس بولس ليَرد به الضالين عن جهل: «لأنى قد ظهرت لك لأقيمك خادما وشاهدا.. منقذا إياك من هذا الشعب ومن الأمم الذين أرسلك الآن إليهم لتفتح عيونهم ولتنقلهم من الظلام إلى النور، ومن سلطان الشيطان إلى الله، حتى أنه بالإيمان (الذى يكون لهم) فيّ، ينالون غفران خطاياهم و(يشاركون فى) ميراث القديسين» (١).

وقال مار بولس عن اليهود: «يا أخوتى، إن رغبة (دعاء) قلبى وابتهالى إلى الله من أجل الإسرائيليين: أن يخلصوا، لأننى أشهد أن لهم غيرة لله، ولكن (هذه الغيرة) هى بدون معرفة»(٢)

ويقول القديس بولس أيضا عن ضلال الذين صلبوا المسيح بجهلهم «ولكننا نعلن حكمة الله (التى كانت) سرّا، أى أمرا مخفيا كان الله قد أعده قبل الدهور لمجدنا، (الحكمة) التى لم يعرفها أحد من عظماء هذا العالم، لأنهم لو كانوا عرفوها لما كانوا قد صلبوا رب المجد» (٣).

(٢) **الضمير الضال عن علم**: وأما الضمير الضال الذى كان يمكنه أن يجتنب الخطأ ومع ذلك قد سقط فيه عن علم فلا عذر له فى هذا السقوط، لأنه مصرّ على ضلاله:

قال السيّد المسيح يفرق بين المصرّ على خطئه وبين من يرجع عن غّيه إذا علم به واستنار فيه:

«من أجل هذا أكلمهم بأمثال، لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفقهون، لتتم عليهم نبوءة أشعياء القائلة: تسمعون سمعا ولا تفقهون ونظرا تنظرون ولا تبصرون، لأنه قد غلظ قلب هذا الشعب وثقلت آذانهم عن السماع، وأغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفقهوا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم. أما أنتم فطوبى لعيونكم، لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع» (٤)

على أن صاحب الضمير الضال مسئول عن ضلاله سواء كان ذلك عن علم أو بغير علم، ومع ذلك فهناك تفرقة واضحة بين من يضل فيصر على ضلاله وبين من يسهو ثم يعلم بخطئه، فالأول مرفوض لأنه ازدرى بالشريعة والثانى يصفح عنه بعد أن يكفر عن خطئه.

(أ) حكم الشريعة فى الضلال عن علم أو الضلال المتعمد

«وإذا أخطأ أحد، وسمع صوت حلف وهو شاهد يبصر أو يعرف فإن لم يخبر به حمل ذنبه»(٥)

---

(١) أع ٢٦: ١٦ – ١٨ (٢) رو ١٠: ١، ٢ (٣) ١. كو ٢: ٨

(٤) مت ١٣: ١٣ – ١٦ (٥) لا ٥: ١

«وأما النفس التى تعمل بيد رفيعة من الوطنيين أو من الغرباء، فهى تزدرى بالرب فتقطع تلك النفس من بين شعبها لأنها احتقرت كلام الرب ونقضت وصيّته، قطعا تقطع تلك النفس، ذنبها عليه» (١).

«والرجل الذى يعمل بطغيان فلا يسمع للكاهن الواقف هناك ليخدم الرب إلهك، أو للقاضى، يُقتل ذلك الرجل، فتنزع الشر من إسرائيل فيسمع جميع الشعب ويخافون ولا يطغون بعد» (٢)

«فكانوا يهزأون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائهم حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء» (٣).

«أيضا من المتكبرين احفظ عبدك فلا يتسلطوا علىّ، حينئذ أكون كاملا وأتبرأ من ذنب عظيم» (٤).

«من ازدرى بالكلمة يخرب نفسه» (٥).

«لأنه من غير الممكن لأولئك الذين قد استنيروا مرة، وذاقوا الموهبة السماوية وأصبحوا شركاء الروح القدس واستطابوا كلمة الله الصالحة، وقوات الدهر الآتى، إذا عادوا وسقطوا، أن يقدّموا للتوبة من جديد» (٦).

«لأنه إذا أخطأنا بإرادتنا (باختيارنا) بعد أن قبلنا معرفة الحق، لم تبق لنا بعد ذبيحة عن الخطايا» (٧).

(ب) حكم الشريعة فى السهوات (الخطايا بغير علم)

«فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال ياسيد أأمة بارة تقتل. ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى. بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا. فقال له الله فى الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطئ إلىّ، لذلك لم أدعك تمسها. فالآن ردّ إمرأة الرجل فإنه نبىّ فيصلّى

---

(١) عدد ١٥: ٣٠، ٣١

(٢) تث ١٧: ١٢، ١٣

(٣) ٢. أى ٣٦: ١٦

(٤) مز ١٩: ١٣

(٥) أم ١٣: ١٣

(٦) عب ٦: ٤ – ٦

(٧) عب ١٠: ٢٦

لأجلك فتحيا، وإن كنت لست تردّها، فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك.. فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم، وردّ إليه سارة إمرأته» (١).

«إذا أخطأت نفس سهوا (فى شئ) من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها وعملت واحدة منها. إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرب عن خطيته التى أخطأ ثورا ابن بقر صحيحا للرب ذبيحة خطية...» (٢).

«وإن سها كل جماعة إسرائيل، وأخفى أمر عن أعين المجمع، وعملوا واحدا من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها وأثموا، ثم عرفت الخطية التى أخطأوا بها، يقرب المجمع ثورا ابن بقر ذبيحة خطية..» (٣).

«إذا أخطأ رئيس وعمل بسهو واحدة من جميع مناهى الرب إلهه التى لا ينبغى عملها وأثم، ثم أُعلم بخطيته التى أخطأ بها، يأتى بقربانه تيسا من المعز ذكرا صحيحا...» (٤)

«وإن أخطأ أحد من عامة الأرض سهوا بعمله واحدة من مناهى الرب التى لا ينبغى عملها وأثم، ثم أُعلم بخطيته التى أخطأ بها، يأتى بقربانه عنزا من المعز أنثى صحيحة عن خطيته التى أخطأ.. وإن أتى بقربانه من الضأن ذبيحة خطية يأتى بها أنثى صحيحة» (٥).

«وإذا مس أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس، أو جثة بهيمة نجسة أو جثة دبيب نجس، وأخفى عنه، فهو نجس ومذنب. أو إذا مسّ نجاسة إنسان من جميع نجاساته التى يتنجس بها، وأخفى عنه، ثم علم، فهو مذنب. أو إذا حلف أحد مفترطا بشفتيه للإساءة أو للإحسان من جميع ما يفترط به الإنسان فى اليمين.. وأخفى عنه، ثم علم، فهو مذنب فى شئ من ذلك. فإن كان يذنب فى شئ من هذه، يقّر بما قد أخطأ به، ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيتة التى أخطأ بها أنثى من الأغنام: نعجة أو عنزا من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته، وإن لم تنل يده كفاية لشاة، فيأتى بذبيحة لإثمة الذى أخطأ به يمامتين أو فرخى حمام إلى الرب، أحدهما ذبيحة خطية والآخر محرقة.. وإن لم تنل يده يمامتين أو فرخى حمام فيأتى بقربانه عما أخطأ به عشر الإيفه من دقيق قربان خطية، لا يضع عليه زيتا ولا يجعل عليه لبانا

---

(١) تك ٢٠: ٢ – ١٤
(٢) لا ٤: ٢ – ١٢
(٣) لا ٤: ١٣ – ٢١
(٤) لا ٤: ٢٢ – ٢٦
(٥) لا ٤: ٢٧ – ٣٥

لأنه قربان خطية.. فيكفر عنه الكاهن من خطيته التى أخطأ بها فى واحدة من ذلك فيصفح عنه»(١).

«و.. إذا خان أحد خيانة وأخطأ سهوا فى أقداس الرب، يأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه: كبشا صحيحا من الغنم بتقويمك من شواقل فضة على شاقل القدس ذبيحة إثم. ويعّوض عما أخطأ به من القدس ويزيد عليه خُمْسَهُ ويدفعه إلى الكاهن، فيكفر الكاهن عنه بكبش الإثم فيصفح عنه»(٢).

«وإذا أخطأ أحد وعمل واحدة من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها، ولم يعلم، كان مذنبا وحمل ذنبه، فيأتى بكبش صحيح من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن، فيكفر عنه الكاهن من سهوه الذى سها وهو لا يعلم فيصفح عنه» (٣)

«وإذا سهوتم ولم تعملوا جميع هذه الوصايا التى كلّم بها الرب موسى»... فإن عمل خفية عن أعين الجماعة سهوا، يعمل كل الجماعة ثورا واحدا ابن بقر محرقة لرائحة سرور للرب مع تقدمته وسكيبه كالعادة وتيسا واحدا من المعز ذبيحة خطية.. فيكفر الكاهن عن كل جماعة بنى إسرائيل فيصفح عنهم، لأنه كان سهوا. فإذا أتوا بقربانهم وقودا للرب وبذبيحة خطيتهم أمام الرب لأجل سهوهم، يصفح عن كل جماعة بنى إسرائيل، والغريب النازل بينهم لأنه حدث لجميع الشعب بسهو.

وإن أخطأت نفس واحدة سهوا، تقرب عنزا حولية ذبيحة خطية، فيكفر الكاهن عن النفس التى سهت عندما أخطأت بسهو أمام الرب للتكفير عنها فيصفح عنها. للوطنى فى بنى إسرائيل وللغريب النازل بينهم تكون شريعة واحدة، للعامل بسهو» (٤)

«فتعينون لأنفسكم مدنا تكون مدن ملجأ ليهرب إليها القاتل الذى قتل نفسا سهوا لبنى إسرائيل وللغريب وللمستوطن فى وسطهم تكون هذه الست المدن للملجأ لكى يهرب إليها كل من قتل نفسا سهوا» (٥).

«السهوات من يشعر بها. من الخطايا المستترة أبرئنى» (٦)

«ولا تقل أمام الملاك أنه سهو، لماذا يغضب الله على قولك ويفسد عمل يديك» (٧).

---

(١) لا ٥: ٢ – ١٣ (٢) لا ٥: ١٤ – ١٦ (٣) لا ٥: ١٧ – ١٨
(٤) عدد ١٥: ٢٢ – ٢٩ (٥) عدد ٣٦: ١١، ١٥ (٦) مز ١٩: ١٢
(٧) جا ٥: ٦، تك ٤٣: ١٢، جا ١٠: ٥

الضمـــــــــير
بين ظلمة الشك ونور اليقين

الإرادة قوة صماء عمياء بكماء تفتقر إلى الضمير تستوحيه وتستهديه، ولكن الضمير قد يكون واثقا من حقيقة الفعل وصوابه فيمكن أن يصدر عليه حكما بالخير أو بالشر، وهو مطمئن واثق بصحة أحكامه وعدالة إجرائه سواء كان حكمه صحيحا أو غير صحيح فى ذاته. ويسمى الضمير فى هذه الحالة بالضمير الموقن أو الضمير الواثق.

لكنه في أحيان أخرى تتنازعه عوامل الشك والريبة، فيقف حائرا لا يدرى أين مواضع الحق من الباطل والخير من الشر، ويسّمى حينئذ بالضمير الشاك أو الضمير المرتاب.

أفهل ينتزع الضمير من بين شكوكه رأيا كيفما اتفق ويسلك بموجبه حتى يخرج من الحيرة والارتباك؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يجرى هذا الإختيار على غير قاعدة أو أساس؟ وهل هذا أسلوب أو منهج يخلو أو ينجو من التبعة أو المسئولية؟

إن الضمير إذا كان على يقين من حكمه ـ حتى لو كان على ضلال ـ فلا جُناح عليه إذا هو أرشد الإنسان إلى الفعل، ولا جناح على الإنسان أن يفعل وفقا لضميره قال الرسول: «سعيد من لا يلوم نفسه على شئ يراه فى نفسه صوابا» (١)، فمن يكذب معتقدا أنه يصنع خيرا لقريبه بانقاذه من شر يصيبه. قد أطاع صوت ضميره وقد فعل خيرا على الرغم من أنه ارتكب شرا بجهله وهو الكذب. ومن اعتقد فى يوم الخميس أنه الجمعة ومع ذلك أفطر فيه (فيما عدا الأعياد السيدية الكبرى وأيام الخمسين) فقد أخطأ لأنه فعل ضد ضميره، وأما من اعتقد فى يوم الأربعاء أنه الثلاثاء ثم أفطر فيه، لم يخطئ ضد ضميره وإنما أخطأ ضد الشريعة. والخطأ ضد الضمير أعظم من الخطأ ضد الشريعة لأن الضمير هو القاعدة القريبة للحياة الأخلاقية.

وإذن فعلى الإنسان أن يخضع لضميره فى كل ما يأمره به أو ينهاه عنه مادام الضمير واثقا من صواب حكمه. بل يجب على الإنسان ألا يخرج عن اقتناع ضميره أبدا لأن خروجه على الضمير حتى لو كان موافقا للصواب فى ذاته فإنه يعد مخالفة لمقياس الخير والشر فى الإنسان وهو ما يدان عليه. هذا وإنه لن يثاب على مخالفته ولو كان فى ذلك موافقا للحق فى ذاته. لأنه عندما فعل لم يفعل إبتغاء للحقيقة بل مخالفا لوحى الضمير وإرشاده طلبا لمنفعة أو إنسياقا وراء إستحسان أحد أو بعض من الناس. خذ لذلك مثلا:

---

(١) رو ١٤: ٢٢

شاب محب لله يميل إلى العبادة وضرورة التقشف. كان يصوم جميع الأصوام التى فرضتها الكنيسة. ومن بينها الأربعاء والجمعة من كل أسبوع ولم يكن قد وصل إلى علمه أن أيام الخمسين المقدسة يحرم فيها الصوم لأنها أيام إبتهاج بالقيامة المجيدة لمخلص العالم. لذلك أصرّ على الصوم. ومع أن بعضا من أفراد عائلته نصحوه بترك الصوم فى أيام الخمسين إلا أنه ظن ذلك منهم إشفاقا عليه قياسا على ماضى تصرفاتهم فى محاولة منعه عن الصوم. فظل يصوم دون أن يكون فى قلبه شك من جهة صحة مسلكه. إلى أن افتقده الكاهن فى بيته، ولما طرح أفراد المنزل هذه المسألة على الكاهن، أجاب: بأن الكنيسة قد منعت الصوم والتذلل فى هذه الأيام منعا باتا. فأصغى الفتى إلى كلمات الكاهن، وأقر بجهله ولم يعد إلى الصوم فى هذه الأيام وصار يعتبر الصوم فيها خطأ. وأخذ يحذر نظائره الجاهلين بقوانين الكنيسة من أن يرتكبوا هذا الأمر المحظور.

فهذا الشاب لم يقصد سوى الفضيلة بصومه. ولقد كان ضميره يدعوه إلى الصوم بإلحاح تقديسا لأمر الكنيسة وإتماما للفضيلة وتعبدا لله. ولئن كان حقا أنه على ضلال فى مباشرة الصوم فى أيام الخمسين المقدسة، إلا أنه لم يكن لضميره دراية بذلك. وإنما كان هو مقتنعا بحسب ضميره بوجوب الصوم. أما تحذير أهل البيت له، فلم يكن كافيا لضميره من حيث عدم الوثوق بعلمهم أو بصدق مشورتهم. فلا قيمة لتحذيرهم عنده لأنه كان مقتنعا تمام الإقتناع ولم يتطرق إليه شك فى وجوب الصوم. لذلك، فلا خطأ عليه فى صومه حتى الساعة التى أعلمه فيها الأب الكاهن بخطأ الصوم فى أيام الخمسين. ولو هو أحلّ صومه عن غير إقتناع إنسياقا لرأى أهل بيته أو خوفا من هزؤهم به أو فشلا من مقاومتهم، لكان إفطاره خطأ، لأنه إذ ذاك يكون قد فعل بغير رضى ضميره.. لو كان خطر لباله شك ما فى صواب فعله أو أرشده ضميره إلى وجوب استشارة الكاهن ولم يفعل بل أصر على الفعل رغما عن الشك، لكان تصرفه خطأ. وفى هذا يقول الرسول «ولكن من يشك (إذا كان يجوز له أن يأكل لحما)، يكون مدينا لو أنه أكل (منه)، لأنه لم يأكل منه بإيمان، وكل مالا (يفعل) بإيمان فهو خطيئة» (١).

ومع ذلك لا ننسى أن ننبه إلى إن الشاب وإن كان لم يخطئ بالنسبة لضميره إلاّ أنه أخطأ بالنسبة للشريعة التى كان يجهلها، وعلى ذلك يتحتم عليه بعد أن علم بخطئه أن يعترف به على الكاهن بإعتباره خطأ صدر منه «بغير معرفة» كما يحصل عادة فيما لو أخطأ بعض الناس

---

(١) رو ١٤: ٢٣.

وتعدى على قانون من قوانين الدولة على غير علم منه، فإنه لابد أن يعتذر عن فعله أو تعديه فينال البراءة والصفح من ذوى السلطة المشرفين على تطبيق قوانين البلاد.

وها هو شاول الطرسوسى يضطهد المؤمنين بالمسيح، وهو يعلم أن دين المسيح بدعة باطلة تناوئ دين اليهود أو دين السماء.

وما كان شاول يشك أبدا فى صواب مسلكه إلى أن أنار الله ذهنه وعرف حقيقة دين المسيح بإعتباره مكملا لدين إسرائيل. وحينئذ بدأ يتحول ويجاهر بخطأ تصرفاته الأولى، وأخذ يدعو اليهود والأمم إلى الدين المسيحى معترفا بضلاله الأول ونادما على معاملته القاسية لجمهور المسيحيين.

أما أنه كان مقتنعا فى مبدأ الأمر بأنه على حق فى اضطهاده للمسيحيين، وأن ذلك من فيض غيرته لله، فهذا ما يتضح من قوله لليهود: «أنا (رجل) يهودى، ولدت فى طرسوس بكيليكية، ولكننى نشأت فى هذه المدينة (أورشليم) عند قدمى غمالائيل، وتهذبت على المنهج الأدق (فى مراعاة) شريعة آبائنا، وكنت غيورا لله، كما أنتم (غيورون) جميعكم اليوم. وقد اضطهدت هذا المذهب حتى الموت، وأوثقت كثيرين من الرجال والنساء وأودعتهم السجن، كما يشهد لى (بذلك) رئيس الكهنة وكل مجمع الشيوخ» (١) . وقوله: «إذا كان أحد يعتقد أن له ما يرتكن عليه فى الجسد. فإن لى أنا أيضا بالأكثر، (أنا الذي) ختنت فى اليوم الثامن، من جنس إسرائيل، من قبيلة بنيامين، عبرانى من (سلالة) العبرانيين، فريسى فيما يتصل بالناموس، ومن جهة الغيرة قد اضطهدت الكنيسة» (٢) .

وأما أنه ندم على سوء معاملته للمسيحيين، فهذا ما يبدو من تصريحاته فى أكثر من موضع. فهو يقول فى رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس: «وبعدهم جميعا، ظهر لى أيضا كما للسقط، لأننى أصغر الرسل، بل ولست مستحقا لأن أدعى رسولا لأننى اضطهدت كنيسة الله» (٣) . ويقول فى رسالته الأولى إلى تلميذه الأسقف تيموثيئوس: «وإنى أشكر يسوع المسيح، ربنا الذى قوانى، لأنه حسبنى أمينا إذ أقامنى فى الخدمة. أنا الذى كنت قبلا مجدفا ومضطهدا وطاغيا، ولكننى قد رحمت لأننى فعلت (هذا) بجهل لما كنت كافرا، وقد فاضت عليّ نعمة ربنا مع

(١) أع ٢٢: ٣ - ٥
(٢) فى ٣: ٥، ٦ راجع أيضا أع ٨: ٣، أع ٩: ١ - ٣، ١٣، أع ٢٦: ١٠ - ١٨، غل ١: ١٣، ١٤
(٣) ١ . كو ١٥: ٩

الإيمان والمحبة التى فى يسوع المسيح. هذه الكلمة مؤكدة وجديرة بأن تُقبل بكامل اليقين، وهى: أن يسوع المسيح قد جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة الذين أنا أولهم. ولكننى رحمت لكى يظهر يسوع المسيح فىّ أولا حنانا كاملا، ويتخذنى مثالا للذين سيؤمنون به فتكون لهم الحياة الأبدية، (١).

وأما أنه مخلص فى تحوله فهو ما يتضح من قوله للملك: «من ثم أيها الملك اغريباس، لم أقاوم الرؤيا السماوية» (٢).

* * *

فإذا كان الإنسان فى حال الريب أو الشك فى حقيقة الحكم على الفعل، بمعنى أنه لم يتوفر له الإقتناع التام بأن الفعل خير أو شر، سواء من الوجهة النظرية أو من الوجهة العملية. وعدم الإقتناع من الوجهة النظرية معناه أن تشك فى حقيقة الفعل مجردا عن الظروف والملابسات أى بغض النظر عن العمل. أما عدم الإقتناع بحقيقة الفعل من الوجهة العملية فمعناه أن تشك فى حقيقة الفعل عند الإقدام على العمل، أى مع وجود الظروف والملابسات الراهنة التى تحيط بالفعل. نقول، أن الإنسان فى حالة عدم توفر الإقتناع التام بحقيقة الفعل يصير فى موقف من إثنين:

(١) إما أن لا يقوم أمام الشخص أى دليل يمكن أن يستند إليه فى إثبات خيرية الفعل أو شريته، أى أن يكون كلا الطرفين خاليا من الحجج. وبعبارة أخرى يكون الإنسان فى حالة غموض تام لا يتبين منه أى وجه للحقيقة. وهذا يرجع إلى جهل الفاعل جهلا مطبقا بالفعل وحقيقته كما لو كان أميا أو بدائيا، أو كان الفعل متعلقا لا بالمبادئ الطبيعية المفطورة فينا بل ببعض النتائج البعيدة، وهو ما يسمى بالشك السلبى.

(٢) وإما أن يكون للفعل منافع ومضار، ووجوه للحكم عليه بالخير ووجوه أخرى للحكم عليه بالشر، والإنسان فى حيرة من أمر هذه الوجوه لا يستطيع أن يفصل أو يميز بينها ليخلص إلى حكم واضح صريح فيها.

- ومثال الحالة الأولى، حالة الجهل المطبق والغموض التام، شاب صغير أعطاه صديقه سيجارا ليدخن نظيره وهو بين زمرة من أصدقاء يدخنون. فإذا كان الشاب الصغير لا يعلم عن التدخين أخير هو أم شر، ولم يسبق له أن فكّر فى هذا الأمر وليس فى مقدوره أن يصل بشخصه

---

(١) ١. تى ١: ١٢ - ١٦ (٢) أع ٢٦: ١٩

إلى حلّ لهذا الإشكال، فإنه - إذا كان معنيا بأن يوجه سلوكه على مقياس الخير والشر - يصير فى حيرة من أمره، فيتساءل: هل هو خير؟ ولكنه لا يجد أمامه دليلا ينهض على خيرية الفعل. أو هل هو شر؟ ولكنه أيضا لا يعرف له وجها من وجوه الشر. فكيف يجب أن يتصرف فى هذا الموقف تصرفا لائقا:

أولا : يجب أن يتوقف عن الفعل، طالما أنه لم يصل بعد إلى حكم فيه. فإذا هو فعل فى حيرته فقد أساء الفعل لأنه حينئذ يكون قد أراد الخير والشر معا، كمن يشك فى هل استيقظ ليلا وشرب، يجب أن يمتنع عن التناول فى الصباح.

ثانيا : يجب أن يستشير غيره ممن يثق فى معرفته وخبرته وفضيلته. وحبذا لو كان لكل شخص، مرشد خبير عالم فاضل يلجأ إليه فى حل مثل هذه الإشكالات الأدبية، وإلا فإنه مقصر فى دفع حيرة الشك ويكون مسئولا عن كل ما ينتج عن هذا التقصير. يقول يشوع بن سيراخ «لا تعمل شيئا عن غير مشورة، فلا تندم على عملك» (١). ويقول الحكيم سليمان «طريق الجاهل مستقيمة فى عينيه. أما سامع المشورة فهو حكيم» (٢).

ثالثا : إذا اضطر إلى الفعل ولم يكن ثمة وقت لإستشارة المرشد ومعرفة رأيه، يمكن للشخص أن يراجع ضميره ليرى ما إذا كان فى الفعل وجها ولو واحدا من وجوه الشر فإذا لم يتبين فى الفعل إثما جاز له فعله حتى لو لم ير فيه خيرا. أما إذا رأى فيه شرا وجب عليه أن يتوقف عن الفعل حتى لو رأى فيه وجوها للنفع. والشر الذى يجب أن يتوقف بسببه الفعل هو شر الباعث الدافعى أو الباعث الغائى أو شر الوسيلة أو شر النتيجة بالنسبة للفاعل أو المفعول به أو بالنسبة للمجتمع. على أنه أيضا هو الشر فى ذاته قياسا على مبدأ الخير لا قياسا على مبدأ النفع أو الفائدة.

فإذا لم ير فى الفعل خيرا ولا شرا جاز له أن يختار أيهما ولو بغير دليل مرجح ولا خطأ يلزمه، إذا لم يفعل بمعرفة أو بإرادة ومع ذلك فالراغبون فى الكمال يصلّون أولا قبل الفعل، ويسألون الله أن يصلح من أخطائهم ويعصمهم شر العثار.

* * *

فإذا كان للفعل وجوه للخير ووجوه للشر، ونشأت الحيرة من عدم إمكان الإنتهاء إلى حكم صريح مريح، وكانت الضرورة تدعو إلى الفعل، وجب القيام بالفعل نظرا لما فيه من الخير فقط، مع محاولة اجتناب وجوه الشر ووقف حركاتها.

---

(١) يش بن سيراخ ٣٢ : ٢٤ (٢) أم ١٢ : ١٥

فالمرء الذى يجد أمامه فرصة لعمل الخير أمام الناس، وهو يعلم أنه سينال مجدا منهم، وهو راغب فى هذا المجد، أفهل يجب أن يتوقف عن الإحسان أو عمل الخير نظرا لأن الدافع غير نبيل؟ حقا إن الإمتناع عن الفعل سيقف في سبيل شهوة النفس إلى المجد والشهرة ولكنه سيمنع الخير عن مستحقيه. فإذا كان فى إمكانه أن يحقق الإحسان والخير خفية بأن يحاول الإتصال بالمسكين بطريقة سرّية، فقد فعل عملا جليلا. وإلا إذا كان يخشى من أن الفرصة ستفلت من بين يديه أو من أن يضرب مثلا سيئا للمحيطين به فى عدم تشجيع الأعمال الخيرية، فيمكنه أن يعطى حتى لو كان شعوره الباطنى آثما. وبذلك يكون قد فعل خيرا وإن كان الدافع شرا. فالفعل غير لائق بالثواب لأن الدافع إليه لم يكن حب الخير لذاته.. ومع ذلك يجب أن يفعل الإنسان حتى لا يكون بإمتناعه عن الخير عثرة فى سبيل الغير. ولكن يجب عليه أيضا أن يصحح من نيته ويطهر من قصده إلى أن يأتى زمن يعتاد فيه أن يصنع الخير لذاته بغض النظر عن تطلع الناس إليه. ولقد روى عن القديسة سارة إنها كانت تقول: اصنع الخير ولو لطلب المديح من الناس، فسيأتى الوقت الذى فيه تصنع الخير حبا فى الخير لذاته.

هنا فى هذا المثال رأينا وجوب القيام بالفعل نظرا لأن الفعل فى ذاته خير وهو فعل الرحمة، على الرغم من أن الدافع إليه شرير.

فإذا كانت النتيجة شرا، كمن يرى شخصا يستجدى فيرق لحاله ويمنحه صدقة وهو لا يستحقها فيشجعه على الكسل وعدم العمل وهو شر، فالفعل فى ذاته خير والباعث عليه خير ولكن النتيجة شر. فإذا لم يعلم المحسن بخداع من يطلب الرحمة فإنه يجب أن يصغى لصوت ضميره ويقدم له الرحمة، وإذا علم بأنه مخادع وجب أن لا يحسن إليه بل إلى شخص آخر يستحق الرحمة.

* * *

فإذا كانت الوسيلة للخير شرا، فماذا تصنع؟؟

مثال ذلك: قد يجد المرء نفسه أحيانا مضطرا إلى الكذب لكى ينقذ غيره من شر، فهل يجوز له الكذب؟ أو كيف يخرج الضمير من هذه الحيرة؟

أولا: يجب على المرء أن يبحث فى هذه المسألة ليجد مفلتا لها من غير أن يتذرع لها بشر أو بوسيلة خاطئة كالكذب، على شرط أن لا يغفل فكرة الخير (أى إنقاذ الغير) من حسابه.

ثانيا: فإذا لم يستطع كان عليه أن يتحقق ثانيا من أن الخير للغير سيكون مضمونا بهذه الوسيلة (الكذب).

ثالثا : يجب أيضا أن تكون ميوله ومشاعره خيّرة كلها، فهو يريد الخير بكل قلبه ثم هو يكره الكذب أيضا ولا يلجأ إليه من أجل إنقاذ نفسه أبدا، بل هو يستعمله في هذه الحالات الإستثنائية حبا في الخير للآخرين.

رابعا : يجب كذلك أن يفكر في النتائج التي تنجم عن فعل الكذب. هل هناك أضرار تتصل بالفضيلة أو بنفوس الأشخاص، وهل يمكن أن نتفادى جميع هذه الأضرار، ولو في وقت آخر (كأن يحاول أن يتصل بالمكذوب عليه بعد أن تهدأ ثورة غضبه ثم يشرح له أسباب اضطراره للكذب، وحقيقة المسألة) ؟ وهل هذه الأضرار الخلقية الناجمة عن الكذب تقاس بشئ إلى جانب الأضرار الناجمة عن هلاك الشخص الذي يريد له الخير، فإذا كان المكذوب عليه شريرا جدا بحيث لا يبالي بخير أو بشر وكان فاسدا من عدة وجوه فلن يكون الضرر الذي يصيبه بالكذب عليه شيئا بالقياس إلى هلاك شخص لاسيما إذا كان عظيما أو نافعا أو بارا فاضلا.

فإذا نظر المرء إلى هذه الاعتبارات جميعا، وأجاب على هذه الأسئلة بنزاهة، ثم وجد بعد ذلك نفسه مضطرا إلى الكذب حبا في خلاص غيره، وجب عليه أن يفعل وفقا لما يمليه عليه ضميره، ولكن يجب عليه أيضا أن يراعي:

إن الضرورة لم تجعل الكذب خيرا ولا مباحا، فهو قد ارتكب خيرا وشرا معا، ولكن الخير أعظم من شر الكذب.. والله سيكافئه عن الخير الذي انتواه وصنعه، ثم أن رغبة الخير ستشفع في خطأ الكذب ذلك لأن اضطراره إلي الكذب آسفا وعلى غير رضاه هو دليل على عظيم ميله نحو الخير ورغبته فيه وحبّه للغير هذا الحّب الذي يدعوه لأن يضايق شعوره بالكذب. مثله في ذلك مثل القديس بولس الرسول الذي دعاه فرط حّبه لليهود إلى أن يتمنى لنفسه شرا من أجل خيرهم فيقول: «لأنني كنت أرغب أنا نفسي أن أكون محروما من قبل المسيح من أجل أخوتي (الذين هم) أقربائي بالجسد» (١).

وثمة قصص تقدمها لنا الكنيسة عن شهدائها البواسل وقد كذب بعضهم كالعذارى احتيالا على صيانة عفافهم من أن تعبث به شهوات الملوك والرؤساء، فلئن عرضت على مسامعنا أمثال هذه الوقائع الحية فما قصدت أن تقدم لنا أمثلة في الكذب، ولا طلبت إلينا أن نتمثل بالكذب الذي اضطروا إليه بل أرادت أن تبين لنا إلى أي مدى بلغ الحرص على العفاف واستعذاب الموت في سبيل الثبات على المبدأ وحّب الفضيلة.

---

(١) رو ٩: ٣

وإذن يجب أن يراعى فى كل فعل أن يكون هو فى ذاته خيرا أو مطابقا للشريعة الإلهية، وأن يكون الباعث عليه خيرا (ونحن نعنى أولا الباعث الدافعى ثم الباعث الغائى)، ثم الوسيلة يجب أيضا أن تكون خيّرة، وكذلك النتائج التى تعود على الفاعل والمفعول به، وعلى الأشخاص الآخرين فى المجتمع ممن تختلف قرابتهم للفاعل والمفعول به.

ومهما يكن من أمر، فعند الشك يجب أن نتوقف عن العمل إلى أن يتحول الشك إلى يقين لأن من يفعل وهو فى حالة شك فقد أخطأ لأنه أراد الخير ونقيضه معا، وعلى قدر ما يرى فى الفعل من شر يحسب شرا له إن فعل.

قال الرسول: «إنى عالم وموقن من قبل الرب يسوع أنه ليس طعام نجسا بذاته، وإنما الذى يعتقد فى شئ أنه نجس، (فهذا الشئ) قد تنجس به» (١).

وقال أيضا «واحد يعتقد أنه يمكنه أن يأكل من كل شئ، وأما الضعيف (فى إيمانه) فلا يأكل إلا بقولا» (٢)

وقال : «كلوا من كل ما يباع فى الملحمة، دون أن تفحصوا فيه من أجل الضمير»(٣).

وقال كذلك «كل شئ طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شئ طاهرا، وإنما على العكس، قد تنجس ذهنهم كما تنجس أيضا ضميرهم» (٤).

وقال الرسول «هل لك إيمان؟ فلتدّخره فى نفسك أمام الله. سعيد من لا يلوم نفسه على شئ يراه فى نفسه صوابا. ولكن من يشك (إذا كان يجوز له أن يأكل لحما)، يكون مدينا لو أنه أكل (منه)، لأنه لم يأكل منه بإيمان، وكل مالا يفعل بإيمان فهو خطيئة» (٥).

ثم يجب أن نتوقف عن الفعل لا من أجل الشك الذى ينتابنا فى ضمائرنا، بل وأيضا من أجل الشك الذى ينتاب ضمائر أخوتنا، فالمسيحية تقتضينا أن لا نهتم بنفوسنا فحسب بل وبنفوس الآخرين كذلك.

---

(١) رو ١٤ : ١٤

(٢) رو ١٤ : ٢

(٣) ١ . كو ١٠ : ٢٥

(٤) تى ١ : ١٥ راجع كذلك مت ١٥ : ١، أع ١٠ : ١٥، رو ١٤ : ٢٠.

(٥) رو ١٤ : ٢٢، ٢٣

«لا تهدم عمل الله بسبب اللحم، حقا إن جميع الأشياء طاهرة، ولكن يخطئ من يأكل فيعثر (غيره)» (١).

«نعلم أن الوثن ليس شيئا فى العالم، وأنه لا يوجد غير إله واحد، ولكن ليس الجميع يعلمون هذا، لأن البعض من حيث أن اعتقادهم فى الوثن لا يزال قائما إلى الآن فهم يأكلون كما من شئ ضحّى للوثن. ولما كان ضميرهم ضعيفا فإنه يتنجس بهذا.. لأنه إن رآك أحد (منهم) يامن له علم جالسا إلى مائدة فى هيكل الأوثان، أفلا يتشجع ضمير من هو ضعيف، فيأكل مما قرب للأوثان؟ فيهلك بمعرفتك (بعلمك) أخوك الضعيف الذى مات المسيح من أجله. وهكذا إذ تخطئون إلى أخوتكم وتجرحون ضميرهم، وهو ضعيف تخطئون إلى المسيح. من أجل هذا، إذا كان ما آكله يعثر أخى فلن آكل لحما على الإطلاق لكى لا أعثر أخى» (٢).

«وإذا دعاكم أحد من غير المؤمنين للأكل وأنتم تريدون أن تذهبوا، فكلوا ما يوضع أمامكم دون أن تفحصوا فيه من جهة الضمير. ولكن إن قال لكم أحد (الناس) أن هذا قرّب للأوثان، فلا تأكلوا منه من أجل الذى حذركم (منه) و(من أجل الضمير) لأن الأرض وكلّ ما تحتويه للرب. وأقول الضمير، لا ضميرك أنت ولكن ضمير الغير، لأنه لماذا يحكم فى حرّيتى بضمير الغير؟.. اسلكوا بحيث لا تسببوا عثرة لا لليهود ولا لليونانيين ولا لكنيسة الله» (٣).

غير أن الشك يجب ألا يطول عهده لأن الحياة لا تحتمل إرجاء. وإذن يجب على كل حال أن نلجأ إلى ضمائرنا ونوقف الفعل أمامها، ونفحص حقيقته فى ذاته ثم بواعثه ووسائله وغاياته ونتائجه. فإذا إنتهينا إلى حكم ووجدنا به مخرجا من الشك الذى إنتابنا، وجب أن نفعل وفقا لهذا الإرشاد الباطنى.

وإن لم يقو هذا البحث أو الفحص على إزالة الشك، كان لنا أن نلجأ إلى مرشد ثقة يقنعنا ويطمئنا. فإذا لم نجد فى كلماته ما يقنع وجب علينا أن نلجأ إلى غيره. على أن لا يكون مبعث ترددنا وإختلافنا إلى كثرة من المرشدين هو تخلّصنا من تأديب صارم نستحقه أو محاولة فرارنا من واجب ألزمنا المرشد القيام به. كما يجب ألا يكون ذلك مصدره قلق أو وسوسة، فإن الوسوسة حالة مرضية لا سوية فيها لا يجد الموسوس مقنعا له فى كلام المرشدين جميعا.

ومع ذلك، فالقاعدة العامة أن ضمائرنا لا تلتزم بشئ من غير إقتناع كامل بوجوب القيام به. بيد أن الإقتناع حالة نفسية يتوقف الإعتراف بها على مدى إخلاص الشخص ونشدانه للحقيقة.

---

(١) رو ١٤: ٢٠

(٢) ١. كو ٨: ٤ – ١٣

(٣) ١. كو ١٠: ٢٧ – ٣٢

الضمير الضيق أو الموسوس

أولا: تعريفه هو نوع من الضمير المنحرف يتوهم إثما حيث ليس إثم ويخشى ما ليس بخطيئة كأنه خطيئة، أو قد تكون خطيئة عرضية فيحسبها خطيئة مميتة.

ثانيا: علامة الوسوسة : يمكن أن نستدل على الضمير الموسوس بالدلائل الآتية، إذا رأى الشخص أو مرشده أنها صفات مستقرة تلازمه كطبيعة ثابته.

(١) العناد : وصلابة الرأى وعدم الخضوع لرأى المرشد، وإنما يصرّ متشبثا على خطأ الفعل على الرغم من أن مرشده أبان له عدم خطئه، ومع ذلك يصعب عليه أن يقتنع بأنه مصاب بالوسوسة.

(٢) الحيرة والإرتباك والقلق المستمر : فلا يكاد يثبت على رأى أو يطمئن إلى إرشاد أو حكم، لا من قبل نفسه ولا من قبل مرشده، ولذا تجده يستشير كثيرين ولن يستريح إلى حكم أحد منهم بل يظل قلقا متحيرا على الدوام، وبدلا من أن تكون المشورة هدى لذوى الضمائر السليمة، تصبح لهذا الضمير الموسوس علة حيرة أكبر.

(٣) العبوسة المستمرة : لغير داع ولدرجة متجاوزة الحد، ثم النظرة المتشائمة إلى الحياة، والأفكار القاتمة الحزينة. لأن صاحب هذا الضمير يكون فى فزع وتخوّف شديد قبل وبعد كل فكر وقول وعمل، لأنه يتوهم فيه إثما إن لم يكن من حيث الموضوع فى ذاته فمن حيث الظروف واللواحق والملابسات التى أحاطت به.

(٤) إعادة الإعتراف، بخطأ سبق له أن إعترف به: لا لأنه نسى أو لأنه أغفل شيئا لم يكشفه لمرشده أو لأنه لم يتيقن من مباشرة الإعتراف به، بل لعدم ثقته فى مغفرة خطاياه، ولعدم إطمئنانه إلى حكم مرشده.

فالوسوسة فى صميمها، حالة من القلق أكثر منها ضلال أو خطأ فى الحكم، وهذا القلق أو الإضطراب، إذا توخينا الدقة فى التعبير، لا يتعلق بالحياة العقلية، وبالتالى لا يختص بالضمير بعد. فهى بالحرّى أوهام فى المخيلة، نتيجة ثوران أو هيجان فى الحساسية.

ثالثاً: مضار الوسوسة الوسوسة حالة مرضية لا سوية، هى داء وبيل يجرّ على صاحبه أو المبتلى به أضرارا خطيرة وعواقب وخيمة وهلاك للروح والنفس والجسم. فأضرار الوسوسة روحية، ونفسية وعقلية وبدنية.

أ- : المضار الروحية :

(١) **فقدان السلام** : إذ الوسوسة فيها القلق، والحيرة، وعدم الإستقرار وفقدان السلام والطمأنينة. وبذا يكون المصاب بها معذبا، وبدلا من أن يكون الخير مصدر هنائه يصبح مبعث آلامه وشقائه.

(٢) **فقدان الرجاء** : أن الموسوس فى عذاب متصل، ولن يجد فى نفسه أو فى مرشده ما يدعوه لأن يطمئن. ولمّا كان الإنسان لا يمكنه أن يبقى طويلا على حالة عدم الثبات والإستقرار، فإن هذه الحالة لابد أن تسلمه إلى اليأس من نفسه، أولا: إذ يرى ذاته قاصرا عن إلتزام الفضيلة والصلاح، ثانيا : اليأس من رحمة الله تعالى لأنه لا يستطيع أن يتصور الله متسعا فى مراحمه حتى يحتمل كل أخطائه وتعدياته.

وكأن الوسوسة تنطوى على الشك وتسلم إلى فقدان الرجاء فى الله، وهو شّر روحى عظيم يكفل الإنحدار فى مهاوى الرذيلة. فالموسوس فى مرارة نفسه يضيق ذرعا بالشريعة التى جلبت عليه كل هذه الأحزان، فيركن إلى الإباحية والإستهتار تخلصا من هذا القلق المتصل وإمتدادا لحالة اليأس التى صار إليها، وقد ينكر وجود الله والحياة المقبلة بما فيها من حساب وثواب وعقاب، ويشرع فى مهاجمة الدين والأخلاق متهما الفضلاء بالنفاق والرياء. وهو يفعل ذلك كله يأسا من الدين الذى أشقاه أو إنتقاما من الفضيلة التى أثقلت كاهله بمطالبها فتمرد عليها، أو تجاهلا منه للقوة الروحية والحياة الأبدية لكيما يفسح لنفسه سبيل الشر والفساد بعد أن ضل طريق البر والرشاد.

وقد عرفنا من هذا الصنف كثيرين، عاشوا زمانا موسوسين فما لبثوا أن انقلبوا أشرارا مفسدين وملحدين عنيدين.

(٣) **فقدان كل أسباب التقدم أو النمو الروحى**: لن يرجى من الموسوس تقدم فى الروح أو نمو فى الفضيلة، لأنه مضطرب قلق، كل همه منحصر فى كيف يجتنب الإثم، لا يستفيد من نصيحة ناصح أو إرشاد مرشد، إذ هو متكبر لا يقنع بمشورة من أحد. وصلاته جديبة ضحلة، لا عمق فيها، لأنها ثمرة ذهن شارد وعقل زائغ وقد تسلم الوسوسة إلى الكبرياء وإلى الأنانية ومحبة الذات.

ب - المضار النفسية والعقلية :

(١) إن الوسوسة قلق للنفس واضطراب للشعور وهّم للقلب وغّم للفؤاد ولذا فإن المصاب بها يصير حزينا عابسا، لا يجد بابا للسرور أو الهدوء النفسي. بل كثيرا ما يقع فريسة للضيق والحصر النفسي، وإنه ليكون متشائما متبرما بالحياة، لا يكاد يرضى بشئ، يكره الناس، بل يبغض نفسه أيضا، «لأن كل أيامه أحزان وعمله غّم، أيضا بالليل لا يستريح قلبه» (١)

(٢) ثم أن الوسوسة، بما تسببه من مشغولية الفكر، تجعل صاحبها شارد الذهن مبلبل العقل، عاجزا عن التفكير الهادئ العميق المستطيل، سريع التقلب، لا يكاد يثبت على حال، وقد يصاب بالجنون.

(٣) والوسوسة تؤدى إلى الفزع والجبن وفقدان صفات الشجاعة والجرأة لأن من يصاب بها يعتاد الخوف والهلع والتوقف المستمر، بسبب ما يتوهمه من الخطأ في كل فعل وقول وفكر.

(٤) كذلك المبتلى بالوسوسة رجل عاطل عن التفكير المجدى، والعمل المثمر، والقول النافع، ويخشى الإتجاهات الجديدة، ولن يصلح بحالة لزعامة أوقيادة، لأنه لن يكون سريع البديهة، حاضر الذهن، بعيد الأفق، واسع الحيلة، وهى الصفات التى يجب أن تتوافر للزعيم، والقائد، والمفكر.

(٥) هذا وإن المصاب بالوسوسة شخص عنيد، لا يقنع برأى، ولا يخضع لقول من ناصح، ولن يفيد ولن يستفيد، بل سيظل وحيدا فى رأيه، مكروها من الناس، لا يصلح لعشرة أو صداقة وربما يعطى صورة سيئة، ومثالا رديئا للأخلاق والدين. فيجعل الدين فى نظر الناس، مصدر قلق وحيرة وحزن وألم وهّم، بدلا من أن يكون مبعث راحة وعزاء وسلام.

جـ- المضار البدنية: وليس بخاف ما يحدثه القلق والفزع والغم الشديد بصحة الإنسان. إنها تفعل فى الجسم فعل السم الزعاف: لأنها توهن القوة، وتتلف البنية، وتفسد الدم، وتشل نشاط الأعضاء، ترهق الأعصاب، وتنهك الأنسجة، وتهّد كيان البدن. وهذا أمر نستطيع أن نلحظه بسهولة فى المصابين بالوسوسة: فصحتهم معتلة وأجهزتهم مختلة، قال الحكيم «الغم فى قلب الرجل يحنيه» (٢).

---

(١) جا ٢ : ٢٣ (٢) أم ١٢ : ٢٥

رابعاً: أسباب الوسوسة: هذه الأسباب: إما طبيعة أو ميتافيزيقية (عالية عن الطبيعة).

أولا: الأسباب الطبيعية: والطبيعية منها الفطرية، ومنها المكتسبة.

(أ) الفطرية : والأسباب الفطرية:

(١) أحوال موجودة فى طبع الموسوس منذ الإبتداء، بناء على استعداد خُلق بـه. وهى أحوال مرضية، عضَوية، وراثية، كما فى حالة تهيج عصّبى شديد، وحالات الأنيميا Anémia وفقر الدم أو الأنيميا المخية. أعراضها : خيال خِصب فوق الحاجة، حساسية متسلطة، رقة سابقة لأوانها، مغالاة فى عادة الملاحظة الباطنة، ضعف فى الحكم.

(٢) المصابون بالماليخوليا Melancholia (المرض السوداوى) وهو من الأمراض التى يعتقد أنها مجبولة فى طبيعة من يبتلى بها. ويلاحظ فيمن يكون عرضة لهذا المرض أنه أنانى مرهف الحس، مضطرب مغال فى استبطان نفسه، سريعا ما ييأس ويفشل لأقل ما يدرك حياته من مشكلات. ومن أعراض هذا المرض: الخوف والقلق، واللوم الذاتى، والكآبة العميقة، والتشاؤم، والتذبذب والتردد، واليأس، وطلب الموت بإلحاح، وقد ينتحر المصاب به تخلصا مما هو فيه من قلق وبؤس (١).

(٣) ضعف العقل، فإذا كان العقل ضعيفا لم يقو على التمييز ووزن الأفعال والأقوال وزناً صحيحا سليماً، يمكنه ـ على أساسه ـ أن يقدر قيمة الخطأ فلا يقع فريسة للأوهام والهلوسات والتصورات الباطلة.

(٤) ضعف الإرادة، نعم فبعض الناس قد فقدوا إرادتهم، أى أنهم أصيبوا بمرض فقدان الإرادة، فأصبحوا مترددين، والتردد هو عجز الشخص عن أن يجزم أمره أو يجمع نفسه على رأى ما، ولذا يدركه القلق والحيرة والإضطراب.

(ب) الأسباب الطبيعية المكتسبة:

(١) **المغالاة فى التخوف من الخطأ**: إذا بالغ الشخص فى تخوّفه من الشر، تولاه الفزع من كل مايؤدى إلى الخطأ من قرب أو من بعد. ولذا فهو دائم التفكير فى كل حركة أو

---

(١) راجع «شفاء النفس» للدكتور يوسف مراد القاهرة ١٩٤٣ ص ٦١

قول، وهذا ما يعرقل حياته عن كل صلاح وتقدم، بل إنه سيفشل حتما ويرجع القهقرى وفقا لقانون الجهد المعكوس (١).

وعلى كل فإن هذه المبالغة في التخوف تسبب الإضطراب والقلق والحيرة والتردد، وما إلى ذلك من عناصر الوسوسة.

(٢) محاولة تبرئة نفسه من كل خطأ وشبه خطأ: فقد تتسبب الوسوسة عن روح غطرسة وكبرياء تتملك الموسوس فيحاول تبرئة شخصه من كل خطأ يلام عليه في القول والفكر والفعل، ولمّا كان ذلك في غير مقدوره، فلا مناص من أن تدركه الوساوس والأوهام، وأنواع التخوف والإضطراب. وقد تبدو كبرياء الموسوس في محاولته الحصول - في كل شئ - على اليقين الذي ينتفي منه كل نوع من الشك.

(٣) معاشرة الموسوسين : للأمراض الروحية والنفسية عدوى كما هو الحال في الأسقام البدنية وكما أن الخوف إذا استولى على فرد قد ينتقل منه إلى آخر، كذلك الوسوسة وتوهم الخطأ فيما لا خطأ فيه قد تؤثر على فرد بمعاشرة من يبتلى بها.

هذه المعاشرة قد تكون مصاحبة لصديق، أو ملازمة لكتب ومؤلفات المتزمتين، أو متابعة لمرشدين متشددين أو مصابين بالوسوسة.

---

(١) قانون الجهد المعكوس Law of Reversed Effort يراد بهذا القانون أن الذي يتعلم ركوب الدراجة مثلا إذا رأى في طريقه حجرا فإن كل محاولاته لتجنب الإصطدام بالحجر تذهب هباء، وإنما تؤدي إلى عكس ما يريد، فجهوده التي يبذلها في محاولة تفادي الخطر وعدم الإصطدام بالحجر، لا تفلح إلاّ في توجيه الدراجة للإصطدام بالحجر.

وتفسير هذه الحالة الغريبة: أن الحجر جذب انتباه الشخص، وأثار إنفعاله، فخضع لإيحاء مرجعه إلى الخوف من الإصطدام بالحجر، وقوى أثر الإيحاء في نفسه حتى أيقن من حتمية وقوعه، فتوجهت نفسه وحركاته نحوه، حتى اصطدم به.

وليست هذه الواقعة، كما يقول بودون Baudouin خير مثال يمكن أن ينطبق على جميع العقبات التي تصادفنا في الحياة، وهو يعرّفه بقوله: عندما تحتل العقل فكرة ما، إلى حد أن تثير فيه إيحاء ما، فإن كل الجهود يبذلها المرء شاعرا واعيا ليجنب نفسه أثر هذا الإيحاء، لا تحقق النتيجة المطلوبة منها، ولكنها في الواقع تجري على عكس رغبات المرء الشعورية، وتميل هذه الجهود إلى توكيد الإيحاء وتقويته.

ويعرّفه وليم برون W. Brown بتعريف أخر، هذا نصّه: «كلما حاولت أن أقوم بعمل، قد أوحي إلي بأني عاجز عن القيام به، كلّما أخفقت محاولتي، ولكني إذا حوّلت ذهني عن الفكرة الموحي بها إليّ، فإني أستطيع أن أفعل ما أشاء».

فالعقل بعد الإيحاء يكون في حالة تنويم مغناطيسي أو حالة إنقسام مؤقت للشخصية، نشأت عن قوة الخيال، وتسلط الخوف الشديد عن عدم القدرة على مواجهة الموقف وإمكان التغلب عليه.

(٤) **كراهية الناس** : وكما تكون معاشرة المبتلين بالوسوسة سببا للإصابة بها، كذلك يتعرض لها هؤلاء الذين يكرهون مخالطة الناس ويحبون الإنطواء على نفوسهم، فإنهم يجدون من عزلتهم فرصة للتفكير والإمعان فى التفكير فيما يتصل بحركات نفوسهم وحالاتهم الشعورية، مما قد ينشأ عن المغالاة فيه، هذه الحالة التى نسميها بالوسوسة.

(٥) **نقص فى الثقة بمراحم الله** : فيشك فى إمكان مغفرة خطاياه ومن ثم يتولاه الحزن والقلق واليأس.

الأسباب الميتافيزيقية أو العالية عن الطبيعة:

(١) **تخلى العناية الإلهية** : إن تخلت العناية الإلهية عن شخص صار كأعمى فقد النور أو كسفينة تخبط فى البحر بلا هدى، فلن يجد سبيلا لنفسه يسلكه آمنا من الزلل، فيضطرب متحيرا.

وإذا تخلت العناية عن شخص، فذلك لأنه أهمل نفسه أو أهمل وسائط النعمة وطريق الخلاص، أو أنه قد بالغ فى المعصية حتى تقسى بها قلبه، أو لأنه قد ظن فى نفسه أنه فى غير حاجة إلى عناية الله. وربما يكون هذا التخلى لزمن محدود بقصد التأديب كما كان الحال بالنسبة إلى نبوخذ نصر، وقد يكون مدى الحياة أو البقية الباقية من العمر، كما حدث مع شاول.

(٢) **حِيَل وطُرق الشياطين** : فإذا تملك الشيطان على شخص لأنه سلّم نفسه لإرادته أو لأن نعمة العلىّ تخلّت عنه، فإنه يشرع فى إزعاج المتسلط عليه بخلق أوهام فى فكره، وإظهار شناعة خطيئته بصورة بشعة، أو بتذكيره بعظيم العقاب الذى يستحقه، وحشد ذهنه بصور وأفكار متنوعة عن جهنم والعذاب الذى سيلاقيه، وربما يطرحه فى اليأس من خطاياه ومن إمكان نوال الغفران عنها.

وهذا يفعله الشيطان ليجعل الشخص فى حيرة من أمره، وفى خوف وفزع وقلق ويأس وقنوط وطلب مستمر للموت، وقد ينهى أجل حياته بيده، فينتحر.

خامساً: علاج الوسوسة : المرشد فى سر الإعتراف، هو الطبيب الروحانى الذى يجب عليه أن يعالج هذا الداء الذى يهلك نفوس المصابين به.

وأول ما ينبغى على المرشد، هو أن يفحص حالة المعترف جيدا لئلا يتسرع فى حكمه على المعترف، فيظن أنه موسوس وهو ليس كذلك، بل إن ضميره حىّ ينخسه بشدة على خطيئته.

لابّد من أن يلاحظ المرشد ما إذا كان المعترف محقا فى قلقه واضطرابه وألمه، أم أنه متوهم ولغير داع. وهذا يكون بالنظر إلى عدة إعترافات، لاحظ فيها المرشد أن المعترف عنيد، متردد، متقلب، حائر، متشكك، متشائم، يائس.

وإذن فعلى المرشد، أى الكاهن المعّرف، أن يكون مهتما بالخاطئ المعترف، دقيق الملاحظة، قّوىّ الذاكرة، طويل الأناة، حليما، بطئ الحكم.

يقول إبن سيراخ «لا تنمّ قبل أن تفحص . تفهّم أولا ثم وبخ، لا تجاوب قبل أن تسمع، ولا تعترض حديث أحد قبل تمامه» (١) .

ثانيا - يلزم المرشد أن يفحص أيضا سبب الوسوسة ونوعها: هل هى تتصل بالأفكار الشريرة، أم بالفعال والتصرفات، أم بالإعترافات، إذ أن كل حالة تقتضى علاجا من نوع خاص.

أما من وجهة **الافكار الشريرة**، وتواردها على الفكر (العقل) فيجب أن يبين المرشد للمعترف أن الخطأ هو فى قبولها والتلذذ بها، لا فى مجرد ورودها على الخاطر، وقد قال شيخ: إنه ليس كلما تحركت الأفكار الشريرة علينا نحسب ذلك خطيئة علينا، بل إذا نحن قبلناها وعملنا بها كتبت علينا خطيئة. ويقول المثل الصينى: «إنك لا تستطيع أن تمنع الطيور من أن تحلق فوق رأسك، ولكنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشش فى شعرك».

وأما الأفعال التى يتوهم المعترف خطأها، فيجب أن يعرفه مرشده أن لا يعتبرها شريرة إلا إذا كان الخطأ فيها واضحا أمام نفسه، وما لم يكن قد سقط فى الإثم فعلا. وإذن فيمكنه أن يفعل كل ما لا يظهر له واضحا ويقينا إنه خطأ. فإذا قصّر فى أمر لم يكن فى مقدوره أن يتلافاه، فهو معذور ولا جناح عليه فيه، فالمقيد أو المسجون أو المريض لا يمكنه مثلا أن يحضر خدمة القداس الإلهى، أو أن يتناول من الأسرار المقّدسة، أو أن يخدم أحد، وعلى ذلك فإعتقاده بأنه مخطئ فى عدم قيامه بهذا كله أو بعضه، لا يجعله مخطئا أو مسئولا.

وأما من حيث **الاعترافات** فإن بعض الموسوسين لا يطمئن إلى اعترافه السابق، ولذا فإنه يردده على مسامع الكاهن مرة أو مرات. فعلى المرشد أن يطمئنه من جهة غفران خطاياه عما سبق وإعترف به وأن يمنعه من الإعتراف بخطأ قد إعترف به فى مرة سابقة، إلاّ إذا كان قد سقط فى الخطيئة عينها مرة أخرى، أو أنه قد ارتكب الفعل ثم أهمل أو نسى أن يعترف به فى المرة الأولى، فحينئذ فقط يسمح له الكاهن بترديده بشعور التوبة الصادقة.

---

(١) يش بن سيراخ ١١: ٧، ٨

ثالثا : يجب على المرشد أن يقف من المعترف موقف العطف فى غير ضعف، والحزم فى غير عنف، فإذا قبل منه إرشاده إنتفع به، وإلاّ فإن المرشد يجب أن يقنع (المعترف الموسوس) بوجوب الطاعة والخضوع له ولنصائحه من أجل خلاص نفسه. إذ لمّا كانت الوسوسة مرضا، اقتضى علاجها بوسائل قد لا تبدو للمعترف أنها مناسبة، ولكنها مع ذلك نافعة له، ومن ذلك أن الكاهن يجب أن يمنع تلميذه من الإعتراف بالأفكار التى لم يرتضها، والأعمال التى لم يأثم فيها إثما واضحا، والأمور التى سبق له أن إعترف بها، فإذا لم يطع وجب أن يبكته، ويوبخه، ويعرفه قيمة الطاعة، مذكرا إياه بأن الطاعة للكاهن طاعة لله نفسه، إذ قال السيد المسيح «من أطاعكم فقد أطاعنى، ومن احتقركم فقد احتقرنى» (١) «وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كوثنى وعشار»(٢).

المعترف : إن الموسوسين هم فى الغالب المسئولون عن سوء تطّور أو تفاقم أحوالهم، لأنهم لا يرتضون أن يستخدموا، بطريقة ثابتة منظمة وسائل العلاج التى تعرض عليهم أو ترسم لهم، لأنه كما أن علاج المريض بالمرض الجسدانى يقتضى إستعداد المريض للعلاج وقيامه بتنفيذ إرادة الطبيب ونصائحه، هكذا فى الطب الروحانى، يجب أن يركن المريض لمرشده، ويقتبل نصائحه بإقتناع، ويقابلها بعميق الثقة والإتضاع ويقاوم وساوسه، ولا يلتفت إليها، ولا يسترسل فى فحص نفسه وتأمل ذاته، عالما أن اصراره على عدم الطاعة لمرشده سيكون سببا فى استفحال دائه وإزدياد قلقه وإضطرابه، كالمريض الذى يرفض الدواء فليس يرجى له شفاء وإنما المرض يقتله رويدا رويدا حتى يقضى على حياته بالتمام.

عليه أيضا، أن يصلّى معتمدا على نعمة الله، لا على برّه الذاتى ممتلئا من الرجاء الوطيد فى رأفة الله ومحبته، ملاحظا ومراعيا على الخصوص الأسس العامة والقواعد الرئيسية التى يجب أن يلتزمها الفعل الخلقى.

ثم يجب أن يقاوم الفراغ والتعطل عن العمل ما أمكن، لكى ينشغل عن وساوسه إلى ما هو أجدى وأنفع لبناء نفسه.

وأخيرا، فليعرض نفسه على طبيب ماهر، إذا لزم الأمر، إذ قد رأينا أن الوسوسة قد تتسبب أحيانا عن أمراض عضوية، وهناك من الضيق أو الحصر النفسى ما يرجع إلى إجهاد عصبى أو إرهاف فى الحس، أعراض يمكن علاجها بوسائل طبيعية بحتة.

---

(١) لو ١٠: ١٦ (٢) مت ١٨: ١٧

الضمير الواسع

الضمير الواسع، على نقيض الضمير الضيق أو الموسوس، يحكم بجواز مالا يجوز أو هو متساهل يستهين بالخطأ، ولا يراه إلاّ فى المخالفات الجسيمة، ومن ثم فإنه يحاول تبرير الخطأ واختلاق الحجج التى بها يؤيده أو يجوزه.

ويندرج تحت هذا النوع من الضمير، الضمير المخدّر أو النائم أو الفاقد أو المعدوم أو الميت، وهو ضمير يستخف بالآثام الكبيرة والشرور العظيمة ولا يحس أو يشعر بوخز عليها.

ويندرج تحته أيضا، الضمير الفريسى، وهو ضمير يتسع ويضيق حسب الحاجة، فيتسع للكبائر ويضيق عن الصغائر، أو يكون على الأقل واسعا أحيانا ضيقا أحيانا أخرى. ويسمّى بالفريسى نظرا أو نسبة إلى الفريسيين الذين وصفهم سيدنا بأنهم يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل، الذين يعشرون النعنع والشبث والكمون ويتركون أثقل الوصايا: الحق والرحمة والإيمان. (١)

مضار الضمير الواسع: الضمير الواسع يؤدى بصاحبه إلى أن يستمرئ الشر، ويلتذ بالخطيئة، ويفقد كل إحساس نحو الإثم، فيقتبله كما يشرب الماء (٢).

والضمير الواسع يوّلد قساوة القلب والتجبر، إذ يفقد صاحبه العواطف والمشاعر والوجدانات، ويصير ظالما، بل إنه يسبب لصاحبه عمى العقل، فيفقد القدرة على التمييز.

وذو الضمير الواسع قريب إلى الهلاك. قال السيد المسيح «ادخلوا من الباب الضيق، لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه» (٣) ويقول الرسول «ولكنك بقساوتك وقلبك غير النادم، تذخر لنفسك الغضب ليوم الغضب، وإعلان قضاء الله العادل» (٤).

أسباب الضمير الواسع :

(١) إهمال الصلاة، وفتور القلب.

(٢) المعاشرات الرديئة وإطالة التأمل فى الأمور القبيحة والأمثلة الشريرة والكلمات المبتذلة فبهذا يألف الضمير الخطيئة ولا يعود ينزعج لها.

(٣) الإستهانة بالفضيلة أو الرذيلة، ومخالفة الضمير.

(٤) مباشرة الشر نفسه، فإن الضمير يبكتنا عليه لأول مرة، فإذا فعلناها ثانية قل قدحه عليه، وهكذا حتى يتسع الضمير ولا يشعر نحو الخطأ بأى إمتعاض.

---

(١) مت ٢٣ (٢) أى ١٥ : ١٦ راجع أيضا أى ٣٤ : ٧، أم ١٩ : ٢٨، أى ٢٠ : ١٢، ١٣

(٣) مت ٧ : ١٣ (٤) رو ٢ : ٥

(٥) الإنهماك فى الملذات فإنه يضعف قوة النفس، ويصيبها بالرخاوة واللين ويخدر الشعور، ويقتل الإحساسات النبيلة والعواطف الراقية.

علاج الضمير الواسع:

(١) الفرار من المعاشرات الشريرة، والكتب الساقطة والأماكن الضارة.

(٢) القراءة ومداومة الإطلاع فى الكتب الخلقية النافعة. ومعاشرة الأبرار والصديقين لترقية الشعور وتنبيه الضمير الذى خدرته الخطيئة.

(٣) المواظبة على الصلاة بإتضاع والتعبد لله بالتسابيح والأصوام.

(٤) التأمل فى العواقب والنتائج لكل فعل جميل وقبيح.

(٥) محاولة تذكر الموت والدينونة والحساب على الدوام. يقول يشوع بن سيراخ: «فى جميع أعمالك اذكر أواخرك فلن تخطئ إلى الأبد» (١).

(٦) مباشرة الأسرار كالتوبة، والتناول، ومسحة المرضى.

قضية عامة: صاحب الضمير الواسع قد يخلو من مسئولية الفعل، إذا لم يفعل خلافا لضميره، ولكنه مسئول مع ذلك عن إهماله ضميره إلى هذه الدرجة التى أوصلته إلى أن يجيز لنفسه ما لا يجوز.

الضمير بين الإحتمال واليقين

إذا كنا نبغى إدراك غاية خلاصية، فلابدّ أن تكون الوسيلة إليها خيرة ومشروعة على نحو مؤكد ويقينى، إذ أن إحتمال الخير فيها لا يكفى وقد يعطل عن تحصيل الغاية المنشودة. فأسرار الكنيسة وهى ينابيع الخلاص لا يجوز مباشرتها على غير النحو الذى وضعه المسيح فى شريعته وسلّمته لنا الكنيسة. وكل محاولة شخصية، تنحرف عن الشريعة فى الشكل أو الموضوع، ولو كانت فى نظر صاحبها محتملة ومقبولة، تهّدد سلامة السر، وقد تعطل المرء عن نوال الخلاص.

وهكذا يجب فى سائر الأمور التى يتوقف عليها خلاص النفس ومصيرها الأبدى، كالإيمان بالله وبالدينونة وبالحياة الآخرة، أن لا نرتكن على أحكام محتملة مطلقا، وإنما يجب أن نسعى لنبنى طرق خلاصنا على أسس يقينية مؤكدة ثابتة لا ينفذ إليها الإحتمال من بين يديها ولا من خلفها.

وليس ذلك فقط بل كل ما يحتمل أن يؤدى إلى هلاك النفس، يجب أن نحجم عنه حتى نتبين على وجه يقينى أنه لا يعطلها عن الخلاص.

(١) يش بن سيراخ ٧: ٤٠

كذلك فيما يتصل بحياتنا على الأرض، لا يجوز أن نقدم على أمر يحتمل فيه أذى لنفوسنا أو نفوس الآخرين: في الروح أو في العقل، أو في البدن:

فلو أن طبيبا رأى مريضا فألفاه يئن متوجعا، وظن أن يريحه بدواء يقضي على حياته، لكان الطبيب متعديا بل جانيا وقاتلا، لأن بقاء روح المريض، فيه احتمال بإمكان شفائه، ولو بمعجزة إلهية. فليس له أن يقدم على أمر يحتمل أن يكون شرا.

ولو أن صيّادا رأى شبحا من بعيد، ولم يستطع أن يميزه أحيوان أم إنسان، أو قل ترجح لديه أنه حيوان. فلا يجوز له أن يصوّب السهم نحوه، مادام هناك احتمال لديه ـ ولو ضعيف ـ بأنه إنسان.

يجب إذن أن تركز ضمائرنا على يقينية كاملة في كل أمر يكون الإحتمال فيه خطرا على حياتنا أو حياة الآخرين، من جهة الأرض أو من جهة السماء، وفي هذا ينبغي أن نلتزم الشريعة في نصّها وفي روحها، بما يتفق عليه جمهور الشّراح والمفسرين المعتبرين في الكنيسة. فإذا لم يتوفر لنا اليقين وجب أن نتوقف عن الفعل، وإلاّ فإننا نأثم طالما أن هناك إحتمالا بالرأي المضاد. أما إذا كان الإحتمال خارجا عن حدود الفعل، فلا عبرة به: كسائق سيارة عمومية يحتمل أن يدوس إنسانا، ولكن لابّد له من الخروج بسيارته، فإذا هو وجد ذاته في المأزق عينه، ثم حاول بكل قدرته أن يتجنبه، ومع ذلك فقد مات المدوس، فلا جريرة له في ذلك من حيث خروجه بسيارته مع إحتمال إصابة أحد، إلاّ إذا كان يعلم أن بسيارته عيبا ولم يصلحه.

هذا فيما يتعلق بضرورات الخلاص أو الحياة ـ روحية كانت أو جسدية. أما فيما عدا هذه الحدود، فإن الشخص قد يجوز له أن يفعل ما يبدو أو ما يظنه صوابا، على شرط أن لا يكون فعله ضد الإيمان، وعلى شرط أن لا يشك في صواب فعله، وعلى شرط أن لا يرى في هذا الفعل شرا أو شبه شر.

أما **أولا** : فيقول القديس أوغسطينوس «ما لا يثبت أنه ضد الإيمان أو الآداب، فحقه أن يعد مجردا «أي أنه يجوز أن يفعل مادام لا يخالف قاعدة مشهورة من قواعد الإيمان، ويقول بعض اللاهوتيين: «يمكن أن يكتفي الفرد برأيه مطمئنا إليه، إذا لم يكن معارضا لقضية أكيدة أو شهادة معتبرة».

أما **ثانيا** : فلأن الرسول يقول «سعيد من لا يلوم نفسه على شئ يراه في نفسه صوابا وكل ما لا (يفعل) بإيمان فهو خطيئة» (١) . فكل أمر نفعله، ونحن في شك من صحته أو صوابه، نخطئ في فعله، لأننا بهذا نكون قد انتوينا الخير والشر معا، أي أننا على كل حال قد انتوينا الشر

---

(١) رو ١٤: ٢٢، ٢٣

في فعله، وانتواء الشر إثم لا محالة، فإذا لم يكون انتواء للشر، فهو إهمال وإستهتار بإلتزام قواعد الخير، وهذا أيضا شر. يقول الرسول: «... إن البعض، تبعا لفكرتهم عن الوثن، يأكلون كما لو كانت الذبيحة قربانا للوثن. ولمّا كان ضميرهم ضعيفا فإنه يتنجس» (١).

أما **ثالثا** : فلأن الفاعل إذا رأى في الفعل شرا أوشبه شر، ومع ذلك أقدم على الفعل كان اقدامه على الشر عن علم، فهو غير معذور، أما إذا كان الفاعل جاهلا بشر الفعل جهلا يتعذر عليه اجتنابه، فليس للشرع إلزام عليه، أى أنه يجوز له أن يفعل دون أن يعد فى ذلك مخالفا لضميره، ولو كان فعله مخالفا للشريعة فى ذاتها. يقول توما الأكوينى من فلاسفة الغرب المسيحيين «ليس يرتبط الفرد بوصية ما لم يكن يعرفها، ولكن ـ على العكس من ذلك ـ إذا هو فعل على غير ما يبدو له، كان مخالفا لضميره حتى لو كان فعله مطابقا للشريعة فى ذاتها لأن الضمير هو القاعدة القريبة للفعل الأخلاقى».

وعلى ذلك، فلا يحلّ لفرد أن يفعل بغير اقتناع، أو محمولا برأى غيره (فى كل أعمالك اقتد بضميرك)، حتى لو كان هذا الغير هو الكاهن أو المرشد فى سر الإعتراف، إلاّ إذا كان الأمر واضحا فى الشريعة، أما إذا كان أمرا ليس للشريعة فيه قول صريح، فليس للكاهن أن يجبر تلميذه على ضرورة الإنقياد لرأيه، إذا كان تلميذه مقتنعا تمام الإقتناع برأى يخالف رأيه، ويراه الكاهن رأيا محتملا «وأما هذا الضعيف فى الإيمان، فخذوه برفق دون خصام أو نزاع. فالواحد يعتقد أنه يمكنه أن يأكل من كل شئ، وأما الضعيف (فى الإيمان) فلا يأكل إلاّ بقولا» (٢)

على أن هناك أمورا يجوز أن يباشرها الإنسان لأن الشريعة لا تمنعها، ومع ذلك فإذا باشرها فعلا تسبّب عنها ضرر أو شر أو عثرة لواحد أو أكثر، من الناس، ولذلك يقول الرسول: «إذا كنت بأكلك شيئا من اللحم (الطعام) تحزن أخاك، فأنت لا تسلك بعد حسب المحبة. لا تهلك بطعامك شخصا مات المسيح من أجله.. فلنسع إذن فيما يبلغ بنا إلى السلام وإلى بنيان بعضنا بعضا، لا تهدم عمل الله من أجل الطعام. حقا إن كل الأشياء طاهرة، لكن (هناك) خطيئة على من يأكل فيعثر غيره. وإنه لخير أن لا تأكل لحما، ولا تشرب خمرا، وأن تمتنع عن كل ما يمكن أن يوقع (يسقط) أخاك أو يعثره أو يضعفه» (٣).

ويقول أيضا «يحل لى أن أستمتع بكل الأشياء، ولكن ليس حسنا أن أفعل ذلك دائما»(٤) ويقول : «لكن إحذروا لئلا تكون هذه الحرية التى تنعمون بها، عثرة للضعفاء بصورة ما، لأنه إن رآك أحد (منهم) يامن له علم، جالسا إلى مائدة فى هيكل للأوثان أفلا يتشجع ضمير من هو

---

(١) ١ ـ كو ٨ : ٧

(٢) رو ١٤ : ١، ٢

(٣) رو ١٤ : ١٥، ١٩ ـ ٢١

(٤) ١ ـ كو ٦ : ١٢

ضعيف، فيأكل مما قرّب للأوثان؟ فيهلك بمعرفتك (بعلمك) أخوك الضعيف الذى مات المسيح من أجله. وهكذا إذ تخطئون إلى أخوتكم وتجرحون ضميرهم، وهو ضعيف، تخطئون إلى المسيح. من أجل هذا، إذا كان ما آكله يعثر أخى، فلن آكل لحما على الإطلاق لكى لا أعثر أخى»(١).

ثم يقول : «يحل لى (أن استمتع) بكل الأشياء، ولكن ليس حسنا أن (أفعل) ذلك دائما. يحّل لى أن (أستمتع) بكل الأشياء، ولكن ليست كل الأشياء تبنى، فلا يسع الشخص لمنفعته الخاصة، وإنما يجب أن يسعى كل شخص (أيضا) لمنفعة غيره. كلوا من كل ما يباع فى الملحمة دون أن تفحصوا فيه من أجل الضمير، لأن للرب الأرض وكل ما تشتمل عليه. فإذا دعاكم أحد من غير المؤمنين للأكل، وأنتم تريدون أن تذهبوا، فكلوا من كل ما يوضع أمامكم دون أن تفحصوا فيه من جهة الضمير. ولكن إن قال لكم أحد (الناس) أن هذا قرّب للأوثان، فلا تأكلوا منه من أجل الذى حذركم منه ومن أجل الضمير.. وأقول «الضمير، لا ضميرك أنت بل (ولكن) ضمير الغير.. اسلكوا بحيث لا تسببوا عثرة لا لليهود ولا لليونانيين ولا لكنيسة الله، كما أرضى أنا أيضا الجميع فى كل شئ فلا أسعى مطلقا إلى منفعتى الخاصة بل إلى منفعة الكثيرين لكيما يخلصوا»(٢).

وإذن فالضمير لا يلتزم بشريعة يجهلها أو بشريعة مشكوك فيها. وكل شخص يجوز له أن يفعل ما يبدو له صوابا إذا لم يكن فى الشريعة ما يمنعه، وإذا لم ير فيه شرا، وإذا لم يدركه الشك فى صواب فعله.

* * *

أما فيما يتصل بأحكامنا على الآخرين، فيلاحظ:

أنه يجب أن لا نحكم على شخص بعقوبة إعتمادا على احتمال وقوع الشر منه، وإنما يجب أن نتثبت من ذلك حتى نصير متيقنين من إرتكابه الإثم، وإلا فلا تجوز عليه حكومة. مثال ذلك من يحكم بأن يوحنا المعمدان سقط فى خطيئة الشك فى شخصية المسيح، ارتكانا على احتمال وقوع الخطأ من يوحنا من حيث أنه بشر وجميع البشر قد أخطأوا !!

لا يجوز أن يحكم الكاهن أو المرشد بأن شخصا ما قد ارتكب خطأ مالم يتضح له يقينا أنه تعدّى أمرا إلهيا على نحو يقينى. أما الإحتمال فلا يكفى لتحميل التلميذ ثقل الخطيئة أو عقوبتها، ويقول بعض اللاهوتيين «إن المباحثة التى بها يتداول : هل يوجد خطأ مميت؟ فهذه يكون الحكم فيها مخطرا جدا، ما لم يوجد بذلك نص صريح من الكتاب المقدس أو قوانين الكنيسة، أو برهان واضح».

(١) ١. كو٨: ٩ – ١٣

(٢) ١. كو ١٠: ٢٣–٣٣

الوصايا العشر

بين العهدين

الوصايا العشر بين العهدين (١)

أولا نبدأ بتعريف علم اللاهوت

علم اللاهوت

كلمة اللاهوت مشتقة من اسم الذات العليا من اسم الله، وعلم اللاهوت هو العلم الباحث فى الله، غير أن البحث فى الله له جوانب متعددة.

١- علم اللاهوت العقائدى :

إذا تناول البحث فى الله العقائد الإيمانية، وعلى رأس هذه العقائد الوجود الإلهى، والذات الإلهية، والصفات التى تتصف بها الذات الإلهية، الصفات الذاتية والصفات النسبية، وما يتصل بالآخرة، الحياة الأخرى، وما يتصل بالإنسان، نفسه وتركيبه، كما يتضح من عقائدنا الإيمانية، ومركزه فى الكون، ونسبته إلى الوجود، وخلاص الإنسان، ومشكلة الخلاص. هذه كلها من فروع علم اللاهوت العقائدى. مانسميه بالسيكولوجى أى الخلاص، أما مايتصل بمصير الإنسان بعد الموت نسمية الاستاتولوجى، وهى علوم الآخرة، أو مصير الإنسان بعد الموت، المهم أن البحث فى الله إذا تناول العقائد الإيمانية، فهنا فى هذه الحالة نسميه باللاهوت العقائدى، وهو يميز عما يعرف باللاهوت النظرى.

٢- علم اللاهوت النظرى :

واللاهوت النظرى يتناول العقائد الإيمانية دون أن يستند فى إثباتها ومناقشتها، إلى نصوص الكتاب المقدس، إنما يستند إلى النظر العقلى دون الإعتماد على الأدلة الكتابية أو الإنجيلية أو النقلية (النصوص المنقولة من الكتب المقدسة ومن كتب الكنيسة) فاللاهوت النظرى هو الذى يعتمد فى إثبات الحقائق والعقائد الإلهية، على النظر العقلى، وهنا مدخل الفلسفة فى علم اللاهوت، وهذا يشير إلى التطور الذى صار بالنسبة للمباحث الدينية. وهنا نذكر فضل مدرسة الأسكندرية اللاهوتية، كما يسجل جميع الذين أرّخوا للمدرسة اللاهوتية فى الأسكندرية أن علماء مدرسة الأسكندرية هم الذين أسسوا علم اللاهوت، لأنه فى البداءة كانت الدراسات الدينية، فى المدرسة الدينية، مدرسة الأسكندرية التى أنشأها مرقس الرسول، وأقام لها يسطس رئيسا لها، هذه المدرسة كانت فى مبدأ الأمر تُدّرس أو تناقش المسائل الدينية بطريقة تلقينية، كما جاءت فى

---

(١) مجموعة محاضرات ألقيت لطلبة قسم اللاهوت بالقاعة المرقسية بالأنبا رويس فى العام الدراسى ٨٣/١٩٨٤، مفرغة من شرائط كاسيت.

الكتب المقدسة، دون أن يتناول الدارس النظر العقلى فى هذه العقائد الإيمانية، ولكن حدث بعد قليل أنه انضم إلى المسيحية، فلاسفة ومفكرون أفذاذ فى زمانهم، وبدخول هؤلاء الفلاسفة إلى الدين المسيحى صنعوا نقطة تحول، لأنه فى مبدأ الأمر، الناس لا يجذبهم الإعتماد لإثبات الحقائق الدينية على الكتاب المقدس، أو على النصوص النقلية، خصوصا وأن مدرسة الأسكندرية اللاهوتية كانت مضطرة إلى أن تدخل فى مساجلات ومناقشات مع المفكرين فى ذلك الوقت، وأكثر هؤلاء المفكرين كانوا غير مسيحيين، فكان لابد للمسيحية، من أجل أن تغذو العقل الإنسانى، أن تقدم حقائقها الإيمانية باسلوب نظرى، بعيداً عن النصوص، وقد تطور هذا النظر وهذا البحث وهو إثبات الحقائق الدينية بأدلة عقلية، مثل إثبات الوجود الإلهى، وإثبات الصفات التى يتصف بها الذات الإلهية، وأيضا شرح موضوع الأقانيم، وما إلى ذلك من حقائق دينية، حتى إثبات الخلود بالنسبة للإنسان، وإثبات القيامة، والرد على الإعتراضات، التى كان يثيرها المفكرون فى ذلك الوقت، ضد حقيقة قيامة الموتى، التى تبدو لهم فى ذلك الوقت غير معقولة، وغير مقبولة، بل ومرفوضة من الوجهة العلمية، على أساس أن الجسد يتحلل إلى عناصره الأولية، ويتحول إلى التراب، فكيف يمكن أنّ يصدق أن يقوم الإنسان من جديد، بعد أن يكون قد تحلل، فكان على المسيحيين أن يثبتوا هذه الحقائق الدينية بأدلة عقلية، وهذا ما صنعه أثيناغوراس الذى كتب كتابا فى قيامة الأجساد، وكان كلامة كلاما عقلانيا، ولم يستند إلى الكتاب المقدس فى الكلام عن قيامة الأجساد، وكذلك هناك مجالات أخرى، لإستخدام العقل فى الردود على كثير من الإعتراضات، التى يعترض بها العقل الإنسانى على الحقائق الدينية المسيحية. هذا الفرع من فروع علم اللاهوت، نسميه اللاهوت النظرى. وهو لا يختلف عن اللاهوت العقائدى، إلا من جهة الأساليب ومستندات اللاهوت العقائدى دائما هو الكتاب المقدس، والنصوص النقلية، أما مستندات اللاهوت النظرى، فكلها مستندات عقلية، والنظر العقلى. أما من جهة الفحوى والمضمون للاهوت العقائدى فهو نفس الفحوى والمضمون للاهوت النظرى وهو إثبات العقائد الإلهية.

٣- علم اللاهوت المقارن :

ويدخل فى دائرة علم اللاهوت المقارن مقارنة الدين المسيحى بغيره من الأديان المعروفة، سواء كانت القديمة التى انقرضت، أو القائمة فى الزمان وفى المكان، لابد أن يكون هناك بحث ودراسة، للأديان القائمة، وبيان فضل الديانة المسيحية أو سموها على الأديان الأخرى.

واللاهوت المقارن له شقان الشق الأول، هو الدخول فى بحث مقارنة الأديان الخارجة عن الديانة المسيحية، وشق أخر لمقارنة المدارس الدينية الأخرى، لأنه على طول تاريخ الديانة المسيحية، حدث إنحرافات فى العقائد الإيمانية، وهذه الإنحرافات تحدث عنها الرسل أنفسهم، فى العصر الأول، فنجد شكوى الآباء الرسل باستمرار من الذين خرجوا عن الإيمان، كما يقول الرسول يوحنا «منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا» والقديس بولس الرسول كثيرا ما يشكو من المعلمين الكذبة، الذين دخلوا خلسة ليتجسسوا حريتنا فى المسيح، وكما يقول «من بعد ذهابى يدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية»، وكذلك يقول: «تجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب التقليد الذى أخذه منا» أو كما يقول «إنى اتعجب أيها الغلاطيون الأغبياء أنكم تنتقلون هكذا سريعا، بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر، غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوكم عن إنجيل المسيح» وحتى فى سفر الرؤيا سيدنا له المجد يكلم أساقفة آسيا الصغرى ويقول لبعضهم «إن عندك قوم متمسكين بتعليم النيقولاويين الذى أنا أبغضه» والقديس بطرس الرسول أيضا فى رسائله يشير، إلى معلمين كذبة يدسون بدع الهلاك، الذين دينونتهم منذ القديم لا تتوانى وهلاكهم لا ينعس، ويوحنا الرسول فى بعض رسائله يشير إلى هؤلاء الذين يقولوا بتعليم آخر، يقول «من لا يجئ بهذا التعليم فلا تقبلوه فى البيت، ولا تقولوا له سلام، لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة»، وكان فى زمانه بعض الناس انكروا أن المسيح جاء بالجسد، إلى آخر هذه الأشياء التى نجدها فى العصر الرسولى الأول، كذلك فى العصور الرسولية التالية مثل أريوس، والمانوية، وأيضا نسطور، وأوطاخى، ومن إليهم، وفى القرن الحادى عشر بعض الأخطاء التى وقعت فيها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بإضافة مثلا كلمة «والابن» فى قانون الإيمان: «الروح القدس المنبثق من الآب» أضافوا كلمة «والابن». وكذلك مزاعمهم أن الكنيسة مبنية على بطرس الرسول، وبالتالى مبنية على بابا روما، وفكرة المطهر، وفكرة صكوك الغفران، وهى الفروق التى أصبحت مع الزمن بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، ووصلنا فى القرن الثالث عشر إلى مارتن لوثر، الذى ثار على الكنيسة، وعمل إنشقاق جديد كبير، هذا الإنشاق لم يكتفى بأراء مارتن لوثر التى يسمونها المذهب اللوثارى أو الكنيسة اللوثارية، وإنما فتح مارتن لوثر بإعتراضه على كنيسة روما، الطريق أمام مذاهب أخرى، وفى زمن مارتن لوثر أصبح هناك أربعة مذاهب.

وفيما بعد إزدادت هذه المذاهب فأصبحت مذاهب كثيرة جدا، فيما يعرف بالكنائس الحرة، مثل البلموس والأخوة، الرخويين، والمبتعدين، مذاهب كثيرة وصلت مع الأسى والأسف نحو ١٠٠٠ مذهب من المذاهب البروتستانتية، وفى بلدنا هنا يوجد ٢٩ مذهب بروتستانتى، تضمها المؤسسة التى يسموها الطوائف الإنجيلية.

المهم فرع علم اللاهوت الباحث فى مقارنة الأديان، ينقسم إلى شقين، الشق الأول مقارنة المسيحية بغيرها من الأديان المعروفة، مثل اليهودية، ومثل الاسلام، وهى الأديان الكبيرة، ولكن يوجد شق ثانى وهو تعليم الكنيسة الأرثوذكسية، بإزاء بعض الهرطقات، أو المذاهب المختلفة، التى ظهرت على مدى التاريخ، إبتداءا من العصر الرسولى الأول، وبسببها الكنيسة أطلقت على نفسها اسم الأرثوذكسية، لكى تميز نفسها وتعاليمها، عن التعاليم الأخرى التى يعلم بها معلمون آخرون. الذين خرجوا منها ونسميهم بالهراطقة أو الخوارج، وتعبير الخوارج تعبير عربى سليم قيل أيضا على المذاهب الأخرى.

٤ – علم اللاهوت الطقسى:

إذا تناول العلم الباحث فى الله موضوع العبادة وطرائق العبادة وأسلوب العبادة فهذا هو اللاهوت الطقسى الذى يبحث فى تركيبات العبادة ونظمها، بحسب ما أمر الله، وبحسب ما نجده فى الكتاب المقدس، فمثلا رسم الله لموسى النبى كيف يبنى خيمة الإجتماع طولها وعرضها وتقسيمها الداخلى، وطريقة البناء ومكونات هذه الخيمة، وأيضا الطرائق: الصلاة والعبادة والسجود، والوقوف، وأيضا أن يكون هناك ما نسميه بالقبلة التى يتجه إليها المصلى، وهى عند المسيحيين الشرق، ولكن كانت عند اليهود فى العهد القديم هى الهيكل «أسجد أمام هيكل قدسك» لأنه عندما يكون الإنسان بعيداً عن أورشليم، فى بلاد أخرى، مثل العراق أو أى بلد آخر، كان المصلى مثل دانيال أو غيره، يتجه فى الصلاة نحو هيكل أورشليم.

الأصوام أيضا التى رسمتها الكتب المقدسة، والأعياد وتنظيم الأعياد، وإختيار الأيام... وأيضا فكرة المذبح، المبنى، وكيف يدشن، والكاهن ودرجات الكهنوت، والفرق بين إختصاصات الشماس، وكان يسمى لاوى فى العهد القديم، والكاهن ورئيس الكهنة... إلى آخر هذه الأمور التى تتناول العبادات وطرائق العبادات، والنظم والترتيبات، وكيفية تقديم الذبيحة، وأنواع الذبائح ذبيحة الإثم، وذبيحة الخطيئة، وذبيحة السلامة، والمحرقة. كل هذه تفاصيل تحدث عنها الكتاب المقدس هذا هو اللاهوت الطقسى.

لكن عندما دخلنا فى العهد الجديد، حدثت تغييرات، أو تكميل، فأصبحت لنا فى العهد الجديد طقوس جديدة، وأيضا هذه الطقوس أساسها الكتاب المقدس أو العهد الجديد، أو تعليم المسيح، أو تعليم الرسل، الذين جاءوا بعد ذلك.

المهم هذا الفرع الباحث فى العبادات، وفى الطقوس مستندا إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، هو ما نسميه باللاهوت الطقسى.

٥- علم اللاهوت التشريعي أو القضائي :

فإذا تناول العلم الباحث فى الله موضوع سياسة الكنيسة كمجموعة، سياستها فى تركيبها الداخلى، فى علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض، مثلا موضوع الزواج، علاقة الرجل بالمرأة، وكيفية الزواج، والمحارم وهى موانع الزواج بمعنى أن الإنسان لا يتزوج من صلة قرابة معينة، كيفية الزواج والخطبه، والعقد، وأيضا موضوع الطلاق، فى العهد القديم كان له حدود معينة، هذا الموضوع يتصل بالأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق، وكذلك الإرث والوصية، ثم المحاكمات فى حالات المخالفات، عقائديا أو من جهة الآداب على الأوضاع الدينية فما هو الحكم عليه، وكيف يحاكم، وما هى الأحكام التى تصدر؟ وهذه الأحكام مرتبة بحسب الدرجة، هذه الأمور نسميها اللاهوت القضائى أو التشريعى .

٦- علم اللاهوت الأدبى :

إذا تناولنا الأخلاقيات، والأخلاقيات بشقيها، أخلاقيات الإنسان نحو الله، وأخلاقيات الإنسان نحو الناس، وهذا ما نسميه بالآداب، ولذلك يسمى هذا الفرع باللاهوت الأدبى، لأنه ينظم الآداب التى يلتزم بها الإنسان نحو الله من جهة، ونحو الناس من جهة أخرى. وهذا فرع من فروع علم اللاهوت الأدبى، ولكن لماذا نسميه اللاهوت الأدبى؟ لأن هذه الآداب ليست من تفكير فلسفى، أو إنسانى، إنما موجودة فى الكتب المقدسة ومنصوص عليها بما يسمى بالشريعة الإلهية.

وهذه الشريعة الإلهية بدأت بما نسميه بالوصايا العشر، وهذه الوصايا العشر أمر الله بها فى العهد القديم، كتبها بأصبعه على لوحين، لوح مكتوب عليه أربع وصايا وهى تنظيم علاقة الإنسان بالله خالقه. واللوح الثانى عليه ست وصايا وهى تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، إبتداء من أبيه وأمه إلى الآخرين. فهذا ما نسميه بالوصايا العشر، وهذه الوصايا ليست من اكتشاف الإنسان، لذلك نسميها علم اللاهوت الأدبى لأن الله هو الذى أمر بها، وهنا نفرق ما بين علم اللاهوت الأدبى، وعلم الأخلاق. وهو ما يسمى بالفلسفة الأخلاقية، وهذا العلم يدرس فى المدارس فى بعض الأحيان. يدرسوا المبادئ العامة المتفق عليها عند جميع الناس مثل الأمانة، الصدق، الطهارة، العفة، الإعتدال، إلى آخر الصفات التى يكرّمها جميع الناس، هذه الآداب لا تستند إلى الكتاب المقدس أو غيره من الكتب، إنه علم إنسانى عام. ويتفرع من هذا ما يسمى فى اللغة الحديثة، بقواعد الإتيكيت، وهو الإلتزام بالآداب الإجتماعية فى وليمة أو على

مائدة، كيف يبدأ الأكل وكيف ينتهى، الآداب التى ينبغى أن يراعيها فى علاقته بالناس، كل هذه المسائل نسميها اتيكيت، وهى عبارة عن آداب إجتماعية، هذه الآداب أصبحت مواضعات إجتماعية ولو أن أصولها دينية إنما تحولت إلى مواضعات إجتماعية، بحيث أصبحت مثل اللغة، يتعلمها الطفل بالنقل عن أبيه وأمه دون أن يدرسها، ويتعلمها من المجتمع نفسه وقاموسه يكون الأول كلمة واحدة ثم كلمتين ثم ثلاثة وأربعة وكل هذا بالتلقين أو يتلقفها من المجتمع هذا ما نسميه بالآداب الإجتماعية ومن هنا نجد الفرق ما بين الشعوب وبعضها البعض، لأنه أصبحت هناك تقاليد لكل الشعوب مثل الشعب المصرى، الشعب الإنجليزى، الشعب الفرنسى... إلى آخره، هذه الشعوب لها اتيكيت وفيه اتفاق عام إنسانى على هذه الآداب أو القواعد الإجتماعية، ولكن هناك فروق فردية ومتغيرات من شعب إلى آخر. وهنا نفرق بين علم اللاهوت الأدبى وبين علم الأخلاق لأن علم الأخلاق يتناول القواعد العامة دون أن يسندها إلى الكتاب المقدس، بينما علم اللاهوت الأدبى يتناول نفس هذه المبادئ وغيرها ولكن مستندا إلى نصوص الكتب المقدسة.

هذا هو إختصاص علم اللاهوت الأدبى، أنه يهتم بالأخلاقيات، سواء أكان علاقة الإنسان بالله، أو علاقة الإنسان بالآخرين، سواء كانوا أعضاء الأسرة، الأب والأم والأخوة والأخوات، أو فى خارج هذه الدائرة أى فى الدائرة الإنسانية بصفة عامة. لكن كل شئ مبنى على الكتاب المقدس. وينسب إلى موسى النبى أنه أقدم من كتب أسفار الكتاب المقدس، وينسب إليه أنه كتب الأسفار الخمس الأولى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية. ويعد سفر أيوب ، ولو أنه فى ترتيبه فى الكتاب المقدس يكون متأخرا مع الأسفار التى نسميها الأسفار الحكمية لكنه يعد أقدم من موسى، ويعد معاصرا لإبراهيم جد موسى، لكن هناك مئات السنين ما بين إبراهيم وما بين موسى ولذلك يمكن أن يعتبر سفر أيوب أقدم الأسفار جميعا، لكن هناك فترة سابقة من آدم حتى أيوب وموسى، هذه الفترة لم تكن فيها كتب مقدسة مكتوبة. فكان الإعتماد فى ذلك على الوحى غير المكتوب.

ماهو الوحى غير المكتوب؟

هو ديانة آدم الأول، عندما نقول الديانة اليهودية، والديانة المسيحية، هذا التقسيم من وجهة نظر إجتماعية، نظرة تاريخية، نظرة الباحث الإجتماعى حينما يتناول فترات التاريخ فيقول الديانة الموسوية، والديانة المسيحية، لكن من الناحية الروحية والدينية واللاهوتية لا نوافق على هذا التقسيم إلا من وجهة تاريخية بحته، لأنه ليس هناك ديانة للمسيح فلم يأتى المسيح بديانة

جديدة، لا يوجد ما يسمى الديانة المسيحية بالمعنى الحقيقى للكلمة، المسيح لم يزعم أنه أتى بدين جديد، ولاموسى زعم أنه أتى بدين جديد، إنما المؤرخين وضعوا هذا التصنيف التاريخى، فموسى لم يأتى بدين، فقد وجد الدين من قبل أن يأتى، كل ماهنالك أن هناك إعلانات له إما لتفسير أشياء قديمة، أو تثبيتها أو إيضاحها، أو تشريعات للعصور التى سبقت، ولذلك فإن الديانة الحقيقية هى ديانة آدم الأول، حتى الديانة المسيحية نسميها ديانة آدم الأول، وحتى سيدنا له المجد عندما تكلم فى موضوع الطلاق، أجابهم «من البدء لم يكن هكذا لأن الله خلقهم ذكرا وأنثى» فردنا إلى آدم وقال من البدء لم يكن هكذا، فردنا إلى البدء، معنى ذلك أن المسيح لم يزعم أنه أتى بدين جديد، ولا موسى زعم أنه أتى بدين جديد، فهذا التقسيم الذى نقرأ عنه فى الكتب التاريخية، يعتبر نظرة تاريخية لحقبة معينة على مدى التاريخ إنما فى الواقع ليس هناك ما نسميه بالديانة اليهودية بالمعنى الحقيقى للكلمة، ولا الديانة المسيحية بالمعني الحقيقي ، هى ديانة واحدة. ولذلك تجد جميع الديانات إذا استخدمنا هذا التعبير الإجتماعى، لها أصول عامة واحدة، وقمنا بعمل بحث فى هذا الموضوع ووضحنا أن كل المبادئ الموجودة فى الكنيسة المسيحية، أو الديانة اليهودية، نجد نظائرها موجودة فى الشعوب الوثنية، وفى الفترة السابقة على موسى النبى، مثل فكرة الصلاة، فكرة الصوم، فكرة الأعياد، فكرة مكان معين يخصص للعبادة، فكرة أن هذا المكان يدشن، فكرة أن هناك قبلة يتجه إليها الإنسان، فكرة الأعياد، فكرة الكاهن والذبيحة والكهنوت، فكرة الصلاة على الراقدين، فكرة الصلاة على المتزوجين، فكرة الحج إلى أماكن معينة، كل هذه أصولها العامة واحدة فى جميع الأديان، مما يدل على أنه كانت هناك ديانة واحدة أصيلة وهى ديانة أبونا آدم الأول، آدم كان نبيا وأوحى إليه، فتلقى آدم وحده كيف يعبد الله، هناك حقائق لاهوتية تتصل بالعقائد الإيمانية بلاشك أنها أوحيت لآدم، وآدم كان عنده الوحى، واضح جداً إن ربنا عهد إلى آدم أن يسمى الكائنات والحيوانات والجمادات بأسمائها، والله لم يراجع آدم بكل ما سمى به آدم الحيوانات والطيور، فقد أيدها الله ولم يحدث مرة واحدة أن الله راجع آدم وقال له: لا .. أنت أخطأت، لأنه سبق فأعطاه السلطان أن يكون ظل الله على الأرض يشبهه ولا يساويه، وأنه عن طريق آدم تلقت البشرية العلوم الإلهية الأولى، ومن آدم مثلا عرف مبدأ الذبيحة، لأن أول من قدم ذبيحة كان آدم، ومن جلد هذه الذبيحة صنع الله ملابس وألبس آدم وحواء، وسترعورتهما، فأول من قدم الذبيحة هو آدم، وأول كاهن هو آدم، وأول نبى هو آدم، لأن النبى معناه ينبئ، وحتى كلمة «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويرتبط بزوجته» هذا الكلام كان يمكن أن لا يقال فى الكتاب المقدس، لو لم يكن آدم قاله بروح النبوءة على مستقبل الأيام، فإذن هناك وحى، هناك وحى قبل موسى، لم يكن موسى أول من أوحى إليه، طبعا من الواضح أن أبونا ابراهيم كان يتلقى من الله وحى، وكان يأمره ويقول له اعمل كذا وكذا، وكان الله يظهر لإبراهيم فى شكل ثلاثة رجال وكان ابراهيم يكلمهم،

فظهر الله له عندما قال له «اخرج من أرضك ومن عشيرتك إلى الأرض التى أريد»، وعندما كلمه أن يقدم ابنه اسحق ذبيحة، هذه لفتات صغيرة تبين أن ابراهيم كان يتلقى من الله وحى. إذن لم يكن موسى وحده هو الذى تلقى الشريعة، إنما آدم و ابراهيم و هابيل أيضاً. كل هؤلاء الآباء العظام الذين يسمونهم بطاركة، (كلمة بطريرك معناها رئيس أباء) البطاركة ابراهيم، اسحق، يعقوب، موسى، داود، حتى أننا نجد فى العهد الجديد، يقول ورئيس الآباء داود، فهؤلاء أيضا تلقوا وحياً من الله، وبالوحى كتب سفر المزامير كله وهو جزء من الكتاب المقدس، وهذه المزامير نفسها كان يرتل بها فى الكنيسة اليهودية، وأدخل داود النبى نظام الموسيقى، وأيضا تقسيم الكهنة إلى ٢٤ فرقة وكل فرقة يكون لها وقت من أوقات العبادة، كل هذه التنظيمات تدل على أن الوحى الإلهى لم يكن فقط لموسى وإنما لآدم أولا، وبعد ذلك للبارزين من أولاد آدم.

الوصايا العشر

ما نسميه بالوصايا العشر جاءت واضحة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج، عندما تجلى الرب بهيئته العظيمة، وبجلاله على جبل حوريب فى سيناء.

وسلم الوصايا العشر لموسى النبى على لوحين من الحجر، مكتوبة بأصبع الله، ولكن مع بالغ الأسى والأسف أن اللوحين حطمهما موسى وهو نازل من على الجبل، عندما رأى أن الشعب ضل وصنعوا لأنفسهم عجلا من ذهب وعبدوه، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أخرجتك من أرض مصر، فموسى النبى بحرارة روحيةٍ غضب جدا، فقد صوابه، فرمى اللوحين فانكسرا وتحطما، ومرة أخرى صعد موسى الجبل وسلم الوصايا العشر.

الوصايا العشر مكتوبة على لوحين، اللوح الأول فيه أربع وصايا، الوصايا التى يلتزم بها الإنسان نحو الله، واللوح الثانى عليه ست وصايا وهى الوصايا التى يلتزم بها الإنسان نحو الناس الآخرين خارجا عن ذاته.

الوصية الأولى:

فى وصايا اللوح الأول، الوصية الأولى «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامى».

معروف أن الوصية الأولى تدعو إلى عبادة الإله الواحد، وهذا الإله الواحد مُعرّف، حتى لا يتوه بنى إسرائيل فى معرفة من هو الإله الواحد، الذى أخرجهم من أرض مصر بيد شديدة، وذراع ممدودة، «أنا الرب إلهك، (يعرف نفسه) «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر

من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، كلمة «الرب» هنا في الواقع هي يهوه، و «يهوه» هو الإسم الشخصي لله، لأن الله ليس الإسم الشخصي، «الله» في اللغة العربية من «إله»، «يأله» بمعنى ما حيّر العقل، فكلمة الله أو ألوهيم في الكتاب المقدس، اسم نوع، وليس اسم شخص، موسى جرؤ علي أن يسأل الله فقال له عندما يسألني الشعب من الذى قال لك أن تخرج فبماذا أجيب فمن أنت؟ فقال له أنا يهوه، و«يهوه» كلمة عبرانية تفيد «أنا الكائن الدائم، الماضي والحاضر والمستقبل»، يهوه من فعل «أهيه» فعل الكينونة، وهو الفعل المضارع، كلمة يكون، و في العربية عندما نقول الكائن، معناها الذى هو كائن دائما، كائن في الماضي وكائن في الحاضر، وكائن في المستقبل. ولذلك في العهد الجديد في سفر الرؤيا نقول «الله هو الكائن والذى كان والذى يأتي»، وفي القداس الغريغوري عندما نوجه الكلام لله نقول: «أيها الكائن الذى كان، الدائم إلى الأبد» فهذا مأخوذ من كلمة يهوه بالعبراني معناها الكائن الدائم، الدائم هو الله ومعناه الكائن دائما، الكائن باستمرار، وكما قال سيدنا له المجد لليهود في يوحنا ٨ عدد ٥٨: «الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن». فهنا كلمة الكائن والكائن دائما هو الله، هذا معنى كلمة يهوه. ولكن لما كان هذا الإسم هو إسم الذات الإلهية، فاليهود فيما بعد أصبحوا يتورعون من أن ينطقوا اسم يهوه، بإعتباره أنه الإسم الذى لا ينطق به، لذلك نقول في القداس «الذى لا ينطق به» بمعنى أن لسان الإنسان لا يمكن أن يكون في درجة الطهارة، أو درجة الإستحقاق أن ينطق بالإسم الإلهي ذاته. حتى في اللغة العربية في بعض الأحيان، بدلا من أن يقول الله دائما باستمرار فلئلا يبتذل هذا الإسم العظيم، يقولوا اسم الجلالة، واسم الجلالة معناه واحد وهو الله، فهنا اليهود تأدبا من أن ينطقوا باسم الله المشخص «يهوه»، كانوا ينطقوا «أدوناي»، أمامه كلمة يهوه لكن ينطق أدوناي، وأدوناي معناها الرب أو السيد بالعبراني، ينطق الإسم نطقا خلاف المقروء، لأن القارئ يرى أنه ليس أهلا أن ينطق بإسم الذات الإلهية، لأن هذا هو الإسم الذى لا ينطق به، وكان النساخ اليهود عندما كان ينسخ، ويكتب اسم يهوه، لابد أن يغير الريشة، أو سن الريشة. وهذا علامة إجلال، ولابد أن يعتدل في جلسته، لأنه يكتب اسم ربنا، فليس من الأدب أن يكتب الإسم الإلهي وهو مائل بجذعه نحو اليمين أو اليسار أو يكون متكئا، فكان يعتدل في جلسته، فإسم ربنا متميز، كل ذلك علامة التقدير والإحترام وحتى لا يبتذل اسم الله، فكلمة «أنا الرب إلهك» عندما تبحث عنها في الكتاب المقدس في الأصل العبراني تجدها يهوه ولكن أصبح لا ينطق بها، ولذلك نجد اللغة الإنجليزية، يقول (THE LORD) إنما الفرنسية يقول (L'ÉTERNEL) و(L'ÉTERNEL) معناها الأزلي الأبدي وهو يهوه، لأن يهوه معناها الكائن دائما، أي الأزلي الأبدي، أو السرمدي ، ففي الوصية الأولى يقول «أنا هو الرب إلهك» وهنا

(الرب ـ ثم إلهك) . فيه إزدواج، الرب وإله، هنا تخصيص إلهك حتى لا يختلط فى ذهن اليهود أو بنى إسرائيل هذا الإله بآلهة أخرى، كان يعبدها شعوب أخرى، الرب هنا يهوه وإلهك الإله الذى تعبده، ليس عبثا أن يكون فيه إزدواجية فى التعبير، «الرب وإلهك» هذه مقصودة كلمة أنا هو الرب، وأنا يهوه، وإلهك، تمييزا عن الآلهة الأخرى كما يقول فى موضع آخر «للرب إلهك تتقى وإياه تعبد. وباسمه تحلف»، تتقى هنا بمعنى تخافه، تتقى غضبه، تتقى من التقوى، ومن هنا كلمة التقوى فى اللغة العربية معناها أنه يتقى غضب الإله.

للرب إلهك تتقى وإياه تعبد، وكلمة إياه هنا تخصيص حتى لا يعبد إله آخر من الآلهة الأخرى، وباسمه تحلف، وهذا هو السبب فى العهد القديم أن أبيح الحلف والقسم، على أساس أنه علامة تعبد لهذا الإله، كان القسم مباح فى العهد القديم، وسنرى عندما نصل إلى الوصية الثالثة أن القسم كان مباح كعلامة تبعية للإله، فهناك ضرورة من أجلها أباح الكتاب المقدس أو أباح ربنا بل أمر بأن يكون هناك قسم بالإله وحلف باسمه، علامة تعبد، وعلامة تبعية لهذا الإله وأنه لا يعرف غيره وكما نقول حتى فى القداس: «أننا لا نعرف إله آخر سواك» فأنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية لا يكون لك آلهة أخرى أمامى، وهنا إشارة إلى تعدد الآلهة الذى كان معروفا فى ذلك الوقت وفى ذلك الزمان.

الوصية الثانية :

الوصية الثانية من وصايا اللوح الأول: «**لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صنما** صورة ما فى السموات من فوق» هذا هو النطق بحسب النص العبرانى، وفى بعض الترجمات «ولاصورة» ولكن هى «لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صنما صورة ما فى السموات من فوق» لأن الأصنام لما عملت، عملت لكى تكون صورة، ما فى السموات، مثل قدماء المصريين عبدوا العجل أبيس، لم يعبدوا العجل ذاته، فهم لم يكونوا بهذه الدرجة من العقلية حتى يعبدوا عجل، لم يكونوا بهذا المستوى المنخفض حتى يعبدوا حيوان، ولكن اعتقدوا أن هذا العجل فيه قوة إلهية، أودع فيه الله قوة معينة، فهم عبدوا هذه القوة الموجودة بالثور ومعروف أن الثور رمز القوة. حتى أنه من وقت طويل كان الإعلان عن «الكينا» يصور ثور شايل الأرض كلها وما عليها، لأجل ذلك يقولون أن الدنيا كلها على قرن ثور، هذه صورة لأن الثور أقوى البهائم، وهذا هو السبب فى أن رأس الكاروبيم من أربعة أوجه، فالوجه الأول شبه أسد، والوجه الثانى شبه الثور، والوجه الثالث شبه النسر، والرابع شبه إنسان. ربنا سيد الطبيعة، والطبيعة فيها وحوش، والأسد يعد ملك

الوحوش، وفيها بهائم وهى الحيوانات الهادئة، وملك هذه البهائم هو الثور، وفيها طيور والنسرهو ملك الطيور، وفيها الإنسان، فالله هو سيد الطبيعة كلها، فقدم وسيلة إيضاح لسيادته على الكون كله، والكاروبيم هم حملة العرش يعطون صورة عن سيادة الرب على الطبيعة، لذلك كل واحد منهم له رأس، والرأس لها أربعة أوجه، صعب جدا أن الرأس لها أربعة أوجه، من ناحية شبه أسد، ومن ناحية ثانية شبه ثور ومن ناحية ثالثة شبه إنسان ورابعة شبه نسر.

فعندما عبدوا قدماء المصريين العجل أبيس لم يكونوا بلهاء بالصورة التى نحقرهم بها، خصوصا أبناء الجيل الحاضر عندما يتكلموا عن الوثنية بإحتقار، كيف يعبد الإنسان عجل؟ لم يعبدوا العجل كحيوان، إنما عبدوا القوة الإلهية التى يجسدها هذا الكائن. وهكذا أيضا عندما عبدوا النيل، وعندما عبدوا الجعران، الجعران يمثل حشرة لكن رأوا فيه رمزا للإله، لأنهم وجدوه يدحرج بيضته أمام الشمس، فوجدوا فى هذه الحركة معنى الأزلية والأبدية، الله أزلى أبدى لابداءة له ولا نهاية له، ولأجل ذلك الجعران فى مصر القديمة كان اسمه (خبر) وأصبح فى القبطى (شوبى) وشوبى معناها الكائن، الكائن دائما فكيف يعبد قدماء المصريين حشرة اسمها الجعران؟ لأ .. إنهم لم يعبدوا الجعران فى ذاته، إنما رأوا فى الجعران شيئا يشير إلى القوة الإلهية غير المنظورة، لأن الله غير منظور، إنما بعض صفاته تتجسد فى حيوانات، فاحترموا هذه الحيوانات على أساس أن فيها صفة من صفات الإله، نقول أيضاً أن قدماء المصريين عبدوا البقرة، هذه هى النظرة السطحية فى الموضوع، إنما هم رأوا فى البقرة أنها حلوب، فرأوا فيها فكرة الخصوبة والنماء، وأن منها نأخذ اللبن وأن اللبن حياة الأطفال وحياة الكبار. فالفكرة أن الإله غير منظور ولكن له صفات كثيرة، فوجدوا فى بعض الكائنات صفات تمثل صفات الله، فإحترام هذا الحيوان هنا عبادة، ولكن ليس بمعنى العبادة للإله الواحد، ولكن رأوا فيه شيئا من القوة الإلهية أو صفة من صفات الإله فأكرموه.

نعود هنا للنص العبرانى «**لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صنما** صورة ما فى السموات من فوق» كلمة الصورة التى يتخذها البروتستانت لكى يمنعوا مبدأ الصور فى الكنائس، لكن فى الآية صورة ما فى السموات أى التمثال نفسه، فالمقصود هنا صنع التماثيل التى هى صورة ما فى السماء أو فى الأرض، «صورة ما فى السموات من فوق وما فى الأرض من تحت»، وهى الحيوانات والدواب، «وما فى الماء من تحت الأرض» مثل التمساح، وقد عبد وكانوا يسموه الإله (سبك).

فعبادة هذه الحيوانات ليست لذاتها ولكن لأنهم أحسوا أن فيها تجسيد للإله أو لصفة من صفات الإله.

المهم هنا كلمة صورة كما جاءت فى اللغة العبرانية ليست كما يظن الناس أو يفهموها ويستغلوها من أجل مبدأ إنكار وجود الصور فى الكنيسة. لأنه يقول «لا تصنع لك **تمثالا منحوتا ولا صنما** صورة ما فى السموات»، لم يقل ولا صورة.. لا.. قال: **ولاتمثالا** صورة ما فى السموات من فوق وما فى الأرض من تحت وما تحت الأرض، وهى التماثيل والأصنام التى تعد صورة السمائيات أو صورة الأرضيات أو صورة الأسماك والتماسيح إلى آخره.

«لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور. أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى».

الوصية الثالثة :

الوصية الثالثة من وصايا اللوح الأول «لا تنطق باسم إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق بإسمه باطلا».

الوصية الرابعة :

الوصية الرابعة هى آخر وصية فى اللوح الأول «اذكر يوم السبت لتقدسه» وهنا السبت معناه يوم الراحة، لأن كلمة سبت باللغة العبرانية تنطق «سباق» وهى تعنى راحة الأسبوع.

فالوصية الرابعة أذكر يوم السبت لتقدسه، لا تصنع عملا ما لا أنت ولا إبنك ولا إبنتك ولا أمتك ولا أجيرك الذى فى داخل أبوابك، لأن الرب فى ستة أيام صنع السموات والأرض واستراح فى اليوم السابع لذلك آمرك أن تقدس يوم السبت.

الوصية الخامسة :

اللوح الثانى يحمل الست وصايا الأخرى، التى تُعيِّن ما يلتزم به الإنسان نحو الناس. أول وصية فى اللوح الثانى أكرم أباك وأمك وهى تعد الوصية الخامسة لكنها الأولى فى اللوح الثانى، «أكرم أباك وأمك لكى تطول أيام حياتك التى يعطيك الرب إلهك إياها على الأرض».

الوصية السادسة ... إلى العاشرة :

الوصية السادسة وتعتبر الثانية فى اللوح الثانى «لا تقتل» السابعة «لا تزنى»، الثامنة «لا تسرق»، التاسعة «لا تشهد على قريبك شهادة زور»، العاشرة «لا تشتهى إمرأة قريبك ولا بيته ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك»، وهى الوصية السادسة من اللوح الثانى.

هذه الوصايا معروف أنها جاءت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهى كما قلنا لا تعد وصايا جديدة لأنها كانت معروفة من أيام آدم الأول، ولا شك أنه إبتداء من آدم حتى موسى كانوا يتبعون هذه الوصايا، بالتلقين من الأب للإبن وهذا ما يسمى بالتقليد.

التقليد :

التقليد هو عبارة عن المسلمات أو الأشياء المسلمة إبنا عن أب، أو خلفا عن سلف، أو حفيدا عن جد وهذا ما يسمى بالتقليد، وهناك فرق بين التقليد، والتقليد بمعنى المحاكاة. فى اللغة العربية أحيانا يقول فلان يقلد كذا بمعنى يحاكيه، لكن فى اللغات القديمة هناك كلمتين مختلفتين، فالتقليد فى اليونانية Παραδοσις يعنى شيئا يُعطى أو يُسلم من يد إلى يد ولذلك يسمى تقليد أو يسمى تسليم، يقول بولس الرسول «لقد تسلمت من الرب ما قد سلمتكم أنه فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا..»، تسلمت من الرب فهنا كلمة تسليم فى اللغة العربية بمعنى تقليد ولكن مع التفريق بين التقليد بهذا المعنى وهو المسلمات أو الأشياء التى تسلم من جيل إلى جيل والمحاكاة وهى تقليد آخر بمعنى يحاكيه، وفى اللغات الأخرى كلمة التقليد فى اللاتينى تيرادسيو، ومنها جاءت كلمة (TRADITION) بالإنجليزى أو (TRADITION) بالفرنساوى، وهى غير كلمة المحاكاة، المحاكاة نسميها بالإنجليزى (IMITATION) إذن هناك كلمتين منفصلتين.

ففى العهد السابق على موسى النبى كان هناك نفس الوصايا العشر معروفة، لأن أبونا آدم وأولاده، كلهم حتى عهد موسى كانوا يسيرون على هذه الشريعة ولذلك نجد بشر غير مسيحيين وغير يهود وغير مسلمين من الشعوب التى نسميها وثنية عندهم مبدأ عبادة الإله، وعندهم مبدأ إحترام يوم معين، وعندهم مبدأ إكرام الوالدين ويعلموا أن القتل خطأ وحرام، والسرقة خطأ ، والزنا خطأ، وشهادة الزور، كل هذه مبادئ نسميها «الشريعة الطبيعية» مطبوعة فى قلب الإنسان وهى التى نسميها الضمير، لأن الضمير عبارة عن الشريعة الإلهية، والضمير بمعنى أضمر يضمر، أو أبطن يبطن. وكلمة الضمير مكتوبة فى جميع لغات العالم غير مخصصة لشعب معين أو دين معين، كل بشر عنده كلمة ضمير، فإذن هناك المبادئ الأخلاقية موجودة فى قلب كل إنسان، لأنه خلق على صورة الله وعلى مثاله، فوجودها فى موسى النبى أو فى الوصايا العشر ليس معناها أنها بدأت من هنا. إنها بدأت من أيام أبونا آدم، وكل الجنس البشرى قبل موسى كان يعلمها، وأيضا حتى اليوم نجد الشعوب التى لا تعرف شيئا عن موسى، أو غير موسى، ولاكتاب مقدس... ولا غيره يكرم والديه ويعرف أن القتل خطأ والسرقة خطأ وأن الزنا خطأ، وهذه هى الشريعة الطبيعية.

إذن الوصايا العشر موجودة فى البشر جميعا، لذلك فى العهد المسيحى نجد سيدنا له المجد لا يحتاج أبدا أن يقول مبادئ جديدة، حتى أنه لما سئل: ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ قال كيف تقرأ، أى كيف تقرأ فى الشريعة، وقال له احفظ الوصايا، حتى أن الشاب أجاب هذه حفظتها منذ حداثتى، فسيدنا لم يراجعه فى هذا بل قال له يعوزك شئ واحد اذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء.

إذن الوصايا العشر وصايا ليست قاصرة على اليهود، أو ما نسميه العهد القديم. إنما هذه الوصايا موجوده فى العهد الجديد. وسيدنا المسيح أشار إليها كثيرا بطريقة تلقائية، فقد جمعها فى مبدأين وقال «أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك» هذه هى الوصية الأولى والوصية الثانية مثلها «تحب قريبك كنفسك» بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة كلها وكتب الأنبياء. المسيح نفسه يقول أنه بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة والناموس كله والأنبياء، إذن ليست وصايا جديدة ولكنه لخص الوصايا العشر فى وصيتين.

الوصايا الأربع الأولى التى فى اللوح الأول، لخصها المسيح فى «أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك».

الوصايا الست الثانية لخصها فى كلمة واحدة «أن تحب قريبك كنفسك» لأنه إذا كان الإنسان يحب الله لا يمكن أن يعبد إله آخر. ولا ينطق باسمه باطلا ولا يهمل اليوم المقدس بل يعتبره يوم الرب ويحترمه، وإذا كان يحب قريبه فمن غير المعقول أن يهين أمه أو أبوه فإذن المحبة تنطوى على إكرام الوالدين، وإذا كنت أحب أحدا لا يمكن أن أقتله لأن القتل معناه بغضة، وقبل أن يقتل الإنسان يبغض أخاه. لكن إذا كانت هناك محبة فطبيعى لا يقتل. وإذا كان هناك حب أيضا لا يكون هناك زنا، لأن الزنا فيه أنانية . ولا يكون هناك سرقة ومن غير المعقول أنى أحب أحد وأشهد عليه شهادة زور، أو أحب أحد واشتهى ما يملك، بل إنى احترم ملكيته لهذا الشئ، ويستحيل أنى أتعدى عليه لأنى أحبه. فإذن وجدنا أن سيدنا له المجد لخص العشر وصايا فى وصيتين. وفيما بعد جاء بولس الرسول وجمع الوصيتين فى وصية واحدة حيث قال «أما غاية الوصية فهى المحبة. من قلب طاهر وضمير بلا رياء» لأن فى هذه الآية تحب الرب إلهك من كل قلبك، وتحب قريبك كنفسك. فأصبحت المحبة هى القاسم المشترك التى تجمع الآيتين.

العهد الجديد متمم للعهد القديم

قلنا أنه ليس هناك من جهة الواقع ما يسمى بالديانات، هناك ديانة واحدة، لأن الديانة هى عبارة عن الروابط التى تربط الإنسان بخالقه، الديانة من دَان يُدين، أو من دَنَى يدْنو، فدنى يدنو بمعنى اقترب، فالقواعد التى تنظم هذه القرابة أو إقتراب الإنسان بالله تسمى ديانة، ودان يدين بمعنى حكم يحكم أى العلاقات التى تحكم بين الإنسان وبين خالقه ونحو الناس، فباللغات الأجنبية نقول (RELIGION) والكلمة اللاتينية (RELIGO) ربط ثانية، وكلمة (RELIGION) أو الكلمة اللاتينية نفسها، تفيد معنى الروابط التى تربط الإنسان من جهة وخالقه من جهة أخرى. فإذا أردنا الدقة ليست هناك ديانات، لأن هناك ديانة واحدة بدأت بأبونا آدم الأول، وبعد ذلك الأنبياء، فلما جاء عصر موسى أراد الله أن يصحح بعض المفاهيم، التى خطئ فيها بعض أولاد آدم من طول المدة أو لسبب إنحرافات معينة، فجاء موسى ليصحح هذه الإنحرافات أو يحددها. نتيجة سوء الفهم أو سوء التطبيق وهذا ما لاحظناه، عندما كان المسيح له المجد، يلوم الكتبة والفريسيين فى تفسيرهم النصوص المقدسة، ودائما كان يدعو إلى تصحيح الفهم أو إلى إيضاح أمور فهموها بمعنى ضيق فيعطيهم المعنى الأعمق، بدون أن يقول أنه جاء بجديد. وحتى عندما قال وصية جديدة، هذه الوصية الجديدة بناها على القديم، لأن المسيح له المجد جمع العشر وصايا فى وصيتين، فالأربع نواهى الأولى جمعها المسيح فى وصية إيجابية فقال «أن تحب الرب إلهك...» الأربع فى وصية واحدة، فالمسيح لا يُعدُّ أتى بشريعة جديدة وإنما أعطى وصية إيجابية لأن الإنسان عندما يحب يمتنع عن أن يصنَع شيئا يغضب الله بل إن الحب يدعوه أن يعمل ما هو أكثر من إتقاء غضب الإله، ومن أن يخالف أمره، إنما الحب يدفعه إلى أن يعمل أعمالا أخرى إيجابية، فالحب يعطى شحنة عاطفية تدفع الإنسان إلى كثير من أعمال البذل والتضحية، بذل الجهد وبذل المال وبذل الحياة، وأن يهلك حياته فى سبيل إرضاء الله.

كذلك فيما يتصل بوصايا اللوح الثانى وأولها أكرم أباك وأمك لكى تطول أيام حياتك على الأرض، وصحيح أن الوصية الخامسة إيجابية أكرم أباك وأمك، إنما الوصايا التى تليها كلها ناهية لا تقتل لا تزنى لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشتهى بيت قريبك ولا إمرأته، جمعها السيد المسيح فى وصية واحدة لأن الحب يجعل الإنسان لا يؤذى غيره، ففرق أن يكرم الإنسان أباه وأمه كواجب، وبين أن يحب أبوه وأمه، فالإكرام تعبير عن الحب. ودليل على أن الإكرام نفسه شحنة وقوة، بحيث أن الإنسان يتجه نحو الإكرام بوسائل مختلفة، فكلمة الحب هنا أقوى، فمن

جهة جمعت الوصايا الست الثانية كلها فى وصية واحدة، لكن هذا الجمع ليس مجرد أنه جمع النواهى إنما أضاف إليها شحنة عاطفية تجعل الإنسان مستعدا للبذل والتضحية فى سبيل تنفيذ هذه الوصايا.

إنى لم آت لأنقض بل لأكمل:

إن المسيح له المجد قال صراحة إنى لم آت لأنقض أو لأهدم الشريعة والأنبياء أو أقوال الأنبياء، لم آت لأنقض بل لأكمل. لم آت لأنقض وأعمل شريعة جديدة، بل إنما أتيت لا لأنقض بل لأتمم، وهنا التتميم له معنيان :

أولا: التتميم بمعنى التنفيذ:

أ ـ فى شخصه :

المسيح نفذ ما أمرت به الشريعة فى نفسه أولا، لأنه هو كإنسان وكصورة آدم الثانى لم يجعل نفسه فوق الشريعة، إنما جعل نفسه تحت الشريعة، فى كل شئ خضع المسيح تماما للشريعة، ومادام هو خاضع للشريعة فكيف ينقضها؟ فهو نفذها فى كل شئ. فى الصلاة، وفى الصوم، كما ذهب إلى الكتّاب وهو صغير، وتعلم درس الكتاب المقدس... وكان يذهب كل سنة فى عيد الفصح مع أبويه إلى الهيكل، لأن موضوع الحج كان مهما بالنسبة لليهود فى كل سنة، أما بالنسبة للمسيحيين فإذا لم نذهب أورشليم أو القدس هذا لا يحرمنا من الأبدية لسبب عدم قدرتنا على زيارتها، إنما تعتبر شئ مفيد لكى نتعلم، نأخذ مادة روحية تساعدنا على النمو الروحانى، وهى غير حتمية بالنسبة لإخواننا المسلمين، الحج يكفى مرة واحدة فى الحياة إلا إذا أضاف إليها مرة ثانية أو ثالثة أو رابعة تعد فضيلة زائدة إنما يكفى مرة واحدة. أما اليهودى فكان الحج بالنسبة له ضرورى سنويا فى عيد الفصح، لأجل ذلك كان الزحام على أشده. فبالنسبة لليهودى مفروض فى عيد الفصح أن يذهب إلى أورشليم لأنه لايوجد غير مكان واحد ينبغى فيه السجود وهو أورشليم كما كانت الشريعة تتطلب هذا ـ وكان كل سنة سيدنا له المجد ينفذ هذا الكلام، لا يوجد شئ فى الشريعة إلا ونفذها المسيح. حتى الإضافات فى عملية الفصح التى أضافوها الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى بوحى من الله مثل تلاوة بعض المزامير، وأيضا شرب أربعة كؤوس من الخمر، هذه الإضافات احترمها المسيح تماما، فلما مارس الفصح اليهودى ولاسيما السنة الأخيرة، مارسها ليس طبقا لما وضعه النبى موسى فقط، وإنما أيضا حسب ما أضافه الأنبياء الذين أتوا بعد ذلك، وفى كلام سيدنا له المجد عبارة فى غاية الأهمية تدل على منهجه ونظرته إلى هذه الأمور، قال: «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوه

لكم افعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا، كلمة كرسى موسى مثل كرسى الأستاذية فى الجامعات، وكذلك فى الكنيسة، فهناك كرسى البطريرك أو كرسى الأسقف، لا بمعنى الكرسى الخشب وإنما المسئولية، هنا الكرسى بمعنى مركز المسئولية، فالمسيح نفسه قال على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون، وهنا إشارة إلى الوضع وإلى المسئولية فكل ما قالوه لكم افعلوه.

إذن المسيح احترم ليس فقط الشريعة فى عهد موسى، ولكن حتى الإضافات الأخرى التى أضافها الأنبياء من أمثال داود النبى، وداود من ضمن التنظيمات أنه نظم الترنيم وتقسيم الكهنوت إلى ٢٤ فرقة... الخ فالكنيسة ككائن حى متطور يمكن أن تحصل فيها إضافات، بشروط أن تكون هذه الإضافات بمعرفة أشخاص موكلين من الله وهذا ما نسميه بالتقليد الرسولى، ولذلك نحن نحترم هذه التقاليد والتعاليم اللى وضعها آباء متأخرون على الرسل، مثل القديس باسيليوس والقديس غريغوريوس والقديس يوحنا ذهبى الفم والقديس كيرلس والقديس أثناسيوس الرسولى، وهؤلاء آباء غير عاديين، هم آباء فى درجة الرسل من جهة الروحانية ومن جهة السلطان، فالكنيسة ككائن حى تقبل إضافات على مدى التاريخ، بشرط أن تكون هذه الإضافات جاءت بسلطة إلهية أيضا. لأن الكنيسة ليست كائن متحجر، وهذا رد غير مباشر لمن يقول أن الأصوام لم تكن كذلك فى العصر الرسولى، فلنفرض أنه حصلت إضافات فنحن لا نستطيع أن نتحلل من إحترام ما رسمه الآباء الروحانيون، وآباء موكول إليهم ولهم السلطان من الله أن يرتبوا الكنيسة، فبولس الرسول يقول لتيموثيئوس «الأمور الباقية فعندما آجئ أرتبها»، فهناك ترتيبات رتبها الآباء الرسل ورتبها الآباء الذين جاءوا بعد الرسل أيضا.

قانون الإيمان لم يكن موجود فى الكتاب المقدس، إنما وضعه آباء مجمع نيقية، وعلى الخصوص أثناسيوس الرسولى، قانون الإيمان كل حرف فيه يستند إلى نصوص الكتاب المقدس، و له إحترامه عند جميع المسيحيين شرقا وغربا، ولذلك نتلوه واقفين إحتراما لهذا القانون لأنه يحدد العقيدة، وهكذا أيضا فيما يتصل بالقداس وفيما يتصل بكل صلوات الكنيسة المرتبة فى المعمودية، فى الميرون، فى الزواج، فى الرسامات الكهنوتية، فى مسحة المرضى، هذه الأشياء أصولها واحدة، لكن حدثت إضافات فى تاريخ معين وإلى مدى معين وهى إضافات الآباء المعتبرين أعمدة، القديسين الكبار عمالقة الروح، ونحن لا ننكر أنه حصل إضافة، لكن هذه الإضافة لها إحترامها، فسيدنا له المجد نفسه احترم كإنسان الشريعة وما قاله موسى، وكذلك احترم أيضا ما جاء بعد موسى، قال: «وعلى كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوه لكم افعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا». وبهذا أعطى المسيح له المجد الشرعية

santamariaegypt.org
للإضافات التى حدثت بعد موسى، ولكن فى التطبيق كان المسيح يصحح بعض الأشياء، مثل ما اخترعوه الكتبة والفريسيون، أن الإنسان ممكن يتحلل من إكرام والديه. بأنه يقدم الإكرام للهيكل، كان الكتبة والفريسيين ينفذوا هذه الأشياء من أنفسهم، ولهذا يقول لهم «أبطلتم وصية الله». وكانت هذه النقاط هى السبب لتدخل المسيح وتصحيح بعض مفاهيم أو تصحيح تطبيق الشريعة، لأن الشريعة فى ذاتها احترمها المسيح، احترم موسى، احترم ما قبل موسى، وقال فى موضوع الزواج لم يكن من البدء هكذا.... إذا كان موسى قد سمح لكم بالطلاق فمن أجل قساوة قلوبكم، وهنا الفرق بين «شرع» وبين «سمح»، فمع شر البشرية قرر شئ من السماح، وما سمح به ليس هو الأصول، أو الوضع الحقيقى، لكن المسيح بالإضافة التى صنعها كان يرد الموضوع إلى الوضع القديم، إذن المسيح فيما يتصل بالشريعة السابقة على ظهوره فى الجسد، قال «لم أنقض بل لأكمل»، ولذلك هو كمثل أعلى للإنسان بصفته آدم الثانى نفذ وخضع. السيدة العذراء حملت المسيح فى اليوم الأربعين لميلاده وذهبت لتقدم ما أمرت به الشريعة عن تطهيرها، العذراء كانت طاهرة، وطاهرة الأطهار وعذراء العذارى، إنما هذا يدل على مدى إهتمام المسيح ومدى إهتمام العهد الجديد بإحترام الشريعة القديمة، فالمسيح نفذها على نفسه، فلا يوجد شئ واحد نستطيع أن نقول أن المسيح أعفى نفسه منه. حتى عندما جاء يوحنا، رغم أن العماد بالنسبة لوقت يوحنا لم يكن من الشريعة القديمة، ولا يوجد فى الشريعة أن الإنسان لابد أن يتعمد بالتوبة، ثم إن المسيح ليس فى حاجة إلى التوبة، ومع ذلك لما جاء إلى يوحنا قال له «اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر» ويوحنا الرجل المختص بهذا الموضوع، قال له أنت غير محتاج إلى هذا...» فيوحنا صاحب الحق فى أن يقول هذا صح وهذا خطأ لأنه نبى من الله، صاحب الحق نفسه المختص قال له أنت فى غير حاجة إلى هذا بل أنا المحتاج أن اعتمد منك، ولكن السيد المسيح قال له اسمح الآن هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر، فالسيد المسيح لم يستثنى نفسه من الشريعة.

ب : فى تعليمه:

وأيضا فى تعليمه بالنسبة للآخرين كان ينادى وكان يحض على إحترام الشريعة، فلما شفى الإنسان من البرص، مع العلم بأنه هو الذى أجرى الشفاء قال له إذهب أرِ نفسك للكاهن، وقدم عن تطهيرك ما أمر به موسى، لم يقل بحسب ما أمر الله به ولكنه قال ما أمر به موسى، اذهب أرِ نفسك للكاهن؟! أى كاهن؟! أنت هو رئيس الكهنوت كله، لا.. لم يسمح المسيح لنفسه أبدا بأن ينقض، لا بالنسبة له، ولا بالنسبة للآخرين أيضا. لم يشجع أحدا على أن يخالف الشريعة أو ينقضها أو يتساهل أو يتسيب فى إحترامه للشريعة. بل أمره اذهب أرِ نفسك للكاهن وقدم عن

santama iaegypt rg

تطهيرك ما أمر به موسى، وفى موضع آخر ما أمرت به الشريعة، لأن موسى لم يأمر من نفسه، لأن موسى كان شخص نبى موحى له من قبل الله، فعندما نقول شريعة موسى فى الكتاب المقدس، كلمة شريعة موسى هنا ليس معناها أن موسى شرع؟ لا إنما على لسانه أو عن طريقه، كذلك عندما نقول هيكل سليمان ليس معنى ذلك أن سليمان يعبد. أنا أقول هذا الكلام لأن هناك بعض الناس يقولون لماذا يسمى هذا الصوم صوم الرسل؟ أنتم تصوموا للرسل، لماذا سمى صوم العذراء؟ أنتم تصوموا للعذراء، لا... نسميه صوم الرسل لأن الرسل هم الذين صاموا، فسمى من بعدهم بذلك، ونقول صوم العذراء لأنه ينتهى بعيد صعود جسدها إلى السماء، فنحن لا نصوم للعذراء كما لو كانت العذراء إلها... وهكذا عندما نقول عيد الرسل، وعندما نقول كنيسة مار جرجس، أو كنيسة العذراء، هكذا عندما نقول شريعة موسى، المسيح نفسه استخدم هذا التعبير، موسى كان وضعه وضع الوسيط بين الله وبين الناس، من خلاله، لأنه هو الذى كان يصعد فوق الجبل وهو الذى كان يبلغ الرسالة فسميت الشريعة بشريعة موسى، ولم يكن هناك أى حساسيات لهذا التعبير، ولا اعتبر هذا التعبير يتعارض مع ربنا أو يغضب الله، أن يقال عن الشريعة شريعة موسى، المسيح نفسه نطق وقال شريعة موسى. وهكذا فيما يتصل بهيكل سليمان، لا يوجد أى حساسية فى الكتاب المقدس، ولم يغضب الله لأن الهيكل سمى هيكل سليمان، سمى هيكل سليمان لا لأن سليمان يُعبد فى هذا المكان، ولكن لأن سليمان هو الذى بنى الهيكل فنسب إليه، وعندما نقول إنجيل يوحنا، ليس معناه أن صاحبه هو يوحنا، لا... إنه إنجيل المسيح بحسب ما كتبه يوحنا، إنجيل متى أى بحسب ما كتبه متى، هو إنجيل المسيح، المسيح قال: «توبوا وآمنوا بالإنجيل» ولم يكن فى يده إنجيل، كلمة آمنوا بالإنجيل أين الإنجيل؟ المسيح هو الإنجيل، الإنجيل لم يكن كتب بعد إنما المسيح نفسه هو الإنجيل، هو البشارة، البشارة المفرحة بشارة الله للإنسان. الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء كلمنا بإبنه، فالمسيح هو الكلام، هو البشارة، فقال توبوا وآمنوا بالإنجيل ولم يكن هناك إنجيل مكتوب، ونحن عندما نقول إنجيل يوحنا ليس معناه أن يوحنا هو المنشئ لهذا الإنجيل... لا، ولذلك فى القبطى أو فى اليونانى نقول كاتا أى بحسب ما كتبه يوحنا، إنما هو إنجيل ربنا يسوع المسيح بحسب ما كتبه متى، بحسب ما كتبه مرقس، بحسب ما كتبه لوقا، ولكن لماذا الإختلاف بين الأناجيل، لأن كل واحد تناول المسيح من زاوية معينة، وهى الطريقة التكاملية، مثلما تأخذ صورة لواحد من الأمام تُظهر شكله من الأمام، لو أضفت إليهما صورة من الجنب اليمين، وصورة أخرى من ناحية الشمال، وصورة أخرى لظهره، وبهذه الطريقة تأخذ أربع صور فتصبح الصورة متكاملة، وتظهر أوضح مما لو أخذتها من زاوية واحدة.

santamariaegypt.org

فإنجيل متى لكى يبرهن لليهود أن المسيح جاء مطابقا للأنبياء، ولذلك هو الإنجيل الذى ورد فيه ٤٥ نبوءة، يقول كما جاء بالنبى القائل، لكى يطمئن اليهود، أن كل الذى حدث قاله الأنبياء، فالمسيح كان تطبيقا لما قاله الأنبياء.

ولأن إنجيل مرقس كُتب للرومان، والرومان لا يعرفون العهد القديم، فلم يكن هناك داعى أن يأتى بنصوص، ويقول كما جاء... إنما صور لهم المسيح فى صورة القائد، يهاجم فينتصر، وهنا الهجوم فى التعليم وفى الكلام، عندما تحدوه اليهود كان المسيح، يرد هذا التحدى، وكان يسكتهم، هذه صورة المنتصر التى تستثير الرومان.

إنجيل لوقا أبرز النواحى الإنسانية فى المسيح، العطف، الحنان، البكاء، يصور المسيح فى صورة المتعاطف مع البشر، «بكى على أورشليم» هذه لم يقلها إنجيل آخر، «تحنن على المرأة» أرملة نايين التى مات وحيدها يقول تحنن عليها، وقال «لها لا تبكى»، هذه الحادثة لم ترد إلا فى إنجيل لوقا، لأن إنجيل لوقا يصور المسيح أو يقدم المسيح فى صورة المشترك مع البشرية فى آلامها، فالناحية الإنسانية فى المسيح وفى العواطف وفى المشاعر وفى المشاركة الوجدانية، هذه الناحية استثارت اليونان لأن اليونان كانوا أهل أدب وهذه الناحية تجذبهم فى المسيح.

إنجيل يوحنا إهتم بإبراز لاهوت المسيح بالذات، لأنه كان هناك إناس لهم آراء مختلفة، فى من هو المسيح؟ ولذلك أورد المعجزات التى لها الدلالة اللاهوتية، والتى لم يردها إنجيل آخر، وفى الآخر قال «هناك أشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع لم تكتب فى هذا الكتاب، ولكن هذه كتبت لكى تؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكى تكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» وهنا أبرز الناحية الإيمانية، ولذلك لم يهتم بأن يتكلم عن ميلاد المسيح من العذراء وقصة الرعاة وما إلى ذلك، لأن الرسل الآخرين تناولوها، لكن هو أراد أن يبرز الوجود الإلهى للمسيح سابقا على التجسد، ولذلك قال فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، وفى عدد ١٤ يقول «والكلمة اتخذ جسدا»، تكلم عن التجسد ولكن لم يذكر بالتفصيل قصة الميلاد مثل إنجيل متى أو إنجيل لوقا، لم يذكرها يوحنا ليس إهمالا لها، ولا لأن الرسل الآخرين تناولوها، ولكن لأنه يريد أن يقدم المسيح كإله سابقا على التجسد، أن المسيح موجود قبل أن يولد من العذراء، فكينونة المسيح ووجوده السابق على ميلاده يبين أن ميلاده هو التجسد، وليس ميلاده كميلاد أى طفل آخر، لأن أى طفل إذا ولد فقد وجد، وليس له وجود سابق على ولادته، إنما المسيح شئ آخر، المسيح كان كائنا قبل أن يولد من العذراء مريم، إذن ميلاده هو تجسد، هذا هو السبب أن كنيستنا فى ليلة عيد الميلاد لا تقرأ فصل الرعاة، ولا تقرأ فصل الميلاد، ففى رفع بخور باكر تقرأ «فى البدء

santama iaegypt rg
كان الكلمة والكلمة اتخذ جسدا، وفى إنجيل القداس: «وإذا مجوس من المشرق...» متى ٢ وقالوا أين هو المولود ملك اليهود. إنما قصة الرعاة وقصة الميلاد تقرأ فى البرمون وهو اليوم السابق على عيد الميلاد لماذا؟ لكى تبرهن الكنيسة لشعبها أن المسيح ولد لا بمعنى وجد. لا... المسيح له وجود سابق على الميلاد، إنما نحن نحتفل بتجسده، وأنه ملك وأنه ولد ملكا، والمجوس يقولون أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق فأتينا لنسجد له.

وهذا هو السبب فى وجود أربعة أناجيل؟ لأن كل منهما تعطى صورة، وهذه الصورة تتكامل مع بعضها البعض، فى زوايا متنوعة.

ومن هنا أيضا ليس الإنجيل إنجيل يوحنا ولا إنجيل مرقس ولا إنجيل متى ولكن بحسب ما كتبه متى ولإبراز صورة معينة، إنما الإنجيل هو إنجيل المسيح.

هذا كله يبين أيضا أن المسيح له المجد على الرغم من أنه صاحب الشريعة ولكنه نسبها إلى موسى، لم يكن هناك أى حساسية، ولا أى شعور أن موسى أخذ مجد ربنا كما يقول إخواننا البروتستانت، أبدا ليس هذا فى الوجود الإلهى. أبدا، ولا هذا سيغير من موسى... لا.

خطأ الفصل بين العهد القديم والعهد الجديد

santamariaegypt.org

بينا أننا فى العهد الجديد ملتزمون بشريعة العهد القديم وأن هذه التفرقة بين عهد قديم وعهد جديد خصوصا فيما يتصل باللاهوت الأدبى، تفرقة خاطئة، لأن واضع الشريعة هو الله. والله هو رب العهدين القديم والجديد، والله لا يتعارض ولا يتناقض مع نفسه، فإذا كان هو واضع الشريعة فلا نتساءل، ولا يجوز لنا أن نتساءل ونقول أن هذا فى العهد القديم، وبناء عليه نحن غير ملتزمين به. هذا خطأ لأن العهد الجديد لا ينسخ العهد القديم، لا يوجد عندنا مبدأ النسخ، فالعهد القديم مع العهد الجديد كتاب واحد، ولذلك فالكنيسة الأرثوذكسية تضم العهدين معا فى كتاب واحد. فمن الخطأ أن تفصل حتى فى مجلد الكتاب المقدس بين عهد قديم وعهد جديد. حتى لا يتبادر إلى ذهن بعض الناس أننا فى العهد الجديد، ملتزمين فقط بالعهد الجديد، لأن هذا الفهم الخاطئ هو الذى قاد بعض الناس أن ينقدوا المسيحية بقولهم أن المسيحية ليست فيها شريعة. هذا الكلام نسمعه ويكتب كنقد للديانة المسيحية فى بعض كتابات غير المسيحيين، وأيضا يوجه لنا هذا السؤال ويقال هذا الكلام كما لو كانت المسيحية ناقصة التشريع.

الحقيقة إن هذا الفهم ناتج من عملية الفصل بين العهد القديم والعهد الجديد، والحقيقة أن هذا مرجعه إلى التعليم البروتستانتى، الذى يلح باستمرار على العهد الجديد وعدم الإلتزام بالعهد القديم، وحتى فى المناقشات والأحاديث عندما تقول له شئ يقول لك لا.. هذا كلام فى العهد القديم، الحقيقة، غير المسيحيون معذورون إذا نقدوا الشريعة المسيحية من هذه الوجهة، هذه فكرة تسربت إليهم أن كتاب المسيحيين هو العهد الجديد فقط، وهذا مرجعه إلى فكرة الفصل فى الكتاب المقدس بين عهد قديم وعهد جديد، والعهد الجديد يطبع منفصل، وأن العهد القديم يعد كتاب تاريخى، أو مرحلة قديمة، ونجد بعض الناس غير المسيحيين يبيح لنفسه أن يشتم العهد القديم أو التوراة، ولا يعتقد أنه بهذا يجرح شعور المسيحيين، لأنه تسرب إليه فكر أن العهد القديم ليس كتاب المسيحيين، وإنما هو كتاب اليهود، وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الناس تكون مشاعرهم طيبة نحو المسيحيين، لكن لأنه دخل فى عقله أن العهد القديم كتاب اليهود، فإذا أهان العهد القديم أو شتمه لا يحس أن هذه الإهانة موجهة إلى المسيحيين، وهذا خطأ كبير.

الربط بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكنيسة الأرثوذكسية:

فى كنيستنا الأرثوذكسية بإستمرار العهد القديم والعهد الجديد معا، ليس فقط الطبع، وإنما فى صلواتها ، وفى طقوسها.

santama iaegypt rg

١) فى الصلوات :

إذا قرأنا الإنجيل نجد نص من المزامير، يربط ما بين الكتاب المقدس فى عهديه القديم والجديد، وفى الصوم الكبير لأنه يوجد وقت أطول، فهناك قراءات من الكتاب المقدس من العهد القديم، قراءات من الأنبياء، وواضح هذا أكثر فى أسبوع الآلام، فتجد بإستمرار فى كل ساعة من ساعات البصخة، النبوات تقرأ أولا من جميع أسفار الكتاب المقدس، وبعد ذلك تقرأ الأناجيل، وقبل الإنجيل يقرأ المزمور، فكنيستنا الأرثوذكسية لا توجد فيها هذه التفرقة بتاتا، وبإستمرار يقرأ العهد القديم مع العهد الجديد.

٢) فى الطقوس :

كذلك فى الطقوس الأخرى مثلا فى صلوات اللقان تجد قراءات كثيرة من العهد القديم، قبل أن يقرأ البولس والإنجيل، وفى طقس تدشين الكنائس تتلى فيه نحو ٧٠٠ قراءة من الكتاب المقدس تقريبا، الجزء الأكبر منها من العهد القديم وكذلك فى سائر طقوسنا، فنظرة الكنيسة الأرثوذكسية إلى العهد الجديد أنه كما قال مخلصنا مكمل للعهد القديم.

وهذه التفرقة التى وجدت بين العهد الجديد والعهد القديم لم يُعلِّم بها المسيح. لا يوجد شئ اسمه عهد قديم وعهد جديد، وهذا تفسير لمقولة السيد المسيح الواضحة «لا تظنوا» وكلمة لا تظنوا هنا، يفترض فعلا أن هناك ظن خاطئ، و يعمل على تصحيحه، فيقول «لا تظنوا أنى جئت لأنقض أو لأهدم الناموس أو الأنبياء ماجئت لأنقض بل لأتمم»، فأولا بين أن هناك ظنا خاطئا من الممكن أن يتبادر فى أذهان الناس، أنه مادام جاء المسيح فى العهد الجديد أن العهد القديم قد انتهى، وأصبح مرحلة تاريخية قديمة، وأن العهد الجديد نسخ العهد القديم. فيقول بصراحة وبوضوح «لا تظنوا أننى جئت لأنقض أو لأهدم الناموس والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأتمم» وكلمة أتمم كما قلنا لها شقان الشق الأول أنه التنفيذ، وهذا التنفيذ له أيضا شقان تنفيذ شريعة العهد القديم، الشريعة التى كانت على يد موسى النبى، وأيضا الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى، هؤلاء وأولئك نفذ المسيح تعاليمهم أولا فى نفسه، ثم فى غيره، فاحترم هذه الشريعة، ولا يوجد أى تصرف فى حياة المسيح، منذ تجسده يتعارض مع ما أمرت به الشريعة، و لم يستثن المسيح نفسه أبدا، من أى مبدأ أو قاعدة من القواعد التى أمرت بها الشريعة، إنما احترمها ونفذها منذ تجسده وفى طفولته أيضا، وهذا هو المبدأ الأرثوذكسى، أن فى تاريخ الكنيسة يمكن أن يحدث ما نسميه بالإضافات من قبل الله، والذى أضافه أنبياء أو من فى حكم الأنبياء فتحترم إضافاتهم على أنها من الله تماما. طالما أن ما يقوله هذا النبى من الله و يضاف إلى القديم، فالإضافة هى

التى تصنع التراث، ما هو التراث؟ هو مجموعة القواعد القديمة مضافا إليها إضافات جديدة، طالما أن هذه الإضافات نحن مطمئنون إلى أن واضعها هم أنبياء أو رسل، ومن هم فى حكم الرسل، ولذلك توجد باستمرار فكرة المجمع، إن المسيح أعطى لمجمع الآباء الرسل السلطة، ففى متى ١٦ :١٩ قال لبطرس «ما تربطه على الأرض يربط فى السموات»، إنما فى متى ١٨ عدد ١٨ تكلم عن السلطان الجماعى، الذى أعطاه للأباء الرسل مجتمعين، وهذا هو الذى يصنع ما يسمى بالمجمع، «ماتربطونه على الأرض يربط فى السموات وماتحلونه على الأرض يحل فى السماوات» هذا مبدأ الربط والحل، وهذا غير مبدأ مغفرة الخطايا، الذى قاله المسيح لتلاميذه بعد قيامته من بين الأموات حيث نفخ فى وجوههم وقال لهم: «من غفرتم لهم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم عليهم خطاياهم تمسك عليهم». لاحظوا أن مبدأ الربط الذى بنسميه الحل والعقد المذكور فى إنجيل متى. أعم أو أكثر عمومية وشمولية من السلطان الذى منحه لرسله بعد قيامته فى مغفرة الخطايا. لأن كلمة ما تربطونه على الأرض يربط فى السموات وما تحلونه على الأرض يحل فى السموات، معناه السلطان الذى منحه الله للكنيسة للتقنين والتشريع، أى أن الكنيسة من حقها من خلال المجمع أن تقنن، أن تضع شريعة، أن تضع لوائح. لنفرض أن هناك أمور لم تكن موجوده وواضحة فى عصر من العصور، لكن ظهرت مشاكل جديدة فى الكنيسة، فيجب أن الكنيسة تقف بإزائها، مثلا المشاكل العقائدية التى ظهرت، مثل بدعة أريوس، بدعة نسطور، هذه البدع استجدت وربنا أعطى للكنيسة الحق، بل الواجب أن تقود المؤمنين، وتقول الرأى الإلهى المتصل بالمشكلة، مشكلة العصر، ولا يكفى أن نقول الإنجيل قال كذا...، إنما يمكن بروح الإنجيل وإمتداد لتعليم الإنجيل نضع صور جديدة، لنعالج مشكلة ذلك العصر، ولذلك يعتبر قانون الإيمان الغير موجود بنصه فى الكتاب المقدس، ولكننا نستطيع أن نرجع كل كلمة فيه إلى نصوص الكتاب المقدس، فالصيغ الإيمانية: بالحقيقة نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل... أو نعظمك يا أم النور الحقيقى، أو «السلام لك» إلى آخر هذه النصوص غير موجودة فى الإنجيل بهذه الصورة، إنما وضعتها المجامع المقدسة، مقدمة قانون الإيمان وضعها مجمع أفسس الأول، الذى رأسه البابا كيرلس الأول عمود الإيمان التى فيها «نعظمك يا أم النور الحقيقى إلى آخره...» فكل هذه الصيغ الإيمانية، وأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، والرسائل العقائدية التى وضعها البابا كيرلس الأول عمود الإيمان، والتى اعتبرت دستور الإيمان المسيحى، والعقيدة المسيحية فى شرح طبيعة السيد المسيح. هذه المسائل أصبحت لها قوتها وشرعيتها، وأصبحت مقدسة، فالذى وضع قانون الإيمان آباء الكنيسة الذين أخذوا الدرجة الرسولية الأولى وهى درجة الأسقفية، فهذه الإضافات لابد منها فى تاريخ الكنيسة، لأنه تستجد

أمور تزيد من مشاكل العصر، ولابد أن يكون للكنيسة موقف فيها، ولا يعد هذا تزايدا إنما هذا من صميم تقنين المسيح للكنيسة، وما تربطونه على الأرض يربط فى السماوات وما تحلونه على الأرض يحل فى السماوات، وهذا التقنين والتشريع، الذى تقوم عليه شرعيا المجامع، مثل ما جاء فى سفر المزامير المزمور ٨٠ «الله قائم فى مجمع الآلهة يقضى» وهنا كلمة «الآلهة» بمعنى كما قال الله لموسى «جعلتك إلها لفرعون»، هنا إلها بمعنى قاضيا وسيدا، وهرون يكون نبيك، وبهذا المعنى وصفت الدسقولية الأسقف بأنه إله، بالمعنى الصغير الذى قيل لموسى النبى، الله قائم فى مجمع الآلهة يقضى، هذا يعطى الشرعية للمجامع المقدسة، ولذلك عندما يعقد المجمع، من تقليده أن يضع الكتاب المقدس فى وسط الكنيسة، لأن هذا المجمع مجمع إلهى، لذلك يوصف بأنه مقدس.

وتنفيذ السيد المسيح للشريعة شمل أيضا أمورا أخرى، منها أنه مكتوب أن المسيح جاء أساسا لأجل عمل الفداء، ليكون الذبيحة والحمل الذى يرفع خطيئة العالم، فمجيئه تتميم للشريعة، لأن الشريعة أمرت أنه لابد أن تكون هناك ذبيحة، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة، فمجيئه من السماء، وما صاحب هذا المجئ من الآلام والمتاعب والمضايقات والإضطهاد وتنفيذ عملية الصلب نفسها، كل هذه الأمور كانت تتميما للشريعة، وكانت تنفيذا لها، فتتميم عمل الفداء تتميما لما أمرت به الشريعة، وهو أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة، وأنه لا غفران لآدم ولا بنى آدم إلا بتنفيذ الأمر الإلهى، أنه موتا تموت، ولكى يرفع عنه هذا الموت، فلابد أن يكون هناك بديلا، والمسيح جاء بديلا عن آدم الأول، وعن الجنس البشرى، لكى يأخذ فى جسده الحكم الذى حكم به الله على آدم وعلى الجنس البشرى.

ثانيا: التتميم بمعنى مد المعنى إلى أبعاده كلها:

من ناحية اللاهوت التشريعات التى قالها السيد المسيح تبدو ظاهريا كأن المسيح أتى بتعليم جديد، والواقع أن السيد المسيح وسع المفهوم لنفس الشريعة القديمة ومد آفاقها، التى كانت مخفية أو غير معروفة فى العهد القديم، وظنوا أن مفهوم الشريعة قاصر على هذا المفهوم الضيق المحدود، فالمسيح من دون أن يغير الشريعة، بين الأبعاد التى لم يكن اليهود يفهمونها، من دون أن يكون فى هذا إضافة لشريعة جديدة.

لا تقتل :

فمثلا يقول السيد المسيح : «سمعت أنه قيل للأولين لا تقتل ومن قتل يكون مستوجبا للموت وأما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الموت»... كلمة «أما أنا»

يرى من التعبير كما لو كان المسيح يقول كلام غير موجود فى العهد القديم. طبعا لا.. متى يكون المسيح نقض العهد القديم؟ لو قال سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل أما أنا فأقول لكم اقتلوا، فى هذه الحالة كان يعد أنه نقض، لكنه يقول سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل ومن قتل يكون مستوجبا للموت أما أنا فأقول لكم أن كل من غضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم، على الرغم أن شكل العبارة قد يوهم أو قد يظن الذى يسمعها أن المسيح أضرب عما قبلها، مثل ما قال يشوع بن نون «اختاروا اليوم لأنفسكم من تعبدون إن كان البعل أو.... أما أنا وبيتى فنعبد الرب» ليس بهذا المعنى كلمة أما أنا للسيد المسيح هنا، ليس فقط لا تقتل، لكن أنا أقول لك أكثر من هذا، لأن مفهوم القتل ليس فقط إزهاق روح الإنسان، كما أن هناك أخطاء تؤدى إلى القتل يجب أن لا تكون فيكم مثل الغضب لأن الغضب أبو القتل، والقتل نتيجة الغضب، إذن الغضب أصل للقتل، فالمسيح عندما يقول «أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه باطلا...» رجع إلى الأصول قبل القتل يكون الغضب، فأراد أن يمنع الإنسان من الغضب الباطل، لأنه يوجد غضب مقدس، لكنه يتكلم هنا عن الغضب الأحمق أو الغضب الغير مبنى على أساس، وكنوع من التسرع والإندفاع بدلا من التريث، أو الغضب الغير مؤيد بالحق وهذا هو الغضب الباطل.

من غضب على أخيه باطلا أى ليس له حق فى هذا الغضب، فأنا لا أمنعكم عن القتل فقط ولكنى أردكم إلى البعد الأعمق وهو الغضب الذى يؤدى إلى القتل، من هنا نفهم أن المسيح لم ينقض ما قالته الشريعة إنما وضح أشياء لم تكن واضحة فى أذهان الناس، إنما هى موجودة فى الشريعة، كما أن السيد المسيح مد آفاق المفهوم للشريعة فلم يصبح مفهوم القتل هو فقط إزهاق روح الإنسان لأن القتل أنواع، فهناك القتل الجسدى، وهناك قتل روحى، وقتل معنوى، فأنت عندما تسوء سمعة إنسان أو تذيع عنه أمور تضر بسمعته ويترتب على هذا أن تهدر كرامته بين الناس بذلك تكون قتلته، ففى بعض الأحيان يكون هذا النوع من القتل أبشع من قتله بسكين، هناك أنواع من القتل المعنوى أعظم وأشد فتكا فى بعض الأحيان، عندما يجرح واحد آخر بكلمة، وهذا الجرح يمسه من الداخل لدرجة أن الواحد يقول له ليتك كنت قتلتنى بسكين، وفعلا حتى من الناحية المادية أحيانا تقود الإهانة إلى قتل الإنسان، أنا أعرف إنسان جرح شعوره فعمى ثم مات، وفيه بعض شخصيات مهمة فى المجتمع، قتلته كلمة بالمعنى المادى للكلمة، وجرحته جرح عميق فأدت إلى أنه يمرض، وهناك اليوم كثير من الأمراض، أوضح من أى وقت آخر فى التاريخ يسموها الأمراض (PSYCHOSOMATIC) أمراض نفس جسمانية، وتبين أن الإنسان يمرض بالنفس قبل أن يمرض بالجسد. مثلا هناك موقف مثير أحدث لواحد مرض السكر، وهناك آخر حدث له شلل فى الحال، وواحد يقع ميت فى الحال، على حسب

درجة الإحتمال، وحسب درجة المقاومة، فالقتل ليس فقط القتل بالمعنى المادى. المفهوم القديم، الذى كان فى أذهان بعض اليهود، إنما هناك قتل معنوى، وهناك قتل روحى، عندما يضلل إنسان آخر ويقوده أن يرتكب خطيئة، وتقوده الخطيئة إلى الهلاك الأبدى، فتشجيع شخص على أن يرتكب خطيئة، هذا نوع من القتل الروحى، مثل ما قلنا أنه حتى هذا القتل المعنوى والقتل الأدبى أيضا، يقود إلى قتل مادى. وهنا كلام سيدنا له المجد، إذن المسيح لم ينقض الشريعة، عندما يقول «أما أنا فأقول لكم...» لا يفهم من هذا أن المسيح نقض الشريعة، نقض الشريعة لو قال سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل، أما أنا فأقول لكم اقتلوا ... وهذا لم يحدث ولكن بالعكس مد أبعاد ومفهومات القتل، إلى نطاق لم يكن اليهود فى ذلك الوقت يفهموه. فإذن المسيح فى تشريعه الجديد، من الناحية الأدبية فى الواقع أنه لم يضع شرعا جديدا، وإنما قدم مفهوما أوسع من المفهوم الذى كان فى أذهان اليهود فى ذلك الوقت، فى تفسيرهم للشريعة فأرشدهم للتفسير الصحيح والتفسير البعيد المدى والأبعاد، الذى لم يلتفتوا إليه، والذى يجهلوه أو يتجاهلوه، وتوكيدا لهذا أن المسيح فى العهد الجديد، عندما سئل ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ قال له احفظ الوصايا، والمسيح بذلك بين أنه تمم الشريعة.

لا تزنى :

كذلك فيما يتصل بشريعة الزنى، قال: «سمعتم أنه قيل للأولين لا تزنى أما أنا فأقول لكم أن كل من نظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه» قطعا لا يوجد تعارض، إنما ردنا المسيح إلى بعد لم يكن اليهود يلتفتون إليه، وهو أن عملية الزنى قبل أن تظهر خارجيا تنبع داخليا بالشهوة. وهذه الشهوة تعتبر زنى بالفعل، فعملية الإشتهاء والزنى فى القلب تكون عملية زنى حقيقية، حقاً أنه لا يوجد طرف ثانى جسديا، كما يحدث فى عملية الزنا «إرتكاب الفحشاء»، إنما لأن الشخص عندما يشتهى، عملية الإشتهاء نفسها تحرك معها نفسه من الداخل، ويترتب على هذا الإشتهاء، إفرازات هرمونية وهى بعينها نفس الإفرازات التى تفرز فى حالة الزنى الفعلى، أو إرتكاب الفحشاء، ويصير هذا الإنسان زانى فى داخل نفسه بكل ما يجرى فى الزنى خارجيا، يجرى فيه داخليا، الفكر، العاطفة، الشهوة، والشهوة إذا حبلت تلد خطيئة، والخطيئة إذا كملت تنتج موتا. ولذلك قال رب المجد إن كل من نظر لإمرأة ليشتهيها، وهنا كلمة «ليشتهيها» يبين أنه ليس كل نظرة، هناك نظرة بسيطة لا تحمل معنى الإشتهاء، فالخطأ ليس فى العضو نفسه، ليس فى العين، وإنما فيما وراء العين، ولذلك قال المسيح أنه هناك ما يسمى بالنظرة البسيطة، «إذا كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلما»،

فهناك فرق بين نظرة ونظرة، لكن إذا وجدت النظرة الشريرة لذلك قال إن كل من نظر إلى إمرأة ليشتهيها، هنا يبين أن النظرة مدفوعة للشهوة، أو الهدف الشهوة، من أجل أن يشتهيها، لأنه نظر إليها نظرة غير بسيطة غير عادية، وإنما نظر إليها بقصد الإشتهاء «فقد زنى بها فى قلبه» هنا عملية زنا حقيقية، وهنا كلمة «قد» فى اللغة العربية تفيد التحقيق، أى قد تحقق الفعل، تحقق فعل الزنى، وهذا ينطبق على الرجل وينطبق على المرأة، أيضا المرأة لو نظرت إلى رجل لتشتهيه فقد زنت به فى قلبها هذا ما يعرف بزنى القلب، وأن الزنى فى القلب هو بالضبط مثل الزنى مع شخص آخر، ويترتب على هذا الزنى نتائج، من أجل ذلك قال عنها الكتاب المقدس أو الرسول بولس بأن الإنسان يخطئ إلى جسده، فعندما يكون هناك عملية زنى فى القلب تكون الخطيئة، والخطيئة هنا ليست فقط أمام الله لمخالفة الوصية، وهى وصية الطهارة، إنما أيضا خطأ إلى جسده، لأن هذه الشهوة والزنى يدمر الجسد، لأنه يحدث بسببه إحتراق للأعصاب وللجهاز العصبى، وهذا الإستهلاك تدمير للجسد، ومن هنا فإن ما يعرف بالعادة السرية، التى يقع فيها الشباب هى عملية زنى، وإن كانت بالفكر وبالجسد، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر، لأن الطرف الآخر ممكن أن يكون صورة خيالية، ثم يكون هناك تدميرا للجسد، لأن طاقة عصبية تنصرف، هناك هرمونات تفرز، وإفراز هذه الهرمونات إستهلاك لقواه الطبيعية، وهى بعينها غذاء العقل، وهذا هو الجمال، أننا نعلم أن هرمون الجنس هو غذاء للعقل، ولذلك الشخص الذى يستهلك هذا الهرمون فى الإشتهاء، وفى العادة السرية، وفى الزنى يستهلك قوته العصبية، ويترتب عليه ضعف الذاكرة، الخمول الفكرى، فقد القدرة على التركيز والإنتباه والأنيميا، الأنيميا المخية، وأنيميا العيون، ويصاب بضعف فى العيون، وضعف فى الأذان، لأن العين والأذن تعتمد على الأعصاب، فهذا يستهلك طاقة عصبية شديدة، فيترتب عليه أن العيون تتأذى فيضعف البصر، الأذان تتأذى فيضعف السمع، لأن الطاقات استهلكت، والعقل نفسه يستهلك ويضعف، وأنا أعرف بعض من الشباب يذكر هذا، أنه فى الإبتدائى كان ترتيبه الأول، ثم عرف فكرة العادة السرية، والنتيجة أنه بعد ذلك أصبح متخلف، وغير قادر على المذاكرة، وغير قادر على التركيز وضعفت ذاكرته، وابتدأ يسقط، هذا شئ طبيعى جدا جدا، وهذا معروف فى الطبيعة أن هذه الطاقة، يكون فيها إستهلاك، ولذلك من المعروف أن كلب الصيد يمنع عن المعاشرات الجنسية، حتى تكون عنده القدرة على الجرى، لأنه إذا صرفت طاقته فى الجنس، تضعف قدرته على الجرى، وأيضاً حصان السباق، يمنع من العلاقات الجنسية، حتى يكون محتفظاً بالطاقة فيمكنه أن يجرى، والطبيعى فى الإنسان أن هذه الطاقة إذا استهلكت، فإن هذا الإستهلاك يضر أعضاء أخرى فى الإنسان، وخصوصا الجهاز العصبى، ولذلك أعجبنى مرة تعبير قرأته من

سنوات طويلة، ربما من ٣٠ سنة تعبير يقول فيه صاحبه، أنه على الإنسان أن ينظر إلى الجهاز التناسلى نظرته إلى قدس الأقداس. وفعلا قدس أقداس جسم الإنسان هو هذا الجهاز التناسلى، لأنه به يخلق كائنات جديدة، وهى الأولاد، فهذه الطاقة تعطى من أجل أن يكون هناك عطاء، حتى أن الإنسان يعطى هذا العطاء لإيجاد مخلوقات جديدة، ولذلك فإن الكلمة، «أب» بالقبطى هى «يوت» فى الإنثرولوجى، اللفظ نفسه يفيد بمعنى الخلق، الأب خالق ولذلك الكلمة العربية يقول فلان أنجب، فالإنجاب هنا فيه معنى الخلق، لأن الرجل يعطى، وهذا العطاء تحمله المرأة، المرأة تحمل بينما الرجل هو الذى يوجد، يوجد بمعنى كلمة الأب هنا، ولذلك فى اللغة العربية كلمة أب، بمعنى الأصل فى اللغات السامية، فهنا فيه عملية إنجاب. فعندما يستهلك الجهاز العصبى فى الناحية الجنسية، ويترتب عليه إيذاء الجهاز العصبى، يترتب بالتالى ضعف قدرة الإنسان على الإنجاب، وإذا ضعفت هذه القدرة بالتالى يضعف النسل، اليوم يقال أن التدخين يضر بذور الرجل، لأن النيكوتين يضر هذه البذور، فيترتب عليه فى بعض الحالات أن الرجال يصابوا بالعقم، وآخرين يمكن أن ينجب وتنحل قوته بعد وقت ضئيل، وآخر قد يكون أقوى وقد يستمر أكثر ولكن نسله يكون ضعيف لأن البذور ضعيفة، فرأس مال الأطفال يكون ضعيف، ولذلك يكون فيه تخلف، فيكون الطفل ضعيف المناعة ضد الأمراض، أو عنده تخلف عقلى، فإذن هذا الجهاز التناسلى هو فعلا قدس أقداس الإنسان، وكما قلنا أن هذه الهرمونات الجنسية غذاء للعقل، فإذا استهلكت تضعف القوى العقلية ولذلك قد يكون النوابغ عادة بسبب أنهم عملوا (SUBLIMATION) إعلاء للناحية الجنسية، فانصرفت الطاقة الجنسية إلى العقل، فأصبحوا قادرين بعقولهم على أن يعملوا، وعندهم قدرة أكثر من غيرهم على العمل، وعلى المثابرة، وعلى الإخصاب، من أجل ذلك نقول لأولادنا الذين يستهلكون هذه الطاقة فى العادة السرية، هذه العادة السرية هى الزنى، بكل معنى كلمة زنى، والأمر الثانى أن نتائجها فظيعة جدا على العقل، وعلى الصحة، وعلى الأولاد، وعلى العيون، وعلى الأعضاء، وعلى كل الجهاز العصبى، ويقال هذا الكلام فى بعض الكتب التى تتناول هذه النواحى، الطاقة العصبية التى تصرف مرة واحدة فيما نسميه العادة السرية، تعد أضعاف أضعاف الطاقة العصبية التى تصرف فى حياة الزواج السليمة، فضلا عن أن الإنسان الذى أخذ على العادة السرية قبل الزواج، قد تستمر معه فى غالب الأحيان بعد الزواج، ويصبح غير قادر على الإشباع العادى.

إذن يتبين لنا أن الزنى فى المفهوم المسيحى، ليس هو إرتكاب الفحشاء بالمعنى العادى بين رجل وإمرأة، إنما كشف المسيح أن هناك نوعا آخر من الزنى، وقال فقد زنى، وهنا زنى حقيقى، فقد زنى بها فى قلبه، هذه عملية زنا، وهذا طبعا من الناحية التشريعية أو القانونية فتحت لنا طريق، لما يعرف بما هو فى حكم الزنا، ففيما يتصل بحق الطلاق، أنه إذا كانت هناك خيانة زوجية فيجوز الطلاق، لأن الزنى نجاسه، وهذه النجاسة تتعارض مع قداسة الله، فالله جمع بين الرجل والمرأة فى الزواج فأصبح الله طرف ثالث، ما أزوجه الله أو ما جمعه الله لا ينبغى أن يفرقه إنسان. فى سر الزيجة المسيحى دخل الله طرف ثالث، وهو الذى جمع بين الرجل والمرأة، فلو حدث خطية زنا فكيف فى هذا الزنا تبقى العلاقة المقدسة بلا تعارض مع القداسة الإلهية. هل يبقى الله فى هذا الزواج، هل الله يقبل الزنى، الله قدوس والزنا نجاسة، هناك تعارض بين قداسة الله وبين هذه العملية التى دخلت، وهذا هو السبب الذى ذكره المسيح له المجد للطلاق أو التطليق، أو إمكانية الطلاق، أو إمكانية ما يعرف بحل العلاقة الزوجية، فنقول أن العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة لا تنحل، هذا مبدأ عام بإعتبار أن الله جمع بينهما، لكن المسيح بين أنه من الممكن أن تنحل إذا وجدت النجاسة، فهذه النجاسة لأنها تتعارض مع القداسة الإلهية فاعتبرت سبب واضح جدا يبيح الطلاق فى المسيحية.

لكن هناك زنى أيضا فى القلب فهذا الزنا الذى فى القلب، هل يمكن أن يدخل كسبب يبيح الطلاق؟ لأن الزنا فى التشريع المسيحى الذى تشير إليه لائحة المجالس الملية، أن الطلاق لا يباح إلا لعله الزنا، وما هو فى حكم الزنا، فما هى الأمور التى يمكن أن تعتبر فى حكم الزنا؟ وقالوا المرأة مرتبطة بالناموس طالما زوجها حى، فإن مات فهى حرة، وهناك ما هو فى حكم الموت، ويعتبر أن الإنسان إذا اعتنق دينا آخر، أن هذا فى حكم الموت، وبناء عليه ممكن أن الطرف المضار باعتناق الطرف الآخر لدين آخر، يباح له أن يطلق هذا الطرف وأن يتزوج. على أساس أن هذا الإنسان قد مات عن المسيح.

لا تحنث :

وهكذا فيما يتصل بموضوع الحنث يقول رب المجد «سمعتم أنه قيل للأولين لا تحنث بل أوفى للرب أقسامك»، لا تحنث أى لا تخلف قسمك، إذا أقسمت أو وعدت، فلا تحنث بالوعد، أما «أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة، لابالسماء لأنها كرسى الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا بشعر رأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء...»

هل هنا تعارض؟ هل المسيح قال احنثوا، كلمة «أما أنا فأقول لكم ... قد يبدو أن المسيح جاء بتعليم يختلف عن التعليم القديم، لكن عندما نفحص الموضوع نجد أن كلام المسيح متمم ومنفذ، لأن لا تحنث معناها إذا حلف الإنسان فلابد أن ينفذ، بل أوفى للرب أقسامك، أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة، فى العهد القديم سمح للشخص بأن يحلف، أما فى العهد الجديد قال لا ..، وكلمة سمح مثل ما قلنا فى مجالات أخرى، ليس معناه أن ربنا أمر أن يحلف الإنسان، لكن يسمح بأن يحلف الإنسان، وقال «الرب إلهك تعبد وإياه تتقى وباسمه تحلف»، هنا أبيح الحلف فى العهد القديم على أساس أنه علامة تعبد لله، علامة تبعية، لأنه كانت هناك آلهة أخرى كثيرة، فعندما أمر اليهودى أو الذى من نسل إبراهيم أن يحلف بإله إسرائيل، يصير هذا الحلف برهان على تبعيته لهذا الإله، وعدم تعبده لإله آخر. قد أبيح فى العهد القديم القسم، ولكنه لم يكن أمر، الأمر كان لا تنطق باسم إلهك باطلا، لأن الرب إلهك لا يبرئ من نطق باسمه باطلا، إنما كلمة الحلف سماح وليس أمر، قال للرب إلهك تعبد وإياه تتقى وباسمه تحلف. لأن الحلف بإله معين دليل تعبد هذا الإنسان لهذا الإله، وتبعيته لهذا الإله. غير أن هذا الموضوع قد أسئ استخدامه، أو هذا السماح أبتذل، فصار الإنسان يحلف باسم الله على أمور تافهة، وهذا فيه إبتذال للإسم الإلهى العظيم، أنه يستشهد به فى مسألة لا يستحق أن يستشهد فيها باسم ربنا، قد تكون هذه المسألة تافهة، قد تكون شريرة، الحلفان معناه إشهاد باسم الله يعنى يستشهد بالله، أو يقول أمام الله هذا حدث، فيستحضر الله أو يستشهد بالله، فلا يليق أن يستشهد بالله فى أمور تافهة. فأراد الله أن ينهى هذه الإباحة، ويوضع لهذا السماح الذى أبتذل حلا، ووصل لهذه المرحلة فقال «لا تحلفوا البتة»، وهذا لا يتعارض مع الكلام القديم، لأن الكلام القديم كان عبارة عن سماح وليس كلام أمر، أما الأمر فلا تنطق باسم الرب إلهك باطلا. وقد يقول قائل لماذا يحلف الله؟ «يقول أقسم الرب ولن يندم»، أقول له ربنا يقسم لأن القسم دليل القدرة بما يقسم به، ولذلك قال لا تحلف بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء، فواضح أن سبب عدم القسم أن الإنسان لا يملك ما يقسم به، إنما الله يملك. الأمر الثانى أنه هل كل شئ يعمله الله مسموح لى أن أعمله؟، لأن الله سيد، لذلك يوصف الله فى بعض الكتب أنه متكبر، بمعنى أنه كبير، إنما لماذا يعد الكبرياء للإنسان خطأ، أو خطيئة، لأنه بالكبرياء يأخذ صفة ليست له. فمن هنا كان خطأ الكبرياء بالنسبة للإنسان لأنه يأخذ صفة الله، كذلك فيما يتصل بالقسم أنا لا أقسم، لأن الله يقسم ويملك، إنما أنا الإنسان لا أملك، وهناك سؤال هل يجوز القسم أمام المحكمة؟، والكتاب يقول «لا تحلفوا البتة بل ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا، ومازاد على ذلك فهو من الشرير». أجاب آباء الكنيسة على هذا السؤال

فقالوا إن الموعظة على الجبل، هى المعاملات لا المحاكمات، أى المبادئ، مثلا كلمة لا تدينوا لكى لا تدانوا، هذا فى المعاملات، الإنسان مع زميله الإنسان، لكن أليس من حق القاضى أن يدين؟ أليس من حق الأب أن يدين ابنه؟ أليس من حق الرئيس أن يدين مرؤسيه؟ أليس من حق الملك أو رئيس الدولة أن يدين؟ من حقه طبعا وإلا صارت الدنيا فوضى، والكتاب المقدس قال إن الملك لا يفعل شئ عبثا، فأباح للملك أن يحمل سيفا للإنتقام من فاعل الشر، فكلمة لا تحلفوا البتة، ليس معناها أنها تَجب القسم بصفة عامة، لا.. تجب القسم فى المعاملات. أنا لا أدين غيرى إنما إذا كنت فى مكان القاضى، لابد أن أدين وإلا لا أصلح أن أكون قاضيا، أكون قد قصرت فى الواجب، كأب يجب أن أدين ابنى، كرئيس يجب أن أدين المرؤوس، فهذه الأمور المشروعة، لكن الزميل مع زميله، أو واحد لا يدين من هو فوقه، فلا أدين الرئيس، ولا أدين القاضى، إلى آخره... إنما أدين من هو تحت مسئوليتى، وإن لم أعرف أكون أنا مخطئ ولا أصلح. إذن كلام المسيح ينبغى أن يفهم فى الموعظة على الجبل على أنه للمعاملات، وهذا هو السبب أن الرسول بولس قال إن نهاية كل شئ فى أى متاجرة هى القسم. وسيدنا له المجد لما قال له رئيس الكهنة استحلفك بالله الحى، أن تقول لنا هل أنت المسيح؟ أجاب وقال له نعم أنا هو كقولك؟ فهذا الإستحلاف فى المواقف الكبيرة، خصوصا إذا كان القصد منها إظهار حق معين، فأنا لا اتعلل بأنى ممنوع من أن أقسم، بينما يكون الموقف يحتاج إلى هذا القسم لتبرئة إنسان مظلوم فى مجال القضاء، خصوصا فى القضايا الجنائية وما إليها من القضايا التى تستحق، إنما إذا كان الإنسان فى أمر خاص أو شئ شخصى قال لا.. أنا لن أحلف، لأنه هو تنازل عن حاجة مادية، يعنى مكسب مادى، أو شئ مادى، فقالوا له اقسم قال لا.. أنا لن أقسم، فتنازل عن هذا الكسب المادى هذا إنسان له أجره، إنما فى المواقف الكبيرة التى فيها الإنسان يُطلب منه أن يشهد للحق، ليبين براءة إنسان مظلوم، أو يبين خطأ إنسان أمام القضاء، حتى يقتص القضاء من المجرم، هذا أمر ليس مشروع فقط، بل واجب، وقد طلب إلينا فى أكثر من مجال قضائيا أن نتكلم عن رأى المسيحية فيما يتصل بالقسم، فقلنا هذا إننا لابد أن نفرق كتعاليم الكنيسة بين القسم فى المعاملات التى يجوز فيها الإنسان أن يتنازل خصوصا إذا كان حق شخصى، يكون له أجره. كثير من آباء الكنيسة تنازلوا عن حق خاص، من أجل أن لا يقسم فكان لهم أجرهم، إنما فى موقف القضاء التى فيها يطلب الإنسان لكى يشهد بالحق، وهذا الحق له أهميته وضرورته الحيوية بالنسبة لإنسان، وبالنسبة للقضية، خصوصا القضايا الجنائية وما إليها. فالقسم ليس جائز فقط ولكن واجب أيضا.

الوصية الأولى

(أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى)

هذه هى الوصية الأولى ويضمنها الرب تعالى أمرين أولهما : أعماله وصنيعه بشعبه، وكيف أظهر لهم بهذه الأعمال وهذا الصنيع قوته وإقتداره، وثانيهما نهى، يوجهه الرب إلى شعبه أن لا يتخذوا معبودا سواه.

أولاً :

(١) أن الله إذ يُذكِّر الشعب الإسرائيلى بما فعله معه يرمى لا إلى الزهو والفخر اللذين ليس الرب فى حاجة إليهما، ولكنه يقصد إلى تذكير عبيده بما هم عرضة لأن ينسوه .... فالإنسان دائماً ينسى ولا يذكر، وسريعاً ما ينقلب بشره نحو من أحسن إليه، ولذلك فإن النبى داود كان يناجى نفسه قائلا (باركى يا نفسى الرب ولا تنس كل حسناته) (١).

(٢) وفى ذكر صنيع الرب ما يستثير الهمم ويستنهض العزائم **نحو حب الله وتمجيده.** فهو بهذه الكلمة الصغيرة يشير إلى الشدائد التى عاناها بنو إسرائيل قبل خروجهم من مصر، والعبودية التى مروا بها، والأسر والإستعباد والذل والإضطهاد الذى شكوا منه وصرخوا إلى الله بسببه. ثم هو مذكرهم بفرعون الذى قاومهم وكيف أنزل الرب به الضربات العشر حتى أذل كبرياءه وقهره وتمجد بواسطته فى جميع المسكونة وأمام عيون المصريين والإسرائيليين. ثم هو يذكرهم بعنايته الفائقة لهم وكيف عالهم أربعين سنة فى البرية وأطعمهم المن والسلوى وسقاهم ماء من الصخرة وحفظهم ولم تبل ثيابهم، ولم تنهرء أحذيتهم، حملهم (على أجنحة النسور) حتى أتى بهم إلى أرض تفيض لبنا وعسلا.

(٣) وإننا وإن كنا نفيد من الآية كمسيحيين ما أفادة الإسرائيليون من هذه الذكريات المجيدة، التى نعظم من أجلها الرب ونبارك اسمه، لكننا نعلم إلى جانب هذا أن الآية **تذكرنا بعبودية الشيطان** التى ظللنا وظل العالم كله خاضعا لذلها، حتى جاء الرب من السماء وأنقذنا من سلطانها وسطوتها ووهبنا بنعمة الإيمان وسر المعمودية المقدسة أن نصبح أولادا له، وننكر الفجور والخطيئة فنحن (الذين رحمنا من الخطية كيف نعيش بعد فيها) . أما أننا أولاد الله فهذا يؤيده قوله (وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنين باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله) (٢).

---

(١) مز ١٠٣ : ٢.

(٢) يوحنا ١: ١٢، ١٣.

ونحن نؤمن فوق هذا جميعه، أنه وإن كان العالم الحاضر (قد وضع فى الشرير) وأننا فى ضيق الجسد وعناء الصراع القائم بيننا وبين الخطيئة، لكن الرب سوف ينقذنا من هذه الضيقة (من أرض مصر من بيت العبودية) إلى كنعان السمائية إذا خرجنا من المعركة ظافرين منتصرين.

ثانياً : ـ

أما قوله (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) فهذا النص يتضمن أيضاً مبدأ لاهوتيا وتعليما روحياً.

(١) **أما المبدأ اللاهوتى فهو القول بالوحدانية**.. فنحن كشعب الله وكمن يريدون أن يخضعوا لأقوال الله، لانعبد إلا إلها واحدا. وفى هذا التعليم نفترق عن الوثنيين الذين يعبدون آلهة كثيرة. فمن الوثنيين من يعبد إلهين هؤلاء هم المعتقدين بالإثنينية، والمثل على ذلك أهل فارس الذين عبدوا إلها للخير وإلها للشر. ولذلك نرى الله قد رد على الإثنينية يوم أن قال (أنا مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر... أنا الرب صانع كل هذه) (١).

ومن الوثنيين أيضاً من يؤمن بأكثر من إلهين وهؤلاء هم المشركون. وقد حدثنا التاريخ عن اليونان الذين عبدوا تسعة وتسعين إلها، وقبيل ظهور المسيح مخلصنا رأى الأمبراطور حلما كان دافعا لهم أن يبنوا مذبحاً جديدا لإله جديد، ولما كانوا يجهلون هذا الإله كتبوا على المذبح أنه (لإله مجهول)، وقد كان هذا المذبح هو الذى أشار إليه القديس بولس الرسول حين وقف فى وسط أريوس باغوس وصاح فى القوم وقال (أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوباً عليه لإله مجهول فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به) (٢).

والعبادة الوثنية تجلت فى أشكال مختلفة، قد عبد الوثنيون الأصنام والأوثان، ومنهم من عبد النجوم والكواكب كأهل حاران ومنهم من عبد الملوك والرؤساء كما فعل البطالمة، ومنهم من عبد الحيوانات كما فعل المصريون. وهكذا آلهه الوثنيون البحار والأنهار والأشجار والأحجار وصلّوا وعبدوا (وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى، والطيور والدواب والزحافات، لذلك أسلمهم الله أيضاً فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذى هو مبارك إلى الأبد آمين) (٣).

---

(١) إشعياء ٤٥ : ٧.

(٢) أعمال ١٧ : ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) رومية ١ : ٢٣ ـ ٢٥.

فإن كان الله يأمرنا بعبادته دون سواه فهو بذلك ينهانا عن عبادات الأمم الكثيرة، وغير خاف ما فى هذه العبادات من السخف، وما فى النهى من حكمة بالغة، لأن عبادة آلهة كثيرة من شأنها أن تجعل القلب فى حيرة مترددا فى العمل على إرضاء أى منها. وفى هذه الحيرة وقع الملك قسطنطين يوم أحب أن يستعين بإله منها لينتصر به على عدوه، ولولا أن أرشده الإله الحقيقى وحده أن يسترشد به لا بسواه، ومما يزيد الأمر خطورة أن هذه الآلهة المتعددة لم تكن فى ميولها متوافقة، بل كما كان عند اليونان عدم توافق بين هذه الآلهة فكان بعضها طاهرا وبعضها الآخر شريرا دنسا... ناهيك عما فى عبادة آلهة شريرة من إفساح مجال الشر للعابدين، لأن آلهة هذه حالها من الشر، تستريح لفعل الشر وترضى به وتغرى أتباعها عليه. ولقد كان هؤلاء الوثنيون يقولون فيما ورد إلينا من مخلفات أشعارهم أن الآلهة تتشاحن وتتضارب وتحارب بعضها بعضا، بل وكانت طقوس عبادات تلك الآلهة تقوم على ارتكاب الجرائم والموبقات والشرور والمفاسد، من هذا كله يتبين حكمة الله التى منعتنا عن اتخاذ آلهة أخرى غيره، حتى لا تتعلق قلوبنا بغير إله واحد، « لأنه وإن وجد ما يسمى آلهة سواء كان فى السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون، لكن لنا إله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ونحن له» (١).

هذا، وإن كنا كمسيحيين نعبد إلها واحدا لاغير ... لكننا (**نعبد إلها واحدا فى ثالوث وثالوثا فى وحدانية**) على حد تعبير القديس أثناسيوس الرسولى، ومعناه أننا نؤمن بإله واحد مثلث الأقانيم، وهذه هى خلاصة تعليم التثليث والتوحيد تتركز فيما نبدأ ونختم به جميع أعمالنا (باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد).

هذا هو إلهنا القدوس (كائن بوجوده، ناطق بكلمته، حى بروحه) ويهمنا أن نذكر تفسيرا لهذا التعليم سمى بقانون الإيمان لأثناسيوس الرسولى يقول فيه :

(كل من يروم أن يخلص يتحتم عليه أولا وقبل كل شئ أن يحفظ الإيمان ومن لا يحفظه بأكمله ومن غير تعديل فيه، يموت موتاً أبدياً، وهذا الإيمان هو أن نعبد إلها واحدا فى ثالوث، وثالوثا فى وحدانية من غير إختلاط فى الأقانيم ولا تقسيم فى الذات، لأن اقنوم الآب هو غير اقنوم الإبن، وغير اقنوم الروح القدس ولكن الآب والإبن والروح القدس ليسوا إلا إلها واحدا ومجدا واحدا وعظمة أبدية واحدة).

(هذا هو الآب وهذا هو الإبن وهذا هو الروح القدس... فالآب غير مخلوق والإبن غير مخلوق والروح القدس غير مخلوق.. والآب غير محدود والإبن غير محدود والروح القدس غير محدود.. والآب سرمدى والإبن سرمدى والروح القدس سرمدى.. ومع ذلك فهم ليسوا ثلاثة

---

(١) ١. كورنثوس ٨ : ٥.

سرمديين بل سرمدى واحد ... ولا هم ثلاثة غير مخلوقين ولا ثلاثة غير محدودين بل غير مخلوق واحد وغير محدود واحد).

(كذلك الآب قادر على كل شئ، والإبن قادر على كل شئ، والروح القدس قادر على كل شئ... ومع ذلك فهم ليسوا ثلاثة قادرين على كل شئ بل واحد. كما أن الآب هو الله والإبن هو الله والروح القدس هو الله فليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد، ثم أن الآب هو رب والإبن هو رب والروح القدس هو رب وليسوا مع ذلك ثلاثة أرباب بل رب واحد، إذ أن الديانة المسيحية الحقيقية تأمرنا بأن نعترف بأن كلا من الأقانيم على حدة هو إله ورب... وتنهانا عن أن نقول ثلاثة آلهة وثلاثة أرباب.

(ولم يكن الآب مكونا بيد شخص آخر ولا مصنوعا ولا مخلوقاً ولا مولودا منه، قد أتى الإبن من الآب وحده فلم يكن مصنوعاً ولا مخلوقا بل مولوداً، وأتى الروح القدس من الآب ولم يكن مصنوعاً ولا مخلوقاً ولا مولوداً).

(فيوجد إذن آب واحد لا ثلاثة آباء، وابن واحد لا ثلاثة أبناء، وروح قدس واحد لا ثلاثة. وليس فى الثالوث أقنوم أسبق من الآخر ولا أكبر منه بل أن الأقانيم الثلاثة كلها سرمدية معا ومتساوية معاً).

وما أوفقها خاتمة لهذا الحديث ذكرها الوحي الإلهى على لسان القديس يوحنا الرسول إذ قال (فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد) (١).

(٢) هذا هو المبدأ اللاهوتى الذى تضمنه نهى الرب القائل (لايكن لك آلهة أخرى أمامى)...
أما التعليم الروحى فيشمل أمورا عدة أهمها :

* **أن نحب الله حبا فائقاً لا يدانيه حب** ... ومحبته تعالى ينبغى أن تكون من أعماق النفس ومن كل القدرة، ومن قرارة الفكر، أى كما قال تعالى بفمه القدوس (تحب الرب إلهك من كل قلبك، من كل نفسك، من كل فكرك) ومحبته يجب أن لا يشاركه فيها أى من البشر، فلا الأباء أو الأمهات، ولا البنون أو البنات، ولا الأخوة أو الأخوات، لا الزوجات أو الشهوات، ولا الأموال أو الأعمال، بل ولا أى شئ فى الوجود مهما كبر أو صغر، علا أو حقر، كل محبة بإزاء محبة الله ينبغى أن تحسب كراهية وبغضة لعظم الفرق بينهما.

---

(١) ١. يو ٥ : ٧.

وهذا بالضبط هو المعنى الذى أراده المخلص لما قال : (إن كان أحد يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده، واخوته حتى نفسه أيضا، فلا يقدر أن يكون لى تلميذا) (١) وعن حب الله قال مخلصنا (من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب إبنا أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى) (٢) وقديماً كان ابراهيم يحب اسحق حبا جما لأنه ابنه وحيده الحبيب وابن شيخوخته، ومع ذلك لما سأله الرب ابنه ذبيحة لم يتوان بل بكرّ باكرا جداً وقدمه كإرادة الله ... وهذا يدل على منتهى الحب لله بل ويدل على أن محبته لله كانت أعظم من محبته لولده... ولذلك أسمعه الرب شهادته من السماء قائلا (الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك إبنك وحيدك عنى) (٣).

وهذا التعليم الروحى يتضمن فوق هذا أن **نتخذه تعالى متكلنا الوحيد**، فلا ينبغى أن نتكل على الإنسان مطلقا لأنه ينسى، ولأنه يعد ولا يفى، يتكلم ولا يصدق... أما الله (فليس إنسانا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم، هل يقول ولا يفعل، أو يتكلم ولا يفى) (٤).

والإنسان متقلب، متغير لا يكاد يثبت على حال، أما الله فهو (الذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران) (٥) والانسان حتى لو ظل أمينا مخلصا وفيا صادقا بارا فإنه عرضة للموت والفناء، وهنا يقول النبى (لا تتكلموا على الرؤساء ولا على ابن آدم حيث لا خلاص عنده، تخرج روحه فيعود إلى ترابه، فى ذلك اليوم نفسه تهلك أفكاره) (٦).

فلا تخدعك وعود البشر ولا توكيداتهم، بل اعلم أنهم من نفوسهم لا يستطيعون شيئا، فلو شاء الله أن ينجح مقاصدك واعترضك بشر لا ينجح عراقيلهم، ولو شاء ذلك الفشل وساعدك البشر لا تفلح معونتهم... فالله هو الوحيد الذى تستطيع أن تتكل عليه بكل إطمئنان، وعلى ذلك فإن (كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار) (٧).

هذا ما أراده المسيح له المجد يوم نهى تلاميذه عن أن يتخذوا لهم أبا أو معلما على الأرض فقال (ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السماوات، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح) (٨)، فالمسيح هنا لم يقصد بذلك أن ينهانا، عن اتخاذ الكهنة آباء روحيين، لأنه لو أُخذ كلام المسيح حرفيا لما جاز لنا أن ندعو الوالدين أباء، هذا ما لا يمكن أن يذهب إليه المسيح ولن يقره كتابنا المقدس الذى يوصينا بطاعة الوالدين وإكرامهم بل ومن عبث

---

(١) لو ١٤ : ٢٦.
(٢) متى ١٠ : ٢٧.
(٣) تك ٢٢ : ١٢.
(٤) عدد ٢٣ : ١٩.
(٥) يعقوب ١ : ١٧.
(٦) مز ١٤٦ : ٣، ٤.
(٧) يعقوب ١ : ١٧.
(٨) متى ٢٣ : ٩، ١٠.

القول أن نعمد إلى إثبات اعتراف المسيح بهذه الأبوة الجسدية، ولكننا مع ذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نذكر قوله المشهور (فإن كنتم وأنتم أشرارا تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه) (١).

هذا عن الأبوه الجسدية، **أما عن الأبوة الروحية** فكان يكفينا فيها أن نقول أن المشابهة بين ما يقوم به الوالد، وبين ما يقوم به الكاهن، مشابهة من شأنها أن تجعل من الجائز أن يدعى الكاهن أبا ولكن أبا روحيا، فإن كان الوالد يسمى أبا لأنه هو الذى ولد ذلك الإبن، كذلك الكاهن هو أب لأنه ولده بالماء والروح أى بالمعمودية ... فإن قال أن المعمد مولود من الله قلت لك بالمثل أن الخالق أو الوالد الحقيقى لهذا الولد هو الله، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من تلقيب الواسطة التى تجلى بها هذا الخلق والدا، كذلك يجوز تلقيب الكاهن أبا، وإن كان الوالد منوطا به الإهتمام بولده من ناحية تربوية وتغذيته والإنفاق عليه، كذلك الكاهن منوط به الإهتمام بروحه وتغذيته بكلمة الله الحية والأسرار المقدسة.

نقول كانت تكفينا هذه المشابهة لتأييد القول بالأبوة الروحية التى هى أسمى من الأبوة الجسدية بمقدار ما سمت الروح عن الجسد، ومع ذلك فنحن نذكر أن كتابنا المقدس احتوى على نصوص كثيرة تثبت ما نقول، ومن يريد الإقتناع يكفيه قول القديس يوحنا الرسول للمؤمنين وهو البتول الذى ليس له أولاد (يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق) (٢).

هذا كله عن الأبوة بنوعيها جسدية كانت أم روحية، أما عن المعلمين فيتحدث الكتاب عنهم بكل صراحة، وعن وجودهم فى الكنيسة بقوله (فوضع الله أناسا فى الكنيسة أولاً رسلا وثانياً أنبياء ثالثاً معلمين) (٣).

وإذن فالمسيح له المجد لم يعن بقوله عن الآباء والمعلمين أن ينفى بذلك وجودهم وعملهم فى الكنيسة، ولكنه يريد من الرسل الأطهار ومن جميع المؤمنين أن لا يتخذوا من بين البشر أبا يتكلون عليه كل الإتكال، فيهملون الآب السماوى وأن لا يتخذوا من المعلمين آلهة معصومين من الخطأ فى تعليمهم، إذ المسيح هو المعلم الوحيد الذى يخلو تعليمه من كل خطأ وزلل، بل وتعليمه هو المشبع المروى للنفوس والأرواح.

وذلك التعليم الروحى يتضمن علاوة على ما قدمنا **أن لا نلتجئ لغير الله بالصلاة أو العبادة** لأنه مكتوب (للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) (٤). وذلك لأن الصلاة دليل حاجتنا إلى الله. وهى ليست كذلك فحسب بل إنها شركة ولذة وسعادة ومحبة ورفقه وعشرة مع الله،

---

(١) متى ٧ : ١١.
(٢) ١. يوحنا ٣ : ١٨.
(٣) ١. كورنثوس ١٢ : ٢٨.
(٤) متى ٤ : ١٠.

هى رفع الإحساس والمشاعر لتكون مع الله... لله وحده يجب أن تقدم الصلاة والصوم والصدقة. فإذا ما فعلنا ذلك وجب أن تكون غايتنا لا نيل مجد من الناس بل محبة فى الله وطاعة لأوامره... وإذا نحن قصدنا مجدا من الناس كنا فى ذلك عبدة للناس وهذا هو ما ينهانا الله عنه بقوله (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) وعبادتنا لله تعالى تقوم بتكريس وتخصيص كل ما فينا من عقل وحواس لجلاله تعالى، فلا نكتفى فقط بأن نحنى أعضاءنا الظاهرة، ونسجد أمامه على أقدامنا ولكن لابد أيضا من التأمل العقلى، وحصر الذهن، وانسكاب الروح، وخشوع القلب، وتذلل النفس. كما لا يحسن الإكتفاء بهذه الأخيرة دون تلك، بل يجب أن نعبده بأرواحنا وأجسادنا ونفوسنا. فعبادة الروح بلا جسد، وعبادة الجسد بلا روح، كلاهما ناقصة، فكما أن الله خالق الروح وله عليها واجب العبادة، كذلك هو خالق الجسد، وله عليه واجب التذلل والخضوع، وبالإجمال يجب أن يكون كل شئ فينا ملكا لمن اشترانا وفدانا بدمه. فلنكن مستأسرين كل فكر وفعل لطاعة المسيح إلهنا. ومما سبق نرى حاجتنا إلى الطقوس فديانة بلا طقوس ديانة لا تليق ببشر ولا بملائكة لأن الملائكة يعبدون الله بطقوس معينة. فهم يسجدون ويخرون أمام الحىّ إلى أبد الآبدين. كما نقرأ ذلك كثيراً فى سفر الرؤيا، لذلك فمن ينادى بهذا الفكر يدّعى للبشر ماليس بهم (فمجدوا الله فى أرواحكم وأجسادكم التى هى لله).

(١) وإذا قلنا أن الله هو وحده الذى يحق له العبادة والصلاة والسجود، فلا يليق بنا أن نفهم **صلة الكنيسة بالقديسين المنتقلين على هذا النحو**، فإن دعوناهم فإنما ندعوهم ليتضرعوا إلى الرب من أجلنا، كما أنهم فى حاجة إلى صلوات الكنيسة إلى الرب من أجلهم، وإذن فالصلة بيننا وبينهم صلة المحبة المتبادلة، وهذه الصلة ليست غير الصلاة لكننا نصر دائما على أنهم مخلوقون مثلنا. غير أن الفارق بيننا وبينهم هو فى أن هؤلاء فى دار البقاء قد انتصروا، أما نحن فما زلنا فى ميدان الوغى محاربين، وواضح أنه ليست لهم فى ذواتهم قوة على أن يساعدونا، إنما هى صلواتهم المقبولة أمام الله هى التى تستدر لنا الرحمة والعون. فحينما نستغيث بالله ذاكرين أسماءهم فالرب يستجيب لنا إكراما لهم ...

(٢) هذا، **والنذور** إن قدمت بأسمائهم فليس على إعتبار أنها مقدمة لهم لأنهم أرواح لا تحتاج إلى عطايا مادية، فوق أنهم مخلوقون ممجدون.

وإنما نحن نقدم النذور بأسمائهم لأن الرب يسر جداً بهذا : إذ أن إكرام قديسيه إكرام له، كما أن اعتبارنا لهم اعتبارا للفضيلة التى تحلّوا بها، فضلا عن أن ذكر أسمائهم على أفواهنا ما يستثير فى نفوسنا العمل بسيرتهم ووفق مبادئهم...

ومسّرة الرب بتقديم النذور بأسماء القديسين يوضحه قوله تعالى (من يقبلكم يقبلنى، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى، من يقبل نبيا بإسم نبى فأجر نبى يأخذ، ومن يقبل بارا بإسم بار فأجر

بار يأخذ، ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم أنه لا يضيع أجره) (١).

(٣) وما نقوله عن النذور **يقال عن اطلاق أسماء الملائكة والقديسين** على الكنائس... فنحن لا نعبد الملائكة ولا القديسين، بل الرب الذى أحبنا وغسلنا من خطايانا.

وأما إطلاقنا أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس فلأغراض معينة ولحكمة سامية هى إكرامهم كما أسلفنا لِماَ فى هذا من إرضاء الله ذاته (أكرم الذين يكرموننى) ولِماَ يعود علينا من الفائدة من ذكراهم، بل ولِماَ فى هذا المبدأ من تشجيع للمؤمنين على حياة الفضيلة بمكافأة أبرارها وقديسيها وتقدير الفضيلة فيهم.

وإذا كنا نرى الحكومات تطلق على الشوارع أسماء عظماء الناس لهذه الأغراض... أى تمجيدا للفضيلة وإحياء لذكرى الأبطال والعظماء المبرزين، أفتكون الكنيسة أقل تقديرا للفضيلة والفضلاء من أهل العالم؟

هذا، وإن فى إطلاق أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس ما يميز كنيسة عن غيرها، فإذا كان فى بلدة ما، أكثر من كنيسة واحدة، وكانت إحداها تسمى كنيسة السيدة العذراء، وأخرى كنيسة مارجرجس فإن هذا يفيد فى التفرقة بين الكنيستين...

وإذا كان من عادات الأباء فى العصور الأولى عصور الشهداء أن يبنى فوق جثمان الشهيد كنيسة، أو أن يدفن الشهيد فى الكنيسة، كان من الطبيعى إذن أن تسمى الكنيسة بإسم هذا الشهيد أو القديس.

هكذا بنيت الكنائس على أسماء الملائكة والقديسين منذ العصور الأولى، وظلت الكنيسة إلى الآن وستظل إلى منتهى الدهور متمسكة بهذا التقليد القديم. وإن ما نراه فى تمسك الكاثوليك والأسقفيين وهم من غير أبناء كنيستنا بهذا التقليد، ما يفسر لنا أنه من السهل أن يقتنع الجميع بصحة وجهة نظر الكنيسة.

لقد قيل عن الشريعة أنها شريعة موسى، وعن الإنجيل أنه إنجيل متى، وعن الهيكل أنه هيكل سليمان، ومع ذلك لم يقل أحد أن فى هذه التسمية ما يضاد مشيئة الله.

---

(١) متى ١٠ : ٤٠ ـ ٤٢.

فالله هو صاحب الشريعة، وهو الموحى بالإنجيل وهو رب الهيكل، لكن الشريعة سميت بشريعة موسى لأن موسى هو الذى تلقاها من الله. والإنجيل سمى بإنجيل متى، أو مرقس. الخ لأن القديس متى أو القديس مرقس هو الذى كتبه مسوقا من الروح القدس، وسمى الهيكل هيكل سليمان لأن سليمان هو الذى بناه... وإذن فمن كتاب الله نفسه يتضح لنا أن الله سر بهذه الأشياء، ولم يجد فيها ما ينافى إرادته ومشيئته، فلا فرق عند الله بين أن نسمى الشريعة شريعة الله أو شريعة موسى لأن المعنى يستقيم فى كلتا الحالتين... هكذا لا فرق بين أن تسمى الكنيسة كنيسة الله أو كنيسة الملاك أو كنيسة القديس...، فالله هو المعبود الوحيد فى جميع الكنائس ومن يريد التحقق فليدخل كنائسنا جميعا. فألفاظ العبادة والنظم والطقوس والترتيبات كلها واحدة فى جميع الكنائس، مما يؤيد أن ليس فى هذه التسمية ما يغير من العبادة المتحدة فى جميع كنائسنا.

وإذن فليس فى إطلاق أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس ما يضاد الوصية الأولى القائلة: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) مادام الله هو المعبود الوحيد وما دامت أسماء الملائكة والقديسين للذكر والإكرام والإقتداء لا للعبادة أو التأليه...

(٤) كذلك يجب أن لا نظن أن **إطلاق أسماء العذراء والرسل على بعض الأصوام** مناقضا للوصية الأولى التى تمنع أن نتخذ غير الله معبودا. فالأصل فى هذه التسمية هو أن صوم العذراء ينتهى بعيد صعود جسدها الطاهر إلى السماء بعد وفاتها... وأنه الصوم الذى صامه رسل المسيح ليكشف الرب لهم عن سر إختفاء جسدها بعد أن دفنوها بأيديهم، فبعد أن صاموا هذه المدة أظهر لهم الرب الجسد ثانياً محمولاً بين أيدى الملائكة. وهذا خلاف المرة الأولى التى رآه فيها القديس توما الرسول وحده.

وبالمثل صوم الرسل، فقد سمى باسمهم لأنهم هم الذين صاموا بعد حلول الروح القدس عليهم إتماما لقول الرب (ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام) (١).

وإلى هذا الصوم أشار القديس لوقا فى سفر الأعمال (٢)، ولذلك نجد الكنيسة تبدأ صوم الرسل فى اليوم التالى لعيد حلول الروح القدس فى يوم الخمسين.

---

(١) مر ٢ : ٢٠.

(٢) أعمال ١٣ : ٢، أعمال ٢٧ : ٩.

لسنا نقصد هنا إثبات الصوم، فهذا ما يحتاج إلى بحث منفرد ، وإنما مقصدنا أن نبين أن هذين الصومين، صوم العذراء وصوم الرسل قد نسبا إلى العذراء والرسل لا لأننا نصوم للعذراء أو الرسل، فهذا ما ننكره ونصر على إنكاره، ولكن الأول ينتهي بعيد العذراء، والثانى لأن الرسل هم أول من صاموه.

ولطالما يحتج البروتستانت على الصوم بهذا الإعتراض الواهى إذ يقولون أننا لا يمكن أن نصوم مثلكم أيها الأقباط للعذراء والرسل لأنهم بشر مثلنا... ونحن لا نجد فى هذا الإعتراض إلا جهلا بالتعاليم المستقيمة التى تعلم بها كنيستنا، فهم لم يدرسوا المسألة إلا بنظرة سطحية، ومن ثم يحتجون بلا مبرر، ولو كان صوم الرسل معناه أننا نصوم للرسل، وصوم العذراء، اننا نصوم للعذراء، فماذا يكون إذن معنى صوم الميلاد؟ أو الصوم المقدس؟ أو صوم الأربعاء والجمعة، أو صوم نينوى، أو صوم البرمون؟

والخلاصة أنه ليس فى إطلاق أسماء العذراء والرسل على بعض الأصوام ما يتنافى مع الوصية الأولى.

(٥) وما قلناه عن الأصوام نقوله عن أعياد القديسين والملائكة، فنحن نحتفل علاوة على الأربعة عشر عيدا السيدية الكبرى والصغرى، بأعياد أخرى للعذراء الطاهرة والرسل القديسين، والشهداء الأبرار، والأعياد هى دون شك، نوع من العبادة يقدم لله تعالى بالتهليل والفرح بالرب، نظرا للبركات الوفيرة التى منحها لنا فى مناسبات هذه الأعياد، هذا فيما يختص بالأعياد السيدية، أما الأعياد الخاصة بالملائكة، والعذراء، والرسل والشهداء فهى ليست عبادة مقدمة لهم، ولكنها عبادة مقدمة لله تعالى، وليست أسماء الملائكة أو القديسين فى هذه الأعياد إلا لذكراهم، والتأمل فى قداستهم وطهارة سيرتهم حتى نتمثل بهم فيتمجد الله فى أعمالنا كما تمجد فى أعمالهم.

وإذا كان المسيح له المجد قد أوصى خيرا بالمرأة التى سكبت على رأسه قارورة الطيب قائلا: (الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها)(١) . فكم وكم يكون أولى بهذه الذكرى، وهذا التخبير من لم يسكبوا من أجل المسيح طيبا، بل دماءهم بعد أن ذاقوا من أجل اسمه أقصى وأمر أنواع العذاب؟ وهل يفعل فى أعياد القديسين إلا ما أوصى به الرب؟

---

(١) متى ٢٦ : ١٣.

فإن تاريخ حياتهم يتلى على جمهور المؤمنين فى الكنيسة وكذلك تنشد بعض الترانيم لهذه المناسبة.

وليس فى هذا إلا كل خير وبركة لنفوس العابدين. وإذن فلسنا فى حاجة إلى القول بأن هذا الأمر لا يتنافى مع الوصية الأولى، بل على العكس أنه ينسجم معها ويؤيدها، لأن المسيح لما قال: (ليرى الناس أعمالكم الصالحة أعقب ذلك بقوله(فيمجدوا أباكم الذى فى السموات) (١).

(٦) وهكذا يبدو أمام بعض الناس منافيا للوصية الأولى، **ما يقدم لرؤساء الكهنة، وعلى مدافن الأبرار، وأمام صورهم من إطلاق البخور**، والإنحناء أو السجود، ولكن أليس من الحق أننا قد ننحنى أو نسجد أمام الملوك والرؤساء والعظماء ونخاطبهم بكلمات الخضوع والخشوع داعين إياهم سادة مبجلين، واضعين ذواتنا لهم عبيدا مطيعين، ومع ذلك لا نفكر إطلاقا فى أن ما نفعله لهؤلاء من ضروب السجود والتبجيل يتنافى مع عبادتنا لله؟ بل إذا إعترض علينا بذلك أجبنا، أن هناك فارقا ضخما بين السجود الذى نقدمه للملوك والسجود الذى ندين به لله. فالسجود أمام الملوك والعظماء هو سجود الإحترام والإكبار وهذا يختلف إختلافا عظيما عن السجود لله وهو سجود العبادة والتأليه.

إننى أقول للملك أو للرئيس: إنى عبدك، وأقول لله نفس الكلمات بعينها، ومع ذلك فالعبارتان تختلفان : فإن الأولى تعبر عن الخضوع والإكرام للرؤساء الذين أمر الله نفسه بإكرامهم (الإكرام لمن له الإكرام) (٢) أما الثانية فتدل على روح التعبد للخالق العظيم.

أما إن قيل أن دانيال رفض السجود أمام الملك، وكذلك مردخاى أمام هامان وكذلك رفض القديس بطرس الرسول سجود كورنيليوس أمامه، ورفض القديسان بولس وبرنابا تصرف شعب لسترة معهما بالذبح لهما، فالسبب فى كل هذه الحوادث واحد لا غير، هو أن هذا السجود فى تلك الحالات كان للعبادة لا للإكرام، وحاشا لهؤلاء القديسين أن يطيقوا رؤية الناس يقدمون لهم، أو لغيرهم من البشر سجود العبادة بإعتبارهم آلهة، ولكى تثق بصحة ما نقوله راجع .. (٣).

(١) متى ٥ : ١٦.

(٢) رو ١٣ : ٧.

(٣) دانيال ٦ : ٧، ١١، ١٢، ثم أستير ١٣ : ١٤، ثم أعمال ١٠ : ٢٥، ٢٦ و ١٤ : ١١ ـ ١٥.

وبينما كان يمتنع القديسون عن السجود التعبدى لغير الله، كانوا مع ذلك يسجدون أمام الرؤساء والعظماء إكراما لهم وإجلالا، فلقد سجد إبراهيم أمام شعب الأرض (١)، وسجد يعقوب إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه عيسو (٢)، وسجد ناثان النبى للملك داود على وجهه إلى الأرض (٣)، وسجد أيضا سليمان الحكيم أمام أمه (٤)، إذن ليس فى سجود الإحترام أمام الرؤساء والقديسين، ما يتنافى مع الوصية الأولى القائلة (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى).

قلنا، أن فى نهى الرب عن إتخاذ آلهة أخرى أمامه مبدأن أحدهما : لاهوتى، والآخر روحى، وقلنا أيضا أن هذا التعليم الروحى يتضمن أن نحب الله حبا فائقاً لا يدانيه حب، وأن نتكل عليه وحده دون سواه بكل قلوبنا، وأن نتخذه المعبود الوحيد الذى نتجه إليه بصلواتنا وأصوامنا وصدقاتنا. والآن نستطيع أن نضيف إلى ما تقدم تعليما جديداً يتضمنه هذا التعليم الروحى الذى نستفيده من قوله تعالى : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) أما هذا التعليم فهو أن **لا نلتجئ لغيره فى سؤال أو طلب، ولا نلتمس من طريق آخر معرفة الأمور المستقبلة.**

فالبشر فى مختلف العصور قد لجأوا إلى طرق كثيرة معوجة، إلتمسوا منها معرفة الغيب المحجب، منها ما يعتمد على قوة الشيطان، ومنها ما يعتمد على نظريات علمية، ومنها ما ليس له نصيب من هذا أو ذاك... بل هو محض إدعاء وإفتراء لتضليل العقول وإيهام النفوس.

ولا يفوتنا بصدد هذه الوصية الأولى، أن نعرض فى إيجاز لبعض هذه السبل الملتوية التى سلك فيها الناس منافين لأوامر الله تعالى.

أولاً أما الوسائل التى يعتمدون فيها على قوة الشيطان، وحيله المضلة الخداعة فهى كثيرة وسنقصر الحديث عن السحر، والعرافة، فحسب ...

(١) السحر :-

هو إجراء أمور تستثير الإعجاب فتبدو أمام الآخرين عسيرة أو مستحيلة بالنسبة لهم، وقد ذكر الكتاب المقدس السحرة مرارا عدة، فذكرهم فى حوادث ملوك بابل فى سفر دانيال، حيث أن الملوك يدعون السحرة والمنجمين ليكشفوا لهم عما خفى عليهم، فأمر الملك بأن يستدعى

---

(١) تكوين ٢٣ : ١٢.
(٢) تكوين ٣٣ : ٣.
(٣) ١. الملوك ١ : ٢٣.
(٤) ١. الملوك ٢ : ١٩.

المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون ليخبروا الملك بأحلامه (١). هذا ماقيل عن نبوخذ نصر الملك وكذلك قيل عن بيلشاصر عندما رأى كتابة على الحائط (فصرخ الملك بشدة لإدخال السحرة والكلدانيين والمنجمين) (٢) وكما كان السحر منتشرا فى بابل، كذلك كان شأنه عظيما فى مصر التى اشتهرت بسحرها العظيم أيام موسى النبى الكليم، فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافوا مصر أيضا بسحرهم كذلك وطرحوا كل واحد عصاه، فصارت العصى ثعابين ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم (٣).

وقد جابهت المسيحية أبان ظهورها أعمال السحر وغيره، فلما آمن الناس بدين المسيح ورجعوا إلى الله بكل قلوبهم (كان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع، وحسبوا أثمانها فوجدوها خمسين ألفا من الفضة) (٤).

ومن السحرة الذين ذكرت أسماؤهم فى العهد الجديد، سيمون : (وكان قبلا فى المدينة رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلاً : أنه شئ عظيم، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة وكانوا يتبعونه لكونهم قد إندهشوا زمانا طويلا بسحره) (٥).

ومن السحرة أيضا عليم الساحر، أو باريشوع هذا الذى قاوم الرسولين بولس وبرنابا طالبا أن يفسد الوالى سرجيوس عن الإيمان. (وأما شاول الذى هو بولس أيضا فامتلأ من الروح القدس وشخص إليه وقال أيها الممتلئ كل غش وكل خبث، يا ابن ابليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هوذا يد الرب عليك فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين... ففى الحال سقط عليه ضباب وظلمة، فجعل يدور متلمسا من يقوده بيده. فالوالى حينئذ لما رأى ما جرى آمن مندهشاً من تعليم الرب) (٦).

ومن الأهمية بمكان، أن نعرف يقينا أن السحرة يعتمدون على قوة الشيطان الذى يبغى تضليل البشر وإفساد أذهانهم عن طلب طريق الرب. ونحن لا ننكر قوة الشيطان فقد دعاه الكتاب (إله هذا الدهر) ودعاه الرب (رئيس هذا العالم) وإنما الذى ننكره ونرفض التسليم به هو

---

(١) دانيال ٢ : ١، ٢ (٢) دانيال ٥ : ٧. (٣) خر ٧ : ١١، ١٢.

(٤) أعمال ١٩ : ١٩. (٥) أعمال ٨ : ٩. (٦) أعمال ١٣ : ٩ - ١٢.

إلتجاؤنا وإحتماؤنا كمؤمنين بقوة الشيطان، تاركين قوة الله، وناسين أن إبليس عدو نفوسنا، وأنه لا يبغى لنا خيرا حتى لو بدا لنا فى بعض الأحيان ذلك.

وقد جاء فى تاريخ الكنيسة عن سيمون الساحر هذا الذى آمن مندهشا من تعليم الرب، أنه ندم وارتد عن الإيمان، وذهب إلى رومة وهناك أضل الناس بسحره حتى حسبوه إلها وعملوا له صورة وعبدوها. وأراد مرة أن يصعد إلى السماء على مرأى من ملك روسيا وعظمائها وشعبها، فدعا الشياطين فحملوه وصعدوا به عاليا، فصاحت الجموع قائلة عظيمة قدرة سيمون. وكان القديس بطرس الرسول أحد المشاهدين، فجثا على ركبتيه وصلى لله حتى يبطل قوة الشيطان، فلما أراد سيمون النزول ثانياً بالتدريج تركته الشياطين وهربت من قوة الصلاة... فهوى سيمون على الأرض وترضض جسده، وإنكسرت ساقاه، فحمله تلاميذه إلى بيت قريب... أما هو فلفرط خجله لم يرد أن يظهر ثانية بين الناس فصعد إلى السطح وألقى بنفسه على الأرض فمات... وهكذا يضلل الشيطان البشر عن طريق قوته السحرية، ولكنه ضعيف أمام قوة الله وضعيف عن المؤمنين المعتمدين على قوة الله.

وغيرة الرب على شعبه فى أن يصونهم من الضلال دفعته إلى أن يصدر أمرا ضد السحرة فقد أمر بغير إشفاق (لا تدع ساحرة تعيش) (١)، وقد عرف المؤمنون بالمسيح أن السحر يتنافى مع طاعة أوامر الله ولذلك (كان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع) (٢).

(٢) العرافة :

فيقصد بها معرفة الغيب المحجب، ويُعرف أصحاب هذه الطريقة بالعرافين، وهم يتبعون فى سبيل ذلك طرقا مختلفة كثيرة، منها ما يعرف لدى المطلعين على هذه الأمور (بالمندل) وبه يستدعون الشياطين صراحة للإخبار، كما أن من العرافين من يستدعى الشياطين بالرمل والودع، أو نوى البلح، أو القهوة وغير ذلك.

وقد دعا الكتاب المقدس هؤلاء العرافين، (أصحاب الجن أو التوابع) على أن هناك إختلافا بين أصحاب الجن، وبين التوابع : فأصحاب الجن يجمعون الشياطين حينما يريدون، بينما التوابع تتبعهم شياطينهم بإستمرار، فهم لا يحتاجون إلى إستدعائهم فى وقت دون آخر، وقد قال

---

(١) خر ٢٢ : ١٨.

(٢) أعمال ١٩ : ١٩.

بعضهم (أن أصحاب التابعة هو من معه روح تنبئه بما فوق الطبيعة من الأمور فتتكلم من إبطه أو صدره بصوت عميق).

وقد شهد الوحى الإلهى صراحة عن هؤلاء العرافين، وكيف أن مصدر معرفتهم إنما هو الشيطان، فهو (قد إقتنصهم لإرادته)، وهم قد استخدموه للتضليل والربح الباطل.

ومن ذلك، ما جاء عن عرافة بمدينة فيلبى: (وحدث بينما كنا ذاهبين إلى الصلاة، أن جارية بها روح عرافة استقبلتنا، وكانت تُكسب مواليها مكسبا كثيراً بعرافتها، هذه اتبعت بولس وإيانا وصرخت قائلة: هؤلاء الناس هم عبيد الله الحى الذين ينادون لكم بطريق الخلاص، وكانت تفعل هذا أياماً كثيرة، فضجر بولس وإلتفت إلى الروح وقال: أنا آمرك باسم ربنا يسوع المسيح أن تخرج منها فخرج فى تلك الساعة، فلما رأى مواليها أنه قد خرج رجاء مكسبهم أمسكوا بولس وسيلا وجروهما إلى السوق إلى الحكام) (١).

ومن ذلك نفهم، أن العرافين ترافقهم أرواح الشياطين لتخبرهم فتبعد الناس عن طريق الحق والحياة، وقد يقال أن العرافة كانت تشهد للناس عن طريق الخلاص، فنقول أن الشيطان أحيانا يصرخ بالحق فيجعل الناس يثقون به فيمعن فى تضليلهم، ولذلك فإنه لما اعترف بالمسيح وقال له (أنت قدوس الله) انتهره يسوع قائلا: (اخرس واخرج منه) (٢).

ومرة أخرى، نقرأ عن عرافة لجأ إليها شاول الملك ليسألها فقال له عبيده هوذا إمرأة صاحبة جان فى عيون دور، فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه، وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال: (اعرفى لى بالجان وإصعدى لى من أقول لك). فقالت له المرأة: (هوذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض فلماذا تصنع شركا لنفسى لتميتها؟) فحلف شاول بالرب قائلاً (حى هو الرب أنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر)... فقالت المرأة: (من أصعد لك) فقال (إصعدى لى صموئيل).. فلما رأت المرأة صموئيل، صرخت بصوت عظيم، وكلمت المرأة شاول قائلة: (لماذا خدعتنى وأنت شاول) فقال لها الملك (لا تخافى، فماذا رأيت؟) فقالت المرأة لشاول (رأيت آلهة يصعدون من الأرض) فقال لها (ما هى صورته؟) فقالت (رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة)... فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد....» (٣).

---

(١) أع ١٦:١٨ (٢) لو ٤: ٣٥. (٣) ١. صموئيل ٢٨: ٧ - ١٤.

وقد يسأل سائل كيف ينهى الرب عن العرافة، وفى الآن نفسه يسمح لنبيه صموئيل أن يأتى بناء على عمل العرافة، فيكون للشيطان سلطان على أولاد الله فيصعدهم ويأتى بهم حسب إرادته؟ والحق إننا لو راجعنا النص بدقة وفحص، لا نستطيع أن نجد فيه أية عبارة يشتم منها أن النبى قد جاء بناء على عمل العرافة أو بعد تلاوة تعاويذها، بل أن الواضح أن النبى صموئيل ظهر قبل أن تقوم المرأة بأعمال عرافتها... وأما السبب الذى من أجله أراد الله أن يظهر صموئيل عن هذا الطريق وحده أى عن طريق العرافة، فهو أنه أراد أن يسجل على شاول هذه الخطيئة العظيمة، خطيئة إلتجائه إلى إمرأة عرافة مخالفا لأوامر الله الذى نهى نهيا باتا عن هذه الأمور. فظهور صموئيل لشاول على هذه الصورة أقسى تقريع وتأنيب لشاول على هذه المخالفة الصريحة... والدليل على هذا أن الله أوضح أن فعلة شاول هذه استحقت غضب الله تعالى ورفضه نهائياً فقال الوحى : (فمات شاول بخيانته التى بها خان الرب، من أجل كلام الرب الذى لم يحفظه وأيضا لأجل طلبه إلى الجان للسؤال، ولم يسأل من الرب فأماته وحول المملكة إلى داود بن يسى)... وقد أعلن الرب إستياءه العظيم من الإلتجاء إلى العرافين لا فى هذه الحادثة فقط، ولكننا فى غير موضع واحد من الكتاب المقدس نجد أوامر مشددة وصريحة تنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور لأولئك الذين يعتدون على شريعة الله بطلبهم وسؤالهم من الجان وتوابعه...

من ذلك ما جاء فى سفر اللاويين، (لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم أنا الرب إلهكم) (١)... (النفس التى تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزنى وراءهم أجعل وجهى ضد تلك النفس وأقطعها من شعبها) (٢)... (وإذا كان فى رجل أو إمرأة جان أو تابعة، فإنه يقتل، بالحجارة يرجمونه، دمه عليه) (٣).

وأخيرا، فإن سفر التثنية أيضا... قد حدد موقف شعب الله من السحر والعرافة وما إليهما بقوله :

(متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك، لاتتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يجيز إبنه أو إبنته فى النار **ولا من يعرف عرافة، ولا عائف ولا متفائل، ولا ساحر ولا من يرقى رقية، ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى**، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب، وبسبب هذه الأرجاس، إلهك طاردهم من أمامك، تكون كاملا لدى الرب إلهك... إن هؤلاء الأمم الذين تخلفهم يسمعون للعائفين والعرافين، وأما أنت فلم يسمح لك الرب إلهك هكذا) (٤).

---

(١) اللاويين ١٩ : ٣١.
(٢) اللاويين ٢٠ : ٦.
(٣) اللاويين ٢٠ : ٢٧.
(٤) التثنية ١٨ : ٩ - ١٤.

أيا ليت الذين يلتفتون إلى السحر والعرافة، يستمعون إلى صوت الله (أنا الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى...)

أما الوسائل العلمية التى يستخدمها البشر فى سبيل معرفة الأمور المستقبلة فكثيرة كذلك: منها (**التنويم المغناطيسى**).

ولكن هل يمكن أن يعتبر التنويم المغناطيسى أداة لكشف المستقبلات، إننا لن نستطيع أن نجيب على هذا السؤال قبل أن نعرض للغاية الأساسية للتنويم المغناطيسى.

للإنسان رغبات مكبوتة، يميل إلى تحقيقها، ولكنها تتنافى مع ما نهى الله عنه، أو مع ما تواضع الناس عليه من قوانين وعادات، وهذه العقد النفسية أو الرغبات المكبوتة حينما يشتد الضغط عليها، ولا تجد منفذا لها بتغيير الفكر، وتجديد الذهن، قد تؤدى فى أحيان كثيرة إلى اضطرابات عصبية وأمراض عقلية، نتيجة الصراع الداخلى العنيف بين الميل إلى تحقيق هذه الرغبات وبين الميل إلى احترام المبادئ السامية التى تتعارض مع هذه الرغبات.

وقد اهتدى علماء النفس إلى بعض الطرق النفسية التى بها يخلصون هؤلاء المرضى من أتعابهم وآلامهم، ومن هذه الطرق : التحليل النفسى والتنويم المغناطيسى...

وفى التنويم المغناطيسى، يشترط أن يكون المُنَوِم أقوى إرادة من المُنوم، حتى يغلبه بشخصيته فتنعدم شخصيةالمنوم أو المريض أمام المنوم وحينئذ يصبح المريض خاضعا مطيعا لإيحاءات المنوم وأوامره، بحيث إن أوحى إليه أنه ملك، فسريعاً ما تعلوه مهابة الملوك، وإن قدم إليه تفاحة مثلا وقال له إنها بصل، فهو لا يشك أنها بصل، وهكذا ...

فعن طريق الإيحاء يستطيع المنوم أن يؤثر فى المريض أو المنوم كيفما يشاء، والمريض لا يقاوم ولا يناقش بل يصدق ويؤمن ويعمل بما يأمره أو يوحى به إليه المنوم.

هكذا يرى علماء النفس، أن المنوم يمكنه أن يوحى إلى المريض بمرض عصبى أو عقلى نتيجة صراع الرغبات المكبوتة فى العقل الباطن، أنه قد شفى، فيشفى، وبذلك يتخلص المريض من آلامه النفسية، وإضطراباته العصبية.

ومع ذلك، فقد اعترض بعض علماء النفس على التنويم المغناطيسى بعدة إعتراضات وجيهه منها: أن التنويم المغناطيسى لا يصلح علاجا لكل الأمراض النفسية، ومنها أنه لا يستأصل المرض بل كثيرا ما يتوهم المريض عن طريق الإيحاء أنه شفى، ولكن سرعان ما يعود إليه المرض ثانية، فضلا عن أن علماء آخرين ينسبون إليه مضار كثيرة وعيوبا للفرد والمجتمع مما لا نستطيع أن نتوسع فيه الآن...

وعلى الرغم من وجاهة هذه الإعتراضات وغيرها، فإن التنويم المغناطيسى عند القائلين به ليس إلا وسيلة من وسائل الشفاء من الأمراض العصبية.

وإذا كان علماء النفس يقرون أن المنوم لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا ما يوحى به إليه المنوم، فإنهم يصرون أيضاً على أن التنويم لا يمكن أن يكون وسيلة للكشف عن المستقبلات **فلا يستطيع المنوم المغناطيسى بالطرق العلمية البحتة أن يعرف الخفيات**، ومعنى هذا أن الإلتجاء إلى المنومين لمعرفة أسئلة الإمتحان أو الأشياء المفقودة أو نجاح مسألة ما أو فشلها أو كل ما يتصل بالمستقبل عن قريب أو بعيد كل هذا ليس من علم النفس فى شئ.

وثمت فريق أكثر عددا وأوفر اتباعا من الفريقين السابقين، وهو **فريق الدجالين**... وهم قوم مضلون، يريدون أن يرتزقوا، فيموهون على عقول البسطاء والدهماء، أنهم سحرة أو عرافون أو منجمون، وهم فى الواقع ليسوا كذلك، ومن وقت إلى آخر نسمع أو نقرأ أن رجال الحكومة قد قبضوا على رجال أو نساء من الدجالين وزجوهم فى أعماق السجون، ولكن بعد أن يكون ضعفاء العقول قد خسروا خسرانا مبينا وأضاعوا وقتهم وأموالهم، عثروا و تعدوا تعديا صريحا على الله، إذ حولوا وجوههم عنه وداسوا شريعته، ولم يعبأوا بإنذاره ووعيده، فأدركوا ياهؤلاء (أنا الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى أمامى).

لست أفهم سببا تعجل لأجله الحوادث، فنكشف عن الغيب المحجب، ما لك والغد، هب أن فى الغد شرا، فلماذا تقضى على هناء اليوم بالتفكير فى شر الغد؟ وهب أن فى الغد خيرا، فلماذا تنقص من هناء الغد، بإختلاسه لليوم.

المؤمن الحقيقى لا يعنيه الإهتمام بالغد، إذ هو يقابل الشر والخير على السواء، مادام يعتقد أنهما زائلان، بكل هدوء وإتزان فهو لا يحسب لهما كل هذا الحساب، ولا يهتز أمامهما مهما كانا.

إنه يريد أن يفكر فى يومه، وفيم يجب أن يقضيه؟ ثم إذا إنتهى اليوم يلقى نظره فاحصة على ماضيه فيم أخطأ، وفيم أصاب، ولن يهدأ له بال حتى يطمئن إلى تصفيه الحساب.

وماذا يعنيه من الغد وهو لا يملك الغد. أين الإيمان إذن؟ وأين الإتكال على الله؟ أليس من الخير، أن نعمل الخير مادمنا نؤمن بالله، وهذا الإيمان بالله ألا يطمئنا على مستقبلنا مادمنا نعتقد بعنايته وصحبته، ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله (١) (ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتنى بكم) (٢).

ربى وإلهى... أليست هى عبارة حلوة ورخيمة (أنا الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) أجل إن آذان الأتقياء تستعذبها وقلوب الصديقين تتأملها. لست أريد أن أنساها لئلا أنساك، ولست أستطيع أن أنساك، وإن كانت ميول الجسد تتمنى أن أنساك، ولكن حتى لو نسيت وتناسيت فلا تنسانى، بل فى كل حين علمنى وفهمنى ونبهنى، ومن أعماق الضمير كلمنى وذكرنى :

«أنا الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى أمامى»

---

(١) رو ٨ : ٢٨.

١. بطرس ٥ : ٣.

تأملات فى الوصية الأولى (١)

عقيدة التوحيد

وإذا قال الرب فى الوصية الأولى من الوصايا العشر «أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» كما جاء فى سفرى الخروج والتثنية، فكأن قوله تعالى دعوة صريحة إلى التوحيد ورفض التعدد ورفض الشرك وإنكار القول بأكثر من إله واحد.

وحقا إن النص المقدس فيما ينهى عن تعدد الآلهة أثبت بقوله «لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» أن هناك عددا من آلهة، لكنه يقول بالنص على هذه الصورة ليشير بالتحديد إلى إنحرافات الشعوب والأمم وأخطاء الأفراد الذين عبدوا إلهين أو ثلاثة، أو أكثر من ثلاثة.

نعم إن التعبد لأكثر من إله إنحراف وضلال وفساد، ولابد أن الإنسان الأول آدم عرف الله الخالق ولم يعرف غير إله واحد، أما تعدد الآلهة فقد عرفه الناس فى أزمنة لاحقة، وفى فترات الفتور الدينى حدث إسترخاء من الناحية الدينية، فحدث أن الناس اتجهوا إلى مصادر أخرى واعتبروها آلهة، لأنهم رأوا لها فضل، مثل النيل فى مصر، كان القدماء المصريين يعرفون الإله الواحد، ولكن لأن الماء حياة الإنسان وحياة النبات وحياة الحيوان، فكانوا يعتبروا أن النيل ينبع من عند الله الأكبر، فعبدوا النيل كإله، لكنه ليس الإله الأكبر، الله الأكبر لا أحد يراه لكنه يعبر عن نفسه وعن وجوده بكائنات أخرى يلمس الإنسان بها عطاء الله، مثلما عبدوا البقرة، فمن غير المعقول أنهم عبدوا البقرة كالإله الأكبر، لكن لأن البقرة تعطى لبن واللبن مهم للأطفال فوجدوا فيها عطاء الله من خلال هذه البقرة، ولأن الثور رمز القوة بين الحيوانات، فكانوا يقولون الدنيا كلها على رأس ثور، وجدوا فى الثور قوة الله تتجلى فى هذا الحيوان، الله هو غير المنظور إنما يعبر عنه برمز، كذلك عندما عبدوا الجعران كإله، فمن غير المعقول أن قدماء المصريين وصلوا إلى أن يعبدوا الجعران الصغير، إنما وجدوا فيه رمزا من الرموز الإلهية، لاحظوا أن الجعران يحرك بيضته عند غروب الشمس، بحركة دائرية، فوجدوا فيها رمز للأزلية والأبدية، ولذلك كلمة جعران فى مصر القديمة هو ختن أى شوبى بالقبطى وشوبى معناها يكون، الكائن دائما، فهنا غير معقول أن يعبدوا الجعران كالإله الأكبر، إنما وجدوا فيه رمز لبعض صفات الإله، لأن الله غير منظور، طبعا من الجائز أن يكون الشعب الجاهل تربى فى هذه الأشياء

---

(١) مجموعة محاضرات ألقيت لطلبة قسم اللاهوت ـ العام الدراسى ١٩٩٢/١٩٩٣م ـ مفرغة من شرائط كاسيت ـ ولكثرة المعلومات الموجودة بها رأينا نشرها للاستفادة.

والتصق بها أكثر، لكن الأصول الدينية القديمة لم تكن كذلك، فتعدد الآلهة يعد إنحراف وفساد، الإنسان الأول آدم عرف الله خالقه ولم يعرف غير الإله الواحد، أما تعدد الآلهة فقد عرفه الناس فى أزمنة لاحقة، وفى فترات فتور وفى تحلل روحى أو جهل أو ضلال أو فساد أخلاقى، فإذا جاء نبى يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد وكان ينكر عليهم التعدد والشرك والقول بأكثر من إله، فكان البعض يستجيب لحركة التصحيح التى يقودها النبى المرسل من عند الله، وكان البعض الآخر يرفض هذه الدعوة المقدسة، ويتعصب لرأيه القديم، ويثور على النبى ويتهمه بالزيف والضلال ويقاوم دعوته التى تصل أحيانا إلى قتل النبى وإهدار دمه، وهذا حدث فى بعض العصور.

وقد قال المسيح له المجد أنهم أبناء قتلة الأنبياء، وقال موجها خطابه إلى أورشليم «يا أورشليم يا أورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها» لذلك فإن نصوص الكتاب المقدس تشهد كيف كان الأنبياء المرسلين إلى بنى إسرائيل يحذرون هذا الشعب من العودة إلى عبادة آلهة أخرى لم يعرفها آدم ولم يعرفها أولاده القديسون. من أمثال هابيل واخنوخ ومتوشالح ولوط وابراهيم واسحق ويعقوب، ويدعونهم بغير هوادة إلى الإعتصام بمبدأ التوحيد لإنكار الشرك والتعدد.

فإذا كان الأمر كذلك فيما يتصل ببنى إسرائيل وهم آنذاك الشعب المختار، والذى نسب الله ذاته إليهم ودعى أسمه عليهم فصاروا يسمون بشعب الله، فإن الشعوب الأخرى تردت إلى الأعماق فى ضلالة التعدد، والشرك، ولذلك سميت بالأمم الوثنية لأنها اتخذت الأوثان أو الأصنام آلهة وتعبدت لها، ومن كثرتها صارت تلك الآلهة كثيرة وقد بلغت أحيانا عشرات فى كل أمة وشعب، فارتفع رقم الآلهة إلى المئات إذا نظرنا إلى الأمم جميعها بنظرة عامة كلية، حتى عندما كتب بعض آباء الكنيسة فى القرون المسيحية الأولى يقولون إن آلهة الأمم الوثنية كانت من الكثرة بحيث يخطأها العد والحصر، فقد كان لكل قبيلة إله، ولكل عشيرة ولكل أسرة أو عائلة وربما للقبيلة والعشيرة والأسرة أكثر من إله واحد، وقد كانت هذه الآلهة فى السموات أو على الأرض أو ما وراء السماوات والأرض، لذلك قال الله «صورة ما مما فى السموات» مثل الكواكب التى عبدت كآلهة. ومن الناس من عبدوا مظاهر الطبيعة مثل النار أو الرعد أو البرق، فمثلا فى وسط أفريقيا عبدوا النار، وهناك بعض الناس اعتبروا أن النار أصل الوجود. وآخرين قالوا الهواء، والبعض الآخر قالوا الماء.

ومنهم من خاف وحوش الأرض فعبدها، ليتقى غضبها، ففى بلاد الهند المعابد مملوءة أشكال حيوانات وثعابين، حيات وعقارب، لماذا عبدوها؟ لأنهم وجدوا أنها تستطيع أن تعمل شئ، فأرادوا أن يتقوا غضبها بتقديم ذبائح إرضاءا لها. ومنهم من عبدوا التنانين العظام أو الأفاعي أو التماسيح، وبعضهم أيضا الحشرات والهوام، ومنهم من بهرتهم بعض صفات الجمال أو القوة فى أنواع من النباتات، فمنهم من عبد الشجرة ومنهم من عبد ثور أو بقرة أو كبش أو قرد أو غير ذلك.

فمن الناس من عبدوا السماء أو الأرض أو القمر أو الهواء ومنهم من عبدوا النجوم أو الكواكب لأنه كان هناك إعتقاد أن هذه الكواكب ليست فارغة وإنما فيها كائنات حية. وهذه ما يسموها عبادة الصابئة أو الصابئين وهم عبدة الكواكب، ومنها زحل فى مصر وكانوا يعيدوا له ١٢ هاتور وهذا هو السبب فى وجود عيدين للملاك ميخائيل، فنحن عادة نعيد للقديسين إما عيد إستشهاده أو عيد نياحته، لا يوجد غير السيدة العذراء نعيد لها بعيد ميلادها، إنما الملاك ميخائيل لماذا نعيد له عيدين؟ ليس له إستشهاد ولا نياحة، فأساس العيدين كان موجود فى مصر القديمة قبل المسيحية، ١٢ هاتور كان عيد زحل الذى آمنوا به أنه إله وقدسوه، وهنا أود أن أقول أن قدماء المصريين كان عندهم كائنات أخرى يعتبرونها مقدسة لكن ليست هى الإله الكبير أو الإله الأوحد، فهم آمنوا بالتوحيد لكن مع وجود آلهة صغيرة.

المهم البابا ألكنسدروس الـ ١٩ قبل أثناسيوس مباشرة وجد أنه من الصعب أن يلغى عيد زحل لأنه عيد شعبى كبير جداً، فبنى كنيسة باسم الملاك ميخائيل، رئيس جند الرب ودشنها فى هذا اليوم، وعمل عملية إبدال فصار عيد الملاك ميخائيل بدلا من زحل، ليحول أذهان المصريين بدون أن يلغى العيد فيموت تدريجيا، وهذا ما حدث بالنسبة لليوم ٢٥ ديسمبر، لماذا الغربيين يعيدوا بعيد الميلاد ٢٥ ديسمبر؟ السبب الأساسى أن ٢٥ ديسمبر كان عيد موجود اسمه عيد مترا، عيد تحول الشمس، الشمس تتحول فى هذا اليوم وكان عيد شعبى كبير جداً، وكان الناس متمسكين به فلما دخلت المسيحية قالوا بتبديله بدلا من إلغائه، على أساس أن المسيح هو شمس البر والشفاء فى أجنحتها، فعملوا عملية إبدال، هذا هو الذكاء الروحى للآباء.

أما ١٢ بؤونه كان أيضا عيد الفيضان، كان يعتقد أن إله الينابيع فى زمن التحاريق يشفق على المصريين فيذهب إلى المنابع وينفخ، فإذا نفخ تصعد النفخة إلى فوق فتنزل مطر أو يسموها عيد النقطة، أول نقطة تنزل ويبدأ بعد ذلك الفيضان، هذا العيد كان موجوداً فى مصر القديمة، ولكنهم أرادوا أن يبدلوه بعيد الملاك ميخائيل.

فكلمة إله عند قدماء المصريين، ليس معناها الإله الكبير وإنما إله بمعنى شخصية قوية، كما نقول فلان إله الطب أى مقتدر فى مهنته وكما يقول الله لموسى «جعلتك إلها لفرعون» ربنا هو الذى يقول لموسى هذا الكلام، فهنا كلمة إله ليست بمعنى الإله الكبير، لأن المصريين القدماء عرفوا التوحيد، ونحن عندنا فى المسيحية القديسين الكبار يتحولوا إلى آلهة صغيرة طبعا بعد إنتقالهم، لأن عندهم قدرات وإمكانيات كبيرة جداً أكبر مما كانوا على الأرض. ونحن نرى معجزات وأعمال مار جرجس وأبى سيفين وباقى القديسين.

على هذا النحو تعددت الآلهة عند الشعوب وصار يشار إليها بالكثير، فيقال عنها آلهة بالجمع، على الرغم من أن آدم أبا الجنس البشرى كان يعْرِف الإله الواحد وحده، ولم يكن يعرف غير الله الواحد، جاء فى سفر التثنية لا تسيروا وراء آلهة الأَمم التى حولكم، ولربما ينبع سر هذا التعدد فى الآلهة، إلى أن الجماعات البشرية المتفرقة رأت كل جماعة منها أن هناك قوة وراء الطبيعة تمثلت فيها قوة الإله، وذلك تبعا لظروف كل جماعة وما أحاطها فى بيئتها من مظاهر الطبيعة الخيرة أو المرعبة، فعبدتها تعبيرا عن إمتنانها أو شكرها أو خوفا منها. وإتقاء لشرها أو غضبها، ولكن الجماعة البشرية الأخرى رأت فى قوة أخرى من قوى الطبيعة ما تمثلت فيها قوة الإله العظيم فعبدتها.

ونحن نستطيع أن نلحظ هذا التطور فى مفهوم الله عند اليونان، فقد كانت قبل توحدها فى أمة واحدة مجموعة بلاد، وكان لكل بلد منها إله أو أكثر من إله، كما كانت لكل مدينة حكومتها، فلما توحدت بلاد اليونان فى أمة واحدة، كان لابد لها أن تبقى فترة من الزمن، على إحترام جميع الآلهة التى عبدتها البلاد والمدن المتفرقة قبل توحدها. وأخذ واحد من هذه الآلهة يبرز سلطانه على حساب الآلهة الأخرى، وكان هذا الإله عند اليونان أسمه زيوس، وهو كبير الآلهة، فلما اعتنق اليونان دين المسيح ودخلوا بهذا فى التوحيد، صار الله عندهم هو زيوس أو ثيئوس THEOS، ولا شك أن ثيئوس أو الله عند اليونان بعد أن اعتنقوا المسيحية لم يعد بالمفهوم الوثنى القديم، بل بمفهوم مسيحى أضافته المسيحية بتعاليمها التى تنأى بعيدا عن المفهوم الوثنى العتيق، بما لله فى المسيحية من صفات وكمالات إلهية سامية.

وهكذا يمكن أن نتابع فى كل شعب وفى كل لغة تطور مفهوم الإله، بإعتباره القوة العظمى التى تحكم الكون.

وهذا يشرح لنا لماذا يسمى الله عند اليونان ثيئوس وأما عند اللاتين فقد تطور اللفظ من ثيئوس إلى DEUS عند الفرنسيين، أى أن DEUS عند الفرنسيين هو بعينه زيوس كبير الآلهة عند اليونان.

أما عند الإنجليز والألمان فاللفظ الدال على الله أخذ مساراً آخر حسب الإشتقاقات اللغوية، الله هو GOD بالإنجليزى أو GOTT بالألمانى على أساس أن الله هو الخير الأعظم.

كذلك تجد عند العرب قبل الإسلام كان هناك ثلاثة آلهة اللات ومنات وعزا، وكلمة الله بالعربى تترجم أيضا إلى اللات، ومن هنا جاءت كلمة «الله أكبر» أى أكبر من الآخرين، إذا الإسم يختلف بحسب الأيدولوجى الخاص بالشعب، ففى اللغات التعبير يختلف لكن هو تعبير عن القوة التى تحكم الكون.

ويمكن على هذا المنهج أن نتابع التطور اللغوى واللفظى لكلمة الله لكل شعب ولكل أمة وكل لغة من لغات العالم، فالمعروف أن لفظ الله ليس واحد عند الجميع وإن كان المفهوم واحد عند الجميع أن الله. هو القوى العظمى، نسميها الله نسميها GOD، نسميها DIEU، نسميها THEOS، أسماء لكن المهم أنه يوجد إيمان فى البشرية بقوة عظمى تحكم الكون.

«أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» هذه جاءت فى سفر الخروج أصحاح ٢٠ : ٢، ٣ وأيضا فى سفر التثنية اصحاح ٥ : ٦، ٧ كلمة تثنية أى تثنية الاشتراع، ويلاحظ أن فى سفر التثنية يكرر المعانى التى جاءت قبل ذلك، فموسى النبى كان على أهبة الموت، فقص لبنى إسرائيل لثانى مرة ما حدث، لذلك سمى بالتثنية، فتجد للكلام كله الذى جاء فى التكوين والخروج إعادة مرة ثانية بأسلوب آخر، وهذا معنى كلمة سفر التثنية. ويسمى سفر التثنية الاشتراع أو الشريعة.

فكان قول الرب تعالى «أنا الرب إلهك لا يكون لك آلهة أخرى تجاهى» كأن قوله **دعوة صريحة إلى التوحيد ونهى عن التعدد والشرك**، ورفض القول بأكثر من إله واحد، لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى، هنا يقرر مبدأ التوحيد، وأن هناك إله واحد لا يصح أبدا أن يكون للإنسان أكثر من إله، وأباء الكنيسة بناء على هذا يقولون «بالحقيقة نؤمن بإله واحد» فى قانون الإيمان، الذى ترتله جميع الكنائس شرقا وغربا، خصوصا إبتداء من مجمع نيقية، لأن مجمع نيقية هو الذى وضع صيغة قانون الإيمان، أول كلمة بالحقيقة نؤمن بإله واحد، القضية الأولى، ليس لنا إله آخر سواك، اسمك القدوس هو الذى نؤمن به، بهذه العبارة افتتح أباء الكنيسة قانون الإيمان الذى يردده المسيحيون جميعا فى صلواتهم الخاصة والعامة ويتلونه فى كل خدمة دينية،

فى المعمودية وفى الزواج وفى كل قداس وفى الرسامات الكهنوتية، وفى مسحة المرضى، وفى كل صلاة من الصلوات السبع اليومية «سبع مرات فى النهار سبحتك على أحكام عدلك» باكرا ونهارا وعشية يرنمونه ترنيما فى السر والعلن منذ القديم واليوم وإلى الأبد.

والمسيحيون يؤمنون وينادون بأن الله واحد أحد، كلمة واحد تعنى ليس أكثر من واحد، كلمة أحد تعنى متفرد، لا يوجد غيره، واحد أحد ولا يمكن إلاّ أن يكون واحدا، مثلما قال أنا الأول وأنا الآخر، أنا الألف وأنا الياء، أنا البداية وأنا النهاية، أنا البدء الذى لا بداءة له، فلا يمكن إلاّ أن يكون الله واحدا، وحتى فى سفر أشعياء يقول: «لم يصور قبلى» وهذه القضية تكلم فيها فلاسفة وقالوا لا يمكن إلاّ أن يكون الله وحده، حتى الأفلاطونيين يقولون الله الأول ومن بعده سائر الوجود.

فإذا كان هناك أكثر من إله فما هو عمل هذا الآخر؟ وما هو اختصاصه؟ وإذا كان الله غير محدود وغير متناهى فلا مجال لإله آخر، لأن وجود هذا الآخر يتعارض مع صفة الله باللانهائية، إذا كان الله يتصف باللانهائية واللا محدودية، ووجوده فى كل مكان ولا يخلو منه مكان، وعندئذ كيف ولماذا وأين يوجد الإله الآخر؟ وهل هو فى الكون أم خارج الكون؟ فإذا كان فى الكون فهل هو فى كل مكان فى الكون؟ أم فى مكان دون مكان، فإذا كان فى كل مكان فهو شريك مع الله فى وجوده، وبذلك يصبح وجود الواحد منهما فضلة زائدة مع الآخر، فإذا كان الآخر فى مكان دون مكان، هذا معناه أيضا أن كل منهما محدود فى المكان، وهذا يتعارض مع كونه الإله الحقيقى، ثم إذا كان الله قادرا على كل شئ، فلماذا يكون هناك إله آخر ما هو عمله، وما هو إختصاصه؟ هل يأخذ هذا الآخر من إختصاص الله، مع وجود هذا الإله الآخر يكون الله غير قادر على كل شئ، أو يكون قادرا على أشياء دون أشياء، لأن هذه الأشياء تدخل فى إختصاص الإله الآخر المزعوم، وهكذا يمكن منطقيا وعقليا رفض القول بأكثر من إله واحد، ليس فقط من نصوص الكتاب المقدس، وإنما منطقيا وعقليا يمكن رفض القول بأكثر من إله واحد وإعتباره أمرا محالا، لأنه غير مقبول عقلا.

وقد كتب آباء الكنيسة إلى الوثنيين وهم الأمم القديمة، يثبتون لهم بالدليل العقلى أن الله واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحدا. وأن القول بأكثر من إله أمر لا يحتمله العقل، هذا غير نصوص الكتب المقدسة، وهذا ما قالوه الفلاسفة، بالعقل يصل الإنسان إلى أن الله واحد، فكان لابد لآباء الكنيسة أن يكتبوا للوثنيين مدافعين عن عقيدة التوحيد، بالدليل العقلى والمنطقى والفلسفى ولا يكتفون بالأدلة النقلية المقتبسة من نصوص الكتب المقدسة، لأن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون

بإلهام الكتب المقدسة، فلم يتوقف آباء الكنيسة فى إثبات وحدانية الإله بأدلة من العقل لإفحام الذين لا يؤمنون بغير العقل.

ولقد وجد الفيثاغوريون أتباع فيثاغوروس المعروف بالهندسة والرياضة الذين أقاموا فلسفتهم على العدد، أن الفلسفة الفيثاغورية تقوم على العدد دليلا على وحدانية الله فى العدد واحد، إثنين جاءت من واحد، وكذلك ٣ والعشرة عبارة عن واحد وعلى يمينها صفر... الخ فكل شئ قائم على الواحد، مما يدل على أن الوجود كله قائم على الواحد، الله هو الواحد ولا يوجد قبل الواحد رقم آخر، وكل رقم آخر بعد الواحد هو مركب من الواحد، فإذا إنتقلنا إلى العدد ١٠ فهو أيضا مركب من الواحد وعلى يمينه صفر حتى نصل إلى المليون.. الخ فإذن الواحد هو أصل الوجود. لذلك معروف فى الفلسفة اليونانية أن فيثاغورس نادى بأن الله واحد، ولا يمكن إلا أن يكون الله واحدا، وهو أصل الوجود وعليه يقوم كل شئ، ومنه يتركب ويتكون كل موجود ولا يوجد قبل الواحد شئ. وإذن فالواحد هوالله والله واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحدا ولا يوجد غير إله واحد، وأضاف المسيحيون إلى الأدلة العقلية والمنطقية التى واجهوا بها الوثنيين من غير المؤمنين بالكتب المقدسة، أدلة أخرى اقتبسوها من الوحى الإلهى فى أسفارهم المقدسة، وكانوا يدرسونها للمؤمنين من المسيحيين ولغيرالمسيحيين، وممن يسألونهم عن أسانيدهم فى إعتقادهم بوحدانية الإله. ونحن فى كتاب موجز الإعتقاد فى وحدانية الإله قلنا هذا الكلام، هذا الكتاب قدمناه لكثيرين من غير المسيحيين ليفهموا بالضبط عقيدتنا بالإله الواحد.

وإلى جانب الأدلة العقلية والمنطقية هناك أدلة من الكتاب المقدس، نصوص واضحة صريحة فى كل الكتاب المقدس على أن المسيحيين يعتقدون بإله واحد.

فمن هذه النصوص فى التثنية ٤ : ٣٥ «الرب هو الإله ليس آخر سواه».

التثنية ٤ : ٣٩ «الرب هو الإله فى السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه».

وتثنية ٦ : ٤ «الر ب إلهنا رب واحد»

وسفر التثنية ٣٢ : ١٢ «الرب وحده وليس معه إله».

وفى التثنية ٣٢ : ٣٩ «أنا أنا هو وليس إله معى».

فالكتاب المقدس ينطق فى كل أسفاره بمبدأ الوحدانية.

فى صموئيل الأول ٢ : ٢ «لأنه ليس غيرك».

فى صموئيل الأول ٧ : ٣ يقول «وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده».

فى صموئيل الثانى إصحاح ٧ : ٢٢ يقول «قد عظمت أيها الرب لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك».

وفى صموئيل الثانى ٢٢ : ٣٢ «لأنه من هو إله غير الرب».

وفى سفر ملوك الأول «الرب هو الله وليس آخر».

وملوك الثانى ١٩ : ١٥ «أيها الرب أنت هو الإله وحدك».

فى سفر ملوك الثانى ١٩ : ١٩ «أنت الرب الإله وحدك».

فى أخبار الأيام الأولى ١٧ : ٢٠ «يارب ليس مثلك، ولا إله غيرك».

فى سفر نحميا ٩ : ٦ يقول «أنت هو الرب وحدك، أنت صنعت السموات وسماء السماوات وكل جندها، والأرض وكل ما عليها والبحار وكل ما فيها وأنت تحييها كلها وجند السماء لك تسجد» سماء السماوات التى فيها العرش الإلهى التى قال عنها المسيح فى يوحنا ٣ : ١٣ «مامن أحد صعد إلى السماء إلا ذاك الذى نزل من السماء» والذى جاء عنها فى العبرانيين عندما صعد المسيح «دخل إلى السماء عينها» السماء عينها المقصود بها سماء السماوات.

وفى سفر طوبيا يقول «إنك أنت الإله الواحد فى الأرض كلها».

فى سفر طوبيا ١٣ : ٤ «لا إله قادرا على كل شئ سواك».

سفر يهوديت يقول «وسجدوا لإله السماء الواحد».

وفى يهوديت ٩ : ١٩ «إنك أنت الإله وليس آخر سواك».

وفى سفر أيوب يقول «الباسط السماوات وحده» هو الله.

وفى سفر أيوب ٣١ : ١٥ يقول «وواحد كوننا فى الرحم» أى الذى خلقنا.

فى مزمور ١٧ : ٣١ يقول «لأنه من هو إله غير الرب» هذا لتوكيد وحدانية الله.

مزمور ٧١ : ٢٠ «من مثلك يا الله».

مزمور ٨٣ : ١٨ «إنك اسمك يهوه وحدك العلى»، يهوه هو الكائن، الأزلى الأبدى، وهى الكلمة العبرانية التى قالها ربنا لموسى.

مزمور ٨٦ : ١٠ «عظيم أنت، أنت الله وحدك».

مزمور ٨٠ : ٢ «منذ الأزل إلى الأبد أنت الله».

مزمور ١٤٨ : ١٣ «فليسبحوا اسم الرب لأنه تعالى اسمه وحده».

ثم فى سفر الحكمة ١٢ : ١٣ «ليس إله إلا أنت».

وسفر الحكمة ١٤ : ٢١ «الاسم الذى لا يشرك فيه أحد»، أى لا يوجد أحد آخر يشترك معك فى هذا الإسم.

وفى يشوع بن سيراخ ٣٦ : ٥ «لا إله إلا أنت يارب».

يشوع بن سيراخ ٣٦ : ١٩ «أنك أنت الرب إله الدهور»، أى إلى الأبد.

فى سفر أشعياء ٣٧ : ١٦ يقول «يارب الجنود أنت هو الإله وحدك».

أشعياء ٣٧ : ٢٠ «أنك أنت الرب وحدك».

كل هذا توكيد لوحدانية الله.

فى سفر أشعياء ٤١ : ٤ «أنا الرب أنا الأول والآخر، أنا هو»، وكلمة الآخر «تعنى الأزلى الأبدى.

أشعياء ٤٢ : ٨ يقول «أنا الرب هذا أسمى ومجدى لا أعطيه لآخر».

أشعياء ٤٣ : ١٠ «إنى أنا هو لم يكون إله قبلى ولا إله بعدى».

كل هذا توكيد للوحدانية وهذا لكى يعالج أفكار كانت موجودة فى العالم الوثنى، وذلك نفيا للإعتقاد فى أكثر من إله.

أشعياء ٤٣ : ١١ يقول «أنا أنا الرب وليس غيرى».

أشعياء ٤٤ : ٦ «أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى».

أشعياء ٤٤ : ٨ «هل يوجد إله غيرى»، يتحدى، هل يوجد إله غيرى.

أشعياء ٤٤ : ٢٤ «أنا الرب صانع كل شئ، ناشر السماوات وحدى باسط الأرض من معى».

أشعياء ٤٥ : ٥ يقول «أنا الرب وليس آخر ولا إله سواى».

أشعياء ٤٥ : ٦ «أنه ليس غيرى أنا الرب وليس آخر».

أشعياء ٤٥ : ١٤ «الله وليس آخر ليس إله غيره».

أشعياء ٤٥ : ١٨ «خالق السماوات هو الله مصور الأرض وصانعها أنا الرب وليس آخر».

أشعياء ٤٥ : ٢١ «أنا الرب ولا إله آخر غيرى وليس سواى».

أشعياء ٤٥ : ٢٢ «إلتفتوا إلىّ واخلصوا فإنى أنا الله وليس آخر»، كثيرة جداً النصوص فى سفر أشعياء بالذات لأنه كان يعالج إعتقادات كانت موجودة فى ذلك الوقت.

أشعياء ٤٦ : ٩ «لأنى أنا الله وليس آخر، أنا الله وليس مثلى».

أشعياء ٤٨ : ١٢ «أنا هو، أنا الأول وأنا الآخر».

أرميا ١٠ : ٦ «أنه لا نظير لك يارب».

أرميا ٢٣ : ٢٤ «ألست مالئ السموات والأرض يقول الرب»، أى لا يوجد مكان لكائن آخر. أنا أملأ السموات والأرض.

فى نبوءة باروخ تلميذ أرميا ٣ : ٣١ «هذا هو إلهنا ولا يعتبر إزاءه آخر».

فى سفر هوشع ١٣ : ٤ يقول «فلست تعرف إله غيرى وليس مخلص سواى».

فى سفر ملاخى ٢ : ١ «أليس إله واحد خلقنا».

هذه النصوص تبين بوضوح أن الله واحد وأنه لا يمكن إلا أن يكون الله واحدا، وسنرى نصوص أيضا من العهد الجديد تشهد بوحدانية الله.

فالله عندما قال فى الوصية الأولى «أنا الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» كان قوله تعالى دعوة صريحة إلى التوحيد ونفى للتعدد ورفض الشرك، وإنكار القول بأكثر من إله واحد. وتوكيدا لمبدأ التوحيد، وإصرارا على قول الإله الواحد، شاء الرب الإله أن ينسب إلى ذاته ماكان بعض الناس ينسبونه إلى إله الشر. كنوع من أنواع التوكيد أنه لا يوجد إلا إله واحد، لإعتقاد البعض فى إلهين، إله للخير وإله للشر، فهناك بعض النصوص ينسب الله إلى نفسه أنه هو صانع الشر، ليس بمعنى أنه هو أصل للشر وإنما لكى ينفى وجود إله آخر للشر، فإذا كان الشيطان هو إله الشر، فالذى خلقه هو الله، فتوكيدا لمبدأ التوحيد وإصرارا على قول الإله الواحد، شاء الرب الإله أن ينسب إلى ذاته ماكان بعض الناس ينسبونه إلى إله الشر. فقد كان الفرس والمجوسية والمانويون يعتقدون بإلهين إله للخير وإله للشر، وقالوا إن الخير يصدر عن إله الخير، وأما الشر فيصدر عن إله آخر هو إله الشر. وفى زعم هؤلاء القائلين بالإثنينية إنهم استطاعوا بهذه العقيدة أن يفسروا وجود الشر، كما أمكنهم أن يشرحوا سر التعارض والصراع القديم بين الخير وبين الشر. لكن الله رفض هذا التعليم وأنكر على القائلين بإلهين، زعمهم بوجود إله آخر غير الله الواحد، حتى لو كان وجود هذا الإله الآخر لتفسير وجود الشر فى الكون. فإن كان الشر موجودا ولابد للشر من أصل، لكنه لا يحدث من إله أزلى يستوى مع الله تعالى فى الأزلية والقدرة وعلمه وسائر صفاته، ولكن الشر يحدث من كائنات أخرى مخلوقة من الله تعالى. إنحرفت عن غايتها وضلت طريقها وأساءت فسقطت فى الغواية والفساد. هذه الكائنات سواء من ملائكة سقطوا وصاروا شياطين أو من بشر انحرفوا عن الطريق السوى، لكن هؤلاء وأولئك خلائق، ومخلوقات لم يكونوا موجودين مع الله منذ الأزل، وليس عندهم قوة الله وعلمه، لذلك فليس ثمة نسبة بينهم وبين الله إلا نسبة المخلوق إلى الخالق. وإذن هم ليسوا آلهة مع الله تعالى، الله وحده هو الإله، وأما الأشرار سواء من بين الملائكة أو البشر هم مخلوقات استمدوا من الله وجودهم، ثم انحرفوا عن الغاية الوجودية وسقطوا فى الغواية والضلال، لهذا وتوكيدا على هذه الحقيقة وبيانا لوحدانية الإله وأنه وحده هو الله ولا شريك له، قال تعالى أنا الرب وليس آخر، لا إله سواى، ليس غيرى، أنا مبدع النور وخالق الظلمة، يبين أنه هو الأصل فى الوجود، صانع السلام وخالق الشر، ليس بمعنى أنه هو أصل الشر ولكن لأنه خالق الكائنات التى أصبحت شريرة فقال، «أنا الرب صانع كل هذا» وقال أيضا «الرب هو أيضا حكيم فيجلب الشر، ولا يبطل كلامه» وقال كذلك «أم يكون فى المدينة شر ولم يفعله الرب» وهنا الله يقصد ما نسميه الشر الطبيعى مثل الزلازل وتقلبات الطبيعة.... الخ **فالشر نوعان الأول : الشر الطبيعى وهو الكوارث الكونية.**

والبلايا الطبيعية مثل الطوفان الذى أغرق الناس والبهائم فى أيام نوح عقابا على شرور أفعالهم، ومثل النار التى نزلت على أهل سدوم وعمورة، والزلزال الذى نزل بأرض قورح وأبيرام وداثان الذين تمردوا على موسى وهرون ففتحت الأرض فاها فابتلعتهم أحياء.

أما الشرالثانى : الشر الأخلاقى وهذا لا يصنعه الله لأنه لا يمكن أن يكون الله العلة الأولى للشر الأخلاقى. لكن هذا الشر يصدر عن خلائق مثل الملائكة الأشرار وهم الشياطين، كما يصدر عن البشر الأشرار. لكن الله لا يمكن أن يكون هو العلة الأولى للشر الأخلاقى، ولما كان الله هو الخالق للأشرار وهو الذى منحهم الحرية ليفعلوا مايشاءون، فيمكن أن يعتبر الله مسئولا عن الشر الأخلاقى. الحارس للكون، بهذا المعنى، أى بالنظر إلى أنه الخالق، ثم لأنه يسمح بوقوع الشر الأخلاقى، بمعنى أن واحداً مثلا يقتل أو يسرق أو يزنى، طبعا لا يمكن أن يكون الله هو الذى أمر بهذا، إنما بإعتباره حاكم الكون كان يمكن أن يمنع، فكونه سمح بأن القاتل يقتل والزانى يزنى والسارق يسرق ليس معناه أنه يقصد ذلك، إنما سياسته سياسة الحرية، خلق الكائنات حرة، فالشر الأخلاقى من فعل هذه الكائنات، كان يمكن لله أن يمنع الشخص من أن ينفذ القتل أو السرقة، الشياطين عندما أرادوا أن يدخلوا فى قطيع الخنازير قالوا له ائذن لنا أن ندخل فى قطيع الخنازير ثم يقول فأذن لهم. ليس معنى ذلك أنه يريد هذا، إذا كان يحدث شر فى الدنيا فلا نتصور أن الله يريد هذا، إنما سياسته سياسة الحرية فيسمح به، والملائكة كائنات حرة عاقلة مريدة مسؤولة، مريدة أى عندها إرادة، حرة أى تستطيع أن تعمل أو لا تعمل، وهذا ما قالوه بعض الفلاسفة، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقدر أن يخطئ، أى عنده حرية أن يخطئ، لكن الحيوانات والحشرات الأخرى لا تخطئ أبدا الأسد، النمر، الضبع، الحمام، اليمامة، الصرصار، العقرب، الثعبان، كلها لا تخطئ أبدا، هو ينفذ حسب طبيعته. فهى تحكمها طبيعتها فلا يوجد عليها مسئولية، العقرب إذا لدغت إنسان أو الحية ليست عليها مسئولية، لأنها تعمل شئ من طبيعتها لأنه نوع من أنواع الدفاع، عندما تدوس على العقرب فهو يدافع عن نفسه، فما نسميه بسم العقرب ليس هو سم، ولكنه دم العقرب فى حالة إنفعال، مثل الإنسان عندما يغضب فالدم يتعكر، ولو أخذت حقنة دم منه وهو فى حالة الغضب وحقنوها لكائن ضعيف يموت. فكذلك العقرب ما نسميه بسم العقرب ليس سم بالمعنى السيئ للكلمة.

فالله لا يمكن أن يكون العلة الأولى للشر الأخلاقى، لكن هذا الشر يصدر عن الخلائق مثل الملائكة الأشرار وهم الشياطين، كما يصدر عن البشر الأشرار. ولما كان هو الخالق للأشرار وهو الذى منحهم الحرية ليفعلوا ما يشاءون، فيمكن أن يعتبر الله مسئولا عن الشر

الأخلاقى. على أساس أنه خالق هذه الكائنات، بهذا المعنى أى بالنظر إلى أنه الخالق ثم لأنه يسمح بوقوع الشر الأخلاقى، وفى قدرته أن يمنعه ولكن سياسته هى الحرية، يقول لا تقتل فيحمل الإنسان المسئولية، بهذا المعنى يصير الله تعالى مسئولا عن الشر بنوعيه، الشر الطبيعى وهو الكوارث والأعاصير والزلازل والبراكين ثم الشر الأخلاقى الذى لا يصدر عن الله مباشرة، لكنه يصدر عن الخلائق التى خلقها الله وهم الشياطين والبشر. ومهما يكن الأمر فإن الله تعالى هو الإله وحده وليس له شريكا ولا نظيرا له وليس كمثله شئ، هو الواحد والوحيد والمتفرد بالألوهة هو واحد أحد. كلمة أحد تعنى متفرد لا يوجد غيره، كلمة واحد تعنى رقم واحد، الواحد هو ضد التعدد، هنا نذكر نصوص فى العهد الجديد تثبت وحدانية الإله :

قال الإنجيل المقدس فى مت ٤ : ١٠ «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد».

وجاء أيضاً فى إنجيل مرقس ٢ : ٧ وإنجيل لوقا ٥ : ٢١ «من يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله الواحد وحده»

والمسيح قال مرة ثانية فى رده على الشاب الذى قال «ماذا أفعل لأرث الحياة الأبدية» قال له «أيها المعلم الصالح» فقال له «ليس الصالح إلا واحد هو الله» فى بعض الترجمات يقول «صالحا» لأ.. يمكن أن نقول عن البشر أنه صالح، لكن الصالح بالألف واللام لله وحده، وهذه موجودة فى النص القبطى، ليس الصالح إلا واحد هو الله، الصالح بالألف واللام وهو الله.

وفى إنجيل مرقس ١٢ : ٢٩ يقول «إن الرب إلهنا هو رب واحد».

وفى إنجيل مرقس ١٢ : ٣٢ «إن الله واحد وليس آخر سواه»

وفى يوحنا ٥ : ٤٤ «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضكم من بعض وأما المجد الذى من الله الواحد وحده فلا تبتغونه»، هذا كلام المسيح.

وفى يوحنا ١٧ : ٣ يقول «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك».

وفى رومية ٣ : ٣٠ «لأن الله واحد».

وفى رومية ١٠ : ١٢ يقول «للجميع رب واحد».

وفى كورنثوس الأولى ٨ : ٤ يقول «لا إله إلا واحد».

وكورنثوس الأولى ٨ : ٦ يقول «لنا إله واحد».

وفى كورنثوس الأولى ١٢ : ٦ يقول «الله واحد الذى يعمل الكل فى الكل».

فى غلاطيه ٣ : ٢٠ «الله واحد».

وفى أفسس ٤ : ٦ يقول «واحد هو الله أبو الكل الذى هو فوق الكل. واحد هو الله».

وفى تسالونيكى الأولى ١ : ٩ يقول «اهتديتم إلى الله وتركتم الأوثان لتعبدوا الله الحى الحقيقى».

فى تيموثيئوس الأولى ١ : ١٧ يقول «ولك مجد الدهور الذى لا يفنى ولا يرى، الله وحده له الإكرام والمجد إلى دهر الدهور».

كل النصوص تؤكد الإعتقاد فى الإله أنه واحد.

وفى تيموثيئوس الأولى ٢ : ٥ يقول «إن الله واحد».

وفى رسالة القديس يعقوب ٢ : ١٩ «أنت مؤمن أن الله واحد فقد أصبت، والشياطين أيضا يؤمنون ويرتعبون» أى يؤمنون بالإله الواحد.

فى يعقوب ٤ : ١٢ «واحد هو واضع الشريعة وهو الله، الذى يقدر أن يخلص ويهلك».

وفى رسالة القديس يهوذا يقول «للإله الوحيد مخلصنا المجد والعظمة والعزة والسلطان قبل كل زمان والآن وإلى جميع الدهور».

وفى سفر الجليان أو الرؤيا ١ : ٨ يقول «أنا هو الألف والياء، البداءة والنهاية، يقول الرب الإله».

وأيضا فى سفر الجليان أو الرؤيا ١ : ١٧ «أنا هو الأول والآخر» أى الأزلى الأبدى».

التوحيد والتثليث

تكلمنا عن «أنا الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» وقلنا إن هذه دعوة إلى التوحيد، وبالإختصار التوحيد المسيحى لا يتعارض مع التثليث لأن التوحيد بالنسبة للذات الإلهية، هو ضد فكرة التعدد، فالله واحد ولكن الأقانيم ثلاثة، الأقانيم ليست ذوات، الأقانيم هى خصائص فى الذات الإلهية الواحدة. فهنا لا يوجد تعارض بين التوحيد والتثليث. على أساس أن الله واحد فى الذات إنما التثليث فى الأقانيم. نحن نوضح ثلاثه مفاهيم، **الله من حيث هو أصل الوجود،** لأن كلمة الآب كلمة شرقية يقصد بها الأصل.

الله أيضا هو العقل الأعظم لأنه إذا كنا نحن كائنات عاقلة والملائكة كائنات عاقلة، فلابد أن الله خالق العقول يكون هو العقل الأعظم، العقل طبعا مفهوم إنه هو القدرة على الخلق، لذلك سمى الله الكلمة أو الخالق بالعقل الإلهى. ومن هنا جاءت كلمة اللوغوس، اللوغوس فى اليونانية معناها العقل الإلهى ظاهرا فى الكون، فالله هو العقل الأعظم لكن لا أستطيع أن أقول أن العقل منفصل عن الذات، أبدا الذات نفسها عقل، **كذلك الله هو الحى الأعظم**، أو الحى القيوم الذى يقوم عليه الوجود، الذى قال عنه الكتاب المقدس : فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس، والتى عبر عنها المسيح له المجد عندما قال لمرثا : «أنا القيامة وأنا الحياة» أى هو رب الحياة وأصل الحياة، ولذلك نجد الكلمة التى قالها بطرس الرسول فى الإصحاح الثالث من سفر الأعمال.

يقول : ورئيس الحياة قتلتموه، هنا رئيس الحياة أو رأس الحياة هو مبدئ الحياة، أصل الحياة، هو أصلها فهو الحى الأول والحى القيوم.

فإذن كونه الذات والعقل والروح ليسوا ثلاثة آلهة، لا يوجد إنفصال أبدا، هى ذات عاقلة حية، ونفس الإنسان لأنه على صورة الله ومثاله يتميز بها، كل إنسان ذات عاقلة حية، ومع ذلك واحد، ولذلك لكى يوضح الأباء عقيدة التوحيد ضربوا مثلا بالإنسان وقالوا لنقرب المفهوم الإلهى لذهن الإنسان، أن الإنسان ذات حية عاقلة، وقالوا أيضا بمثل آخر هو الشمس، الشمس منها يتولد النور وهو غير منفصل عن الشمس، منذ أن كانت الشمس شمسا منها النور، وكذلك الحرارة التى تنبثق من الشمس، وهى غير منفصلة عن الشمس، هذه الأمثلة التى يقدمها أباء الكنيسة للتوضيح ولتقريب الحقيقة الإلهية، لأن اللغة البشرية مثل ما قال القديس غريغوريوس، إن هذا الموضوع لم تتناوله اللغة البشرية من أى جانب إلا وجرحته، بمعنى أن

التعبيرات البشرية ناقصة ولذلك قالوا دائما أن الله لا يُدْرَك، لا يعبر عنه، ومن هنا جاءت كلمة لا ينطق به، كل هذا تعبير، وهذا هو الذى جعل لاهوت مدرسة الأسكندرية سليم لأنهم دائما كانوا يعقلوا التعبيرات، ولكنهم كانوا يقولون أن الحقيقة أعلى من مبادئ الإنسان، إنما نحن نقدم أمثلة توضيحية، لكن الحقيقة أعلى، لذلك موضوع التوحيد والتثليث فى كنيسة الأسكندرية يسمونه سر التوحيد والتثليث، سر، أعطوه كلمة سر لكى يبينوا أن الحقيقة فيها أشياء أخرى خفية عن متناول الإنسان.

المهم هنا أن الصفات أو الخصائص الأخرى ليست ذوات، وحتى كلمة أقانيم جمع أقنوم، وهى كلمة سريانية وليست عربيةِ، تسمى فى اليونانية «هيبو ستاسيس» و«ستاسيس» تعنى القيامة وكلمة «هيبو» تعنى ما تحت القيامة، بمعنى الذات الإلهية تقوم على الخصائص الثلاثة فلكى يكون واضحا فى أذهاننا كمسيحيين، ولكى نشرح هذا الموضوع لغير المسيحيين نحن نؤمن بإله واحد، لذلك نقول فى قانون الإيمان بالحقيقة نؤمن بإله واحد، والتثليث لا يتعارض مع التوحيد، على أساس أن التثليث تثليث أقانيم هيبوستاسيس وليس تثليث ذوات.

عندما يقول «أنا الرب إلهك لايكن لك آلهة أخرى أمامى» يمنع تعدد الآلهة، لكن يمكن أن ينسحب هذا الكلام على غير الآلهة بالمفهوم الوثنى. بمعنى أنت كإنسان من الناحية الروحية متعبدا لله وحده، لكن هناك أحيانا كائنات أخرى لها مقام عالى فى المجتمع هذه أيضا تحترس من أن تعتبرها آلهة مثل الله، حاشا.. ولذلك هناك حكمة قالها بعض أباء الكنيسة، كن عبدا خاصا لسيد واحد، هناك من الناس ما نسميهم السادة، سواء كانو من الناحية المدنية مثل رجال الدولة، الملك، رئيس الجمهورية، لهم الاحترام كما قال الكتاب المقدس : أعطوا الجميع حقوقهم الإكرام لمن له الإكرام، أو حتى رجل الدين إن كان أسقف له احترامه نعم، لكن ليس إله أو لا يحل محل الله. لا.. ولذلك عندما يتعارض هذا السيد أو هذا الإنسان سواء كان من الناحية المدنية أو الدينية مع الله، أنا كإنسان.. أرفض هذا الإله الآخر، أعطيه إحترامه لكن لا يأخذ مركز الله ذاته، مثلا نقول فى الدسقولية عن الأسقف وطبعا المطران والبطريرك، هذا إلهكم على الأرض، لكن ليس إله هنا بمعنى الله، ولكن مثل ما قال ربنا لموسى جعلتك إلها لفرعون، هنا إله مثل ما نقول عن فلان عندما نبغ جدا فى الطب نقول إله الطب، بمعنى إنسان متميز وبارز، وتقدم وأخذ خبرة فى الطب فأصبح مرجع كبير جدا، الله بالعربى نقول الله بالألف واللام، هناك فرق بين إله وبين الله، الله فيه ال هنا وهى أداة التعريف، واحد فقط هو الله، فيما

عدا ذلك ممكن نقول إله، فكذلك حتى من الناحية الدينية عندما نقول فى الدسقولية عن الأسقف أو المطران أو البطريرك هذا إلهكم على الأرض، بمعنى أنه إنسان متميز وقاضى، وألجأ إليه فى أمور معينة لكن ليس معناه أنه هو الله بالألف واللام، حاشا..

كذلك سيدنا له المجد عندما قال لاتقدرون أن تخدموا الله والمال، فى بعض الأحيان يمكن أن يهتم الواحد خصوصا فى الوقت الحاضر بالمال، لذلك قال لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أنت عبد الواحد، المال مع أهميته لكنه لا يحتل أبدا مكان الله، بل تحت قدميك، ولذلك هناك تعبير لطيف جدا ذكر فى سفر الأعمال عن المسيحيين الأوائل، يقول : كانوا يبيعوا ممتلكاتهم ويضعونها عند أقدامهم، ما معنى تحت أقدامهم ؟ يعنى يضع الإنسان المال، تحت رجليه، فلابد أنا كإنسان متدين أو كإنسان مسيحى، يكون مركز المال بالنسبة لى تحت رجلى. استخدمه لكن لا يكون إلهى، لكى لا يجعلنى هذا الإله أسرق أو أظلم، هذه خطايا تسببها محبة المال، ومثل ماقال الكتاب المقدس محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان. فيمكن لمحبة المال أن تبقى إله للإنسان، إنما أنا كمسيحى بمسيرتى نحو السماء، ومع تقديرى قيمة المال لن يقدر أن يكون إله لى. وبالتالى لا يباح أبدا للمسيحى أن يظلم أو يرتكب خطأ، بسبب جمع المال.

كذلك هناك أشخاص آخرين أحيانا نحبهم جدا فى الأسرة مثلا، لكن يجب أن لا يكون هذا الشخص مكان الله، غير لازم أبدا فى مسيرتنا نحو السماء، أن نتخذ أى شخص آخر أيا كانت مكانته أو أهميته، إن كان كبيرا أو صغيرا أن يكون هو الله بالألف واللام، إنما نعطيه الإحترام ولذلك قال أكرم أباك وأمك لكى تطول أيام حياتك، وكذلك يقول فى مكان آخر إن كان أحد لا يبغض أباه وأمه وحتى نفسه لايقدر أن يكون لى تلميذا، طبعا ربنا الذى يوصى بالمحبة، لكن عند بعض الناس يصبح التعلق بشخص معين مشكلة، فكلمة إن كان أحد لا يبغض، أى عندما تكون علاقته بهذا الإنسان تهدد علاقته بربنا لأ ...، كلمة يبغض هنا ليست بمعنى الكراهية بالمعنى المفهوم، إنما بالنسبة للقياس، لذلك قال من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى.

بالإختصار أنه فى علاقتنا بالآخرين خصوصا الأسرة أو لأشخاص معينين، قد تكون صداقة أيضا مثل ماكان بين داود النبى ويوناثان، فمن الممكن أن يتعلق إنسان بصديق سواء كان فى العائلة أو خارج العائلة، يتعلق به وتصير محبته له كبيرة جدا، لكن لو فرضنا أن هذا الصديق ستؤدى صداقته إلى أنك أنت تقع فى الخطأ، هنا ينبغى أن تقطع علاقتك بهذا الصديق، لذلك

يقول إن أعثرتك عينك فاقلعها، ليس المقصود العين الجسدية لأ هذا خطأ، سمعان الدباغ عندما قلع عينه أخطأ، ولكن لأنه هو رجل بسيط فهم أن هذا هو المطلوب فعمل، هو قديس من هذه الناحية من حيث نيته، لكن العمل الذى عمله من الناحية اللاهوتية خطأ، ليس المقصود أن الإنسان يقلع عينه وآخر يقطع رجله وما إلى ذلك. لكن المقصود إذا كان هناك شخص غالى عليك مثل عينك مثل ما يقول فلان هذا عينى اليمين فإذا كان هذا الإنسان هو السبب فى تعطيلك عن مسيرة السماء اقطع علاقتك به، أو إذا كان هذا الشخص تعتمد عليه بمثابة اليد أو الرجل، ولكن هذا الإنسان يكون خطرا على علاقتك بالإله الواحد لأ.. اقطع صلتك بهذا الإنسان، وهذا هو السبب أن المسيح قال من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى، من أحب إبنا أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى، وقال إن كان أحد لا يبغض حتى نفسه، بمعنى أنه إذا كانت محبة الذات ستؤدى إلى أن تهتز علاقتى بربنا لأ.... لابد للإنسان أن يبغض حتى نفسه، طبعا المسيح بصيغة الحب يقول : بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى إذا كان حبكم بعضكم لبعض. إنما يوم أن تتعارض محبتى لهذا الإنسان مع محبتى لربنا ينبغى أن أختار واحد الله أو الإنسان، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، فهنا يقول، إن كان أحد لايبغض أباه وأمه وزوجته...، ولذلك قال بطرس «قد تركنا كل شئ وتبعناك» (لو ١٨ : ٢٨).

المقصود هنا ليس كراهية على المستوى العادى، لكن عندما تتعارض محبتى لهذا الإنسان سواء قريب أو صديق، مع محبتى للإله، ينبغى أن أفضل محبة ربنا وأقطع صلتى بهذا الإنسان لأنها تهدد علاقتى بسيدى الواحد الأحد وهو الله.

استكمالا لحديثنا فى تأملنا فى قول الله «أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى بينا كيف أن الإعتقاد بالتوحيد أن الله واحد، وفى المسيحية نقول إن الله واحد فى ثلاثة أقانيم الآب والأبن والروح القدس، وليس هناك تعارض ولا تناقض بين القول بالتوحيد والقول بالتثليث، لأن القول بالتوحيد هو من جهة أن الله واحد ولا يتعدد، وهذا ضد القول بتعدد الآلهة أو بالإثنينية. أما التثليث فهو تثليث أقانيم، الأقانيم هى الخصائص الذاتية التى تقوم عليها الذات الإلهية. فالله وحده هو الآب بإعتباره أنه أصل الوجود، ليس الآب جزءا من الله، حاشا، هو نفسه الله وهو ذاته الروح القدس لأنه أبو الأرواح وأصل الأرواح، كما جاء فى سفرى اللاويين والعدد «الله أبو الأرواح» بمعنى أصل الأرواح، لأن الملائكة أرواح كما يقول الكتاب المقدس ولكل إنسان روح، فمن هو أصل الأرواح؟ الله. فليس الروح القدس جزء من الله فالله هو ذاته الآب وهو ذاته الروح

القدس، وهو ذاته الابن عندما اتخذ جسدا ونزل إلى العالم مثل النور من الشمس وفى الشمس قائم ومن الشمس يصل إلى الأرض. فلا يوجد إنفصال، فالله حينما ظهر على الأرض فهو الابن، الابن لا بمعنى الولادة كما فى عالم الإنسان والحيوان، إنما الله الغير منظور صار منظورا فى المسيح، فالمسيح ابن الله بهذا المعنى، عظيم سر التقوى الله ظهر، فالمسيح ليس جزءا من الذات إنما هو الله ذاته وقد لبس جسدا، وظهر فى الهيئة كإنسان، كما جاء فى الرسالة إلى فيلبى ورسالة أفسس، غير المنظور صار منظورا. ولأن به تم الخلق فسمى بالكلمة، فالكلمة أو الابن أو المسيح هذه مسميات للذات الإلهية وقد نزل، لذلك عندما سأل فيلبس المسيح : أرنا الآب وكفانا، قال له أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى يا فيلبس، من رآنى فقد رأى الآب. وفى نفس الإصحاح لو كنتم عرفتم الآب لعرفتمونى ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. كلمة وقد رأيتموه، وقد.. هنا للتحقيق. قد رأيتموه، أين ؟ الله ذاته غير منظور لكن ظهر فى المسيح، الآب هو ذاته الله وهو ذاته الكلمة وهو ذاته الروح القدس، لا يوجد أقسام فى الذات الإلهية. الله واحد إنما كلمة أقانيم أو هيبوستاسيس أى خصائص ذاتية تقوم عليها الذات الإلهية، لأنه من دون أن يكون الله هو أصل الوجود فلا وجود له. فكونه الآب هذه صفة ذاتية أو خاصية ذاتية لا يمكن أن نتصور الله كائن من دون أن نتصور أنه أصل الوجود، ولا يمكن أن نتصور الله إلا من حيث أنه هو الروح الأعظم. لأنه خالق الأرواح. وأصل الأرواح، وهو الكلمة لأن به كان كل شئ وبغيره لم يكن شئ مما كان. ومثل ما أن العقل الإلهى يتجسد فى الكلمة، لأن العقل قوة غير منظورة ولذلك عندما صنع معجزة المولود الأعمى تفل على الأرض وصنع من التفل طينا وطمس به عينى المولود أعمى. هذا الرجل لم تكن له فى مقلتيه عينان، أى كانت العيون نفسها غير موجودة فخلق له من الطين، وعندما يقول الكتاب نحن الطين وأنت جابلنا، بهذه الصورة خلق الله آدم جبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فيه، فبنفس الصورة أراد أن يبين المسيح وسيلة إيضاح أنه الخالق، فخلق له عينان من التراب أو من الطين. وحتى الكتب الأخرى تقول يخلق من الطين طيرا، هذه المسألة لا يمكن أن يتصف بها نبى أبدا، فالخلق هو الإيجاد من العدم. هذه القضية شرحت فى قانون الإيمان وهذا كان بسبب الخطأ الذى فهمه أريوس، هذا الرجل الذى أساء الفهم، عندما قرأ الكتاب المقدس يقول عن المسيح ابن الله، فاستنبط من هذا التعبير اللفظى ما يستنبطه غير المسيحيين اليوم، أن المسيح أتى فى الزمن من بعد الله. فبين أن هناك أسبقية فى الزمان، أراد أن يفسر كلمة ابن الله بمعنى أن الله يلد، لكن هنا البنوة ليست هى

البنوة كما فى عالم الإنسان، هذه القضية التى أزعجت الكنيسة بسبب البدعة الأريوسية نحو ٥٠ سنة، وحاليا يجددها الناس الذين يُعرفون باسم شهود يهوه. وشهود يهوه هى الأريوسية الجديدة.

والحقيقة ربنا شاء أن يكون أثناسيوس الرسولى هو الرجل المناسب الذى أرسلته العناية الإلهية، ليقف ويصحح هذه المفاهيم الخاطئة، وتحمل فى سبيل توكيد وتثبيت هذه العقيدة فى حقيقة أن الابن مع الآب منذ الأزل، ومع الروح القدس منذ الأزل، وليس هناك أسبقية فى الزمن، تحمل الكثير من الإضطهاد ونفى ٥ مرات من كرسيه، غير بعض المتاعب وأتهم اتهامات مختلفة. المهم مجمع نيقية ثبت العقيدة بما عرف بقانون الإيمان الذى يردده المسيحيون شرقا وغربا. فى الصلاة الخاصة وفى الصلاة العامة وهو نتيجة المناقشات ونتيجة تصحيح للفهم الخاطئ، فنقول بالحقيقة نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى ومالايرى،.. إلى آخر هذا النص. ولكن أثناسيوس الرسولى عمل صياغة أو تعبيرات لشرح نفس قانون الإيمان، يوضح معنى الألفاظ ومعنى العبارات، ولو أن أثناسيوس الرسولى يعتبر الواضع الأساسى لقانون الإيمان الذى نردده والذى أقره مجمع نيقية، إنما هو أيضا له صيغة لا تختلف ولا تتعارض فى جوهرها عن صيغة قانون الإيمان، إنما تشرح وتؤكد فيقول «كل من يروم أن يخلص» فهنا يتكلم عن الخلاص الأبدى طبعا، «يتحتم أولا وقبل كل شئ، أن يحفظ الإيمان» وهنا ما نسميه بأرثوذكسية الإيمان. أو الإيمان القويم، أرثو كلمة يونانية معناها القويم أو المستقيم. «الإيمان القويم» هوإعتقاد ثم سيرة مطابقة للإعتقاد، ولذلك فإن الإيمان الأرثوذكسى له وجهان أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة. لكى يكون الإيمان سليم، الإعتقاد نفسه لابد أن يكون سليم وأيضا سلوك الإنسان. وهذه مهمة الحقيقة فى حياتنا، أن نعرف أن الأرثوذكسية لها هذان الوجهان معا أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة، والسيرة هى السلوك، من الناحية الأخلاقية الروحية، بمعنى لو أن الإنسان انحرف فى روحياته لا يخلص حتى لو كانت عقيدته سليمة. لذلك الأرثوذكسية التى تؤدى إلى الخلاص أو التى بها يخلص الإنسان، هى أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة. كل من يروم أن يخلص يتحتم عليه أولا وقبل كل شئ أن يحفظ الإيمان، كلمة الحفظ هنا بمعنى الصيانة، يقول الرسول لتلميذه تيموثاؤس : «ياتيموثاؤس احفظ الوديعة» كلمة احفظ الوديعة ليس مجرد التلاوة ولكن الصيانة، المحافظة على الشئ بمعنى حمايته من أى شئ يهاجمه أو يخربه، هنا يقول أثناسيوس الرسولى

«كل من يروم أن يخلص يتحتم عليه أولا وقبل كل شئ أن يحفظ الإيمان ومن لا يحفظه بأكمله ومن غير تعديل فيه يموت موتا أبديا» فالحفظ لا يكون جزئى أو معظمه لا . بأكمله، من لا يحفظه بأكمله ومن غير تعديل فيه، أى ليس لك يا إنسان أن تعدل، لابد أن تأخذ الإيمان كاملا كما تسلمته وديعة، كل من لا يحفظه بأكمله من غير تعديل فيه يموت موتا أبديا يعنى ليس له خلاص. ما هو الإيمان الذى يتكلم عنه؟ هو «أن نعبد إلها واحدا فى ثالوث وثالوث فى وحدانية» .

واحد من حيث لا يوجد تعدد، الله واحد نؤمن بإله واحد، أما الثالوث فهو ثالوث الخصائص وهو الذات الإلهية والعقل الأعظم والروح الأعظم. هذا الإيمان هو «أن نعبد إلها واحدا فى ثالوث وثالوث فى وحدانية من غير إختلاط أقانيم ولا تقسيم فى الذات، والآب ليس هو جزء من الله، هو الله من حيث هو أصل الوجود، والله هو الروح القدس، والروح القدس ليس جزء فى الذات الإلهية هو نفسه الروح القدس من حيث هو أصل الأرواح وأبو الأرواح، وهو ذاته الكلمة لأنه هو الذى تجسد لأنه هو العقل الإلهى ظهر فسمى بالكلمة، فالكلمة ليس جزء من الله، عظيم سر التقوى الله ظهر، من غير تقسيم فى الذات ومن غير إختلاط فى الخصائص، لا نخلط بين خاصية وأخرى، الله أصل الوجود هذه خاصية، هذا غير أنه أبو الأرواح وأصل الأرواح، غير أنه الكلمة الذى به خلق العالم. لا يوجد خلط فى الأقانيم أو الخصائص، نعبد إلها واحدا فى ثالوث، وثالوثا فى وحدانية من غير إختلاط فى الأقانيم ولا تقسيم فى الذات. هذا قيمة قانون أثناسيوس الرسولى، وهو شرح لقانون الإيمان ولكن بتعبيرات أخرى لكن تشرح نفس القضايا، تاريخيا عندما اجتمع المجمع والبابا ألكسندروس الـ ١٩ طلب وجود أثناسيوس فى المجمع، كان وقتها أثناسيوس شماس والمجمع مجمع أساقفة، فالبابا قال أنه من المهم وجود أثناسيوس، لأنه كان له خبرة، وكان يذهب من مكان لمكان ويناقش أريوس وغير أريوس فله أهمية فى وجوده، الأمر الثانى بعد المناقشة، أرادوا وضع صيغة كلفوا ثلاثة فى وضع الصيغة الأساسية التى يدرسها المجمع ويقرها. فكان أثناسيوس أحد الثلاثة المهمين الذين وضعوا الصيغة التى أقرها المجمع، وهى صيغة قانون الإيمان التى نقولها اليوم. لكن أقول أن أثناسيوس الرسولى له قانون عُرف باسم أثناسيوس، غير قانون مجمع نيقية لكن لا يوجد تعارض، مثل ما رأينا يقول «كل من يروم أن يخلص، يتحتم عليه أولا وقبل كل شئ أن يحفظ الإيمان، ومن لا يحفظه بأكمله من غير

تعديل فيه يموت موتا أبديا. وهذا الإيمان هو أن نعبد إلها واحدا في ثالوث وثالوث في وحدانية من غير تقسيم الذات ومن غير إختلاط في الأقانيم، ولكن الآب والإبن والروح القدس ليسوا إلا إلها واحدا. ومجدا واحدا وعظمة أبدية واحدة، أقنوم الآب غير أقنوم الابن. غير أقنوم الروح القدس، ولكن الآب والابن والروح القدس ليسوا إلا إلها واحدا، ومجدا واحد وعظمة أبدية واحدة هذا هو الآب وهذا هو الابن وهذا هو الروح القدس، فالآب غير مخلوق والابن غير مخلوق والروح القدس غير مخلوق، كان هناك مذهب في الأسكندرية اسمه مذهب الأفلاطونية المحدثة، صاحب المذهب اسمه أفلوطين، وأفلوطين غير أفلاطون. فمذهب الأفلاطونية المحدثة كان يقول إن الله هو الأول ولكي يخلق الوجود خلق كائنا به خلق الوجود، هذا كلام أفلوطين. ونفس المعنى أخذه أريوس وقال أن الله خلق الابن لكي يخلق به الوجود. من هنا تكون أسبقية في الوجود بين الآب وبين الابن، هذا المذهب الفلسفي قال أن الله مستشرق على المادة، إستشراق على المادة بمعنى أن الله أجلّ من أن يتصل بالمادة. فهذا الإستشراق جعله يخلق كائن متوسط هو الذي يقوم بالخلق. هذا هو المعنى الذي أخذه أريوس. نقلا عن أفلوطين، لذلك أثناسيوس الرسولي في بعض كتاباته قال إن أراء أريوس وثنية وأخذها من أفلوطين.

فهنا كلام أثناسيوس الرسولي في شرحه لقانون الإيمان «هذا هو الآب وهذا هو الابن وهذا هو الروح القدس، فالآب غير مخلوق والابن غير مخلوق والروح القدس غير مخلوق، والآب غير محدود والابن غير محدود والروح القدس غير محدود» ليبين أنه في الصفات لا يوجد فرق ولكن في الخصائص يوجد فرق، فخاصية الذات الإلهية أن الله أصل الوجود غير خاصية أنه هو الروح الأعظم، غير خاصية أنه الخالق، مثلا في عالم الإنسان، لكي تحل تمرين هندسة أو حساب تحلها بالفكر، لكن عندما تعبر عن محبتك لإنسان أو محبتك لله تحب الله من القلب، الأشياء العقلية هي مثلا من الذهن، أما العاطفة والحب هذه وظيفة أخرى في الإنسان من القلب. لكن الإنسان واحد، «والآب سرمري والابن سرمدي والروح القدس سرمدي ومع ذلك فليسوا ثلاثة سرمديين بل سرمدي واحد» صحيح ميزنا هنا بين الآب والابن والروح القدس، لكن هذه الثلاثة أقانيم ذات واحدة، ليسوا ثلاثة غير مخلوقين ولا ثلاثة غير محدودين بل غير مخلوق واحد وغير محدود واحد. كذلك «الآب قادر على كل شئ والابن قادر على كل شئ والروح القدس قادر على كل شئ ومع ذلك فهم ليسوا ثلاثة قادرين على كل شئ بل واحد».

«كما أن الآب هو الله والابن هو الله والروح القدس هو الله فليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد، ثم إن الآب هو رب والإبن هو رب والروح القدس هو رب وليسوا مع ذلك ثلاثة أرباب بل رب واحد، ولم يكن الآب مكوناً بيد شخص آخر ولا مصنوعاً ولا مخلوقاً ولا مولوداً منه وقد أتى الابن من الآب وحده ولم يكن مصنوعاً ولا مخلوقاً بل مولوداً ، ولادة النور من الشمس. وأتى الروح القدس من الآب وهو الانبثاق، مثل الدفء من الشمس، فالشمس مثلاً منها النور ومنها الدفء أو الحرارة، والدفء غير النور، هذه خاصية وهذه خاصية أخرى، لكن الإثنين من الشمس لا يوجد هنا ثلاثة ذوات لأن النور من الشمس ولكنه كائن فى الشمس والدفء أو الحرارة من الشمس، لكن الدفء غير النور، كلنا نحس أن الحرارة متميزة عن النور، النور ينور ولكن الحرارة تعطى الدفء. لذلك أباء الكنيسة قالوا إن الذات الإلهية صعب علينا أن ندخل فيها ونتكلم عنها، لأنها أعلى من منال الإنسان، وقالوا أن الله لا يعبر عنه، لكننا مضطرين أن نتخذ وسائل إيضاح للتقريب ، لكن المعنى الحقيقى أعلى من منال الإنسان. ولذلك أباء كنيسة الأسكندرية كانوا يقولون دائماً سر التوحيد والتثليث، لأن فيه سر، وهذا ما يميز لاهوت مدرسة الأسكندرية عن لاهوت مدرسة أنطاكية، التى خلقت لنا كل الهرطقات فى الخمسة قرون الأولى. لأنهم أخضعوا الدين أو اللاهوتيات للمنطق الاستقراميسى، يعنى كذا تساوى كذا، لكن مدرسة الأسكندرية استخدموا الفلسفة واستخدموا اللغة البشرية لذلك أضافوا كلمة سر، ليبينوا أن هناك شيئاً آخر وأعمق وأعلى من أن ينالها العقل البشرى، فقالوا سر التوحيد وقالوا سر التجسد، هذا لاهوت مدرسة الأسكندرية، كيف يمكن مثلاً نملة تحت قدميك تدرك ما فى عقلك أنت يا إنسان، هذا الذى بين النملة وبين الإنسان، لكن الذى بين الإنسان وبين الله أعلى وأعظم من الذى بين النملة بالنسبة للإنسان، لذلك نقول أن لاهوت مدرسة الأسكندرية كان يتميز بقولهم إننا نستخدم اللغة ونستخدم الفلسفة، لكن لا نظن أنها تعطى المعانى الحقيقية، لأن المعنى أعلى وأعمق من أن تعبر عنه اللغة البشرية، لذلك أضافوا كلمة سر ليغطوا بها نقص الإنسان عن أن يسير غيب الله، وهناك تعبير نجده فى القداس الغريغورى الذى ترجموه «الله غير المفحوص»، يمكن باللغة العربية أن نقول «الذى لا تدرك أعماقه» هذه الخاصية المهمة فى لاهوت مدرسة الأسكندرية والتى عصمت أبائنا الرسل فى الأسكندرية من الوقوع فى الأخطاء والهرطقات التى وقع فيها علماء مدرسة أنطاكية، لايوجد غير القديس ساويرس الأنطاكى فى القرن السادس الميلادى، الذى ربط مدرسة أنطاكية أو الكنيسة السريانية بالكنيسة الأسكندرية، وإعترافاً بفضل هذا الرجل نضعه فى المجمع قبل أثناسيوس وقبل ديسقوروس، تحية لهذا الرجل الذى صالح ما بين لاهوت مدرسة الأسكندرية ومدرسة أنطاكية، لأنه قبل ذلك كان إتجاه مدرسة انطاكية هو

الذى خلق الهرطقات فى الخمسة قرون الأولى. لكن ساويرس الأنطاكى رفض كل هذه الأشياء ونُفى عندنا وعاش فى بلادنا ودفن فى دير الزجاج. الست سنوات الأخيرة من حياته قضاها فى مصر، وله قصة جميلة عندما نفاه الأمبراطور جوستنيان بسبب تمسكه بالإيمان الأرثوذكسى ضد الأريوسية، وضد المبادىء الأخرى الهرطقية، فجاء بلادنا وعاش فى مصر وكان يتخفى فى ملابس عادية كأنه راهب بسيط، ففى يوم من الأيام دخل كنيسة وحضر القداس، وكان الكاهن قد أستبرأ الحمل ويصلى القداس، وظهر ملاك للكاهن وقال له كيف ترفع القرابين والبطريرك موجود، فأجاب أين هو يا سيدى؟ فأشار إليه فذهب الكاهن وعمل له مطانية وطلب إليه أن يصلى القداس. هذه قصة جميلة من القصص التى تشير إلى إعتراف السماء به، وهذه موجوده فى تقليدنا الكنسى، فهذا الرجل كنوع من التحية والتكريم نذكره فى المجمع قبل أثناسيوس وقبل ديسقورس، لماذا؟ لأنه هو الذى صالح بين لاهوت مدرسة الأسكندرية ومدرسة أنطاكية، وكنوع من أنواع الإعتراف بفضله الذى أدى إلى توحيد الكنيستين، وأصبحا من ذلك التاريخ كنيسة واحدة، وأصبح التقليد أن يذكر بطريرك الأقباط عند السريان، وبطريرك السريان يذكر عند الأقباط. تعبير عن الوحدة الإيمانية التى صارت بين الإثنين.

قيمة لاهوت مدرسة الأسكندرية أنه كان يستخدم الألفاظ، ولكن يعترف أن هذه الألفاظ ضعيفة عن أن تؤدى المعنى الحقيقى الكامل. فيقولون إن الله لا يعبر عنه، لا ينطق به، إنما نحن مضطرين أن نكتفى باللغة، لكن لابد أن نعترف بأن اللغة البشرية أقل، لأنها قوالب والمعانى أعمق وأعلى من أن توضع فى هذه القوالب، فأضافوا كلمة سر لكى يبرهنوا على أنهم مدققين فى التعبير. لكن تبقى الحقيقة أعمق وأعلى من منطق الإنسان.

فيوجد إذن آب واحد لا ثلاثة آباء وابن واحد لا ثلاثة أبناء وروح القدس واحد لا ثلاثة. وليس فى الثالوث أقنوم أسبق من الآخر، أو أكبر منه بل إن الأقانيم الثلاثة كلها سرمدية معاً ومتساوية معاً وما أوفقها خاتمة لهذا الحديث أن نذكر ما قاله الوحى الإلهى على لسان القديس يوحنا الرسول: «إذ قال فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد».

هذا هو المبدأ اللاهوتى الذى تضمنه نهى الرب القائل لا يكن لك آلهة أخرى أمامى.

الناحية الروحية للوصية الأولى

أما التعليم الروحى فيشمل أمور عدة، أهمها من الناحية الروحية **أن نحب الله حباً فائقاً لا يدانيه حب**، ومحبته تعالى ينبغى أن تكون من أعماق النفس ومن كل القدرة ومن قرارة

الفكر. أى كما قال تعالى بفمه القدوس «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك» ومحبته يجب أن لا يشاركه فيها أى من البشر، فلا الأباء أو الأمهات ولا البنون أو البنات ولا الأخوة أو الأخوات ولا الزوجات، ولا الأموال ولا الأعمال ولا أى شيء فى الوجود، مهما كبر أو صغر، عظم أو حقر، **كل محبة بإزاء محبة الله ينبغى أن تحسب كراهية وبغضة لعظمة الفرق بينهما**، «إن كان أحد لا يبغض أباه وأمه حتى نفسه لا يقدر أن يكون لى تلميذاً» بمعنى أنه فى المواقف التى فيها محبة الأب أو الأم تهدد محبتنا لله ينبغى أن نبغض هذه المحبة، وهذا الذى حدث مع الشهداء مثلاً، القديسة دميانه أبوها كان يجرى وراءها يريد أن يقطعها، وهكذا القديسة بربارا، وهكذا يمكن أن يكون الأب أو الأم عائق، لكن فى هذه الحالة يكون إمتحان بالنسبة للإنسان، هل يؤثر الإنسان محبة الأب على محبة الله؟ فى الأحوال التى فيها على الإنسان أن يختار بين إثنين، فى هذه الحالة يجب إختيار واحد، فى الحالات التى فيه يصعب الجمع بين إثنين. هنا امتحان قاسى للإنسان، وإذا كان حقاً يحب الله ينبغى أن يضحى بمحبته لأبيه وأمه وإبنه وإبنته. لذلك قال من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى، من أحب إبن أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى. عندما تطغى محبة القريب على محبة الإنسان لله، أو يكون هذا القريب عثرة وعقبة فى سبيل تمسك الإنسان بالإيمان، ففى هذه الحالة يكون إمتحانا قاسياً وهنا يظهر حقيقة الإيمان والحب الإلهى، إذا كان الإنسان يؤثر محبة الله على محبته لأبيه وأمه، فيجب أن يضحى بهذه المحبة بالأب والأم والأخ والأخت والزوجة وما إلى ذلك. وهنا معنى كلمة إن كان أحد لا يبغض أباه وأمه حتى نفسه لا يقدر أن يكون لى تلميذاً. عندما تحدثه نفسه أو تعطله أو تعوقه، وعندما يكون هناك شهوة أو رغبة أو خوف من أن يفقد مركزه أو منصبه فى سبيل الإيمان بالمسيح، هنا نفسه تصبح عدوة له، فإن كان أحد لا يبغض حتى نفسه لا يقدر أن يكون لى تلميذاً.

فهنا من جهة المبدأ أن نحب الله حباً فائقاً لا يدانيه حب، يقول الرسول «لا ملائكة ولا رؤساء ملائكة تستطيع أن تفصلنى عن محبة الله التى فى المسيح» طبعاً يمكن تطبيقها على الشياطين لأنهم كانوا ملائكة. الرسول يريد أن يقول محبة الله ينبغى أن تكون أقوى من كل نوع من العلاقات الإنسانية مهما كانت هذه العلاقات قوية. فإن كان لك أحد تعتمد عليه أو تستند إليه، بمثابة اليد أو الرجل ولكن يكون عائق عن خلاصك الأبدى، فلابد أن تكون على استعداد أن تقطع هذا العضو عنك، أى تقطع علاقتك بهذا الإنسان. مثل ما حدث لأبونا إبراهيم ولوط، لوط إبن أخوه لكن حدثت مشاكل وقال له يا أخى لا تكن مخاصمة بينى وبينك، ولا بين رعاتى ورعاتك إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً، قطع العلاقات هنا فى هذه الحالة يجعل

المحبة تسود بينهم وبين بعض، وفعلاً عندما لوط اختار أرض سدوم، وطغى عليه خمسة ملوك، وسمع إبراهيم أخذ رجاله ٣١٨ مثل مجمع نيقية وذهب وخلص أخوه ثم رجع لمكانه. المهم كلمة إن أعثرتك عينك فاقلعها، إن أعثرتك يدك أو رجلك اقطعها، تعنى إن كان لك أَحَد سواء كان قرابة جسدية أو قرابة معنوية، لكن هذا الإنسان يكون سبب فقدانك لخلاصك الأبدى، لا ...، محبتك لله ينبغى أن تسمو على كل عاطفة أخرى، وإنك أنت مع حزن شديد تقطع علاقتك بهذا الإنسان الذى يعطلك عن الأبدية. وهذا فى الحقيقة القرار الحكيم الذى ينبغى أن يتخذه الإنسان فى بعض الأحيان من أجل خلاصه الأبدى. والذى أخذناه من مبادىء المسيح نفسه، قديماً كان إبراهيم يحب اسحق حباً جما، لأنه إبنه الوحيد الحبيب وإبن شيخوخته، ومع ذلك لما سأله الرب أن يقدم إبنه ذبيحة لم يتوان. الحقيقة موضوع قاسى جداً جداً، أى واحد فينا يضع نفسه محل إبراهيم، خذ إبنك وحيدك الذى تحبه اسحق وقدمه لى محرقة. وإبراهيم لم يعترض بل قام باكراً وسار ثلاثة أيام حتى رأى المكان، لذلك الله قال له لما رأيت محبتك وأنك لم تمنع ابنك وحيدك عنى، فإنى بالبركة أباركك وبالكثرة أكثر نسلك، ونحن فى مسيرتنا نحو السماء، لنا رفقاء مسيرة تحدث لنا مواقف من هذا القبيل، شيء غالى عليك جداً ومع ذلك يطلب منك أنك تضحى به. ياترى تقبل أم لا، خصوصاً الموقف الذى فيه إمتحان، إمتحان لما فى قلبك نحو الله، وهذا ما صنعوه القديسون والشهداء، وكل الناس الذين وصلوا إلى الروحانية العالية كان عندهم الله أغلى من كل شيء. فكلمة لا يكن لك آخرين يكونوا بالنسبة لك آلهة. هنا إمتحان عندما تكون هناك مواقف على الإنسان فيها أن يختار، صعب هذا الإختيار ولكن إمتحان قاسى على الإنسان أن يفاضل بين محبته لله وبين محبته لهذا الإنسان، سواء كان قرابة جسدية أو قرابة معنوية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى، كلمة آلهة تعنى أشخاص آخرين لهم مقام الآلهة عندك. فعندما سأل الله إبراهيم لم يتوان بل بكر باكراً جداً وقدمه كإرادة الله، وهذا يدل على منتهى الحب بل يدل على أن محبته لله أعظم من محبته لولده. لذلك أسمعه الرب هذه الشهادة، الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك إبنك وحيدك عنى، لذلك فإنى بالبركة أباركك وبالكثرة أكثر نسلك.

الله متكلنا الوحيد:

هذا التعبير الروحى يتضمن فوق هذا أن نتخذه تعالى متكلنا الوحيد، ولا ينبغى أن نتكل على إنسان مطلقاً، لأن هذا الإنسان ينسى ولأنه قد يَعِد ولا يفى، يتكلم ولا يصدق، أما الله فليس إنسان فيكذب ولا إبن إنسان فيندم. أو يتكلم ولا يفى، ولا إنسان متقلقل متغير لا يكاد يثبت على حال، أما الله فهو الذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران. والإنسان حتى لو ظل أميناً مخلصاً وفياً صادقاً مرة فإنه عرضة للموت والفناء. فهنا يقول النبى داود مز ١٤٦ : ٣، ٤ «لا تتكلوا على

الرؤساء ولا على ابن آدم حيث لا خلاص عنده، تخرج روحه فيعود إلى ترابه فى ذلك اليوم نفسه تهلك أفكاره، فلا تخدعك وعود البشر ولا توكيداتهم، بل اعلم أنهم من نفوسهم لا يستطيعون شيئاً، فلو شاء الله أن ينجح مقاصدك واعترضك بشر لا تنجح عراقيلهم، ولو شاء لك الفشل وساعدك البشر لا تفلح معهم، فالله هو الوحيد الذى نستطيع أن نتكل عليه بل نطمئن. بعد ذلك فإن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة فهى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار. هذا ما أراده المسيح له المجد يوم نهى تلاميذه عن أن يتخذوا لهم أبا أو معلماً على الأرض، فقال: «لا تدعوا لكم أبا على الأرض، لأن أباكم واحد فى السموات ولا تدعوا لكم معلمين لأن معلمكم واحد المسيح»، كلمة لا تدعوا لكم أبا على الأرض، ليس المقصود بها أن الإنسان إذا كان رجل دين ينكر علاقته بأبيه الجسدى أو ينكر صلته. إنما معناه أنه لا يصير المرجع الذى يلتجأ إليه الأباء الرسل ومن هم فى حكم الرسل فى تصرفاتهم. أو فى تفسير أو تطبيق قاعدة روحية أو مبدأ روحانى لا.. أنت رسول للمسيح لم يعُد الأب الجسدى هو الإنسان الذى ترجع إليه فى تفسير الوصايا الإلهية. كلمة لا تدعوا لكم أباً على الأرض ليس معنى هذا أن الإنسان يتنكر لعلاقة القرابة، إنما لا يصير الأب الجسدى المرجع. مرجعك أصبح هو المسيح على إعتبار أنه يكلم الأباء الرسل، ليس معنى ذلك أن الخدام أو الكهنة يتنكروا للعلاقات الجسدية للوالد والوالدة ومن إليهم من الأقارب. وإلا أصبح الإنسان خلع الأدب الواجب نحو هؤلاء، الرسول يقول للأسقف تيموثيئوس عظ الشيوخ كأباء وعظ العجائز كأمهات، أى بإحترام السن، ولو أنه أسقف لكن يحترم الأباء الشيوخ المدنيين كأباء لهم كرامتهم، لكن لا يرجع إليهم ويعتبرهم فى التعليم الدينى هم المرجع، لا تدعوا لكم أبا على الأرض، الخطأ الذى لا يفهموه بعض الناس خصوصاً الخوارج عن الكنيسة الأرثوذكسية، أن هذا الكلام موجه إلى الرسل، ليس إلى عامة المؤمنين. إلى الرسل رجال الكهنوت، إنما من جهة أى أب أو أم بالنسبة لعامة الناس طبعاً لهم إحترام، فكلمة لا تدع لكم أباً على الأرض التى يعترضن بعض الناس عليها لكى ينكروا القول للكاهن يا أبى، لابد أن يفهموا أن هذا الكلام موجه ليس لعامة الناس ولكن إلى الرسل ومن فى حكم الرسل، بمعنى إنه لا يكون له شخص يعد المرجع الأعلى الذى يرجع إليه فى تفسير أو فى أى تصرف دينى، خصوصاً إذا كانت هناك أوامر واضحة فى الكتب المقدسة أو من الشيوخ رأساً. هناك بعض الناس يتخذوا هذا الكلام ويقولون لماذا يسمى الكاهن أب؟ ونحن نعرف أن الأباء الرسل استخدموا كلمة الأب، خصوصاً رسالة القديس يوحنا أيها الأبناء، يا أبنائى، فهنا لابد أن نفرق ونميز بين الآباء الرسل ومن هم فى حكم الرسل، بمعنى أنهم لا يتخذوا شخصاً آخر كمرجع أعلى، وهذا لا ينقص من إحترامنا لأبائنا وأمهاتنا. وإذا كنا نسمى الكاهن أب لأنه عن طريقه تتم الولادة

الروحية، ولذلك نسمى الوالد أب لأنه عن طريقه تتم الولادة الأولى، فالكاهن الذى عن طريقه تتم الولادة الثانية التى هى من الماء والروح. فيحق له أن يسمى أب، هنا كلمة أباء روحانيين كلمة صح، لا تتعارض أبداً مع كلام المسيح، لا تتخذوا لكم أباً على الأرض. هذا تصحيح للأفكار التى يأخذها بعض الناس الخوارج عن الكنيسة الأرثوذكسية، لينكروا بها فكرة الأبوة الروحية، وهذه الأبوة الروحية مقررة فى الكتب المقدسة، مثلاً عندما يقول يوحنا الرسول يا أولادى لا تحبوا بالكلام أو باللسان بل بالعمل والحق، يا أولادى من الناحيتين من ناحية السن يكون أب بهذا المعنى، ومن الناحية الروحية سواء أكان الإنسان الذى عن طريقه تتم الولادة الثانية وهى المعمودية، أو الأبوة الروحية فى سائر الأسرار، مثل الكاهن وهو يعقد الزواج أو يقدم سر القربان وسائر الأسرار الكنسية، البطريرك أو المطران الذى يرسم قسيس فعن طريقه يتم حلول الروح القدس أو موهبة الروح القدس، فبهذا يصير أب له فهنا الأبوة شريعة، لكن نؤكد مرة أخرى أن كلام المسيح هنا للأباء الرسل لكى لا يتخذوا لهم أباً بمعنى يصير المرجع الأعلى لهم، المرجع المسيح وحده، حتى لا يقع فى خطأ فى التعليم أو التفسير.

هذا التعليم الروحى يتضمن كما قلنا أن نتخذ الله تعالى متكلنا الوحيد. فلا ينبغى أن نتكل على إنسان مطلقاً، كما يقول ملعون من يتكل على ذراع بشر، وكثير جداً يحدث أن الإنسان يتمسك بشخص ولكن هذا الإنسان يخونه، والخيانة موجودة فى تاريخ الإنسانية، مثل يهوذا الإسخريوطى الذى خان سيده فى مقابل مبلغ زهيد من المال. قال لهم ماذا تعطونى وأنا أسلمه لكم؟ واحد مثل بطرس الرسول الذى قال : إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً، مع إن سيدنا أنذره قائلاً أنه قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرنى ثلاث مرات، ويبلغ الأمر أن بطرس الرسول الذى كان من أخلص تلاميذ المسيح، أن ينكر المسيح أمام جارية وأمام الناس عدد من المرات، ويقول أنا لا أعرف هذا الرجل، أو يلعن ولهذا السبب عندما نظر له المسيح وقت المحاكمة خرج وبكى بكاء مرا، كيف يحدث هذا لبطرس الرسول؟ ضعف، فأنا كإنسان سائر فى طريق السماء لما أتكل على إنسان هذه خيبة، لأن هذا الإنسان يمكن أن يخون، ويمكن أيضاً أن يوصلنا للهلاك، لكن يجب أن يكون إتكالنا على الله. هذا أحد المعانى الروحية التى تخرج من قول الكتاب المقدس أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى، ولذلك قال الآباء الرسل له نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فقال لهم ليس أحد ترك أباً أو أماً أو أخاً أو أختاً أو زوجة من أجلى إلا ويأخذ مائة ضعف. ماذا تعنى ترك أباً أو أماً؟ تعنى فى سبيل الأمانة لسيده قد يضطر بقطع علاقته مع الأب أو الأم أو أى إنسان أخر. عندما يجد أن هذا الإنسان عثرة أو عائق عن تبعيته لسيده. ليكون الله هو المعبود الوحيد الذى يتطلع إليه الإنسان السائر فى طريق السماء. والله هو

الوحيد الذى نستطيع أن نتكل عليه بكل إطمئنان، وعلى ذلك فإن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار.

عدم اللجوء لغير الله بالصلاة والعبادة:

من التعليم الروحى من الوصية الأولى أن لا نلتجىء لغير الله بالصلاة أو العبادة. لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.

فالصلاة دليل حاجتنا إلى الله، وهى ليست كذلك فحسب بل هى شركة ولذة وسعادة ومحبة وعشرة مع الله، هى رفع الإحساس والمشاعر لتكون مع الله، فإلى الله وحده يجب أن تقدم الصلاة، أما إستشفاعنا بالقديسين لطلب المعونة هى إستغاثة، فعندما نستشفع بالقديسين لا نصلى إليهم، بمعنى أن يكونوا هم إتكالنا، لا.. حاشا فالصلاة هى لله وحده، إن كنا نستغيث بالقديسين كنوع من أنواع طلب المعونة ومساعدتهم لنا، كمثل أن يستعين الإنسان بصديق أو مهندس أو طبيب ليساعده، ليس معنى ذلك أنهم أصبحوا آلهة لأ.. طبعاً.. فلجوئنا للقديسين إستغاثة وطلب معونة أما عبادتنا لله تعالى تقوم على تقديس كل مافينا من عقل وحواس لجلاله تعالى. فلا نكتفى فقط بأن نحنى أعضائنا الظاهرة كالسجود والمطانيات. ولكن لابد أيضاً من التأمل العقلى وحصر الذهن وإنسكاب الروح وخضوع القلب وتذلل النفس، يجب أن نعبده بأرواحنا، ونفوسنا، وعبادة الروح بلا جسد وعبادة الجسد بلا روح كلاهما ناقصة، فكما أن الله خالق الروح له عليها واجب العبادة، فهو خالق الجسد وله عليه واجب التذلل، فكون أننا نسجد إلى الأرض يجب أن لا نكتفى بهذا، أرواحنا تسجد بالتأمل الباطنى، والخضوع الداخلى، وأيضاً أجسادنا تجثو، فعندما يعبد الإنسان الله يعبده بكل كيانه جسداً وعقلاً وذهناً. فبالإجمال يجب أن يكون كل شيء فينا ملكاً لمن إشترانا وفدانا بدمه. فلنكن مستأثرين كل فكر وفعل لطاعة المسيح إلهنا.

ومما سبق نرى حاجتنا إلى الطقوس فديانة بلا طقوس ديانة لا تليق ببشر ولا بملائكة، لأن الملائكة يعبدون الله بطقوس معينة، فكون السيرافيم يسبحون ويقولون قدوس قدوس هذه طقوس معينة. والطقوس هى عبارة عن نظام. فيجب أن يكون هناك طقوس ليكون هناك نظام فى العبادة. كيف يصلوا، كيف يبنوا بيوت العبادة.

فهنا الديانة لابد أن يكون فيها طقوس، وهو النظام، فعندما أراد سيدنا أن يوزع الخمس خبزات، أمر أن يجلسوا على الأرض خمسين خمسين ومائة مائة. فكأنه أمر بالنظام، فالنظام لا يتعارض، أقول هذا الكلام لأن إخوانا البروتستانت خصوصاً فى الأجيال الماضية كانوا يهزأون بالطقوس، ويقولون هذه أشياء عملوها بشر، ويحتقروها وكانوا يفتخرون أنهم لا يوجد عندهم طقوس، مع العلم أن عندهم طقوس، ولا يعترفون بالطقوس الخاصة بنا. لأنهم يشكوا أن هذه

ترتيبات قديمة، لكن عندنا الأدلة والبراهين على أن هذه الطقوس ترتيبات قديمة وأن الله أمر بها، وأن الآباء المعتبرين أعمدة هم الذين ثبتوها. ومن خلال الكتاب المقدس والدسقولية وكتب الكنيسة تجد أن هذه الطقوس لها أصول قديمة، ولها ترتيبات معينة، فهي ليست إختراع، نحن فى المسيحية الأرثوذكسية بالذات نسير حسب نظام، وهذا النظام رسمه ربنا، وأيضاً الآباء الرسل المخولين من قبل المسيح أن يعملوا هذا النظام، فلما قال المسيح أى بيت دخلتموه فأقيموا فيه إلى أن تخرجوا هذا هو ترتيب. ولذلك فإن البيوت التى ذهب إليها الآباء الرسل وأقاموا فيها تحولت إلى كنائس وهذا ترتيب. فوجود الطقوس لا تتعارض مع عبادتنا بل بالعكس تتمشى معها، لأنها ترتيب إلهى.

فديانة بلا طقوس ديانة لا تليق ببشر ولا بملائكة، لأن الملائكة يعبدون الله بطقوس معينة، يسجدون ويخرون أمام الحى إلى أبد الآبدين كما جاء فى سفر الرؤيا. والكتاب يقول: مجدوا الله فى أرواحكم وأجسادكم التى هى لله.

وإذا قلنا إن الله وحده الذى يحق له العبادة والصلاة والسجود، فليس معنى ذلك أن لا نستغيث بالقديسين، نجد البروتستانت يقولون من موسى؟ ومن إيليا؟ الصلاة لربنا، إنهم يشوهوا فكرة الإستغاثة بالقديسين، نحن لا نصلى لهؤلاء القديسين، نحن نستغيث بهم، نستعين بهم، يساعدونا كما نستعين فى الأرض ببعضنا البعض. عندما يكون إنسان متميز فى موهبة معينة الواحد فينا يلجأ إليه، هناك مساعدات الناس للناس بعضهم لبعض. إنما الحقيقة أن البروتستانت يشوهوا علاقتنا بالقديسين، كأنها علاقة لجوء إلى إله آخر، حاشا....لا يوجد تعارض أبداً، فإننا إذا دعوناهم فإننا ندعوهم ليتضرعوا إلى الرب من أجلنا. كما أنهم فى حاجة إلى صلوات الكنيسة إلى الرب من أجلهم. ولذلك نذكرهم ونترحم عليهم. ففى الترحيم فى القداس نتذكرهم ومع ذلك نقول لسنا أهلاً أن نتشفع فى طوباوية أولئك القديسين بل هم الواقفون أمامك، شفاعة القديسين غير شفاعة المسيح، شفاعة المسيح شفاعة كفارية هو المخلص وحده، إنما شفاعة القديسين هذه توسلات.

النـذور :

عندما نقدم نذور بأسماء القديسين، ليس معنى ذلك أننا نقدمها لهم لأنهم أرواح لا تحتاج إلى عطايا مادية، فوق أنهم مخلوقون محدودون، إنما نحن نقدم النذور بأسمائهم لأن الرب يسر جداً بهذا، لأن إكرام القديسين إكراماً له. كما أن إعتبارنا لهم اعتباراً للفضيلة التى تحلوا بها، فضلاً عن أن فى ذكر أسمائهم على أفواهنا ما يفيد نفوسنا فى العمل بسيرتهم ووفق مبادئهم.

فمسرة الرب فى تقديم النذور بأسماء القديسين، حيث قول المسيح من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى. من يقبل نبياً بإسم نبى فأجر نبى يأخذ، من يقبل باراً بإسم بار فأجر بار يأخذ، وما نقوله عن النذور يقال عن إطلاق أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس، فنحن لا نعبد الملائكة ولا القديسين بل نعبد الرب الذى أحبنا وغسلنا من خطايانا، وأما إطلاقنا أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس فلأغراض معينة ولحكمة سامية هى إكرامهم، وفى هذا إرضاء لله ذاته. «أكرم الذى يكرموننى والذى يحتقروننى يصغرون».

ولِما يعود علينا بالفائدة من إكرام، بل ولِما فى هذا المبدأ من تشجيع المؤمنين على حياة الفضيلة، عندما نكرم القديسين فهذا وفاءاً منا لهؤلاء الناس، الذين بذلوا وضحوا، وفى نفس الوقت تشجيع للشباب المبتدئين فى حياة الفضيلة، أن يتمثلوا بهؤلاء القديسين، كما قال الرسول تمثلوا بى كما أنا بالمسيح «أنظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم، فإطلاق أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس فهو أيضاً لكى يميز كل كنيسة عن غيرها، فإذا كانت فى البلد أكثر من كنيسة واحدة، وكانت واحدة تسمى باسم كنيسة العذراء، وأخرى تسمى كنيسة مارجرجس، فهذا يفيد فى التفرقة ما بين الكنيستين. لكن فى كل الأحوال العبادة واحدة، فى كلا الكنيستين، أقصى ما فيها عندما نقول أكسيوس بنذكر اسم القديس، لكن العبادة واحدة والقداس واحد والصلاة واحدة. فإذا كان من عادات الأباء فى العصور الأولى، عصور الشهداء أن يبنى فوق جثمان الشهيد كنيسة، أو أن يدفن الشهيد فى الكنيسة، كان من الطبيعى إذن أن تسمى الكنيسة باسم هذا الشهيد، المعروف إن القديس مارجرجس كان فلسطينى، فعندما دفن بعد إستشهاده أقيمت على جسده كنيسة باسم مارجرجس، فأصبح تقليد فى المسيحية أن رفات القديسين تبنى عليها الكنائس، لكن ليس بمعنى أن يعبد فى هذا المكان، إنما كنوع من أنواع التكريم لهذا القديس، كنوع من التخليد والوفاء، وفى نفس الوقت يكون فيه نوع من التمييز بين الكنائس وبعضها البعض.

هكذا بنيت الكنائس على أسماء الملائكة والقديسين منذ العصور الأولى، وظلت الكنيسةإلى الآن وستظل إلى منتهى الدهور متمسكة بهذا التقليد القديم، وإن ما نراه بتمسك الكاثوليك والأسقفيين وهم من غير أبناء كنيستنا بهذا التقليد، ما يفسر لنا أنه من السهل أن يقتنع الجميع بصحة وجهة نظر الكنيسة الأرثوذكسية.

لقد قيل عن الشريعة أنها شريعة موسى، حتى فى الكتاب المقدس تجد كلمة شريعة موسى، بمعنى إنه على فمه أعلن الله هذه الشريعة، فهو واسطة التبليغ، لكن تسميتها شريعة موسى ليس

لأن موسى هو صاحب الشريعة، صاحب الشريعة هو الله ولكن تبليغ الشريعة كان عن طريق موسى. وعن الإنجيل نقول إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، الإنجيل هو إنجيل الله وما فيه أخبار الله نفسه والكرازة باسم ربنا لكن متى الرسول كتب هذا الإنجيل من زاوية معينة. فنقول الإنجيل بحسب ما كتب متى محمولاً من الروح القدس، فعمل الروح القدس هنا إرشاد، فالروح القدس يحرك الكاتب لأن يكتب ثم يعطيه المعانى التى يكتبها، ثم يعصمه أو يهيمن عليه حتى لا يخطىء فى المعلومات التى يقدمها.

الله هو صاحب الشريعة وهو الموحى بالإنجيل وهو رب الهيكل، فعندما نقول هيكل سليمان ليس معناه أن سليمان بيعبد، إنما لأن سليمان بنى هذا الهيكل .

ومن كتاب الله نفسه يتضح لنا أن الله سر بهذه الأشياء، ولم يجد فيها ما ينافى إرادته ومشيئته كما يزعم إخواننا البروتستانت. فلا فرق عند الله بين أن تسمى الشريعة شريعة الله أو شريعة موسى، وحتى المسيح نفسه كثيراً جداً يقول شريعة موسى لأن المعنى يستقيم فى تلك الحالتين. هكذا لا فرق بين أن تسمى الكنيسة كنيسة الله أو كنيسة الملاك أو كنيسة القديس فلان. فالله هو المعبود الوحيد فى جميع الكنائس، ومن يريد التحقق فليدخل كنائسنا جميعاً، وألفاظ العبادة والنظم والطقوس والترتيبات كلها واحدة فى جميع الكنائس، مما يؤيد أنه ليس فى هذه التسمية ما يغير من العبادة المتحدة فى جميع الكنائس.

وإذن فليس فى إطلاق أسماء الملائكة والقديسين على الكنائس ما يضاد الوصية الأولى القائلة «لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» مادام الله هو المعبود الوحيد ومادامت أسماء الملائكة القديسين هى للذكر والإكرام والإقتداء، لا للعبادة أو التأليه.

كذلك يجب أن لا يظن أن إطلاق أسماء العذراء والرسل على بعض الأصوام مناقضة للوصية الأولى التى تمنع أن نتخذ غير الله معبودا. فالأصل فى هذه التسمية هو أن صوم العذراء ينتهى بعيد صعود جسدها الطاهر إلى السماء بعد وفاتها، أو أن الصوم الذى صامه رسل المسيح ليكشف الرب لهم عن سر إختفاء جسدها بعد أن دفنوها بأيديهم. فبعد أن صاموا هذه المدة أظهر لهم الرب الجسد ثانية محمولاً بين أيدى الملائكة. وهذا خلاف المرة الأولى التى رآها توما الرسول.

وبالمثل صوم الرسل سمى بإسمهم لأنهم هم الذين صاموا بعد حلول الروح القدس عليهم، إتماماً لقول الرب ستأتى أيام حينما يرفع العريس عنهم فحينئذ سيصومون فى تلك الأيام. وإلى هذا الصوم أشار القديس لوقا فى سفر الأعمال، ولذلك نجد الكنيسة تبدأ صوم الرسل فى اليوم

التالى لعيد حلول الروح القدس فى يوم الخمسين. وهذا يوضح أننا يجب أن نصوم لأننا أمام التجارب وأمام الآلام نحتاج إلى الصوم كنوع من العبادة.

لسنا نقصد هنا إثبات الصوم فهذا يحتاج إلى بحث منفرد، إنما مقصدنا أن نبين أن هذين الصومين صوم العذراء وصوم الرسل قد نسب إلى العذراء والرسل لا لأننا نصوم إلى العذراء والرسل، فهذا ما ننكره ونصر على إنكاره، ولكن لأن الأول ينتهى بعيد العذراء والثانى لأن الرسل هم أول من صاموه.

ولطالما يحتج البروتستانت على الصوم فى هذا الإعتراض الواهى، إذ يقولون أننا لا يمكن أن نصوم مثلكم للعذراء والرسل لأنهم بشر مثلنا، ونحن لا نجد فى هذا الإعتراض إلاّ جهلا بالتعاليم المستقيمة التى تعلم بها كنيستنا. فهم لم يدرسوا المسألة إلاّ بنظرة سطحية ومن ثم يحتجون بلا مبرر، وإن كان صوم الرسل معناه أن نصوم للرسل وصوم العذراء أننا نصوم للعذراء، فماذا يكون إذن معنى صوم الميلاد؟ أو الصوم المقدس أو صوم الأربعاء والجمعة، أو صوم يونان أو صوم البرامون، فلا يوجد فى اطلاق أسماء العذراء والرسل على بعض الأصوام ما يتنافى مع الوصية الأولى. وما نقوله عن الأصوام نقوله على أعياد القديسين والملائكة، فنحن نحتفل علاوة على الأربعة عشر عيدا السيدية الكبرى والصغرى بأعياد أخرى للعذراء الطاهرة سبعة أعياد، وأضيف معهم عيد ظهورها فى الزيتون. فى ٢ أبريل أو ٢٤ برمهات. فالأعياد هى دون شك نوع من العبادة يقدم لله تعالى بالتهليل والفرح للرب، نظرا للبركات الوفيرة التى منحها لنا فى مناسبات هذه الأعياد.

هذا فيما يختص بالأعياد السيدية، أما الأعياد الخاصة بالملائكة، عندما نعيد عيد الملاك ١٢ هاتور و١٢ بؤونة أو عيد الملاك جبرائيل ورافائيل أو أعياد القديسين مثلاً، عيد مارجرجس أو عيد مارمينا وهكذا. فالأعياد الأخرى الخاصة بالملائكة أو العذراء والرسل والشهداء فهى ليست عبادة لهم، لا.. حاشا لكنها عبادة مقدمة لله تعالى وليست أسماء الملائكة أو القديسين فى هذه الأعياد إلاّ لذكراهم، والتأمل فى قداستهم وطهارة سيرتهم حتى نتمثل بهم، فيتمجد الله فى أعمالنا كما يتمجد فى أعمالهم.

وإذا كان المسيح له المجد قد أوصى خيرا بالمرأة التى سكبت على رجليه قارورة الطيب، قائلاً الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم، يخبر أيضاً بما فعلته هذه المرأة إحياءاً لذكرها، فيكون أولى بهذه الذكرى من لم يسكبوا من أجل المسيح طيباً بل دمائهم، بعد أن ذاقوا من أجل اسمه أقسى أنواع العذاب ومعنى ذلك أنه واجب علينا أن نذكر القديسين ولا نشعر أن

هذا يتعارض مع عبادتنا لله، هذا نوع من أنواع الوفاء للذين سكبوا حياتهم من أجل المسيح. وهل يفعل فى أعياد القديسين إلاّ ما أوصى به الرب، فإن تاريخ حياتهم يتلى أمام جمهور المؤمنين فى الكنيسة، وكذلك ننشد بعض الترانيم بهذه المناسبة. ليس فى هذا إلاّ كل خير وبركة فى نفوس العابدين، وإذاً فلسنا فى حاجة إلى القول بأن هذا الأمر لا يتنافى مع الوصية الأولى، بل على العكس أنه ينسجم معها ويؤيدها، الذكصولوجيات التى تقال مثلاً فى صوم الميلاد، فيها تمجيد للعذراء لكن هذا التمجيد لا يتعارض مع عبادتنا لله، إنما نوع من التكريم لوالدة الإله التى لا يوجد أحد مثلهاعلى طول التاريخ، ولا الأباء الرسل الذين خدموا المسيح أعطوا قدر ما أعطت العذراء، حقيقة احتملت كثيرا جداً جداً فهى خادمة سر التجسد رقم واحد بلا منازع، فإكرامنا لها. والذكصولوجيات والتماجيد لا يتعارض مع عبادتنا لله. بالعكس يبرز العبادة لله، لأننا نتغنى بأعمال الله مع هؤلاء القديسين، وهذا يزيدنا تقوى ونحس بأرواحنا فى إنتعاش. فلا يوجد تعارض، بل ليس فى هذا إلاّ كل خير وبركة فى نفوس العابدين، وإذن فلسنا فى حاجة إلى القول بأن هذا الأمر لا يتنافى مع الوصية الأولى بل على العكس أنه ينسجم معها ويؤيدها، لأن المسيح عندما قال: ليرى الناس أعمالكم الصالحة أعقب ذلك بقوله فيمجدوا أباكم الذى فى السموات.

وهكذا يبدوا أمام بعض الناس منافيا للوصية الأولى، ما يقدم لرؤساء الكهنة وأمام صور القديسين من إطلاق البخور والإنحناء أو السجود، ولكن أليس من الحق، قد ننحنى ونسجد أمام الملوك والرؤساء العظماء ونخاطبهم بكلمات الخضوع والخشوع داعين إياهم سادة مبجلين، ومع ذلك لا ننكر إطلاقاً فى أن ما نفعله مع هؤلاء من ضروب السجود والتبجيل يتنافى مع عبادتنا لله. بل إذا اعترض علينا بذلك، أجبنا أن هناك فارقاً ضخماً بين السجود الذى نقدمه للملوك والسجود الذى ندين به لله. فالسجود أمام الملوك والعظماء سجود الإحترام، وهذا يختلف إختلافاً عظيماً عن السجود لله.

ورد فى الكتاب المقدس أن سليمان لما دخلت عليه أمه سجد لها، سجد لأمه وهو الملك، وأجلسها على يمينه قبل أن يجلس هو. هذا أدب وإحترام، إنما لا يتعارض أبداً مع العبادة لله.

فالإنسان منا قد يقول للملك أو للرئيس إنى عبدك، وأقول لله نفس الكلمات بعينها، ومع ذلك فالعبارتان مختلفتان، فالأولى تعبر عن الخضوع والإكرام للرؤساء الذين أمر الله بإكرامهم، الإكرام لمن له الإكرام، أما الثانية فتدل على روح التعبد للخالق العظيم. لا يوجد تعارض أبداً بين السجود لله وإحترام الرؤساء سواء كانوا مدنيين أو روحانيين.

إما إذا قيل أن دانيال رفض السجود أمام الملك، وكذلك مردخاى أمام هامان، وكذلك القديس بطرس الرسول رفض سجود كورنيليوس أمامه، ورفض القديسان بولس وبرنابا تصرف شعب لسترة نحوهما، فالسبب فى كل هذه الأحوال أن هذا السجود فى تلك الحالات كان للعبادة لا للإكرام. وهذا ما حدث عندما ظهر الملاك ليوحنا فى سفر الرؤيا. فيوحنا اعتقد أنه المسيح فسجد له. فقال له: لا تفعل لأنى أنا عبد مثلك. فحاشا لبعض القديسين أن يطيقوا رؤية الناس أن يقدموا لهم أو لغيرهم من البشر سجود العبادة بإعتبارهم آلهة.

فبينما كان يمتنع القديسون عن السجود التعبدى لغير الله، كانوا مع ذلك يسجدون أمام الرؤساء، مثل أبونا إبراهيم سجد أمام أهل الأرض عندما أراد أن يشترى حقل عقرون ليدفن زوجته ساره، طبعاً سجود إحترام. وسجد يعقوب سبع مرات حتى إقترب من أخيه عيسو، هذا بعد مارجع يعقوب بعد أن قضى عشرين سنة بعيداً عن بيت أبوه، وسجد ناثان أيضاً للملك داود وهو نبى، وسليمان الحكيم أمام أمه، إذن ليس فى سجود الإحترام أمام الرؤساء والقديسين أو تقديم البخور أمام صور القديسين ليس فيها ما يتنافى مع الوصية الأولى القائلة لا تجعل لك آلهة أخرى تجاهى.

وعندما يُقَبل الإنسان منا يد الأب والأم والجد والجدة، هذه آداب ونوع من التكريم.

فهذا التعليم يتضمن أن نحب الله حباً فائقاً لا يجانبه حبا، وأن نتكل عليه وحده دون سواه بكل قلوبنا، وأن نتخذه المعبود الوحيد الذى نلتجأ إليه بصلواتنا وأصوامنا وصدقاتنا. وأن لا نلجأ إلى غيره بسؤال أو طلب ولا نلتمس عن طريق آخر معرفة الأمور المستقبلة. فالبشر فى كل العصور لجأوا إلى طرق كثيرة معوجة، إلتمسوا منها المعرفة، منهم من اعتمد على قوة الشيطان، ومنهم من إعتمد على نظريات علمية، ومنهم من اعتمد على من ليس لهم نصيب فى هذا أو ذاك بل هو مجرد محض إدعاء وكذب وإفتراء. ولا نستطيع أن نضيف إلى ما تقدم تعليماً جديداً يتضمنه هذا التعليم، الذى نستفيد من قوله تعالى «لا يكن لك آلهة أخرى أمامى».

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موسوعة الأنبا غريغوريوس

٢- اللاهوت الأدبى

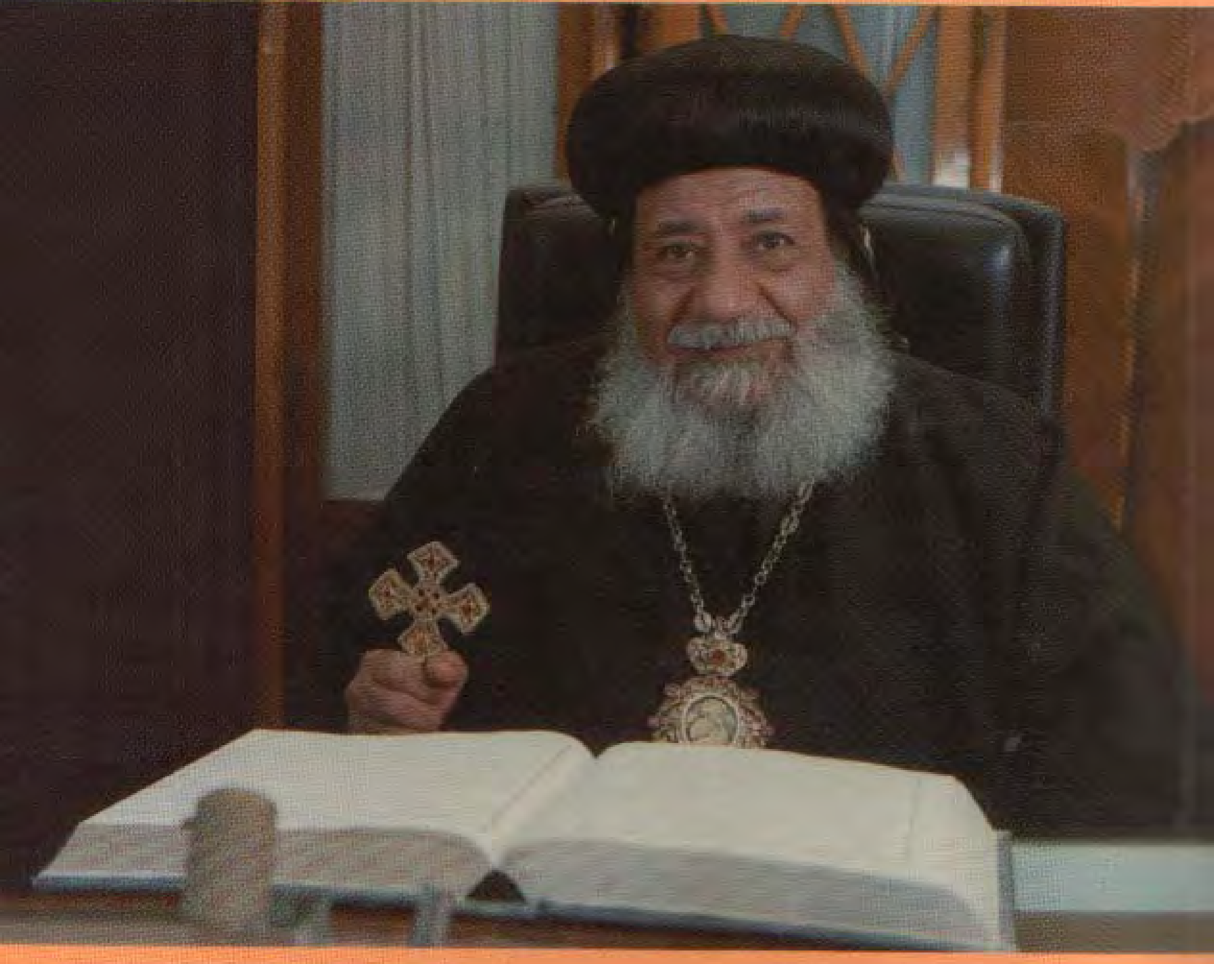

للمتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

stan amariaegypt org

موضوعات

وإجابات على أسئلة

١ ـ شريعة الله الأدبية

st-takla.org

خلق الله البشر جميعا مزودين بشريعة طبيعية مطبوعة على قلوبهم، يميزون بها بين الخير والشر، شريعة تأمرهم بالخير وتنهاهم عن الشر، شريعة تفرز فى أعماقهم أفعالاً يمدحونها عن أفعال أخرى يذمونها، أفعالا يمجدونها عن أفعال يحتقرونها، أفعالا يحبونها فى نفوسهم وفى الأغيار، عن أفعال يكرهونها ويستقبحونها فى نفوسهم وفى الأغيار، أفعالاً يشعرون فى دواخلهم أنه يجب عليهم ويليق بهم أن يعملوها، فإذا عملوها رضوا عن أنفسهم، عن أفعال يشعرون فى دواخلهم أنه يجب عليهم ويليق بهم أن يتجنبوها ويمتنعوا عنها، فإذا صنعوها لاموا أنفسهم واحتقروا ذواتهم.

هذه الشريعة الأدبية، والإلهية، والطبيعية، والمغروزة والمغروسة فى قلوب الناس وفى دواخلهم، والتى يجدونها فى أنفسهم منذ بدء عهدهم بالحياة، خِلْقِيا وتلقائيا وبديهيا، ولا يتلقنونها من الوالدين أو من المعلمين، لعلها من الشجرة التى وصفها الكتاب المقدس أنها «شجرة معرفة الخير والشر» (التكوين ٢ : ٩، ١٧)

أفهلا نفهم من هذا أن الإنسان قبل أن يأكل من الثمرة المنهىّ عنها كان لا يعرف الشر، لأن فكره كان طاهراً ومقدساً، وكان يفعل الخير بطبيعته دون أن يعرف له ضداً ونقيضاً، وأنه كان يعرف غايته ويتجه إليها بأفعاله ولم يعرف أن ينحرف عنها أو كيف ينحرف عنها، فلما أكل من الثمرة المنهىّ عنها عرف الفرق بين الإستقامة والعِوج، بين الخير وضدّه، مثله فى ذلك مثل طفل برئ فى المرحلة الأولية من حياته، يتصرف تلقائيا وغريزيا ولا يعرف للشر معنى، لا بالنية ولا بالتصور... أى أن آدم الإنسان الأول كان طاهرا ونقيا فى فكره وجسمه، فى عقله وبدنه، فى روحه وفى جسده، ولم يعرف الشر ولا كان للشر فيه مدخل لا بالنية ولا بالتصور (التكوين ٦ : ٥)، ولكنه كان كله خيراً، وكله طهراً، وكله قداسة، وكله نقاء، وكانت شحنة الخير فيه تملأ كل كيانه وتفيض عنه، فلم يكن للشر من سبيل إليه ولا منفذ لديه.

فلما أكل من الثمرة المنهى عنها، بردت حميته، وإنطفأت شعلته، وخمدت شحنته، فاقتحم الشر مجاله، ووجد سبيله إليه، ومنذ تلك اللحظة عرف أن هناك شراً إلى جانب الخير، وصار أمامه وفى حضرته، وفى كيانه، شيئان متميزان، ضدان أو متناقضان، فتنبه إلى مفترق بين طريقين، وكان مضطراً أن يتفكر، وأن يتعقل، وأن يتبصّر، وأن يدرك الفرق بينهما، ثم لم يلبث أن وجد لكل طريق ما يبرره، وصار لكل طريق إغراءاته وجاذبياته، وبالتالى عرف معنى الحيرة فى المفاضلة بين طريق وطريق، ودخل، أو أدخل نفسه، فى حرب وصراع ونزاع وقتال،

san amariaegypt. rg

وصار عليه أن يختار، وأن يتحمل مسئولية إختياره. فاكتشف أنه حرّ، وأنه كائن مريد، وأن مناط أمره بيده، وأنه صانع القرار، وصانع المصير.

وإذن فبالأكل من الثمرة المنهّى عنها، إنتقل الإنسان إلى مرحلة أخرى مغايرة. وبعبارة أخرى كان الأكل من الثمرة المنهيّ عنها نقطة تحوّل فى حياة الإنسان الأول، فقد كان أولاً يعمل الخير ولا يعرف الشر، فكان يتصرف بتلقائية خيّرة، والخير يملأ كل حياته، ويتدفق منه كما يتدفق الماء سيلا جارفاً لا يعرف له ضدا أو نقيض أو مقاومة - أما بعد الأكل من الثمرة المحرمة فقد صار شيئا آخر. لقد توقف السيل، وظهر لتيار الماء تيار آخر مضاد، وتحوّل بذلك السيل إلى دوامة، وصار آدم فى عمق هذه الدوامة يتجاذبه تياران متعارضان، ومع كل تيار قوىّ إنبثقت تيارات أخرى ضعيفة لم تلبث أن إنتظمت فى صفين متعارضين، فى إتجاهات بعضها رأسى وبعضها أفقى، وبعضها فيما بين الإثنين، فتشعبت أمام آدم الطرق، ووقع فريسة لجاذبيات مختلفة غير متساوية، وبذلك دخل العذاب إلى نفسه، والشقاء إلى قلبه، والتعاسة إلى حسّه، ولم يعد ذلك السعيد السائر فى اتجاه واحد دافق، وإنما استحال إلى مخلوق تعيس، منقسم مفتت، نفسه مبعثرة، وذاته متناثرة إلى أشلاء.

عرف الإنسان إذن الشر كما عرف الخير، وانفتحت عيناه على الفرق بينهما، وصار «عارفاً الخير والشر» (التكوين ٣ : ٥)

هذه المعرفة، «معرفة الخير والشر»، تولدت فى الإنسان الأول، بعد أن أكل من الثمرة المنهيّ عنها، ولكنها، صارت بفضل الله، خيراً نسبياً له بالنظر إلى حالته الجديدة التى أمسى فيها، لأنها أصبحت له القبس الضئيل، البديل عن النور الأصيل، به يمكنه أن يعرف التعارض والإختلاف، وإن كان متروكا له أن يصنع القرار بالإختيار، بفعل من إرادته الحرّة. وهذا هو الضمير.

sep.ameriaegypt.rg

٢ ـ سيناء الباطنية

أول وصية أمر الله بها «أنا هو الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى» (سفر الخروج٢٠ : ٢ ، ٣) . وقد كانت هى الوصية الأولى من الوصايا العشر التى وهبها الله للناس على يد نبيه الكليم موسى العظيم ورئيس الأنبياء، مكتوبة على لوحين من حجر، عرفا دائماً باسم «لوحى العهد» (التثنية ٩ : ٩) ، (العبرانيين ٩ : ٩) لأن عليها كتب الله عهده المقدس وسجّله على الحجر عهدا أبديا لا يمحى.

والحق أن الوصايا العشر جميعها لم تكن جديدة فى مضمونها العام، على ضمير الإنسان، فقد عرفها الإنسان منذ الإبتداء، وعاش آدم وبنوه من بعده، من قبل النبى موسى، مئات السنين، تحكمهم شريعة إلهية غير مكتوبة بقلم على ألواح من حجر، لكنها مطبوعة فى قلوبهم فيما يعرف بالشريعة الطبيعية، أو الضمير. وبموجب هذه الشريعة الطبيعية، المغروزة فى قلب كل بشر، يميز الإنسان تلقائيا بين الخير والشر، ويدرك بحاسة مطبوعة فيه أن هناك خيرا، وأن هناك شراً، ويدرك بشعور باطنى أن الخير جميل يجب عليه أن يصنعه، وأن الشر ردئ يجب عليه أن يتجنبه. فإن صنع الخير رضى عن نفسه، وإن صنع الشر حزن وندم، وأنحى على نفسه باللائمة، وهو ما يعرف بتبكيت الضمير.

والضمير فى لغة العرب، من فعل (أضمر، يضمر) أى أخفى يخفى، أو أبطن يبطن. فالضمير إذن (معرفة الخير والشر) ، معرفة طبيعية تلقائية لا يتلقنها الإنسان من أب أو أم ولا من معلم أو مرشد، وإنما هو حاسة أخلاقية طبيعية بها يميز الإنسان بين الخير والشر، كما يميز بحاسة النظر بين الألوان، وبحاسة السمع بين الأصوات، وبحاسة الشم بين الروائح، وبحاسة الذوق بين الطعوم، وبحاسة اللمس بين الأجسام. لكن الضمير ليس هو مجرد حاسة معرفة للخير والشر، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك، محكمة باطنية تصدر على الإنسان نفسه حكما له أو عليه، فإذا هو أحسن الفعل مدحه وأثنى عليه، وإذا هو أساء الفعل ذمّه وأدانه.

وفى اللغة اليونانية Syneidesis وفى اللاتينية Conscientia ـ وفى الإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية يسمّى الضمير Conscience أى المعرفة العامة المشتركة عند جميع الناس، بالخير والشر. على أن هذه المعرفة المشتركة بين الناس جميعا على إختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم ليست مجرد معرفة عقلية نظرية، ولكنها مصحوبة بحاسة وجدانية شعورية، تشتمل على الرضى والإرتياح إذا كان الفعل خيراً، كما تشتمل على عدم الإرتياح إذا كان الفعل شرا، وفضلاً عن ذلك، فتلك المعرفة الوجدانية لها جانب نزوعى يأمر ويحكم، فيأمر بالخير

san amariaegypt rg
وينهى عن الشر بسلطان أعلى من الذات، وأعلى من العقل، فإذا صنع الإنسان الفعل، أصدر الضمير حكمه على الفاعل بالثواب أو بالعقاب. فالضمير إذن ليس مجرد حاسة بموجبها يميز الإنسان بين الخير والشر بمعرفة عقلية، لكنه كذلك محكمة باطنية ذات سلطان فى إصدار الأحكام على الإنسان، بأنه أصاب أو أخطأ، فإذا أصاب فهو مستحق للثواب، وإذا أخطأ فهو مستحق للعقاب.

هذا الضمير هو ما يسميه علماء الأخلاق بالحاسة الأخلاقية. لكنّ كانط KANT الفيلسوف الألمانى - ويسمونه فى تاريخ الفلسفة بقطب الفلسفة الحديثة فى مقابل أرسطو قطب الفلسفة اليونانية القديمة - يقول إن العقل عند الإنسان عقلان: عقل نظرى، وعقل عملى، أو بالأحرى هو عقل واحد له جانبان: فإذا تناول النظر فى الحسابيات والهندسيات والطبيعيات وما إليها فهو العقل النظرى، أما إذا تناول أمور الأخلاق وشئون السلوك الإنسانى من خير ومن شر فهو العقل العملى. وعلى ذلك فما يسميه علماء الأخلاق بالضمير، يسميه كانط بالعقل العملى.

والفرق بين العقل النظرى والعقل العملى (أو الضمير) يبدو واضحاً حينما تعرض على إنسان فقير فرصة مواتية يمكنه فيها أن يسرق ليصير غنياً دون أن يراه أحد، فيقع فى صراع. فعقله النظرى يفتيه بأن الغنى أفضل من الفقر، بينما الضمير أو العقل العملى ينذره بأن الفقر مع الشرف أفضل من الغنى مع السرقة، فيؤثر أن يبقى فقيراً نبيلا شريفا أمينا على أن يمسى لصاً غنياً، وكما يقول شكسبير على لسان هاملت: إن ضمائرنا تجعلنا جبناء. وليس قوله هذا قدحا أو ذما للضمير، لكنه على العكس بيان لأخلاقية الضمير الذى يشكم الإنسان عن فعل أشياء يراها بعقله النظرى مقبولة مساغة، فيها كسب مادىّ أو نفع جسدى أو تحقيق لرغبة أو شهوة أو نزوة من نزوات النفس الحيوانية.

هذا الضمير أو العقل العملى أو الحاسة الأخلاقية موجود فى كل إنسان من دون إستثناء، سواء كان متحضرا أو متأخرا، سواء تلقى تعليما من الوالدين والمعلمين، أو لم يتلق من التعليم شيئا، ولهذا لم تخل منه لغة من اللغات الحديثة أو القديمة.. هو شريعة الإنسان الأدبية الباطنية التى تحكم أقواله وأفكاره وأفعاله، وكأنها جبل سيناء فى قلبه، من فوقه يسمع صوتا أعلى من ذاته، وأسمى من نفسه وفكره وعقله، يكلمه بسلطان هو من سلطان الله خالقه، ولذلك يمكن أن يسمّى الضمير أحيانا باسم (سيناء الباطنية).

هذا الصوت الداخلى يأمر الإنسان بعبادة الإله، واحترامه واحترام وصاياه، وأن لا يحلف باسمه كاذباً، وأن يحترم والديه ويكرمهما، وينهاه عن القتل، والسرقة، والزنى والفسق، والكذب، والخيانة وسلب ما للغير وما إلى ذلك من أفعال شر تضر بالقريب.

san amariaegypt rg

ويبدو أن الإنسان أهمل الحاسة الأخلاقية فضعفت فيه، ولم تعد فى وضوحها وقوتها كما كانت أولا، فرأى الله أن يجدد العهد بها، ويؤكد عليها، ويذكر الإنسان بها، ويرده إلى العمل بها، فأمرَ عبده موسى بأن يتلقاها من جديد مكتوبة بأصبع الله على حجر (الخروج ٢٤: ١٢)، (٣١: ١٨)، (٣٢: ١٥، ١٦)، (٣٤: ١)، وبالملائكة عن يد وسيط (غلاطية ٣: ١٩)

ليست إذن شريعة موسى فى الوصايا العشر، هى من وضع النبى موسى، بل هى وصايا الله إليه وإلى جميع الناس.. تلقاها موسى على الجبل رسالة يبلغها إلى الناس. وليس له فضل فيها إلا فضل النبى الأمين، الذى أكرمه الله بأن جعله رسولاً إلى الناس يسمع القول من الله ويبلغه إلى الناس، فهو نبّى ووسيط، وفى هذا شرفه وكرامته وإمتيازه على الناس جميعاً، علما بأن الله يختار أنبياءه ورسله من أفضل خلقه، عبادة وتقوى وأمانة، وأصدقهم حساً، وأكثرهم لياقة بمهمتهم السامية، ورسالتهم العالية.

قال الله تعالى على اللوح الأول (سفر الخروج ٢٠: ١ ـ ١١).

١ ـ أنا هو الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى تجاهى.

٢ ـ لا تصنع لك تمثالاً منحوتا ولا صنماً، صورة شئ مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من أسفل ولا مما فى المياه من تحت الأرض. لا تسجد لهنّ ولا تعبدهن. لأنى أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضى، واصنع رحمة إلى ألوف من محبىّ وحافظى وصاياى.

٣ ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا.

٤ ـ أذكر يوم السبت (الراحة) لتقدّسه. فى ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع فيه عملاً ما لك أنت وإبنك وإبنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى فى داخل أبوابك، لأن الرب فى ستة أيام صنع السماوات والأرض والبحر وجميع ما فيها. وفى اليوم السابع استراح. ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه.

وقال الله على اللوح الثانى (سفر الخروج ٢٠: ١٢ ـ ١٧)

٥ ـ أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك.

٦ ـ لا تقتل.

٧ ـ لا تزنِ.

٨ ـ لا تسرق.

٩ ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ ـ لا تشته بيت قريبك. لا تشته إمرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك.

٣ ـ شريعة سيناء

عندما خلق الله الإنسان، خلقه على صورته ومثاله، فكان فى أحسن صورة، وأكمل تكوين روحانى، وأجمل صفاء نفسى، وأرقى إدراك ذهنى وعقلى، وكان يعرف الخير، ولا يعرف الشر. كان ذهنه يعرف الغاية من وجوده، وكان هو بكل كيانه يعمل نحو التحقق بهذه الغاية. كان سعيدا السعادة كلها، وكان كل كيانه منتشيا بهذه السعادة. كانت نفسه وحدة واحدة، وكل قدراته تعمل معاً فى تمام التوافق والإنسجام، ولم يكن بينها إنقسام. كان يعمل الخير وحده، والبِّر وحده، والصالح وحده، كان ملاكا طاهرا روحاً وجسداً، وكان جسده مطيعا لروحه، وفى تعاون وإنسجام معها، كان الجسد فيه مع الروح طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة. ولم يكن يدرى أن له ميولاً هيولية، أو رغبات ترابية، أو شهوات حسية، أو نزوات مادية أو أهواء أرضية، ولم يكن يعرف الشر لأنه كان فى قداسة الملائكة الصالحين، وفى براءة الأطفال الطاهرين (التثنية ١ : ٣٩) كان له إتجاه واحد، إتجاه الخير الذى خلق فيه، وخلق من أجله.

كان آدم، أو الإنسان الأول، يحيا (فى الروح) (سفر الرؤيا ١ : ١٠) مع إنه أيضا كان فى الجسد، لكنه كقول القديس بولس الرسول «أعرف إنسانا فى المسيح... أفى الجسد، لست أعلم، أم خارج الجسد، لست أعلم، الله يعلم...» (٢. كورنثوس ١٢ : ٢، ٣)

فلما خالف آدم ربه، وأكل من ثمر الشجرة المنهّى عنها، عرف الشر، وأمسى «عارفاً الخير والشر» (التكوين ٥، ٢٢) . ولذلك كانت الشجرة التى أكل منها تسمّى «الشجرة التى فى وسط الجنة» (التكوين ٣ : ٣) فلما أكل منها صارت تعرف «بشجرة معرفة الخير والشر» (التكوين٢ : ٩، ١٧)

إن من رحمة الله بالإنسان أنه عندما خالف ربه لم يتركه فى الضياع والضلال، بل جعل له الشر خيراً، وعوّضه عما فقده من النور العظيم بنور المعرفة الضئيل، وصار له فى باطنه (الضمير) يرشده إلى الخير، وينهاه عن الشر، ويحذره منه. وللضمير سلطان على النفس البشرية بحيث لا يملك الإنسان إسكاته

ومع ذلك، ومع إزدياد خبرة الإنسان، أمكنه على نوع ما، أن يتذرع بالحيلة والدهاء على تخدير الضمير، وذلك بإلباس الخطيئة لباس الفضيلة حتى لا يتنبه الضمير فيقرّع الإنسان عليها. وقد لعب (العقل) دورا بارعاً فى هذا السبيل، فكان يصور (الغش) أحيانا على أنه إغاثة للملهوف، (والكذب) على أنه نجدة لضعيف لخلاصه من عدو شرير، (والرشوة) على أنها هدية، (والغضب) على أنه نصرة للحق ودفاع عن المظلوم، (والزنى) على أنه لمسة حنان أو

حب، أو عطف، أو رغبة فى الإنسال والذرية.... وهكذا... وشيئا فشيئا صار الإنسان يستمرئ الخطيئة ويعطف عليها، ويستسيغها ويجد لها تبريرا يقبله العقل، وشيئا فشيئا، ومع ما للخطيئة من إغراءاتها وجاذبياتها، إنحاز العقل إليها، وصار بذكائه ينتحل لها الأعذار، ويدافع عنها.

وتقلص عمل الضمير، بتضليل العقل له، وتفتيقه بالذكاء، أسبابا قادرة على أن تخدر الضمير، فلا يثور لها، ولا يستيقظ من أجلها، فيخمد أو يتجمد أو يتخدر، ويصمت، أو ينام، فلا يقاوم الخطيئة، بل يدعها تمر دون أن يمنعها

ورأى الله ما صنعه العقل بالإنسان، وكيف أنه استطاع أن يفسد الضمير أو يتلفه، ولئن كان لم يقتله تماما فى جميع الناس، لكنه تمكن على الأقل من أن يضعف شوكته، ويفسد أحكامه. فلم يعد ذلك الحَكَم الفيصل المعصوم من الخطأ. ونتيجة لذلك فسد الإنسان «فقال الرب لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر... ورأى الرب أن شرّ الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه. فقال الرب أمحو الإنسان الذى خلقته عن وجه الأرض، الإنسان مع البهائم والدبابات وطيور السماء، لأنى حزنت على خلقى لهم» (التكوين ٦ : ٣ ـ ٧)

إذن فما دام ضمير الإنسان قد فسد، ولم يعد معصوماً من الخطأ، وأمسى قابلاً للضعف والتخدر، وإساغة الخطيئة وتبريرها، ولم تبق له حدته وشدته وقوته... فقد صارت الحاجة ماسة إلى شريعة أخرى مكتوبة على ألواح حجرية، لا تقبل المحو.

«وقال الرب لموسى: اصعد إليّ إلى الجبل، وأقم هناك، حتى أعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم» (الخروج ٢٤ : ١٢) «ولما فرغ من مخاطبة موسى على طور سيناء رفع إليه لوحى الشهادة، لوحين من حجر، مكتوبين باصبع الله» (الخروج ٣١ : ١٨) «واللوحان هما صنعة الله، والكتابة هى كتابة الله منقوشة على اللوحين» (الخروج ٣٢ : ١٦) «فكتب على اللوحين كلمات العهد، الكلمات العشر» (الخروج ٣٤ : ٢٨)

تلكم هى الوصايا العشر كتبها الله بنفسه على لوحين من الحجر، وسلمهما لموسى النبى، لتكون شريعة مكتوبة، منقوشة لا يملك الإنسان أن يغيرها أو يبدلها أو يعدّلها أو يمحوها، ولا يستطيع بذكائه أن يحتال عليها، فيحرفها بالتأويل المعوج والتفسير الخاطئ، مدفوعا بالهوى الفاسد، والنية الشريرة، والقصد الأثيم.

قال القديس يوحنا ذهبى الفم «إن الله تعالى قد تقدم فى إبتداء خلقة العالم، ورسم فى قلوب بنى البشر، ناموسا طبيعيا، أى نورا ومعرفة ترشد الإنسان إلى ما ينبغى له فعله. ولكن لما رأى

الله تعالى أن كثرة الخطايا والإدمان عليها، قد أبطلا من قلوب البشر تلك السُنّة الطبيعية، التى بها كانوا يهتدون إلى معرفة الخير وتمييز الشر، شاء بجودته غير المتناهية، أن يمنحهم شريعة مكتتبة، لكى يجدد بها رسم الناموس الطبيعى فى قلوبهم».

فشريعة سيناء، أو كما تسمّى أحيانا «شريعة موسى» ليست فى الواقع شريعة جديدة. إنها بعينها شريعة الضمير، أو الشريعة الطبيعية المرسومة طبيعيا على قلب الإنسان منذ الإبتداء، وبها عرف الخير والشر، وميز بينهما... ولكن بسبب فساد البشر، وتحايلهم ودهائهم، أفسدوها وأتلفوها، وأفقدوها حدتها وقوتها، فأراد الله أن يبرزها من جديد فى صورة لا تقبل المحو. هى نسخة أخرى من تلك النسخة التى بهتت وتلفت، وامّحت بعض حروفها، نسخة ظاهرة واضحة يمكن، بالرجوع والإحتكام إليها، أن نصحح من أخطاء النسخة الأولى وما اعتورها مع الأيام من تلف أو محو أو ضعف.

هذه الشريعة الموسوية، شريعة سيناء، أو الشريعة التى تلقاها النبى موسى على جبل سيناء على لوحين من الحجر، اشتملت على عشر وصايا، أربع منها تنظم علاقة الإنسان بالله تعالى، وهى وصايا اللوح الأول، وست منها تنظم علاقة الإنسان بغيره من الناس، وهى وصايا اللوح الثانى. واللوحان عرفا بأنهما «لوحا العهد» (التثنية ٩ : ٩)، (العبرانيين ٩ : ٤).

٤ ـ أنا هو الرب إلهك

يبدأ الرب الإله فى الوصية الأولى من الوصايا العشر بأن يعرف ذاته لشعبه، وللمؤمنين به، ولكل من ارتضى أن يتأدب بآدابه، ويتعلم شريعته، ويحفظ وصاياه.... بهذه الكلمات القدسية جعل الرب بداءة وصاياه العشر، ناطقة بالتعريف بشخصه الإلهى بوصفه واضع الشريعة، ومؤسسها، والمعلن بها..

«أنا هو الرب إلهك».. أنا هو المتكلم، والموصى، والمعلّم، والآمر الناهى.. أنا هو صاحب الشريعة،... الشريعة شريعتى.. وليست شريعة موسى نبيى الذى أرسلته بها.. فليس موسى إلاّ رسولا من قبلى، لكنه ليس هو صاحب الشريعة... هو حامل الرسالة، أما أنا فصاحب الرسالة... موسى هو الرسول، أما أنا فإنى المرسل... أنا هو الرب.. أما موسى فهو العبد... أنا هو الخالق لموسى وغير موسى... أما موسى فهو المخلوق الذى أرسلته ليحمل رسالتى التى أمرته بتوصيلها لشعبى وللناس أجمعين..

وقد كان من المهم أن يعلن الرب عن ذاته فى مطلع الوصية الأولى من الوصايا العشر، أنه هو المتكلم بذاته... وأن الوصية وصيته هو... والكلام هو منشئه.. والأمر هو أمره... وليس هو أمر موسى الكليم... حتى يتبين الناس قمة الأهمية فى الوصية... فيقبلونها بالإحترام والطاعة والتقديس والتهيب والإجلال وغيرها من واجبات العبادة للذات الإلهية، طالما أن الله هو المتكلم بذاته... وليس من شك فى أن هناك فارقا كبيرا بين أن يكون الله هو الموصى والآمر... وبين أن يكون أحد من الناس، ولو كان نبيا لله...

«أنا هو الرب إلهك...» جميل أن الرب الإله يتكلم عن نفسه ويصف ذاته بقوله «أنا».. معلنا أنه «ذات» وأنه «شخص» وأنه «كيان واحد أحد»... كيان مفرد متفرد... ومن هذا يتضح أن «القوة العليا» المهيمنة على الكون وكل الوجود... «ذات» و«ذات مشخصة»... وليست غموضا تائها ضائعا فى الوجود كما هى عند البعض... وليست كما يزعم فلاسفة (وحدة الوجود) أن الله فى الكون، والكون فى الله، شئ واحد... أو كما يقول أصحاب مذهب (الصدور) أن الكون صدر عن الله لا بالخلق، بل بالتمدد... فالله تمدّد، وبفضل هذا التمدد كان الكون... وأنه لابدّ فى النهاية من أن يتراجع الكون، ويتقلص ويدخل فى الله بالكيفية التى خرج بها منه أو صدر عنه...

إن الكتاب المقدس يعلمنا أن الله «ذات»... و «الذات الإلهية» متفرده... وأن الله ليس كمثله شئ... وأن الكون وكل الوجود مخلوق من الله... فليس الإنسان صادرا عن الله، كما لو كان قطعة من كيانه وطبيعته... وإنما الله أوجد الإنسان بفعل (الخلق) لا بفعل (الصدور)... فالإنسان

لم يكن موجودا مع الله منذ الأزل... ثم شاء الله أن (يخلق) الإنسان، فأنشأه وأوجده، ومنحه الوجود... وكما ورد فى القداس الإلهى «مما لم يكن كونت الإنسان» فالله هو الكائن الأول، وهو (الواجب الوجود)، و(العلة الأولى)، ولم يكن إنسان أو كائن ما موجودا مع الله... ثم فى الزمان الذى أراده الله.. شاء أن يخلق الإنسان، فخلقه، لا بالتمدد، ولا بالصدور، ولا بالإنبثاق عنه... بل خلقه بفعل (الخلق)... أى أن الإنسان لم يكن موجودا منذ الأزل.. ثم أوجده الله فى الزمان... وإذن فالله ليس مجرد (صانع) للعالم كما قال أفلاطون، بل هو (خالق)... والفرق بين الصانع والخالق، هو أن الصانع يصنع من مادة موجودة وجودا سابقا على عملية الصنع.. أما الخالق فهو الذى ينشئ من العدم... أى من لا شئ..

«أنا هو الرب إلهك»... ثم أن قوله تعالى (أنا) يشير به إلى تفرده، وإلى وحدانيته.. نعم أن الله هنا يعلن عن وحدانيته... وهذه هى الحقيقة العظمى عن الله... أنه واحد، لا شريك له... وأنه ليس هناك إله آخر يتقاسم معه الوجود.. إنما الله هو الكائن الواحد الأحد..

«إننى أنا هو، ولا إله معى» (التثنية ٣٢: ٣٩) «أنا الأول، وأنا الآخر، ولا إله غيرى» (أشعياء ٤٤: ٦)، «أنا الرب، وليس آخر، ولا إله سواى» (أشعياء ٤٥: ٥)، «أنا الرب، ولا إله غيرى... ليس سواى» (أشعياء ٤٥: ٢١) «فإنى أنا الله وليس آخر، أنا الإله، وليس مثلى» (إشعياء ٤٦: ٩)، «لا إله غير واحد» (١. كورنثوس ٨: ٤).

«أنا هو الرب إلهك»... وقوله «هو» ليس مجرد تعريف بذاته، لكنه بقوله «أنا هو» يشير إلى أنه (الكائن دائما) وبإستمرار.. (هو) ضمير يدل على الكينونة الدائمة، وبالتالى على أنه (الدائم)... أو «الذى هو كائن، وكان، ويأتى» (الرؤيا ١: ٤، ٨)، (٤: ٨)، (١١: ١٧)، (١٦: ٥) أى الكائن الآن، والكائن فى الماضى، والكائن فى المستقبل، أو كما جاء فى القداس الإلهى «أيها الكائن الذى كان، والدائم إلى الأبد» إى إنه بعبارة موجزة أنه (الأزلى الأبدى) أو (السرمدى) أو (السرمد)

«أنا هو الرب إلهك»... وأما قوله «أنا هو الرب» فمعناه أنى أنا (السيد) وليس غيرى.. أنا ربك، وسيّدك، وخالقك... أنا رب نعمتك، وصاحب الفضل فى وجودك».. وأنا سيّدك، وحاكمك... لولاى لما كنت أنت.. فأنا خالقك وصانعك».. وبيدى نسمة أنفك.. أنا أحييك وأميتك... وأنا المهيمن على كيانك....

على أن مقالة «الرب» هنا، هى الترجمة العربية لاسم صاحب الجلالة الإلهية «يهوه» وهو الإسم المشخص الذى أعلنه الرب أول ما أعلنه لموسى النبى فى العليقة، عندما سأل النبى موسى

الله عن أسمه «قال موسى لله: ها أنا آتى إلى بنى إسرائيل، فأقول لهم: إله أبائكم أرسلنى إليكم. فإن قالوا لى: ما أسمه، فماذا أقول لهم؟... فقال الله لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه إله أبائكم... أرسلنى إليكم. هذا اسمى إلى الأبد» (الخروج ٣: ١٣ ـ ١٥) وقال النبى فى المزمور «إنك اسمك يهوه وحدك» (مزمور ٨٢: ١٨).

وأما «يهوه» بالعبرانية فمعناه «الكائن دائما» أو «الدائم» أى أنه الكائن منذ الأزل، وإلى الأبد... أى «الأزلى الأبدى».

وعلى ذلك فكلما وردت كلمة «الرب» فى الكتاب المقدس، فى ترجمته العربية، فالمقابل العبرانى لها هو «يهوه» أى «الدائم» أو «الأزلى الأبدى» وفى الترجمة الفرنسية يقابلها (L'ETERNEL). أى الأزلى الأبدى أو السرمد.

«أنا هو الرب إلهك»... أما قوله تعالى «أنا... إلهك» فهو «تخصيص» بعد التعميم... بمعنى أننى لست فقط ربا وسيدا للعالم وللكون ولكل الوجود... إنما أيضا أنا إلهك أنت... هناك رباط ورابطة بينى أنا الله، وبينك أنت... فأنا لك، وأنت لى.. إنى أريدك أن تكون لى.. وأن تعرف أنك أنت لى.. لا يكفى أن تعترف بى كإله للكون، وسيّد للطبيعة، وخالق للوجود،... وإنما أريدك أن تدرك أننى إلهك أنت بالتخصيص.. فبينى وبينك علاقة خاصة.. اسمى يدعى عليك... وأنت منسوب إلىّ..

فى مبدأ الأمر، حيث أعطيت الوصية لموسى النبى ولبنى إسرائيل... كان قول الله «أنا هو الرب إلهك...» تعنى أن الله إختار بنى إسرائيل لينالوا شرف إنتسابهم إلى الله تعالى، كأنهم الشعب المختار... غير أن العبارة تمتد إلى ما هو أوسع نطاقا من بنى إسرائيل... وبخاصة بعد أن تمرد بنو إسرائيل على الله، وصاروا عبيدا عاقين.. فلم يعد بنو إسرائيل هم أولاده بالجسد (رومية ٩: ٤، ٥) بل صار بنو إسرائيل هم أولاده بالروح. قال الكتاب المقدس «فليس اليهودى من كان يهوديا فى الظاهر،.... ولكن اليهودى من كان يهوديا فى الباطن، والختان هو ختان القلب بالروح... ومدحه ليس من الناس بل من الله» (رومية ٢: ٢٨، ٢٩) ولم يعد إسرائيل فى العهد الجديد (العبرانيين ٨: ٨) هو إسرائيل بمعناه العنصرى القديم (١. كونثوس ١٠: ١٨) من حيث هم جنس ولون، ولكنه شعب الله المؤمنون به من كل أمة وشعب وجنس ولسان. فإسرائيل الجديد هو (الكنيسة الجامعة الرسولية) بكل ما تضمه «جامعة الإيمان المسيحى» من شعوب وأمم وأجناس...

٥ ـ أنا هو الرب إلهك (٢)

أنا هو الرب إلهك، وليس غيرى إله... إنى أُعرِّفك بذاتى لأنك جاهل وغفول.. لئلا تتخذ لك إلها آخر، أو تتردد بين آلهة أخرى متعددة، فتضل وتضرب فى الضلال بعيدا إن لم أنبهك... إن لم أذكرك، فإنك إنسان كثير النسيان.

إن هذه الوصية الأولى من الوصايا العشر، أعطيت أول ما أعطيت، وبهذه الصياغة، إلى بنى إسرائيل، وكانت هى على رأس جميع الوصايا، وهى مطلع وصايا اللوح الأول من لوحى العهد...

وعلى الرغم من أن بنى إسرائيل، هم أبناء إبراهيم الذى اصطفاه الله من بين جميع أهله وعشيرته، وأمره أن يعتزلهم، ويترك مقامه بينهم ويرحل بعيدا عنهم إلى مكان قصّى، ويحيا فيه حياة غربة، ساكنا فى خيام... على الرغم من أن بنى إسرائيل، وهم بنو إبرهيم، قد رعاهم الله وشملهم بعناية خاصة، وجعلهم شعبه المختار وجعل اسمه عليهم، وصنع معهم معجزات كثيرة، برهن لهم بها على أنه الإله الواحد وحده وليس غيره إله، وأنه وحده القادر على كل شئ، وأنه صانع الخيرات، الإله كلىّ الجودة والخيّرية، الكامل، والرحيم، والعادل، والحق، والقوى، والجبار، والقدوس، وأنه الأزلى الأبدى السرمدى، وأنه الملك والمالك لكل الوجود، والخالق والصانع، والحافظ والمعتنى والراعى، والساهر الذى لا ينام، وأن شيئا ما لا يحدث على الأرض وفى كل الكون، من غير علمه، ومن غير إذنه... نقول على الرغم من أن الله كشف لبنى اسرائيل خصوصا عن ذاته وعن صفاته، وبرهن لهم على قوته وإقتداره، وأنه واجب الوجود، وكلى العدل وكلى القداسة... إلاّ إنهم نسوه، ونسوا صفاته، ونسوا وصاياه... وعن هذا عاتبهم مرارا وتكرارا... واشتد عتابه عليهم... فأمسى غضبا وسخطا ورجزا... وكان لابّد أخيرا أن ينذر بعقاب شديد...

جاء في سفر التثنية من أسفار التوراه «إنصتى أيتها السماوات فأتكلم، ولتستمع الأرض لأقوال فمى... هو الصخر الكامل الصنيع. أن جميع سبله عدل. إله أمانة لا جور فيه، صديق وعادل هو... جيل أعوج ملتو. أبهذا تكافئ الرب ياشعبا غبيا غير حكيم. أليس أنه هو أبوك ومالكك، الذى فطرك وأبدعك... أغاروه بالأجانب، وأسخطوه بالأرجاس. ذبحوا لأوثان ليست الله، ولآلهة لم يعرفوها، حديثة طرأت عن كثب لم تتقها آباؤكم. الصخر الذى ولدك تركته، والإله الذى أنشأك نسيته..» (التثنية ٣٢: ١ ـ ٢٠)

وجاء فى سفر المزامير «لم يحفظوا عهد الله، وأبوا السلوك فى شريعته. ونسوا أعماله ومعجزاته التى أراهم...» (مزمور ٧٧: ١٠، ١١)، وأيضاً «اسرعوا فنسوا أعماله...» (مزمور ١٠٦: ١٣) «نسوا الله مخلّصهم...» (١٠٦: ٢١)

وقال الرب على أفواه الأنبياء الكبار والصغار «أما شعبى فقد نسينى....» (أرميا ٢: ٣٢)، (١٨: ١٥) «قد نسى إسرائيل صانعه» (هوشع ٨: ١٤) «لما رعوا شبعوا. شبعوا وارتفعت قلوبهم. لذلك نسونى» هوشع (١٣: ٦)، (٢: ١٣)، (٤: ٦)، (إشعياء ١٧: ١٠)، (٥١: ١٣)، (أرميا ١٣: ٢٥)، (حزقيال ٢٢: ١٢)، (١. صموئيل ١٢: ٩)، (التثنية ٨: ١٩)، (أمثال ٢: ١٧).

وكان نتيجة طبيعية لهذا النسيان، أن بنى إسرائيل لم ينسوا فقط الرب إلههم، وإنما أيضا نسوا شريعته، وأهملوها، وكسروا وصاياه (مزمور ١١٩: ١٣٩).

لهذا كان أمرا ضروريا أن يعالج الرب فى الوصية الأولى مرض النسيان فى الإنسان، نسيانه لله بارئه وصانعه، ونسيانه لوصاياه. فقال فى مطلع الوصية الأولى «أنا هو الرب إلهك...» أذكرنى ولا تنسانى... أذكر نعمتى عليك... وأذكر أننى أنا الرب خالقك وحافظك...

قالت التوراه لبنى إسرائيل «إنما أحترس، وأحتفظ لنفسك جدا، كيلا تنسى الأمور التى رأتها عيناك، ولا تزول من قلبك كل أيام حياتك، بل علّمها بنيك وبنى بنيك.... فاحذروا لأنفسكم من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم، فتصنعوا لكم تمثالا منحوتا صورة لشئ ما، مما نهاك عنه الرب إلهك» (التثنية ٤: ٩ ـ ٢٣) وقالتً إحذر أن تنسى الرب إلهك ولا تحفظ وصاياه وأحكامه ورسومه التى أنا آمرك بها» (التثنية ٨: ١١) «فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك... لا تنس» (التثنية ٢٥: ١٩) وقال الله «يا ابنى لا تنس شريعتى، وليرع قلبك وصاياى» (الأمثال ٣: ١) «اقتن الحكمة. إقتن الفهم. لا تنس، ولا تعرض عن كلمات فمى» (٤: ٥).

فإذا نسى الإنسان خالقه ونسى وصاياه وأهملها، فلهذا النسيان عقابه...

وعقابه أولا أن الله يتخلى بعنايته عن الذين ينسونه، فتلحق بهم نتائج خطاياهم، ويحصدون ثمار شرورهم وتعدياتهم.

يقول الرب «... لذلك هائنذا أنساكم نسيانا، وأرفضكم من أمام وجهى... وأجعل عليكم عارا أبديا، وخزيا أبديا لن ينسى» (أرميا ٢٣: ٣٩، ٤٠) «أنسى الرب فى صهيون العيد والسبت، ونبذ بسخط غضبه، الملك والكاهن» (مراثى أرميا ٢: ٦) «قد هلك شعبى من عدم المعرفة. فبما أنك رفضت المعرفة أرفضك أنا... وبما أنك نسيت شريعة إلهك فأنا أيضا أنسى بنيك» (هوشع ٤ :٦)،

«كذلك تكون سبل كل من ينسى الله، ورجاء الفاجر يخيب» (أيوب ٨: ١٣) «أفهموا هذا يا أيها الذين نسوا الله، لئلا أفترسكم ولا منقذ» (مزمور ٤٩: ٢٢)، (٤١: ٩).

وثانيا، فإن من ينسى الله وشريعته، ينساه الله إلى الأبد، ويطرحه فى أرض النسيان (مزمور ٨٧: ١٢)، وليست أرض النسيان إلاّ الجحيم، فى العالم السفلى. يقول الكتاب المقدس «ليرجع المنافقون إلى الجحيم، وكل الأمم الذين نسوا الله» (مزمور ٩: ١٧)، (عاموس ٨: ٧).

من أجل هذا يلفت الرب نظر الإنسان حتى لا ينسى الله، ولا ينسى شريعته، ويذكره بذاته وهو يأمره فى الوصية الأولى.. أنا هو الرب إلهك.... «اذكر، ولا تنس... لا تنسانى أنا الرب إلهك... فإن هذا النسيان يقودك إلى الضلال، ومن ثم إلى الدمار فى الدنيا، والهلاك فى الآخره..

ولهذا السبب، فإن القديسين والروحانيين يخشون النسيان... ويحاربونه ويقاومونه... بالتذكرة والتذكر والمراجعة والتهجد، والهذيذ الدائم فى أعمال الله... فى صلواتهم، وفى أحاديثهم مع أنفسهم، ومع الأغيار من بنى الناس.

يقول النبى داود فى صلواته وتسابيحه ومزاميره «باركى يانفسى الرب. وكل ما فى باطنى ليبارك إسمه القدوس. باركى يانفسى الرب، ولا تنسى كل حسناته» (مزمور ١٠٢: ١، ٢).

ويقول معترفا بفضل الله خالقه «ومانسيناك ولا نكثنا فى عهدك» (مزمور ٤٣: ١٧) «إنى لا أنسى أوامرك إلى الأبد، لأنك بها أحييتنى» (مزمور ١١٩: ٩٣)، (١١٩: ١٦، ٦١، ٨٣، ١٠٩، ١٤١، ١٥٣، ١٧٦).

٦ ـ الزنى الروحى (١)

سؤال :

من الابن الدكتور عوض الله يوسف عوض الله.. مستشفى بنها التعليمى

يقول جاء فى سفر هوشع النبى قوله: (أول ما كلّم الرب هوشع قال الرب لهوشع اذهب خذ لنفسك إمرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب) (هوشع ١ : ٢) ثم يعقب قائلا: إنّ عقلى يرفض وقلبى لا يقبل أن ينصح الله بنيه بأن يتخذ إمرأة زنى وأولاد زنى، فما هو تفسير ذلك؟

الجواب :

أنتَ على حق فى أن عقلك لا يقبل أن ينصح الله نبيهً أن يأخذ لنفسه إمرأة زنى، إذا كان الزِّنى المقصود هو الفجور وارتكاب الفحشاء بالمعنى العام للكلمة، وهو أن تخون المرأة زوجها، وتتعلق برجل بعلاقة جنسية مع غير رجلها، علاقة غير شرعية.

أما الحقيقة فهو أن الزِّنى المقصود فى القول الإلهى فى سفر هوشع، هو **الزِنّى بمعناه الروحى، وهو عبادة إله آخر غير الله الواحد الأحد.** فالذين يعبدون غير الله تعالى، هم زناة بهذا المعنى، لأنهم تركوا عبادة الإله الحقيقى وتعلّقوا بعبادة إله آخر، فسقطوا فى خطيئة الخيانة العظمى. فالنفس البشرية المخلوقة على صورة الله، وهى فى حقيقة وجودها نازلة من السماء من عند الله الذى نفخها فى الإنسان (وجبلِ الرب الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية) (التكوين ٢ : ٧) إذا انحرفِت هذه النفس، وعرفت إلها آخر غير الإله الذى خلقها فقد صارت لإله آخر غير خالقها، ومن ثَم فهى زانية كالمرأة التى تركت رجلها وتعلقت برجل آخر. وبهذا المعنى جاء قول المزمور (من لِي فى السماء، وعلى الأرض لم أبغِ معك أحداً... نصيبى الله إلى الدهر. الذين يتباعدون عنك يهلكون. وتهلك **كل من يزنى عنك**. أما أنا فالإقتراب إلى الله حسن لى) (مزمور ٧٢ : ٢٦ ـ ٢٨).

وإذن **فمن زنى عن الله** هو من بعُدَ أو ابتعدَ عنه وتعلّق بأحد آخر، غير الله الواحد الأحد.

وبهذا المعنى الروحى جاء فى سفر الخروجِ (لا تسجد لإله آخر... لأن الربَّ اسمه الغيور. إنه إله غيور. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض (الكنعانيين والحثيين من شعوب فلسطين) **فيزنون وراء آلهتهم** ويذبحون لآلهتهم.. أو تأخذ من بناتهم لبنيك **فتزنى بناتهم وراء آلهتهن**، ويجعلن بنيك **يزنون وراء آلهتهن**) (الخروج ٣٤ : ١٤ ـ ١٦)

---

(١) كتب فى ٢١ من مارس ـ اذار لسنة ١٩٩٢م ـ ١٢ من برمهات لسنة ١٧٠٨ش.

وأوحى الرب لبنى إسرائيل على فم النبى موسى (ولا يذبحوا ذبائحهم بعد للشياطين **الذين هم يَزنُون وراءها**) (اللاويين ١٧ : ٧)

وجاء فى سفر القضاة (وفعل بنو إسرائيل الشرّ فى عينى الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الربّ.... ولقضاتهم أيضا لم يسمعوا **بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها**) (القضاة ٢ : ١١ ـ ١٧).

وجاء فى سفر نبوءة إرميا (إذا سرّح الرجل إمرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر.. ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة. أما **أنتِ يا إسرائيل فقد زَنيتِ** مع أخلاء كثيرين (بعبارة آلهة أخرى) **ونجّست الأرض بزناكَ**... فإرجعي إليّ يقول الربُّ.... حقا إنه كما تخون المرأة قرينها هكذا **خُنتَمونى يابيتَ إسرائيل**، يقول الربُّ) (إرميا ٣ : ١ ـ ٢٠)

(وقال الربّ لى فِي أيام يوشيا الملك. هل رأيتَ ما فعلت العاصية إسرائيل وكيف انطلقت إلى كل جبلٍ عالٍ... **وزنت هناك**. وبعد أن صنعت ذلك كله، قلتُ ارجعى إليّ، فلم ترجع. فرأت أختها الخائنة يهوذا. فرأيتُ أنه لأجل كل الأسباب **إذا زنت العاصيةِ إسرائيل** فطلقتها، ودفعتُ إليها كتاب الطلاق. فلم تخف الخائنة يهوذا أختها، **بل ذهبت وزنَت هى أيضا**، وكان من هوان **زِناها** أنها نجّست الأرض **وزنَت مع الحجر ومع الخشب** (بعبادة آلهة الأوثان من حجر ومن الخشب....) (أرميا ٣ : ٦ ـ ٩)

وجاء فى سفر حزقيال قول الرب (والناجون منكم يذكروننى بين الأُمم الذين يُسبون إليهم إذا **كسرت قلبهم الزّانى الذى خادعنى وعيونهم الزانية وراء أصنامهم**) (حزقيال ٦ : ٩)

انظر فى هذا **المعنى الروحى للزنى، وهو عبادة إله آخر غير الله الحّى الواحد الأحد وحده**، النصوص التالية:

(اللاويين ٢٠ : ٥، ٦)، (العدد ١٥ : ٣٩)، (التثنية ٣١ : ١٦)، (٣٢ : ١٥ ـ ١٧)، (يشوع٢٤ : ١٤)، (المزمور ١٠٥ : ٣٩)، (إشعياء ١ : ٢١)، (إرميا ٢ : ١٣، ٢٠، ٢٨)، (٥ : ١١)، (حزقيال ١٦ : ٢٠ ـ ٢٦)، (٢٠ : ٣٠)، (٢٣ : ٣، ٥، ٨، ١١)، (هوشع ٣ : ١)، (يعقوب ٤ : ٤)

ولعل فى هذا الإيضاح أن يكون فيه الردّ على السيد **أحمد ديدات** الذى اتّخذ هذا النص سلاحاً يطعن به الكتاب المقدّس لأنه أساء الفهم.

٧ ـ الله اسمه يهوه

جاءنا السؤال التالى من شخص لم يشأ أن يذكر اسمه، يقول:

يوجد فى الإنجيل نص يقول (الله الذى اسمه يهوه) فما هو تفسير يهوه ؟

الجواب :

هذا الاسم قد ورد أولاً فى التوراة، وعلى الدقة فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج، عندما ظهر الله تعالى لنبيه موسى فى العليقة وأمره بأن يخرج الشعب الإسرائيلى من مصر «فقال موسى لله: ها أنا سائر إلى بنى إسرائيل فأقول لهم: إله آبائكم أرسلنى إليكم. فإن قالوا لى ما اسمه، فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أنا هو الكائن الذى يكون (أهيه الذى أهيه). وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل: الكائن (أهيه) أرسلنى إليكم. وقال الله لموسى ثانية: هكذا تقول لبنى إسرائيل: **يهوه** إله آبائكم، إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم. هذا اسمى إلى الأبد. وهذا ذكرى إلى دور فدور» (الخروج ٣ : ١٣ ـ ١٥). وكلم الله موسى مرة أخرى «وقال له : أنا الرب، أنا الذى تجليت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شئ. وأما **اسمى يهوه،** فلم أعلنه لهم» (الخروج ٦ : ٢، ٣).

وجاء هذا الإسم أيضاً فى سفر المزامير، فيقول المرنم: «ويعلموا أنك أنت وحدك **اسمك يهوه،** العلى على كل الأرض» (مزمور ٨٢ : ١٨).

كما جاء فى سفر أرمياء «فلذلك هأنذا أعرفهم هذه المرة، أعرفهم يدى وجبروتى، فيعرفون أن **اسمى يهوه»** (أرميا ١٦ : ٢١)، «هكذا قال الرب صانعها، الرب مصورها، ليثبتها، **يهوه اسمه»** (أرميا ٣٣ : ٢).

ويقول النبى هوشع «والرب إله الجنود، **يهوه اسمه»** (هوشع ١٢ : ٥).

ويقول عاموس النبى: «فإنه هو الذى صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره، الذى يجعل الفجر ظلاماً ويمشى على مشارف الأرض، **يهوه إله الجنود اسمه»** (عاموس ٤ : ١٣)، «الذى صنع الثريا والجبار، ويحول ظل الموت صبحاً، ويظلم النهار كالليل، الذى يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض، **يهوه اسمه»** (عاموس ٥ : ٨) «الذى بنى فى السماء علاليه، وأسس على الأرض قبته، الذى يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض، **يهوه اسمه»** (عاموس ٩ : ٦).

ويقول الرب الإله فى سفر ملاخى «**فإنى أنا يهوه،** لا أتغير» (ملاخى ٣ : ٦)، انظر أيضاً النص العبرانى فى (الخروج ١٧ : ١٦) حيث يرد أسم الله هكذا (يهوشوع).

وأحياناً يرد الاسم «يهوه» مسبوقاً ب «ياه» الصيغة المختصرة للاسم يهوه كما يقول فى سفر أشعياء: «هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب، لأن **ياه يهوه** قوتى وترنيمتى، وقد صار لى خلاصاً» (إشعياء ١٢ : ٢)، وأحياناً أخرى يرد مقتصراً على «ياه» فقط بنفس المعنى كقوله «توكلوا على الرب إلى الأبد، لأن فى **ياه الرب** صخر الدهور» (إشعياء ٢٦ : ٤).

هذا الاسم المقدس، يهوه وهو اسم الله تعالى، معناه الحرفى «الكائن الدائم الوجود» أنا هو الكائن، أهيه الذى أهيه (Ahieh asher Ahieh) «أكون الذى أكون» (الخروج ٣ : ١٤). فاسم الله «يهوه» مشتق من فعل الكينونة منسوباً إلى الثالوث الغائب (أنا هو الذى يكون، أنا هو الكائن). أو «الكائن دائماً» أو «الكائن فى كل زمان» فى الماضى والحاضر والمستقبل، أو الكائن أمساً واليوم وإلى الأبد» (العبرانيين ١٣ : ٨) أو «الكائن الذى كان والذى سيأتى» (الرؤيا ١ : ٤، ٨)، (٤ : ٨)، (١١ : ١٧)، (١٦ : ٥). أو كما يعبر القداس الإلهى «الكائن الذى كان، الدائم إلى الأبد» (القداس الغريغورى).

والاسم «يهوه» (أى الكائن) مشتق فى الحقيقة من الفعل العبرانى الذى يفيد الكينونة. وفعل الكينونة فى جميع اللغات هو الفعل الدال على الديمومة والإستمرار، لأنه يمتد إلى الماضى وإلى الحاضر وإلى المستقبل. وعلى ذلك فاسم الله «يهوه» يمكن أن يترجم إلى العربية ب «الكائن» أو ب «الدائم» كما يمكن تبعاً لهذا الفهم أن يترجم ب «الأزلى الذى لا بداءة له، الأبدى الذى لا نهاية له» أى «السرمدى» أو «السرمد». ويلاحظ أن الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس تقرأ L' Eternel فى كل مرة يرد فيها اسم (**يهوه**) بالعبرانية، وهى الكلمة الفرنسية التى تدل على الأزلية والأبدية معاً، ولا يتصف بها إلا الله وحده، لأنه وحده الأزلى الأبدى السرمدى.

وقد عبر الوحى عن هذه الكينونة الدائمة المستمرة بالنسبة لله فى أكثر من موضع فقال «فى البدء» كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، وكان الكلمة هو» (يوحنا ١ :١)، ولما قال المسيح - له المجد - لليهود «لقد تهلل أبوكم ابراهيم مشتهياً بأن يرى يومى، وقد رأى وفرح، فقال له اليهود: إنك لم تبلغ الخمسين بعد، أفرأيت إبراهيم؟ قال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون ابراهيم، أنا كائن» (يوحنا ٨: ٥٦ - ٥٨). فالكينونة المقصودة هنا هى الكينونة الأزلية الأبدية التى لا تنسب لغير الله. ولذلك «رفعوا حجارة ليرجموه» (يوحنا ٨: ٥٩) لأنهم ظنوه مجدفاً ينسب إلى نفسه ما لا يجوز أن ينسب إلا إلى الله وحده، لأن الله وحده هو «**الكائن**» لأنه وحده هو «**يهوه**».

ومع أن اسم «يهوه» قد ورد فى العهد القديم ٦٨٢٣ مرة فى النسخة العبرانية، إلا أن اليهود اتجهوا فيما بعد إلى توقير الاسم المقدس بحيث كانوا يكتبونه ولا ينطقونه، وإنما يقرأونه:

أدوناى (١) Adonia بمعنى «الرب» أو «السيد»، ويقصدون الله ذاته. وهذا نوع من الأدب اللائق باسم صاحب الجلالة القدوس، ورهبة منه، وخوفاً من أن يبتذل الاسم المقدس فى أفواههم، ولئلا يستخدم فى السحر (٢) وما إليه مما يُعَدّ إهانة لله وشراً. وأحياناً كانوا يقرأونه «هاشم» (٣) (Hashem) أى «**الاسم**» ويعنون بذلك **الاسم المقدس**، وهو اسم **الله** تعالى. ويقولون أن الملائكة نفسها لا يجوز لها أن تنطق **بالاسم يهوه**. (٤).

ويقول فيلون الفيلسوف اليهودى (٥): «**الاسم يهوه** لا يجوز أن ينطق به إلا الذين تطهرت بالحكمة آذانهم وألسنتهم، ويشرط أن يسمعوه وينطقوا به فى مكان طاهر»، وهو يعنى بذلك الكهنة فى الهيكل المقدس، ويقول فيلون أيضاً تعقيباً على النص الوارد فى سفر اللاويين «كل من سب إلهه يحمل خطيئته» (٦) (اللاويين ٢٤: ١٥): «إذا كان هناك أحد، لا أقول أنه يجدف على رب الناس والآلهة، بل يجرؤ فقط على أن ينطق باسمه فى وقت غير مناسب، فليتوقع الموت».

ويذكر التلمود الأورشليمى أن النطق بالاسم المقدس كان مشروعاً لرئيس الكهنة فى احتفالات يوم الكفارة. (٧). (سفر اللاويين ١٦: ٢٩ ـ ٣٤)، (٣٣: ٢٦ـ ٣٢). ويزيد التلمود البابيلونى فيقول أن اليهود امتنعوا عن أن يلفظوا الاسم المقدس، بل والكهنة أيضاً لم يعودوا ينطقون به حتى فى تلاوة البركة، (٨) فى زمن سمعان البار نحو سنة ٢٧٠ ق. م. ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودى فى كتابه «تاريخ اليهود» أنه يعرف النطق الصحيح للاسم المقدس لكنه يعفى نفسه من النطق به لأنه أمر غير مشروع. ويقول صراحة فى صدد كلامه عن النبى موسى «عند ذلك

---

(1) Biblical Encyclopaedia, Vol, III, c. 3320.
(2) Encyclopaedia Britanica, Vol, xv, P. 311 B.
(3) The Jewish Encyclopaedia, Vol. VII, P. 88 A.
(4) J. Gardner, Faiths of the world, Vol. II, P. 210, B.
(5) Philo, Vita Mosis, iii, II (ii _ 114),; ibid, iii, 27 (ii _ 206).

(٦) سفر اللاويين (٢٤: ١٥).

(٧) سفر اللاويين (١٦: ٢٩ ـ ٣٤)، (٣٣: ٢٦ ـ ٣٢). وكان الكاهن الأعظم ينطق باسم «يهوه» عشر مرات فى صلوات هذا اليوم. أما فى الأجيال المتأخرة فصار ينطق بالاسم المقدس بصوت منخفض جداً حتى كان لا يسمع فى وسط دوى أصوات الكهنة.

(٨) وتعرف بالبركة الكهنوتية ونصها «يباركك الرب ويحرسك، يضئ الرب بوجهه عليك ويرحمك. يرفع الرب وجهه نحوك ويمنحك سلاماً»، (سفر العدد ٦: ٢٣ ـ ٢٦) وكان الكهنة يباركون بها الشعب بعد تقديم الذبيحة اليومية العادية.

أعلن الله له اسمه المقدس الذى لم يكن قد كشف قط للناس من قبل، والذى لا يحل لى أن أنطق به» (١).

وذهب بعضهم Abba Shaul نحو سنة ١٣٠ إلى نفى السعادة الأبدية عن كل من يجرؤ فينطق بالاسم المقدس بحروفه. (٢)

وهكذا أخذ يقل تدريجياً عند اليهود النطق بالاسم «يهوه» إحتراماً وتوقيراً له، وكانوا يلفظونه كما قلنا «أدوناى» بمعنى «السيد» أو الرب. ويلاحظ وضوح هذا الإتجاه فى الأجيال المتأخرة، **حتى أن علماء اليهود عندما ترجموا الكتاب المقدس من العبرانية إلى اليونانية الترجمة المشهورة بالترجمة السبعينية فى عام ٢٨٢ ق. م. لمنفعة اليهود المقيمين فى مصر، فى زمن بطليموس فيلادلفيوس كتبوا (ὁ κῦριος) أى «الرب» فى مقابل «يهوه» العبرانية، التى تعنى حرفياً «الكائن دائماً» أو «الدائم»، ولم يجرؤوا على أن يوردوا اسم الله «يهوه»، لا بلفظه ولا بمعناه الدقيق. (٣).**

وليس استطراداً أن نشير هنا إلى أن كلمة (الرب) فى الترجمات العربية للكتاب المقدس، تقابل كلمة «يهوه» العبرانية معنى لا لفظاً (٤). وكثيراً ما نلتقى فى أسفار العهد القديم ولا سيما فى أسفار الأنبياء بتعبير «يقول السيد» أو «يقول الرب» أو «قال السيد الرب»، (٥) وكلها تترجم بوضوح «يهوه» العبرانية. وبهذا المعنى وردت كلمة رب فى تحية أليصابات للسيدة العذراء مريم عندما نطقت بالروح القدس. وقالت لها: «من أين لى هذا الشرف أن تأتى أم ربى إلىَّ» (٦) (لوقا ١ : ٤٣). وهو أحد النصوص المقدسة التى تستند إليها الكنيسة الأرثوذكسية، فى تلقيب السيدة العذراء **بوالدة الإله**، لا بمعنى أن مريم أصل اللاهوت، معاذ الله، ولكن **لأن المولود منها هو يهوه بعينه** قد حل فى أحشائها واتحد بالناسوت الذى كونه منها، وظهر منها **الإله المتأنس أو يهوه المتجسد.**

(١) تاريخ اليهود الجزء الثانى، فصل ١٢ فقرة ٤. (Antiquities of the Jews)

(2) Biblical Encycl. Vol. III, c. 3321, n, I. D.H. Weir, Jehovah, in the Imperial Bible Dictionary, Vol. 3 - 4 .P. 211, B.

(٣) نفس المراجع ، وذات المواضع.

(٤) وبالمثل فى الترجمات القبطية ترد nxoeic (бoic) n بدلاً من «يهوه» وفى الترجمات الإنجليزية ترد The lord وفى الترجمات الفرنسية Le Seigneur وفى الألمانية Der herr، وفى الإيطالى il Signore إلخ...

(٥) مثلاً حزقيال ١٧ : ٢٢.

(٦) (لوقا ١ : ٤٣)، انظر أيضاً (لوقا ٢ : ١١)، (أعمال ١٠ : ٣٦)، (رومية ١٠ : ١٢).

٨ ـ الله هو بدء الوجود وليس له بداءة

سؤال من السيد/ مجدى صبرى ذكرى ـ شبرا:

ما هو الدليل على أن الله هو البداية؟ وكيف يمكن أن أتصور أن الله لم يكن قبله شئ؟ وكيف ذلك وكل شئ لابد له من موجد أى بداية؟ فإن كان هناك شئ قبل الله، فلعله العدم. فمن هذا الذى يسيطر على العدم؟ وما هو الدليل على أنه لم يكن شئ قبل الله؟ هل لمجرد قوله: أنا هو البداية والنهاية؟ فإذا لم يكن عدم فما هو؟

الجواب :

حسناً تقول أن كل شئ لابد له من موجد. فإذا ذلك كان كذلك فلابد للكون العظيم من موجد وهو الخالق لكل الوجود. هذا الموجد والخالق، لابد أن يكون هو الكائن الأول الذى أوجد غيره، ولم يوجده أحد. وبعبارة أخرى هو الخالق غير المخلوق، لأنه لو كان مخلوقاً أو أوجده غيره لم يكن هو الله، بل لصار مخلوقاً من كائن كان قبله فى الوجود. وإذا كان العدم كما تقول موجوداً قبل الله، فيكون الله إذن مخلوقاً، وإذا كان الله مخلوقاً، فلابد له من خالق، وبالتالى لا يكون هذا المخلوق هو الله، بل الخالق وحده هو الله. فالله تعالى يتفرد بأنه هو الخالق الذى خلق غيره ولم يخلقه أحد إذ لو كان خلقه أحد، فلا يكون هو الخالق بل يكون مخلوقاً، ويكون الذى خلقه هو الله. إذن لابد أن يكون فى سلسلة الخلق من كائن هو أسبق على كل الوجود، هو الخالق لما بعده ولا يسبقه فى الوجود أحد.

خذ مثلاً لذلك القطار الذى يتكون من عدد من العربات والمقطورات. فإذا نظرت إلى إحدى المقطورات، ولتكن المقطورة الأخيرة تجد أنها مربوطة بمقطورة أخرى تجرها فى إتجاه القاطرة، وهذه الثانية تجرها مقطورة ثالثة فى إتجاه القاطرة والثالثة تجرها الرابعة، وهكذا إلى الأخيرة وهى القاطرة. أما القاطرة فهى التى تجر غيرها، ولا تجرها قاطرة أخرى، وإلا لما سميت قاطرة، إذ القاطرة تجر غيرها ولا يجرها غيرها، وإلا صارت مقطورة لا قاطرة. إذن لابد فى سلسلة العربات من عربة أولى هى وحدها القاطرة لجميع المقطورات، على هذا القياس لابد فى سلسلة الموجودات والمخلوقات من خالق واحد لها، يكون وحده هو الخالق لغيره، فإذا كان مخلوقاً فلا يكون هو الخالق، وإنما الذى خلقه هو وحده الخالق. ولذلك فإن هذا الخالق الواحد يسمى بالأول والأزلى، والذى ليس له بداءة، كما يسمى بواجب الوجود، أى الذى وجوده واجب وضرورى لتفسير الوجود وعلى قول أحد الفلاسفة: لو لم يكن الله موجوداً، لكان يجب أن يوجد

لتفسير الوجود. فلا يمكن إذن تفسير الوجود إلا بكائن أول، وجوده أزلى، وليس له بداءة، وهو الذى أوجد غيره ولم يوجده أحد.

أما قولك إن كان هناك شئ قبل وجود الله، فلعله العدم، فمردود عليه بأن العدم ليس موجوداً، وإنما هو إنتفاء للوجود. فإذا كان العدم ـ على قولك ـ موجوداً قبل وجود الله، فكأن العدم هو الذى أوجد الوجود، أى أن العدم يصبح خالقاً للوجود، وهذا محال. ثم كيف لله أن يصير موجوداً بعد العدم؟ إن هذا المنطق يؤدى إلى افتراض أن الله مخلوق، فإذا كان مخلوقاً، فلابد له من خالق. ولا يسمى فى هذه الحالة «الله» بالألف واللام بل الخالق له يكون هو الله، أى لابد أن يكون هناك على رأس سلسلة الوجود، واحد فقط ولا غير سواه هو الخالق وحده، ولم يسبقه فى الوجود أحد. وهذا معنى إنه ليس له بداءة أى ليس له أول، وليس له بدء، وإنما هو ذاته البداءة، وهو وحده الأول، وهو البدء، وهو البادئ لكل موجود، والمبدئ لكل الوجود.

يقول الله تعالى على فم إشعياء النبى.

«إنى أنا هو. قبلى لم يصور إله» (إشعياء ٤٣ : ١٠).

«من فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء. أنا الرب الأول» (إشعياء ٤١ : ٤).

«هكذا يقول الرب.. أنا الأول.. ولا إله غيرى» (إشعياء ٤٤ : ٦).

«أنا هو، أنا الأول.. ويدى أسست الأرض ويمينى نشرت السماوات» (إشعياء ٤٨ : ١٢).

ويقول الوحي الإلهى أيضاً:

«فى البدء كان الكلمة» (يوحنا ١ : ١).

«الذى هو البداءة» (كولوسى ١ : ١٨).

«أنا هو الألف، البداءة.. يقول الرب الكائن» (الرؤيا ١ : ٨).

«أنا هو الألف.. الأول» (الرؤيا ١ : ١١).

«أنا هو الأول »(الرؤيا ١ : ١٧).

«أنا هو الألف.. البداءة » (الرؤيا ٢١ : ٦).

«أنا الألف.. البداءة .. الأول» (الرؤيا ٢٢ : ١٣).

٩ ـ من الذى قام بخلق العالم ؟ (١)

لئن كان الله واحداً فى جوهره إلا أن أقانيم الثالوث القدوس متمايزة فى العمل. فإذا كان الآب قد أراد خلق العالم، فإن الابن هو الذى قام بعملية الخلق، والروح القدس هو الذى بث الحياة فى المادة.

ودليلك على ذلك أن نصوص الكتاب المقدس واضحة فى إجماعها على نسبة الخلق للابن أو الكلمة (اللوجوس) أو الأقنوم الثانى من الثالوث القدوس.. وأنها إذا نسبت الخلق إلى الآب فبوصفه الإرادة أو المشيئة ولكنها تعود فتنسب عملية الخلق بالفعل إلى الأقنوم الثانى أى الابن.

من ذلك قول القديس يوحنا الإنجيلى «فى البدء كان الكلمة (اللوجوس) ... كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شئ مما كان .. كان فى العالم، وكون العالم به» (يوحنا ١ : ١، ٣، ١٠).

وقول القديس بولس فى رسالته الأولى إلى كورنثوس «لنا إله واحد هو الآب، الذى منه كل شئ ونحن له، ورب واحد وهو يسوع المسيح الذى به كل شئ، ونحن به» (١ . كورنثوس ٨ : ٦) فالآب هو أصل الوجود أو هو الأصل الذى خلق الوجود.

وقول القديس بولس أيضاً فى رسالته إلى أفسس «لى أنا أصغر القديسين جميعاً أعطيت هذه النعمة: أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذى لا يستقصى. وأنير الجميع فى ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور فى الله خالق الجميع **بيسوع المسيح**» (أفسس ٣ : ٨، ٩).

وليس صحيحاً ما ذهب إليه الأريوسيون (أتباع مذهب أريوس الذى أنكر لاهوت المسيح) من أن مثل الآب والابن والروح القدس كمثل النجار والقدوم والمكان (٢)، فالآب فى فعل الخلق هو العلة الفاعلية كالنجار فى صنع الكرسى، والابن هو العلة الآلية كالقدوم التى بها يصنع الكرسى، والروح القدس هو كالمكان والزمان الذى صنع فيهما الكرسى. فإن هذا التصوير المادى فيه تفريق بين الأقانيم فى الجوهر، وزعم بأن كلا من الأقانيم الثلاثة كيان أو جوهر فى ذاته منفصل عن الآخر. وحينئذ لا تكون المسيحية هذه الديانة التى تقول بوحدانية الله بل يكون شأنها شأن كل ديانة وثنية تنادى بالتعدد والتكثر، وهو فضلاً عن ذلك كله يتناقض عقلاً مع الاعتقاد الصحيح بوجود إله، لأن فكرة الله فى ذاتها تقتضى الوحدانية وبدونها لا يمكن تفسير أصل الوجود ومعرفة العلة الأولى فى الخلق.

---

(١) مقال نشر بمجلة (مدارس الأحد) السنة الثالثة العدد الثانى (مايو لسنة ١٩٤٩) صفحة ٣٣، ٣٤.
(٢) هو مثل ذكره الأريوسيون بالفعل.

وإنما معنى أن الله خلق الجميع بيسوع المسيح، هو على غرار قولك «أننى حللت المشكلة بالفكر» فليس الفكر شيئاً منفصلاً عن شخصك بل هو طابع شخصيتك الإنسانية، وبه وحده نتميز عن الحيوان وبدونه لا يصدق عليك أن تكون إنساناً. كما أن الفكر فى هذا المثال وإن كان يتصف بصفة يبرز بها عن كيانك الوجودى لكنه مع ذلك يكوِّن مع هذا الوجود طبيعتك الحقيقية وشخصيتك الواحدة، بحيث أنه به تصبح أنت. وبإنعدامه تنعدم أنت. هكذا الابن بالنسبة للآب فى عملية الخلق: هو حكمة الله أو هو عقل الله، أو هو فكره وبصيرته التى بها رأى الوجود. وليس الروح القدس فى عملية الخلق إلا «القدرة» التى أخرج بها الصورة إلى الفعل.

ويقول القديس بولس أيضاً فى رسالته إلى كولوسى: «الذى لنا به **الفداء بدمه** غفران الخطايا، الذى هو صورة الله غير المنظور.. فإنه فيه خلق كل شئ مما فى السموات ومما على الأرض ما يرى وما لا يرى.. كل شئ به وله قد خلق» (كولوسى ١: ١٤-١٦) ولاشك أنه يعنى بذلك الأقنوم الثانى أو الابن لأنه هو الذى قام بالفداء.

وقول القديس بولس أيضاً فى رسالته إلى العبرانيين: أن الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً ... كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى «ابنه» .. الذى به أيضاً أنشأ العالمين (العبرانيين ١: ١).

وهكذا ذهب شراح المسيحية الأولون فى نسبة الخلق إلى الابن فيقول الفيلسوف المسيحى أثيناغوراس: لكن «ابن الله» هو «كلمة الآب» فى الصورة والفعل، لأنه على مثاله وبه قد صنعت جميع الأشياء.. الابن هو المولود الأول من الله لا بمعنى أن الله أوجده - إذ الكلمة قائم فى الله ذاته منذ البدء والله هوالعقل (١) السرمدى الكائن مع الكلمة منذ الأزل - بل بمعنى أن الابن.. هو الصورة والقوة الفاعلة لجميع الأشياء المادية» (الدفاع عن المسيحيين - فصل ١٠).

من كل هذه النصوص يتضح الإعتقاد الأرثوذكسى فى الأقنوم الثانى أو الابن أنه هو الذى خلق أو هو «الله الخالق» متمماً إرادة الآب.

(١) إذا كان الآب هو الوجود فالابن هو الفكرأو الحكمة أو العقل لهذا الوجود. وإذا كان الآب هو العقل فالابن هو كلمة العقل (مولودة منه بغير إنفصال).

١٠ ـ هل لله وجود فى جهنم ؟ (١)

سؤال من يوسف مينا يوسف النحراوى ـ شبراخيت ـ البحيرة.

يقول: نحن نؤمن أن الله موجود فى كل مكان وفى كل زمان، فهل الله موجود فى جهنم؟

الجواب :

الله كائن بوجوده فى كل مكان، ولا يخلو منه مكان، أى أنه كائن بوجوده فى السماء والأرض وكل الكون وجميع الأكوان. وإذن فوجوده يشمل الملكوت السمائى حيث العرش الإلهى، ويشمل الفردوس، المقر المؤقت للأرواح السعيدة، كما يشمل الجحيم، المقر المؤقت للأرواح الشقية، وكذلك جهنم حيث النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته (متى ٢٥: ٤١)، (مرقس ٩: ٤٣، ٤٥، ٤٧).

على أن وجود الله فى جهنم هو من قبيل إمتداد نفوذه كسيد لكل الوجود. ولو قلنا أن جهنم تخلو من الوجود الإلهى لكان معنى هذا أن وجود الله قاصر على مكان دون مكان، وبالتالى لا يكون الله غير محدود فى الوجود، وهذا يتعارض مع صفة من صفات الكمال فى الله وهى أنه غير محدود، ولامتناه.

ولماذا نخشى من القول أن لله وجوداً فى جهنم؟ هل سينقص هذا الوجود فى جهنم من سعادة الله؟ حاشا!

هل إذا أشرقت الشمس بأشعتها على كل الأرض، وكان فى جزء من الأرض روث وزبل وقذر، واشتعلت فى هذا كله نار محرقة، فهل نخشى على الشمس أن تتدنس بقذر الروث والزبل؟ وهل نخشى على الشمس من النار المحرقة المشتعلة فى الروث والزبل؟ هل ستتأذى الشمس أو أشعتها أو حرارتها بالروث أوهل تتأثر الشمس بالنار المشتعلة فى الروث أو الزبل؟ هل هذه النار ستنقص من حرارة الشمس أو ضوئها؟ فإن كانت الشمس لن تتأثر لا بالروث أو بالزبل ولا بالنار التى يحترق بها الروث والزبل، فبالأحرى الوجود الإلهى الشامل لكل مكان، لن يتأذى ولن يتأثر بزيادة أو بنقص فى جهنم.

إن امتداد النفوذ الإلهى والحضرة الإلهية يشمل كل الوجود وكل الخليقة.

على أننا من زاوية روحية أو أخلاقية نقول أحياناً أن الله ليس فى هذا المكان (الدنس أو النجس). **لكن يجب ألا يحمل هذا التعبير على معنى حقيقى وجودى من حيث اللاهوت الإلهى، وإنما يجب أن يحمل على معنى روحى وأخلاقى**، تعبيراً عن عدم رضى الله عن الدنس والنجاسة والمكان الدنس والنجس.

وإذن إذا قلنا أحياناً أن الله ليس فى هذا المكان أو ذاك، فهذا تعبير روحى وأخلاقى، ولكنه ليس تعبيراً صحيحاً من الوجهة الوجودية. **فإن الله كائن بوجوده فى كل مكان ولا يخلو منه مكان.**

(١) كتب فى يوم الجمعة ١٠ أكتوبر ـ تشرين أول ١٩٨٠م ـ ٣٠ توت ١٦٩٧ش.

١١ - هل يندم الله ؟ (١)

سؤال من الابن نبيل جاد الله إبراهيم - منبال - مطاى.

يقول إنه ترد فى الكتاب المقدس نصوص تنسب الندم إلى الله، فالرجاء تفسير وتوضيح معنى هذا الندم؟

من هذه النصوص قول الكتاب المقدس:

«وبسط الملاك يده على أورشليم ليدمّرها، **فندم الرب على الشر**، وقال للملاك المهلك الشعب: كفى فكفَّ الآن يدك» (٢. صموئيل ٢٤: ١٦).

- «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: إنى قد **ندمت** على إقامتى شاول ملكاً، لأنه مال عن إتّباعى ولم يقم كلامى، فشق على صموئيل، وصرخ إلى الرب الليل كله» (١. صموئيل ١٥: ١١).

«فتضرع موسى إلى الرب إلهه، وقال: يا ربِ لِمَ يضطرم غضبك على شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة، ولِمَ يقول المصريون إنهم أخرجهم من ههنا بكيد ليقتلهم فيما بين الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض. ارجع عن شدة غضبك، **واندم على الشر** بشعبك، واذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك... **فندم** الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه» (سفر الخروج ٣٢: ١١ - ١٤).

بينما أن الكتاب المقدس فى مواضع أخرى ينفى عن الله الندم. من ذلك قوله: «ليس الله إنساناً فيكذب، **ولا كبنى البشر فيندم**. أتراه يقول ولا يفعل، أو يتكلم كلاماً ولا يتممه» ؟ (سفر العدد ٢٣: ١٩).

«فإن بهاء إسرائيل لا يكذب ولا يندم. **لأنه ليس إنساناً فيندم**» (١. صموئيل ١٥: ٢٩).

الجواب :

اعلم أيها الابن أن **الله لا يندم كما يندم الإنسان**. فإن الندم فى الإنسان مردّه إلى جهل الإنسان وقصور علمه، فيندم لأنه لم تأتِ النتائج كما كان يتوقعها، أو كما كانت فى حسبانه. **وليس الله كالإنسان فى ذلك**. فإنه كقول الكتاب المقدس «**معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله**» (أعمال الرسل ١٥: ١٨). ويقول الله تعالى: «**من أعلم بهذه منذ القديم وأخبر بها منذ زمان**» ؟ **أليس إياى أنا الرب**، فإنه ليس آخر، لا إله غيرى» (إشعياء ٤٥: ٢١).

---

(١) كتب فى ٢٤ أبريل ١٩٨٧م - ١٦ برمودة ١٧٠٣ ش.

ثم إن الله لا ينفعل بالندم كما ينفعل الإنسان، لأن الانفعال ضعف. أما الله فهو «**القادر على كل شيء**» (التكوين ٤٨: ٣) «القادر بقوته العاملة فينا أن يفعل أكثر جداً مما نطلبه أو نتصوره» (أفسس ٣: ٢٠).

وهو يقول صراحة «**ليس الله إنساناً فيكذب، ولا كبنى البشر فيندم**. أتراه يقول ولا يفعل، أو يتكلم كلاماً ولا يتممه» (سفر العدد ٢٣: ١٩) «فإن بهاء إسرائيل لا يكذب **ولا يندم، لأنه ليس إنساناً فيندم**» (١. صموئيل ١٥: ٢٩).

كما يقول «أنا الرب تكلمتُ.. أفعل . لا أهمل ولا أرثى، ولا أندم» (حزقيال ٢٤: ١٤).

وإذن **فالله تعالى لا يندم كما يندم الإنسان**، لأن الندم فى الإنسان دليل جهله وعدم علمه، ودليل ضعفه. أما الله فهو يجلّ عن الجهل ويجلّ عن الضعف.

إذن لماذا ينسب الكتاب المقدس فى بعض المواضع، **الندم** إلى الله؟

لابد أن نذكر أنه لما كان الكتاب المقدس هو رسالة الله إلى الإنسان، فكان لابد أن يستعمل فى مخاطبة الإنسان لغة يفهمها الإنسان. وإلا لكان الله يكلّم الإنسان بلغة لا يفهمها، فكيف يتعامل الله مع الإنسان بغير لغة الإنسان؟

وهذا هو السبب فى أننا نجد نصوصاً كثيرة فى الكتاب المقدس، ينسب الله فيها إلى ذاته ما هو مألوف لدى الإنسان، فينسب إلى الله قبل التجسد أن له عينين، وأذنين، ويدين ورجلين، وأنفاً وقلباً وجناحين. كما لو كان الله إنساناً وهذا ما يعرف فى علم اللاهوت بمنهج (**تشبيه الله بالإنسان**) Anthropomorphism وذلك لكى تصل المعانى الإلهية إلى الإنسان بلغة قريبة إلى فهم الإنسان.

من ذلك:

«**عين الرب** على خائفيه» (مزمور ٣٢: ١٨).

«لكن الله يحط المقتدرين بقوته.. إلا أن **عينيه** على طرقهم» (أيوب ٢٤: ٢٢، ٢٣).

«**رأتنى عيناك** جنيناً» (مزمور ١٣٨: ١٦).

«قدستُ هذا البيت.. وتكون **عيناى وقلبى** هناك كل الأيام» (١. الملوك ٩: ٣).

«أمل إلىّ **أذنك** سريعاً أنقذنى» (مزمور ٣٠: ٢).

«وصياح الحصادين قد دخل إلى **أذنى رب الجنود**» (يعقوب ٥: ٤).

«حى ّ أنا يقول السيد الرب إنى **بيد** قوية **وذراع** ممدودة. وبسخط مسكوب أملك عليكم» (حزقيال ٢٠: ٣٣).

«**يداك** كونتانى وصنعتانى» (أيوب ١٠: ٨)، (مزمور ١١٩: ٧٣).

«**يداى** أنا نشرتا السماوات وأنا أمرت جميع جندها» (إشعياء ٤٥: ١٢).

«أنت الإله الصانع المعجزات.. افتديت **بذراعك** شعبك» (مزمور ٧٦: ١٥، ١٦).

«برى قريب، وخلاصى قد برز، **وذراعاى** يقضيان للشعوب» (إشعياء ٥١: ٥).

«طأطأ السماوات ونزل، وضباب تحت **رجليه**» (مزمور ١٨: ٩).

«طريقه والسحاب غبار **رجليه**» (ناحوم ١٠: ٣).

«يا ابن آدم. هذا مكان كرسىّ، ومكان باطن **قدمىّ**» (حزقيال ٤٣: ٧).

«أما **وجهى** فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يرانى إنسان ويعيش» (الخروج ٣٣: ٢٠).

«لماذا تحجب **وجهك** وتحسبنى عدواً لك» (أيوب ١٣: ٢٤).

«هؤلاء دخان فى **أنفى**» (إشعياء ٦٥: ٥).

«يقول الرب إن غضبى يصعد فى **أنفى**» (حزقيال ٣٨: ١٨).

«لأن **فمه** هو قد أمر» (إشعياء ٣٤: ١٦).

«صعد دخان من **أنفه**، ونار من **فمه** أكلت» (مزمور ١٧: ٨).

«احتمى بستر **جناحيك**» (مزمور ٦٠: ٤).

«احفظنى مثل حدقة العين، بظل **جناحيك** استرنى» (مزمور ١٦: ٨).

كل تلك نصوص **يشبّه الله فيها بالإنسان** وكأن له عينين، وأذنين، ويدين، ورجلين، ووجها، وأنفاً، وفماً، وجناحين، وقلباً...

وعلى ذلك فإذا كان الكتاب المقدس ينسب إلى الله أنه ندم، فهو من قبيل تشبيه الله بالإنسان للدلالة على أن الله **غير راضٍ عن الإنسان الذى ضل وغوى، وعوّج طريقه.**

فالندم إذا نسبه الكتاب المقدس إلى الله، **فمعناه أن الإنسان إذا اعوّج عن طريق الاستقامة والعدل، فلابد أن يتغير موقف الله منه، فتتبدل رأفته إلى عقاب. وليس هذا معناه أن الله فى ذاته قد تغير، إنما التغير هو من جانب الإنسان، وبالتالى يتغير حكم الله عليه**، لأن الله عادل، والعدل الإلهى يقتضى أن يجزى البشر على حسب أفعالهم، وينيل الإنسان على حسب سبيله (أيوب ٣٤: ١١)، «كل واحد على حسب أعماله» (الرؤيا ٢٢: ١٢).

١٢ ـ لماذا خلق الله الإنسان؟
هل خلقه للعذاب؟ (١)

سؤال من الابن نادر. راشد ـ القاهرة.

لماذا يترك الله الإنسان يعيش فى الأرض ـ ولماذا يخلقه أصلاً، مع علم الله السابق بمصير هذا الإنسان، ويعلم أن هذا الشخص سيصبح خاطئاً ومصيره النار الأبدية؟ أيخلقه للعذاب؟ مع ملاحظة أننى لا أقصد آدم بل أقصد الإنسان الحالى؟

الجواب :

اعلم أيها الابن أن الله خلق الإنسان لخير الإنسان نفسه، لأن الوجود خير من العدم. فالله هو الخير الأعظم، ولذلك يسمى عند الإنجليز، وعند الألمان God أو Gott فالكلمة الإنجليزية God وهو اسم الله فى الإنجليزية مشتقة من الكلمة الإنجليزية Goodness أى (الخيرية ـ الجودة ـ الجودة ـ الطيبة ـ الصلاح) وكذلك كلمة Gutt باللغة الألمانية مشتقة من الكلمة Gute أى الخيرية ـ الجودة.

نعم، إن الله لم يخلق الإنسان لهدف يعود على الله نفسه، إذ أن الله فى غنى عن الإنسان وعن كل كائن آخر. ولكنه لأنه الخير الأعظم، وهو السعيد سعادة لا تستقصى، فرأى من منطلق جودته وخيرته أن يخلق الإنسان ليستمتع معه بهذه السعادة الدائمة.

ألا ترى إلى أن الإنسان منّا إذا كان سعيداً أو غنياً، فإنه إذا كان خيراً فإنه يُسعده أن يَسعد معه غيره من الناس، وإذا رأى غيره سعيداً فإنه يفرح بسعادته ـ وإذا أمكنه أن يخفف آلام إنسان مريض أو شقى أو فقير أحسّ بسعادة غامرة لأنه صنع خيراً، وبصنعه الخير وتخفيف آلام المتألمين يشعر بأن وجوده له معنى، وأن حياته لها قيمة؟

أليس لأن الله خلق الإنسان له قدرات وإمكانات يُمكنه بها أن يخلق وأن يبتكر وأن ينشئ شيئاً جديداً، لذلك يحس الإنسان منا بقيمته ومعنى وجوده كلما نجح فى أن يصنع شيئاً لم يكن موجوداً؟

فمن أين أتى هذا الدافع عند الإنسان لأن يصنع الخير، وأن يجاهد ويبذل قصارى جهده بتوظيف إمكاناته وقدراته، لأن يخلق شيئاً جديداً، وأن يبتكر وينشئ ويبتدع مخترعات فضلاً عن إبتكاره للمعنويات والمفهومات والمبادئ السامية الراقية التى تعمل على تقدم الإنسانية كلها...؟

(١) كتب فى ١٣ من مارس ـ اذار لسنة ١٩٩١م ـ ٤ من برمهات لسنة ١٧٠٧ش.

نقول من أين أتى للإنسان هذا السمو الروحانى، حتى أنه يفرح بخلق أشياء وكائنات جديدة، وإبتكار وسائل جديدة لتسهيل حياته وحيوات الآخرين بالمستجدات والمستحدثات والمخترعات ...؟ أليس هذا الذى فى الإنسان هو من خلق الله فى الإنسان، الذى أوجد فيه هذه الحوافز والدوافع للخلق والإبتكار، واللذات العقلية والروحانية والأخلاقية التى تسعده وتسعد الآخرين وكل الوجود....؟

وإذا تأملت قول الكتاب المقدس فى سفر التكوين إن الأرض عندما خلقها الله فى البدء «كانت خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة» (التكوين ١ : ١، ٢) ولماذا خلق الأرض خربة وخالية؟ أليس لكي يعيّن للإنسان وظيفته التى خلقه الله من أجلها، وهى أن يعمّر الأرض ويملأها من المصنوعات فيسعد بذلك، حينما يشهد عمله فى الأرض وأنه أمكنه بالجهد والعمل أن يستغل مواهبه وإمكاناته الممنوحة له فى تعمير الأرض وتذليل الصعوبات التى كان يواجهها الإنسان فى نشأته، وأن يسخر الأرض والحيوانات والنباتات وكل الموجودات لخدمته وخدمة أبنائه الذين ولدهم وأوجدهم وأسعدهم؟ لاشك أن العمل إذا أثمر يرفع قيمة الإنسان العامل ويسعده، ويجعل حياته أكثر سهولة ويسراً.

ألا ترى إلى أن الإنسان استطاع فعلاً أن يثبت الحكمة الإلهية من وجوده بما حققه من تقدم علمي وبما اكتشفه من قوانين الطبيعة التى استغلها للبناء والتعمير والتنمية والإنشاء، بحيث نرى اليوم، ونحن فى نهاية القرن العشرين البون الواسع والفارق الضخم بين إمكانيات الإنسان القديم فى سذاجته وحياته الجافة بين الأدغال وفى الصحارى، وبين ما حققه الإنسان من إنجازات واختراعات وصناعات متطورة وأجهزة طبيعية وميكانيكية وكهربائية وألكترونية فضلاً عن امتداد الحضارة فى مجالاتها المادية والفكرية والجمالية والمعنوية والروحية والعقلانية؟

ألا يقودنا التأمل فى كل هذا إلى أن نشكر الله الذى خلقنا لنعمل معه فى تعمير الكون ونشاركه في الخلق بالوزنات العقلية والحسية والروحية التى وهبنا إياها لنصنع بها الخير لنا ولكل الوجود...؟

ألا ترى إلى أن الله بخلق الإنسان قد شرفه بأن يكون الخالق الصغير بأمر الخالق الأعظم ووهبه الإمكانات والهبات التى كلما وظفها ومارسها أثمرت بين يديه جديداً وجديداً إلى مالا نهاية له؟

نعم حقاً إنه خلقنا من منطلق محبته، ومن منطلق خيريته وجودته ليسعدنا بوجوده معنا ووجودنا معه، عاملين مرضاته، نخلق ونعمّر ونملأ الأرض والوجود أثماراً صالحة ولإمتداد ملكوته....

إنه خلقنا من منطلق محبته لأنه صانع الخيرات، ولقد أحبّنا من قبل أن يخلقنا ولهذا خلقنا «ونعيمى مع بنى البشر» (سفر الأمثال ٨: ٣١) و «بالناس مسرته» (لوقا ٢: ١٤).

«لأننا نحن عمله، مخلوقين فى المسيح يسوع للأعمال الصالحة التى سبق الله فأعدّها لنا لنسلك فيها» (أفسس ٢: ١٠).

أما الشقاء فى حياة الإنسان، فهو الإنسان الذى يجلبه على نفسه باختياره وليس بإرادة الله، فإن الله أراد للإنسان الخير، ويريده له دائماً، ولذلك فإن الله يفرح بالأبرار الذين يشكرون، ويمجّدون الله فى حياتهم، ويعملون مرضاته ويمارسون مهمة وجودهم بالعمل، والجهاد، فيثمرون ثمراً صالحاً، ويمدون آفاق الخير فى الكون، ومن ثمّ فإن الله يكافئهم بالخير. وبعد نهاية رحلة حياتهم فى الأرض ينقلهم إلى الحياة الأفضل والأجمل. فنجاحهم فى حياتهم الأرضية هنا فى الدنيا يزكيهم ويرشحهم للإنتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل وجودهم الذى سيمتد لحياة الأبد مع الله، فى سعادة دائمة «وهذا هو الوعد الذى وعدنا هو به الحياة الأبدية» (١. يوحنا ٢: ٢٥).

فما أسعد الإنسان الذى يعى بالحكمة والفهم معنى وجوده فى الدنيا، وما أحكمه إذا فهم الغرض الحكيم الذى من أجله خلقه الله فى هذه الحياة، فإن الله أراد له الخير والسعادة الدائمة، ليحيا معه تعالى إلى الأبد.

١٣ ـ فعل السحر

سؤال من أحد القراء طلب أن لا يذكر اسمه منعاً للإحراج ـ يقول: ما هو الحل فى مشكلة من يتعرض لأعمال سحرية معتادة من إناس برعوا فى سحرهم إلى إيذاء غيرهم من رباطات السحر وتسليط الأرواح الشريرة عليهم. إن كاتب هذه السطور تعرض لهذه المشكلة. وقد أثر ذلك على شئون حياته، فمن معاكسات خفية فى نتيجة دراسته، وفى مشروع زواجه، وفى العمل، حتى إن كل خطوة أو مشروع ينوى القيام به ينتهى إلى عكس ما قصده أو إلى طريق مسدود، رغم الجهد الصادق الذى يبذله فلم يتحقق له أمله فى النجاح المقصود، ولا فى الزواج، ولا تقدم يذكر فى أعماله. ويرجع ذلك إلى خلاف حدث بين والده وبين أحد الذين برعوا فى السحر منذ زمن بعيد (منتصف الأربعينات، وبالتحديد عام ١٩٤٤) . فاستخدم الذى برع فى السحر مهارته فى معاكسة والده ومعاكسة ابنه كاتب هذه السطور.

ثم يتساءل قائلاً: إن الشريعة الإلهية تحرم اللجوء إلى الوسائل الشائعة لإزالة الأعمال السحرية، فما هو الحل المشروع لإزالة هذه المعاكسات السحرية؟ ألتمس ارشادى إلى رجل قد أعطى من الله هبة إزالة الأعمال السحرية بالطرق المشروعة المقبولة من الله. فإنى لا أجد لى خلاصاً من هذه الحالة التى لا تسرّ صديقاً ولا عدواً.

الجواب :

لعلك تعرف جيداً أن السحرة وسطاء الشيطان وعملاؤه. فالشيطان وهو عدوّنا والمشتكى على جنسنا (الرؤيا ١٢ : ١٠) والذى يجول ملتمساً الإضرار بنا (١ . بطرس ٥ : ٨)، استطاع أن يستميل لطريقه بعضاً من الناس، أغراهم على أن ينضموا إلى جيشه فى مقابل تحقيق نفع لهم مادى أو جسدى، وهو يتعامل معهم، وهم يتعاملون معه. والسحر ليس جديداً، فمنذ القديم كان السحر، وكان السحرة، ومنذ القديم منع الله التعامل مع السحرة، وقال الله لبنى إسرائيل على يد النبى موسى الكليم «لا يوجد فيك.. من يعرف عرافة، ... ولا ساحر، ولا من يرقى رقية، ولا من يسأل جانا أو تابعة، .... لأن كل من يفعل ذلك مكـروه عنـد الرب» (التثنية ١٨ : ١٠ ـ ١٢) «لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم أنا الرب إلهكم» (اللاويين ١٩ : ٣١) . وفى قوانين الكنيسة نصوص تمنع اللجوء إلى السحرة، ولو لفك السحر وإبطاله، وتعده كخطيئة عبادة الأوثان، وهى أيضاً جريمة الخيانة العظمى، لأنها الإحتماء بعدو الله.

ومن خطابك يتبين أنك تعرف ذلك جيداً، ولكنك تريد أن ننصح لك بطريقة مشروعة، تقرّها الشريعة للخلاص من نتائج الأعمال السحرية التى برع فيها الذين أرادوا الإضرار بوالدك وبك أنت أيضاً بصفتك ابنه.

tantama-jaegypt.org

وإنى أوكد لك أن أثر السحر على الإنسان يختلف من واحد إلى آخر على قدر ما فى الإنسان من قوة مضادة. ومثلنا فى ذلك اثنان يتصارعان، فالغلبة عادة للأقوى فيهما. ومثلنا فى ذلك أيضاً فى التنويم المغناطيسى. فالمنوّم لا يستطيع أن يتغلب على آخر لينومه إلا إذا كان أقوى منه، بحيث لو كان الآخر أقوى من المنوّم، أو يعارض المنوّم أو يقاومه فلا يستطيع المنوّم أن يجعله ينام. وقياساً على ذلك أقول: لو كنت وحدك أمام قوة السحر الشيطانى، ولم تكن مدرعاً ومسلحاً بأسلحة روحية قوية يمكن للسحر أن يقوى عليك. أما إذا كنت مسلحاً بالأسلحة الروحية فيمكنك بها أن تغلب، وتنتصر، فتندحر قوة السحر أمامك، تماماً كما لو ضربك أحد بسلاح من عنده وكنت أنت لابساً الدرع الواقى فسلاح خصمك أو عدوك يرتد خائباً ولن يؤذيك.

واعلم أيها الابن أن الله لم يتركنا مجردين من أسلحة روحية يمكننا بها إذا تنبهنا لها ولفاعليتها، وإذا استخدمناها الإستخدام الصحيح أن «نطفئ سهام الشرير الملتهبة ناراً» (أفسس ٦: ١٦)، وأن نصد بها كل سحر وكل رقية وكل عمل من أعمال الشيطان.

فليس عبثاً رسم الله للمؤمنين سرّ المعمودية، الذى به ندخل فى عضوية المملكة السماوية، وبه يُطرد الشيطان من أبداننا، بعد أن كان قبل المعمودية يسكن أبداننا كما يسكن صاحب البيت فى بيته، وكان من حقه وسلطانه أن يدخل بدن الإنسان وقلبه وعقله، متى شاء، ويخرج متى شاء، بإعتباره المالك للبيت. فإنه منذ أن طُرد الشيطان من السماء صار هو «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٢: ٣١)، (١٤: ٣٠)، (١٦: ١١). فلما نزل الله الكلمة إلى العالم بالتجسد، (يوحنا ١: ١٤) وأراد أن يغزو مملكة الشيطان فى هذا العالم، وينشئ لذاته ملكاً ومملكة (لوقا ١٩: ١٢) يكونها من أولئك الذين اقتنصهم الشيطان لإرادته (٢. تيموثيئوس ٢: ٢٦)، رسم المسيح لنا سرّ المعمودية (متى ٢٨: ١٩) لتكون الباب الذى ندخل منه إلى مملكة المسيح الجديدة على الأرض. واشترط للداخلين فيها وبها إعلان الإيمان بالمسيح (مرقس ١٦: ١٦) ورفض الشيطان وجحده علناً، وطرده من حياة المسيحى ومن بدنه قبل دخوله إلى جرن المعمودية. وفى مياه المعمودية تنحدر بالصلوات قوة الروح القدس لتغسل الإنسان من خطاياه السالفة (أعمال الرسل ٢٢: ١٦) فيولد الميلاد الثانى (تيطس ٣: ٥). فالميلاد الأول من الأب و الأم، والميلاد الثانى من الماء والروح القدس (يوحنا ٣: ٥)، وبعد خروج المؤمن المعمّد من جرن المعمودية يمسح المعمد على الفور بمسحة الروح القدس (١. يوحنا ٢: ٢٧)، يدهن الميرون فى ست وثلاثين موضعاً من بدنه، حتى تتحصن المنافذ التى منها يدخل الروح النجس إلى الإنسان، فيمتنع على الروح

santama jaegypt.org

النجس بعد الدهن بالميرون أن يدخل مرة أخرى إلى بدن المسيحى وجسمه، بشرط أن يعمل على صيانة الأسلحة التى لا تصدأ، وهذا يتم بممارسة العبادات من صلوات وأصوام وتأملات ومراقبة النفس ومحاسبتها، والتقرب من المائدة الربانية.

إذا حافظ المسيحى، على أسلحته وصانها بالعبادات والرياضات الروحية، فلن يمكن للسحر أو أعمال الشيطان والسحرة أن تقوى عليه، إنما ترتد أسلحة الشيطان خائبة فاشلة ..

يروى السنكسار تحت اليوم الحادى والعشرين من شهر توت القبطى خبر شاب تولع بمحبة فتاة جميلة اسمها يوستينه (أى عادلة) وكانت عذراء عفيفة نذرت نفسها وحياتها للمسيح. وحاول الشاب أن يغريها بالمال، وبغير ذلك من أساليب الإغراء ليتزوجها فلم يفلح، وهددها وتوعدها فلم ينجح. وأخيراً علم بأن هناك بمدينة أنطاكية ساحراً شهيراً يسمى كبريانوس (أى المزهر أو المشرق) يمكنه أن يلين عزيمة الفتاة بسحره، فذهب إليه، وسأله إذا كان يستطيع أن يعمل شيئاً ليميل قلب الفتاة إليه، فوعده ببلوغ مرامه، وبذل جهده بسحره فلم ينجح فقد كان كلما أرسل إلى الفتاة قوة من قوى الشيطان وجدوها واقفة تصلى، فيعودون خائبين. ولما رأى كبريانوس أنه عجز عن التأثير على الفتاة، دعا الشياطين وقال لهم: إن لم تحضروا لى يوستينه اعتنقت المسيحية، فابتكر الشيطان حيلة بأن أمر أحد جنوده أن يتزيا بزىّ يوستينه ويظهر فى صورتها ويأتيه، ثم أعلم كبريانوس مسبقاً بمجيئها، ففرح كبريانوس وظل يرقبها وإذا بالشيطان المتشبه بها قد دخل إليه، فتهلل كبريانوس ونهض ليعانقها، ومن شدة ابتهاجه بها أخذ يردد: مرحباً بسيدة النساء يوستينه. فعند ذكر اسمها فقط تبددّ الشيطان المتشبه بها، وصار كالدخان، وانحل وأمسى كلا شئ. فأيقن كبريانوس بطلان قوة السحر الأسود أمام ذكر اسم يوستينه، فقام للوقت وأحرق كتب السحر، وذهب ونال العماد من بطريرك أنطاكية ثم فى الوقت المناسب ألبسه البطريرك شكل الرهبنة ورسمه شماساً فقسيساً، وأخيراً رسموه أسقفاً على قرطاجنة فى سنة ٢٤٨م . أما القديسة يوستينه فأقاموها رئيسة على دير الراهبات هناك بأنطاكية.

وعلى ذلك فإذا كنتَ قد نلتَ فعاليات سر المعمودية، ونلتَ المسحة المقدسة بالميرون، وواظبت على الصلوات والوسائط الروحية فلن يغلبك السحر الأسود.

وإنى أذكّرك بأن خوفك من السحر ونتائجه ببعض المظاهر التى لاحظتها فى تعطيلك فى دراستك أو فى مشروع الزواج أو العمل، خلق فيك إيحاء أضعف من مقاومتك. وهكذا كان ودائماً يصنع الخوف بالإنسان.

santamaria.egypt.org
إن الخوف هو عدو آخر شرير يضر بصحة الإنسان النفسية والعصبية والبدنية، وهو الآفة العظيمة وراء جميع الأمراض النفسية.

وقالوا فى بيان أثر الخوف على الإنسان نفسياً وذهنياً وعصبياً، أن وباء أصاب بلدة ما، فمات فيها من مات بالوباء، فرأى أحد النساك العباد ملاكاً مرّ به، فسأله عن سبب مجيئه، فقال إننى أتيت لأتسلم أرواح الموتى وهم خمسة آلاف. وفى عودته من البلدة إلتقى به العابد وسأله عن عدد الذين ماتوا فقال: خمسين ألفا ... فتعجب العابد وقال للملاك: كيف للملاك أن يكذب، ألم تقل لى إنك ستقبض أرواح خمسة آلاف، فكيف تقول الآن إنهم خمسون ألفاً؟ فقال الملاك: إنهم حقاً كما قلت لك: إن الوبأ قتل خمسة آلاف، ولكن الخوف قتل خمسة وأربعين ألفاً.. انظر كتاب (عش سليماً بغير مرض ـ للدكتور إبراهيم فهيم)، (اقرأ ٤٠٥ صفحة ١٥).

لذلك فإن الخوف، فى الدائرة الروحية، يعد خطيئة، لأن الخوف ضد الإيمان، «وبدون الإيمان لا يمكن إرضاء الله» (العبرانيين ١١ : ٦) ومن هنا فإننا فى صلوات القداس تعلمنا أن نصلى قائلين «لكى بقلب طاهر .. وإيمان بلا رياء.. ورجاء ثابت، نجرؤ بدالة وبغير **خوف** أن نطلب إليك يا الله الآب القدوس السماوى..» بل ويقول الكتاب المقدس «وأما **الخائفون** وغير المؤمنين... والسحرة ... نصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذى هو الموت الثانى» (سفر الرؤيا ٢١ : ٨).

إن شدة خوفك من السحر، ونتائجه قد أضعف مقاومتك، وصار الخوف بالنسبة لك سبب إيحاء ضار. ويقول علماء النفس إن هناك من بين القوانين المؤثرة فى النفس ما يعرف بقانون (الجهد المعكوس) فالمبتدئ مثلاً فى تعلم ركوب الدراجة، متى رأى فى طريقه حجراً كبيراً، فإنه يخشى الاصطدام به.. ولما كان مبتدئاً والمبتدئ يتهدده الشعور بالخوف، فالخوف يتملكه ويحتل فكره الأمر الذى يؤدى به إلى الإصطدام بالحجر، بدلاً من الإبتعاد عنه.. وعند العوام مثل يرددونه (الذى يخاف من العفريت، يظهر له العفريت).

لذلك أقول لك أيها الابن. مادمت محصناً بالأسرار المقدسة وبالصلوات والعبادات، فلا تخف .. من السحر، فالسحر لا يقوى عليك.

وقد تكون الظواهر التى لاحظتها من حيث المعاكسات الخفية فى نتائج دراستك وفى مشروع زواجك، وفى العمل، مردها لأسباب أخرى غير السحر.. وهذه الأسباب ما أكثرها، بعضها منك، وبعضها من آخرين من الناس... وبعضها من الشيطان والأرواح المضادة، من دون سحر. ولكن علمك بأن هناك من برع فى معاكستكم بالسحر أضفى على هذه المعاكسات حجماً أكبر من

santamariaegypt.org
حجمها الحقيقى، وبدلاً من أن تبحث عن أسباب أخرى، تركز فكرك فى سبب واحد هو السحر، فصار عندك هو السبب الواحد والوحيد، مع أنه يمكن أن تكون ثمت أسباب متعددة.

والخلاصة أنك كمسيحى سلاحك ضد السحر، هو الوسائط الروحية والإيمان، وطرد الخوف، والإستغاثة بالله وبقوته.

أضف إلى ذلك استدعاء أحد شيوخ الكهنة فى منزلك ليصلى ما يعرف بصلوات تبريك البيوت (هى غير صلوات القنديل أو مسحة المرضى) ثم يرش الماء المصلى عليه فى كل غرفات المنزل لطرد الأرواح الشريرة التى قد تكون ساكنة فى البيت، ولتشرب أنت أيضاً وأهل بيتك من هذا الماء.

ولك أن تستحضر إلى بيتك من الماء المصلى عليه فى الكنيسة ومنه الماء المقدس والمدشن فى صلوات قداس اللقان (فى مناسبات عيد الغطاس - وخميس العهد - وعيد الرسل).

ولا غنى لك بعد ذلك عن صلوات المزامير فى البيت، فإنها ذات فعالية - وأخيراً كن قوى القلب لا تخف من شئ، واسمع عبارة المسيح له المجد التى كان يرددها لتلاميذه «اطمئنوا، أنا هو لا تخافوا» (متى ١٤ : ٢٧)، (مرقس ٦ : ٥٠)، (يوحنا ٦ : ٢٠) «لماذا أنتم خائفون يا قليلى الإيمان؟» (متى ٨ : ٢٦)، (مرقس ٤ : ٤٠)، وقل مع صاحب المزامير «على الله توكلت فلا أخاف» (مزمور ٥٥ : ٤، ١١) «الرب لى فلا أخاف» (مزمور ١١٧ : ٦) «الرب معين لى فلا أخاف» (العبرانيين ١٣ : ٦).

١٤ ـ ما هو اساس موضوع البسله ؟ (١)

stmarkamariaegypt.org

العزيز الإبن السيد / نصيف القمص لوقا ـ شارع البحر ـ اسنا

سلام ومحبة ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

يسرنى ردا على خطابكم المؤرخ ٦/١١/١٩٨٤ أن أجيب بالآتى:

السؤال الأول

ما هو اساس موضوع (البَسْلة) التى تُعمل على البحر ليلا أو باكرا بإيقاد بعض النار وتخطيها (والذى يخطيها هو الإنسان الذى أصابته رجفة أو خضة) ورش بعض الحبوب من القمح أو الذرة الرفيعة أو..... مع ملاحظة أنه من شروط هذه البَسْلة لا يرشم فيها علامة الصليب ولا تذكر فيها البسملة إطلاقاً. وإذا استخدمت فيها البسملة أو رشم علامة الصليب تصبح ٣) ويقول أيضاً ،وإله السلام سيسحق الشيطان تحت ولم

وسؤالى الآن ما هوأساس هذه البَسْلَة، هل هى جذور مسيحية أم فرعونية أو.... ؟

الجواب :

إن هذه البَسْلة التى تذكرونها هى إجراء سحرى، **والسحر نوع من عبادة الشيطان، ويعتبر فى كنيستنا أفظع وأبشع من عبادة الأوثان.**

ويكفى للتدليل على أن هذه البَسْلة عمل من السحر، وأنها تنتمى إلى عالم الشيطان وقواته الشريرة، أنه يشترط فيها لتكون ناجحة أو تؤدى إلى الغرض منها كما يقولون، أن الذى يتخطاها يتحتم عليه أن لا يرسم الصليب، ولا يذكر البسملة اى اسم الله أو اسم المسيح أو اسم الصليب.

هذه البَسْلة إذن طريق خاطىء، لا يسمح المسيحى السائر فى طريق السماء لنفسه أن يسلك فيه، وإلاّ كان كمن يسلّم نفسه للشيطان، وهو طريق محفوف بالمتاعب. فمن يستخدمه لابدّ أن تتعقد أموره أخيراً حتى لو رأى فى مبدأ الأمر، أنه استفاد من هذه البسلة بعض الفائدة. **إنها عمل من أعمال الشيطان. وما السحرة، العاملون بالسحر إلاّ عملاء للشيطان.**

إننا نحذر أبناء الكنيسة من هذا الطريق الخاطىء، فإنه يجر إلى عداوة الله أخيرا، وإلى الخروج من حظيرة الإيمان بالله إلى حظيرة عدو الله.

ونحن لا نعتقد أن البَسْلة من تراث مصر القديمة أو الفرعونية، وهى بالصورة التى شرحتموها فهى من تعليم الشيطان، وعملائه السحرة، وهى رجس من الشيطان.

(١) كتب فى ١٧ من نوفمبر ـ تشرين ثان لسنة ١٩٨٤م ـ ٨ من هاتور لسنة ١٧٠١ش.

santama iaegypt.org

السؤال الثانى

سمعت كثيراً وسئلت أكثر إذا كان إنسان قد نالته رجفة أو فزع من أمر ما أو منظر مرعب أو.... وكان تأثير هذه الرجفة أنه أصيب بنوبات إغماء وأحياناً يلمسه روح شرير من شدة الرجفة، فيقولون أن هذا الإنسان لو مارس سرّ التناول قبل أن يقوم بعمل قنديل بعد الرجفة، فإن سرّ التناول يثبّت هذه الرجفة، وذلك لأنه لم يقم بعمل قنديل خلال الثلاثة الأيام التالية للرجفة وخصوصاً عندما تكون شديدة ـ فكيف يكون هذا والسرّ يعطى حياة أبدية ؟

والسؤال هو : هل حقيقةً التناول يثبّت الخضة أو الرجفة؟

الجواب :

هناك إحتمال أن ينتهز الشيطان أو الأرواح النجسة فرصة الرجفة إذا كانت شديدة فينفذ إلى جسد الإنسان إذا ارتعش إرتعاشاً شديداً إهتز معه كيانه هزاً عنيفاً، لا سيما إذا لم يكن قد مسِح بعد المعمودية (إذا كان مسيحيا) بالمسحة المقدسة (وهى الميرون) فى ٣٦ ست وثلاثين موضعاً من جسده كما رسمت الكنيسة المقدسة بإرشاد وتعليم الروح القدس.

فإذا دخل فى هذا الإنسان شيطان أو روح نجس، فلا يجوز له أن يتقرب بعد ذلك من الأسرار المقدسة حتى لو طلب هو ذلك، لأن من دخل الشيطان أو الروح النجس إلى جسده يمِسى محكوماً بالشيطان فكيف يجوز له أن يتقرب إلى الأسرار المقدسة؟

ألم يقل الوحى الإلهى على فم القديس بولس الرسول: «فمن أكل من هذا الخبز أو شرب من كأس الرب بدون إستحقاق (أى لم يكن أهلاً لهما) يكون مجرما (أى مذنبا) إلى جسد الرب ودمه... فمن يأكل ويشرب بدون إستحقاق غير مميز جسد الرب يأكل ويشرب دينونة لنفسه. ولذلك فيكم كثيرون من الضعفاء والمرضى، وكثيرون يرقدون» (١ - كورنثوس ١١ : ٢٧ ـ ٣٠).

وهذا معناه أن من به شيطان أو روح نجس ويتقدم مع ذلك إلى الأسرار المقدسة، **فإنه يمِسى مجرِماً إلى جسد الرب وإلى دمه لأنه غير مستحق لهذا الشرف، لأن معه وفيه الشيطان عدو الله ـ ثم أنه بدلاً من الخير الذى يظنه له الذين يقربونه أو ينصحونه بالتقرب من الأسرار المقدسة، ينال لعنة وشراً بل ويُضرب من السرّ المقدس ضربات الغضب الإلهى فى روحه ونفسه وبدنه.**

ونعمة الرب تشملكم،،،،

١٥ ـ قوانين الكنيسة تمنع منعاً باتاً اللجوء إلى السحرة

santamariaegypt.org

الإبنة العزيزة س . م

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع، أرجو لكِ الصحة الروحية والنفسية والبدنية.

رداً على خطابك أيتها الإبنة، نقول إنه من الخطأ استدعاؤكم لشخص أراد أن يحضّر لكم (أرواح سفلية) على حد قولك، واعلمى أيتها الإبنة أنّ استحضار أرواح سفلية يتم بفعل النجاسة، وهذه خطيئة مضاعفة. لستُ أَعرف كيف سمحتم لهذا الأمر، وما هى الضرورة لذلك؟، واعلمى أنّ قوانين الكنيسة تمنع منعاً باتاً اللجوء إلى السَحرة، لأنهم عملاء للشيطان، وتعتبر اللجوء إلى السَحرة حتى بحجة إبطال الأعمال السحرية، شراً من عبادة الأوثان وهذا لا يليق أبداً بالمسيحيين.

إنّنا ننصح لكم أيتها الإبنة بإستدعاء أحد شيوخ الكهنة للصلاة فى بيتكم الصلاة التى تُعرف بصلاة (تبريك البيوت) فيصلّى الكاهن على ماء فيتقدّس الماء وينثره الكاهن عليكم وفى كل أنحاء البيت وجميع الغرفات والأنحاء، لطرد الأرواح الشريرة التى قد تكون رابضة أو ساكنة بالبيت ـ وصلاة (تبريك البيوت) يعرفها الكهنة وهى غير صلاة (مسحة المرضى). وياحبذا لو أنّ (صلاة تبريك البيوت)، يمارسها الكاهن فى بيتكم أكثر من مرة. ليكن ٣ مرات على مدى بضعة أيام.

أما أنت أيتها الإبنة، فواظبى على أداء الصلوات السبعة النهارية والليلية، ويمكن أن تكتفى بمزمور أو إثنين من كل صلاة مع بعض القطع والصلوات الأخرى موزعة على ساعات اليوم ـ ولابدّ أن تقرأى فى الكتاب المقدس إصحاحاً يومياً بإنتظام وليكن بصوت مرتفع قليلاً لتمنعى شرود ذهنك، ويحسن أن تقرأى فى بعض الكتب الروحية ولو بضع صفحات كل يوم ـ على أن تكون كتباً موثوقاً بها.

ويلزمك أيتها الإبنة أن تتقدّمى إلى سرّ التناول من المائدة الربانية **بإنتظام**، مع ممارسة التوبة اليومية، والإعتراف لله على يد الكاهن أب الإعتراف، ويكون شيخاً ولا يكون راهباً، والإستعداد للتناول بطهارة الرّوح، والفكر، والجسم.

وعند النوم، أغسلى وجهك، ولا تتأخرى عن الساعة ١١ مساء. وليكن نومك على جانبك الأيمن، وضعى يدك أو كفك تحت صدغك. وأثناء النوم رددّى فى صمتٍ صلاة قصيرة (يارب يسوع المسيح أرحمنى واحفظنى وأعنِىّ)، أو مزمور ٢٦ من صلاة باكر (الربّ نورى وخلاصى ممن أخاف).

santama iaegypt.org

وليكن فى حـــجـــرة نومك بعض الضـــوء الخـــافت ـ أى تجنّبى النوم فى الظلام الدامس ـ واحرصى على أن تنامى بعد العشاء بساعتين مثلاً، فلا تكون معدتك مكدّسة بالطعام عند النوم. ومرة أخرى ليكن نومك على جانبك اليمين مثلاً، وتجنّبى النوم على ظهرك.

ونعمة الرب تشملك،،،،

santama iaegypt.org

١٦ - إن السحر يقوى على غير المحصنين بالصلوات والأسرار

الإبنة / ن . أ

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح، أرجو لك ولشقيقتك موفور الصحة وكل التوفيق، وللأسرة جميعاً.

شكراً لك أيتها الإبنة على إهتمامك بأختك، وبأمر زواجها، على أننى لا أؤيدك فى إستنتاجك وإستنتاج الوالدة كما تقولين، أنّ تأخرها فى الزواج هو بسبب عمل سحرى. فهناك عديد من الأسباب الأخرى فى تأخر أى فتاة عن الزواج. منها ما يرجع إليها، فقد يتقدم أحد الشباب، ولا تراه هى الشخص المناسب. أو قد تؤجل هى أمر الزواج لأسباب شخصية أو عائلية، أو لعدم إستقرارها فى دراستها العلمية ثم أيضاً بسبب العمل المناسب، وبالمثل يقال بالنسبة للشاب أو الفتى، هناك عديد من الأسباب ـ ولا سيما فى زماننا الحاضر ـ تدعو الشاب إلى التردد أو التأخر أو تغيير رأيه... لماذا تتجهون إلى تعليل تأخر شقيقتك إلى السحر والعمل وما إلى ذلك؟

واعلمى أيتها الإبنة أنه إذا كان الإنسان المسيحى مُحَصَّنًا بالصوات، والتناول من الأسرار المقدسة بإستحقاق، فلا يقوى عليه السحر. إن السحر يقوى على غير المحصَّنين بالصلوات والأسرار المقدسة.

إننى أحذركم من الإلتجاء إلى السحرة، حتى ولو لفكّ العمل السحرى. إنّ السحرة هم عملاء الشيطان فى الأرض، والإلتجاء إليهم إلتجاء إلى أعداء الله. ولذلك فإن اللجوء إلى السحرة، يعد أشر من عبادة الأوثان كما تقرر القوانين الكنسية.

إنّ ما ننصح به هو إستدعاء الكاهن فى البيت ليصلى صلاة (تبريك البيوت) وصلاة تبريك البيوت هى غير صلاة القنديل. فيصلى الكاهن على وعاء من الماء ـ صلاة تبريك البيوت، وبعد تقديس المياه يرشها على أعضاء الأسرة، ويرش الماء أيضاً فى كل الحجرات. هذه الصلاة ذات فعالية ضد الشيطان وأعمال السحر. فهى صلاة طاردة للأرواح الشريرة التى قد تكون ساكنة فى البيت، ومُبطِلة للسحر ـ والأعمال السحرية..

ويمكن بل يَحْسُن أن تُمارَس صلاة تبريك البيوت، أكثر من مرة على مدد متقاربة أو متباعدة..

santama iaegypt.org

هذا إلى جانب الصلاة على رأس كل أعضاء الأسرة.

إنّ الإحتماء بالله وبوسائط الخلاص فى الكنيسة هى سلاح المسيحيين ضد أعمال الشياطين ومنها أعمال السحر وما إليها.

وأخيراً نصلّى وندعو للإبنة شقيقتك بالتوفيق فى زواج سعيد، يسعدها ويسعد بها أيضاً من يتزوجها لتكوين أسرة مسيحية مثالية.

ونعمة الرب تشملكم،،،،

١٧ - لا تنزعج من فعل السحر(١)

الإبن العزيز فى المسيح خ. ع - أبو تيج

سلام ومحبة وبركة -

لا تنزعج كثيراً من جهة العمل السحرى ولا تقلق. إنه يمكن أن يضعف شيئاً فشيئاً ثم يبطل. إنك بمفردك يمكن أن يقوى عليك العمل السحرى، إنما إذا كنت محصّناً بوسائط الخلاص فإنه يضعف أمامك لأنك لست وحدك.

صلِ أنت أولاً - ثم استدعِ أحد الكهنة يصلى على رؤوسكم، ويصلّى على ماء، وترشونه فى أنحاء البيت، واحملوا أيضاً إلى البيت من ماء (اللقان) الذى تدشّن فى خميس العهد لأن فيه قوة ضد كل سحر وكل عمل شيطانى.

ثمّ إذا لم تكن هناك خطيئة مانعة تقدموا إلى المائدة الربانية.

بهذا كله تغلبون قوة الشيطان وقوة السحر. لا تقلق. كل مشكلة لها حل. والمشكلات الروحية تحل بالحلول الروحانية.

ونحن نصلّى من أجلكم، ونطلب بركة الرب عليكم وأن يسحق قوة الشيطان تحت أقدامكم

الرب معكم،،، ونعمته تشملكم،،،

١٨ ـ السحر يُبطل بالصلوات المقدّسة (١)

الأبن خ.ع.ـ أبو تيج.

سلام ومحبة وبركة

لا تخف من السحر. فإنك بالصلوات وممارسة الأسرار المقدسة يمكنك أن تبطل قوته، صلواتكم أنتم، وصلوات الكنيسة، والكهنة.

خذ ماء مصلّى عليه فى الكنيسة، ويحسن أن يكون حاضراً أثناء القداس، ورشه فى بيتك، وأشرب منه، واغتسل به ـ فالسحر يبطل بنعمة الله.

واطلب أحد شيوخ الكهنة يصلّى فى بيتك على ماء صوات تبريك البيوت، ويرشه فى البيت، فيبطل عمل السحر بقوة الله.

حماكم الله منه، الرب يارككم ويدفع عنكم كل شر، ويبطل كل أعمال الشيطان،،،

١٩ ـ أحذرك من إستخدام كتاب (١)
«دلاد الدلال»

الإبن العزيز ع. س. ح ـ ميت يعيش ـ ميت غمر

سلام ومحبة ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

رداً على سؤالكم الوارد فى خطابكم بخصوص كتاب «دلال الدلال للمزامير الكبار» وما قيل لكم من أنه يمكن عن طريق هذا الكتاب تحضير خدّام واستخدامهم للإضرار بأشخاص وإيذائهم ممن يشاء الإنسان أن يصيبهم بضرر، أو تحقيق طلب يريده لنفسه.

أفيد بأنه من الخطورة الكبيرة إستخدام هذا الكتاب ـ حتى لو كان ذلك بتلاوة المزامير ـ لتحضير خدّام وإستخدامهم لتحقيق رغبة فى الإيذاء أو النفع، فإن إستخدام مثل هذه الوسائط يتيح فرصة للشيطان وجنوده أن يظهروا لهذا الشخص، ويوهموه أنهم ملائكة أخيار.

قلت إن هذا الطريق خطر جداً، ويفتح هوة سحيقة للضلال والإضلال والتعامل مع الأرواح الشريرة المنخفضة والدخول فى علاقات معها ـ ويتحول هذا الإنسان إلى عميل من عملاء الشيطان وكل جنوده.

إنه لا يجوز لنا أن نصلّى بنيّة ظهور ملاك أو خادم لنستعمله فى خدمة أغراضنا. إننا بالصلاة نستغيث بالله وبملائكته وقديسيه، دون أن يكون ذلك بهدف ظهور خادم أو ملاك. فإن مجرد وجود هذه النيّة تتلف الصلاة وتحولّها من إستغاثة بالله والأرواح العالية إلى إستعانة بالأرواح المضلّة والساقطة والمنخفضة لنحقق عن طريقها مقاصد معيّنة.

إن الصلاة لله المقصود منها دعم الصلة بين الإنسان وخالقه، والإستغاثة به فى طلب معونته تعالى، ولكننا نترك لله أن يستجيب حسب مشيئته بما يراه فى محكم تدبيره مناسياً ونافعاً لنا، مما يتفق مع إرادته الصالحة لخيرنا وخير جميع الناس.

إننى أحذرك أيها الإبن من أن تدخل فى طريق دلال الدلال وما إلى ذلك، ومن تحضير الخدام، فإنهم عادة خدّام من مستويات منخفضة. إن الخدام والملائكة الصالحين «أرواح مرسلة للعتيدين أن يرثوا الخلاص» وهم لا يأتون إلاّ فى حدود إختصاصاتهم المكلفين بها كخدام لملك الملوك، إنما الخدام القديسون لا يأتمرون بأمر البشر. واذكر قول الوحى الإلهى «وأرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء» (١. كورنثوس ١٤: ٣٢) أى أن الأرواح المقدسة لا تخضع إلاّ لمن يفوقها، وبناء عليه تخضع لأمره.

---

(١) كتب فى ١٩ يونية ١٩٨٤م ـ ١٢ بؤونه ١٧٠٠ ش.

أما نحن فمسموح لنا أن نستغيث بالله وملائكته. ولكن ما أبعد الفرق بين الإستغاثة وبين التحضير. الإستغاثة تكون من الصغير نحو الكبير. أما التحضير فيكون من الكبير للصغير. وعلى ذلك فمن يطلب ظهور خادم ليحقق له مقاصده، فلابدّ أن يكون هذا الخادم أقل من مستوى الطالب حتى إِنه يأتمر بأمره وطبعاً لا يكون أقل من مستوى الطالب إلاّ روح شرير أو روح منخفض.

لهذا أرجو أن تُطلّق هذا الفكر طلاقاً بائناً. ولا تسمح لنفسك أن تدخل فى هذا المضمار، فإِنه يفتح لك ميدان تجارب شيطانية أنت فى غنى عنها.

ثم نحن لا نطلب كمسيحيين شراً أو إِيذاء لأحد. إِننا نطلب الخير لكل أحد.

وعلى وجه العموم، إِذا كان لنا طلب، نضعه أمام الله، ونترك لله أن يستجيب بما يراه حسب مشيئته.

ونعمة الرب تشملكم،،،،

٢٠ - إستعمال البخور فى المنازل(١)

العزيز الإبن/ نبيل عزيز عطا الله

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

رداً على سؤالكم عن إستعمال البخور فى المنازل نقول إنّ الكاهن يستخدم البخور فى صلوات مسحة المرضى، صلوات القنديل فى المنزل، وهذا أمر طبيعي ومقبول، لأنه ضرب من العبادة لله، وملازم للصلاة.

ولما كان السحرة يستخدمون البخور فى المنازل إرضاءً للشياطين، وتعبداً وإسترضاءً لهم، وإستجلاباً لمعوناتهم.

لذلك لا يَستَحِبُّ الأقباط منذ القديم أن يستخدم الذين لا يحملون إحدى الدرجات الكهنوتية، تصعيد البخور فى المنازل، توقياً من تدخلات الشياطين والأرواح النجسة الذين يتطلبون حرق البخور، تعبداً للشياطين وتحضيراً لهم فى الأعمال السحرية، لأنّ السحرة هم عملاء للشياطين فى الأرض.

لذلك، وتحسباً للخلط بين التبخير لله، والتبخير للشيطان، وتوقيا من حضور الشياطين والأرواح النجسة، يُكتفى بأن يقصر تصعيد البخور فى المنازل لأصحاب الدرجات الكهنوتية، كما هو الحال فى ممارسة سرّ مسحة المرضى، القنديل، وما إليه من الخدمات الروحية الكنسية التى يمارسها أصحاب الدرجات الكهنوتية. وهذا أسلم عاقبة وأكثر ضماناً.

٢١ ـ السبب فى متاعبك من معاكسات الأرواح الشريرة (١)

العزيز الشاب / ج . ت .

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

قرأت خطابك الذى يعبر عن متاعبك من معاكسات الأرواح الشريرة.

ويبدو لنا أنه ربما يكون السبب المباشر فى هذه المتاعب أنك إستسلمت وقتاً ما للأفكار الشيطانية والحروب الجنسية، فطمعت فيك تلك الأرواح النجسة، وأرادت أن تنشيء علاقة معك. لقد سمحت لفكرك وقلبك أن يجتر كثيراً هذه الأفكار، لذلك تسلطت عليك أشباح من أرواح منخفضة. وإن لجوءك إلى السحرة بقصد طردها، يجعلك تحت سلطانها حتى لو لم يظهر ذلك. ونصيحتى إليك:

(١) أن تهرب من المثيرات، والتفكير فى الجنس وكل ما يهيج جهازك التناسلى.

(٢) أن ترش البيت ولا سيما حجرة النوم بماء مصلى عليه.

(٣) أن يكون هناك ترتيل فى البيت. فالألحان الكنسية والمدائح والأنغام الروحانية تنعش النفس، وتطرد الأرواح الشريرة.

(٤) أن تستشفع بالعذراء وبالشهداء من أمثال الشهيد مارجرجس، ومارمينا العجائبى، فيكونوا فى عونك، ويطردون عنك الشياطين والأرواح النجسة.

(٥) كن ثابتاً، لا تتزعزع، ولا تخف.

ونعمة الرب تشملك،،،

٢٢ ـ حرب من العالم السفلى

سؤال : من السيد ج.ت.ى

يقول أنه طالب بالثانوية العامة وقد رسب فى العام الماضى، ومتاعبه بدأت منذ أربع سنوات. فقد كان يسير فى الطريق، فأحس بيد ضربته ثلاث ضربات ولكنه لم يبصر احداً، ومضت سنتان على هذه الواقعة وفى السنة الثالثة بدأ يحس وهو نائم ليلاً بإنسانة تضغط على حنجرته وتسبب له مضايقات كثيرة، فينهض من نومه صارخاً صراخاً عالياً فيستيقظ على صراخه أهل بيته. وينهضوا مذعورين، مما أوقعه فى حرج كبير.

وقد تطورت هذه الحالة، حتى صار يعانى من ضغط هذه الإنسانة على جسمه وهو مستيقظ، وفى كامل وعيه، ولا تختفى عنه إلاّ عندما يصرخ مستغيثاً بأهل بيته.

ومرة رأى نفسه وقد نزل إلى ما تحت الأرض وأبصر ثلاث بنات أخذن يغرينه على البقاء معهن تحت الأرض، وهن يرينه مبانى كثيرة، ويقلن له أن بقاءك معنا أفضل لك ، وأتفقن معاً على إثارته ليخطىء معهن، فرفض أن يصنع هذا الشر العظيم. وفى إحدى الليالى شعر بإحداهن تجاوره فى الفراش، ونهض من فراشه فى حالة عجز عن النطق والكلام، ومتاعب أخرى كثيرة مماثلة. وقد لجأ إلى بعض السحرة للخلاص من هذا العذاب فعملوا له حجاباً، ولكنه لم يستفد شيئاً، ثم يقول : إنى أسأل أن تعينونى برأيكم وتنصحونى بما أصنع؟

الجواب :

قرأت خطابك الذى يعبر عن متاعبك من معاكسات الأرواح الشريرة.

ويبدو لنا أنه ربما يكون السبب المباشر فى هذه المتاعب إنك استسلمت وقتاً ما للأفكار الشيطانية والحروب الجنسية، فطمعت فيك تلك الأرواح النجسة، وأرادت أن تنشىء علاقة معك. لقد سمحت لفكرك وقلبك أن يجتر كثيراً هذه الأفكار، لذلك تسلطت عليك أشباح من أرواح منخفضة، وأن لجوءك إلى السحرة بقصد طردها، يجعلك تحت سلطانها حتى لو لم يظهر لك ذلك. ونصيحتى إليك:

(١) أن تهرب من المثيرات، والتفكير فى الجنس وكل ما يهيج جهازك التناسلى

(٢) أن ترش البيت ولا سيما حجرة النوم بماء مصلى عليه

(٣) أن يكون هناك ترتيل فى البيت. فالألحان الكنسية والمدائح والأنغام الروحانية تنعش النفس، وتطرد الأرواح الشريرة.

(٤) أن تستشفع بالعذراء وبالشهداء من أمثال الشهيد مارجرجس، ومارمينا العجائبى، فيكونوا فى عونك، ويطردوا عنك الشياطين والأرواح النجسة.

(٥) كن ثابتاً، لا تتزعزع، ولا تخف.

ونعمة الرب تشملك.

٢٣ ـ نحذركم من الذهاب إلى السحرة

الأبن / م. ج. ص. بنى مزار

سلام ونعمة من ربنا يسوع المسيح.

بخصوص الأخ المريض، والذى قيل لكم فيه أنه قد لبسه روح شرير، وقد عرضتموه على أطباء نفسيين على قولكم، يحتاج الآن إلى مواصلة الصلاة عليه من كهنة شيوخ، صلوات طويلة ـ وإياكم أن تلجأوا إلى السحرة، فإنهم عملاء الشيطان، ولا إلى أشخاص عاديين من المسيحيين أو غيرهم. إنما **الكهنة وحدهم** فإنَّ المسيح له المجد وهب هذا السلطان **للكهنة** المزوّدين بسرّ الكهنوت.

قال الإنجيل «ثم دعا تلاميذه الإثنى عشر **وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجِسة حتى يُخرجوها ويشفوا كلَّ مرضٍ وكل ضُعف**» (متى ١٠: ١)، (مرقس ٣: ١٥)، (مرقس ٦: ٧)، (لوقا ٩: ١).

واعلم أيها الإبن أن بعض الأرواح الشريرة عنيدة ومتمردة ولكن لا تيأسوا، الأمر يحتاج إلى مواصلة الصلاة مرات ومرات بلا يأس.

إنما نُحذِّركم من الذهاب إلى السحرة، أو إلى غير الكهنة الشيوخ المتعبّدين.

ونعمة الرب تشملكم جميعاً،،،،

٢٤ - حقيقة الشبح الأسود

سؤال من الآنسة ع. ن. ب.

تقول أنه قبيل وفاة الأب ببضع ساعات رأت إبنته وهى تستذكر دروسها فى نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل، شبحاً أسود يدور وراءها، وكلما إلتفتت نحوه يختفى، ولكن ظل الشبح يدور وراءها مما أفزعها جداً، فنهضت تصلى وتبكى فى صلاتها، وتولاها شعور غريب وكانت خائفة وأعادت الصلاة بين الحين والحين حتى الساعة السادسة والنصف، وإختفى الشبح بعد ذلك ولم تعد إلى رؤيته. ولكن والدها توفى بعد بضع ساعات . فهى تسأل عن هذا الشبح الأسود وهل هو ملاك الموت، أم هو روح شرير؟ ولماذا ظهر فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، ولماذا إختفى بعد الصلاة علماً بأن والدها كما تقول رجل تقى يخاف الله، ولقد رآه أفراد أسرته بعد وفاته فى مناظر سعيدة منيرة تدل على أن مصيره سعيد بين أرواح القديسين؟

الجواب :

الشبح الأسود الذى رأته الأبنه يدور حولها ليس له علاقة بالأب. فالأب كما وصفته إبنته، وكما اتضح من الرؤى والمناظر المنيرة السعيدة التى رآه فيها أفراد أسرته، كان من الأتقياء، وقد استراح بوفاته، ومضى إلى مواضع النياح والراحة التى للأبرار والصديقين.

أما الشبح الأسود والذى طردته الصلاة فقد يكون روحاً شريرة لم تجد لها سبيلاً عند الأب القديس، فحامت حول الإبنة لعلها تجد طريقها إليها. ولكن الإبنة نهضت وصلّت عددا من المرات، واستعانت بالسماء فلم يجد الروح الشرير مفرا له إلا بالهرب. يقول الوحى الإلهى «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو. فقاوموه راسخين فى الإيمان» (١ . بطرس ٥: ٨ ، ٩) .

اطمئنى أيتها الإبنة فإن الروح الشرير لا مجال له عند الأبرار والقديسين. لقد خرج ولم يؤذك بشر، وهذا دليل على أنه لا قوة له على المفديين بدم المسيح الذين يحاربونه ويغلبونه بدم الحمل وبكلمة شهادتهم (سفر الرؤيا ١٢ : ١١) . ويقول الوحى الإلهى : «ولكننا فى هذه جميعها يعظم إنتصارنا بالذى أحبنا» . (رومية ٨ : ٣٧) ويقول أيضاً «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً» (رومية ١٦ : ٢٠) .

٢٥ ـ حقيقة ما يقال عن (المخاوين للشياطين)(١)

العزيز المعلّم ج. ى.

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح

رداً على خطابكم المؤرخ ٤ من يناير لسنة ١٩٨٦ واستفساركم عن حقيقة ما يقال عن (المخاوين للشياطين) وما يزعمونه من العلاقات الجنسية التى يرتبط بها بعض الناس من الرجال والنساء.

الجواب :

إن التعليل لهذه الظاهرة فى حياة عدد من الناس، فيرجع فيما نعلم إلى خيالات شيطانية، سفلية.

والخيالات الشيطانية، هى التى يشار إليها أحياناً فى الكتب الكنسية: ففى تحليل صلاة نصف الليل للكهنة يرد القول:

(أبطل عنا يارب، وعن سائر شعبك، كل الأحلام **والخيالات والهواجس الشيطانية**)

وفى تحليل صلاة الغروب من صلوات الساعات (الأجبية) يقول المصلّى (... ونجنا من حيل المضاد، وأبطل سائر فخاخة المنصوبة لنا. وهب لنا فى هذه الليلة المقبلة سلامة بغير ألم ولا قلق ولا تعب، **ولا خيال**، لنجتازها أيضاً بسلام **وعفاف**).

جاء فى سفر إشعياء النبى (ويكون صوتك **كخيال من الأرض** ويشقشق قولك من التراب) (إشعياء ٢٩ : ٤).

وجاء فى سفر أيوب قوله (**الأخيلة ترتعد من تحت المياه وسكانها**) (أيوب ٢٦ : ٥).

وفى سفر المزامير (أفلعلك للأموات تصنع عجائب أم **الأخيلة تقوم تمجدك**) (مزمور ٨٨ : ١٠).

وفى سفر الأمثال يتحدث عن المرأة الأجنبية وهى المرأة التى لا يحل للرجل معاشرتها (لأن بيتها يسوخ إلى الموت وسبلها **إلى الأخيلة**) (الأمثال ٢ : ١٨).

(المياه المسروقة حلوة، وخبز الخفية لذيذ. ولا يعلم أن **الأخيلة** هناك، **وأن ندماءها فى أعماق الجحيم**) (الأمثال ٩ : ١٨).

(**الرجل الضال عن طريق المعرفة يسكن بين جماعة الأخيلة**) (الأمثال ٢١ : ١٦)

---

(١) كتب فى ٢٦ من فبراير ١٩٨٦ م ـ ١٩ من أمشير ١٧٠٢ ش.

وجاء فى سفر الحكمة (وإذ حسبوا أنهم مستترون فى **خطاياهم الخفية**.. وهم فى رعب شديد **تقلقهم الأخيلة**) (الحكمة ١٧ : ٣).

«فالذين ناموا تلك النومة فى ذلك الليل الذى لا يطاق الوارد من أخادير الجحيم الفظيعة، كانوا تارة تقتحمهم **الأخيلة** وتارة تنحل قواهم من إنخلاع قلوبهم لما غشيهم» (الحكمة ١٧ : ١٣، ١٤).

(حينئذ بلبلتهم بغتة **أخيلة** الأحلام بلبلة شديدة وغشيتهم أهوال مفاجئة) (الحكمة ١٨ : ١٧). (الجحيم من أسفل مهتزة لك، لإستقبال قدومك، منهضة لك **الأخيلة** جميعَ فحول الأرض) (إشعياء ١٤ : ٩).

(هم أموات لا يحيون. **أخيلة** لا تقوم، لذلك عاقبت وأهلكتهم وأبدت كل ذكرهم) (إشعياء ٢٦ : ١٤).

(تحيا أمواتك تقوم الجثث. استيقظوا ترنموا يا سكان التراب، لأن طلك طل أعشاب، والأرض **تُسقِطُ الأخيلة**) (إشعياء ٢٦ : ١٩).

وإذن فهناك الأخيلة، والأخيلة جمع خيال فما هى الأخيلة؟:

هى أشباح تظهر للإنسان بأشكال كائنات تتعامل معه بحيث يراها بعينيه ويسمع صوتها بأذنيه، وقد تلمسه ويلمسها ويحس بها إحساساً شبيهاً بإحساسه بالكائنات ذات الكيان المادى الملموس، وقد لا يستطيع أن يتبين أنها أشباح أو خيالات إلاّ عندما تختفى أشكالها من أمام عينيه فجأة.

والأشباح أيضاً هى أشكال لأشخاص تُعرف وتُنظر بالعين ممدودة طولاً وعرضاً.

ولقد روى الإنجيل عن السيد المسيح له المجد أنه عندما ذهب إلى تلاميذه فى السفينة فى الهزيع الرابع من الليل (فلما رآه تلاميذه ماشياً على البحر اضطربوا قائلين: **إنه شبح**، وصرخوا من الخوف) (متى ١٤ : ٢٥، ٢٦)، (مرقس ٦ : ٤٨، ٤٩) أنظر أيضاً وإقرأ (لوقا ٢٤ : ٣٦ - ٣٩).

هذه الخيالات والأشباح، منها الخيّر ومنها الشرير. فالملائكة القديسون يظهرون أحياناً للناس فى أشكال جسمانية ليبلغوهم رسالة من السماء كمثل ما ظهر الملاك جبرائيل لزكريا الكاهن (قائماً على يمين مذبح البخور فى الهيكل، فاضطرب زكريا حين رآه واستولى عليه الخوف) (لوقا ١ : ١١، ١٢).

وكمثل ما ظهر الملاك جبرائيل للعذراء القديسة مريم ودخل إليها حيث هى. ودخوله إليها يشرح الصورة الجسمية التى ظهر بها الملاك مع أنه فى طبيعته روح. يقول الإنجيل (فدخل الملاك إليها، وقال لها (السلام لك أيتها الممتلئة نعمة... فلما رأته إضطربت من قوله.... فقال الملاك لها: لا تخافى يا مريم...) (لوقا ١: ٣٦ ـ ٣٨).

وكمثل ما ظهر الرب لإبراهيم الخليل فى شكل إنسان عند بلوطات ممرا (التكوين ١٨: ١) ومعه الملاكان. وأما الملاكان فبعد ذلك ذهبا إِلى لوط فى سدوم، ونزلا عنده ضيفين فى هيئة رجلين (التكوين ١٩: ١ ـ ٣).

كذلك الشياطين يمكن أن تظهر بهيئة جسمية للإنسان، فيراها ويسمع صوتها، وقد تجرؤ عليه فتلمسه.

قال الرسول بولس (الشيطان نفسه يغير شكله إِلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خدّامه أيضاً يغيرون شكلهم) (٢. كورنثوس ١١: ١٤).

وفى تاريخ الرهبنة، وتاريخ الكنيسة، وسير الآباء الروحانيين، كثير من هذه الظهورات الشيطانية والخيالات التى تظهر لهم فى أشكال جسمية يرونها بعيونهم ويسمعونها بآذانهم، وأحياناً تلمسهم وقد تلطمهم كما قال القديس بولس الرسول صراحة (ملاك الشيطان ليلطمنى) (٢. كورنثوس ١٢: ٧).

كما نقرأ فى سيرة القديس أنطونيوس، كما كتبها القديس أثناسيوس الرسولى، كيف أن الشياطين والأرواح النجسة كانت تحاربه وتزأر عليه وتضربه، كما كانت تظهر له تحاربه فى هيئة إمرأة.

فمن يدعونهم بـ (المخاوين للشياطين) هم قوم باعوا أنفسهم للشيطان وجنوده، وأسلموا أنفسهم بإرادتهم لإرادته، إشباعاً لشهواتهم وإنسياقاً لهواهم، وتصادقوا معه ليحققوا رغباتهم الجسدية، فليس مستبعداً أن يظهر لهم هو وجنوده فى خيالات وأشكال جسمانية، فتظهر للرجل فى هيئة إمرأة، وللمرأة فى هيئة رجل.

وإن أى إنسان يمكنه بتخيلاته الخاصة، إذا كان شهوانياً بالفكر والقلب، أن يعيش وقتا ما، فيما يسمونه بأحلام اليقظة، ويمارس الجنس بالفكر والقلب والبدن، تماماً كما يمارسه فى الواقع المادى سواء بسواء.

ونعمة الرب تشملكم،،،،

٢٦ ـ صور أشخاص تطارده

سؤال من السيد / ع. ح.ح

رداً على خطابكم غير المؤرخ بتاريخ بخصوص ما يتصور لكم من أشخاص يطاردونك، وأفكار تشد إنتباهك بعيداً عن دراستك.

نجيب بأن هذه الحالة قد تكون نتيجة لشعورك بالألم النفسى الشديد عندما أصيب شقيقك بمرض، فيبدو أن شعورك إندمج معه فى عمق، وشاركته فيه مشاركة غاصت إلى أعماق وجدانك فتولاك الفزع الشديد عليه، وإنتقل ذلك إليك بفاعلية الإندماج الذى إندمجته معه، فصار فيك فزع أيضاً على نفسك أن يحدث لك ما حدث له، وربما اهتزت نفسك إهتزازاً شديداً بهذا الخوف، وتأثرت به أعصابك، وصار الخوف يتمثل لك فى صور أشخاص يتعقبونك ويطاردونك، وترتب على ذلك أن صار إنتباهك مشدوداً بسبب هذه المخاوف، فابتعدت عن مراجعة دروسك.

وقد كان من الخطأ الجسيم لجوؤك إلى السحرة فنحن المسيحيين يحرم علينا التعامل مع السحرة أعداء الله، وهم عملاء الشيطان، ولسوف ينكشف لك أن هذا الطريق محفوف بالمخاطر والمتاعب.

ونصيحتى إليك :

أولاً ـ أن تستغفر الله على خطيئة إلتجائك إلى السحرة، وهم عملة الشيطان، وأن تقاطع السحرة مقاطعة تامة.

ثانياً ـ أن تصلّى إلى الله وتطلب معونته، وأن تعترف بخطاياك إلى الله على يد كاهن تتخذه أميناً لأسرارك، وطبيباً لك تكشف له نفسك، ولا تمنع عنه دواخل ذاتك وتتقدم حسب إرشاده إلى سرّ التناول.

ثالثاً ـ أن توقد فى حجرة نومك قنديلاً أو ما أشبه، فلا تنام فى الظلام.

رابعاً ـ استدع أحد الكهنة ليقيم لكم صلاة فى البيت، ويرش البيت كله، جميع حجراته بالماء المصلّى عليه، وذلك لطرد ما عساه أن يكون فى البيت من أرواح نجسة .

خامساً ـ اطلب من بعض الكهنة أن يصلّى على رأسك صلوات من وقت إلى آخر. فالصلاة نافعة لتهدئة النفس والأعصاب. وكثيرون من علماء النفس يعتبرونها أفضل علاج للأمراض النفسية.

سادساً ـ باشر الترنيم والترتيل بنفسك. فللألحان الروحية فعاليات لتهدئة النفس وتسكين الأعصاب الثائرة، وطرد الشياطين والأرواح الشريرة، وجذب الأرواح الملائكية والأرواح المقدسة.

سابعاً ـ ردد بين وقت وآخر كلما شعرت بالخوف المزمور ٢٦ «الرب نورى وخلاصى ممن أخاف الرب عاضد حياتى ممن أجزع...» والمزمور ٩٠ «الساكن فى عون العلى يستريح فى ظل إله السماء...»

٢٧ ـ هذه المتاعب من معاكسات الأرواح الشريرة

سؤال من السيد / ص . أ . ص

يقول : إنى أعانى من ظاهرة غريبة، بدأت عندى بإحساس يخامره الشك فى أن الآخرين يقرأون أفكارى، ثم تطور الأمر إلى أننى صرت أسمع فى غرفة نومى أصواتاً تنطق أحياناً بأغانى مبتذلة وكلمات بذيئة. ويصحب هذا إحساس بتيار كهربائى ضعيف يبدأ من عند قدمى وينتقل شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى الحنجرة، فأحس بعد ذلك بإختناق وبقبضة على الحبال الصوتية ويتحكم فيها بالضم والفصل، وتطور الحال معى فصرت أسمع أصواتاً من خلال حنجرتى وعن طريق استخدام حبالى الصوتية. فأرى بنفسى واسمع أصواتا تتكلم من حنجرتى بينما أنا صامت ساكن، ويحدث لى أحياناً شلل فى المخ ومراكز التفكير، وأسمع أحياناً تهديدات وإنذارات وتوعدات بتدمير حياتى ـ ثم إنتقلت إلى حال جديد فصرت أرى على الحائط، وفى فضاء الحجرة أفلاماً ملّونة ـ وبلغ الأمر بى أن صارت الأصوات تتكلم على لسانى، ومن غير إرادتى، كلاماً سبب لى متاعب وأوقفنى مواقف محرجة مع رؤسائى ومع شخصيات أخرى محترمة، والواقع إنى فى عذاب وآلام، أحس أحياناً بألآم فى الزور ـ وضغط على القفص الصدرى ومنطقة البطن وجميع مفاصلى، فإذا بمفاصلى تتفكك وأعصابى ترتجف لساعات. وأسمع فى أذنّى ثرثرة وشوشرة متواصلة بالليل والنهار. ولقد تدهورت صحتى وأمسيت غير قادر على النوم ولا على تركيز الإنتباه والتفكير، ولا على التذكر، إنى الآن أرجو رحمة الله علىّ، وأطلب المشورة وحلاً لمشكلتى التى تعقدت وساءت بسببها صحتى حتى صرت مثل هيكل عظمى، كما إنى فقدت فرص العمل وصرت أيضاً فى ضنك شديد على الرغم من دراساتى فى مصر وفى الخارج مدة تزيد على العشرين عاماً.

الجواب :

لقد قرأنا خطابك بإمعان، وتأثرنا بالغ التأثر لآلامك. ويبدو لنا:

أولاً ـ أن هذه الآلام حقيقية، ولست مبالغاً فيها، وهى ليست فى أكثرها أوهاماً. لكننا نعزوها إلى معاكسات ومحاربات من الشياطين والأرواح النجسة.

ثانياً ـ ربما أن تكون أنت فى وقت ما قد تعاملت بصورة ما مع هذه الأرواح الشريرة، بقصد ساذج أو بقصد الاضرار، ولربما دخلت فى تجربة مع السحر والسحرة، أو مع العرافة والعرافين وكلّهم عملة مع الشياطين والأرواح النجسة والشريرة، وقد تكون قد أقحمت ذاتك فى هذه الدائرة سواء بقصد الدراسة أو بالإشتراك مع غيرك من هواة هذا الطريق المؤدى إلى الهلاك... ويكون

هذا هو السرّ الحقيقى وراء متاعبك، إنك أعطيت سبيلاً للأرواح الشريرة أن تجرؤ عليك وأن تسيطر على فكرك وبالتالى على جسدك.

ثالثاً ـ ربما أن تكون أنتِ قد استهواك هذا الطريق وإستمرأته وسمحت لنفسك أن تمتد فيه ـ ولو بالفكر ـ وحتى تصل إلى نتيجة ما وقد يكون إنك استملحت ذلك الطريق، ورغبت فيه، أو إقتنعت به على الأقل، وقد يكون غمرك به إحساس سار بأنك توصلت إلى كشف جديد، أو حصلت على موهبة خاصة غير عادية، بدت لك أنها موهبة نافعة، إذا صقلتها وأنميتها بلغت بك مرحلة يمكنك فيها أن تعرف أمور غيرك، وتستطيع أيضاً التأثير فيهم والتغلب عليهم.

إننا هنا نذكر لك بعض الإحتمالات ونترك لك مراجعة نفسك لعلك تقف بنفسك على الأسباب الجذرية التى جعلت هذه الأرواح الشريرة والنجسة تتجاسر عليك، وتستغلك، وتسيطر على فكرك ثم على جسدك.

والمعروف عند الخبراء الروحانيين أن الشياطين والقوات الشريرة، تجول حولنا وتحاول أن تنال منا، ولكن الكتاب المقدس ينبهنا قائلاً: «أصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو. فقاوموه راسخين فى الإيمان، عالمين أن نفس هذه الآلام تجرى على إخوتكم الذين فى العالم» (١ . بطرس ٥ : ٨، ٩) ويقول الوحى الإلهى أيضاً «فإخضعوا إذن لله، وقاوموا إبليس فيهرب منكم. اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم. طهروا أيديكم أيها الخطأة ونقوا قلوبكم يا ذوى الرأيين» (يعقوب ٤ : ٧، ٨) ويقول كذلك «استمع فأخبرك من هم الذين يستطيع الشيطان أن يقوى عليهم... الذين ... يتفرغون لشهوتهم كالفرس والبغل اللذين لا فهم لهما، أولئك للشيطان عليهم سلطان» (طوبيا ٦ : ١٦ ، ١٧) .

رابعاً ـ اعلم أن لكل داء دواء، ولكل مرض علاجاً، ولكل مشكلة حلاً. وثق تماماً أن لمشكلتك حلاً، بعضه على الأقل فى يدك أنت.

إن مشكلتك كما يبدو من تفاصيل خطابك، جذورها روحية قبل أن تكون عصبية أو عقلية. وكثيراً ما تكون الأمراض العصبية والعقلية متسببة عن أمراض روحية سابقة. والإنسان روح قبل أن يكون جسداً، أو هو روح ساكنة فى جسد. فإذا مرضت الروح مرض الجسد تبعاً لها. ومع مرض الروح يمرض الذهن وتمرض الأعصاب ويمرض كل كيان الإنسان.

قد يقال لك أنك مريض فى أعصابك، وأن علاجك هو فى الصدمات الكهربائية فى المخ، أو فى حبوب مهدئة مخدرة... ولكننا نعتقد أن وراء هذا كله مرضاً روحياً، والمرض الروحى لا تفيده الصدمات الكهربائية، ولا تقضى عليه الحبوب المهدئة والمنومة، والمخدرة، وهذه كما

يقول علماء الطب لها أخطارها على القلب فضلاً عن أنها ليست علاجاً جذرياً... المرض الروحى يظل صامدا متمنعاً ما لم تشف الروح أولاً...

وشفاء الروح والنفس هو بتصحيح مسارها، وذلك يكون بإعلان توبة صادقة بإيمان من القلب، ومرارة فى الروح ، وعزم صادق على تصحيح المسار، وأن يبدأ الإنسان فى طريق الخلاص.

لذلك أنصح لك أيها العزيز بأن تطرح نفسك أولاً أمام الله، وتطلب منه العفو والخلاص، وأن تختلى بنفسك، تراجع حياتك، وتحاسب ذاتك، وتحاكمها، وتعرف أخطاءك وخطاياك.

ثم بعد هذا ابحث عن كاهن شيخ وقديس، اكشف له ذاتك وإعترف للرب وإليه، بكل ماضيك، تقيأ ماضيك تسترح، واعلم أن الإعتراف على يد الكاهن برهان على صدق توبتك، وأنك حقاً تريد الخلاص. والإعتراف السليم هو شكوى النفس من النفس... لا تشكو غيرك، وإنما عليك أن تشكو نفسك، ولا تبرر ذاتك - ولا تدافع عن تصرفاتك، ولا تتملق ذاتك، ولا تداهنها، ولا تتحيز لها، وإنما كن صارماً على ذاتك وأنت تعترف.

وعلاجك هو فى توبتك، وعلاجك هو فى الصلاة الهادئة العميقة،... صلاتك أنت أولاً، لأنها برهان رغبتك فى الخلاص، ثم صلوات الكاهن الشيخ القديس على رأسك.... دعه يرفع الصليب على رأسك ويصلّى، ويستحدر قوة الله على رأسك ومنها على جسمك.... واطلب أن يكون ذلك على مرات.. وقد يحتاج الأمر إلى عدد من المرات، فى كل مرة يشحنك بالصلاة بقوة علوية تطرد منك سلطان الأرواح الشريرة التى تصادقت معك وتجاسرت عليك، وربما عقدت معك عهداً، وربما رابطت فيك أو بالقرب من قلبك وعقلك، وربما تلامست معك، ولمست شيئاً منك، أو ربما ربطت شيئاً فيك... فبقدر ما تلامست معك تحتاج إلى جهد مضاعف لطردها عنك، وذلك يقتضى رغبتك الصادقة فى الخلاص ثم صلوات الكاهن الشيخ على رأسك، بعد أن تكون قد إتخذته لك أباً لذمتك، وطبيباً روحياً يرشدك ويعالجك. ولا تنسى أخيراً أن تتردد على أماكن القديسين الكبار من أمثال الشهيد مارجرجس المعروف بسلطانه الروحى على الشياطين والأرواح النجسة، فإن ترددك على هذه الأماكن الطاهرة ينفعك، ويزودك بسلاح من نار.

وأخيراً، ننصح لك بأن لا تقترب من القربان المقدس إلاّ بعد أن تكون قد تخلّصت من سلطان الأرواح الشريرة عليك، لئلا يصيبك ما هو أسوأ.

وأما من جهة الغذاء، فيناسبك أن تتجنب أكل المقليات بأنواعها فإنها ضارة بمن هو فى مثل حالتك، وتجنب المشروبات المثيرة مثل القهوة والشاى والكوكاكولا، وسائر المكيفات... وأقبل

على المأكولات الغنية بالفوسفور، ومنها البيض المسلوق، والسمك (مسلوقاً أو مشوياً) ، واللبن بكافة صوره... ثم الفاكهة بأنواعها، والخضروات النيئة الطازجة بأنواعها... وعسل النحل، والعسل الأسود وغير ذلك من المأكولات الطبيعية، وبصورتها الطبيعية أو القريبة من الطبيعة.

هذه بعض نصائح وتوجيهات في الموضوع. ولكننا لا نهمل أن نلح على ضرورة الكاهن الشيخ والقديس، وأهميته كطبيب روحي يدرس الداء، ويصف الدواء.

٢٨ ـ معاكسات الشيطان والإنتصار عليها (١)

العزيز الإبن / م. ر ـ نقادة

سلام وبركة من ربنا يسوع المسيح.

ردا على استفساركم خاصا بمعاكسات الشيطان أقول إن الشيطان يمكن أن يعاكس أولاد الله وأن يحاربهم وهذا أمر طبيعى لأنه شرير. على أن محاربته للقديسين تكون من الخارج إذا كانوا منتصرين من الداخل، أى أنه يثير فى طريقهم معاكسات ومضايقات وعقبات ويهيج عليهم إناسا يحاربونهم ويضايقونهم ويعاكسونهم. وقد قال الرسول بولس «فلذلك قصدنا القدوم إليكم وقصدته أنا بولس مرة بل مرتين فعاقنا الشيطان» (١ . تسالونيكى ٢ : ١٨).

فإذا كنت واثقا أنك فى دراستك قد أديت واجبك كاملا فقد يكون فشلك بفعل معاكسات من الشيطان.

ونحن لا ننصح للإنتصار على أعمال الشيطان إلا بوسائط الخلاص المقررة فى كنيستنا الأرثوذكسية، وهى الصلوات ولاسيما المزامير فإنها ذات فعالية كبيرة ثم بالتناول المتواتر بحيث لا يتأخر الإنسان عن التناول بحال ما أكثر من أربعين يوما.

وننصح بإستدعاء الكاهن من وقت إلى آخر ليقيم فى البيت صلوات مأخوذة من طقس اللقان مع الأواشى ويصلى على ماء كثير يشرب جزء منه، ويرش جزء منه فى كل البيت ويستحم بالجزء الباقى، ويتكرر هذا عددا من المرات فى سبعة أيام مثلا، وتصلى أنت بالمزامير يوميا فى البيت صلوات الساعات (الأجبية) وتتلو خصوصا عددا من المرات فى كل صباح وكل مساء مزمور ٩١ (الساكن فى عون العلى يستريح فى ظل إله السماء) ـ مزمور ٢٦ (الرب نورى وخلاصى ممن أخاف) ومزمور ٨٥ (أمل يارب أذنك واسمعنى).

وأما علم الغيب الذى تسأل عنه فهو عندنا فى الكنيسة الأرثوذكسية ممكن بفعل موهبة النبوءة التى يمنحها الروح القدس ويولدها سر الميرون فى بعض المؤمنين الذين ينمون موهبة الروح القدس التى فيهم بوسائط الخلاص من صلوات وأصوام وقراءات وتأملات وفحص مستمر للضمير ومواظبة على الإعتراف والتناول فتضرم هذه الوسائط فعاليات الروح القدس فى سر الميرون الذى نالوه فيولد فيهم موهبة النبوءة طبقا لقول المسيح له المجد عن عمل الروح القدس «ويخبركم بأمور آتية» (يوحنا ١٦ : ١٣).

---

(١) كتب فى ٢٦ سبتمبر ١٩٧١م ـ ١٥ توت ١٦٨٨ش.

أما الذين يتكلمون عن علم الغيب خارجا عن الكنيسة المقدسة وفعاليات الروح القدس فى سر الميرون، فمعرفة الغيب التى لأولئك الناس فهى غالبا نوع من العرافة عن طريق أرواح الشياطين أو الأرواح الشريرة التى تتخذ من بعض الناس وسطاء لها تتعامل معهم ومع الناس عن طريقهم وبواسطتهم.

ونصيحتى إليك أن لا تلجأ لوسائط العرافة وما إليها من وسائل غير سليمة ولا تطمئن إليها. ولا أنصح لك أيضاً أن تلجأ إلى من يتبعون الطوائف المنحرفة عن الإيمان الأرثوذكسى الذين تشير إليهم فى خطابك من أمثال الخمسينيين والبليموث وغيرهم ممن يمكن أن يكونوا وسطاء لأرواح شريرة أو مضلة.

يقول الرسول يوحنا «امتحنوا الأرواح (لتروا) هل هى من عند الله» (١ . يوحنا ٤ : ١) ويقول الرسول بولس «امتحنوا كل شئ وتمسكوا بما هو حسن» (١ . تسالونيكى ٥ : ٢١)

ونعمة الرب تشملكم.

٢٩ ـ هل قراءة الكف علم ؟ (١)

سؤال : من ع . ح . و ـ مصر الجديدة

ما الرأى فى الذين يدّعون معرفة الغيب وقراءة الطالع عن طريق الكف والفنجان والكوتشينه. وهل قراءة الكف من العلوم المعترف بها أم أنها دجل ونصب؟ أرجو توضيح تلك الأمور حتى يطمئن قلبى ويزول عنى القلق الذى أعيشه بسبب معرفتى لبعض الأحداث التى سوف تحدث لى من أمراض تفقدنى حياتى.

الجواب :

فى كل أمر فى دنيا البشر، حق وباطل، صدق وزيف. والحق والباطل.. والصدق والزيف يتعايشان فى دنيانا. وعلى الإنسان أن يتبين الحق من الباطل، والصدق من الزيف..

وفى الإنسان الواحد خير وشر، ولابد من جهد مقصود لإفراز الخير من الشر، والحق من الباطل..

وما تسمعه أنت عن إنسان يدعى معرفة الغيب والطالع أو قراءة الكف، هو خبر. وكل خبر يحتمل الصدق والكذب. ولابد من التحقيق العلمى لفرز الصدق من الكذب، والحق من الباطل.

ومَحكُ الحق فى عالم الناس هو الواقع القائم على قوانين الطبيعة. ولما كان خالق الناس هو الخالق للطبيعة والوجود، فالتوافق قائم بين الناس وبين قوانين الطبيعة. وقوانين الطبيعة هى البرهان الساطع على وجود الله الواحد الأحد. نعم إن قوانين الطبيعة هى التى تصرخ فينا أن للطبيعة خالقاً، كلىّ الحكمة وكلى الجودة والخيرية. إن قوانين الطبيعة تقودنا وترشدنا، إلى القدرة العليا التى أبدعت هذا الكون، بنظام غاية فى الإحكام والدقة. **وما نسميه بالمعجزات ليس خرقا لقوانين الطبيعة، لكنها تجرى وتحدث وفقاً لقانون ونظام على مستوى آخر، لا يتعارض مع قوانين الطبيعة، فالمعجزات والخوارق تخضع لقانون ونظام محكم ودقيق، ولكنه ينتمى إلى عالم (ماوراء الطبيعة) المنظورة للإنسان.**

وسواء قوانين الطبيعة أو المعجزات، هذه وتلك كلها تنادى بل تصرخ معلنة وجود القوة الإلهية العظمى التى أبدعت الوجود من العدم، وهى تهيمن عليه، وهو ما نسميه بالعناية الإلهية التى لا تغفل ولا تنام. فالله الواحد وحده هو حاكم الكون ومدبره، وراعيه بالحكمة، وهو الروحْ الأعظم، والعقل الأعظم، والموجود بذاته.

---

(١) كتب فى ٢٤ مارس ١٩٩٢م ـ ١٥ برمهات ١٧٠٨ش.

وربما يقول صاحب السؤال، وما علاقة هذا الكلام بموضوع السؤال عن معرفة الطالع والغيب وقراءة الكف ؟

نقول إن من منطلق إيماننا بحكمة الخالق البديع، الموجد، وقد رسم للطبيعة قوانينها، يمكن أن نستدل من الأثر على المؤثر. فكل فعل وكل حدث فى الوجود له سبب أو علة. وكل فعل له رد فعل مساوٍ له فى القوة، ومضاد له فى الإتجاه.

وبموجب هذا القانون الطبيعى، الذى هو حق دائماً، وهو ثابت ولايتخلف، يكون كل عمل بل وكل إحساس وكل شعور وكل عاطفة وكل مايحدث للإنسان لابد أن يترك أثراً على المخ، وعلى كل البدن، وعلى العظام وعلى الجلد وعلى الأحشاء وعلى الأعضاء الداخلية، وعلى الدم وعلى اللعاب، وعلى إفرازات الجسم، ومنها العرق والبول والنفس وغير ذلك.

فإذا كان ذلك كذلك **فإن قراءة الكف علم**، مثله فى ذلك مثل كل مكتوب على الحجر أو على الورق بأى قلم، وبأى لغة ولسان، **ومن أهل العلم من يمكنه أن يقرأ المكتوب على كف الإنسان.**

نعم، ذلك لأن كل مايحدث للإنسان، ماديا كان أو نفسيا، لابد أن يترك أثره على يده وعلى مخه وعلى أعضاء بدنه الخارجية، والداخلية. وهذا الأثر يبقى ولا يزول، ويمكن لمن يجيد قراءة لغة اليد، أن يقرأ ما انطبع عليها من آثار.

ألا ترى أنك إذا جُرحتَ يترك الجرحُ أثراً يبقى حتى بعد الشفاء التام ولا يزول.

من هنا يمكن أن يقال إن قراءة الكف علم، لكنه علم بالأثر الذى تتركه أحداث الحياة على اليد، من حيث أن كل مايقع للإنسان من أحداث بل ومن إنفعالات ينطبع أثره على يده، وعلى المخ وعلى أعضاء بدنه الخارجية والداخلية.

ويمكن بالتالى لمن يعرف لغة هذه الخطوط والآثار أن ينبئ بهذه الأحداث الماضية والحاضرة، من منطلق القاعدة العامة، أن الأثر يدل على المؤثر.

قلنا إنه يمكن لمن يجيد قراءة المكتوب والمحفور على الكف أن يخبر بما على يد الإنسان الآخر من علامات حياته الحاضرة والماضية. **أما المستقبل، فالإنباء عنه غير ممكن إلا من قبيل الإحتمالات التى قد تصدق وقد لا تصدق، وقد يصدق بعضها ولا يصدق بعضها الآخر. وما يصدق منها هو محض استنباط واستقراء بناء على قراءة الحاضر والماضى.**

نعم ذلك أن الحاضر والماضى هو أمر وقع وقد تم بالفعل. أما المستقبل فهو مجهول، **وليس لبشر أن ينبئ فى يقين عن حتمية وقوعه**، لأن الإنسان كائن عاقل مفكر، ومن ثم فمستقبل حياته قابل للتغير، ولا يتبع الحاضر والماضى دائماً. وهذا هو الفارق العظيم بين الإنسان وبين الحيوانات العجماوات والحشرات، فإن هذه تحكمها الغريزة، وتصرفاتها تخضع للحتمية المطلقة فى طبيعتها. وليس كذلك الإنسان. فالإنسان لا يخضع للحتمية المطلقة لأنه كائن متغير، يتغير بالفكر، والمعرفة والإرادة، والمشيئة، **إلى صور مختلفة ليس من السهل التنبؤ بها إلا من قبيل الإحتمالات**، ومد الخطوط على الحاضر والماضى.

والخلاصة إن علم الكف يمكن أن يصدق القارئ فيه بالنسبة للحاضر والماضى فقط، وأما عن المستقبل فليس لبشر، من غير الأنبياء، أن يعلمه. فإذا أنبأ عنه فهو من قبيل الإحتمال فقط.

٣٠ ـ القسمة والنصيب

سؤال من الإبن ع . ف ـ. قلوصنا ـ المنيا.

هل يوجد قسمة ونصيب؟ إنه سؤال يتردد على ألسنة الكثير من البشر، ويؤدى إلى قلق الأغلبية. أرجو إثبات هذا الأمر بالأدلة المقنعة ؟

الجواب :

إن الجواب على هذا السؤال يتوقف على المعنى فى ذهن صاحب السؤال ففى اللغة يقولون : قسّم الشئ أى جزأه وفرقه.

أما **النصيب** فهو **الحظ**، أو هو الحِصّة من الشئ. فيقول أحدهم : **هذا نصيبى أى حظى.**

على أن عامة الناس يستخدمون هذا التعبير ليتنصّلوا به من مسئوليتهم في كل ما يقع لهم من أحداث، ولينتحلوا لأنفسهم العذر فى أى نوع من الفشل يصيبهم، وذلك ليريحوا ضمائرهم، وليتهربوا من معرفة الأسباب الحقيقية للأحداث، وبهذا التعبير يلقون المسئولية كلها على القدر أو الأقدار. وعندهم أن الله هو الذى يرسم كل شئ، وليس للإنسان أى دور فى كل ما يحدث، وعندهم أن الله هو الذى وزع على الناس أرزاقهم، فجعل هذا الإنسان غنياً، وجعل غيره فقيراً. وبناء على هذه العقيدة الساذجة لا يمكن للإنسان الفقير أن يُغير من حاله، لأن الله أراد له الفقر. ومن هو الإنسان الذى يستطيع أن يقف ضد إرادة الله. وعندهم أنه لا جدوى من الجهاد والكفاح والنضال والعمل، فمادام الله قسم لإنسان الفقر، فسيظل فقيرا مهما صنع لأن الله فى زعمهم أراد له الفقر.

هذا هو المفهوم المريض الذى يسيطر على تصرفات التواكليين من الناس، الكسالى عن العمل والجهاد، والذين يتهرّبون من مسئوليتهم ملقين بالمسئولية كلها على الله. أما هم فشأنهم شأن الحيوانات العجماوات وسائر الحشرات، مسيّرون لا مخيّرون، لا يملكون من أمرهم شيئا.

ولسان حالهم قول الشاعر العربى :

إن حَظّى كـدقيق ... بين شوك بذروه
ثـم قـالـوا لحفـاةٍ ... يـوم ريـح إجمعوه
صعب الأمر عليهم ... قلت يا قوم اتركوه
إن مـن أشقاه ربى ... كيف أنتم تسعدوه

الرزق المقسوم

هذا هو المفهوم السائد عند من يُسيطر عليهم الإيمان بمذاهب (**القدرية**) ، **فالرزق** مقسوم من الله، قدَّر الله على الإنسان رزقه وحكم به عليه، فلا سبيل عندهم للإنسان أن يعدل أو يغير ماحكم الله به عليه. ومعنى هذا أن الله عند المؤمنين بالقدرية قد وزَّع الأرزاق على الناس، وقسمها عليهم، سواء عملوا أم لم يعملوا. وإذا لم يعملوا فرزقهم يأتيهم من عند الله، فلا حاجة لهم إلى السعى والجهاد وإذا عملوا فلن يغيروا بالعمل شيئا، لايزيدون من رزقهم لأن الله أمر لهم برزق حدده لهم، فرزقهم محدود بما قسم الله لهم.

العمر المحدود والمحدد

ولم تقف عدوى هذه العقيدة عند هذا الحد، وإنما تعدت إلى القول بالعمر المحدود. فالعمر عند هذا الفريق من الناس المؤمنين بالقدرية محدود بل ومحدَّد، ولن يستطيع الإنسان أن يزيد على عمره الذى حدده الله له يوما ولا ساعة. ومن ثم فلا جدوى من الوقاية، ولا فائدة من العلاج، ولا قيمة للطب والأطباء.

ثم، وتبعا لمنطق هؤلاء القدريين، لا فائدة من النظافة، ولا جدوى من مراعاة قواعد الصحة البدنية، ولا تبرير لدراسة العلوم الطبية، فهى دراسة لا نفع منها، ولا فائدة فيها...

ومادام العمر محدودا ومحددا، بحيث لا يزيد ساعة عما هو مقسوم ومقدَّر، فلا جدوى من قواعد المرور، ولاداعى للإلتزام بأى نظام للمرور تضعه الدولة أو قلم المرور، فإن هذا النظام لن يمنع موت إنسان فى اللحظة التى قُدِّر عليه أن يموت فيها.

الزواج المقسوم

ولقد سرى سم هذه النظرية القاتلة، نظرية (**القدرية**) بهذا المفهوم السقيم العقيم إلى الرابطة الزوجية. فالزواج عند المؤمنين بالقدرية قسمة ونصيب، فالزواج الناجح قدر من الله، والزواج الفاشل قدر من الله. ولايد للإنسان فى إختيار شريكه أو قرينه، لكن الله هو الذى حكم على الرجل أن يتزوج بهذه المرأة، وحكم على المرأة أن تتزوج بهذا الرجل. لقد ساقهما القدر إلى هذا المصير المحتوم الذى لا خيار لأحدهما فيه، ولا يملك هو أو هى أن يُعدِّل منه أو يغير من قدره. فعليه أن يرضخ للقدَر ويستكين لحكم الله. فإذا كان هذا الزواج فاشلاً فالمسئولية كلها على القدر أو على الله. ومن ثم فلا مفر من أن يشتم الواحد منهم القدر الأعمى، وبالتالى أن يُجدِّف على الله وينسب إليه الظلم لأنه أراد له الشر والشقاء وقدَّره عليه.

القول بالقدرية يهدم حرية الإنسان

إن القائلين بالقدرية يوهمون أنفسهم بأنهم بهذا الفكر الشرير يثبتون ويؤكدون إيمانهم بالله القادر على كل شئ فى مقابل الملحدين والكافرين الذين ينكرون وجود الله. وتزداد غلواؤهم فينسبون إلى الله كل شئ، وفى سبيل ذلك يبطلون ويلغون كل ما هو من الإنسان. ولولا أن الإنسان عندهم له كيانه المادى الظاهر لأنكروا أيضا وجود الإنسان.

والحقيقة أن مبدأ القدرية للذى يتستر عند القائلين به بعباءة الإيمان بالله، يخفى رغبتهم الحقيقية فى إلغاء حرية الإختيار فى الإنسان، تهربا من مسئوليتهم فى كل شر يعملونه أو يحدث فى الأرض، وهو منهج ينتهجونه هربا من لذعات الضمير وتنصلا من كل جهد أو عمل يجب أن يبذله الإنسان لتحقيق الخير العام أو الخاص، أو توقيا من الشر العام أو الخاص.

إن مبدأ القدرية يحصر الشر فى الله وحده ويجعله علّة أولى للشر. وفى سبيل تنصلهم من كل نوع من المسئولية المادية والأدبية والروحية، ينكرون دورالإنسان، ويحكمون على أنفسهم بأنهم كائنات لا حرية لهم فى شئ، وإنما هم كالحيوانات العجماوات بل أحط من الحشرات.

فإن الحيوانات العجماوات والحشرات، وإن كان معروفا عنها أن الله يقوتها ويرزقها طعامها، (متى ٦ : ٢٦)، مع ذلك، فإنها تسعى وتتحرك وتعمل بنشاط وبغير ملل، نهارا وليلاً، لكى تحصل على قوتها وقوت صغارها. فالحمام واليمام والغربان والعصافير وكل الدواجن وسائر الطيور، الأليفة منها والجوارح الكواسر، فضلاً عن البهائم والوحوش، بل والدبيب وسائر الحشرات والفراش والهوام، كلها تطير فى الهواء، وتنتقل من شجرة إلى شجرة، ومن مكان إلى آخر، وتجرى على الأرض، وتشق طريقها بين الصخور، ولاتكف عن السعى فى سبيل الحصول على قوتها، ووفقا لسعيها وتعبها وجهادها تحصل على طعامها وطعام صغارها نتيجة لعملها المتواصل، فكيف يستسيغون أن ينسبوا إلى القدر أو إلى الله أنه قسم لكل إنسان رزقه، فلا يقدر أن يزيد على ما قسمه الله له. وبهذا يشجعون أنفسهم وسائر الناس على التقاعس والتكاسل عن العمل بحجة الرزق المحدود والمقسوم.

جاء فى الكتاب المقدس (**اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيما. إنها ليس لها قائد ولا مدبر ولا حاكم. وتُعدُّ فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها. إلى متى ترقد أيها الكسلان. متى تنهض من نومك. قليل نوم بعد قليل نعاس، وطىّ اليدين قليلاً للرقاد، فيأتى عوزك كساع وفاقتك كرجل متسلح. لكن إذا كنت مُجداً يفيض حصادك فيض الينبوع، والفاقة تنصرف عنك**)

(سفر الأمثال ٦ : ٦ – ١١) ويقول أيضا (الكسل يُلقى فى سُبات والنفس المتراخية تجوع) (الأمثال ١٩ : ١٥) ثم يقول (**إنى مررت بحقل الكسلان ويكرم الإنسان الفاقد اللب. فإذا الشوك قد علاه كله، وقد غطى العوسج وجهه وجدار حجارته انهدم**... قليل من الوسن. قليل من النوم. طىّ اليدين قليلاً للرقاد، فيأتى عوزك كساعٍ وفاقتك كرجل متسلح) (الأمثال ٢٤ : ٣٠ – ٣٤).

ألمْ يرَ هؤلاء القائلون بالرزق المقسوم، المجدّين من شعوب الأرض، **وكيف تحول الفقراء منهم والمعدمون إلى أغنياء وموسرين**، عندما آمنوا أنهم بكفاحهم وجهادهم وعملهم المتواصل يمكنهم أن يحّولوا فقرهم إلى غنى، فأغنوا أنفسهم وفاض غناهم على الأغيار بما صنعوا من مشروعات منتجة جلبت على أوطانهم خيراً وبركة، وتحقق لهم ولبلادهم بالكفاح والعمل الخير والإزدهار.

إن مبدأ القدرية مبدأ مدمر وهدام، ولو أخذت به أمة ما، لرجعت القهقرى إلى الوراء، وصارت فى مؤخرة الشعوب، ولو آمن به الشباب لشلت حركتهم عن النمو والتقدم والإزدهار

لقد حض الكتاب المقدس الناس على العمل والكفاح ومواصلة الجهاد فى سبيل تحقيق الخير والإنتاج، وأنه بالعمل والجهاد يتحقق للإنسان السيادة، وأما بالكسل والتراخى فلا يحصد غير الذلة والهوان. فيقول (**أيدى المجِدين تسود، واليد الوانية تخدم تحت الجزية. الرخاوة لا تمسك صيداً أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد**) (الأمثال ١٢ : ٢٤، ٢٧).

ولقد أرانا المسيح له المجد فى مثل الوزنات أن من يتوانى عن العمل والجهاد يستحق غضب الله لأنه لم يستثمر ما أعطاه الله من مواهب. فقال للعبد الخامل المتوانى عن العمل والجهاد بأقصى الجهد (أيها العبدُ الشرير والكسلان) ثم قال (**أما العبد غير النافع فاطرحوه فى الظلمة الخارجية**. هناك يكون البكاء والصرير على الأسنان) (متى ٢٥ : ١٨ – ٣٠)، (لوقا ١٩ : ٢٠ – ٢٦).

ويقول المبدأ الإلهى (**إن من لايريد أن يعمل، فلا يحق له أن يأكل**) (٢. تسالونيكى ٣ : ١٠).

العمر محدود ولكنه غير محدد

وأما القول بأن العمر محدود، وأن الإنسان أيامه محدودة وعدد شهوره معينة عند الله، وأن الله عين أجله فلا يتجاوزه ولا يتعداه (أيوب ١٤ : ٥) وأن الأجل فى يد الله (مزمور ٣٠ : ١٥)، وأن الأجل أمر لابد منه (الحكمة ١٩ : ٤) ، (١٥ : ٩)، فليس معناه ما يفهمه القائلون بالقدرية من أن عمر كل إنسان محدّد بقضاء من الله وقدر منه. نعم إن العمر محدود لأننا فى عالم المحدود، وليس إنسان يحيا فى الأرض إلى الأبد ولا يرى الموت (مزمور ٨٨ : ٤٨). وهذه قضية عامة شاملة للبشر جميعاً. **وأما بالنسبة لكل فرد على حدة، فعمره وإن كان معلوما لدى الله بسبق علمه، يتوقف فى طوله ومداه على قوانين طبيعية**، منها قانون الوراثة من الأبوين والجدود، ومنها قوانين أخرى كثيرة يسوس الله الكون والناس بها. وللإنسان أن يخضع لهذه القوانين وله أن يتمرد عليها أو يتحداها، **فإذا تمرد عليها لابد أن يكون رد فعلها عليه بتقصير عمره وأجله. حقا إن الإنسان لا يملك أن يطيل حياته أكثر مما تحتمله طاقته التى وُلد بها من أبويه بحسب قانون الوراثة وقانون الولادة، ولكنه يملك أن يُقصّر أيامه بأن يقتل نفسه بالشر أو بالجهل.** ولذلك يقول الكتاب المقدس (**لاتكن شريرا كثيرا، ولا تكن جاهلاً. لماذا تموت فى غير وقتك**) (سفر الجامعة ٧ : ١٧) وإذن **فالإنسان يملك أن يقصر عمره بالشر أو بالجهل.** فإذا كانت طاقته التى ولد بها تحتمل أن يعيش بها إلى سن كبيرة أو صغيرة، **فإنه يمكن أن يعجل بوفاته قبل تلك السن إذا قتل نفسه بيده أو إذا سلك طريق الشر، أو إذا دمّر نفسه وحياته وأهلك بدنه بالعادات الضارة أو بتعاطى التدخين والمسكرات وخطايا النجاسة وما إليها من أمور مهلكة تهدم صحته وتعجّل بموته قبل الأوان.**

ويقول الكتاب المقدس : (لا تغاروا على الموت فى ضلال حياتكم، **ولا تجلُبوا عليكم الهلاك بأعمال أيديكم. إذ ليس الموت من صنع الله، ولا هلاك الأحياء يسره.** لأنه إنما خلق الجميع للبقاء، فمواليد العالم إنما كُونت معافاة. وليس فيها سم مهلك ولا ولاية للجحيم على الأرض. لأن البر خالد. **لكن المنافقين هم استدعوا الموت بأيديهم وأقوالهم.** ظنوه حليفا لهم، فاضمحلوا، وإنما عاهدوه لأنهم أهل أن يكونوا من حزبه) (سفر الحكمة ١ : ١٢ – ١٦).

الزواج فعل إختيارى

وأما الذين يقولون أن الزواج قسمة ونصيب، متعللين بقول الكتاب المقدس (البيت والثروة ميراث من الآباء. **أما الزوجة المتعقلة فمن عند الرب**) (سفر الأمثال ١٩ : ١٤) فهم يخطئون الفهم والتأويل، ويتنصّلون من مسئوليتهم فى إختيار الزوجة.

فإذا كانت الزوجة المتعقلة أو العاقلة من عند الرب، أفهل يكون معنى هذا أن الزواج الناجح قدر من الله، والزواج الفاشل قدر من الله ؟

هل يفهمون من قول الكتاب المقدس (**الزوجة المتعقلة أو العاقلة من عند الرب**) أن الله هو الذى حكم على كل رجل بأن يتزوج إمرأة بعينها وحكم على كل إمرأة أن تتزوج برجل بعينه ؟

وما قولهم فى المرأة غير المتعقلة أو غير العاقلة فهل هى أيضا من عند الرب ؟

كيف يصل الأمر عند بعض الناس أن ينكروا حريتهم فى إختيار الزوجة إلى هذا الحد، حتى يتنصلوا من مسئوليتهم فى هذا الإختيار مع أن كل رجل يعلم أنه بكامل حريته يختار المرأة التى يستحسنها هو متأثرا بجمالها أو أناقتها ورشاقتها، أو لحسبها ونسبها، أو لثروتها، أو لسمو أخلاقها... أو ما إلى ذلك من أسباب عنده مبرراتها فى هذا الإختيار.

إن الزوجة فى الواقع لا يرسلها الله إليه من كوكب آخر، وإنما هى عادة من أرضه. وقد تكون من أهله وبلده التى عاش فيها، فرأى المرأة واستحسنها، وقد تكون زميلة له فى الدراسة رآها فأحبها، وقد تكون زميلة له فى العمل، أو قد تكون جارة له فى الشارع الذى يسكنه أو فى البيت الذى يقطنه. فإختياره للزوجة عملية شخصية بحتة، لا قهر فيها ولا إلزام، ولا جبر، فهو الذى يطلب يدها بناء على استحسانه لها ومعرفته بها، وهو يعلم أنه يمكنه أن يرفضها، وأن يعدل عن رأيه فيها، وأن يتجه إلى إختيار غيرها إذا اتضحت له أسباب تجعله يؤثر هذه عن تلك، فإذا تزوج بهذه أو بتلك واتضح له أنه أخطأ الإختيار تولاه الندم. والندم دليل شعوره بحريته فى الإختيار. ولذلك يعمد إلى تصحيح هذا الخطأ بأن يطلب الإنفصال عن زوجته بحجة أو بأخرى، وقد يصل إلى غرضه.

ولو كان الزواج قسمة ونصيبا من الله لما أمكن لرجل أن يغير قدره أو قسمته بالطلاق أو الإنفصال أو بغير ذلك من وسائل يعلم أنه حر فى إختيارها.

والواقع أنه ما من رجل فشل فى زواجه يقتنع فى أعماق نفسه بأن الزواج قسمة ونصيب من الله، بدليل أنه يعترض ويحتج ولا يتوقف عن محاولة الخلاص من زوجته إلا إذا رأى نفسه عاجزا عن الخلاص من هذه الزوجة. عندئذ فقط يحاول أن يقنع نفسه ويغالط ذاته بالقول إن (الزواج قسمة ونصيب) ولو أنه وجد وسيلة للخلاص لنسى هذا القول وأنكره وجحده، وقال لمن يخاطبه به : إن هذه المقولة كاذبة، إنى لا أؤمن بها ولا أقبلها. وإذا زعم له أحد أن هذه قسمته من الله لما تورع عن أن يجدف على الله ويتهم الله بأنه قد ظلمه.

إن قول الكتاب المقدس المرأة المتعقلة من عند الرب معناه **أن التعقل فى المرأة هبة من عند الرب.** وهذا قول حق، **فإن العقل عطية من الله للإنسان** وما أسعد الإنسان المتعقل الذى يسلك بالعقل ولا يندفع وراء نزواته وشهواته بغير عقال يربطه ويرده إلى السلوك المستقيم.

إن هذا القول الإلهى هو لكى **يحض كل رجل على أن يتطلب فى المرأة التى يختارها لتكون له زوجة أن تكون عاقلة.**

لكن ليس معنى قوله (المرأة المتعقلة من الرب) أن كل إمرأة عاقلة أو غير عاقلة تُساق على الرغم منها لتتزوج برجل بعينه على الرغم من إرادتها وعلى الرغم من إرادته.

والخلاصة

أولاً : إن قول بعض الناس من المؤمنين بمبدأ القدرية، إن كل شئ مقسوم على الإنسان ولا يملك أن يختار غيره قول يتعارض تعارضاً جذريا مع مبدأ حرية الإختيار والمسئولية التى تعلم بها ديانتنا المسيحية وكتابنا المقدس.

جاء فى الكتاب المقدس (**لأن الخاطئ لم يرسله الرب**. إنما ينطق بالحمد ذو الحكمة، والرب ينجحه. **لا تقل إنما إبتعادى عنها (عن الحكمة) من الرب، بل امتنع عن عمل ما يبغضه. لا تقل هو أضلنى** فإنه لا حاجة له فى الرجل الخاطئ... **هو صنع الإنسان فى البدء وتركه فى يد اختياره. وأضاف إلى ذلك وصاياه وأوامره. فإن شئت حفظت الوصايا ووفيت مرضاته. وعرض لك النار والماء فتمد يدك إلى ماشئت. الحياة والموت أمام الإنسان فما أعجبه يُعطى له**. إن حكمة الرب عظيمة. هو شديد القدرة ويرى كل شئ. وعيناه إلى الذين يتقونه ويعلم كل أعمال الإنسان. **لم يُوصِ أحداً أن ينافق، ولا أذِن لأحد أن يخطأ**. لأنه لا يحب كثرة البنين الكفرة الذين لا خير فيهم) (سفر يشوع بن سيراخ ١٥ : ١٠ – ٢٢) وجاء فيه أيضا (**أربعة تصدر من القلب : الخير والشر، والحياة والموت**. والمتسلط على هذه فى كل حين هو اللسان) (٣٧ : ٢١).

ثانيا ـ إنها مقولة يكذبها الواقع العملى فى العديد من الحالات التى يفشل فيها الزواج، نتيجة لسوء الإختيار.

ثالثا ـ إنه قول لا يصلح لتفسير عشرات ومئات الزواجات التى تتم تحقيقاً لشهوة أو جريا وراء نزوة، أو طمعا فى ثروة، وما إلى ذلك من بواعث جسدية أو مادية لا يمكن أن يكون الله مسئولا عنها أو له يد فيها.

رابعا ـ إنه قول يتمثل فيه التنصل من المسئولية والهرب من التبعات المترتبة على حق الفرد فى الإختيار.

جاء فى الكتاب المقدس (خلق الرب الإنسان من الأرض.. جعل لهم وقتا وأياما معدودة، وآتاهم سلطاناً على كل ما فيها، وألبسهم قوة بحسب طبيعتهم وصنعهم على صورته.. خلق منه عونا بإزائه، **وأعطاهم إختيارا** ولسانا وعينين وأذنين **وقلبا يتفكر**. وملأهم من معرفة الحكمة، **وأراهم الخير والشر**. وقال لهم : **احترزوا من كل ظلم**. وأوصاهم كل واحد فى حق القريب... **وبعد ذلك يقوم ويجازيهم، يجازيهم جزاءهم على رؤوسهم.. فتب إلى الرب وأقلع عن الخطايا**. تضرع أمام وجهه وأقلل من العثرات. ارجع إلى العلى، وأعرض عن الإثم، وأبغض الرجس أشد البغض) (سفر يشوع بن سيراخ ١٧ : ١– ٢٣) .

ومع ذلك، وبدلاً من أن يلوم الإنسان نفسه ينحى باللائمة على الله، مما يقوده إلى التجديف على الله، وإتهام بالله بالظلم، وبالتالى يمتلئ قلب هذا الإنسان بالكراهية لله والحقد عليه. مما يوقعه فى مجموعة خطايا مميتة تؤدى به إلى الهلاك الأبدى.

ومهما يكن من أمر فنحن نرفض تماما أن يكون الزواج (قسمة ونصيب) بالمعنى الذى يريده بعض الناس المتمذهبين بمذهب القدرية ليتنصلوا من مسئوليتهم فى إختيار الزوجة أو الزوج، وتهربا من أوامر ووصايا الكتب المقدسة التى تأمر الناس أن يحترموا حريتهم الممنوحة لهم من الله، وأن يحسنوا توظيفها فيما ينفعهم لحاضرهم ومستقبلهم، الزمنى والأبدى.

٣١ - هل الزواج قسمة ونصيب ؟

سؤال من السيد ى . ب.. منقلوط.

يقول إننى بدأت فى تأليف كتاب بعنوان (هل الزواج قسمة ونصيب ؟) ويهمنى فى هذا المضمار أن أكتب رأى سيادتكم فى هذا المؤلف ؟

الجواب :

رداً على خطابكم بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢١ واستفساركم عما إذا كان الزواج (قسمة ونصيب) على ما تقول العامة

نجيب بأن هذا القول (الزواج قسمة ونصيب) ليس تعليما إنجيليا أو مسيحياً، ولا يصلح أن يكون مبدأ عاما ثابتا فى جميع الأحوال، وفى كل زمان ومكان ويبدو لنا أنه (تعميم) (Generalisation) لحالة أو على الأكثر- لبضع حالات فردية، ولكنه قطعا ليس قاعدة، أو حكما شاملا، أو مبدأ عاما لجميع الناس.

وهنا ينبغى أن نستوضح المقصود من قول العامة (الزواج قسمة ونصيب) .

١ - ما المقصود من القسمة والنصيب ؟

هل القسمة فى هذا القول يقصد بها أنها قسمة مرسومة من الله، وأنها نصيب محدد مقرر فى السماء قبل أن يتم على الأرض ؟

أم المقصود من (القسمة والنصيب) أن يكون هذا الزواج أو ذاك بحكم من القدر الأعمى كما يقولون ؟

وهنا نتساءل أيضاً : ما هو (القدر) فى رأى القائلين بهذه المقولة ؟

نحن كمسيحيين نؤمن بحرية الإختيار، وأن الإنسان حر مخير، مناط أمره بيده. وهو الذى يصنع مصيره. ولذلك فإنه مسئول عن تصرفاته وهو سيحاسب عنها، لأنه بوصفه حرا صنع الفعل غير مجبور. ودليل حريته فى الزواج وغيره هذه الحيرة التى يجد فيها نفسه عندما يكون بصدد إختياره لزوجة.

نعم، فى حالة واحدة يمكن أن يكون له نصيب فى الزواج، وقسمة، لو أنه لجأ إلى الله بالصلاة الحارة وطلب بإتضاع ورغبة صادقة فى الإختيار الإلهى، مشورة الله، فيرتشد بالله، ويجد الإستجابة لصلاته براحة وسعادة فى القلب تملأ كل جوانح النفس والروح من نحو شخص

يرسله الله فى طريقه، ثم يلتقى ببيّنات عملية واضحة يطمئن بها إلى صحة هذا الإختيار. وهذا هو معنى قول الكِتاب المقدس.

«البيت والثروة ميراث من الآباء. أما الزوجة المتعقلة فمن عند الرب» (أمثال ١٩ : ١٤).

إذن ليست كل زوجة من عند الرب. إنما الزوجة المتعقلة فهى من عند الرب. ولا تكون من نصيب رجل إلا إذا كان هذا الرجل يطلب فى زوجته أن تكون عاقلة وأن تكون فيها مخافة الله وتقواه.

إن الله يتدخل فى مثل هذه الأمور على سبيل المعجزة، أى بناء على صلاة وطلب، وبشرط أن تكون هناك رغبة صادقة فى معرفة إرادة الله.

وبعبارة أخرى أن الله يتدخل، ويجعل هذا من نصيب ذاك إذا كانَ كل منهما برغبته الصادقة يسقط رغبته لله، وبإرادته ومشيئته يسقط أمام الله إرادته ومشيئته. وفيما عدا هذا، فالأمر متروك لحرية الإنسان ورغبته وإختياره، والأمثلة أمامنا، فى الواقع الحىّ، صارخة تتكلم بنفسها عن نفسها.

فالرجل عادة يختار إمرأة يستحسنها متأثرا بجمالها أو أناقتها، أو حسبها ونسبها، أو ثروتها أو... ما إلى ذلك من مقاييس.

ولو كان الزواج قسمة من الله ونصيبا منه، فلماذا تفشل بعض الزواجات، ويندم الإنسان على زواجه، ويحاول أن يتخلص من هذا الزواج بالطلاق أو بغير ذلك من تصرفات خاطئة ؟.

أن شعوره بالندم بعد تتميم الزواج بفترة دليل على إحساسه بمسئوليته فى هذا الإختيار.

ثم أن سعيه للطلاق، وحصوله عليه أحيانا وإحتياله عليه دليل على حريته فى الإختيار وشعوره بأنه فى قدرته أن يتخلص من هذا الزواج ويبطل نتائجه.

وإلا إذا كان الزواج قسمة ونصيبا من الله، لما أمكن لرجل أن يغير قدره أو قسمته بالطلاق أو بغيره من وسائل يرى أنه حرّ فى إختيارها.

وأحسب أنه لا يرتضى رجل فشل فى زواجه وندم عليه، بقوله (الزواج قسمة ونصيب). ونعتقد أنه ما من رجل يقول ذلك إلا إذا رأى نفسه عاجزا عن الخلاص من هذا الزواج. عندئذ يقنع نفسه ويغالط ذاته بالقول (الزواج قسمة ونصيب) ولو أنه وجد وسيلة للخلاص، لنسى هذا القول وأنكره وجحد به، وقال لمن يخاطبه به : أنه قول كاذب لا أؤمن به، ولا أقبله.

وإذا زعم له أحد أن هذه قسمته من الله لما تورع أن يجدف على الله ويتهمه بالظلم.

والخلاصة أن قول العامة (الزواج قسمة ونصيب)

أولا ـ ليس مبدأ عاما، ولا هو قاعدة، لكنه قول قد ينطبق على حالة أو بضع حالات.

ثانياً ـ أنه قول فيه تعميم، ولهذا فله نتائجه الخطيرة في حياة المجتمع، وهو قول ضار، ومضلل للشباب.

ثالثا ـ أنه قول يتعارض مع مبدأ حرية الإختيار والمسئولية التي تعلم بها ديانتنا المسيحية

رابعا ـ أنه قول يكذبه الواقع في العديد من الحالات التي يفشل فيها الزواج، ويتولى الزوج والزوجة الندم.

خامسا ـ أنه قول يلغي مسئولية الإنسان في الإختيار، ويعلق المسئولية على الله عندما يكون هناك فشل، وبالتالي يقود إلى التجديف على الله، وإتهام الله بالظلم، ويملأ القلب حقدا على الله وكراهية لله، وإحساسا بأن الله عدو له.

سادسا ـ أنه قول لا يمكن أن يفسر عشرات الألوف من الزواجات التي تتم تحقيقا لشهوة أو جريا وراء نزوة، أو طمعا في ثروة، وما إلى ذلك من إندفاعات وبواعث جسدية أو مادية لا يمكن أن يكون الله مسئولا عنها، أو له يد فيها.

سابعا ـ أنه قول، يتمثل فيه التنصل من تبعة المسئولية في إختيار الطرف الثاني. والهرب من مشاعر الندم وتبكيت الضمير.

san amar aegypt.org

٣٢ ـ هل الرزق قسمة ونصيب أم شطارة ؟

سؤال من السيد صليب حنالله الملاخ ـ سوهاج

هل الرزق قسمة ونصيب، أو هو شطارة ؟

الجواب :

القاعدة العامة أن الرزق بركة من الله (١ ـ صموئيل ٢ : ٧) ، (أمثال ١٠ : ٢٢) . لكن الله، وهو صانع الخيرات، يتطلب من الإنسان العمل والكفاح والنضال. على أنه يلزم مع العمل والجهاد صبر وصمود وأمانة، كما يلزم أن يتصف الإنسان بالحكمة والفهم والعقل والرأى السديد.

إن النجاح والتوفيق فى الرزق كما فى كل مناحى الحياة الروحية والعلمية والمادية، هما من الله وهما نتيجة ومحصلة لمجموعة عوامل إنسانية يجب احترامها وتقديرها والعمل بها.

على أن كثيرين ممن ينظرون للأمور نظرة سطحية تستهويهم وتشد إنتباههم بعض المواقف والحوادث العرضية السريعة، فيندفعون إلى أحكام مبتسرة متعجلة، فينسبون النجاح إلى صفة واحدة أو عامل واحد، ويهملون النظر إلى العوامل الأخرى التى لابد أن يكون لها جميعا عملها فى كل نجاح حقيقى ودائم.

ونتيجة لهذا الإندفاع المتعجل فى النظر إلى الأمور، وتسبيبها وتفسيرها وتأويلها، يسرعون فى القول بأن هذا النجاح أو ذاك يرجع إلى القدر. وعندهم أن القَدَر أعمى أو معصوب العينين، يخبط يمينا أو شمالا بغير بصيرة وبغير منطق إلا منطق التحكم فى مصائر الناس. ومن المحزن أن ترى هذا الفريق من القائلين بالقدرية، يؤمن أن هذا القدر هو الله، أو من الله. وعلى ذلك فإن الله عند القدريين هو هذه القوة الغاشمة التى تتحكم فى مصائر الناس من دون احترام للقيم الأخلاقية والأبدية. ومن ثم فهم يبيحون لأنفسهم أن ينَظروا إلى القدر نظرة إلى قوة ظالمة، لا عدل عندها ولاعقل ولا روح ولا أخلاق، وبالتالى فلا مانع عندهم أن يشْتِموا القدر ويسخطوا عليه... والحق أن هؤلاء القدريين يجدفون على الله حتى لو زعموا أنهم مؤمنون بالله.

وفى يقيننا أن كلمة (القدر) ومثيلاتها من الكلمات الغامضة ومنها (القسمة) و (النصيب) هى مجرد تعبيرات مبهمة وكأنها رقعة أو بطاقة شبيهة بكلمات (الحساسية) التى يستعملها الأطباء إسما لكل مرض أو عرض لمرض يجهلون أسبابه الحقيقية.

san amar aegypt.org
أما نحن فلا نؤمن بالقدرية ولا بالقسمة والنصيب وأمثال هذه التعبيرات التى تتردد على أفواه العامة من بين الناس، ممن يأخذون أمور الحياة مأخذا سطحيا، ولا يريدون أن يكلفوا أنفسهم مشقة إستعماقها وسبر أغوارها، والبحث عن أسبابها الحقيقية، ودوافعها ومبرراتها، واستقصاء قوانين الحياة، بمنهج علمي روحي لتفسيرها وربط المقدمات بالنتائج والعلة بالمعلول.

قال المسيح له المجد فى وجوب العمل وبعد النظر :

«فمثل من سمع أقوالى هذه وعمل بها كمثل رجل حكيم بنى بيته على الصخر، ثم هطل المطر وجرت الأنهار، وهبت الرياح، ولطمت ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسسا على الصخر. ومثل من سمع أقوالى هذه ولم يعمل بها كمثل رجل غبّى بنى بيته على الرمل، ثم هطل المطر وجرت الأنهار، وهبت الرياح ولطمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً» (متى ٧ : ٢٤ – ٢٧).

وجاء فى سفر الأمثال للحكيم سليمان فى وجوب العمل والجهاد، واستنكار الكسل والتراخى : «إنى مررت بحقل الكسلان، وبكرم الرجل الناقص الفهم. فإذا الشوك قد علاه كله وقد غطىّ العوسج وجهه وجدار حجارته قد انهدم. ثم نظرت ووجهت قلبى، ورأيت وقبلت تعليما. قليل من الوسن بعد نعاس قليل. وطىّ اليدين قليلا للرقاد. فيأتى فقرك كعداء وعوزك كغاز» (الأمثال ٣٤ : ٣٠ – ٣٤).

ويقول أيضا «لا تعط عينيك نوما، ولا أجفانك نعاسا... اذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيما. إنها ليس لها قائد، ولا عريف ولا حاكم. وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها. إلى متى تنام أيها الكسلان. متى تنهض من نومك. قليل من الوسن بعد قليل نعاس. وطىّ اليدين قليلا للرقاد، فيأتى فقرك كساع وعوزك كغاز» (الأمثال ٦ : ٤ – ١١).

ويقول كذلك «العامل بيد رخوة يفتقر. أما يد المجتهدين فتغنى... من يجمع فى الصيف فهو ابن عاقل. ومن ينام فى الحصاد فهو ابن مخز.. كالخل للأسنان وكالدخان للعينين كذلك الكسلان...» (أمثال ١٠ : ٤، ٢٦).

ويقول «أيدى المجتهدين تسود. أما الرخوة فتكون تحت الجزية.. الرخاوة لا تمسك صيدا. أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الإجتهاد» (أمثال ١٢ : ٢٤، ٢٧) انظر أيضاً (أمثال ١٣ : ٤) ، (١٩ : ١٥) ، (٢٠ : ٤) ، (٢١ :٥).

san amar aegypt org

ويقول المسيح له المجد فى مدح العمل والكفاح والجهاد إن أبى حتى الآن يعمل، وأنا أيضا أعمل» (يوحنا ٥ : ١٧) .

ويقول الرسول القديس بولس «ونتعب عاملين بأيدينا» (١ . كورنثوس ٤ : ١٢) . «كنا نشتغل بتعب وكد ليلا ونهارا لئلا نثقل على أحد منكم... لكى نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا. فإننا أيضاً حين كنا عندكم وصّيناكم بهذا أنه إن كان أحد لا يريد أن يعمل، فلا يأكل أيضاً» (٢ . تسالونيكى ٣ : ٨ – ١٠) انظر أيضا (أعمال ١٨ : ٣)، (٢٠ : ٣٤) ، (٢ . كورنثوس ١١ : ٩) ، (١ . تسالونيكى ٢ : ٩) .

والخلاصة أن الرزق الكثير أو القليل يرجع إلى عدد من عوامل وأسباب لا إلى عامل واحد. وعلى كل حال، فالقانون العام هو قانون العمل والكفاح والنضال مع فضائل الأمانة والنزاهة والمثابرة والصمود... فإذا ماتوافر هذا كله فالنجاح والتوفيق حليف المجاهدين المجتهدين طبقا للمبدأ الإلهى «وإنما يحصد الإنسان ما يزرع» (غلاطية ٦ : ٧)، على أن يضع الإنسان فى إعتباره أن من يسلك بالإستقامة مع الثبات فى الجهاد والعمل، فالله لا يهمله ولا يقاومه بل يسانده ويعينه ضد قوات الشر المضادة، ذلك لأن الله «لا يمنع الخيرات عن السالكين بالكمال» (مزمور ٨٣ : ١١) فإن الله صانع الخيرات، وهو كلى الجودة والصلاح.

٣٣ ـ قبول الظلم لرجل الدين أفضل (١)

st-takla.org / sanamariaegypt.org

عزيزى الأخ والأب الموقر القس ب.ب

المسيح قام ـ بالحقيقة قام

سلام ومحبة ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح أرجو لكم وللسيدة قرينتكم موفور الصحة والعافية والقوة.

وصلنى مع الشكر مكتوبكم الكريم مفعماً بمشاعر المودة الصادقة والمحبة الصافية، وتمنياتكم المخلصة وتهنئتكم الرقيقة بسلامة العودة بمشيئة الله الآب ومسرته.

ولقد تأثرت كثيراً من خطابكم، وتألمت بما وصفتموه وما عبرتم عنه بلغة مثيرة واسلوب آخاذ بمجامع القلب على أنى أشفق عليكم بما قد يترتب على شكواكم أو دعواكم أمام القضاء، فإن الرئاسة الدينية قد تعتبر هذا التصرف الذى اضطررتم إليه حسب تعبيركم استعداء ضدها.

إنى أنصح بوقف هذا الإجراء، وعدم التمادى فيه، نظرا لما ستخسرونه من ورائه حتى لو كان لإسترداد حقوقكم المادية.

إن قبول الظلم بالنسبة لرجل الدين، أفضل من حق الدفاع عن النفس.

«ظلم أما هو فتذلل»

الرب يتولى بنعمته تدبيركم إلى ما فيه الخير وإليكم قبلات محبتى وإعزازى وأصدق تمنياتى.

sanctamariaegypt.org

٣٤ ـ الرأى المسيحى فى طريقة ذبح الحيوانات(١)

السيد الدكتور محمد رشاد شعلان

رئيس مجلس إدارة

الشركة المصرية للحوم والدواجن والتوريدات الغذائية

تحية طيبة وبعد ـ

ردا على خطاب سيادتكم المؤرخ ٢/من فبراير لسنة ١٩٨٥ بخصوص الرأى المسيحى فى طريقة ذبح الحيوانات.

يسرنى الإفادة

بأن المسيحية من حيث المبدأ والعقيدة **لا تبيح أكل دم الحيوان أو شربه، وتعد أكل الدم أو شربه خطيئة كبيرة، وفعلاً محرّما يستوجب العقاب الأبدى والزمنى، ومن يرتكبه يعد مقطوعا من شركة الإيمان المسيحى والكنيسة.**

جاء فى سفر التكوين قول الله تعالى (إنَّ لحما بحياته دمه لا تأكلوه) (٩ : ٤) والمعنى أنه **محرم على الإنسان أن يأكل اللحم الحىّ وبه دمه.**

وجاء فى سفر اللاويين، السفر الثالث من أسفار الكتاب المقدس، قوله تعالى : (وأى إنسان ... أكل دما أجعل وجهى ضدّ النفس الآكلة الدم، وأقطعها من بين شعبها. لأن نفس الجسد هى فى الدم... **لا يأكل أحد منكم دماً** لأن نفس كل جسد هى دمه، هو بنفسه... **لا تأكلوا دم جسد ما**، إذ نفس كل جسد هى دمه، فكل من أكله يقطع) (١٧ : ١٠ ـ ١٤).

(لا تأكلوا شيئا من الدم) (٣ : ١٧).

(كل دم لا تأكلوه فى جميع مساكنكم من الطير والبهائم) (٧ : ٢٦)، (لا تأكلوا بالدم) (١٩ : ٢٦)، (١. صموئيل ١٤ : ٣٣).

وجاء فى سفر التثنية، خامس أسفار الكتاب المقدس، : (**وأما الدم فلا تأكله، بل أرقه على الأرض كالماء** ... **إياك أن تأكل الدم**، فإنه نفس، فلا تأكل النفس مع اللحم) (١٢ : ١٦، ٢٣) **(وأما دمه فلا تأكله لكن تريقه على الأرض كالماء)** (١٥ : ٢٣).

وجاء فى سفر أعمال الرسل : (أن تمتنعوا مما ذبح للأصنام، **ومن الدم** والمخنوق) (١٥ : ٢٠، ٢٩).

---

(١) كتب فى ٣ من فبراير ـ شباط لسنة ١٩٨٥م.

san-atharsegypt.org

والمعنى من كل ذلك أنّ المسيحية لا تبيح أكل اللحم الحىّ الذى به الدم ولا تبيح أكل الدم، وإنما تأمر بأن يراق دم الحيوان على الأرض، ولا يبقى منه شئ بجسم الحيوان. وعلة ذلك أساسا أنّ دم الحيوان به كل خصائصه وكل قوته وشهوته. إنّ المسيحية أباحت أكل لحوم الحيوانات من غير أن يكون مع اللحم دمه.

وعلى ذلك فالمسيحية :

(١) **لا تبيح بل تحرّم أكل الحيوان المخنوق**، الذى لا يراق دمه.

(٢) **لا تبيح بل تحرّم أكل الجيفة** (سفر الخروج ٢٢ : ٣١)، (سفر اللاويين ١٧ : ١٥)، (٢٢ : ٨).

(٣) **لا تبيح بل تحرّم أكل الدم.**

وبناء عليه فإذا كان ذبح الحيوانات المستوردة من الخارج يتم على هذا النحو ـ كما جاء بخطابكم : ضرب الحيوان بمسدس فى رأسه قبل ذبحه يخترق الجبهة فتتهتك الجبهة ثم يتم تدمير خلايا المخ بإبرة، ينتج عنه خلل فى عمل الأجهزة الحساسة بالجسم، يسقط بعدها الحيوان على الفور ثم يتم الذبح بحيث تنقص بذلك كمية الدم المسفوك من الحيوان ويبقى داخل اللحم، ويبررون هذه الوسائل بأنها لكفالة الرأفة بالحيوان حيث أنّ الذبح العادى المتبع فى مصر يؤلم الحيوان.

ـ نقول إن **هذه الوسائل المتبعة فى ذبح الحيوانات المستوردة من الخارج لا تقرها المسيحية لأنها لا تكفل إراقة دم الحيوان إراقة تامة، بل تكفل بقاء شئ من الدم فى جسم الحيوان الذبيح**. ولما كان **أكل الدم ممنوعا ومحرّما فنحن لا نقر من وجهة نظرنا المسيحى الذبح على هذا النحو**، ونعده من الممنوعات المحرمات.

أما الرفق بالحيوان عند ذبحه فهو مطلوب، ولكن الرفق يتوافر بذبح الحيوان **بسكين حادة وفى الموضع الذى يكفل جزّه على نحو عاجل فلا تطول مدة ألمه، وهو عادة عند الرقبة** حيث يتم كسر النخاع الشوكى فيتم الذبح بحيث يصفى دم الحيوان تماما، ولا يبقى من دمه شئ فى لحمه قبل شيه أو طبخه.

هذا، ولابدّ من التريث والإنتظار للتأكد من موت الحيوان عند ذبحه قبل شيه أو طبخه.

والله ولىّ التوفيق،،،،،

st-takla.org

٣٥ ـ حرية النفس البشرية (١)

عندما نتكلم عن الحرية. ما الذى نفهمه من كلمة الحرية. طبعا هى قدرة الإنسان على أن يفعل ما يريد وكما يختار، وقدرته على أن لا يفعل ما لا يريد أن يفعله، هى القدرة على أن يختار الإنسان ما يشاء عندما يكون فى إمكانه أن يفعل، وأن لا يفعل بحسب شأنه وإختياره دون ضغط أو كره، من دون أن يتدخل فى حريته كائن آخر ومن هنا نقول أن هناك :

١ ـ **حرية الرأى** وهى أن يرى الإنسان ما يشاء وأن يعتقد ما يشاء، ولا يُلزمه أحد فى عقيدته بشئ.

٢ ـ **وحرية التفكير** وهى أن يفكر الإنسان كما يشاء، ولا يوجد ما ومن يمنعه عن التفكير فى أى إتجاه يمكن أن يتجه إليه الفكر البشرى.

٣ ـ **حرية التعبير** أى أن للإنسان أن يعبر أى تعبير يراه مناسبا وملائما لتفكيره أو لإعتقاده أو لرأيه.

هذا هو المفهوم من كلمة الحرية : الحرية هى أن يصنع الإنسان ما يشاء وأن يكون فى مقدوره أن يفعل أو لا يفعل بحسب رأيه وإختياره دون أن يكون لأحد دخل ما فى هذا كله.

ومن هنا أيضا نفهم معنى الحرية لا بالنسبة للإنسان نفسه فى حكمه على الأمور بل بالنسبة لغيره فنقول أن هناك ما يسمى.

٤ ـ **حرية الموطن** بمعنى أن الإنسان طالما هو فى وطنه فمن حقه أن يحيا فى هذا الوطن بكرامته كإنسان، ومن حق المواطنين عموما فى هذا الوطن أن يعيشوا فيه بكرامتهم ولهم فيه كامل الحقوق، وليس لبلد آخر أن يعتدى على حرية المواطن. كما أن لهذا البلد ولكل واحد من هذا البلد الحرية أيضا فى أن يسكن فى وطنه الخاص، دون أن يكون لأحد آخر من وطن آخر حق التدخل فى حرية المواطن.

٥ ـ **حرية السكن** فلكل إنسان أن يسكن فى المكان الذى يختاره لنفسه طالما أن إمكانياته تسمح له بهذا. وفى حرية السكن يستطيع الإنسان أن يعمل ما يشاء فى حدود هذا السكن، وليس لجاره أو لأى فرد آخر أن يتدخل فى مسكن هذا الإنسان أو يضايقه بنوع ما فى حريته، لكل إنسان فى الوطن أو فى العالم عموما الحق فى أن يسكن فى المكان الذى يشاؤه... وأيضا تكون له حريته الكاملة فى هذا السكن وليس لفرد آخر أن يعتدى على حرية الآخر فى مسكنه.

---

(١) محاضرة ألقيت فى مؤتمر للتربية الدينية المسيحية فى فبراير ١٩٧٠م.

sahamaraegypt.org

٦ ـ **حرية الطعام** : للإنسان أن يأكل ما يشاء ولا حق لكائن من كان أن يفرض على الإنسان من دون إرادته أن يأكل من طعام معين دون طعام آخر. نعم فى بعض الأحيان قد يتدخل الطبيب فينصح مريضا أن يتناول طعاما خاصا لإنقاذ حياته، ولكن الطبيب لا يفعل هذا بالكره، أو بالجبر أو من دون إختيار المريض نفسه، فالطبيب ينصح وللمريض كامل الحرية فى أن يتبع نصيحة الطبيب أو يرفضها، فى هذه الأمور وفى غيرها يتضح معنى الحرية.

الحرية عقيدة : هذه المجالات التى قدمناها هى مجرد أمثلة على معنى الحرية كما نفهمه أو كما نحدده، ومع ذلك فالحرية فى مفهومها الإجتماعى تكون مقيدة فللإنسان حقوق ولكنه كفرد فى المجتمع ليس له أن يتخطى هذه الحدود، لأنه لو تخطاها اعتدى على حرية غيره، فنحن كبشر لكل منا دائرة وله أن يجرى فيها، ولكن إن خرج عن هذه الدائرة يعتدى على دائرة إنسان آخر.

والمجموع البشرى مجموعة دوائر متماسة، ودوائرنا فى المجتمع البشرى ليست دوائر منفصلة، بل كل واحد له دائرة ولكن هذه الدوائر متماسة، لأن كل واحد فينا مرتبط بشخص أو أكثر من شخص وفى الواقع نستطيع أن نقول أن كل واحد متصل بالعالم كله، وبالمعنى الأوسع نستطيع أن نقول أن كل فرد منا متصل لا بالعالم المنظور فقط إنما بالعالم غير المنظور أيضا، فكل تصرف يتصرفه الفرد منا لابد أن يؤثر هذا التصرف على أبيه أو أمه أو اخته أو أولاده أو زوجته أو أصدقائه وجيرانه ـ وليس أحد معزولا عن غيره من الناس. كل إنسان له دائرة وله أن يجرى ويفعل ما يشاء داخل هذه الدائرة. وطالما أنه لا يتخطى حدود هذه الدائرة فلا يوجد شخص يجرؤ بحق أن يعارضه طالما أنه يجرى فى داخل دائرته الخاصة. ولكن يحدث فى بعض الأحيان أن الإنسان منا يتوسع فى مفهوم الحرية فيخرج من دائرته دون أن يعلم أنه فى اللحظة التى فيها يخرج عن دائرته يكون قد دخل فى دائرة إنسان آخر، وفى هذه الحالة لا يكون إلا معتديا لا يستطيع هذا الإنسان أن يقول أنا حر، أفعل ما أشاء فى العالم كله، أنت حر فى دائرتك لا أحد يستطيع أن يناقشك فى حقوقك التى تدخل فى دائرة اختصاصك، ولكن بما أننا دوائر متماسة، وبما أن هناك كائنات أخرى تعيش معنا فى الحياة فلا يمكن أن أفهم الحرية بأن يصنع الإنسان ما يشاء فى الكون، ولابد أن تفهم الحرية بهذا المفهوم المحدود، لى دائرة أجرى فيها ما أشاء، ولكن لو تخطيت حدود هذه الدائرة أكون قد تعديت على دوائر أخرى، وفى هذه الحالة يكون هذا الآخر قد أُعتدى عليه وأصبح غير حر، بسبب أنى تخطيت حدود غيرى فيصير غيرى غير حر. وهذا هو الذى نشتكى منه أحيانا، يقول أنا إنسان مظلوم فيشكو غيره من الناس على أساس أن واحدا إعتدى عليه. وعلى نفس القاعدة كما تشكو أنت من واحد آخر لأنه اعتدى عليك، كذلك هذا الآخر من حقه أن يشكو منك إذ أنت اعتديت على دائرته ـ هنا يجب أن نفهم الحرية أنها حرية مقيدة، لكل إنسان دائرة ولكن هذه الدائرة تمس دوائر أخرى، فمن ثم يجب أن

نفهم أن لنا حدودا وأنه فى نطاق هذه الحدود يمكن أن نتصرف، ولكن يوم أن نخرج عن هذا النطاق نعتدى على حريات الآخرين. sanlamareegypt.org

وهذا ما يحدث على سبيل المثال فى حرية الملبس مثلا، صحيح أنا حر أن ألبس ما أشاء، ولكن فى المجتمع البشرى طبعا سأشعر فى وقت أن هناك حدودا معينة إذا خرجت عنها أكون قد اعتديت على حريات الآخرين، فالمجتمع له أوضاعه. صحيح أن الإنسان حر أن يلبس ما يشاء ولكن فى حدود معينة، ولا يستطيع الإنسان أن يفترض أن الناس غير موجودين، فهناك فرق بين أن يكون الإنسان فى الحمام حيث يخلع أو يلبس، وأن يكون فى الشارع حيث يجب أن يراعى حريته والمثل العام يقول كل ما يعجبك وإلبس ما يعجب الناس.

كذلك هناك فيما يختص **بحرية العمل** على سبيل المثال، كل إنسان منا مسئول عن عمل ما من الأعمال له أن يتصرف فى حدود مسئوليته وإختصاصه، ولكن لابد أن يفهم ما هى حدود هذا الإختصاص وإلا يكون قد خرج عن دائرته إلى دائرة أخرى، فالرئيس له اختصاص والمرؤوس له اختصاص فإذا تصرف المرؤوس فى حدود وفى نطاق وظيفته واختصاصه لا يلام على هذا، بل فى كثير من الأحيان يتطلب المجتمع من كل شخص منا فى حدود دائرته أن يكون مرنا، والمرونة هى قدرة الفرد على أن يتصرف التصرف المناسب غير المقيد بحدود ضيقة، فللإنسان له أن يتصرف ولكن فى حدود معينة، ويوم أن يخرج الإنسان عن هذه الحدود يدخل فى دائرة إنسان آخر، قد يدخل فى إختصاص الرئيس وحينئذ تحدث المشكلة وينشأ النزاع بين الرئيس والمرؤوس. والرئيس هنا حجته أن هذا المرؤوس خرج عن دائرته وتعدى إختصاصات الرئيس. وقد يحدث هذا بالنسبة للزملاء فلكل زميل له عمل وله إختصاص وليس لزميل أن يتعدى إختصاص زميله.

ونستطيع أن نتوسع فى ذلك فى نطاق الهيئات، فتجد هيئة معينة لها برنامج للعمل ولها أهداف وأغراض، ولها أن تتحرك بكامل حريتها وبموجب قانونها، ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان أن هذه الهيئة تخرج عن دائرتها وتعتدى على هيئة أخرى، ومن هنا يحدث النزاع بين هذه الهيئات ويقتضى الأمر إلى وجود سلطة عليا تفصل فى الخصومة بين هذه الهيئة وتلك الهيئة، كالخلاف الذى ينشأ بين الأشخاص كذلك الذى يحدث بين الهيئات على الإختصاصات، بل ينشأ أيضا بين الدول فيما يعرف بالحدود، فكل دولة وكل مملكة وكل إقليم له حدود، وعندما تعتدى الدولة المجاورة على هذه الدولة، فى هذه الحالة تصرخ الدولة المعتدى عليها وتبيح لنفسها فى هذه الحالة أن تهاجم، وهذا الهجوم يكون هجوما دفاعيا عن حدودها كما يحدث بين كل دولتين متجاورتين، قد تحدث بينهما الخصومة على الحدود وكل هذا مرجعه إلى نوع من المغالاة فى نظرة الدولة إلى الحرية. دولة تنظر إلى نفسها على أنها حرة من حيث

st-anmar.aegypt.org
أنها تمد رجلها فى غير دائرتها، ومن هنا يحدث الإعتداء والشكوى هذا هو ما يعرف بالإختصاصات واحترام الإختصاصات، كل فرد له إختصاص وفى هذا الإختصاص حريته. ولكن ليس معنى حرية الفرد فى إختصاصه أن يعتدى على إختصاص غيره.

ننتقل إلى نقطة أخرى **وهى الحرية بالنسبة للكون**. الإنسان منا كفرد فى هذا الكون الواسع المترامى الأطراف هل هو حر بالنسبة إلى الكون؟ هناك حرية لكنها أيضا حرية مقيدة، لك حرية فى أن تتمتع بالهواء والشمس والنبات وبالحيوان وتستغل كل ما فى الكون مما يملكه ويدخل فى إختصاص الإنسان ودائرة حريته، ولك أن تغلق الباب فتمنع الهواء عن نفسك، ولك أن تفتح الأبواب والنوافذ كما تشاء ولك أن تمشى فى الشمس أو فى الظل كما تشاء، ولك أن تأكل من النبات أو تشترى، ولك أن تركب الدابة وتنزل عنها. فى كل هذا لك الحرية ولكن إلى أى مدى؟ هل تستطيع أن تغير الربيع إلى الصيف أو الشتاء إلى صيف؟ أو تغير نظام الكون الشمس والزوابع والأمطار والرياح وما إلى ذلك، أو تغير لونك من أسود إلى أبيض أو إلى العكس؟

ففى أمور كثيرة يمكن أن يكون الإنسان فيها حرا وأمور أخرى كثيرة أيضا لا يستطيع فيها الإنسان أن يكون حرا، لأنها ليست دائرته هو وإنما دائرة الخالق ودائرة صاحب الكون الذى يرتب الكون، فنظام الكون يسير فى حتمية تامة. فأنا لا أستطيع أن أغير نظام الكون. وهذا لا يعنى أننى لست حرا، وإنما أنا حر فى دائرة معينة ولكن هناك رئيس الرؤساء وإله الآلهة. إذا كان الإنسان فعلا إلها صغيراً فإن الله أو كبير الآلهة أو سيد الآلهة هو نفسه له حقوق وله إختصاصات وله دائرة وليس فى مقدور الإنسان أن يتخطى إلى هذه الدائرة.

أيضاً هناك **الحرية بالنسبة لقوانين الطبيعة** فقانون مثلا كقانون الوراثة ماذا يفعل فيه الإنسان؟ إن الإنسان يرث صفات معينة عن أبيه وعن أمه وعن جدوده بنسب معينه معروفة فى قوانين الوراثة، فهذه القوانين ماذا يعمل الإنسان فيها؟ إنه يستطيع أن يستعملها أو يتعامل معها ولكن هل يستطيع أن يغيرها؟ إنه لا يستطيع، ولكن هذا ليس معناه أنه مسير فى هذا الكون، إن له دائرة وله حرية من بعض الوجوه، ولكن فى نواحى أخرى كقوانين الطبيعة يخضع الإنسان لقوانين أعلى من منسوبه هو، هذه تدخل فى دائرة الإله الأكبر الذى هو صاحب الكون الذى ينظم الكون بأسلوب رآه مناسبا لحفظ الكون.

قصدت من هذه المقدمة إذا شئتم أن نبين المفهوم الذى ينبغى أن نتواضع عليه، أن نفهمه للحرية، لأنه مع الأسف الشديد إن هذا المفهوم أحيانا نخطئ فى قبوله أو تحديده، فلابد أن نعترف أن مفهوم الحرية هو أن يصنع الإنسان ما يشاء وأن تكون فى مقدوره أن يصنع ما يشاء، ويكون فى مقدوره ألا يصنع ما لا يشاء أن يصنع، هذا المفهوم ليس مطلقا وإنما مقيد كما ذكرنا.

san amar aegypt org

قلنا أن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم فى لونه أو طوله أو عرضه، لأن طوله أو عرضه يخضع لقوانين الوراثة، وبالنسبة إلى قوانين الوراثة يمكن أن يكون للإنسان بعض الحرية فى التصرف ولكنها محدودة، فيمكن للواحد مثلا أن يلعب ألعابا رياضية فيزيد بها إرتفاعه إلى حد ما، ولكن لا يقدر أن يزداد طوله بدوره إلى ما لا نهاية، وكذلك يمكن أن يتحكم فى السمنة والنحافة ولكن إلى حد ما، لكنه لا يقدر أن يتحكم فى الزوابع والأمطار وغيرها من القوانين.

إن جميع القوانين التى نحن نعرفها يمكن أن يستغلها الإنسان، ويمكن على نوع ما أن يتكيف معها، ولكن دائرة التكيف أيضا محدودة، على أن هناك دائرة متروكة لنا قيود حرية الفعل الأدبى، يعنى أن أكون خيرا أو شريرا هذه مسألتى أنا ، أن أكون عادلا أو ظالما أو متسامحا أو حقودا هذه أيضاً دائرتى أنا، **إن دائرة الفعل الأدبى هى للإنسان ومتروكة له كلها،** وهذا هو الموضوع الأساسى لحديثنا فى هذه الساعة. حرية الفعل الأدبى أن يصنع الإنسان من جهة الغير ما شاء، فالمسألة هنا متروكة له والحرية هى كرامة الإنسان العاقل، فالله عندما خلق الحيوان خلقه مقيدا فكلنا نرى أن الحيوان يتصرف نفس التصرف الذى يتصرفه حيوان آخر إذا كان من نفس الفصيلة، فالحصان والحمار والكلب والأسد والقط والبعوضة والذبابة.. كل حيوان أو طائر إذا كان من نفس الفصيلة يتصرف نفس التصرف المرسوم ولا مجال للخطأ عند الحيوان ـ كذلك لا نستطيع أن نقول عن الحصان أنه أخطأ أو أصاب ولا نقول عن الكلب أنه أصاب أو أخطأ، أى لا نحكم على الحيوان لا بالصواب ولا بالخطأ وذلك لأنه محكوم بالغريزة أنه لا يمكنه أن يتصرف على غير ذلك، ولذلك أيضا فليس للحيوان جزاء أخروى أى لا ثواب ولا عقاب، صحيح أنه كما يقول علماء النفس ـ إن الغرائز قابلة للتكيف ولكن التكيف شئ والحرية شئ آخر، والدليل على ذلك أن مقدرة الحيوان على التكيف أمام الظروف موجودة عند كل حيوان آخر بنفس الدرجة بدون أى إختلاف، فالفأر إذا هوجم يجرى وإذا وجد مخبأ أو منفذا خرج منه، فإذن الحيوان عندما يهاجم يستطيع أن يتصرف بالهرب ولكن هذا ليس معناه الحرية. وإنما كما يقول علماء النفس هى مقدرة الحيوان على التكيف أمام الظروف التى تواجهه.. هذا التكيف موجود أيضا فى طبيعته.

وإذن الحيوان مقيد بالغريزة فى كل تصرفاته، وكل حيوان يتصرف تصرف الآخر. إنما الإنسان وحده كما يقول بعض الفلاسفة، هو الحيوان الوحيد أو الكائن الحى الوحيد الذى يستطيع أن يخطئ. ولماذا يخطئ الإنسان؟ لأنه حر أن يفعل أو لا يفعل، هذا هو مفهوم الحرية، فالإنسان حر يقرر أن يخطئ ويقرر أن يصيب ولماذا عنده حرية؟ لأنه كائن عاقل فبدلا من أن تتحكم فيه الغريزة التحكم المطلق كما تتحكم فى الحيوان زوده الله بطاقة أخرى فوق الغريزة وفى العقل الذى به يحكم الغريزة فإذن العقل والحرية متلازمان، فالكائنات الحرة عاقلة لذلك فهى حرة ولذلك أيضاً يوجد من الملائكة ملائكة صالحون وملائكة أشرار؟ إذن الحرية هى كرامة الإنسان العاقل.

sanamar aegypt.org

وهنا يسأل الإنسان لماذا بعض الناس يتمنون أن لا يكونوا عاقلين؟ فيقول بعضهم ياليتنى كنت حديداً أو نحاساً ويقول لماذا لم يخلقنى ربى كالحيوانات وذلك تهرب من المسئولية، لأن المسئولية قاسية شديدة ويتبعها الألم، فهناك إناس تحب أن تهرب من المسئولية لذلك لا يريدون الحرية وهو لا يعلم أن الحرية هى كرامة الإنسان العاقل، إذن أنا حر لأن الله يريد أن يجعلنى فى أسمى صورة لكى أكون مثل ربنا، فالله خلق الإنسان على صورته ومثاله، فكما أن الله حر يفعل ما يشاء فى خير السماء بسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل؟ هكذا أعطى الإنسان حرية، فالإنسان له أن يفعل وله أن لا يفعل خاصة فى دائرة الفعل الأدبى، يمكنه أن يصنع الخير وأن يصنع الشر وهذا بمحض حريته لأنه منح العقل كمرشد وكشافّ، لأنه ما دامت الغريزة لا تحكمه فلابد أن يعلّمه الكشاف، وهذا الكشاف هو العقل لكى يرى به الأمور ويحكم به بين الأمور المتخالفة.

والدليل على أن الإنسان هو هو ١ - **أولاً شعور الإنسان بالحرية**، أن كل واحد يناشد أنه حر وعندما ترى إنساناً يتحداك تقول له أنا حر- حتى الناس الذين ينكرون الحرية عندما تمر بهم أزمة يقول لغيره أنا حر أقبل أو لا أقبل، وكلنا نحس أن الحرية شئ ثمين جدا حتى لو أنكرناها فى بعض الأحيان. والإنسان لا ينكر الحرية إلا عندما يريد التخلى عن المسئولية، ويريد أن يحمّل المسئولية على غيره يقول ليس هذا الأمر بإرادتى وإنما على الرغم منى، إن الله هو الذى صنع هذا، أو أن الظروف التى اضطرتنى لذلك، والحق أن هذا القول هو دائماً نوع من الهرب من المسئولية، أنه يريد أن يتخلص من المسئولية فإذا سئل شخص عمن كسر الكوب يقول أن الكوب هو الذى وقع منى، أى أن الغلطة هى غلطة الكوب، الكوب هو الذى انكسر وليس أنا الذى كسرته، هذا نوع من الهرب من المسئولية أنه يحيل المسئولية على غيره، وإذا لم يجد الغير فإنه يحيل المسئولية على الظروف، وإذا لم يجد الظروف يقول ربنا عمل كده، وأحيانا يقول الشيطان عمل كده، وقد يكون الشيطان بريئاً من هذا الإتهام، صحيح أن الشيطان يمكن أن يغلبنى أحياناً، لكن لماذا لا أكون أنا هو الذى ضليت وانحرفت من تلقاء ذاتى، لكن هذه هى طريقة الإنسان لكى يهرب من المسئولية يحيل الخطأ على غيره. ولكن فى مناسبات أخرى عندما تتحدى أحدا يريد أن يقهرك على أمر وأنت لا تريده، فستضطر أن تنفس عن ذلك وتنفجر وتقول أنا حر أقبل هذا الأمر أو لا أقبل، ولا يوجد كائن على الأرض يملك أن يقهرنى على ذلك وأحيانا يعلم الإنسان أن نتيجة ذلك ضرر عليه ومع ذلك يصيح ويقول «أنا حر» فلا شك أننا كلنا نحس أننا أحرار كلنا، مهما حاولنا أن نتنصل فى بعض الأحيان من مسئولية الحرية لكن فى أمور أخرى كثيرة الإنسان نفسه يقر أنه حر.

٢ - **والدليل أيضاً على أن الإنسان حر هو شعوره بالندم** عندما يعمل الإنسان عملا غير مناسبا ويتبين أنه خطأ ولو بينه وبين نفسه يندم، إن **شعور الإنسان بالندم** دليل

anamarcaegypt.org

على اعتقاده بأنه حر. لأنه لو كان الإنسان غير حر فلماذا يندم؟ وإن الندم معناه أننى أشعر أنه كان فى إمكانى أن أتصرف ولكنى لم أتصرف، أو كان فى إمكانى أن أفعل ولم أفعل ولذلك أنا أندم. والندم غير الأسف، فقد تأسف على فرصة ضاعت عليك، أنك تأسف على عدم حضور حفلة لم تعلم بموعدها، أو يتعارض موعدها مع وقتك أو موعد آخر فتأسف لذلك لكنك لا تندم، لأنك شاعر أنه لم يكن فى إمكانك أن تحضر هذه الحفلة. فلا تندم على فعل إلا إذا أنت شعرت فى قرارة نفسك أنك أنت مدان فيه. الندم هو إدانة النفس للنفس والندم إذن دليل الحرية. كلنا نندم ومن منا ينكر أنه يندم في بعض الأحيان؟ فالندم معناه أننى فعلا حر وأنه كان فى مقدورى أن أتصرف ولم أتصرف أو كان فى مقدرى أن أمنع نفسى عن الشر ولم أمنعها لذلك يؤنبنى ضميرى، وما هو الضمير؟ هو المحكمة الباطنية، الضمير يتنصب حكما، وأنا لا أستطيع أن أقول لا، قد أقول للناس من خارج أننى معذور، لكن أمام الضمير لا أستطيع، إن الضمير يلزمنى بحكمه فاحترم حكمه وأشعر أنه صادق... وعندما يقول لى ضميرى أنك أخطأت لا أستطيع أن أناقش مناقشة جادة بل أخضع لحكمه. وأشعر أنه على حق، وأن له سلطانا أن يلومنى، إذن الندم دليل الحرية. وكل إنسان يندم، فكل إنسان حر ولولا الحرية ما كان الإنسان يندم.

٣ ـ **ودليل الحرية أيضا أنك تلوم غيرك** ـ وتقول أن فلانا غلطان، فأنت يمكن أن تحكم على تصرفات الآخرين، وتقول أن هذا مصيب وذاك مخطئ، حتى أبوك أو أخوك أو صديقك يمكن أن تقول أنه مخطئ، فقد تحكم على شخص بأنه أخطأ هذا دليل على أنك تشعر أنه كان فى مقدوره أن لا يخطئ فأخطأ وبناء عليه فهو ملوم.

٤ ـ **ودليل حرية الإنسان** أنه يستطيع أن **يغير تصرفاته**، فلو كان الإنسان غير حر لما كان فى مقدوره أبدا أن يغير تصرفاته، ولكن الذى يحدث أن الواحد منا يستطيع أن يغير تصرفاته عندما يقتنع أن هذا التصرف خطأ وأنه ينبغى أن يغيره. ونحن فى تجربتنا البشرية من الطفولة إلى الآن. وإلى نهاية الحياة نعرف أننا عندما نقتنع بتصرف معين يستطيع الواحد أن يغير تصرفه.

وهذا دليل الحرية عندما نقتنع مثلا أن التدخين خطأ نستطيع أن نقلع عنه، وإن كان البعض يحتج أنه لا يستطيع، فهذا مرده إلى ضعف إرادته ولكن هناك إناس ممن لهم الإرادة القوية يمكنهم أن يقلعوا عن أى عادة من العادات. كذلك تستطيع أن تغير علاقتك بالآخرين، فالحب والكراهية تستطيع أن تبدلهما، فإذا كنت تحب واحدا ثم قيل لك أن هذا يكيد لك أو يصنع لك مقالب، تجد أن شعورك قد تغير من نحوه وبالتالى تصرفك يتغير بإزائه، ويتحول الحب إلى كراهية، والعكس أيضا يمكن أن تتغير الكراهية إلى حب **فقابلية الإنسان للتغير دليل حريته.**

san amar aegypt org

ولذلك التوبة ممكنة كانت ولا زالت ممكنة فى حياة الإنسان هل هى مستحيلة، لا هناك أمثلة لا حصر لها عن أشخاص خطاة وأشرار ومجرمين وفاسدين تحولوا إلى قديسين وإلى أطهار، إذن التوبة ممكنة وقد حصلت فى تاريخ البشرية ولا زالت تحدث فى كل يوم وما دامت التوبة ممكنة **فإذن الإنسان حر ولو لم يكن حرا لما كانت التوبة ممكنة.**

وهنا كانت مهمة الوعظ ومهمة الإرشاد ومهمة التعليم، إننا نفهم جلال مهمة التعليم، وجلال مهمة المعلم قائمة على أساس أنه يستطيع أن يصنع شيئا. يستطيع أن يقوم الناشئة ويستطيع أن يعدل من تصرفات الناشئة والشباب، لذلك يظهر جلال هذه المهمة وشرفها، لذلك كلما وجد المعلم الصالح والمعلم المعد الإعداد العظيم لمهمته، كلما تغيرت الأمة بأسرها وتغير الوطن والشباب والرجال والأمة كلها والمجتمع. لذلك فإن التساهل فى إختيار المعلم خسارة شديدة للأمة كلها، وكلما تساهلنا فى شروط المعلم كان فى ذلك خسران عظيم جدا فى الناحية التربوية كلها، ليس فقط من الناحية العلمية والإجتماعية والعقلية وإنما أيضا من الناحية الأخلاقية والروحية.

وهكذا الوعظ للكبار والإرشاد والتوجيه فى مجال الإصلاح الدينى والإجتماعى عند قادة الفكر من أى نوع وعند الفلاسفة والمفكرين والعلماء فى مجال القادة الذين يوجهون المجتمع أو الهيئات المختلفة لو لم يكن الإنسان حرا لكانت جهود هؤلاء عبثا فى عبث، فلا يمكن للوعظ وللإرشاد والإصلاح الإجتماعى قيمة أو معنى ما دام الإنسان غير حر، فأى تبرير يمكن أن يقدم لمهمة المعلم أو المرشد أو المعلم الإجتماعى أو القادة فى مختلف مجالات القيادات؟ ما جدوى هذا كله إذا كان الإنسان غير حر، ولكن لأن الإنسان حر لذلك يظهر عمل وتوجية وثمار المعلمين والمرشدين والقادة.

هذه الأعمال وهذه الإختصاصات وهذا الجهد من شأنه أن يرفع روح الإنسان المعنوية حينما يرى أنه يستطيع فعلا أن يصنع شيئاً فى المجتمع، ويستطيع أن يعدل وأن يقوم وأن يغرس الفضيلة فى نفوس الناشئة، ولو لم يكن الإنسان حرا لكان كل هذا لا جدوى منه ولا فائدة فيه ويكون عبثا فى عبث، ومضيعة للوقت، ولا فائدة لا فى قراءة، ولا فى درس ولا فى توجيه ولا فى عمل ، ولا فى شئ من هذا كله. وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان، إن الخروف أو الجمل أو الكلب يعيش فى قطيع لذلك لا فائدة منه لجنسه ولا تقدم، فمن وقت أن عرف الحصان إلى الآن باق كما هو، والنمل من يوم أن كتب فرجيل وهو من أقدم ما كتب الإنسان فى وصف صفات النمل وخصائصه، من ذلك الوقت إلى الآن لم يتطور النمل أو يتقدم أو يتغير، ولم يتغير الخروف أو النحل أو اليمام، إنما الإنسان تغير تغيرات كبيرة، والإنسان اكتسب معارف وعلوم صنعت فارقا كبيراً بين جيل وجيل، إن الموتى لو استيقظوا الآن ورأوا ما أحرزه الإنسان فى

san amar aegypt.org
النصف الثانى من القرن العشرين لقالوا ما هذا كله؟ وأنت نفسك تحس أنك يوم أن كنت طفلا غيرك وأنت شاب فى ربيع الحياة، وغيرك وأنت رجل وغيرك وأنت كهل. الواحد منا يحس فى حياته الخاصة بالتطور والتغير فى الفكر والعمل، فكم من أفكار كثيرة كانت قديمة وواضحة وكنت مؤمنا بها، من بعد ذلك تركتها وغيرتها وإنقلبت عندك إلى ما هو ضدها، هذا يرجع إلى هذه الميزة للإنسان عن الحيوان، وإلى مقدرة الإنسان على أن يغير فى نفسه شيئا، وأن يغير المجتمع، ليس هذا فى الحيوان أبدا ولا فى الطيور وليس فى شئ غير الإنسان، ولأن الإنسان فى مقدوره أن ينقل خبراته ومعارفه إلى غيره من الناس، وفى مقدوره أن يصنع شيئا، وأن فى عالم الحيوان لا يوجد حيوان واحد استطاع أن يخدم جيله من فصيلته أو غير فصيلته أى خدمة وإنما كل شئ باق كما هو.

ثم لماذا يتساوى إنسان مع غيره فى الظروف والبيئة ومع ذلك يختلف عنه فى السلوك. أخوان من بطن واحدة ويعيشان فى بيت واحد وقد يتساوى إنسانان فى الظروف وفى البيئة وفى أشياء كثيرة ومع ذلك يختلفان فى السلوك : واحد خير والثانى شرير، واحد صالح والثانى طالح، فما هو السبب مع ثبات الظروف.. **إذن هذا يرجع إلى ما للإنسان من نصيب من الحرية** هى التى تستطيع أن تصنع هذا الفارق على الرغم من تساوى الظروف، وهذا نجده فى الكتاب المقدس يقول «انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والموت والخير والشر أشهد عليكم اليوم السماء والأرض قد جعلت قدامك الحياة والموت، والبركة واللعنة. فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك» (التثنية ٣٠ : ١٥ - ١٦) لماذا تضطرنى إلى هذا، لماذا أختار أنا؟ نعم فإنى أنا خلقتك عظيما خلقتك كريما، خلقتك على صورتى ومثالى، شرفتك بالحرية، لذلك تركت الأمر بين يديك لتصنع أنت نفسك، وتصنع أنت مستقبلك، أما أنا فإنى أنصحك وفى آخر الأيام يمكن أن أكافئك ويمكن أن أعاقبك لأنى تركتك حرا لكى تختار ما تشاء.

ومرة أخرى يقول يشوع بن نون فى التوارة «فالآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة... إن ساء فى أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون... وأما أنا وبيتى فنعبد الرب» هذا هو اختيارى أما اخترتم «فأجاب الشعب وقالوا حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى... فقال للشعب «ولا تقدرون أن تعبدوا الرب لأنه إله قدوس وإله غيور هو لا يغفر ذنوبكم وخطاياكم... فقال الشعب ليشوع لا بل الرب نعبد. فقال لهم يشوع أنتم شهود على أنفسكم إنكم قد اخترتم لأنفسكم الرب لتعبدوه فقالوا نحن شهود» (يشوع ٢٤ : ١٤ - ٢٢) أى أن المسألة كانت مطروحة للإختيار.

وفى سفر الجامعة يقول «افرح أيها الشاب فى حداثتك وليسرك قلبك فى أيام شبابك واسلك فى طرق قلبك وبمرأى عينيك واعلم أنه على هذه الأمور كلها يأتى بك الله إلى الدينونة» (الجامعة ١١ : ٩، ١٠).

مرة ثانية يقول ربنا «هل مرة أسر بموت الشرير يقول السيد الرب إلا برجوعه عن طرقه فيحيا» (حزقيال ١٨ : ٢٣) إن الرب لا يريد أن نبقى فى الشر إنما يفرح أكثر برجوع الإنسان عن طريق الشر فيحيا، إذن المسألة متروكة لنا. الله لا يلزم ولا يجبر ولا يقدر على الإنسان ثم يقول «لأنى لا أسر بموت من يموت يقول السيد الرب فارجعوا واحيوا» (حزقيال ١٨ : ٣٢) ويقول أيضا «حى أنا يقول السيد الرب إنى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا عن طرقكم الرديئة فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل. ارجعوا ارجعوا» هذه نصيحة لا بالإجبار ولا بالإلزام ولا بالكره ولا بالضغط، ولكن نصيحة أنتم إذا رجعتم ستحيون وإن لم ترجعوا ستموتون. الله ينصح ويبين أن أمام الإنسان الحياة والموت وله أن يختار ما يشاء.

وفى سفر زكريا يقول «قل لهم يا زكريا هكذا قال رب الجنود ارجعوا إلىَّ يقول الرب فأرجع إليكم يقول رب الجنود» (زكريا ١٤ : ٣) إن للإنسان حرية وأن فى مقدوره أن يرجع وإلا لم يكن الله يطلب منه هذا. الله يطلب لأنه يعلم أن هذا فى مقدور الإنسان أن يفعل.

ثم أن سيدنا له المجد يخاطب أورشليم ويقول لها «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا» (لوقا ١٣ : ٣٤ ، ٣٥) ... ولم تريدوا... أنا أردت وأنتم لم تريدوا... هذا معناه أنه يمكن أن يكون هناك تعارض بين إرادة الله وإرادة الإنسان. ومعناه أيضا أن الله لم يلزم أورشليم بشئ، وإنما تركها لحريتها، فلما لم ترد لم يكرهها ولم يلزمها بشئ، إنما تركها «هوذا بيتكم يترك لكم خرابا» (انظر أيضا متى ٢٣ : ٣٧ ، ٣٨)وأيضا عندما ذهب مخلصنا إلى الرجل المفلوج المطروح على بركة بيت حسدا ٣٨ سنة يقول الإنجيل «هذا رآه يسوع مضطجعا وعلم أن له زمانا كثيرا فقال له أتريد أن تبرأ» (يوحنا ٥ : ٦) ياربّ ألا ترى أن لى ٣٨ سنة أنت أعلم وأنت تعرف... وهل هذا سؤال تسأله لى، فأنت تعرف.. لا.. حتى الشفاء لا يفرضه الرب فرضا على الإنسان. الله يسأل الانسان إذا كان يريد. ولابد للإنسان أن يقول أريد... هذا برهان الحرية.

وفى سفر الرؤيا ٣ : ٢٠ يقول الرب «ها أنا واقف على الباب أقرع إن سمع أحد صوتى وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه» فإذا لم يفتح هو أنا لا أدخل.. أرأيتم أكثر من هذا دليلا على احترام حرية الإنسان؟... الله يقول «أنا واقف على الباب أقرع إن فتح لى أحد...» يعنى أن المفتاح من الداخل.. المسيح لا يمكن أن يقحم نفسه... للإنسان كمال الحرية. وسفر نشيد الأناشيد يعطينا المداعبة اللطيفة التى ما بين النفس الإنسانية وما بين عريسها وهو أن المسيح له المجد يقول أن العريس ظل يقرع على الباب قائلا «إفتحى لى يا إختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى» (٥ : ٢) والنفس من الداخل تقول له أنا غسلت رجلىّ فكيف أوسخهما.. إنها

اعتذرت.. هل فتح العريس الباب بالقوة؟ أبدا.. وبعد قليل يقول الكتاب بلسان النفس «فتحت لحبيبي لكن حبيبي تحول وعبر» ٥ : ٦ فتحركت أحشاؤها من الداخل وقامت أنها ندمت وقالت فتحت الباب ولكنه تحول وعبر وطلبته فما وجدته دعوته فما أجابني (٥ : ٦) هذه النصوص التي فيها النفس البشرية ظلت تعبة ومتحيرة. لأن العريس لم يستطع أبدا أن يقحم نفسه ويدخل على الرغم من إرادة النفس. وهذا دليل إحترام المسيح لحرية الإنسان.

يقول أيضا «من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن» (مرقس ١٦ : ١٦) أي المسألة هي مسألة من يؤمن ومن لا يؤمن .. هناك حرية ولكن هناك أيضا مسئولية. ويقول مار بطرس الرسول «لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ لكنه يتأنى علينا وهو لا يشاء أن يهلك إناس، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة» (٢. بطرس ٣ : ٩) يعني أن مشيئة الله ليست في هلاك الإنسان ولكن في خلاصه ومع ذلك لا يجبره على ذلك.

نقطة أخيرة: سؤال نسأل فيه عادة لأن هذا السؤال متصل بهذه القضية الكبيرة - هذا السؤال ورد في رومية ٩ : ٩ - ٢٣ نص يفهم منه بعض الناس أن الله يرحم من يرحم ويقسي من يشاء والله هو الذي اختار... أحب يعقوب وأبغض عيسو «لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيرا أو شرا لكي يثبت قصد الله بحسب الإختيار لا من قبل الأعمال بل من قبل الذي يدعو. قيل لها أن الكبير يستعبد للصغير كما كتب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو فماذا نقول ألعل عند الله ظلما حاشا. لأنه يقول لموسى إني أرحم من أرحم. أتراءف على من أتراءف فإذا ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذي يرحم لأنه يقول الكتاب لفرعون إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي ولكي ينادي باسمي في كل الأرض. فإذا هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء فستقول لي لماذا يلوم بعد لأن من يقاوم مشيئته بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله... ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا»..

هذا هو النص الذي يبدو كأنه مشكل بالنسبة لنا. أو صعوبة في فهمه ويجد فيه الناس الذين يفتشون عن شئ يهربون به من المسئولية.. يجدون هذا النص تكئة للهرب من المسئولية... وأن يحملوا الله المسئولية كلها، يقولون أن الله يريد ذلك ويرغب في ذلك وربنا عمل ذلك. فبالإيجاز أريد أن أقول أنه منطقيا (مع ترك النص الآن) هل تعقل أن الله يظلم... هل يعقل أن الكتاب المقدس يقول لنا أن الله يظلم... طبعا حاشا، الله لا يظلم، ثم ما الداعي أن الله يحابي؟ هل هو خائف منا؟ وما الداعي أن يميز الله بين واحد وآخر كلنا جبلته. وكلنا أولاده. ما الذي يميز الواحد فينا عن الآخر لا شئ.. الله في غنى عني وعنك، وفي غنى عن الكل، لماذا يحابي إذن فلانا ويظلم فلانا، لماذا؟ هو أبو الخليقة كلها، وسيد البشر جميعا، إذن لا يمكن أن يدخل في حسابك

بتاتا ان الله يظلمك... فما معنى ذلك؟ ما هذا؟ ربنا يريد أن يقول لنا أنه يعرف معرفة سابقة أحوالنا... الله يعرف المستقبل كما يعرف الحاضر، الإنسان منا لأنه محدود ينظر فيفكر فى هذه الفكرة التى هو محصور فيها واسمها الحاضر. ثم أن الفكرة التى أنا تركتها قبل ذلك بدقيقة واحدة أو نصف دقيقة أو ثانية أصبحت فى الماضى لأنى لا أفكر فيها الآن، ليست هى فى بؤرة الشعور كما يقولون فى علم النفس، والشئ الذى بعد ما أنتهى سأفكر فيه، هذا بالنسبة لى هو المستقبل، فهذا التقسيم بين ما هو حاضر ومستقبل هو بالنسبة لى أنا وبالنسبة لك أنت، لأن العقل البشرى محدود وصغير ولا يستطيع أن يفكر فى شيئين فى وقت واحد. فالذى يفكر فيه الآن اسمه الحاضر، والذى كان يفكر فيه من مدة وذهب إلى حاشية الشعور... هذا ما نسميه بالماضى. والشئ الذى سيأتى بعد ما انتهى من الذى أنا فيه، والذى فى بؤرة شعورى نسميه المستقبل وهذا مرجعه إلى أن الإنسان عقله محدود وصغير ولا يستطع أن يعى ويدرك ويحيط، بأكثر من شئ واحد فى وقت واحد... أما الله فما الداعى أن يكون بالنسبة له ماضى وحاضر ومستقبل، الله بالنسبة له لا يوجد حاضر أو ماضى أو مستقبل كل شئ أمامه.. والله يحيط بكل شئ فالمستقبل كالحاضر وكالماضى، لا فرق عند الله، لذلك يعلم الله ما سيحدث بالنسبة لى أنا... أما بالنسبة لى فسيحدث لكنه بالنسبة لله كل شئ منظور ومرئى ومعروف فيعقوب معروف عند الله قبل أن يولد - الذى أنا أسميه المستقبل معروف عند الله ماذا سوف يكون، ومعروف أمام الله من عيسو، ولذلك قال لها «فى بطنك توأمان ومن أحشائك يفترق شعبان شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير» ، ولم يقل لها أنا أستعبده، قال لها كبير يستعبد لصغير، ولم يقل أنا حكمت عليه بالإستعباد، هذا نوع من الاخبار بالنسبة لنا أخبار بالمستقبل ولكن بالنسبة لله هو فى علمه تعالى منذ الإبتداء، إذن الله يعلم، بناء عليه إذا أشار الكتاب المقدس إلى شئ من هذا القبيل فهذا ليس معناه أن الله يريد ذلك، حاشا أن ننسب إلى الله التعسف والتحكم بغير سبب، أنت لا تقبل على نفسك هذا أن تتعسف أو يتهمك أحد بالتعسف، أن تتهم بأنك تعطى تلميذا على حساب تلميذ آخر، وضع أنت لا تقبله.. لا تقبل ذلك وتعتبرها رذيلة فكيف تقبلها على الله؟ لو كنت ناظر مدرسة وتتهم بالتعسف أو التمييز لمدرس ضد مدرس آخر أو لتلميذ، أنت لا تقبلها على نفسك وتعتبر إنها مهانة لا تليق بك. لو كنت قاضيا فهل تقبل على كرامتك أنك لا تفصل فى الأمور بالحق؟؟ هل تقبل؟؟كذلك الأمر فى دائرة العلم إن العالم الحق لا يقبل... لا يقبل أبدا أن تتحكم فيه الأفكار السابقة، لذلك يحاول دائما أن يكون موضوعيا... لذلك نقول هذه صفات العلماء الحقيقيين أنهم لا يضعوا تحيزات أو أشياء شخصية فى الموضوع، ومعروف فى علم المنطق ما يسمى بالمغالطات، ومن ضمن المغالطات ما يسمونه بالحجة الشخصية فأنت لا تقبل وليس من كرامتك، ولا تسمح لنفسك ولا غيرك أن

يتهمك... إذن فكيف تقبل أن الله كلى العدل وكلى الصلاح ويريدنا أن نكون على أحسن صورة، كيف تقبل. وكيف تعقل أن الله يظلم وكيف تعقل أن الله يتحكم. الله عندما يرحم واحد ولا يرحم الآخر هذا ليس مرجعه إلى التعسف أو التحكم، وإنما إلى إستحقاق هذا الشخص... لكن الله يعرف هذا سابقا لذلك يرحم لأن فلانا يستحق الرحمة. أحببت يعقوب وأبغضت عيسو، أحبه لأنه رأى سابقا أعماله، وأبغض عيسو لأنه رأى سابقا أعماله. فأنت أيضا أحيانا تنظر من الشباك فتجد شخصا قادماً فهل نأتى نحن ونقول لك أنك أنت الذى أتيت به. أبداً أنت رأيته فقط وأتيت تقول لنا أن هناك شخصا قادما... فلا يلوم أحد عليك، ولا يأتى الناس ويلومون أن المسئولية عن القائمين بالأرصاد عندما يقولون أنه سيحدث كسوف فى الشمس، أو خسوف فى القمر، لا يقولون أن الدكتور فلان أو الأستاذ فلان هو الذى أتى لنا بكسوف الشمس أو خسوف القمر ثم يحاكمونه؟.. هذا يكون غير معقول أنك أنت تعتبر أن مدير المرصد هو الذى أعلن فى الصحف أنه سيحدث كذا وكذا أنه هو المسئول عن هذا. إنه استطاع أن يعرف نتيجة المنظار الذى ينظر فيه فاستطاع أن يرى الأشياء المستقبلة. هكذا الله لا يمكن ولا يعقل أن الله يتحكم، من جهة صفات الكمال التى فيه، وأنه ليس عنده داع إلى هذا. ولكن كل ما هناك أن الله يرى الأشياء قبل أن تحدث بالنسبة لنا، ولكنها حاضره بالنسبة له، الذى يستطيع أن يقول إننى أحببت يعقوب وأبغضت عيسو. لأنه رأى أن أفعال يعقوب تستحق الحب «وكان يعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام»... ورأى أفعال عيسو فأبغضه من أجلها، ونفس الكتاب يقول عن عيسو «كيف فتش عيسو وفحصت مخابئه» (عوبديا : ٦) من الذى فحص من الذى عرف مخابئه؟ أنه الله، فأنت قد لا تعرف قصة عيسو بالضبط لكن الله فاحص الأعماق والكلى يعرف أعماق عيسو. وأيضا فى عوبديا : ١٠ «من أجل ظلمك لأخيك يعقوب يغشاك الخزى وتنقرض إلى الأبد» من أجل ظلمك أى أنه ينسب إلى عيسو الظلم وأن له أعمالا فعلها عيسو تستحق من أجلها أن يغشاه الظلم وأن ينقرض إلى الأبد.

وجاء فى رسالة مار بولس الرسول إلى العبرانيين «ملاحظين لئلا يخيب أحد من نعمة الله.. لئلا يكون واحدا مستبيحا كعيسو الذى لأجل أكلة واحدة باع بكوريته» (١٢ : ١٥، ١٦) وإذن الله لم يظلم عيسو وإنما أعطانا قبل الأوان صورة لما سيفعله عيسو، وليس هذا تحكما ولا جبرا ولا ضغطا، ولكن الله بعلمه السابق يعرف الأمور التى ستحدث بالنسبة للإنسان كأنها حاضرة وكأنها حادثة.

ثم يقول «ألعل الجبلة تقول لجابلها لما صنعتنى هكذا؟» ما معنى هذا الكلام؟؟ يعنى أن الإنسان يتجاوز حدوده فى الإعتراض على الله. كثيرا ما يقول الواحد لماذا يعمل الرب ذلك وكثيرا ما يتطاول الإنسان ويقول إن الله ظالم. ألا ترى إن بعض الناس يوجهون الكلام إلى الله

ويقولون أنت لا ترى (مش شايف)؟ هذا هو ما يناقشة بولس الرسول وكأنه يقول للإنسان اسكت ولا تتكلم، حرام، عيب، خطيئة، ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا؟ هذا ما نسميه بالبرهان الإسكاتى، ماذا يعنى الإسكات؟ يعنى أنه عندما تجد شخصا صغيرا معلوماته ضحلة وتافهة ولا يعلم القصة من أولها، ويأتى ليعترض عليك اعتراضا تافها تقول له أنت تسكت، اللى أعمله أنا أعمله، أنا الرئيس، وفى بعض الأحيان يصعب عليك أن تشرح لكل واحد ما تفعله، أو أن تجيب على كل من يسألك، هناك أسئلة تافهة، وهناك إعتراضات تافهة يصعب الإجابة عليها لأنها تضيع الوقت، فتضطر أن تسكت هذا الإنسان، وتقول له اسكت أنت، أنا أعرف ما أعمل، لكن هذا ليس معناه أنك أنت فعلا تصنع شيئا ضد العدل، أو أنك تقر بنفسك أنك تصنع شيئا ضد الخير، لكن معناه أنك تريد أن تسكت الشخص لأنك تعتقد أنه يعترض بسوء أدب فأنت تسكته متضايقا من سوء أدبه، لكن هذا ليس معناه أنك عندما تقول أنى أفعل ما أشاء أنك تظلم، أو تَرضى لنفسك أن تَظلم أو ترضى لنفسك أن تَصنع الشر. فأنت تقول أنا أفعل ما أشاء لتعطى لنفسك الحق فى أن تكون حرا غير مقيد التصرف ولكنك باطنيا مقيد، مقيد بالفضيلة... وباطنيا مقيد بالإلتزامات الأدبية. هكذا الله... الله لا يقدر أن يكذب ولا يقدر أن ينكر نفسه، وكلمة لا يقدر هنا لا تعنى ضعفا ولكن لأن هذا الشئ يتعارض مع كمالات الله. عندما أقول إن واحد منكم لا يمكن أن يكذب، فهل هذا ينسب الضعف إليه؟ كلا بل أنا أصفه وصفا جميلا وهذا مدح له، ومعنى ذلك أن طباعه لا تسمح له بالكذب فهذا شرف له، فلما ترى أن الله لا يقدر أن يكذب أو ينكر نفسه فلا يعتبر هذا ضعفا بالنسبة لله. إن الله لا يقدر أن يظلم ولا يمكن أن يظلم لأنه هو العادل الأول والأعظم، وكلى العدالة أى العادل إلى ما لا نهاية، فلتطمئن أن الله لا يمكن أن يظلم فاصمت ولا تعترض ولا تسأل هذه الأسئلة... لأن وضع نفس السؤال مهين وطريقة السؤال غير لائقة، فهذا هو البرهان الإسكاتى. يقول الرسول بولس اسكت أنت. أنت جبلة، أنت طين، من أنت لكى تعترض على الله، لكن ليس معناه أن الله يظلم، أبدا، لذلك لم يقل أرحم من أرحم، وأظلم من أظلم لم يحدث هذا إطلاقا، وإنما قال ارحم من ارحم أتراءف على من أتراءف، لم يقل أنا اظلم، وبعد ذلك تقول إنه يقسى قلب فرعون. نعم هذه التقسية ليس معناها أن الله هو الذى أدخل القسوة إلى قلب فرعون، ولكن معناها أن الله تركه بنفس بغير نعمة، فهو قد جف من نفسه، إن الشمس تذيب الشمع وتصلب الطين على ما قال يوحنا ذهبى الفم، النعمة بعض الناس يقبلونها فتذيبهم وبعض الناس يرفضونها، ويرفضون عمل الله لذلك يتقسون، فالقسوة أو التقسى هو من الإنسان نفسه ونتيجة لتصرفه وعمل الإنسان نفسه. وهو الذى يختار لنفسه هذا.

إنما الله يظل يلح على الإنسان ثم يتركه، وإذا تركه وتخلت نعمته عنه فهو من قبل نفسه يتقسى، ومن قبل العوامل المختلفة الأخرى مثل أصدقاء السوء الذى يساعدونه على الشر، ثم

خصائصة الشخصية تساعده، والشياطين أيضا يساعدونه، والأشرار الذين مثله يساعدونه، فيملأوا ذهنه بالأفكار الشريرة ويملأون عقله لأنه رفض مشورة الله. والله عندما يرفض إنسانا يتركه ويتخلى عنه، وذلك لأنه أولا ظل يقرع على الباب فلما لم يجد فائدة يتركه. فالله يترك الإنسان لكن ليس معنى هذا الترك أن الله يقسى أحد بالفعل، ولكن لأن فعل الترك يجعله يتقسى، فالله ينسب إلى نفسه هذا لكى يبين أن حتى الشر الذى يحدث على الأرض فإنما هو بسماح من الله، لأنه جعل الإنسان حرا فإنه يصنع ما يشاء، فالله مسئول مسئولية غير مباشرة عن الشر - أى الله لا يمكن أن يكون علة أولى للشر، وإنما الله علة ثانية للشر، فإذا قتل واحد آخر فالله لا يمكن أن يكون عله أولى فى ذلك، لأن الله لا يمكنه أن يكون هو الذى أمر بأن يقتل الإنسان أخاه، بل بالعكس أن الله هو الذى قال لا تقتل، لكن لأن الله يريد الإنسان حرا فكونه ترك الإنسان ليقتل، وكان يمكن أن يمنعه من أن يقتل، فيعنى هذا أن الأمر قد تم بإذنه وليس بإرادته - لذلك اعتبر الله نفسه ليبين أنه هو وحده ضابط الكون، ولكى لا يأتى قوم ينادون بإله ثان - لأنه حتى الشر الذى يحدث فى الكون هو بإذنه تعالى وليس بإرادته، لذلك ينسب الله إلى نفسه الشر أحيانا، ويقول مرة هل تحدث بليه فى المدينة والله لم يصنعها؟ وحاشا على الله أن يكون هو الصانع الأول للبلية، إنما لأن البلية تحدث فى الكون الذى الله ضابطه ومالكه، وكان يمكن أن يمنعه ولم يمنعه فلذلك اعتبر نفسه علة ثانية للشر، ولكى يظل الله وحده هو الإله وليس غيره.

ويقول القديس أوغسطينوس الله يجازى عن الخير بخير لأنه عادل، ويجازى عن الشر بخير لأنه صالح، ولكن لا يجازى عن الخير بشر، لأن هذا ينافى عدله وصلاحه، فهو يفرح بالخير الذى تعمله ولا يمكن أن يظلم الله الإنسان، لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة على ما يقول الرسول بولس.

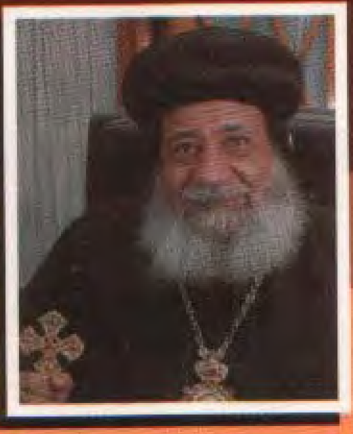

« حياة أنبا غريغوريوس تتلخص فى كلمتين « التكريس والعلم »... كانت الإكليريكية هى جزء من حياته ، وكان العلم يشغل كل وقته .. كان الأنبا غريغوريوس يتميز بالشمولية فى العلم ....

كان أنبا غريغوريوس عالما ، إذا كتب يستفيض فى الكتابة حتى لاتعرف كم من المعلومات يقول ... كان كثير القراءة إلى حد بعيد ، وكان عميق الدراسة إلى حد بعيد .. له مئات من الآباء الكهنة كانوا أبناءه ، وأستقوا العلم على يديه ، والذى لم يستقى العلم على يديه إستقاه من كتبه ومؤلفاته ، وله عشرات من الكتب فى كل فنون العلوم الكنسية ، .. كان أيضا إنسانا وطنيا يحب بلاده ويحب مصر . له معلومات كثيرة وكتب كثيرة فى الوطنية .. وعن سير القديسين ... هو موسوعة من المعلومات .

الأنبا غريغوريوس على الرغم من علمه الكبير جداً ، كان إنساناً بسيطاً يجمع بين البساطة فى النفسية والعمق فى العقلية .. هو مثل من الأمثلة التى لاتتكرر كثيراً فى العلم الكبير .. »

قداسة البابا شنوده الثالث

فهرس الموضوعات

مقدمة ٧
إهداء ٩
مقدمة فى علم اللاهوت الأدبى ١٠
تعريفه ١٠
الفرق بينه وبين علم الأخلاق ١٠
أهميته ١١
الشريعة الأدبية ١٢
الشريعة الطقسية ١٢
الشريعة السياسية ١٣
موقف المسيحية من شريعة العهد القديم ١٤
أقوال الرسل وتصرفاتهم ١٨
شريعة العهد الجديد مكملة لشريعة العهد القديم ١٩
الضمير ٢٩
متى ظهر الضمير فى الإنسان ٣٠
تعريف الضمير ٣١
الضمير فى اشتقاقه اللغوى ٣٢
الضمير فى تحليل لفظه ومدلوله ٣٣
ألقاب الضمير وأسماؤه ٣٤
وجود الضمير عند جميع الناس وفى مختلف مراحل العمر ٣٩
مصدر الضمير ٤٦
الضمير الأدبى والشعور النفسى ٤٨
تمايز الضمير الأدبى وتغايره ٥٠
١ - تغاير الضمير فى الفرد الواحد ٥٠
٢ - تغاير الضمير من فرد إلى فرد ٥٣
أسباب اختلاف الضمير ٥٥
٣ - تغير الضمير من أمة إلى أمة ٥٩

٤ ـ تغاير الضمير من جيل إلى جيل ٦١
تعليل هذا التطور وتفسيره ٦٣
النتائج التى نستخلصها من تمايز الضمير وتغايره ٧٢
الضمير فى عهد الشريعة ٧٣
الضمير فى نور المسيح ٧٤
عوامل ضعف الضمير ٨٦
١ ـ الإهمال ٨٦
٢ ـ المخالفة والعصيان ٨٧
٣ ـ الاستسلام للشهوات ٨٨
٤ ـ تقريب مسافة الفرق بين الحلال والحرام ٨٩
٥ ـ التأمل فى الأمثلة الشريرة والصفات الرديئة ٩٠
عوامل نمو الضمير ٩٢
١ ـ الطاعة لصوت الضمير ٩٢
٢ ـ ازدياد المعرفة ٩٢
٣ ـ التأمل فى أفعالنا وأقوالنا قبل وبعد حدوثها ٩٣
٤ـ التأمل فى الفضيلة والفضلاء ٩٤
٥ ـ ممارسة الفضائل وأفعال الخير والبر ٩٥
مهمة الضمير ووظيفته: ٩٧
أ ـ قبل الفعل .. مرشد ودليل ٩٧
ب ـ أثناء الفعل ... شاهد ورقيب ٩٨
جـ ـ بعد الفعل... قاضى وحكيم ٩٨
سلطان الضمير ٩٩
حقيقة الضمير ١٠١
عناصر الضمير ١١٤
أولاً: العنصر العقلى ١١٤
ثانياً: العنصر الشعورى أو العاطفى ١١٥
أ ـ عواطف تتصل بأفعالنا قبل حدوثها ١١٦
ب ـ عواطف تتصل بأفعالنا بعد حدوثها ١١٨

جـ ـ عواطف تتصل بأفعال الآخرين ١٣٢
ثالثاً: العنصر الإرادى أو الفعال ١٣٥
المسئولية الأدبية ١٤١
مناط المسئولية ١٤٢
أولاً: بالنسبة للفاعل ١٤٢
١ ـ من حيث أنه كائن عاقل ١٤٢
٢ ـ من حيث أنه كائن حر ١٤٣
٣ ـ من حيث هو مريد ١٤٣
ثانياً: بالنسبة للفعل «أى من حيث قوامه الأدبى» ١٤٧
مفارقات المسئولية ١٤٩
أولاً: الظروف الشخصية ١٤٩
أ ـ الفاعل: (من؟) ١٤٩
١ ـ سن الفاعل ١٤٩
٢ ـ جنس الفاعل ١٥٠
٣ ـ بنية الفاعل واستعداده الجسمانى ١٥٠
٤ ـ الفاعل فى مستواه الذهنى أو الفكرى ١٥٢
٥ ـ الفاعل من حيث استعداده النفسى ١٥٢
٦ ـ الفاعل وديانته ١٥٣
٧ ـ الفاعل من حيث حصانته المادية ١٥٣
٨ ـ الفاعل من حيث مكانته الأدبية ١٥٤
٩ ـ الفاعل من حيث مكانته العلمية ١٥٥
١٠ ـ الفاعل ومكانته الاجتماعية ١٥٧
ب ـ كيفية الفعل: (كيف؟) ١٥٧
جـ ـ أسباب الفعل: (لِمَ؟) ١٦١
د ـ المفعول به (لِمَنْ؟) ١٦٢
١ ـ طبيعة المفعول به ١٦٢
٢ ـ سن المفعول به ١٦٤
٣ ـ جنس المفعول به ١٦٤

٤ ـ ديانة المفعول به ١٦٥
٥ ـ المفعول به وحصانته المادية ١٦٥
٦ ـ المركز المالى للمفعول به ١٦٦
٧ ـ المفعول به ومركزه الروحى ١٦٦
٨ ـ المفعول به ومركز القرابة ١٦٧
٩ ـ المفعول به ومركزه الأدبى ١٦٩
١٠ ـ المفعول به ومركزه الاجتماعى ١٦٩
١١ ـ المفعول به واستعداده الجسمانى ١٦٩
١٢ ـ المفعول به واستعداده النفسانى ١٦٩
١٣ ـ المفعول به واستعداده العقلى ١٧٠
هـ ـ الفعل: (ماذا؟) ١٧٠
١ ـ من حيث حقيقته ١٧٠
٢ ـ من حيث نتيجته ١٧١
٣ ـ من حيث كيفيته ١٧١
و ـ المكان: (أين؟) ١٧٢
ز ـ الزمان: (متى؟) ١٧٣
الضمير المستقيم أو الصالح ١٧٥
الضمير الضال ١٧٦
الضمير بين ظلمة الشك ونور اليقين ١٨١
الضمير الضيق أو الموسوس ١٩٠
الضمير الواسع ١٩٨
الضمير بين الاحتمال واليقين ١٩٩
الوصايا العشر بين العهدين ٢٠٣
الوصايا العشر ٢١١
العهد الجديد متمم للعهد القديم ٢١٨
خطأ الفصل بين العهد القديم والعهد الجديد ٢٢٥
الربط بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكنيسة الأرثوذكسية ٢٢٥
١ ـ فى الصلوات ٢٢٦

٢ ـ فى الطقوس ٢٢٦
٣ ـ التتميم بمعنى مد المعنى إلى أبعاده كلها ٢٢٨
لا تقتل ٢٢٨
لا تزن ٢٣٠
لا تحنث ٢٣٣
الوصية الأولى: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك...» ٢٣٦
تأملات فى الوصية الأولى ٢٥٤
عقيدة التوحيد ٢٥٤
التوحيد والتثليث ٢٦٨
الناحية الروحية للوصية الأولى ٢٧٧
الله متكلنا الوحيد ٢٧٩
عدم اللجوء لغير الله بالصلاة والعبادة ٢٨٢
النذور ٢٨٣
موضوعات وإجابات على أسئلة ٢٨٩
١ ـ شريعة الله الأدبية ٢٩٠
٢ ـ سيناء الباطنية ٢٩٢
٣ ـ شريعة سيناء ٢٩٥
٤ ـ أنا هو الرب إلهك ٢٩٨
٥ ـ أنا هو الرب إلهك (٢) ٣٠١
٦ ـ الزنى الروحى ٣٠٤
٧ ـ الله اسمه يهوه ٣٠٦
٨ ـ الله هو بدء الوجود وليس له بداءة ٣١٠
٩ ـ من الذى قام بخلق العالم؟ ٣١٢
١٠ ـ هل لله وجود فى جهنم؟ ٣١٤
١١ ـ هل يندم الله؟ ٣١٥
١٢ ـ لماذا خلق الله الإنسان؟ هل خلقه للعذاب؟ ٣١٨
١٣ ـ فعل السحر ٣٢١
١٤ ـ ما هو أساس موضوع البسْلة؟ ٣٢٦

١٥ ـ قوانين الكنيسة تمنع منعاً باتاً اللجوء إلى السحرة ٣٢٨
١٦ ـ إن السحر يقوى على غير المحصنين بالصلوات والأسرار ٣٣٠
١٧ ـ لا تنزعج من فعل السحر ٣٣٢
١٨ ـ السحر يبطل بالصلوات المقدسة ٣٣٣
١٩ ـ أحذرك من استخدام كتاب «دلال الدلال» ٣٣٤
٢٠ ـ استعمال البخور فى المنازل ٣٣٦
٢١ ـ السبب فى متاعبك من معاكسات الأرواح الشريرة ٣٣٧
٢٢ ـ حرب من العالم السفلى ٣٣٨
٢٣ ـ نحذركم من الذهاب إلى السحرة ٣٣٩
٢٤ ـ حقيقة الشبح الأسود ٣٤٠
٢٥ ـ حقيقة ما يقال عن (المخاوين للشياطين) ٣٤١
٢٦ ـ صور أشخاص تطارده ٣٤٤
٢٧ ـ هذه المتاعب من معاكسات الأرواح الشريرة ٣٤٦
٢٨ ـ معاكسات الشيطان والانتصار عليها ٣٥٠
٢٩ ـ هل قراءة الكف علم؟ ٣٥٢
٣٠ ـ القسمة والنصيب ٣٥٥
٣١ ـ هل الزواج قسمة ونصيب؟ ٣٦٣
٣٢ ـ هل الرزق قسمة ونصيب أم شطارة؟ ٣٦٦
٣٣ ـ قبول الظلم لرجل الدين أفضل ٣٦٩
٣٤ ـ الرأى المسيحى فى طريقة ذبح الحيوانات ٣٧٠
٣٥ ـ حرية النفس البشرية ٣٧٢
الفهارس ٣٨٧
١ ـ فهرس النصوص المقتبسة من الكتاب المقدس ٣٨٧
٢ ـ فهرس الموضوعات ٣٩٥